



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ







# ضياء الفرقان فی تفسير القرآن مجلد ۸

لِـمُؤَلَّفِهِ سید محمد تقی النّقوی



سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمد تقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ ج.
شابک	: 978-964-8981-24-0 و 978-964-8981-52-0 ج.
وضعیت فهرست نویسی	: فیفا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century :
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ض ۹۸/ن ۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

## ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الثامن

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأولى

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

ليتوغرافي: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزيع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامية

جميع الحقوق محفوظة لمؤلف

شابک: ۰ - ۵۲ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧	..... الجزء العاشر
٩	..... سُورَةُ الْاِنْفَالِ
٨٧	..... سُورَةُ التَّوْبَةِ
٣٧١	..... الجزء الحادى عشر
٤٧٣	..... سُورَةُ يُونُسَ
٧٠٧	..... سُورَةُ هُودَ
٧١٧	..... الفهرست





**الجزء**

**العاشر**





وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ  
لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ  
وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا  
عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْيِ الْجَمْعَانِ وَ  
اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ  
الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ  
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ  
لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا (٤٢) لِيَهْلِكَ مَنْ  
هَلَكَ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتَةٍ وَإِنَّ  
اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي  
مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَ  
لَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٤) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ  
فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَىٰ  
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ  
(٤٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ  
اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦)

## ◀ اللغة

غَنِمْتُمْ، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و في الإصطلاح تطلق  
على ما أُخِذَ من الكفار مع القتال فأن كانت من غير قتال فهي في و اليه ذهبت



الإمامية و قال قوم الفئى والغنيمة واحد.

وَلِذِي الْقَرْيَةِ عَدَدْنَا هُمْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَ عِنْدَ الْعَامَّةِ هُمْ بَنُو هَاشِمٍ.

وَالْيَتَامَى، الْيَتِيمُ مِنْ مَاتَ أَبُوهُ وَ هُوَ صَغِيرٌ.

وَأَبْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمُتَقَطِّعُ بِهِ فِي سَفَرِهِ.

وَالْمَسَاكِينِ، الْمَكْسِينِ الْمَحْتَاجِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَسْكُنَهُ الْحَاجَةُ عَمَّا

يَنْهَضُ بِهِ الْغَنَى.

يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَّى الْجَمْعَانِ يَوْمَ بَدَرٍ.

بِالْعُدْوَةِ بَضَمَ الْعَيْنِ شَفِيرِ الْوَادِي وَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَ هُمَا نَعْتَانِ

سِوَاءٍ.

الْقُصُوصُ بَضَمَ الْقَافِ بِمَعْنَى الْأَقْصَى مِنْهَا إِلَى جِهَةِ مَكَّةَ.

وَالرَّكْبُ بَفَتْحِ الرَّاءِ وَ سَكُونِ الْكَافِ وَ الْبَاءِ جَمْعُ رَاكِبٍ.

لَفِشَلْتُمْ، الْفِشْلُ الضَّعْفُ عَنْ فَرْعٍ وَ خَوْفٍ.

فِتْنَةً بِكَسْرِ الْفَاءِ الْجَمَاعَةُ.

## الإعراب

مَا عَنَّمْتُمْ مَا بِمَعْنَى الَّذِي وَ الْعَائِدُ مَحْذُوفٌ مِنْ شَيْءٍ حَالٍ مِنَ الْعَائِدِ  
الْمَحْذُوفِ تَقْدِيرُهُ مَا غَنَمْتُوهُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا فَإِنَّ لِلَّهِ يَقْرَأُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ خُمُسَهُ  
الْخُمْسُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَ سَكُونِهَا لِعَتَانٍ قَدْ قَرَأَ بِهِمَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ظَرْفٌ لَأَنْزَلْنَا أَوْ  
لَأَمْتُمْ يَوْمَ التَّلَقَّى مَبْدَلٌ مِنْ يَوْمِ الْأَوَّلِ إِذْ أَنْتُمْ إِذْ بَدَلٌ مِنْ يَوْمٍ أَيْضًا وَ يَجُوزُ أَنْ  
يَكُونَ ظَرْفًا تَقْدِيرًا بِالْعُدْوَةِ (وَالْعُدْوَةُ) بِضَمِّ الْعَيْنِ وَ كَسْرِهَا لِعَتَانٍ وَ قَدْ قَرِئَ بِهِمَا  
الْقُصُوصُ بِضَمِّ الْقَافِ خَارِجَةً عَلَى الْأَصْلِ وَ أَصْلُهَا مِنَ الْوَاوِ وَ قِيَاسُ الْإِسْتِعْمَالِ  
أَنْ تَكُونَ الْقَصِيصَا لِأَنَّهُ صِفَةُ كَالدُّنْيَا وَ الْعُلْيَا، وَ فَعَلَى إِذَا كَانَتْ صِفَةً قَلْبَتِ وَاوْ هَا  
يَاءَ فَرْقًا بَيْنَ الْإِسْمِ وَ الصِّفَةِ وَ الرَّكْبُ جَمْعُ رَاكِبٍ فِي الْمَعْنَى وَ لَيْسَ بِجَمْعٍ فِي  
اللَّفْظِ وَ لِذَلِكَ تَقُولُ فِي التَّصْغِيرِ رَكْبٌ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ظَرْفٌ أَيْ وَ الرِّكْبُ فِي

بَابُ الْفُرْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠

المجلد الثاني

مكان أسفل منكم أي أشدّ تنقلاً والجملة حال من الطرف الذي قبله و يجوز أن تكون في موضع جرّ عطفاً على أنتم أي و اذ الركب أسفل منكم ليهلك يجوز أن يكون بدلاً من ليقضي بإعادة الحرف و أن يكون متعلقاً بيقضي أو بمفعولاً فتفشلوا في موضع نصب على جواب النهي.

### التفسير

وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قُلْنَا فِي شرح اللغات أن الغنيمة تطلق على ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بسبب القتال و هي هبة من الله تعالى للمسلمين و الفئ ما أخذ بغير قتال و هو قول الشافعي و سفيان الثوري و عطا و غيرهم و هو المروى في أخبارنا و قال قوم الفئ و الغنيمة واحدة و قالوا أن هذه الآية ناسخة للتي في الحشر: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِدَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ<sup>(١)</sup> لأنه بين في هذه الآية أن الأربعة أحماس للمقاتلة و على القول الأول لا يحتاج الى هذا و عند أصحابنا الفئ للإمام خاصة قاله الشيخ في التبيان و قال بعض المحققين الغنيمة هي ما أخذ من دار الحرب بقتال و يرشد اليه السياق و بذلك يفرق بينهما و بين الأنفال و هو قول أكثر المفسرين و به قال كثير من الأصحاب و جعلوا ثبوت الخمس فيما عدا ذلك من الأنواع السبعة بدليل خارج.

و قال المفيد في المقنعة الغنائم كل ما أستفيد بالحرب من الأموال و ما أستيد من المعادن و الغوص و الكنوز و العنبر و كلما فضل من أرباب التجارات و الزراعات و الصناعات من المؤنة و الكفاية طول السنة على الإقتصاد و نحوه قال الشهيد في البيان و الطبرسي في مجمع البيان بل أدعى أن في عرف اللغة

يطلق إسم الغُنى والغنيمة على جميع ذلك و يرشد اليه صحيحة ابن سنان قال سمعت أبا عبد الله يقول ليس الخمس إلا في الغنائم خاصة و على ذلك حملة الشيخ في الإستبصار.

و قال الطبري في تفسيره لهذه الآية و اختلفوا أهل العلم في معنى الغنيمة و الفئ فقال بعضهم فيهما معنيان كل واحد منهما غير صاحبه و قال آخرون الغنيمة و الفئ بمعنى واحد.

و قال القرطبي في تفسيره لها و أعلم أنَّ الإتفاق حاصل على أنَّ المراد بقوله تعالى: **غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ** مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه القهر والغلبة و لا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيناه و لكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع و سمي الشرع الواصل اليها من الكفار من الأموال بإسمين، غنيمةً، وفئاً، فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي و ايجاف الخيل و الركاب يسمى غنيمة و لزم هذا الإسم هذا المعنى حتى صار عرفاً و الفئ مأخوذ من فاءٍ فئى إذا رجع و هو كل ما دخل على المسلمين من غير حربٍ و لا ايجاف كخراج الأرضين و جزية الجاجم و خمس الغنائم، و قيل أنهما واحد و فيهما الخمس قاله قتادة إنتهى كلامه.

**أقول الحق** أنَّ الغنيمة تطلق على جميع ذلك كما نقلناه عن المفيد تختص بما أخذ من دار الحرب بقتالٍ و لعله الظاهر، قال في المجمع، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و اصطلاح جماعة على أنَّ ما أخذ من الكفار مع القتال.

و قال في المنجد، غنم غنماً الشيء، فاز به و ناله بلا بدل، و الغنيمة ما يؤخذ من المحاربين عنوةً، المكسب عموماً.

و عن كنز العرفان، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و اصطلاح جماعة على أنها تطلق على ما أخذ من الكفار بقتالٍ.

بَابُ فِي الْقِتَالِ



و عن زبدة البيان، الغنيمة في اللّغة بل العرف الفائدة، و أمّا العامّة فقد أطلقوا الغنيمة على ما أخذ من الكفّار بقتالٍ إذا عرفت معنى الغنيمة.

فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِأَيِّتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

معناه أن ما غنمتم من شيءٍ حتّى الخيط و المخيّط فإنّ لله خمسهُ و للرّسول أي يجب عليكم في الخمس.

ثمّ إنّ البحث حول الآية يقع في جهات:

**الأولى:** في بيان ما يجب فيه الخمس.

**الثانية:** في بيان المستحق.

**الثالثة:** في بيان كمّيّة القسمة.

**الرابعة:** في بيان كيفيّة القسمة.

أمّا الجهة الأولى: فنقول الذي يجب فيه الخمس أقسام:

**الأول:** الغنائم المأخوذة في دار الحرب و هو مجمع عليه و في حكمه غنيمة مال البغاة التي حواها العسكر كما قاله جماعة من الأصحاب.

**الثاني:** المعادن سواء كانت منطبعة كالذهب أو غير منطبعة كالياقوت أو مائعة كالقير.

**الثالث:** الكنوز و هو كلّ مالٍ مذخور تحت الأرض و يدلّ على ذلك الإجماع و النصوص.

**الرابع:** ما يخرج بالغوص و يدلّ عليه أيضاً الإجماع و النصوص.

**الخامس:** الأرباح الفاضلة عن مؤنة السنّة و وجوب الخمس فيه هو المشهور بين الأصحاب بل نقل عيه الإجماع و تواتر الأخبار.

**السادس:** أرض الذمي إذا اشتراها من مسلم ذكره الشّيخ و الأكثر.

**السابع:** الحرام المختلط بالحلال و لجميع هذه الأقسام تفاصيل و أحكام مذكورة في الكتب الفقهيّة لا نطيل الكلام بذكرها لخروجها عن موضوع الكتاب.

**الثانية:** في بيان المستحقّ و الأظهر أنّهم أولاد عبد المطلب خاصّة ذكوراً و أنثاً ويدلّ عليه ما رواه حمّاد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي الحسن أنّه عليه السلام قال: و هؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النبي و هم بنو عبد المطلب أنفسهم للذكر و الأنثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش و لا من العرب أحد و هو الظاهر من الروايات.

**الثالثة:** في بيان كميّة القسمة و قد اختلف فيه علماءنا و غيرهم. و الأشهر أنّه يقسم ستّة أقسام، ثلاثة للإمام و هي سهم الرّسول و سهم ذي القربى و ثلاثة للباقيين و هم اليتامى و المساكين و ابن السبيل كما تضمّنّت الآية و الأخبار به أيضاً كثيرة.

منها، مؤثقة عبد الله بن بكير عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام في قوله عليه السلام و عليه السلام و عليه السلام أنّما غنمتم قال عليه السلام: خمس الله للإمام و خمس الرّسول للإمام و خمس ذوي القربى لقرابة الرّسول الإمام و اليتامى يتامى الرّسول و المساكين منهم و أبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم الى غيرهم انتهى و منها، ما رواه الشيخ بأسناده الى أن قال: فأما الخمس فيقسم على ستّة أسهم:

سهم لله، و سهم للرّسول، و سهم لذي القربى، و سهم لليتامى، و سهم للمساكين، و سهم لأبناء السبيل.

فالذي لله فلرسول الله فرسول الله أحقّ به فهو له و الذي للرّسول فهو لذي



القربى و الحجة في زمانه فالنصف له خاصة والنصف لليتامى و المساكين و ابن السبيل هذا هو المشهور عندنا في كمية القسمة. و قد حكى العلامة و المحقق عن بعض الفقهاء قولاً بأنه يقسم خمسة أقسام:

سهم لرسول الله و سهم لذي القربى و الثلاثة الباقية لليتامى و المساكين و ابن السبيل و الى هذا القول ذهب أكثر العامة قالوا و معنى لله خمسة و للرسول أن للرسول خمسة كقوله تعالى:

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ<sup>(١)</sup> و المراد رسوله و الافتتاح بذكر اسم الله على جهة التبرك و التيمن لأن الأشياء كلها لله و أن من حق الخمس أن يكون متقرباً الى الله لا غير و أن قوله: لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى الخ بيان لأن مصرفه هؤلاء فيكون من قبيل التخصيص بعد التعميم تفصيلاً لهذه الوجوه على غيرها كقوله تعالى: وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ<sup>(٢)</sup> هذا و المشهور ما ذكرناه أولاً.

و قال بعض العامة أنه يقسم على أربعة أسهم:

سهم ذوي القربى لقربة النبي و الأسهم الثلاثة لمن ذكر بعد ذلك من سائر المسلمين و هو مذهب الشافعي.

و قيل أنه يقسم على ثلاثة أسهم لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته عندهم لأن الأنبياء على زعمهم لا تورث و سهم ذوي القربى أيضاً قد سقط لأن أبا بكر و عمر لم يعطياه و لم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما و هو مذهب أبي حنيفة و أهل العراق.

و منهم: من قال لو أعطى فقراء ذوي القربى سهماً و الآخرون ثلاثة أسهم

جاز، ولو جعل ذا القربى أسوة الفقراء ولا يفرد له سهم جاز، وهذه الأقاويل كلها باطلة عندنا وعند جميع العقلاء.

**الرابعة:** في بيان كيفية القسمة والمشهور بين الأصحاب أن للإمام النصف سهم الله وسهم رسوله بالوراثة وسهم ذي القربى بالأصالة والثلاثة الباقية لمن سمّه الله عزّ وجلّ بل نقل الشيخ على ذلك إجماع الفرقة وإستدلّ المحقّق رحمته في المعتبر على إختصاص ذي القربى بالإمام بأنّ قوله: **وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** لفظ مفرد فلا يتناول أكثر من واحد فيصرف الى الإمام لأنّ القول بأنّ المراد واحد غير الإمام باطل بالإجماع.

لا يقال يمكن إرادة الجنس كإبن السبيل، لأنّا نقول تنزيل اللفظ الموضوع للواحد على الجنس مجاز يحتاج في حمل اللفظ عليه الى الصّارف عن إرادة الحقيقة ولا مانع هنا من الحمل على الحقيقة وليس كذلك قوله وإبن السبيل لأنّ في إرادة الواحد هنا إخلالاً بمعنى اللفظ اذ ليس هناك واحد يمكن حمل اللفظ عليه انتهى.

و أورد عليه بأنّ إرادة الواحد من ذي القربى غير ظاهرة بل الظاهر إرادة الجنس كما في قوله: **وَإِذَا كَانَ مِنَ الْقُرْبَىٰ** <sup>(١)</sup> وقوله: **وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ** <sup>(٢)</sup> ونحو ذلك من الآيات والحق أنّ هذا اللفظ بالنظر الى وضعه يكون ظاهراً في الوحدة وبالنظر الى كثرة الإستعمال يكون ظاهراً في إرادة الجنس فالإعتداد في هذا المقام على البيان من معدن التّنزيل وقد فسّروه بما مرّ بيانه.

وفي المقام فوائد يجب التنبه عليها:

**الأولى:** يعتبر في الطوائف الثلاث أعني اليتامى والمساكين وإبن السبيل إنتسابهم الى عبد المطّلب جدّ النبي صلّى الله عليه وآله وهو المشهور بين الأصحاب وعن الكافي عن سليم بن قيس قال سمعت أمير المؤمنين يقول

في  
قوله  
وَأَتِذَا  
الْقُرْبَىٰ  
حَقُّهُ

جزء ١٠  
عبد المطّلب

نحن والله الذي عني بذى القُربى الذين قرّنههم الله بنفسه و نبيّه  
فقال: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي  
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ <sup>(١)</sup> مِمَّا خَاصَّةٌ وَلَمْ يَجْعَلْ لَنَا سَهْمًا فِي  
الْصَّدَقَةِ أَكْرَمَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ وَ أَكْرَمَنَا أَنْ يَطْعَمَنَا أَوْ سَاخَ النَّاسُ (ما في  
أيدي الناس) انتهى.

**الثانية:** يعتبر في الإنتساب الى عبد المطلب أن يكون بالأب فلا يعطى من  
أنتسب بالأم خاصة و بذلك قال أكثر الأصحاب و فيه بحث في موضعه.  
**الثالثة:** لا يجب إستيعاب كل طائفة بل لو إقتصرت من كل طائفة على واحد  
جاز و هذا هو المعروف من مذهب الأصحاب و ذلك لأنّ اللّام للجنس كما في  
آية الزكاة.

**الرابعة:** الظاهر أنّ الآية مسوقة لبيان المصرف فيجوز تخصيص النصف  
الذي لغير الإمام بطائفة من الطوائف الثلاثة و أمّا إختصاص النصف الآخر  
بالإمام فللنص عليه و هذا هو المشهور بين المتأخرين.  
و قيل يجب البسط على الثلاثة بناءً على أنّ اللّام للملك أو الإختصاص و  
العطف بالواو يقتضي التشريك في الحكم و فيه نظر.

**الخامسة:** اليتيم هو الطفل الذي لا أب له و ظاهر إطلاق الآية و الروايات  
أنّه لا يعتبر فيه الفقر و إلّا لدخل في المساكين و لأنّ ما قبله لا يعتبر فيه ذلك  
فذكره في سياق ذلك بدون إعتبار وصف آخر يشعر بذلك.

**السادسة:** ظاهر إطلاق الآية و الروايات أنّه لا يشترط العدالة في المستحق  
و لم نعثر على ما يكون مقيداً لذلك و هذا هو المشهور بين الأصحاب و ربّما  
قيل بالإشتراط و هو مع جهالة قائله ضعيف نعم يشترط فيها الإيمان.

إِنْ كُنْتُمْ أَمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَتَقَى  
الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

جواب الشرط هو ما تقدّم أو مقدّر من جنسه أي فأعلموا أنّ الخس لهؤلاء  
و أعملوا بذلك لأنّه المقصود و في تصدير الكلام بالعلم و تكرار التأكيد، بأنّ، و  
تقييد ذلك بالإيمان باللّه مبالغة في التأكيد و ما أنزله هو جبرئيل و الملائكة و  
يوم الفرقان هو يوم بدر لأنّ اللّه فرّق فيه بين الحقّ و الباطل و نصر فيه جميع  
المسلمين مع قاتلهم و كثرة المشركين لأنّ المسلمين كانوا ثلاث مائة و ثلاثة  
عشر رجلاً و كان معهم فرس واحدة و كان المشركون تسع مائة الى ألف و كان  
معهما مائتا فرس أو أربع مائة.

و روي في الخصال عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال:  
الغسل في سبعة عشر موطناً ليلة سبعة عشر من رمضان و هي  
ليلة يلتقي الجمعان ليلة بدر.

و في تفسير العياشي عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام  
قال: في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان قلت ما معنى  
قوله: يلتقي الجمعان قال عليه السلام يجمع فيها ما يُريد من تقديمه و  
تأخيرهِ وإرادته وقضاءه.

و نقل أنّه كان يوم الجمعة بسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان من ستنة  
أثنتين مضت من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهراً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ فلا تتعجبوا من نصره المسلمين على الكفار مع قلّة عدد المسلمين و كثرة  
عدد الكفار فإنّ ذلك في جنب قدرة الله حقير فهذا تفسير الآية على ما ذهب اليه  
الإماميّة في معنى الخمس و تقسيمه الى آخر ما ذكرناه و لا بأس بالإشارة الى  
بعض ما ورد في الباب من طريق أهل البيت تميماً للكلام و توضيحاً للمرام.  
فعن التهذيب بأسناده عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس عن

بَابُ  
فِي  
الْفُرْقَانِ  
وَالْجَمْعَانِ

جزء ١٠

بَابُ  
فِي  
الْفُرْقَانِ  
وَالْجَمْعَانِ

أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول كلاماً كثيراً ثم قال وأعظم من ذلك كله سهم ذي القربى الذين قال الله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ أُمَّتُمْ بِاللَّهِ قَالَ عليه السلام: نحن والله عني بذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل منّا خاصّة ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً أكرم الله نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا أو ساخ أيدي الناس انتهى.

وعن الكافي بأسناده عن أبي عبد الله في قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى قال أمير المؤمنين والأئمة انتهى.

وعنه بأسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجل: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى قال عليه السلام هم قرابة رسول الله والخمس للرّسول ولنا إنتهى.

وعنه بأسناده عن الرضا عليه السلام قال سأل عن قول الله: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى فقيل له عليه السلام فما كان لله فلمن هو، فقال عليه السلام لرسول الله وما كان لرسول الله ﷺ فهو للإمام عليه السلام فقيل له أرايت أن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ما يصنع به قال عليه السلام ذلك الى الإمام أرايت رسول الله كيف يصنع أليس أنما كان يُعطي على ما يرى كذلك الإمام إنتهى.

وعن الثعلبي في تفسيره لهذه الآية عن المنهال بن عمر وقال سألت زين العابدين عليه السلام عن الخمس قال عليه السلام: هو لنا فقلت أن الله تعالى يقول واليتامى والمساكين قال عليه السلام أيتامنا ومساكيننا إنتهى. وعن غوالي اللثائي عن علي عليه السلام أنه قيل له واليتامى والمساكين فقال عليه السلام: أيتامنا ومساكيننا إنتهى.

و عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله قال سمعته يقول أن نجدة الحاروري كتب الى ابن عباس يسأله عن موضع الخمس لمن هو فكتب اليه أما الخمس فأنا نزعم أنه لنا، و يزعم قومنا أنه ليس لنا فصبرنا إنتهى.

و عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال سألته عن قول الله وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالَ الخمس لله و للرسول و هو لنا إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة جداً<sup>(١)</sup>.

أقول هذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أن الخمس مختص بالرسول الله ﷺ و ليس لأحد من المسلمين فيه سهم و لا نصيب و مع ذلك فقد أصّر المخالف على مخالفته و منعه عن أهله و ليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام.

فإن القوم بعد غضبهم الخلافة غضبوا جميع حقوق أهل البيت و ليس هذا من الظالمين ببعيد و حيث إنجر البحث الى هنا فلا بد لنا من الإشارة الى ما ذهب اليه القوم في معنى الآية لتعلم صدق ما إدعيناه.

قال القرطبي و هو من أعظم أهل السنة في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه: العاشرة: و اختلف العلماء في كيفية قسم الخمس على أقوال ستة: الأول: قالت طائفة يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة الذي لله.

الثاني: لرسول الله.

الثالث: لذوي القربى.

الرابع: لليتامى.

الخامس: للمساكين.

في القرآن في تفسير القرآن



السادس: لإبن السبيل.

وقال بعض أصحاب هذا القول يردّ السهم الذي لله على ذوي الحاجة.  
**الثاني:** قال أبو العالية و الزبيع تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد و تقسم الأربعة على الناس ثم يضرب بسهمه الذي عزله فما قبضوا عليه من شيء جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة سهم للنبى و سهم لذي القربى و سهم لليتامى و سهم للمساكين و سهم لإبن السبيل.

**الثالث:** قال المنهال بن عمرو سألت عبد الله محمد بن علي و علي بن الحسين عن الخمس فقال هو لنا قلت لعلي أن الله يقول و أَلْيَتَامَى و أَلْمَسَاكِينَ و أَيْنِ السَّبِيلِ فقال أيتامنا و مساكينا.

**الرابع:** قال الشافعي يقسم على خمسة و رأى أن سهم الله و رسوله واحد و أنه يصرف في مصالح المؤمنين و الأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

**الخامس:** قال أبو حنيفة يقسم على ثلاثة، اليتامى و المساكين و إبن السبيل و يرتفع عنده حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما يرتفع حكم سهمه قالوا و يبدأ من الخمس بإصلاح القناطر و بناء المساجد و أرزاق القضاة و الجند و روي نحو هذا عن الشافعي أيضاً.

**السادس:** قال مالك هو موكول الى نظر الإمام و إجهاده فيأخذ منه من غير تقدير و يُعطي منه القرابة بإجهاده و يصرف الباقي في مصارف المسلمين و به قال الخلفاء الأربعة و به عملوا و عليه يدل قوله ﷺ مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس و الخمس مردود اليكم فإنه لم يقسمه أخماساً و لا أثلاثاً و أنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع اليه.  
قال الزجاج محتجاً لمالك قال الله عز وجل: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا



أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ <sup>(١)</sup> و  
لِلرَّجُلِ جَائِزٌ بِاجْتِمَاعِ أَنْ يُتَّفَقَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ إِذَا رَأَى ذَلِكَ.

و ذكر النسائي عن عطاء قال خمس الله و خمس الرسول واحد كان رسول  
الله ﷺ يحمل منه و يعطي منه ويضعه حيث شاء و يصنع به ما شاء فهذه  
هي الأقوال الستة التي ذكرها القرطبي في تفسيره و نحن لا نتعجب ممَّا ذكره و  
نقله عن القوم و ذلك لأنَّ كلام الله تعالى إذا فسر بالرأي فيقول كلُّ أحدٍ فيه بما  
شاء و حيث أنَّ القوم لم يتمسكوا بالعتره في تفسير القرآن تبعاً لإمامهم عمر بن  
الخطاب حيث قال حسبنا كتاب الله فلا محالة يصير القرآن غريباً و هذا داءٌ لا  
دواء له فعلاً لأنَّهم أعرضوا عن أهل البيت الذين جعلهم الرسول عدلاً للكتاب  
حيث قال: أنِّي تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي الحديث و لما كان  
الأمر على هذا المنوال فما تُريد منهم في تفسير القرآن و من المعلوم أنَّ  
تفسيره عند من خوطب به و أهل البيت أدري بما في البيت و عليه فلا نحتاج  
إلى ردِّ ما قاله أبو حنيفة و مالك و الشافعي و من حذى حذوهم و المفروض  
أنَّ أقوالهم ليست إلا من سنخ المخيلات و الوسوس النفسانية و الالتعاعات  
الشيطانية ألا ترى أنَّ الله يقول: وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ وَ يَصْرَحُ بأنَّ الغنيمه لله  
و لرسوله و لذي القربى الخ.

و مالك إمام القرطبي يقول هو موكول إلى نظر الإمام و إجهاده يصرفها  
كيف يشاء الخ.

و أبو حنيفة يقول يبدأ بإصلاح القناطر الخ.  
و الآخر يقول سهم للكعبة الخ.

و هكذا و هكذا فما نقول في جوابهم إلا أن نقول قال رسول الله من فسرَّ  
القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار و محصل الكلام في المقام هو أنَّ الآية

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

الشَّريفة نزلت لوجوب الخمس و هو مختصّ بمحمّد ﷺ و آله الطّاهر نصيب لأحدٍ من أحاد الأُمّة فيه و هذا ممّا لا كلام فيه ثمّ أتى بعد ما ذكرت كلام القرطبي و قفت على ما ذكره الرّازي في تفسيره فرأيت أنّه زاد في الطَّنْبور شيئاً آخر و هو أنّه بعد نقله كلام أبي حنيفة و الشّافعي و غيرهما قال و أعلم أنّ ظاهر الآية مطابق لقول الشّافعي و صريح فيه فلا يجوز العدول عنه إلّا لدليل منفصل أقوى منها و كيف و قد قال في آخر الآية **إِنْ كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللّهِ** يعني أن كنتم أمتم بالله فأحكموا بهذه القسمة و هو يدلّ على أنّه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة لم يحصل الإيمان بالله انتهى كلامه.

**أقول** و لا بدّ لنا من نقل كلام الشّافعي على ما نقله الرّازي و ذلك لأختلاف النّقل.

أمّا نقل القرطبي عنه فقد ذكرناه.

و أمّا الرّازي فقال عند الشّافعي يقسم الخمس على خمسة أسهم سهم لرسول الله يصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع و السّلاح و سهم لذوي القربى من أغنياءهم و فقراءهم يقسم بينهم للذكر مثل حظّ الأنثيين و الباقي للفرق الثلاثة و هم اليتامى و المساكين و إبن السّبيل انتهى.

و الشّيئي الذي قلنا أنّه زاده هو قوله يقسم للذكر مثل حظّ الأنثيين، فإنّ هذا الكلام لم ينقله القرطبي في نقله و قد ذكره الرّازي و هو أدرى بما في البيت لأنّه شافعي المذهب.

و أمّا القرطبي فهو حنبليّ و قيل أنّه مالكي و كيف كان فكل مأموم هو أعرف بمسلك إمامه و كلامه.

و أنما قلنا ذلك لأنّه لم يذكره أحدٌ غير الشّافعي فإنّه تخيل أنّ هذا من قبيل الأثر الذي قال الله فيه **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** ولم يعلم أنّه ليس منه بل هو

حقّ لهم في الغنائم مثل الزّكوة للفقراء ولا يبعد منه أن يقول بهذه المقالة في الزّكوة بل وجميع الصدقات أيضاً فأنظروا يا أهل الإنصاف كيف أدخلوا آرائهم وأوهامهم التي أوحاها الشياطين اليهم في الدين وجعلوها من الأحكام الشرعية الصادرة عن صاحب الشريعة وأعجب منه متابعة الرّازي في دينه عنه ونقله كلامه وإدعائه أنّ ظاهر الآية مطابق لقوله بل صريح فيه ولا يجوز العدول عنه إلّا لدليل منفصل وأوهن بل أضحك منه إستدلاله بآخر الآية وهو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ أَلْخَ** وحكمه بأنّ هذه القسمة لو لم تحصل لم يحصل الإيمان وليت شعري كيف يكون ظاهر الآية مطابقاً لقول الشافعي بل صريح فيه والآية صريحة في أنّ الأقسام والأسهام ستّة.

والشافعي يقول، أنّها خمسة وأدعى حذف سهم الله أو إدغامه في سهم الرّسول وأي دليل دلّ على صحّة ما إدعاه الشافعي مع أنّه خلاف ظاهر الآية و صريحها، وأما إستدلال الرّازي على مدّعاه بآخر الآية وهو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ أَلْخَ** فهو ممّا تضحك به الثّكلى وذلك لأنّ قوله تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ شَرَطٌ** و جزائه مقدّم عليه أو مقدّر فعلى الأوّل معنى الكلام إن كنتم آمنتم بالله فأعلموا إنّما غنمتم من شيء ألخ.

**وعلى الثّاني: إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ** فأعملوا بهذا الحكم مثلاً وأما أنّه يثبت قول الشافعي فلا نفهم معناه وأظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال بل هو من زلّات كلامه أعاذنا الله منه ولنختم الكلام في تفسير الآية في المقام ونقول:

لا أضحك الله سنّ الدهر أن ضحكت وآل أحمد مظلومون قد قهروا

**إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوى وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**  
العدوة بضّم العين وكسرهما شفير الوادي، والدنيا، بمعنى الأدنى الى المدينة والقصوى بمعنى الأقصى منها الى جهة مكة وأصل الدنيا الدنوّ بالواو بدلالة قولهم ودنوت الى الشيء قلبت الواو ياء ولم تقلب مثل ذلك في القصوى

فلا يقال قصياً مثلاً، وذلك لأنّ الدُّنيا عومل معها معاملة الإِسْم في قولهم الدُّنيا والأخْرة وأن كان أصلها صفة فحَقِّقَتْ لأنّ الإِسْم أَحَقُّ بالتَّخْفِيف وهذا بخلاف القصوى فأتَتْها بقيت على كونها صفة، والمعنى وأذكروا إذ أنتم بالعدوة الدُّنيا أيها المؤمنون أي كنتم على شفير الوادي الَّذي كان أدنى وأقرب الى المدينة وهم يعني هؤلاء الكفَّار كانوا بالعدوة القصوى أي كانوا في جهة الأقصى أي الأبعد الى مكّة، والرَّكْب، يعني أبا سفيان وأصحابه كانوا في موضع أسفل منكم الى ساحل البحر وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خُفَلْتُمْ فِي الْمِيعَادِ المواعدة وعد كل واحدٍ من الاثنين الآخر.

و الإختلاف مذهب كل واحدٍ من الشَّيْثَيْنِ في نقيض الآخر ومنه الإختلاف في الميعاد لذهاب كل واحدٍ من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التَّقدُّم والتَّأخُّر والزَّيَاة والنَّقْصَان عَمَّا إنعقد به الميعاد وقيل إختلافهم في الميعاد بمعنى، لو تواعدتم، أيها المؤمنون على الإِجْتِمَاع في الموضع الَّذي إجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عدكم مع قلة عددكم لتأخّرتم فنقضتم الميعاد وجه آخر، لَوْ تَوَاعَدْتُمْ من غير لطف الله لكم لأخلفتم بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتأكيد أمره في الإِتِّفَاق ولولا لطف الله مع ذلك لوقع على الإختلاف.

جرت الزَّيَاح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعادٍ ذكر هذه الوجوه في التَّبيان وقيل معناه لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أنتم وأهل مكّة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلّتكم وكثرتهم.

وقال صاحب الكشّاف معنى الكلام و لو تواعدتم أنتم أهل مكّة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً فشطكم قلّتكم وكثرتهم على الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له و

لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَقْضِيَ مَتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ لِيَقْضِيَ أَمْرًا  
 كَانَ وَاجِبًا أَنْ يَفْعَلَ وَهُوَ نَصْرُ أَوْلِيَائِهِ وَقَهْرُ أَعْدَائِهِ دَبَرَ ذَلِكَ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ  
 عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَخْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ قِيلَ لِيَهْلِكَ بَدَلُ  
 مِنْهُ وَأُسْتَعِيرَ الْهَلَاكُ وَالْحَيَاةُ لِلْكَفَرِ وَالْإِسْلَامُ أَيْ لِيَصْدَرَ كَفَرٌ مِنْ كَفَرٍ عَنْ  
 وَضُوحِ بَيِّنَةٍ لَا عَنْ مَخَالَجَةٍ شَبَّهَ حَتَّى لَا تَبْقَى لَهُ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ وَهَكَذَا يَصْدُرُ  
 إِسْلَامٌ مِنْ أَسْلَمَ عَنْ يَقِينٍ وَعِلْمٌ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينَ الْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي الدَّخُولُ  
 فِيهِ وَالتَّمَسُّكُ بِهِ وَالبَيِّنَةُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ وَالبِرْهَانُ وَالمَقْصُودُ مِنْهَا فِي الْمَقَامِ هُوَ  
 الْمَعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ الَّتِي وَقَعَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي حُرُوبِهِ وَغَيْرِهَا وَلَا سِيَّما  
 غَزْوَةُ بَدْرَ الَّتِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِيهَا، مِنْ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَ  
 غَلَبَتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَثْرَةِ الْكُفَّارِ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
 لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَخْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ إِنْشَاءً إِلَى أَصْلَيْنِ:  
 أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَكْلَفَ مَخْتَارٌ فِي إِنْتِخَابِهِ غَيْرُ مُجْبُورٍ فِيهِ خِلَافًا خِلَافًا  
 لِلْأَشَاعِرَةِ فَأَنْتَهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرُ مُخْتَارٍ فِي الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ بَلْ هُمَا  
 مَقْدَرَتَانِ لَهُ مِنَ الْأَزْلِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَمَا عِلْمُ اللَّهِ كَانَ لَا مُحَالَةَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ  
 الْعِلْمَ الْأَزْلِي لَا يَكُونُ عِلَّةً لِلْفِعْلِ خَارِجًا، وَأَنْمَا قُلْنَا أَنَّ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِخْتِيَارِ  
 لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى عَنْ بَيِّنَةٍ فِي الْمَقَامَيْنِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ إِذْ لَوْ كَانَ مُجْبُورًا فِي إِنْتِخَابِ  
 أَحَدِهِمَا فَلَا مَعْنَى لِإِسْتِنَادِ الْحَيَاةِ وَالْكَفَرِ إِلَى الْبَيِّنَةِ بَلْ حَقُّ الْعِبَارَةِ أَنْ يُقَالَ  
 لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ وَيَخْيَى مَنْ حَيَّ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ  
 بَيِّنَةٍ وَهَكَذَا فِي الْحَيَاةِ وَتَقْرِيبِ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ أَنَّ الْهَلَاكَ وَالْحَيَاةَ لَيْسَا بِقَضَاءٍ  
 وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ مِنْ دُونِ إِرَادَةِ الْعَبْدِ وَإِخْتِيَارِهِ بَلْ هُمَا يَحْصِلَانِ لَهُ بِإِقَامَةِ الْحُجَجِ  
 وَالبِرَاهِينِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَعْدَ وَضُوحِ الْبَيِّنَةِ فَمَنْ إِيخْتَارَ الْكَفَرَ فَلَا  
 يَلُومُنْ إِلَّا نَفْسَهُ وَمَنْ إِيخْتَارَ الْحَقَّ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ إِنْتِخَابِهِ وَمَنْ يَشْكُرُ فَأَنْمَا يَشْكُرُ  
 لِنَفْسِهِ وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْأَصْلُ الثَّانِي وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُوَاخِذَ الْعَبْدَ عَلَى

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٠  
المجلد الثاني

فعله و قوله إلا بعد إتمام الحجة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ<sup>(١)</sup> وهذا هو مقتضى العدل إذ المؤاخذه والعقاب قبل الحجة من قبيل العقاب بلا بيان و هو قبيح عقلاً و شرعاً قال الله تعالى: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا<sup>(٢)</sup> ألا ترى أنَّ الله تعالى لم يؤاخذ قوماً على أعمالهم في دار الدنيا إلا بعد إقامة الحجة بإرساله الرسل و إنزاله الكتب و ظهور المعجزات على أيدي الأنبياء في كل عصر و زمان، فقد أهلك فرعون و قومه بعد ظهور المعجزات على يد موسى عليه السلام و إنكار فرعون و عناده و هكذا سائر الأمم فهذا أصل أصيل في نظام التشريع و التكوين.

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ<sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا<sup>(٤)</sup>.

و الأيات كثيرة والعقل أيضاً يحكم به حكماً جازماً لا مرية فيه.

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ  
والتقدير أذكر يا محمد و الضمير في قوله: يُرِيكُهُمُ اللَّهُ أعني به، هم، و في قوله: أَرَايَكُهُمْ راجع الى الكفار.

قال المفسرون الخطاب للرسول ﷺ و تظاهرت الروايات على أنَّ الرسول أراه الله في منامه، الكفار قليلاً فلما إنتهى من النوم أخبر أصحابه بما رآه في النوم من قلة عدد الكفار فقويت نفوسهم و شجعت على أعداءهم.  
و قال ﷺ لأصحابه إيشروا لقد نظرت الى مصارع القوم، قيل المراد

بالقلّة هنا قلّة القدر واليأس والنّجدة وأنّهم مهزومون معروفون لا قلّة العدد لأنّ ﷺ رؤياه حقّ وقد علم أنّهم ما بين تسع مائة ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلّة العدد.

وقال الحسن معنى في منامك، في عينك التي تنام بها لأنّها مكان النّوم كما قيل للقطيفة المّنامة لأنّه ينام فيها فتكون الرّؤية في اليقظة وعلى هذا فسره النقاش وذكره عن المازني انتهى.

قال صاحب الكشّاف وهذا تفسير فيه تعسّف وما أحسب الرّواية عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته.

وقد فسّر الكلام الرّمخسري وقال أنّ الله عزّ وجلّ أراه أيّاهم في رؤياه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوّهم انتهى.

**أقول** قال بعض المحقّقين الرّؤيا على أربعة أقسام:

رؤيا من الله عزّ وجلّ ولها تأويل.

ورؤيا من وسوسة الشّيطان.

ورؤيا من غلبة الإفراط.

ورؤيا من الأفطار وكلّها أضغاث أحلام إلّا الرّؤيا من قبل الله تعالى التي هي الإلهام في المنام يتصوّر به الشّي كأنّه يرى في اليقظة.

ورؤيا النّبي ﷺ من هذا القبيل فهي بشارة له وللمؤمنين بالنّصر والغلبة وقد وقع انتهى.

وحيث أنّ الله تعالى قد أراه في المنام قليلاً وبذلك قويت نفوس المؤمنين قال: **وَلَوْ أَرَيْكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَكَلْتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ** ووجهه

ظاهر فإنّ كثرة العدوّ توجب الخوف وهو يوجب الفشل والضعف فإنّ الخائف ضعيف قهراً وإذا وجد الفشل والضعف في قوم يتحقّق الاختلاف و

النزاع بينهم في المحاربة وعدمها فبعضهم يقول نحارب والأكثر لا يقول به و

في التّفسير  
القرطبي



الجزء  
العاشر

إذا وجد الاختلاف فلا نصر ولا غلبة هناك فَأَنَّ الاختلاف أساس الذلّة و  
المقهورية يمكن معه الغلبة على العدو أصلاً.

قال الله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ  
مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ**<sup>(١)</sup>.

و أما قوله: **وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** فالسلامة النجاة  
من الآفة و أسلم الإنسان إذا دخل في السلامة من جهة الدين قيل في هذا  
الكلام إشارة الى أنه تعالى سلم من الفشل و التنازع و الاختلاف و قيل معناه  
سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم و إحسانه حتى بلغوا ما أرادوه من عدوهم و  
قيل و لكنّ الله سلمكم من المخالفة فيما بينكم أو سلمهم من الهزيمة يوم بدر  
و أظهر أنّ المراد و لكنّ الله سلمكم من التنازع و الاختلاف فيما بينكم و  
لأجل ذلك غلبتم على أعداءكم أنه تعالى: **عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** يعلم ما  
يحصل فيها من الجراءة و الجبن و الصبر و الجزع و بعد ما أشار الله تعالى في  
هذه الآية أنه أرى رسوله في منامه ما أراه ثم أخبر الرسول أصحابه بما أراه الله  
في منامه على ما مرّ الكلام فيه أشار الى نكته بل معجزة أخرى و هى أنه  
تعالى فعل ذلك بهم في اللحظة حين الالتقاء.

**وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيْنِكُمْ قَلِيلًا وَ يَقَلِّلُكُمْ فِي آعْيْنِهِمْ  
لِيَقْضَىَٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ**

و التقدير و أذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم، فالهاء و الميم كناية عن  
المشركين و الكاف و الميم كناية عن المؤمنين.

و المقصود أنّ الله تعالى أرى الكفار قليلين في أعين المؤمنين ليشدّ بذلك  
طمعهم فيهم و جرأتهم عليهم و قلّل المؤمنين في أعين الكفار لئلا يتأهبوا



يستعدّوا لقتالهم ولا يكثرثوا بهم و يظفر بهم المؤمنون ولا شك أن المراد بالرؤية في المقام الرؤية بالبصر لقوله في أعينكم، إذ العين حاسة يدرك بها البصر بخلاف الرؤية في الآية السابقة فأنها كانت في المنام وهى في الحقيقة من سنخ الإلهام بالنسبة الى النبي:

ثم قال تعالى: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** اللام في، ليقضي، لام الغاية أو لام التعليل أي أنما فعلنا ذلك لهم و لكم ليقضي الله أي لإجراء قضاء الله و قدره فيما شاء و أراد فأن ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن في عالم التكوين و الإيجاد فأنه تعالى إذا أراد بعدد خيراً هياً له أسبابه.

قال بعض المفسرين أنما كرر قوله: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** في هذه الآية مع ذكره في الآية الأولى، لإختلاف الفائدة فمعناه في الآية الأولى، ولو تواعدتم لأختلفتم في الميعاد و لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً من الإلتقاء على الصفة التي حصلت عليها.

و أما في الثاني يقل كل فريق في عين صاحبه ليقضي الله الخ من إعزاز الدين بجهادكم على ما دبره لكم و أنما قال كان مفعولاً مع أن المعنى يكون مفعولاً في المستقبل، لتحقيق كونه لا محالة حتى صار بمنزلة ما قد كان إذ قد علم الله أنه كائن لا محالة انتهى كلامه.

و قال الرازي المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل إستيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ و المقصود من ذكره هاهنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكر هاهنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين فبين هاهنا أنه فعل ذلك ليصير ذلك سبباً لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد و الحذر فيصير ذلك سبباً لأنكسارهم انتهى كلامه.

أقول و الذي يختلج بالبال في الفرق بين المقامين هو أنه تعالى قوى

المسلمين و حرّصهم على القتال من طريق إخبار الرّسول و متابعتهم أيّاه في إخباره لهم بما أراه الله في منامه ففيه تقويّة من طريق القلب بسبب الاعتقاد بأنّ الرّسول ما ينطق عن الهوى و أمّا في المقام فقواهم و حرّصهم عليه من طريق الحسّ و العيان و المشاهدة بالبصر و من المعلوم أنّ اتمام الحجّة من طريق الحسّ و العيان أنّهم منه من طريق القلب و الاعتقاد إذ لا سبيل لأحد لإنكار ما يراه بالعين و محصل الكلام هو أنّ القضاء تعلّق في الأوّل بصدق إخبار الرّسول بما أراه الله في منامه.

و في المقام الثّاني تعلّق القضاء بغلبتهم بما أراهم بحاسّة البصر و الله تعالى أعلم بحقيقة كلامه.

و أمّا رجوع الأمور اليه فهو ممّا لا كلام فيه.

قال الله تعالى: **وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**<sup>(٣)</sup>.

و المراد بـرجوع الأمر اليه هو أنّه ما شاء الله و أراد فأنّه واقع لا محالة في الخارج و لن يقدر أحد على منعه تعالى أو على إيجاد شيء على خلاف مشيئته و إرادته في عالم الإيجاد

و أمّا في عالم التشريع فقدرة العبد و إختياره واسطة بين الإرادة و المراد و علّه لأجل هذه النكتة الخفية قال في الآية السابقة بعد قوله: **لَيَقْضِيَ اللَّهُ الْخِ** **إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ**.

و أمّا في المقام قال و الى الله ترجع الأمور فأثبت في الآية السابقة علمه بما



و أمثال ذلك من الآيات الدالة على المدعى فأَنَّ الإستقامة و التَّثَبُّت في الأمور ممدوحٌ عقلاً و شرعاً بل لا يمكن الوصول الى المقصود إلا به.  
و أمَّا ذكر الله أعني به التَّوَجُّه الى المعبود قلباً و عدم الغفلة عنه فهو مرغوب فيه في جميع الأمور سواء كان في الحرب أم غيرها و قد أمرنا الله به في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: فَادْكُرُوا رَبِّي اذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا<sup>(٥)</sup>.

و ليس المراد بالذكر ما أبدعته الصُّوفية من عند أنفسهم بل المراد به التَّوَجُّه الى المعبود في الشَّدة و الرِّخاء و أن لم يكن باللسان و حيث أنَّ التَّثَبُّت في الأمور و لا سِيَّما في الأمور الشرعية ممدوحٌ مرغَّب فيه و لا سِيَّما اذا كان قريباً مع الذكر منضمّاً اليه يوجب الفلاح في الدُّنيا و الآخرة قال تعالى: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي كونوا كذلك لكي تفلحوا فمورد الآية و أن كان غزوة بدر إلا أنَّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السَّبب و هو واضح لا خفاء فيه و الحمد لله.



وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٧) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ أَفْئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٩) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأُدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٣) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٤) كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ

أَعْرِفْنَا أَلْ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٥) إِنَّ  
شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا  
يُؤْمِنُونَ (٥٦)

## ◀ اللغة

فَتَفَشَلُوا، الفشل ضعف مع جبن.  
ريحكم، الريح في الأصل على ما قيل هو الهواء المتحرك ولكن هنا  
استعير للغلبة يقال أروح الماء اذا تغيرت ريحه وإختص ذلك بالتن.  
بطراً، البطر بفتح الباء و الطاء دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة  
نو قلة القيام بحققها و حرفها الى غير وجهها.  
رثاء الناس، الرثاء بكسر الراء إظهار الجميل مع إبطان القبيح.  
و يصدون، الصدد المنع.  
جار، الجار هو الدافع عن صاحبه السوء.  
نكص النكوص هو الرجوع قهقري خوفاً مما يرى.  
كدأب، الدأب بفتح الدال الجري على طبق العادة يقال دأب يدأب  
دأباً ودؤباً فهو دائب يفعل كذا أي يجري فيه على عادة.  
الدوآب جمع دابة و هي ما يدب على الأرض لكن بالعرف لا يطلق إلا  
على الخيل.

في القرآن في تفسير القرآن

## ◀ الإعراب

فَتَفَشَلُوا في موضع النصب على جواب النهي وكذلك وَ تَذَهَبَ رِيحُكُمْ.  
بَطَرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال وَ يَصُدُّونَ  
معطوف على معنى المصدر لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ غالب هنا مبنية و، لكم، في



المجلد العاشر

موضع رفع خبر، لا، و اليوم معمول الخبر من النَّاسِ حال من الضمير في، لكم، و لا يجوز أن يكون اليوم منصوباً بغالب و لا، من الناس، حال من الضمير في غالب لأنَّ إسم لا، اذا عمل فيما بعده لا يجوز بناء و الألف في، جار، بدل من الواو لقولك جاورته و على عَقْبِيهِ حال إِذْ يَقُولُ الْمُتَنَافِقُونَ أَي أذكروا أن يكون ظرفاً، لَزَيْنَ، أو لفعلٍ من الأفعال ممَّا يَصَحُّ به المعنى يَتَوَفَّى يقرأ بالياء و في الفاعل وجهان:

أحدهما: الملائكة ولم يؤث الفعل للفصل بينهما و لأنَّ تأنيث الملائكة غير حقيقي فعلى هذا يكون يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ حالاً من الملائكة أو حالاً، من الذين كفروا، لأنَّ فيها ضميراً يعود عليها.

الثاني: أن يكون الفاعل مضمراً أي إذ يتوفى الله، و الملائكة على هذا مبتدأ و يَضْرِبُونَ الخبر و الجملة و يقرأ بالتاء و الفاعل الملائكة.

### ◀ التفسير

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا أمر الله هؤلاء المؤمنين بأن يطيعوا الله و رسوله و ذلك لأنَّ سعادة الدارين في طاعتهما كما أنَّ الشقاوة في مخالفتهما و قد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك في كثير من الآيات كما لا يخفى و لا نحتاج الى ذكرها لوضوح الأمر و أمَّا قلنا أمر الله المؤمنين مع أنه ليس في الآية منهم ذكرٌ ظاهراً لأنَّ الواو في قوله: وَ أَطِيعُوا للعطف.

و لما قال في الآية السابقة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ قال و أطيعوا الله و رسوله فصار المعنى كما قلنا و أمَّا أمر المؤمنين بالطاعة دون جميع الناس مع أنَّ طاعة الله و طاعة الرسول واجب على الجميع لأنَّ غير المؤمن لا يطيع لكفره و عناده و من يكفر بالله كيف يخاطب بالطاعة.

ثُمَّ نهاهم الله عن التنازع فقال و لا تنازعوا أي لا تختلفوا بل إتحدوا لأنَّ التنازع و الاختلاف يوجب الضعف مع الجبن و لذلك قال: فَتَفْشَلُوا أي أنَّ

في القرآن الكريم



الفشل والضعف من عوارض التنازع و يترتب عليه ولأجل هذا قال: فَتَفْشَلُوا ولم يقل و تفشلوا فأَنَّ الفاء تفيد التفرع أي أَنَّ الفشل متفرعٌ على التنازع. وأما قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ فإختلفوا في معناه بعد إتفاقهم على أَنَّ الرِّيح أستعمل على سبيل الإستعارة و لم يرد به معناه اللُّغوي. فقال الزمخشري هو كناية عن الدولة يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة و نفذ أمره، و عليه قول الشاعر:

إذا هبت رياحك فإغتنمها      فأن لكل عاصفة سكوناً  
و قال شاعر الأنصار:

قد عودتهم صباحهم أن يكون لهم      ريح القتال وأسلاب الذين لقوا  
و قال زيد بن علي، و يذهب ريحكم، معناه الرُّعب من قلوب عدوكم و منه قيل للخائف انتفخ سحره.

و قال بن زيد و غيره الرِّيح على بابها أي على معناه الأصلي و هو تحرك الهواء و ذلك لأنَّ النصر لم يكن قطَّ إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار و إستند بضعمهم في هذه المقالة الى قوله ﷺ نصرت بالصبا و عليه فالمعنى فى و تذهب ريحكم يعنى الصبا إذ بها نصر محمد و أمته.

و قيل: رِيحُكُمْ أي حدتكم، و قيل جلدكم، و قيل هيبتكم و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة في التفسير والحق أَنَّ المراد بالريح القوة و الشوكة والرُّعب الذي جعله الله في قلوب الكفار لأنَّ النَّبي كان منصوراً بالرُّعب ففي الكلام إشارة الى أَنَّ الرُّعب في قلوب الكفار ثابت في صورة وحدة الكلمة بينكم و إتفاقكم على إطاعة الله و رسوله و أمّا في صورة الاختلاف فلا محالة تذهب ريحكم أي هيبتكم و سطوتكم.

وَ أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ أي و أصبروا على الشدائد و المكاره في الحرب و في غيرها فأَنَّ الله مع الصابرين.



وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ  
 قيل أنها نزلت في أبي جهل وأصحابه وذلك لأنهم خرجوا من مكة لنصرة  
 العير بالقيينات والمعازف ووردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني وكان صديقاً  
 له بهدايا مع ابنه وقال أن شئت أمدناك بالرجال وأن شئت بنفسي مع من خَفَ  
 من قومي فقال أبو جهل أن لنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله  
 طاقة و أن كنا نقاتل الناس فوالله أن بنا على الناس لقوة والله لا نرجع عن قتال  
 محمد ﷺ حتى نرد بداراً فنشرب فيها الخمرور وتعزف علينا القيينات فأَن  
 بداراً مركزاً من مراكز العرب وسوقاً من أسواقهم حتى تسمع العرب فخرجنا  
 فتهابنا أخر الأبد فوردوا بداراً فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم  
 النوائح مكان القيينات فهى الله المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طرين  
 مرائين بأعمالهم صادين عن سبيل الله والله تعالى بما يعملون محيط كما قال:  
 وَيَصْدُون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وفي الآية الشريفة من  
 اللطائف الخفية ما لا يخفى.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ  
 وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ

أي وأذكروا يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم هكذا قالوا.  
 أقول لا يبعد أن تكون كلمة للتعليل وذلك لأنه تعالى قال في الآية السابقة  
 ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم الخ فكأنه قيل متى خرجوا أو لأي شيء  
 خرجوا أو لم يخرجوا وأمثال ذلك من التباير فقال تعالى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ  
 الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ أي أن علة خروجهم كان هذا أو زمان خروجهم كان هذا  
 بمعنى أن تزيين الشيطان لهم أعمالهم صار باعثاً على خروجهم وبعبارة  
 أخرى لولا تزيين الشيطان وإغواءه إياهم لما خرجوا ولم يقع الشيطان بتزيين  
 الأعمال فقط بل قال لهم لا غالب لكم اليوم أي لا يغلب عليكم أحد والحال  
 أنني جار لكم أي مدافع عنكم السوء.

فَلَمَّا تَرَأَتْ اَلْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ قِيلَ اِنَّ الشَّيْطَانَ ظَهَرَ لَهُمْ فِي صُورَةِ سَرَاقَةٍ بَنَ مَالِكُ بْنُ جَعْشَمٍ الْكِنَانِي الْمَدَلَجِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جُنْدِهِ لَهُمْ هَذِهِ كِنَانَةٌ قَدْ أَتَيْتُكُمْ نَجْدَةً فَقَبِلُوا قَوْلَهُ وَاطْمَأْنَوْا بِهِ وَزَعَمُوا اَنْ مَا رَأَوْهُ حَقٌّ وَلَمْ يَعْلَمُوا اَنْ الشَّيْطَانَ ظَهَرَ لَهُمْ بِصُورَةِ سَرَاقَةٍ وَاَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ اَنْ يَظْهَرَ فِي آيَةٍ صُورَةً شَاءَ حَتَّى الْكَلْبُ وَالْخَنَزِيرُ اِلَّا الْاَنْبِيَاءَ وَالْاَوْصِيَاءَ، فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانِ اَي فِلْمًا تَلَقَى الْفَرِيقَانِ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ نَكَصَ الشَّيْطَانَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ.

وَقَالَ اِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ اِنِّي اَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ اَي قَالَ الشَّيْطَانَ لِلْمُشْرِكِينَ اَنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ اِنِّي اَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ قَالَ ذَلِكَ حِينَ نَزَلَتْ جُنُودُ اللّٰهِ لِنَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ اِلَىٰ اَيْنَ يَا سَرَاقَةُ فَقَالَ: اِنِّي اَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ اَي اَنِّي اَرَى الْمَلَائِكَةَ.

قِيلَ اَنَّهُ رَأَى جَبْرِئِلَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ وَقِيلَ حَوْلَهُ اللّٰهُ عَلَى صُورَةِ اِنْسَانٍ عَلِمًا لِلنَّبِيِّ بِمَا يَخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَقِيلَ اَنَّمَا هُوَ يُوَسَّوْسُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَحْوَلَ فِي صُورَةِ اِنْسَانٍ وَكَيْفَ كَانَ لَمَّا رَأَى الشَّيْطَانَ مَا رَأَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُم الْمَرَادُ بِالْفِئْتَانِ فِئَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَفِئَةُ الْمَلَائِكَةِ نَكَصَ اَي رَجَعَ اِلَى هَقَرِي خَوْفًا مِمَّا رَأَاهُ وَقَالَ مَا قَالَ مِنْ قَوْلِهِ اَنِّي اَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ثُمَّ قَالَ: اِنِّي اَخَافُ اللّٰهَ وَاللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

اَقُولُ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ اَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَعِدُ النَّاسَ اِلَّا غُرُورًا بِمَعْنَى اَنَّهُ يَغُرُّ النَّاسَ فَلَمَّا اَوْقَعَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالتَّهْلُكَةِ يَقُولُ اَنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَيْفَ يَعْتَمِدُ عَلَى قَوْلِهِ وَوَعْدِهِ وَلِذَلِكَ حَذَرَ اللّٰهُ النَّاسَ مِنْ مِتَابَعَتِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْاَيَاتِ.

قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: اَلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (١).

قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: اِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ اَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ (٢).

قال الله تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَفَرِ وَالْمَيْسِرِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَكِنْ فَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(٤)</sup>.

و أمثال ذلك من الآيات والعجب أنه مع ذلك صار إماماً لأكثر الناس والسر في ذلك أنه يدعو الناس الى أميالهم وشهواتهم وأهواءهم بخلاف الأنبياء فأنهم يدعون الناس الى خلاف شهواتهم وأميالهم ومن المعلوم أن الحركة الى الشهوات طبيعي والحركة الى خلافها قسري والطبيعي مقدم على القسري بمقتضى الطبيعة والجبلة ولهذا يكون أتباعه في كل عصرٍ وزمانٍ أكثر من أتباع الأنبياء.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

المنافقون جمع منافق وهو الذي باطنه بخلاف ظاهره فهو أعَم من الكافر إذ قد يكون منافقاً ولا يكون كافراً وذلك مثل كثير من المسلمين في صدر الإسلام بل في كل عصرٍ وقد يكون كافراً باطناً ومسلماً ظاهراً وأما الكافر الخالص الذي لا يعتقد الإسلام فلا يعد منافقاً لأن ظاهره وباطنه واحد، وأما الذين في قلوبهم مرض فالظاهر عدم دخولهم في سلك المنافقين وإلا لم يحتج الى إفرادهم بالذكر بعد قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ.

بَابُ مَنْافِقِينَ



١- المائدة = ٩١

١- النساء = ١٢٠

٢- الإسراء = ٦٤

٣- الأنعام = ٤٣

قال بعض المفسرين المراد بقوله: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** من كان شاكاً في الإسلام مع إظهاره كلمة الإيمان و عليه فالمراد بالمرض في الآية هو الشك في الإسلام قلباً، ولقائل أن يقول هذا معنى المنافق بعينه اللهم إلا أن يقال بأن المنافق منكر الإسلام قلباً و مظهره لفظاً و ظاهراً والذي في قلبه مرض ليس بمنكر قلباً بل هو شاك قلباً و به حصل الفرق، و يحتمل أن يكون المراد بالمرض الحسد و الكبر و البخل و أمثال ذلك من الأمراض النفسانية و كيف كان روي أن جماعة خرجت مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول و هم قيس بن الوليد بن المغيرة و الحارث بن زمعة و العاص بن المنبه بن الحجاج و عليّ ابن أمية و هذا قول مجاهد و الشعبي.

و قال الحسن المرض الشرك فالمراد هو المشركون و قيل المنافقون هم من الأوس و الخزرج لما خرج الرسول قال بعضهم نخرج معه و قال بعضهم لا نخرج غرّ هؤلاء أي المؤمنين دينهم فأنهم يزعمون أنهم على حقّ و أنهم لا يغلبون نقل هذا عن ابن عباس و الذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا و منعهم أقرباءهم من الهجرة فأخرجهم قريش معها كرهاً فلما نظروا الى قلة المسلمين إرتابوا و قالوا غرّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً.

و قال ابن عطية قال المفسرون أنّ هؤلاء الموصوفين بالنفاق و مرض القلب أنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين و رأوا قلة عددهم قالوا مشيرين الى المسلمين غرّ هؤلاء دينهم أي إغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به و كني بالقلوب عن العقائد، و المرض أعمّ من النفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر انتهت كلام ابن عطية.

**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** هذا يتضمن الرد على من قال غرّ هؤلاء دينهم فكأنه قيل هؤلاء في لقاء عدوهم كانوا متوكّلين على الله فلا محالة هم الغالبون، فإنّ من يتوكّل على الله فهو حسبه ينصره و يعزّه لأنّه تعالى عزيز لا يغالب بقوة و لا بكثرة حكيّم، يضع الأشياء مواضعها إشارة الى

أَنَّ النَّصْرَ وَالْغَلْبَةَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِقُوَّةِ الْجَسَدِ بَلِ النَّصْرُ يَحْصِيلُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالْكَافِرُ حَيْثُ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ بَلِ يَرَى ظَاهِرَ الْأَمْرِ فَلَا مُحَالَةَ يَحْكُمُ بِمَا يَقْتَضِيهِ وَهَمُّهُ وَخِيَالُهُ.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

لَوْ، الَّتِي لَيْسَتْ شَرْطًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَقْلِبُ الْمَضَارِعَ لِلْمَمْضِيِّ فَالْمَعْنَى لَوْ رَأَيْتُ وَشَاهَدْتُ وَحَذَفَ جَوَابَ، لَوْ، أَيِ لَرَأَيْتُ أَمْرًا عَجَبًا وَشَأْنًا هَائِلًا وَهَذَا الْحَذْفُ جَائِزٌ بَلِغٌ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، فَمَنْ قَرَأَ الْفِعْلَ بِالتَّاءِ أَسَدَ الْفِعْلِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَلَأَنَّ التَّائِيثَ فِي الْمَلَائِكَةِ غَيْرُ حَقِيقِي، وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَلَوْ تَرَى الْوَقْتَ الَّذِي تَتَوَفَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَيِ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ عَلَى إِسْتِيفَائِهَا لِأَنَّ الْمَوْتَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِخْرَاجِ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَدِ بِتَمَامِهَا، يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، أَيِ يَضْرِبُونَ الْمَلَائِكَةُ وَجُوهَ الْكَفَّارِ وَأَدْبَارَهُمْ أَيِ ظُهُورَهُمْ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، قَالُوا تَقْدِيرُهُ وَيَقُولُونَ يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ لِلْكَفَّارِ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَالْحَرِيقُ تَفْرِيقُ الْأَجْسَامِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ بِالنَّارِ الْعَظِيمَةِ هَذَا مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَاسْتَدْلُوا عَلَى ذَلِكَ بِوُجُودِ نَظَائِرِهِ فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا<sup>(١)</sup> أَيِ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا<sup>(٢)</sup> أَيِ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَهَكَذَا مَا نَحْنُ فِيهِ، أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ النَّظَائِرِ لَا كَلَامَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ الْمَقَامَ لَا يَقَاسُ عَلَيْهِ لَوْجُودُ الْوَاوِ فِي الْمَقَامِ وَعَدَمُهُ هُنَاكَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: وَذُوقُوا أَنْ كَانَتْ عَاطِفَةً فَأَيْنَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَقْدَمْ فِي الْكَلَامِ، قَوْلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَقَالَ بِصَحَّةِ تَقْدِيرِهِ الْقَوْلَ قَضَاءً

نبأ القرآن في تفسير القرآن



الجزء ١٠

لحكم العطف و أن كان للإستئناف فالظاهر أن قوله: وَ ذُوقُوا جملة مستأنفة لا ربط لها بالكلام السَّابِق و عليه فلا معنى للتقدير إذ لا يدل عليه دليل و مع ذلك فقد أجمع المفسرون على أن التقدير و يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق والله أعلم بكلامه.

قال ابن عباس، قول الملائكة لهم إنما صح لأنه كان مع الملائكة، مقامع و كلما ضربوا بها إلهبت النار في الأجزاء و الأبعاض فذاك قوله: وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ و عن الواحدي، أن هذا تقول الملائكة لهم في الآخرة.

أقول و عليه هو كلام مستأنف من الله على سبيل التفریع للكافرين، إما في الدنيا حالة الموت أي مقدمة عذاب النار و أما في الآخرة ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد<sup>(١)</sup> ذلك إشارة الى ما تقدم ذكره من قول الملائكة لهم ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ فكأنه قيل للملائكة لم تذوق العذاب قالوا لهم ذالك بسبب ما قدمت أيديكم في دار الدنيا و أن الله تعالى: لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ يستفاد من هذا الكلام أمران:

أحدهما: أن العذاب مسبب من الأعمال.

الثاني: أن الله لا يظلم أحداً.

أما الأول: أعني كون العذاب مسبباً عن الأعمال فيدل عليه العقل و النقل، أما العقل فلأنه قد ثبت أن الله تعالى عادل لا يجوز في حكمه و لا يضع الشيء في غير محله كما هو معنى العدل و عليه فإن كان العذاب مسبباً من الأعمال فهو المطلوب و إلا يلزم الظلم منه تعالى على العبد لأن العذاب من غير سبب هو من وضع الشيء في غير محله و هو ظلم و الظلم نقيض العدل فيلزم أن يكون ظالماً غير عادل و هو خلاف ما ثبت عقلاً و اذا كان كذلك فالعذاب مسبب و معلول لشيء آخر و هذا الشيء لا يكون إلا عمل العبد فالمطلوب ثابت.

هذا مضافاً الى أن لكل شيء يوجد عقاباً كان أو ثواباً علّة و سبب وإلا يلزم وجود المعلول بلا علّة و هو محال عقلاً و العلّة أو السبب إما نفس إرادة الخالق أو فعل العبد أو فعل غيره و الأول يستلزم الظلم و الثاني حقّ و الثالث غير معقول اذ لا تزر وازرة وزر أخرى فثبت المدعى.

و أما الدلائل الثقلية فهي كثيرة جداً من الكتاب و السنة.

قال الله تعالى: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** <sup>(٥)</sup> والآيات كثيرة.

و أما السنة فلا نحتاج الى ذكر ما ورد فيها لإثبات المدعى بعد ذكر الآيات مضافاً الى أن كلّ ما ورد في السنة ناظر الى ما ذكرناه و هو واضح.

**وأما الأمر الثاني:** و هو أن الله لا يظلم أحداً فهو أيضاً قد ثبت فيما ذكرناه فلا نحتاج الى الإعادة و سيجي في موضعه أن الأعمال هي بعينها تنقلب الى العذاب لا أن العذاب شيء آخر يترتب عليها، فإن القول يتجسم الأعمال يوم القيامة بصورة العذاب مشهور بين العلماء و سيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى.

**كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**

٢- آل عمران = ١١٧

٤- النحل = ١١٨

١- التوبة = ٧٠

٣- يونس = ٤٤

٥- النساء = ٤٠

العامل في قوله: كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنَ الإبتداء و تقديره، دأبهم كذاب آل فرعون، فموضعه رفع، و الذَّابُّ العادة و الطَّرِيقَةُ تقول هذا دأبه، و ليس هذا من دأبه أي من عادته و طريقته.

و المعنى أَنَّهُ جُوزِي هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ كَمَا جُوزِي آلَ فِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ وَ كَمَا جُوزِي مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ هَكَذَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي إِسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ هِيَ التَّمَرُّدِ وَ الْعَصْيَانِ وَ تَكْذِيبِ الْآيَاتِ وَ إنْكَارِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ تَمَامِيَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَ هَذَا الْمَلَائِكَةُ كَانَ مَوْجُوداً فِي كَفَّارٍ قَرِيشٍ فَوْقَعُوا فِيهَا وَ قَعَ فِيهِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ. وَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ أَلْعِقَابِ إشارة بأنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْجُزُ عَنِ الْعِقَابِ بَلْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قال الله تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ<sup>(١)</sup>.  
قال الله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ<sup>(٥)</sup> وَ أمثالها كثيرة.

نعم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْذِبْ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ بَعَثِ الرَّسْلِ كَمَا قَالَ: وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ<sup>(٦)</sup> فمعنى الآية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التي أتى بها رسوله بحال آل فرعون في تكذيبهم بآيات الله التي أتى

٢- الأنعام = ٦

٤- الإسراء = ١٧

٦- الشعراء = ٢٠٨

١- الأنعام = ٦٥

٣- يونس = ١٣

٥- مريم = ٩٨



بها موسى عليه السلام لأن تعجيل العقاب لهؤلاء بالإهلاك كتعجيله للمشركين بالاستئصال والقتل والأسر في غزوة بدر وغيرها.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

ذلك، إشارة إلى ما تقدّم ذكره من أخذ الله الكفار بالعقاب ومحصل الكلام في معنى الآية هو أنه تعالى بيّن فيها سبب الإهلاك والعقاب وهو أن تبديل النعمة بالنقمة والعذاب بسبب تغير ما في قلوبهم من الإعتقادات والأعمال وعبارة أخرى أن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم إلا بعد تغيير نيات القوم من الخير إلى الشر فهذا هو السبب الفرد ولتوضيح الآية نقول:

لا شك أن الله تعالى خلق الخلق وأخرجهم من العدم إلى الوجود ولا شك أيضاً أن الخالق أشفق وأرفأ بخلقه من الوالد الشفيق، وهذا ممّا لا كلام فيه. ثم نقول أنه تعالى جواد لا يبخل وغني لا يفقر وقوي لا يضعف وهكذا ومع ذلك نحن نرى أنه تعالى قد يسلب النعمة عن قوم ويبتليهم بالقحط والغلاء أو يجعلهم في معيشة ضنك أو يسلط عليهم من لا يرحمهم أو يهلكهم ويفنيهم عن صفحة الوجود بنزول أنواع العذاب عليهم ممّا هو مذكور في القرآن بالنسبة إلى بعض الأمم ولابد لها من علّة وسبب فأنه تعالى أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها ولا شك عقلاً أن كلّ حادثّة من الحوادث لابد لها من سبب وهذا هو الذي ذكره في هذه الآية صريحاً.

وحاصله أن النعم الإلهية والبركات السماوية والألطف الربانية كلّها يدور مدار النيات والإعتقادات والأعمال فاذا كانت النيات صادقة والأعمال الناشئة عنها صالحة والقلوب عن الأعراض القلبية خالية والرأفة والعدالة في الجامعة حاکمة تكون البركات من الله عليهم نازلة والألطف والعنايات الربانية لهم شاملة وهذا أصل أصيل جعل الله عليه مدار السعادة في الدارين.

وَبِالْآيَاتِ  
الْمُفَصَّلَةِ  
يُفَسِّرُ  
الْقُرْآنَ



قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ** <sup>(٤)</sup>.

هذه الآيات ونظائرها كما ترى أوضحت وبيّنت ما نحن بصدد إثباته بأوضح تبين ففي الآية الأولى جعل الله فتح البركات معلّقاً على الإيمان والتقوى والعذاب على ما كانوا يكسبون من الأعمال وقال تعالى: **وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** <sup>(٥)</sup> والمعيشة الضنك ليست إلا حبس البركات والعنايات وعليه.

**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** واضح لا خفاء فيه.

وأما قوله: **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** فهو إشارة إلى أن الله سميع أي يسمع ما يقولون وعليم أي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا يخفى عليه شيء والمراد بكونه سمياً يعني أنه عالم بالمسموعات كما أنه عالم بالمبصرات و سائر الإدراكات لا أنه يسمع أو يبصر بجوارحه السمع والبصر كما هو فينا كذلك لتزهره عن الأعضاء والجوارح فأنها من شئون الأجسام.

كَذَّابٍ أَلٍ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ  
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا أَلِ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ

قيل وجه التكرار في قوله: كَذَّابٍ أَلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هو أنَّ  
الآيتين مشتملتان على نوعين من العقاب ففي الآية السابقة ذكر أنه تعالى  
أخذهم بذنوبهم و لم يبين كيفية الأخذ و العقاب و أمّا في هذه الآية بيّن كيفية  
العذاب و أنه أهلكهم و أغرقهم.

و قال الآخر فيه تصريف القول في الذم بما كانوا عليه من قبح الفعل و  
تقدير الكلام دأب هؤلاء الكفار مثل دأب أَلِ فِرْعَوْنَ.  
و قال بعض المفسرين التكرير للتأكيد.

و قال ابن عطية هذا التكرير لمعنى ليس للأول و الأول دأب في أن هلكوا  
لما كفروا.

الثاني: دأب في أن لم يغيّر نعمتهم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم انتهى.

و قال قوم كرّر لوجوه:

منها، أن الثاني جري مجرى التفصيل للأول لأنّ في ذلك ذكر إجرامهم و  
في هذا ذكر إغراقهم.

و منها، أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت.

بالثاني: ما نزل بهم من العذاب في الآخرة.

و منها، أنه في الأول إشارة الى إنكار دلائل الإلهية و كفرهم بآيات الله.

في الثاني: بآيات ربهم، إشارة الى إنكار نعم من رباهم و دلائل تربيته و  
إحسانه على كثرتها و تواليها.

و منها، في الأول اللازم منه الأخذ.

في الثاني: اللازم منه الهلاك والإغراق.

و قال صاحب الكشف في قوله: بِآيَاتِ رَبِّهِمْ زيادة دلالة على كفران  
النعم و وجود الحق و في ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب انتهى.

أقول هذه الوجوه كلها إستحسانات لا بأس بها فأن لكل واحدٍ منها وجه وجيه وقد ذكروا في المقام وجوهاً كثيرة تجدها في تفاسيرهم ولكن كلها من سنخ واحد لا يعتمد عليه والحق أن آل فرعون كانوا على أحوالٍ مختلفة في المعصية فبين الله تعالى في هذه الآيات مشاركة هؤلاء الكفار بهم في تلك الأحوال.

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ الْغُرُقِ فَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهَا غَيْرَ مَرَّةٍ وَقَوْلُهُ: وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّا لَمْ نَأْخُذْهُمْ وَلَمْ نَغْرِقْهُمْ إِلَّا لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ وَلَوْلَا ظُلْمُهُمْ وَمَعْصِيَتُهُمْ مَا كَانُوا مِنَ الْمَعْذُوبِينَ وَالْمَغْرُوقِينَ (فَأَنْ رَبَّكَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ  
الدَّابَّةُ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدُبَّ عَلَى الْأَرْضِ لَكِنْ لَا يَطْلُقُ عَرَفًا إِلَّا عَلَى الْخَيْلِ  
ومنه قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا<sup>(١)</sup>.  
وقد مرَّ الكلام في الدَّابَّةِ سابقاً وقوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ الشَّرُّ ضِدَّ الْخَيْرِ، وَ الْمُرَادُ بِالشَّرِّ لَيْسَ الشَّرُّ الْمَطْلُوقُ الْمَعْبَرُ عَنْهُ فِي الْفَلَسَفَةِ بِالشَّرِّ الْمَحْضِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ أَبَدًا لِأَنَّ الشَّرَّ.

المحض هو بعينه عدم المحض فأنَّ الشَّرَّ اِعْدَامٌ.

بل المراد به الموجود الذي يكون شرارته غالباً على خيراته وقد يعبر عنه بكثير الشر وتوضيح ذلك إجمالاً أَنَّ الموجود أَمَا أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مُحْضًا لَا شَرَّ فِيهِ أَصْلًا وَهُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودَ لَا غَيْرِهِ.

وَأَمَا أَنْ يَكُونَ خَيْرُهُ غَالِبًا عَلَى شَرِّهِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ وَأَمَا أَنْ يَكُونَ بِالْعَكْسِ كَالشَّيْطَانِ وَأَتْبَاعِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَأَمَا أَنْ يَكُونَ مَتَسَاوِي الشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَقِيلَ هُوَ مِمَّا لَمْ يَوْجَدْ وَقِيلَ عَدَمُ الْوُجُودِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْوُجُودِ فَلَعَلَّهُ وَجَدَ وَلَا نَعْرِفُهُ.

وَأَمَّا قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرٌ مُحَضٌّ وَلَا ثَانِي لَهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَرَفَ الوجود و حقيقته و الوجود خيرٌ مُحَضٌّ وَأَمَّا الشُّرُورُ فَأَتَتْهَا مِنْ شُتُونِ المَاهِيَّاتِ الإِمْكَانِيَّةِ فَمِنْ لَا مَاهِيَّةَ لَهُ لَا شَرَارَةَ فِيهِ وَ هَذَا المَوْجُودُ الَّذِي مَنَزَّهُ عَنِ المَاهِيَّةِ وَ النَّقْصِ الإِمْكَانِي لَا يَكُونُ إِلَّا الواجب تَعَالَى وَ تَفْصِيلُ الكلامِ مَوْكُولٌ إِلَى محلِّهِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فنقول:

قوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ المقصود من الدَّوَابِّ في المقام هو الإنسان الكافر أَمَّا أَنَّهُ مِنَ الدَّوَابِّ لِأَنَّهُ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ كَمَا يَدْبُ عَلَيْهَا الحِمَارُ وَ البَقَرُ وَ سَائِرُ الدَّوَابِّ وَأَمَّا أَنَّهُ شَرُّ الدَّوَابِّ فَلِأَنَّهُ أَضَرُّ وَأَظْلَمُ وَ أَحَبُّ مِنْهَا. وَ الوجه فِيهِ هُوَ أَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِهَا تَعْرِفُ خَالِقَهُ وَ لَا تُنْكِرُهُ بَلْ تَسْبِّحُهُ وَ تَقْدِّسُهُ.

قال الله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ<sup>(٣)</sup>.

هذا مضافاً إلى أَنَّ الدَّوَابَّ غَيْرُ الْإِنْسَانِ لَا ضَرَرَ لَهَا أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَفْعٌ. وَأَمَّا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ فَهُوَ شَرٌّ مِنْهَا لِكُفْرِهِ وَ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِخَالِقِهِ وَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَالِقَ بَلْ أَنْكَرَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ فَلَا يَسْبِّحُهُ وَ لَا يَشْكُرُهُ قِطْعاً وَ كُلٌّ مُنْصَفٍ يَحْكُمُ بَأَنَّ الْكَافِرَ أَحَبُّ وَ أَفْسَدُ وَ لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الدَّوَابِّ أَعْنِي بِهَا الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ إِسْتِقَامَةِ قَامَتِهِ وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ مُسْتَقِيمٌ الْقَامَةُ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ إِسْتِقَامَةَ الْقَامَةِ وَ إِحْنَاءَهَا لَا رِيبَ لَهُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ بِكُفْرِهِ وَ إِحْدَاهُ مِنْ شَرِّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ، وَ قَوْلُهُ: عِنْدَ اللَّهِ لَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



أنه أي الكافر عند الله لا مقيمة و أن كان عند الناس محبوباً معزراً كما هو كذلك واقعاً ولذا لم يقل أن شرّ الدواب عند الناس.

فأن أكثر الناس من هذا القبيل و الجنس الى الجنس يميل فأن الناس الى أشباههم أميل و أما قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ففيه إشارة الى أن هؤلاء الأشخاص لا يؤمنون أصلاً.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(١)</sup>.

و قد بين الله تعالى العلة في بقاءهم على الكفر.

قال الله تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ<sup>(٢)</sup>.

أن قلت قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ يدل على الجبر و أنتم معشر الإمامية لا تقولون به.

قلت لا دلالة فيه على الجبر أصلاً و أما هو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم في علمه و بعبارة أخرى أن الله تعالى قد علم أنهم لا يؤمنون بسوء سريرتهم و إختيارهم لا أنه تعالى خلقهم و أجبرهم على عدم الإيمان و قد مرّ مراراً أن العلم الأزلي ليس بعلة أصلاً و أما هو إنكشاف الواقع فحسب.

و أما الفعل في الخارج فهو تحت إختيار الإنسان و قدرته أن شاء فعل و إن لم يشاء لم يفعل و هو واضح.



الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي  
 كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٧) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي  
 الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ  
 (٥٨) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ  
 عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٩) وَلَا  
 يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ  
 (٦٠) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ  
 رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَ  
 آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ  
 وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ  
 أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ (٦١) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ  
 لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٢)  
 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ  
 الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٣) وَأَلْفَ بَيْنَ  
 قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا  
 أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ  
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ  
 مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

◀ اللغة

يَنْقُضُونَ، نقض العهد مثل نقض الوعد و هو الرجوع عما عهد اليه.  
 تَثْقَفَنَّهُمْ معنى، تَثَقَّفَنَ، تصادفَن و تلقين و أصله الإدراك بسرعة تقول تَقِفْ

الكلمة وثاقفه ماثقة إذا تدارك كل واحدٍ منهما أمر صاحبه و دخلت، ما، ولو لم تدخله لما حسن دخول التّون.

فَشَرَّدُ، شَرَّدَ بفتح الشين و كسر الرّاء المشدّدة أمرٌ من التّشديد أي التّفريق على إضطراب.  
خِيَانَةٌ صَدَّ الأمانة.

فَانِذُ، النَّبَذُ إلقاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنّه حرب بنقض عهدٍ أو إقامة على بغية.

جَنَحُوا أي مألوا الى المسالمة يقال جنحت السفينة إذا مالت الى الوقوف و منه جناح الطائر لأنّه يميل به في أحد شقّيه و الباقي واضح.

### الإعراب

الَّذِينَ عَاهَدْتَ بَدَلٌ مِنَ، الَّذِينَ الْأُولَى، و يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هم الذين، و يجوز أن يكون نصباً على إضمار أعني و مِنْهُمْ حال من العائد المحذوف فَانِذُ إِلَيْهِمْ أي عهدهم فحذف المفعول و عَلَى سَوَاءٍ حال من قُوَّةٍ في موضع الحال، من، ما، أو من العائد المحذوف في إستطعتم تُرْهِبُونَ بِهِ في موضع الحال من الفاعل في، إعدلوا، أو من المفعول لِلْسَّلَامِ يجوز أن تكون اللّام بمعنى، الى، لأنّ جنح بمعنى مال، والسّلم بفتح السين و كسرهما لغتان، و قد قرأ بهما و هي مؤنثة و لذلك قال فأجنح لها حَسْبُكَ اللَّهُ مبتدأ و خبر و مَنْ أَتْبَعَكَ في، مَنْ، ثلاثة أوجه.

أحدها: جرّ، عطفاً على الكاف في حسبك و هذا يجوز عند البصريين لأنّ العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز.

الثاني: موضعه، نصب، بفعلٍ محذوف دلّ عليه الكلام و تقديره و يكفي من إتبّعك.

الثالث: موضعه، رفع لأنّه معطوف على إسم آله.



## ◀ التفسير

الَّذِينَ عَاهَدْتَ قِيلَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي بَنِي قَرِظَةَ لَمَّا نَقَضَتْ عَهْدَ النَّبِيِّ فِي أَنْ لَا يَحَارِبُوهُ وَلَا يَمَالُؤُوا عَلَيْهِ فَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَمَالُؤُوا عَلَيْهِ وَعَاوَلُوا قَرِيشًا يَوْمَ الْخندق فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْهُمْ.

و قال بعضهم نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدكم الرسول أن لا يمالؤا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح و قالوا أنسينا و أخطأنا ثم عاهدوهم ثانياً فنكثوا و مالتوا معهم يوم الخندق و أنطق كعب بن الأشرف الى مكة فخالفهم.

قال البغوي من روى أنه كعب بن الأشرف قد أخطأ و وهم، بل يحتمل أنه كعب بن أسد فإنه كان سيد قريظة.

و قيل هم بنو قريظة و النصير.

و قيل نفر من قريش من عبد الدار حكاه التبريزي في تفسيره و كيف كان فلا شك أن نفراً من الكفار نقضوا عهدهم و لا يهمنّا البحث في تعيين أشخاصهم و الآية بصدد بيان هذا الأصل و من المعلوم أن نقض العهد مذموم عقلاً و شرعاً.

ثم قال تعالى في آخر الآية وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ أَي لَا أَنِ النَّاقِضِينَ لِعَهْدِهِمْ لَا يَتَّقُونَ عقاب الله أجلاً و عاجلاً.

فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ أَي فَاِنْ تظفر بهم في الحرب و تتمكّن منهم فشرّد بهم من خلفهم.

قال ابن عباس معناه، فنكّل بهم من خلفهم.

و قال ابن جبير أنذر من خلفهم عن قتل من ظفر به و تنكيهه فكان المعنى فأن تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً حتى يفرّ، عنك من خلفهم و يتفرّق و لما كان التشديد و هو التطريد و الإبعاد ناشئاً عن قتل من ظفر به في الحرب من المعاندين و المعاهدين الناقضين جعل جواباً للشرط إذ هو يتسبّب عن الجواب.

و قال الزّمخشري من وراءهم من الكفرة حتّى لا يجسر عليك بعدهم أحداً  
إعتباراً بهم و إعتاظاً بحالهم، و قرأ الأعمش، فشرّذ بالذال بدلاً من الدال  
المهملة.

و عن الزّمخشري أنّه قال شرّذ بالذال المعجمة، بمعنى، فرّق.  
و قال قطرب هو بالذال المعجمة التّنكيل و بالمهملة التّفريق و على أيّ  
حالٍ أمر الله نبيّه بتشريدهم و تفريقهم بعد الظّفر عليهم في الحرب لأنّ في  
التّفريق الضّعف بخلاف الإجماع فإنّ فيه القوّة و الشّوكة ألا ترى أنّ الله تعالى  
نهانا عن التّفريق حيث قال: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا<sup>(١)</sup>** فَمَنْ  
قال معنى الكلام فإنّ تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً كما مرّ، لا نفهم معناه و ليت  
شعري من أين أخذ هذا المعنى و ليس منه في الآية عينٌ و لا أثر، مضافاً إلى  
أنّه خلاف حكم العقل فإنّ المستوجب للقتل يقتل و أمّا القتل الذّريع، و  
الفجيع فالإسلام منزّه عنه.

قال رسول الله ﷺ **أَتَاكُمْ وَ الْمَثَلَةُ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ.**

و الحاصل أنّ الله تعالى أمر رسوله بتشريد الكفّار و معناه واضح.  
و أمّا قوله: **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** مشدّدة معناه لكي يفكروا فيتّعظوا و ينزجروا  
من الكفر و المعاصي.

**وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
الْخَائِنِينَ** إختلفوا في ألواو هل للعطف او للإستئناف فقال قوم هذه الآية  
معطوفة على الآية السّابقة و هو الظّاهر عليه التّكرار في كلمة، إمّا، أي فإمّا  
تتقننهم في الحرب.

**وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً.**

**فَعَلَى الْأَوَّلِ:** فشرّذ بهم إلخ.

**على الثاني:** فأنبذ اليهم الآية و عليه فالمراد بالقوم في هذه الآية هو قوم بني قريظة الذين نزلت الآية فيهم أو غيرهم على ما نقلناه في شأن النزول و الحاصل أنَّ المراد بالقوم من نزلت الآية في شأنه بمقتضى العطف.

و قال بعض المفسرين الواو للإستئناف و عليه فما ذكره في هذه الآية حكم آخر أمر الله نبيه به و أستدلوا على مدعاهم أما أولاً فبأن بني قريظة لم يكونوا في حد من يخاف منه خيانة لأن خيانتهم كانت ظاهرة مشهورة.

ثانياً: لأنه تعالى قال من قوم على وجه التأكيد فلو كان المراد منهم بنو قريظة لقال من القوم أو و إما تخافن منهم و لم يقل.

و قال يحيى ابن سلام، تخافن بمعنى تعلم و حكاه بعضهم أنه قول الجمهور و قيل الخوف على بابه فالمعنى أنه ليظهر منهم مبادي الشر و ينتقل عنهم أقوال تدل على الغدر فالمبادئ معلومة و الخيانة التي هي غاية المبادئ مخوفة لا متيقنة و لفظ الخيانة دال على تقدم عهد لأنه من لا عهد بينك و بينه لا تكون محاربتة خيانة فأمر الله نبيه إذ حس من أهل عهد ما ذكرناه و خاف خيانتهم أن يلقي اليهم عهدهم و هو النبذ مفعول، فأنبذ، محذوف و التقدير فأنبذ اليهم عهدهم أي أرمه و أطرحه على سواء قيل أي على مهل على العدل و منه قيل للوسط سواء لإعتداله الى الجهات قال الشاعر:

يا ويح أنصار النبي ورهطه      بعد المغيب في سواء الملحد  
أي في وسطه.

فأن قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة و المفروض عدم حصولها. نقول إنما فعل ذلك لظهور إمارات الخيانة التي دلت على نقض العهد و لم تشتهر ولو إشتهرت لم يجب النبذ كما حارب الرسول ﷺ أهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة و هم في ذمة النبي فلما فعلوا ذلك فعلاً ظاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ولو نقضوه على خفاء لم يكن بد من نبذ العهد اليهم لئلا ينسب الى نقض العهد و الغدر.

في التفسير  
في القرآن  
في تفسير  
في القرآن



أما قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ فالوجه فيه معلوم لأن الخيانة من أقبح الأفعال و أشنعها بل هي من المستقلات العقلية و ما كان كذلك كيف يكون محبوباً لعاقل فضلاً من الله تعالى.

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانٍ كَفُورٍ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>.

و أما الأخبار الواردة في ذمها فكثيرة لا نحتاج الى ذكرها في المقام.

و لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ

قرأ ابن عامر و حمزة و حفص و أبو جعفر و لا يَحْسَبَنَّ بالياء و الباقون بالتاء و قرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة و الباقون بكسرها، فمن قرأ بالتاء فالخطاب للنبي.

و قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا المفعول الأول سَبَقُوا المفعول الثاني و موضعه النصب و أما من قرأ بالياء أحتمل ثلاثة أشياء:

أحدها: و لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا و هو قول أبي الحسن.

الثاني: أن يكون أضمر المفعول الأول و تقديره و لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا وإياهم سبقوا.

الثالث: أن يقدر على حذف، أن، كأنه قال و لا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا.

قال الزجاج: يقوى ذلك أن في قراءة ابن مسعود إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ بكسر الألف فعلى هذا يكون، إن سبقوا، سداً مسداً المفعولين كما أن قوله: أُحْصِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا<sup>(٤)</sup> كذلك و من فتح الهمزة في إِنَّهُمْ جعل الجملة

متعلّقة بالجملة الأولى و التقدير و لا تحسّبهم سبقوا، لأنّهم لا يفوتون فهم يجازون على كفرهم و من كسر إستأنف الكلام إنتهى كلام الشيخ في التّبيان.

و قال الزّمخشري، كلّ واحدة من المكسورة و المفتوحة تعليل، إلّا أنّ المكسورة على طريقة الإستئناف و المفتوحة تعليل صريح و فى المقام أقوال كثيرة أشار الى بعضها الزّمخشري ثمّ قال هذه الأقاويل كلّها محتملة.

و أمّا نزولها فليل أنّها نزلت فيمن أفلت من الكفّار، فى، بدر، و المعنى لا تظنّهم يا محمّد ناجين مفلتين فإنّهم لا يعجزون طالّبهم بل لا بدّ من أخذهم قبل و ذلك فى الدّنيا، و لا يفوتون بل ليظفرك الله بهم و قيل فى الآخرة الَّذِينَ كَفَرُوا عامّ قاله ابن عبّاس و قوله يعجزون أى يغلمون قال الشّاعر:

و أعجزنا أبو ليلى طفيل  
صحيح الجلد من أثر السّلاح  
و أمّا على قراءة من قرأ بالياء فالمعنى وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا  
أى لا يحسّبن الكفّار الذين سبقوا الى الحياة فى غزوة بدر و لم يقتلوا و عبارة أخرى من أفلت من وقعة بدر سبقوا الى الحياة ثمّ إستأنف الكلام فقال، (أنّهم لا يعجزون) أى لا يفوتون حتّى يظفرك الله بهم و قيل يعنى فى الآخرة و محصّل الكلام فى الآية هو أنّ الله تعالى أعلم المسلمين و أخبرهم بأنّ من لم يقتل فى غزوة بدر بسبب الفرار أو غير ذلك من الكفّار لا يفوتون حتّى يظفرك الله بهم فى الدّنيا أو فى الآخرة فإنّ معنى أعجزه، سبقه وفاته حتّى لم يقدر عليه.

في القرآن  
بفسر القرآن



المجلد الثاني

و فى هذا الكلام إشارة الى أنّه لا يُمكن الفرار من حكومة الله.

قال الله تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ  
إِلَىٰ غَايِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ<sup>(٢)</sup>.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ  
أَعِدُّوا أَمْرًا مِنْ عَدٍّ يَعْنِي هَيَأْ أَمْرَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ لِلْأَعْدَاءِ  
أَيَّ بِإِعْدَادِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّلَاحِ وَآلَةِ الْحَرْبِ وَالْخَيْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا  
يَنْبَغِي إِعْدَادَهُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْإِعْدَادَ إِتْخَاذَ الشَّيْءِ لْغَيْرِهِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي  
أَمْرِهِ، وَلَوْ إِتَّخَذَهُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَحَبَّةً لَمْ يَكُنْ إِعْدَادًا، وَالْإِسْطَاعَةُ مَعْنَى تَنْطَاعُ بِهَا  
الْجَوَارِحُ لِلْفِعْلِ مَعَ إِنْتِفَاءِ الْمَنْعِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: مِنْ قُوَّةٍ أَيَّ مِمَّا تَعْدُونَ بِهِ عَلَى  
عَدُوِّهِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مِنَ الرَّمْيِ وَقَوْلُهُ: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ فَالرِّبَاطُ شَدُّ السَّيْرِ مِنَ  
العقد.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْقُوَّةُ هَاهُنَا السَّلَاحُ وَالْقَسِيُّ وَنَقْلُ الْقَرْطَبِيِّ فِي  
تفسيره.

عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (سَتُنْفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزُ  
أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْا بِأَسْهُمِهِ)

وَقَالَ (كُلُّ شَيْءٍ يُلْهَوُ بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ  
وَمَلَاعِبَتَهُ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْحَقِّ) إِنَّتَهَى.

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الرِّبَاطُ مِنَ الْخَيْلِ فَمَا فَوْقَهَا وَ  
جَمَاعَتُهُ، رُبُطٌ، وَهِيَ الَّتِي تَرْتَبِطُ يَقَالُ مِنْهُ، رَبَطَ يَرْبِطُ، رَبَطًا، وَأَرْبَطَ يَرْبِطُ  
إِرْبَاطًا وَمَرَبِطُ الْخَيْلِ وَرَبَاطُهَا وَهِيَ إِرْبَاطُهَا بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَرَ إِلَهُه بِرَبِطِهَا الْعَدُوَّ فِي الْحَرْبِ أَنَّ اللَّهَ خَيْرُ مُوقِفٍ  
وَقَالَ الْآخَرُ:

تَلُومُ عَلَى حَسْبِ الْجِيَادِ وَرَبِطُهَا وَأَوْصَى بِهَا اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا  
وَرِبَاطُ الْخَيْلِ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَمَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ إِنَّتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.  
تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ يَعْنِي تَخِيفُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ مِنَ  
الْيَهُودِ وَقُرَيْشٍ وَكَفَّارِ الْعَرَبِ فَالْهَاءُ فِي، بِهِ، رَاجِعَةٌ إِلَى الرِّبَاطِ وَذَكَرَهُ لِأَنَّهُ عَلَى

لفظ الواحد و أن كان في معنى الجمع، و الإرهاب إزعاج النفس بالخوف و  
 أُخْرِبْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ قِيلَ المراد بهم، فارس و الرُّوم قاله السّدي و  
 قِيلَ الْجَنّ قاله الطّبري و قيل المراد بذلك كلّ من لا تعرف عداوته و قيل هم  
 بنو قريظة و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة و الكلّ محتمل و لذلك قال: اللَّهُ  
 يَعْلَمُهُمْ فكيف يدّعي أحد علماً بهم و مَا تُتَفَقُّوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ أي ما من شيءٍ تنفقونه في الجهاد إلا والله  
 يوفيكم ثوابه على ذلك على أحسن الوجه.

### تنبية

وَأَعْلَمُ أَنَّ الغرض الأصلي من الآية هو إستعداد المسلمين في كلّ عصر و  
 زمانٍ لحرب الكفّار لو إتّفقت الحرب و لازم ذلك أن لا يكونوا على غفلةٍ منها  
 فَأَنَّ العدوّ ينتهز الفرصة فإذا وجدها أخذ بها قطعاً.

و المراد بالإستعداد هو كونهم مجهّزين بالسّلاح على ما ينبغي و يصلح في  
 كلّ عصرٍ و زمان و من المعلوم أَنَّ السّلاح في عصرنا هذا مثلاً غير السّلاح في  
 صدر الإسلام فَأَنَّ الخيول و الزّباط و القسّي في هذا الزّمان لا أثر لها و لا نفع  
 فيها يعتدّ به كما هو واضح بل السّلاح المتعارف في هذا العصر شيء آخر  
 فينبغي للمسلمين أن يستعدّوا للحرب بما هو المتعارف و المتداول بين النّاس  
 و حيث لم يستعدّوا له فلا محالة صاروا مقهورين مغلوبين في جنب الأعداء و  
 لا مناص لهم إلاّ التّسليم و الإنقياد و هذا هو الحقارة و الذلّة و ذلك لأنّهم لم  
 يسمّعوا كلام الله و لم يعملوا بسنة رسول الله و غفلوا عمّا أمروا به من إعداد  
 القوّة و من كان كذلك فكيف يكون عزيزاً و قد ثبت أَنَّ الإسلام يعلوا و لا يغلى  
 عليه و أَنَّ العزّة لله و لرسوله و للمؤمنين.

و أمّا التّغافل و التّسامح و الإشتغال بالشّهوات و الماديات و الإعراض عمّا  
 فيه العزّة و المكانة فلا يورث إلاّ ما ذكرناه و رأيناه.

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ  
السَّلَامُ بكسر السين وفتحها لغتان، وفيه ثلاث لغات.

الفتح والكسر مع سكون اللام وفتح السين واللام معاً ومعناها المسالمة و  
لذلك أتت في الآية فليل فليل لها، ولم يقل، له، والجنح الميل، فقلوه: وَإِنْ  
جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ أي مالوا الى المسالمة والصلح ومعنى الآية أن مال الكفار الى  
المسالمة وترك المحاربة فأجنح لها أي فأقبل منهم.

قيل أَنَّ الضمير يرجع الى بني قريظة والنضير وقيل على مشركي قريش و  
العرب وقيل على قوم سألوا من رسول الله قبول الجزية منهم و جنح يتعدى  
بالى وباللام والسلم بفتح السين وكسرهما يذكر ويؤث.

قال قتادة هي أي السلم الأمور بها موادة المشركين ومهادنتهم راجع الى  
الإمام فإن رآه مصلحة فعل وإلا فلا.

وقيل نزلت في قوم سألوا الموادة فأمر الله نبيه بالإجابة إليها ثم نسخت  
بقوله وقاتلوا الذين لا يؤمنون، وقيل إداء الجزية، وقال الحسن الإسلام  
مجاهد نسخت بقوله: اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ.

وقال الزمخشري: والصحيح أَنَّ الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام  
صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا  
الى الهدنة أبداً وقال القرطبي قد اختلف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا  
فقال قتادة وعكرمة نسخها:

قال الله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً<sup>(٢)</sup>.

وقالا نسخت براءة كل موادة حتى يقولوا لا إله إلا الله.

وقال ابن عباس الناسخ قوله: فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وقيل ليست



بمنسوخة بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية وقد صالح أصحاب رسول الله في زمن عمر و من بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذه منهم و تركوهم على ما هم فيه و هم قادرون على إستئصالهم و كذلك صالح رسول الله كثيراً من أهل البلاد على ما يؤدونه من ذلك خبير رداً أصلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدوا النصف قال ابن إسحاق عنى بهذه الآية قريظة لأن الجزية تقبل منهم فأما المشركين فلا يقبل منهم شيء.

و قال السدي و ابن زيد معنى الآية أن دعوك إلى الصلح فأجبههم و لا نسخ فيها و قال ابن العربي و بهذا يختلف الجواب عنه و قد قال الله عز و جل: **فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** <sup>(١)</sup> فإذا كان المسلمون على عزّة و قوّة و منعة و جماعة عديدة و شدة شديدة فلا صلح كما قال الشاعر:

فلا صلح حتّى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم  
و أن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يحتلبونه أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدأ المسلمون به إذا احتاجوا إليه و قد صالح رسول الله أهل خيبر على شروطٍ نقضوها فنقض صلحهم و ما زالت الخلفاء و الصحابة على هذا السبيل التي شرعناها سالكة و بالوجوه التي شرحناها عاقلة إنتهى كلامه.  
و قال القشيري إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي أن لا تبلغ الهدنة سنة و إذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين و لا تجوز الزيادة و قد هادن رسول الله أهل مكة عشر سنين إنتهى.

و قال الرازي و أعلم أنه لما بين ما يرهّب به العدو من القوة و الإستظهار بيّن بعده أنهم عند الإرهاب إذا جنحوا أي مالوا إلى الصلح فالحكم قبول الصلح إنتهى كلامه.

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثالث

أقول هذه هي الأقوال المشهورة في تفاسيرهم المعتمدة و قد ظهر منها أن الكفار لو جنحوا و مالوا الى الصلح ينبغي للإمام إجابتهم اليه. و أما القول بالنسخ فهو عاطل باطل لا يعتمد عليه و به صرح الشيخ في التبيان و هو أعرف بمذاهب القوم و فروع المذهب. قال عليه السلام و الصحيح أنها ليست منسوخة لأن قوله أقتلوا المشركين الآية، نزلت في سنة تسع و بعث بها رسول الله الى مكة ثم صالح أهل نجران بعد ذلك على ألفي حلة، ألف في صفر و ألف في رجب انتهى كلامه رفع مقامه. و هذا هو الحق الحقيق بالإتباع عقلاً و نقلاً و ذلك لأن الله تعالى بعث أنبيائه في كل عصر و زمان لإيجاد الصلح بين الناس حتى الإمكان و أما الحرب فلا تكون إلا في صورة الإضطراب فالأصل في الدعوة الصلح.

قال الله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ<sup>(١)</sup>.  
قال الله تعالى: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ<sup>(٢)</sup>.

و إذا كان الأصل في دعوة الأنبياء و الصلح و متابعة الحق فلا معنى لنسخ الآية نعم إذا فرضنا في الكفار عدم قبول الدعوة و مخالفة الحق علناً بالقتال و الفساد في الأرض فلا محالة تقع الحرب و ذلك لقمع مادة الفساد و إيجاد الصلح و لأجل هذه الدققة لا يبعد أن يقال أن غزوات النبي صلى الله عليه و آله و سلم كانت لأجل الدفاع عن الحق و رفع الفتنة التي كانوا أوجدوها لإطفاء نور الحق و سريان الظلم و الفساد في الاجتماع و هذا ظاهر نعم.

إذا كان الكافر مخالفاً و محارباً يجب حربه و هذا أمر آخر و محصل الكلام هو أن مجرد بقاء الكافر على كفره و عدم قبوله الحق لا يوجب الحرب معه إذا

لم يكن حزياً و لكن قبل وقوع الحرب جنح الى السلم فالعقل يحكم بقبول قوله و ترك المحاربة لأن الحرب ليست مقصوداً بالإصالة و إنما هي ثابتة في صورة الإضطراب و ما على الرسول إلا البلاغ المبين و الى هذه النكتة أشار الله تعالى بقوله:

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

لما قال الله تعالى في الآية السابقة: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا حيث أمر النبي بقبول الصلح أفاد في هذه الآية أن الكفار إن قصدوا بالصلح خديعتك فإن حَسْبَكَ اللَّهُ أي إن الله يكفيك، و الخديعة إظهار المحبوب في الأمر للاستجابة له مع إبطان خلافه و المعنى المقصود في الآية هو أن الكفار أن مالوا الى الصلح فأقبل منهم، ثم أنهم أن كانوا صادقين فهو و أن كانوا كاذبين بمعنى أنهم خدعوك بزعمهم فلا تخف فإن الله يكفيك فيرد عنك شر خدعتهم و مكرهم فإن الله هو الذي أيدك بنصره و المؤمنين و ألف بين قلوبهم أي قلوب المؤمنين.

قيل المراد بالمؤمنين الأنصار وبتأليف قلوبهم ما كان الأوس و الخزرج من العداوة والقتال.

و قال مجاهد هو في كل متحابين في الله و إنما كان الجمع على المحبة تأليفاً بين القلوب لأنه مأخوذ من الألفة و هي الاجتماع على الموافقة في المحبة و لا يجوز في الجمع على البغضاء أن يسمي بذلك و قوله: لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ففيه إشارة الى أن قلوب الناس بيد الله و تحت قدرته إذ هو مقلب القلوب و الأبصار.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠  
المجلد الثاني

وهذا مختص به تعالى:

قال الله تعالى: **وَ اَغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا<sup>(١)</sup>**.

وقال في الكفار: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْتَدِينَ<sup>(٣)</sup>**.

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ<sup>(٤)</sup>**.

وقال في المؤمنين: **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً<sup>(٥)</sup>**.

والحاصل أن القلوب تحت قدرة خالقها يتصرف فيها كيف يشاء والى هذا أشار في آخر الآية بقوله: **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** فقوله: **عَزِيزٌ** إشارة الى قدرته على قلب القلوب وقوله: **حَكِيمٌ** إشارة الى أنه تعالى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة وهي التي صارت سبباً للإلفة بين المؤمنين لأن فيها ظهور الحق وإعلاء كلمة التوحيد والدليل عليه ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والبغضاء ولذلك وقع بينهم ما وقع من الحروب التي لولا الإسلام لا تنقضي أبداً ولكنه تعالى من عليهم فبدل عداوتهم بالمحبة ومباغضتهم بالألفة فأصبحوا بنعمته إخواناً ونصروا الإسلام فظهرت كلمة الحق وماتت كلمة الباطل ليظهره على الذين كلّه ولو كره المشركون.

**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول له يكفيك أن يكون ناصرَك على أعدائك هو الله تعالى والذين إتبعوك من المؤمنين أعني بهم المهاجرين والأنصار وإختلفوا في موضع، من، في قوله ومن إتبعك من المؤمنين.

فقال بعضهم أن موضعها الرِّفْع عطفًا على ما قبله و على هذا فسرّه الحسن و جماعة و عليه فالمعنى حسبك الله و المؤمنين.

و قال الآخرون موضعها النَّصْب عطفًا على موضع الكاف لأنّ موضعها النَّصْب على المعنى بيكفيك الله سَدَّتْ حَسْبُكَ مَسْدُهَا و عليه فالمعنى حَسْبُكَ الله و حسب من اتَّبَعَكَ من المؤمنين و بعبارة أخرى حسبكم الله جميعاً.

و قال الكسائي و الفراء و الزجاج يجوز الوجهان و الذي عندي هو أن الوجه الثاني أقوى بالنظر الى المعنى و الأول بالنظر الى اللفظ

و نقل عن الواقدي أنّه قال نزلت الآية في بني قريظة و بنى النَّصِير لما قالوا له نحن نسلم و نَتَّبَعُكَ و الحقّ أن الآية بصدد بيان حكم عقلي لا ريب فيه في جميع الموارد و أن كان موردها خاصاً فإنّ خصوصية المورد لا تنافي عموم الحكم كيف و قد قال.

قال الله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ<sup>(٤)</sup> و غيرها من الآيات.



١- أَلْ عَمْرَان = ١٧٣

٢- الزَّمر = ٣٨

٣- الطَّلَاق = ٣

٤- التَّوْبَة = ١٢٩

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ  
يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ  
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٦) أَلَا نَخَفُّهُ  
عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ  
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ  
يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٧)  
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَنَ فِي  
الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ  
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٨) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ  
اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
(٦٩) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ  
فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي  
قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَ  
يَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧١) وَإِنْ يُرِيدُوا  
خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ  
اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧٢) إِنْ الَّذِينَ أَمَنُوا وَ هَاجَرُوا  
وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ  
الَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
بَعْضٍ وَ الَّذِينَ أَمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ  
وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ

فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ  
بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٣) وَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ  
تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٤) وَ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَ الَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ  
حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٥) وَ الَّذِينَ آمَنُوا  
مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ  
مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي  
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٦)

### ◀ اللغة

حَرَضَ فعل أمر من حَرَضَ تحريضاً و التحريض و الحث، الدُّعاء الأكيد  
بتحريك النفس على أمر من الأمور و ضده التَّقِيته.  
خَفَّفَ فعل ماضٍ مصدره التَّخْفِيف و هو التَّسْهِيل.  
أَسْرَى بفتح الألف جمع أسير مثل جرحى جمع جريح و قتلى جمع قتيل.  
يُثَخِّنُ بضم الياء مضارع أَثَخَنَ و مصدره الإِثْخَان و الإِثْخَانُ في الأرض  
تغليظ الحال بكثرة القتل و قتل الإِثْخَانُ القتل و الثَّخَنُ و الغلظ و الكثافة نظائر.  
أَوْوَا يقال أوى الى كذا إِنْضَمَّ اليه و الباقي واضح.

بُيَاءُ التَّوْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠

المجلد الثامن

### ◀ الإعراب

لَوْلَا كِتَابٌ كِتَابٌ مبتدأ و سَبَقَ صفة له و مِنْ اللَّهِ يجوز أن يكون أيضاً  
متعلقاً بسبق، و الخبر محذوف أي تدارككم خِيَانَتُكَ مصدر خان يخون و

أصل الياء الواو فقلبت لإنكسار ما قبلها و وقوع الألف بعدها في كِتَابِ اللَّهِ في موضع نصب بأولى أي يثبت ذلك في كتاب الله.

### ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ هَذَا أَيْضاً خطاب للنبي ﷺ يأمره الله بتحريض المؤمنين على قتال المشركين ثم قال: إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ شَرْطِيتَانِ فِي ضَمْنَهُمَا الْأَمْرُ بِصَبْرِ عَشْرِينَ لِمِائَتِينَ وَ بِصَبْرِ مِائَةٍ لَأَلْفٍ قِيلَ وَ لِذَلِكَ دَخَلَهَا النَّسْخُ إِذْ لَوْ كَانَ خَبراً مُحْضاً لَمْ يَكُنْ فِيهِ النَّسْخُ لَكِنِ الشَّرْطُ إِذَا كَانَ فِيهِ مَعْنَى التَّكْلِيفِ جَازٍ فِيهِ النَّسْخُ وَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ نَسْخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَا نَخَفُّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ التَّقْيِيدُ بِالصَّبْرِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَرْطٍ لَفْظاً هُوَ مَحْذُوفٌ مِنَ الثَّانِيَةِ لِذِلَالَةِ ذِكْرِهِ فِي الْأُولَى وَ تَقْيِيدُ الشَّرْطِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَفْظاً هُوَ مَحْذُوفٌ مِنَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ: يَغْلِبُوا مِائَتِينَ فَأَنْظَرَ إِلَى فَصَاحَةِ هَذَا الْكَلَامِ حَيْثُ أَثْبَتَ قِيداً مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى وَ حَذَفَ تَطْزِيرَهُ مِنَ الثَّانِيَةِ وَ أَثْبَتَ قِيداً فِي الثَّانِيَةِ وَ حَذَفَ مِنَ الْأُولَى وَ لَمَّا كَانَ الصَّبْرُ مَطْلُوباً أَثْبَتَ فِي أُولَى جُمْلَتَيْ التَّخْفِيفِ وَ حَذَفَ مِنَ الثَّانِيَةِ لِذِلَالَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ ثُمَّ خَتَمَتِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ: وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ قَالَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

أَقُولُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِتَحْرِيزِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ قَالَ: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا صَابِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ كَانُوا كَذَلِكَ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَشْرَةٍ وَ أَمَّا قَالَ تَعَالَى ذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ قُلُوبِهِمْ وَ إِزَالَةِ الْخَوْفِ عَنْهُمْ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا قَلِيلِينَ فِي جَنْبِ الْكُفَّارِ فَوَقَعَ الْخَوْفُ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَزَالَهُ اللَّهُ عَنْهَا بِذَلِكَ وَ اسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَيْ أَنَّهُمْ عَلَى جِهَالَةٍ خِلَافِ

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المطبعة النجدة



من يقاتل على بصيرة و هو يرجو ثواب الآخرة أو لأنهم لا يعلمون ما لهم من إستحقاق الثواب بالقتال و ليس في أمره تعالى بتحريض المؤمنين على القتال دليل على ابتداء فرضية القتال كما قيل بل كان القتال واجباً قبل هذه الآية و أنما جاءت هذه حثاً على أمر واجب.

قال ابن جريح كان عليهم أن لا يفزوا و يثبت الواحد للعشرة و كان رسول الله قد بعث حمزة في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل في ثلاث مائة راكب قيل ثم تقل عليهم ذلك و ضجوا منه و ذلك بعد مدة طويلة فنسخ و خفف عنهم بمقاومة الواحد للثنتين والى هذا المعنى أشار الله بقوله:

الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ فَخَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِمَقَاوِمِ الْوَاحِدِ لِلثَّانَتَيْنِ.

و قد إستفاد بعضهم عن هذه الآية أن كل مسلم بالغ و وقف بأزاء المشركين عبداً كان أو حرّاً فالهزيمة عليه محرمة مادام معه سلاحه يقاتل به فأن كان ليس معه سلاح فله أن ينهزم و إن قابله ثلاثة حلت له الهزيمة و الصبر أحسن انتهى. و في قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ إشارة الى أن النصر والغلبة على الكفار بأذن الله وإرادته و مع ذلك فيه ترغيب في الثبات و الإستقامة للقاء العدو و تبشيراً بأن الله تعالى يؤيد الصابرين لأنه من كان الله معه هو الغالب و الصابرين كذلك.

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ

قيل نزلت في أسرى بدر قبل أن يكثر الإسلام فلما كثر المسلمون قال الله تعالى: فَإِذَا مَنَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ <sup>(١)</sup> و المعنى ما كان لنبي أن يحبس كافراً

فناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

للفداء والمنَّ حتَّى يثخن في الأرض والإثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل.

قال بعضهم هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ والمعنى ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم هذا الأخبار بقوله: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والنبي ﷺ يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قطع عرض الدنيا وأما فعله جمهور مباشري الحرب فالتوبيخ والعتاب أما كان متوجهاً بسبب من أشار إلى النبي ﷺ بأخذ الفدية هذا قول أكثر المفسرين الذي لا يصح غيره انتهى.

أقول ذكر المؤرخون وأرباب السير أن القتلى كانوا ببدر سبعين والأسرى سبعين قتل منهم أمير المؤمنين عليه السلام سبعة وعشرين ولم يؤسر أحداً فجمعوا الأسارى وفرقوهم في الجمال وساقوهم على أقدامهم وجمعوا الغنائم وقتل من أصحاب رسول الله تسعة رجال فيهم سعد بن خثيمة وكان من النقباء فرحل رسول الله و نزل الأثيل عند غروب الشمس وهو من بدر على ستة أميال فنظر رسول الله إلى عقبة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحرث بن كلفة و هما في قرآن واحد فقال النضر لعقبة يا عقبة أنا وأنت مقتولان فقال عقبة من بين قريش.

قال نعم لأنَّ محمداً ﷺ قد نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل، فقال رسول الله ﷺ يا علي، علي بالنضر وعقبة وكان النضر رجلاً جميلاً عليه شعر فجاء علي فأخذه بشعره فجزه إلى رسول الله ﷺ فقال النضر يا محمد أسألك بالرحم بيني وبينك ألا أجرتني كرجلٍ من قريش إن قتلتهم قتلتنني وإن ناديتهم ناديتني وإن أطلقتهم أطلقتنني فقال رسول الله لا رحم بيني وبينك قطع الله الرحم بالإسلام قدمه يا علي فأضرب عنقه فقال عقبة يا محمد ألم تقل لا تصبر قريش أي لا يقتلون صبراً قال ﷺ وأنت من قريش إنما أنت

عَلَجَ مِنْ أَهْلِ صَفْوَرِيَّةَ لِأَنْتَ فِي الْمِيلَادِ أَكْبَرُ مِنْ أَبِيكَ الَّذِي تَدْعِي لَهُ لَيْسَ مِنْهَا قَدَمُهُ يَا عَلِيَّ فَأَضْرَبْ عُنُقَهُ فَقَدَّمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ فَلَمَّا قَتَلَ رَسُولَ اللَّهِ النَّضْرَ وَعُقْبَةَ خَافَتِ الْأَنْصَارُ أَنْ يَقْتَلَ الْأَسَارَى كُلَّهُمْ فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَتَلْنَا سَبْعِينَ وَ أَسْرَنَا سَبْعِينَ وَ هُمْ قَوْمُكَ وَ أَسَارَكَ هَبْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ خُذْ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَ أَطْلِقْهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا فَأُطْلِقْ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْفِدَاءَ وَ يَطْلُقُوهُمْ وَ شَرَطَ أَنْ يَقْتَلَ مِنْهُمْ فِي عَامٍ قَابِلٍ بَعْدَ مَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ فَرَضُوا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ أَحَدٌ قَتَلَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعُونَ رَجُلًا فَقَالَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي أَصَابَنَا وَ قَدْ كُنْتَ تَعْدُنَا بِالنَّصْرِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(١)</sup>.

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول معنى الآية ما كان لنبي أن يحبس كافراً للقداء أي ليس له ذلك حتى يثخن في الأرض، أي حتى يذب الكفر و يقل حزبه و يعز الإسلام و ليستولي أهله من أثخنه المرض إذا أثقله تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا أي حطامها بأخذ القداء وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أي يريد لكم ثوابها وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أي أن الله يغلب أوليائه على أعدائه لأنه يعلم ما يليق بكل حالٍ على أساس المصلحة.

بناءً القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
أي لولا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أنه لا يعذبهم على ذلك.  
و قيل معناه، لولا ما كتب الله فيه أنه يغفر لأهل بدر ما تقدم و ما تأخر.

و قال بعضهم، لولا ما كتبه الله من أن الفدية ستحلّ لهم فيما بعد ذهب اليه سعيد بن جبير و أنما قال تعالى ذلك لأنهم أخذوا الفدية قبل أن يؤذن لهم كان سبق أن الله سيحلّه لهم.

نقل عن الجبائي أنه قال و قد كان من النبي ﷺ في هذا معصية إجماعاً من غير تعيين ما هي و أظنّ أنهما في ترك قتل الأسرى ذكره الشيخ في التبيان. ثم قال ﷺ و هذا الذي ذكره غير صحيح لأنّه لا إجماع في ذلك بل عندنا لا يجوز على النبي فعل شيء من القبائح صغيراً كان أو كبيراً لما في ذلك من التّفير عنه على ما بيّناه في غير موضع و أكثر المفسّرين على أن النبي لم يقع منه خلاف لأمر الله.

و قد روي أنّه ﷺ كره أخذ الفداء حتّى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال يا رسول الله هذا أوّل حرب لقينا فيه المشركين أردت أن يثخن فيهم القتل حتّى لا يعود أحد بعد هذا الى خلافك و قتالك فقال رسول الله قد كرهت ما كرهت و لكن رأيت ما صنع القوم فالمعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا الى الدنيا و أخذ الفداء.

و قال البلخي أيضاً أن أجلاء الصحابة براء من ذلك انتهى كلامه.

و أنا أقول ما ذكره ﷺ في جواب الجبائي يكفيانا و لا نحتاج الى بيان خطأ الجبائي في المقام تفصيلاً و الذي نزيده في الجواب هو أنّه قد ثبت عصمة الأنبياء عقلاً و نقلاً فكان الجبائي لم يسمع هذا و إدعى الإجماع على تحقّق المعصية عنه ﷺ.

أليس هذا مخالفاً لعصمته ﷺ و من إنتفت العصمة في حقّه لا يعتمد على قوله و فعله و للبحث فيها مقام آخر.

قال أبو جعفر عليه السلام كان الفداء يوم بدر لكل رجل من المشركين أربعين أوقية من فضة و الاوقية أربعون مثقالاً إلا العباس بن عبد المطلب فإنّ فداءه كان مائة أوقية و كان أخذ منه حين أسر اثنين و عشرين أوقية ذهباً فقال النبي ﷺ

ذاك غنيمة ففاد نفسك وإبني أخيك عقيب و نوفل إبني الحارث بن عبد المطلب فقال العباس ليس معي فقال رسول الله ﷺ أين الذهب الذي سلمته الى أم الفضل و قلت إن حدث بي حدث فهو لك و للفضل و عبد الله و ميثم فقال العباس من أخبرك بهذا قال ﷺ الله، قال أشهد أنك رسول الله و الله ما إطلع على هذا أحد إلا الله تعالى.

**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**  
 قد أباح الله بهذه الآية أكل الغنيمة مما أخذه من أموال المشركين بالقهر من دار الحرب فقلوه: **فَكُلُوا** و أن كان أمراً لفظاً إلا أن المراد به الإباحة و رفع الحظر و الفرق بين الغنيمة و الفئ هو أن الغنيمة ما أخذ من دار الحرب على سبيل القهر و الغلبة و أما الفئ فهو ما رجع الى المسلمين و أنتقل اليهم من المشركين. و أنما قال تعالى: **حَلَالًا طَيِّبًا** ولم يقل مباحاً لأن الحلال من حل العقد في التحريم و المباح من التوسعة في الفعل و إن اجتمعا في الحل.  
 و قوله: **طَيِّبًا** فالطيب المستلذ فهو شبه الحلال، و الله تعالى أباح لهم بهذه الآية الغنيمة و أمرهم بالتقوى فقال: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ** أي إتقوا معاصيه أو إتقوا عن أكل ما لا يحل لكم، **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَ يَعْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**  
 قرأ أبو عمرو وحدة من السبعة و أبو جعفر، الأسارى و الباقون، الأسرى، و الأسير من أخذ من دار الحرب من أهلها و لو أخذ مسلم لكان قد فك أسره خاطب الله تعالى في هذه الآية نبيه و أمره أن يقول لهؤلاء الأسرى الذين كانوا تحت يده أي تحت إختياره و قدرته لأن من حصل في وثاقه بمنزلة ما قبض على يده بالاستيلاء عليه و لذلك يقال للملك المتنازع فيه لمن اليد، كما يقال على اليد ما أخذت حتى تؤديه.

والحاصل أن اليد كناية عن الإستيلاء، إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا أَيْ  
 قل لهم أن يعلم الله في قلوبهم خيراً أي إسلاماً.

و قيل خيراً في المستقبل بأن يفعلوه و الخير هو النَّفْع العظيم قالوا المراد به في المقام البصيرة في دين الله و حسن النّية في أمره **يُؤْتِكُمْ خَيْرًا** أي يعطيكم خيراً ممّا أخذ منكم من الفداء **وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** أي يغفر لكم معاصيكم و يسترها عليكم فأنّه غفورٌ رحيمٌ.

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية معطوفة على السابقة والمعنى أنَّ هؤلاء الأسارى أن علم الله في قلوبهم خيراً خلف عليهم خيراً ممَّا أخذ منهم و أن عزموا على الخيانة و نقض العهد و فعلوا خلاف ما وقع عليه العقد من تأديّة فرض الله فقد خانوا الله من قبل هذا و المعنى فقد خانوا أولياء الله و المراد بالخيانة هاهنا نقض عهد الطاعة لله و رسوله.

وَأَمَّا قَلْنَا فَقَدْ خَانُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَعَ أَنَّ اللَّهَ مُصَرِّحَةٌ بَأْتَهُمْ خَانُوا اللَّهَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِالْأَسْرَارِ وَالظُّوَاهِرِ عَالِمٌ بِالشَّيْءِ كُلِّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَخَانَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَأَمَكَنَ مِنْهُمْ فَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمَّا خَانُوا بَأْنَ خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَقَاتَلُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ أَمَكَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِأَنْ غَلَبُوا وَاسْرُوا فَأَنْ خَانُوا ثَانِيًا فَيُمْكِنُ اللَّهُ مِنْهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ وَالْإِمْكَانُ هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الشَّيْءِ مَعَ رَفْعِ الْمَانِعِ.

و قال الكرمانى فى معنى الآية وأن يُريدوا يعنى الأسرى خيانتك يعنى نقض ما عهدوا معك فقد خانوا الله بالكفر والشرك قبل العهد وقيل قبل بدر.

و نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن الأزهري أنّه قال مفعول الإمكان محذوف و المعنى فأمكن المؤمنين منهم أي أنّهم لما خانوا الله بما أقدموا

عليه من محاربة الرسول يوم بدر فأمكن الله منهم قتلاً وأسراً وذلك نهاية الإمكان والظفر فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثم فإن عادوا كان التمكن منهم ثابتاً حاصلًا وفيه بشارة للرسول ﷺ بأنه يتمكن من كل من يخونه و ينقض عهده.

ثم قال والله عليمٌ ببواطنهم و ضمائرهم حكيمٌ يجازيهم بأعمالهم كيف يشاء على طبق المصلحة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إعلم أن الله تعالى قسم المؤمنين في عهد الرسول الى قسمين و ذلك لأن الرسول ﷺ بعث في مكة و دعا الناس فيها الى الإسلام فقال لهم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا فمنهم من آمن به و منهم من كفر فالمؤمنون هم الذين أجابوا دعوته و دخلوا في الإسلام و الكافرون أنكروا دعوته و بقوا على كفرهم ثم أن المؤمنين قسمهم الله تعالى أيضاً الى قسمين:

قسم منهم هاجروا مع الرسول من مكة الى المدينة و هم الذين سماهم الله المهاجرين.

و صنف آخر منهم لم يهاجروا معه و بقوا في مكة، ثم أن المؤمنين المهاجرين أيضاً على صنفين:

صنف منهم جاهدوا بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة مع الرسول و صنف آخر هاجروا و لكن لم يجاهدوا كذلك بل أكلوا و أنكحوا و ناموا على فراشهم منتهزين للفرصة لأنهم دخلوا في الإسلام طمعاً لا إعتقاداً اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَي فِي مَكَّةَ وَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَ جَاهَدُوا فِيهَا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا، يعني النبي

والمراد بهم الأنصار في المدينة وذلك لأن الأنصار أووا و نصروا المهاجرين في بيوتهم وذلك لأن الرسول ﷺ والمهاجرين لما هاجروا من مكة الى المدينة فلولا أن الأنصار أووا و نصروا و بذلوا النفس و المال في خدمة الرسول و إصلاح مهمات أصحابه من حيث المسكن و غيره مما يحتاج اليه الإنسان في معيشته لما تم المقصود البتة و هذا هو المراد بقوله تعالى: **أَوْوَا وَ نَصَرُوا أَوْلِيكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**.

قال صاحب الكشف أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث و كان المهاجرون و الأنصار يتوارثون بالهجرة و النصرة دون ذوي القربايات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** إنتهى كلامه. و قال القرطبي، نقلاً عن ابن عباس، أولياء بعض في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة و كان لا يرث من آمن و لم يهاجر من هاجر فنسخه الله ذلك بقوله: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ** قال أخرجه أبو داود و صار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين و لا يتوارث أهل ملتين شيئاً ثم جاء قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلحقوا الفرائض بأهلها و قيل ليس هنا نسخ و إنما معناه في النصرة و المعونة انتهى.

و قال الطبري و قد قيل أنما عني بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض و أن الله ورت بعضهم من بعض بالهجرة و النصرة دون القربايات و الأرحام ثم ذكر لتأييد مقالته بعض الأخبار الواردة عن ابن عباس و غيره و بهذه المقالة قال جميع المفسرين من العامة فيما رأيناه في تفاسيرهم و لم يخالف فيها أحد و ذلك لأنهم أجمعوا على أن المراد بالولاية في قوله: **أَوْلِيكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ** **بَعْضُ** الولاية في الميراث أو المؤازرة في قول ابن إسحاق و حيث أنه متفرّد به طرده.

و قال الطبرسي رحمه الله منا و هو من أعظم المفسرين في نزول الآية ما هذا لفظه قيل نزلت في الميراث و كانوا يتوارثون بالهجرة فجعل الله الميراث للمهاجرين و الأنصار دون ذوي الأرحام و كان الذي آمن و لم يهاجر لم يرث



من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله: **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** فنسخت الآية و صار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين و لم يتوارث أهل ملتين عن ابن عباس و الحسن و قتادة و مجاهد و السدي انتهى.

ثم قال عليه السلام عند تفسيره لقوله تعالى: **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** أي هؤلاء بعضهم أولى ببعض في النصرة وأن لم يكن بينهم قرابة من أقرباءهم من الكفار و قيل في التوارث عن ابن عباس و الحسن و قتادة و مجاهد و السدي و قيل في التناصر و التعاون و الموالاة في الدين عن الأصم و قيل في نفوذ أمان بعضهم على بعض فأول واحد من المسلمين لو آمن إنساناً فقد أمانه على سائر المسلمين انتهى كلامه رفع مقامه.

**أقول** يظهر من كلام الطبرسي أن المسألة ليست إتفاقية بل تكون خلافة فأول قوله و قيل في التناصر و التعاون و الموالاة في الدين إلى آخر ما قال يدل على ما ذكرناه.

و قال صاحب تفسير الميزان الولاية أعم من ولاية الميراث و ولاية النصرة و ولاية الأمن فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع فالبعض من الجميع ولي البعض من الجميع كالمهاجر ولي كل مهاجر و الأنصاري، و الأنصاري ولي كل أنصاري و مهاجر كل ذلك بدليل الإطلاق في الآية فلا شاهد إلى صرف الآية إلى ولاية الأثر بالمواخاة التي كان النبي جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت انتهى كلامه عليه السلام.

و الذي يظهر من كلامه هو عدم تخصيص الولاية في الآية بالميراث بل هي أعم منه في المقام و أن كانوا يتوارثون بها زماناً و عليه فالمراد بالولاية معناها العام الشامل لجميع الأقسام و أنت إذا تأملت في كلامه تجده موافقاً لما ذكره الطبرسي عليه السلام و الذي يظهر من كلام جميع المفسرين من العامة و الخاصة أن

التَّوَارِثَ بَيْنَهُمْ أَي بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كَانَ بَاقِيًا إِلَى أَنْ نَسَخَتِ الْآيَةُ مِمَّا لَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ وَ يُؤَيِّدُهُ مَا فِي وَرْدٍ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ.

قَالَ الْفَيْض رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الصَّافِي فِي الْمَقَامِ أَي يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمِيرَاثِ الْقَمِيِّ لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ أَخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَ الْأَنْصَارِ وَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ يَرِثُهُ أَخُوهُ فِي الدِّينِ وَ يَأْخُذُ الْمَالِ وَ كَانَ لَهُ مَا تَرَكَ دُونَ وَرَثَتِهِ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ بَدْرِ أَنْزَلَ اللَّهُ، **أَنْتَبِئُوا أُولَى بِأَلْفُؤْمِنِينَ** فَنَسَخَتْ وَ فِي الْمَجْمَعِ عَنِ الْبَاقِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالْمُؤَاخَاةِ الْأُولَى دُونَ التَّقَارُبِ حَتَّى نَسَخَ ذَلِكَ وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أُولَى بِبَعْضٍ انْتَهَى.

وَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَقَدْ أَنْكَرَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ كَوْنَ الْوَلَايَةِ فِي الْمِيرَاثِ فَقَالَ أَنَّ لَفْظَ الْوَلَايَةِ غَيْرُ مُشْعِرٍ بِهَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُشْعِرٌ بِالْقُرْبِ وَ لَا يَفِيدُ الْأَرْثَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَلَا إِنَّ أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** <sup>(١)</sup> إِلَى أَنْ قَالَ فَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى غَيْرِ الْأَرْثِ وَ هُوَ كَوْنُ بَعْضِهِمْ مَعْظَمًا لِلْبَعْضِ مَهْتَمًا بِشَأْنِهِ مَخْصُوصًا بِمَعَاوَنَتِهِ وَ مُنَاصَرَّتِهِ وَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ وَ أَنْ يَكُونَ حَبٌّ كُلٌّ وَاحِدٌ لْغَيْرِهِ جَارِيًا مَجْرَى حَبِّهِ لِنَفْسِهِ وَ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمَلًا لِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ حَمْلُهُ عَلَى الْأَرْثِ بَعِيدًا عَنْ دَلَالَةِ اللَّفْظِ لَا سَيِّمًا وَ هُمْ يَقُولُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ صَارَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أُولَى بِبَعْضٍ** وَ أَيُّ حَاجَةٍ تَحْمِلُنَا عَلَى حَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَى لَا إِشْعَارَ لِذَلِكَ اللَّفْظِ بِهِ ثُمَّ الْحُكْمَ بِأَنَّهُ صَارَ مَنْسُوخًا بِآيَةٍ أُخْرَى مَذْكُورَةٍ مَعَهُ فِي غَايَةِ التَّبَعْدِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا حَصَلَ إِجْمَاعُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ ذَلِكَ مَحْ يَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ بَعِيدَ انْتِهَى كَلَامِهِ.

و لقائل أن يقول من حمل لفظ الولاية على الميراث والعجب من الزازي أنه أطال الكلام في ردّ من حمّله على الميراث و تمسّك في آخر كلامه بالإجماع أن ثبت و لم يعلم أن حمل لفظ الولاية على الميراث لا يقول به عاقل فضلاً عن هؤلاء الأعلام من الخاصّة والعامة و أنما قالوا أريد بالولاية هنا هذا القسم الخاصّ منها أعني به الميراث لا أنّ الولاية بمعنى الميراث فإنّ لها معانٍ متكرّرة متعدّدة وإذا كان كذلك فحمل اللفظ على بعض مصاديقه دون بعض بسبب قرينة حالية أو مقالية لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: وهم يقولون أنّ ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله في آخر الآية. ففيه أنهم لم يقولوا أنّه منسوخ بقوله في آخر الآية بل قالوا أنّ الحكم منسوخ بقوله: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** وهو آية أخرى في موضعها بعد ثلاث آيات و أيّ إشكالٍ فيه فإنّ في الآيات ناسخة و منسوخة. و الحاصل أنّه لم يتوجّه إلى ما قال فقال ما قال و محصّل الكلام من أول الآية إلى قوله: **أُولِيَاءُ بَعْضٍ** هو أنّ المؤمنين المهاجرين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أعني بهم المهاجرين، و الذين أووهم و نصرّوهم في المدينة أعني بهم الأنصار.

**أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولِيَاءُ بَعْضٍ** في جميع شؤون الولاية سواء قلنا أنها بمعنى المحبّة أو النصرة أو الأمن أو الميراث أو غير ذلك و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

**وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا**

ففيه إخراج المؤمنين الذين لم يهاجروا مع النبي و بقوا في مكّة عن حكم الولاية و لذلك قال مالكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا.

و يستفاد من هذا الكلام أنّ ولاية بعضهم على بعض مختصّ بالمؤمنين المهاجرين فقط فليس للجهاد بالأموال و الأنفس في إثبات الولاية حظّ نصيب و الدليل عليه قوله: **حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** و لم يقل و يجاهدوا و الخ ...

فَأَثَبَ اللَّهُ الْوَلَايَةَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَوْلُهُ: وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ وَالْمَعْنَى: إِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ أَيْ طَلَبُوا مِنْكُمْ النُّصْرَةَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَقُوا فِي مَكَّةَ وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَعَكُمْ فِي الدِّينِ لَا فِي غَيْرِهِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ أَيْ أَنْصَرُوهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُصْرَةُ الدِّينِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَقَوْلُهُ فِي الدِّينِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النُّصْرَةَ لَا تَجِبُ فِي غَيْرِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعَلَيْهِ فَنُصْرَةُ هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ نُصْرَةُ الدِّينِ وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الْوَاجِبَاتِ.

ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيْ: إِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَعَهْدٌ فَلَا تَنْصَرُوهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُوجِبُ نَقْضَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَهُوَ لَا يَجُوزُ قِطْعًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ<sup>(٣)</sup>.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا تَخْفُونَ أَوْ تُعْلِنُونَ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكافرين. وقال: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** بعضهم أولياء بعض و الولاية بمعنى النصرة أي ينصر بعضهم بعضاً كما كان كذلك في المؤمنين، قل كل يعمل على شاكلته فأن الجنس الى الجنس يميل و قانون السنخية لا يقبل التخصيص في العقلیات ثم حذرهم الله عن المخالفة و قال: **إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ**.

قل ضمير الهاء في، تفعلوه، عائدة الى معنى ما أمروا به في الآية الأولى و الثانية و مخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر و تقديره، **إِلَّا تَفْعَلُوا** ما أمرتم به من التناصر و التعاون في قوله: **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** والبراءة من الكفار في قوله: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** تكن فتنة في الأرض و فساد كبير على المؤمنين الذين لم يهاجروا فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الى الضلال.

و قال بعض المفسرين ظاهره إثبات المولاة بينهم كقوله في المسلمين و معناه نهى المسلمين عن المولاة الذين كفروا و مواريثهم و إيجاب مساعدتهم و مصادقتهم و أن كانوا أقارب و أن يتركوا، يتوارثون بعضهم بعضاً.

و قال الآخر لما ذكر أقسام المؤمنين الثلاثة و أنهم أولياء ينصر بعضهم بعضاً و يرث بعضهم بعضاً بيّن أن فريق الكفار كذلك اذ كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ ينادي أهل الكتاب قريشاً و يتربصون بهم الدوائر فصاروا بعد بعثته يوالي بعضهم انتهى.

و قال بعضهم أن الضمير المنسوب في تفعلوه عائد على الميثاق أي على حفظه أو على النصر أو على الإرث أو على مجموع ما تقدم أقوال أربعة.

و قال الزمخشري أي أن لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين و تولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة و لم تقطعوا العلائق بينكم و بين الكفار و لم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض و مفسدة عظيمة لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً و الفساد زائداً.

و قيل المراد بالفتنة في الأرض قوة الكفر و بالفساد الكبير ضعف الإسلام و هذه الأقوال كما ترى ترجع الى أصل واحد و أن كانت الألفاظ و التعابير مختلفة و الجامع بينها هو أن المؤمنين لو لم تكن الولاية فيهم ثابتة بأن لا يكون بعضهم أولياء بعض يكون الاختلاف حاكماً عليهم لا محالة و اذا كان كذلك فلا قدرة لهم لدفع الشرور و الآفات الواصلة اليهم من ناحية الكفار فيصير الكفر قوياً و الإسلام ضعيفاً و من المعلوم أن الفتنة و الفساد و الظلم و أمثال ذلك من شئون الكفر و الباطل.

و أما الإسلام فقد جاء لرفع الفتنة و دفعها لا إيقاعها و إظهارها فقوله: تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ من شئون الكفر و قوته و قوة الكفر من ضعف الإسلام و أهله و هو ظاهر.

و الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ  
لما أثبت في الآية السابقة الولاية للمؤمنين المهاجرين، و الذين آووا و نصروا و هم الأنصار فقال: أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ عَلَى مَا مَرَّ بِهِ أَنَّهُ أَثْبَتَ فِي الْمَقَامِ لَهُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَ الْمَغْفِرَةَ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ، فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ تَكَرُّرٌ لِإِخْتِلَافِ الْغَايَةِ فِيهِمَا وَ فِي قَوْلِهِ حَقًّا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَهُ مَرَاتِبٌ فِي الشَّدَّةِ وَ الضَّعْفِ فَهُوَ كُلِّيٌّ مُشَكِّكٌ يَصْدُقُ عَلَى مُصَادِقِهِ شَدَّةً وَ ضَعْفًا وَ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْهُ أَثَارٌ وَ عَلَامَةٌ يَعْرِفُ بِهَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى حَقًّا، أَيَّ أَنَّهُمْ أَدْرَكُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَ وَصَلُوا إِلَى كُنْهِهِ وَ بَاطِنِهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى هَذَا الْمَقَامِ.

و قد أشار الله تعالى إلى هذا في كثير من الآيات.

مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ

الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ،<sup>(١)</sup> والآيات في الباب كثيرة جداً.

و في قوله: مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ إخبار منه تعالى أَنَّ لهؤلاء المغفرة لذنوبهم  
في الآخرة و الرزق الكريم الواسع في الدنيا فهم في الحقيقة جمعوا بين الدنيا و  
الآخرة ببركة إيمانهم و من فاز بسعادة الدارين فقد فاز فوزاً عظيماً و لنعم ما قيل:  
وَأخْرُ فَازَ بِكِلْتُمَا  
قد جمع الدنيا مع الآخرة

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ  
أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ

في هذه الآية إخبارٌ منه تعالى بأنَّ المؤمنين الذين هاجروا بعد هجرتهم قبل  
الفتح أو بعده ثُمَّ لحقوا بهم في دار الهجرة و جاهدوا معهم في سبيل الله  
حكمهم حكمهم في وجوب الموالاة و الموارث و النُّصرة و الى هذا المعنى  
أشار بقوله: فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ و ذلك لأنَّ الملاك فيهم موجود الإيمان و الهجرة و  
الجهاد و وجود السَّبب يلزم المسبب و التَّقَدُّم و التَّأخُّر من حيث الزَّمان لا يغيِّر  
المِلاك فاذا كان الملاك في ثبوت الولاية بعضهم لبعض هو الإيمان و الهجرة  
و الجهاد كما هو كذلك فهو قد حصل في حقِّ المؤمن المهاجر المتأخِّر أيضاً.

وَأَمَّا قوله: وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَي في  
حكم الله و قيل في اللُّوح المحفوظ فمعناه أَنَّ الأقرب الى الميِّت أولى من غير  
الأقرب في الإرث و ذلك لأنَّ الأقرب يمنع الأبعد سواء كان عصبية أم لم يكن و  
سواء كان له تسمية أم لا و ذلك لأنَّ الأقربى تبطل التسمية ثُمَّ أَنَّ هذه الآية  
نسخت حكم التَّوارث بالنُّصرة و الهجرة على ما مرَّ هذا على قول من ذهب أنَّ  
الولاية في الآية الأولى في قوله أولياء بعض ولاية الميراث.

فِي الْقُرْآنِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠

بِسْمِ اللَّهِ

وَأَمَّا عَلَىٰ قَوْلٍ مِّن ذَهَبٍ إِلَىٰ أَنَّهَا وَلَايَةُ النَّصْرَةِ فَلَا نَسْخَ أَصْلًا بَلْ هُمَا مُحْكَمَتَانِ وَقَوْلُهُ: **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا وَالْعَلَّةُ فِيهِ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِذَاتِهِ بَلِ الْعِلْمُ عَيْنُ ذَاتِهِ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ ذَاتَهُ عِلَّةٌ لُّوْجُودِ الْأَشْيَاءِ فَلِأَشْيَاءٍ مَّعْلُولٍ لَهُ وَالْعِلْمُ بِالْعِلَّةِ مُسْتَلْزَمٌ لِلْعِلْمِ بِالْمَعْلُولِ تَفْصِيلاً وَلَا عَكْسَ فَهُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا سِوَاهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

\* \* \*





## سُورَةُ التَّوْبَةِ

سورة براءة، قد تسمى بالتوبة

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ  
 وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ  
 مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ  
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ  
 إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ  
 بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ  
 عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ  
 لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ  
 إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا  
 أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ  
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا  
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ  
 آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
 (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

### ◀ اللغة

بَرَاءَةٌ يُقال بِرِيٌّ بَرَاءَةُ الْبَرَاءَةِ معناها إنقطاع العصمة و قال الرَّاغِب في المفردات التَّبري التَّقْصِي مِمَّا يكره مجاورته و لذلك قيل برأت من فلان أو برأت من المرض.

فَسَيِّحُوا أَمْرٌ مِنْ سَاحِ يَسِيحُ سَيِّحاً وَ سَيَاحَةٌ وَ السَّيْحُ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَهْلٍ.

أَذَانٌ، الْأَذَانُ الْإِعْلَامُ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ النَّدَاءُ الَّذِي يَسْمَعُ بِالْأُذُنِ.

وَلَمْ يُظَاهِرُوا: الْمَظَاهِرَةُ الْمَعَاوَنَةُ عَلَى الْعَدُوِّ لِلظُّهْرِ عَلَيْهِ.

أَنْسَلَخَ، الْإِنْسِلَاحُ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ مِمَّا لَا بَسَّهْ وَمِنْهُ سَلَخَ الشَّاةُ إِذَا نَزَعَ الْجِلْدَ عَنْهَا.

أَسْتَجَارَكَ أَي طَلَبَ مِنْكَ الْجَارَ وَ قِيلَ الْمَعْنَى إِسْتَأْمَنَكَ

### ◀ الإعراب

بَرَاءَةٌ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: هُوَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَي هَذَا أَوْ هَذِهِ بَرَاءَةٌ وَ مِنْ اللَّهِ نَعْتُ لَهُ وَ إِلَى الَّذِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَرَاءَةٍ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَ مِنْ اللَّهِ نَعْتُ لَهُ وَ إِلَى الَّذِينَ الْخَبَرُ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرُ ظَرْفٍ لِنَفْسِيحُوا أَذَانٌ مِثْلُ بَرَاءَةٍ وَ إِلَى النَّاسِ مُتَعَلِّقٌ بِأَذَانٍ أَوْ خَبَرٍ لَهُ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ هُوَ خَبَرٌ لِأَذَانٍ، أَوْ صِفَةٌ لَهُ وَ رَسُولُهُ بِالرَّفْعِ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ فِي بَرِيٍّ، أَوْ هُوَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَوْ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ الْإِبْتِدَاءِ وَ قَدْ يَقْرَأُ رَسُولُهُ بِالنَّصْبِ

عطفًا على إسم، أن، و يقرأ بالجرّ شاذًا و هو القسم و لا يكون عطفًا على المشركين لأنه يؤدّي الى الكفر إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ فِي مَوْضِعٍ نَّصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ الْمَشْرُكِينَ أَوْ أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَ الْخَبَرُ، فَأَتَمُّوا شَيْئًا فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ وَ إِنَّ أَحَدَهُ هُوَ فَاعِلٌ لِّفَعْلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ مَا مَأْمَنَهُ مَفْعَلٌ مِنَ الْأَمْنِ مكان.

### ◀ التفسير

قال صاحب الكشاف لها عدّة أسماء براءة، التّوبة، المقشقة، المبصرة، المشردة، المخزية، الفاضحة المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدممة. و قال قد اختلف أصحاب رسول الله فقال بعضهم، الأنفال و براءة سورة واحدة.

و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان، و تركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة انتهى. ثم أن هذه السّورة مدنية على ما قيل و قال بعضهم الأيتين من آخرها فأنهما نزلتا بمكة و هذا قول الجمهور.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

البراءة إنقطاع العصمة و منه برأت من الدّين أو من فلان و هي مرفوعة على الإبتداء و قوله: إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ خبره و، من الله، صفة مسوغة لجواز الإبتداء بالتّكرة و قيل براءة، مرفوعة على الخبر و المبتدأ محذوف أي هذه براءة.

و قرأ بعضهم، براءة بالنّصب أي ألزموا و فيه معنى الإغرار. و قال الزّمخشري أي إسمعوا براءة.

**إِعلم** أنَّ المفسرين اختلفوا في سبب سقوط البسملة من أوّل هذه السّورة على أقوال:

**الأوّل:** قيل كان من شأن العرب في زمان الجاهليّة اذا كان بينهم وبين قوم عهد و أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتاباً و لم يكتبوا فيه بسملة فلمّا نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي و المشركين بعث بها النبي عليّاً عليه السلام فقرأها عليهم في الموسم و لم يسمل في ذلك على ما جرت عادتهم في نقض العهد من تركها.

**الثاني:** ما عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم الى أن عمدتم الى الأنفال، و هي من المثاني و الي، براءة و هي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و وضعتوها في السبع الطّوال فما حملكم على ذلك.

قال عثمان أنّ رسول الله كان اذا أنزل عليه الشّي يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذا في السّورة التي فيها كذا و كذا و تنزل عليه الآيات فيقول ضعوا الآيات في السّورة التي يذكر فيها كذا و كذا و كانت الأنفال من أوائل ما أنزل و براءة من آخر القرآن و كانت قصّتها شبيهة بقصّتها و قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و لم يُبين لنا أنّها منها فظنّنت أنّها منها و من ثمّ قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

**الثالث:** روي عن عثمان أيضاً أنّه لما سقط بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ معه و روي عن ابن عجلان أنّه بلغه أنّ سورة براءة كانت تعدل البقرة أو قربها فذهب منها فلذلك لم يكتب بينهما البسملة و نقل ذلك عن سعيد بن جبير أيضاً.

**الرابع:** قالوا لمّا كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال بعضهم براءة و الأنفال سورة واحدة و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال أنّهما سورتان و تركت بسم الله

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً وثبتت حجتاهما في المصحف.

**الخامس:** عن ابن عباس أنه قال قلت لعليّ ابن أبي طالب لم لم يكتب في براءة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال لأنّ بِسْمِ اللَّهِ أمان و براءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان و لذلك لم يجمع بينهما فَأَنْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رحمة و براءة نزلت سخطة و مثله عن سفيان بن عيينة فأثّه قال أنما لم تكتب في صدر هذه السّورة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لأنّ التسمية رحمة و الرّحمة أمان و هذه السّورة نزلت في المنافقين و بالسيف و لا أمان للمنافقين.

**و قول سادس:** و هو أنّ التسمية لم تكتب لأنّ جبرئيل عليه السلام ما نزل بها في هذه السّورة قاله القيشري نقل هذه الأقوال القرطبي في تفسيره.

ثمّ قال و في قول عثمان قبض رسول الله ﷺ و لم يبيّن لنا أنّها منها دليل على أنّ السّور كلّها إنتظمت بقوله و تبينه و أنّ براءة وحدها ضمّت الى الأنفال من غير عهدٍ من النّبي ﷺ لما عاجله من الحمام قبل تبينه لذلك و كانتا تدعيان القريبتين فوجب أن تجمعما و تضمّ إحدايهما الى الأخرى للوصف الذي لزمهما من الإقتران و رسول الله ﷺ حيّ.

قال ابن العربي هذا دليل على أنّ القياس أصل في الدّين ألا ترى الى عثمان و أعيان الصّحابة كيف لجأوا الى قياس الشّبه عند عدم النصّ و رأوا أنّ قصّة براءة شبيهة بقصّة الأنفال فألحقوها بها فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام انتهى كلامه.

**أقول** ما نقله القرطبي في المقام من الأقوال لا بأس به لأنّ نقل الأقوال صحيحاً كان أو باطلاً لا إشكال فيه و لا حرج فيه على الناقل.

و أمّا قوله في عثمان و أنّه قال أنّ رسول الله لم يبيّن لنا أنّها منها فهو دليل على أنّ السّور كلّها إنتظمت بقوله أي بقول عثمان و تبينه و أنّ براءة وحدها ضمّت الى الأنفال من غير عهدٍ من النّبي الى قوله فوجب أن تجمعما و تضمّ

أحدايهما الى الأخرى و رسول الله حيّ، فهو كلام لا يصح ولا ينبغي الإعتماد عليه إلا على قول من يقول بالقياس مع أنّه أيضاً غلط لكونه مع الفارق و ذلك لأنّ ما فعله عثمان من ضمّ إحدى السورتين الى الأخرى كما إعتترف به المستدل لا يدلّ على أنّ الرسول لو كان حياً كان كذلك و من أين ثبت للقرطبي أنّه لو كان الرسول حياً رضى بذلك و مجرد عدم تبين الرسول في حياته لو ثبت لا يدلّ على ما إدّعه المستدل بل يدلّ على سكوت من بعده لقوله ﷺ **أُسْكُتُوا عَمَّا سَكَتَ اللَّهُ عَنْهُ** و من المحتمل أن يكون في عدم تبينه وجه من المصالح الخفية فإذا فرضنا أنّ النبي لم يضمّ إحدى السورتين الى الأخرى في حياته لمصلحة خفية لا يجوز لأحد بعده ضمّ إحدايهما الى الأخرى و هذا هو مقتضى الإيمان.

و أمّا مانقله عن ابن العربي من أنّ هذا دليل على أنّ القياس أصل في الدين و إستدلاله بأنّ عثمان و أعيان الصحابة لجأوا الى قياس الشبه عند عدم النص فهو طريف جداً فكأنّ ابن العربي لم يعلم أنّ عمل عثمان و غيره من الصحابة ليس بحجة في الدين و إلا يلزم الحكم بصحة جميع ما أبدعوه في صدر الإسلام من البدع المنكرة التي لا شك في خروجها من الإسلام كتحریم عُمر المتعتين و إدخاله، الصلاة خير من النوم، و في الأذان و الإتيان بالصلاة المندوبة جماعةً.

و منع أبي بكر فاطمة الزهراء عليها السلام عن ميراثها و هكذا ما فعله عثمان و معاوية لأنّ الصحابة لم ينكروا عليهم على قول ابن العربي و العجب منهم أنّهم يستدلون على إثبات مدّعاهم بعمل عثمان و أمثاله و لا يستدلون بعمل رسول الله ﷺ في المقام و غيره أليس يقولون أنّ رسول الله لم يبيّن هذا في حياته فلو كان ما ذكروه حقاً فلم لا يتأسون به أليس السكوت منه ﷺ حجة عليهم فالقول بأنّ ما فعله الرسول ليس من الحجة على إثبات المدّعي و أمّا ما فعله عثمان فهو حجة و عليه تبني صحة القياس ممّا لا يقول به عاقل فضلاً عن

في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

فاضلٍ و أعجب منه ما فرّعه على كلامه بقوله فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام.

و لم يعلم أن الله لم يبيّن دخول القياس في تأليف القرآن أصلاً فأن بيّن ذلك أين موضعه، بل الذي أدخل دخول القياس فيه هو عثمان لو كان على ما إعترفوا به و لم يثبت أن عثمان هو الله بل هو عبد من عباد و عمل العبد لا ينسب الى الله إلا على مذهب من لا دين له هذا أولاً.

و ثانياً قياس تأليف القرآن و ترتيب السور و الآيات فيه على الأحكام قياس مع الفارق لأن تأليف القرآن و ترتيب سورة و آياته لا يحلّ حراماً و لا يحرم حلالاً و هذا بخلاف الأحكام الشرعية و عليه فلو قال قائل بصحة القياس في تأليف القرآن لا يمكنه القول بصحة القياس في الأحكام لما ذكرناه هذا كله على مسلك الخصم الذي يقول بالقياس و أما نحن فلا نقول به مطلقاً تبعاً لأهل بيت العصمة و الحمد لله رب العالمين.

و لنرجع الى تفسير الكلام فنقول.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

قالوا قد أذن الله تعالى في معاهدة المشركين أولاً فأتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ و عاهدوهم فلمّا نقضوا العهد أوجب الله تعالى النّبذ اليهم فخطوب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم أعلموا أيها المسلمون أن الله و رسوله قد برئا عمّا عاهدتم به المشركين و لمّا كان عهد الرسول لازماً لجميع أمته حسن أن يقول عاهدتم قال مقاتل المراد بالمشركين هنا ثلاث قبائل من العرب.

خزاعة وبنو مدلج، وبنو خزيمة.

و قيل هذه الآية في أهل مكة و كان الرسول صالح قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس فدخلت خزاعة في عهد



الرَّسُولَ وَبَنُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَكَانَ لِبَنِي الدَّيْلِ مِنْ بَنِي بَكْرِ دُونَ خِزَاعَةَ فَأَغْتَنَمُوا الْفُرْصَةَ وَغَفَلَةَ خِزَاعَةَ فَخَرَجَ نُوْفَلُ بْنُ مَعَاوِيَةَ الدَّيْلِيُّ فِيمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ بَنِي بَكْرِ وَبَيْنُوا خِزَاعَةَ فَأَقْتَتَلُوا وَأَعَانَتْ قُرَيْشُ بَنِي بَكْرِ بِالسَّلَاحِ وَقَوْمٌ أَعَانُوهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَهَزَمَتْ خِزَاعَةُ إِلَى الْحَرَمِ فَكَانَ ذَلِكَ نَقْضًا لِصَلْحِ حُدَيْبِيَّةٍ فَخَرَجَ مِنْ خِزَاعَةَ بِدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَعُمَرُ بْنُ سَالِمٍ فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِمْ فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْتَغِيثِينَ وَأَنْشَدَهُ عُمَرُو فَقَالَ:

يَا رَبِّ أَنْتَ نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ أَلَا تَلْدَا
كَنتَ لَنَا أَبًا وَكُنَّا وَلَدًا	ثَمَّةَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا
فَأَنْصُرْ هَذَاكَ اللَّهَ نَصْرًا عَبْدًا	وَأَدْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّئَا	أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَنْمُو صَعْدَا
أَنْ يَسْمَ خُسْفًا وَجَهْدَ تَرَبُّدَا	فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مِزْبَدَا
أَنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدًا	وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلَّ عِدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَظِيمِ هَجْدًا	وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسَجْدًا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا أَنْصُرْتُ أَنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ فَتَجَهَّزْ إِلَى مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ وَتَخَلَّفَ مِنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَارْجَفُوا الْأَرَاغِفَ فَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَاءِ عَهْدَهُمَ إِلَيْهِمْ وَأَذْنَ فِي الْحَرْبِ وَإِلَى هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ

فَقَوْلُهُ: فَسَبِّحُوا أَمْرٌ بِإِبَاحَةٍ وَفِي ضَمْنِهِ تَهْدِيدٌ وَهُوَ الْتِفَاتٌ مِنْ غِيْبَةٍ إِلَى خُطَابٍ أَيْ قُلْ لَهُمْ سَيِّمُوا، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ أَنْ يَقُولَ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسَيِّمُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آمَنِينَ وَأَمَّا أَحْلَهُمْ هَذِهِ الْأَشْهُرَ لِأَنَّهَا الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ مِنْ أَوَّلِ شَوَّالٍ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالرُّهْرِي.

و نقل عن القراء أنه قال كانت المدة الى آخر المحرم لأنه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة و هو من لم يكن له عهداً من النبي فجعل الله ذلك له قال و معنى الأشهر الحرم المحرم وحده و أما جمعه لأنه متصل بذى الحجة و ذي القعدة فكأنه قال فاذا انقضت الثلاثة أشهر.

و قال أبو عبد الله عليه السلام الأربعة الاشهر يوم النحر و آخرها العاشر من شهر ربيع الآخر و هو قول محمد بن كعب القرطبي و مجاهد.

و قال أبو الحسن أما جعل لهم هذه المدة لأن منهم من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فحطّ إليها و منهم من كان أقل فرفع إليها.

و قال أبو علي الجبائي كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة الى عشرين من ربيع الأول لأن الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صارت في السنة الثانية في ذي الحجة و فيها حجة الوداع و كان سبب ذلك النسي الذي كان في الجاهلية انتهى ما ذكره الشيخ في التبيان.

و الأقوال فيه كثيرة مختلفة و لكن في أصل المهلة لم يختلفوا فإن جميع المفسرين ذهبوا الى أنها كانت أربعة أشهر و أما الاختلاف في تعيين الشهور و هو لا يهمنا و لا يخل بالمقصود.

ثم أن قراءة البراءة كانت يوم النحر بمكة و قد قرأها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر من الله و رسوله هذا هو المشهور المسطور في التواريخ و السير أما عندنا فلا خلاف فيه لأن الأخبار الواردة فيه من أهل البيت و عند أكثر أهل السنة متظافرة لو لم تكن متواترة.

و أما عند شذمة من المعاندين المنكرين لفضائله فلا و نحن نذكر القصة.

قال ابن هشام في السيرة و هو من أعظم هل السنة لما نزلت براءة علي رسول الله ﷺ و قد كان بعث أبا بكر ليقم للناس الحج قيل يا رسول الله لو بعثت بها الى أبي بكر فقال ﷺ لا يؤذي عني إلا رجل من أهل بيتي ثم دعا علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له أخرج بهذه القصة من صدر براءة و أذن في

النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا جِئْتُمْ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٍ وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مَدَّتِهِ فَخَرَجَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَضْبَاءُ حَتَّى أَدْرَكَ أَبَابَكَرَ بِالطَّرِيقِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمِيرُ أُمِّ مَأْمُورٍ فَقَالَ بَلْ مَأْمُورٌ ثُمَّ مَضِيَ فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَالْعَرَبُ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ قَامَ بَنُو أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَذَّنَ بِالنَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَّةِ مِنْهُ.

وَقَالَ إِبْنُ الْأَثِيرِ فِي الْكَامِلِ وَفِيهَا حَجَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ وَمَعَهُ عَشْرُونَ بَدَنَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِنَفْسِهِ خَمْسَ بَدَنَاتٍ وَكَانَ فِي ثَلَاثِ مِائَةِ رَجُلٍ فَلَمَّا كَانَ بِذِي الْحِلْفَةِ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَثَرِهِ عَلِيًّا وَأَمَرَهُ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَعَادَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِلْ فِيَّ شَيْئًا قَالَ ﷺ لَا وَلَكِنْ لَا يَبْلُغُ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِّنِّي الْخ.

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي مَرْوَجِ الذَّهَبِ وَهُوَ مِنْ أَقْدَمِ التَّوَارِيخِ وَأَشْهَرِهَا سَنَةَ تِسْعِ حِجَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ وَقَرَأَ عَلَيَّ بَنُو أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمُ سُورَةَ بَرَاءَةٍ وَأَمْرٌ أَنْ لَا يَحْجَّ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ الْخ.

وَبِهِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ وَالْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَأَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ الْمُسَمَّى بِبَحْرِ الْمَحِيطِ.

وَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ جَامِعَ الْبَيَانِ، وَالسَّيْوِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَنْشُورِ وَالْأَلُوسِيُّ فِي رُوحِ الْمَعَانِي وَالْحَقْفِيُّ فِي رُوحِ الْبَيَانِ وَهَكَذَا سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمْ فَإِنَّ هَذَا أَيْ قِرَاءَةَ عَلِيٍّ آيَاتِ سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَمْ تَرَأْ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَرِيَابَ السَّيْرِ وَالتَّوَارِيخَ أَنْكَرَ قِرَاءَةَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا وَأَتَمَّ الْخِلَافَ فِي أَنَّ أَبَابَكَرَ لَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ أَنْزِلْ فِيَّ شَيْئًا فَقَالَ ﷺ لَا وَلَكِنْ لَا يَبْلُغُ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِّنِّي.

هل رجع الى مكة أميراً على الموسم أم لم يرجع فهم يقولون بأنه رجع اليها أميراً على الموسم ونحن نقول لم يرجع وهذا ممّا لا بحث لنا فيه لأنّ الإمارة على الموسم ليس فيها كثير فضيلة حتّى يبحث عنها وأنما الفضيلة تثبت بقوله ﷺ لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني بوحى من الله تعالى كما اعترف به أكثر المفسرين وذلك لأنّه يدلّ على عدم صلاحية أبى بكر لذلك التبليغ ومن لم يكن صالحاً لقراءة بعض الآيات على الكفار فكيف يصلح للخلافة عنه ﷺ في الدين والدنيا على المؤمنين وحيث إنجر الكلام الى هنا فلا بأس بذكر ما أورده الرازي في المقام والجواب عنه.

قال الرازي واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر علياً بقراءة هذه السورة عليهم وتبليغ هذه الرسالة اليهم فقالوا السبب فيه أنّ عادة العرب أن يتولى تقرير العهد ونقضه إلا رجل من الأقارب فلو تولاّه أبوبكر لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود فربّما لم يقبلوا فأزاحت علّتهم بتولية ذلك علياً.

وقيل لما خصّ أبابكر بتولية أمير الموسم خصّ علياً بهذا التبليغ تطبيهاً للقلوب ورعايةً للجوانب وقيل قرّر أبابكر على الموسم وبعث علياً خلفه لتبليغ هذه الرسالة حتّى يصلّي خلف أبى بكر ويكون ذلك مجرى التنبيه على إمامة أبى بكر.

و قرّر الجاحظ هذا المعنى فقال أنّ النبي ﷺ بعث أبابكر أميراً على الحاجّ وولاّه الموسم وبعث علياً يقرأ على الناس آيات من سورة براءة فكان أبوبكر الإمام وعليّ المؤتم و كان أبوبكر الخطيب وعليّ المستمع وكان أبوبكر الرافع بالموسم والسابق لهم والأمر لهم ولم يكن ذلك لعلّي.

وأما قوله ﷺ لا يبلغ عني إلا رجل مني فهذا لا يدلّ على تفضيل عليّ على أبى بكر ولكنه ﷺ عامل العرب بما يتعارفونه فيما بينهم وكان السيّد الكبير منهم اذا عقد لقوم حلفاً أو عاهد عهداً لم يحلّ ذلك العهد والعقد إلا

هو أو رجل من أقاربه القرييين منه كأخ أو عمٌ فلهذا المعنى قال النبي ﷺ ذلك القول انتهى كلام الرّازي و ما نقله عن الجاحظ بألفاظه و عباراته.

و أنا أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه الكلمات السّخيفة الخالية عن المعنى من هذين الفحلين من علماء العامّة على إثبات فضيلة أبي بكر و ردعها عن أمير المؤمنين و اذا كان الرّازي تمسك في إثبات فضيلة لأبي بكر بهذه الكلمات التي هي أو هن من بيت العنكبوت بل هي بالافتراء على العرب في عهد الجاهليّة أشبه بالدليل على المدعى فما ظنك بأتباعه و أذنايه أمثال أبي حيان في بحر المحيط و الألوّسي في روح المعاني و غيرهما من مقلّديه الذين ليست لهم قوّة التّشخيص بين الغثّ و السّمين.

فقول الرّازي أنّ عادة العرب كان كذا وكذا لا يدلّ النّقل منه على صحته ما لم يعضد بالقرائن و الإمارات المثبتة و مجرد النّقل بأنّ العرب كان كذا لا يكفي، و على فرض صحّة النّقل و أنّ العرب كان المتعارف بينهم أن ينقض العهد رجل من الأقارب فالعبّاس بن عبد المطلب كان عمّ الرّسول و هو أيضاً من أقاربه بل هو أقرب لأنّ العمّ أقرب من ابن العمّ فلم لم يأمره الرّسول بقراءة هذه السّورة على المشركين و أمر عليّاً بذلك فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الوجه في ذلك هو كون عليّ نفس الرّسول بدليل أية المباهلة و الأخبار الواردة في الباب عنه ﷺ.

مثل قوله ﷺ: أنا وعليّ من نور واحدٍ.

وقوله ﷺ: أنا وعليّ من شجرة واحدة و سائر النّاس من شجرٍ شتّى.

و قوله ﷺ: يا عليّ حربك حربي و سلمك سلمتي.

و قوله ﷺ: عليّ منّي كنفسيّ و أمثال ذلك من الأخبار.

و أمّا قوله أنّ الرّسول فعل ذلك تطبيقاً للقلوب، فهو أيضاً لا معنى له لأنّ المراد بالقلوب أن كان قلوب المسلمين فمن المعلوم أنّهم كانوا تابعين للرّسول

في قوله وفعله و لم يكن لأحدٍ منهم إعتراض على الرسول في نصبه أبى بكر على الموسم أو أي شخص شاء وأن كان المراد بالقلوب قلب علي فهو أيضاً كذلك بل هو أحق وأليق بعدم الإعتراض على الرسول.

و أما ما نقله عن الجاحظ، تأييداً لما ذكره وإدعاه فالجواب الجواب.

و أما ما نقله عن غيره وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعث علياً خلف أبى بكر حتى يصلّي خلفه و يكون ذلك مجرى التنبيه على إمامة أبى بكر.

**فالجواب أما أولاً:** فبأن المستدلّ من أين علم أن علياً صلى خلف أبى بكر في الموسم.

ثانياً: على فرض ثبوته و أنّه صلى خلفه لا يثبت مدعاه لأنّ مجرد الصلاة خلف أبى بكر أو غيره لا يغني شيئاً و لا يدلّ على إمامته بعد الرسول اذ لو كان كذلك فالخليفة بعد الرسول كان ابن أم مكتوم لأنّ المسلمين في غيبة الرسول كانوا يصلّون خلفه بأمرٍ من رسول الله في تعيينه للإمامة هذا كلّهُ.

مضافاً الى أنّ العامة و منهم المستدلّ لا يشترطون العدالة في الإمامة للصلاة بل يصلّون خلف كلّ فاسقٍ و فاجرٍ فكيف تكون الإمامة في الصلاة دليلاً على صحّة الخلافة و للبحث في هذا الموضوع محلّ آخر و نكتفي بهذا القدر في المقام و لنشر الى بعض ما ورد من الأخبار في إثبات تلك الفضيلة لعليّ عليه السلام أمير المؤمنين فنقول:

في كتاب الخصال عن الحارث بن ثعلبة قال قلت لسعد، أشهدت شيئاً من مناقب عليّ عليه السلام قال: نعم شهدت له أربع مناقب و الخامسة شهدتها لئن يَكُون لي منهّن واحد أحبّ إليّ من حمر النعم، بعث رسول الله أبابكر ببراءة ثمّ أرسل علياً فأخذها منه فرجع أبوبكر فقال يا رسول الله أنزل فيّ شيء قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا إلاّ أنّه لا يبلغ عني إلاّ رجل مني انتهى.

مخزي الكافرين، والإخزاء الإذلال بما فيه الفضيحة والخزي النكال الفاضح، فأهل الله الكفار في هذه الآية أربعة أشهر وهى أشهر الحرم على ما مرّ الكلام فيها ثم أهلكهم الله و ذلك جزاء الكافرين.

وَأَذَانُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

الأذان، الإعلام و قال بعضهم معناه النداء الذي يسمع بالإذن، والواو للعطف و أنما إرتفع، أذان، لأنه عطف على قوله، براءة و أذان من الله و رسوله يوم الحج الأكبر.

و اختلف في معنى الأكبر فقل هو ما فيه الوقوف بعرفة و الحج الأصغر، العمرة و قيل الأكبر القرآن و الأصغر الأفراد.

و قيل في معنى يوم الحج الأكبر، ثلاثة أقوال:

أحدها: ما روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَرَفَةٌ.

الثاني: و في رواية أخرى عن النبي ﷺ و هو المروية عن أبي عبد الله هو الحج الذي حجّ فيه المشركون و المسلمون و لم يحجّ بعدها مشرك.

الثالث: هو جميع أيام الحج.

و قال القرطبي نقلاً عن ابن سيرين أن الحج الأكبر العام الذي حجّ فيه النبي ﷺ حجة الوداع و حجّت فيه معه الأمم و قد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة و كيف كان فمعنى الآية هو أن الله تعالى أعلمهم أن الله و رسوله بريء من المشركين و أنهم أن تابوا عن الكفر و رجعوا إلى الإسلام و إتبعوا الحق فهو خير لهم في الدنيا و الآخرة و أن تولّوا و أعرضوا عن الحق و بقوا على كفرهم فأنهم غير معجزى الله أي لا يفوتون الله اذ لا يمكن الفرار من حكمته.

ثُمَّ قَالَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَي شديداً مؤلماً، جعل الإنذار  
بشارة على سبيل الإستهزاء بهم، و الَّذِينَ كَفَرُوا، عامٌ يشمل جميع أصناف  
الكفار من المشركين و عبدة الأوثان و غيرهم و في هذا و عيْدٌ عظيمٌ بهم من  
حلول العقاب عليهم في صورة التولي و عدم قبولهم الحقَّ ثُمَّ إِسْتَشْنَى من  
هؤلاء المشركين طائفة.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا  
عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ  
إِسْتَشْنَى الله تعالى من براءته و براءة رسوله من المشركين من كان لهم العهد.  
و قال القراء هذا إِسْتِثْنَاء في موضع نصب و هو قوم من بني كنانة كان قد  
بقي مِنْ أَجْلِهِمْ تسعة أشهر فقال الله فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ لَا  
تحطوهم إلى الإربعة أشهر.

و قال مجاهد عني بذلك جماعة من خزاعة و مدلج.  
و قال ابن عباس تَوَجَّه ذلك إلى كُلِّ من كان بينه و بين رسول الله عهد قبل  
براءة.

أَقُولُ قال بعض المفسرين، قال قوم هذا إِسْتِثْنَاء منقطع و التقدير، لكن  
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ فَتَبَتُوا عَلَى الْعَهْدِ و أَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ.  
و قال قوم منهم الزجاج هو إِسْتِثْنَاء متصل من قوله: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

و عن صاحب الكشاف أَنَّ الْمُسْتَشْنَى من قوله: فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ لِأَنَّ  
الكلام خطاب للمسلمين و معناه براءة من الله و رسوله إلى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ من  
المشركين فقولوا لهم سيحوا إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ  
عَهْدَهُمْ و الإِسْتِثْنَاء بمعنى الإِسْتِدْرَاك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين و لكنَّ  
الَّذِينَ لَمْ يَنْكُثُوا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ و لَا تَجْرُوهُمْ مجراهم و لَا تَجْعَلُوا الْوَفَى  
كالغادر انتهى.



وفي قوله: ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَيْ إشارة الى أن المستثنى ليس جميع المشركين المعاهدين بل المراد المعاهدين الذين بقوا على عهدهم و لم ينقصوكم شيئاً من العهد و لم يظاهروا أي لم يعاونوا عليكم أهداً فأن المظاهرة المعاونة على العدو للظهور عليه فهؤلاء أتموا اليهم عهدهم أن الله يحب المتقين، أي أن مراعاة العهد من علائم التقوى فمن نقض العهد ليس من المتقين الذين يحبهم الله و يحبونه.

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خَذُواهُمْ وَ أَحْضَرُوهُمْ وَ أَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
الإنسلاخ إخراج الشيء مما لابسـه و كذلك سلخ الشاة اذا نزع الجلد عنها و المعنى اذا إنقضت الأشهر الحرم و فيها قولان:

أحدهما: أنها، رجب و ذو القعدة و ذو الحجة و محرّم ثلاثة سرد و واحد فرد.

الثانى: المراد بها الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم أن يسيـموا فيها آمنين و هي عشرون من ذي الحجة، المحرم، صفر، ربيع الأول و عشر من ربيع الآخر.  
فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خَذُواهُمْ وَ أَحْضَرُوهُمْ وَ أَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ أي سواء كان في الأشهر الحرم أو غيرها و سواء في الحل أو في الحرم أمرهم الله تعالى أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم في أي مكان و زمان و أن يحضروهم أي يمنعوهم من الخروج و الفرار و أن يقعدوا لهم كل موضع يرقب فيه العدو و محصل الكلام أن الله تعالى أذن لهم أن أفئوا المشركين عن صفحة الوجود بكل طريق ممكن و ذلك لأن الحجة قد تمت عليهم و لا عذر لهم في بقائهم على كفرهم و عنادهم مضافاً الى كونهم صادين عن سبيل الله محاربين لله و رسوله و لأجل ذلك قال: فَإِنْ تَابُوا وَ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أَيُّ وَأَنْ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ، فِي تَخْصِصِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَحْكَامِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمَا أَكْثَرُ الشَّعَائِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمَالِيَّةِ وَبِهِمَا تَظْهَرُ الْقُوَّةُ الْعَمَلِيَّةُ كَمَا بِالتَّوْبَةِ تَظْهَرُ الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ عَنِ الْجَهْلِ هَكَذَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ كَذَلِكَ وَفِي قَوْلِهِ: فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ بَعْدَهُمَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عِلَامَةَ صِدْقِهِمْ فِي التَّوْبَةِ هِيَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ لَا مَجْرَدَ الْقَوْلِ وَمَعْنَى خَلُّوا سَبِيلَهُمْ، لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ وَأَقْبِلُوا قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ لِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ فَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

فِي هَذِهِ آيَةِ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَمْرَيْنِ خُطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ:

**أحدهما:** أمره تعالى أَنَّهُ مَتَى اسْتَجَارَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَيُّ طَلَبَ مِنْهُ الْجَارَ فِي رَفْعِ الْأَذَى لِصَاحِبِهِ وَقِيلَ الْمَعْنَى إِسْتَأْمَنَهُ أَحَدٌ، أَنْ يَقْبَلَ دَعْوَتَهُ فَأَجَارَهُ وَأَمَنَهُ حَتَّى يَسْمَعَ الْمُشْرِكَ الْمُشْتَجِرَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى.

**الثاني:** أَنَّهُ تَعَالَى أَمْرَ نَبِيِّهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ يَبْلُغَ الْمُشْرِكَ مَأْمَنَهُ وَهُوَ مَكَانُ الْأَمْنِ كَبَيْتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ وَالْمَقْصُودُ لَا تُؤْذِيهِ وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَبْدُونَ مِنَ الْمَدَارَةِ لِلْجَاهِلِ.

قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسَّيِّدِي هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْأَمْرِ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ هِيَ مُحْكَمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقِيلَ أَنَّ الْحَكْمَ فِيهَا ثَابِتَةٌ مَدَّةَ الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ الَّتِي ضَرَبَتْ لَهُمْ أَجَلًا، وَظَاهِرٌ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُوا وَأَخَذَهُمْ

حصرهم ذكر لهم حالة لا يقتلون فيها ولا يؤخذون ولا يؤسرون وتلك إذا جاء واحد منهم مسترشداً طالباً للحجة والدلالة على ما يدعوا اليه من الدين فالمعنى وأن أحد من المشركين إستجارك أي طلب منك أن تكون مجيراً له وذلك بعد إنسلاخ الأشهر لسمع كلام الله وما تضمنه من التوحيد ويقف على ما بعثت به فكن مجيراً له حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر فإنه بعد ذلك أي بعد التدبر والتأمل يجد أنه ليس من جنس كلام المخلوق فلا محالة يكون كلام الخالق وإذا ثبت له ذلك يعلم أنه أي، القرآن معجزة دالة على صدق النبي في إدعائه النبوة و لازم ذلك الإقرار بالنبوة بعد التوحيد وبعد الإقرار بهما يقربان ما جاء به النبي حق وأنه من عند الله فيجب عقلاً قبوله والعمل به ولا نعني بالدين والإيمان إلا ذلك وهذا من أتم الفوائد المترتبة على قبول إستيجار المستجير ويستفاد من هذه الآية كيفية المدارة في جلب المخالف إلى الحق في كل عصر وزمان تبعاً للنبي ﷺ فلو كان مشيناً وطريقتنا في الدعوة على هذا الأساس مع المخالف بعد النبي لكننا من الموفقين ولكن مع الأسف سلطنا غير هذا المسلك وهو كما ترى ضرره أكثر من نفعه وقبحه أكثر وأشد من حسنه.

نقل المفسرون عن ابن عباس أنه قال: أن رجلاً من المشركين قال لعلي عليه السلام إن أردنا أن نأتي الرسول بعد إنقضاء هذا الأجل لسمع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقلت فقال علي عليه السلام: لا أن الله تعالى قال: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ أَي فأمّنه حتى يسمع كلام الله انتهى.

وقال الرازي في تفسيره بعد نقل هذا الحديث ما هذا لفظه:

و تقرير هذا الكلام أن نقول أنه تعالى لما أوجب بعد إنسلاخ الأشهر الحرم قتل المشركين دل ذلك على أن حجة الله قد قامت عليهم وأن ما ذكره الرسول قبل ذلك من أنواع الدلائل والبيّنات كفى في إزاحة عذرهم وعلّتهم

يقتضي أن أحداً من المشركين لو طلب الدليل والحجة لا يلتفت اليه بل يطالب أمناً بالإسلام وأما بالقتل فلما كان هذا الكلام واقعاً في القلب لاجرم ذكر الله هذه الآية إزالةً لهذه الشبهة والمقصود منه بيان أن الكافر اذا جاء طالباً للحجة والدليل أو جاء طالباً لإستماع القرآن فإنه يجب إمهاله و يحرم قتله و يجب إيصاله الى مأمنه وهذا يدل على أن المقصود من شرع القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد و يدل أيضاً على أن النظر في دين الله أعلى المقامات و أعلى الدرجات فإن الكافر الذي صار دمه مهدراً لما أظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والإستدلال زال ذلك الإهدار و وجب على الرسول أن يبلغه مأمنه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه فإن القتل ليس مطلوباً في نفسه بل هو مطلوب لغيره و يؤيده أن العقل لا يحكم به بما هو هو بل يحكم به اذا كان فيه صلاح و لذلك لا يقتل أحدٌ بلا جرم و علة و لو كان مطلوباً في نفسه فلا معنى لوجود المقتول من أول الأمر و ملخص الكلام أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ليقتل بل خلقه ليبقى و يصل الى كماله المطلوب و عليه فالأصل الحياة و البقاء و اذا كان كذلك فالإمهال أمرٌ عقلي و لذلك أمر الله نبيه و قال فأجره الخ. و قال في آخر الآية بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ فهذا الكلام بمنزلة الدليل على الإمهال فكأنه قال قائل و كيف أمر الله نبيه بما أمر فقال تعالى في الجواب ما قال.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ  
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ غَاهَضْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا  
فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى  
قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بَيَاتِ  
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا  
ذِمَّةً وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ  
أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي  
الدِّينِ وَ نَفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ  
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي  
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ  
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا  
أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَءُوكُمْ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ  
بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ  
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يَذْهَبْ غِيظُ  
قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ  
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ كَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ  
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا  
 مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ  
 أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ  
 ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ  
 الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ  
 يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ  
 الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

### ◀ اللغة

لَا يَرْقُبُوا، الرُّقُوبُ هو العمل في الأمر على ما تقدّم به العهد و المراقبة و  
 المراعاة نظائر والمعنى لا يراعون فيكم.

إِلَّا أَيَّ عَهْدًا وَقِيلَ هُوَ إِسْمُ اللَّهِ وَقِيلَ الْقَرَابَةُ وَهُوَ مَأْخُذٌ مِنَ الْأَيْلِ الْبَرِيقِ  
 يَقَالُ أَلْ يُؤَلِّ إِذَا الْمَع.

وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ، الْإِلَّ، كُلُّ حَالَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنْ عَهْدٍ حَلْفٍ وَ قَرَابَةٍ،  
 أَلْ يَأَلُّ، يَقَالُ تَتَلَّى أَيُّ تَلْمَعُ فَلَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهُ.

تَأْبَى أَيُّ تَمْنَعُ.

نَكَتُوا، النَّكَتُ نَقَضَ الْعَهْدِ.

هَمُّوا أَيُّ قَصَدُوا فَأَنَّ الْهَمَّ الْقَصْدُ

### ◀ الإعراب

كَيْفَ يَكُونُ إِسْمٌ يَكُونُ، عَهْدٌ، وَ الْخَبْرُ، كَيْفَ قَدَّمَ لِلِاسْتِفْهَامِ وَقِيلَ،  
 لِلْمُشْرِكِينَ، وَقِيلَ، عِنْدَ اللَّهِ، وَ لِلْمُشْرِكِينَ تَبْيِينٌ أَوْ مَتَعَلِّقٌ، يَكُونُ وَ كَيْفَ، حَالٌ

من العهد فَمَا اسْتَقَامُوا قِيلَ مَا، زَمَانِيَّةٌ، وَ الْحَقُّ أَنَّهَا مُصَدَّرِيَّةٌ وَ التَّقْدِيرُ  
فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ مَدَّةٌ اسْتِقَامَتُهُمْ لَكُمْ، وَ قِيلَ هِيَ شَرْطِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مَا يَفْتَحُ  
اللَّهُ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ اسْتِقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَ لَيْسَتْ نَافِيَةً لِأَنَّ الْمَعْنَى يَفِيدُ  
كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُ الْمُسْتَفْهِمُ عَنْهُ مَحْذُوفٌ وَ التَّقْدِيرُ كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ، أَوْ  
كَيْفَ تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِكَسْرِ الْأَلْفِ وَ اللَّامِ الْمَشْدُودَةِ مِنْ أَلَى يُؤَلِّ إِذَا سَاسَ أَوْ  
مِنْ أَلِ يُؤَلِّ إِذَا صَارَ إِلَى آخِرِ الْأَمْرِ وَ قِيلَ إِيلاً بِمِثْلِ رِيحٍ أَبْدَلَ اللَّامَ الْأَوَّلَ بِأَءٍ  
لِثِقَلِ التَّضْعِيفِ وَ كَسْرِ الْهَمْزَةِ وَ عَلَى الْوَجْهِينِ قَلَبْتَ الْوَاوَ بِأَءٍ لِسُكُونِهَا وَ انْكَسَارِ  
مَا قَبْلَهَا يُرْضَوْنَكُمْ حَالٍ مِنَ الْفَاعِلِ فِي، لَا يَرْقُبُوا، عِنْدَ قَوْمٍ، وَ الْحَقُّ أَنَّهَا  
مُسْتَأْنَفَةٌ فِي الَّذِينَ مُتَعَلِّقٌ بِأَخْوَانِكُمْ أَثَمَّةً الْكُفْرِ جَمَعَ إِمَامٌ وَ أَصْلُهُ أَثَمَةٌ مِثْلُ  
خَبَاءٍ وَ أُخْبِيَّةٍ فَنَقَلْتُ حَرَكَةَ الْمِيمِ الْأُولَى إِلَى الْهَمْزَةِ السَّكَنَةِ وَ أَدْغَمْتُ فِي الْمِيمِ  
الْأُخْرَى أَوَّلَ مَرَّةٍ مُنْصُوبٍ عَلَى الظَّرْفِ فَاللَّهُ أَحَقُّ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرٌ أَنَّ تَخْشَوْهُ  
فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ أَوْ جَزَإٍ بِأَنَّ تَخْشَوْهُ وَيَتَوَبُّ اللَّهُ مُسْتَأْنَفٌ.

### ◀ التفسير

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ  
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

قوله: كَيْفَ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ وَالِاسْتِنْكَارُ وَالِاسْتِبْعَادُ قِيلَ مَعْنَاهُ النَّفْيُ  
أَي لَا يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ وَ هُمْ لَكُمْ ضِدٌّ وَ نَبَّهَ عَلَى عِلَّةِ انْتِفَاءِ الْعَهْدِ بِالْوَصْفِ الَّذِي  
قَامَ بِهِ وَ هُوَ الْإِشْتِرَاكُ.

وَ قِيلَ فِي الْآيَةِ إِضْمَارُ أَيِ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ مَعَ إِضْمَارِ الْغَدْرِ وَ  
النَّكَثِ وَ الْإِسْتِفْهَامُ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ كَثِيرًا كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَهَا ذِي سَيْوْفٍ يَا هَذِي بَنِ مَالِكٍ      كَثِيرٌ وَلَكِنْ كَيْفَ بِالسَّيْفِ ضَارِبُ

أَي لَيْسَ بِالسَّيْفِ ضَارِبٌ وَإِذَا كَانَ مَعْنَاهُ النَّفْيُ فَلَا إِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ وَ يَجُوزُ أَنْ

يكون، الذين، في موضع خبر على البدل من المشركين لأن معنى ما تقدّم النفي أي ليس يكون للمشركين عهد إلا الذين لم ينكثوا.

قال ابن عباس و هم قريش و قيل أنّ الإستثناء منقطع أي لكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام فعلى القول بأنّ المراد بالإستفهام النفي يصير معنى الآية، لا يكون للمشركين عهد عند الله و عند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

و أما على القول بإرادة الإستفهام منه فلا بد من التقدير في الكلام فيقال كيف يكون للمشركين عهد عند الله و عند رسوله مع إضمار الغدر في عهدهم.

ثم إستثنى من ذلك قوله: **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** و كيف كان فالمقصود الأصلي من هذا الكلام هو عدم الإعتماد على المشركين في عهودهم لأنّ العهد عندهم كالعدم لأضمارهم الغدر فيه إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فأنه يجب عليكم الوفاء به **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** أي فما إستقاموا لكم في البقاء على العهد فكونوا كذلك معهم و إلا فلا و أنما قال تعالى ذلك حيث فرّع إستقامة المؤمنين على عهد إستقامة الكفار أولاً لما ذكرناه من الوجه و هو عدم الإعتماد على قولهم و عهدهم فكانه قال للمؤمنين أيها المؤمنون أنّ المشركين أن وفوا بعدهم معكم فأوفوا أنتم أيضاً و إن نقضوا و نكثوا فأنكثوا أنتم أيضاً إذ لا ينبغي للمؤمن أن ينقض عهده في قوله: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** إشارة إلى أنّ الوفاء بالعهد من شؤون التقوى و لا شك أنّ الله يحبّ المتّقين و حيث وصف الله تعالى المشركين بما وصف في الآية و غيرها من الآيات السابقة من نقض العهد و النفاق و الغدر و أمثال ذلك.

**كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً**



و التّقدير كيف يكون لهم عهد أو كيف يعتمد على عهدهم و الحال أن يظهرُوا عليكم بالغلبة لا يرقبوا فيكم، أي لا يراعون فيكم و الرّقوب هو العمل في الأمر على ما تقدّم به العهد و المراقبة و المراعاة نظائر في اللّغة فحاصل المعنى هو إن يغلبوا و يعلموا عليكم لا يراعون فيكم، إلّا، أي عهداً و قيل قرابةً و قيل الإلّ هو إسم الله، و لا ذمّة، قيل هي أيضاً العهد فمن رأى أنّ الإلّ هو العهد جعله و الذمّة لفظين لمعنى واحد أو متقاربين و على قول من رأى أنّ الإلّ غير العهد فهما لفظان متباينان و لمّا ذكر حال المشركين مع المؤمنين إن ظهرُوا و غلبوا عليهم ذكر حال المؤمنين مع المشركين في صورة الغلبة عليهم فقال: **يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** أي إذا صار المشركون مقهورين مغلوبين لكم فهم يرضونكم بأفواههم أي يقولون لكم ما ترضون به كما هو شأن المنافق الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنّ أكثرهم فاسقون.

و الفاسق حاله معلوم لا يبالي بما قيل أو يقال فيه فهو يتكلّم بما يشاء و يفعل ما يشاء لفسقه و من المعلوم أنّ المؤمن لا يكون كذلك لدينه و معرفته و أنّما قال و أكثرهم فاسقون و لم يقل كلّهم لأنّ كلّهم ليسوا كذلك إذ يوجد فيهم من لا يتّصف به و يظهر من قوله: **وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** أنّ الفسق ليس مرادفاً للكفر و ذلك لأنّ المشركين مع أنّهم من الكفّار بل من أظهر مصاديقهم لم يحكم في الآية بفسقهم جميعاً بل حكم بفسق أكثرهم و مفهومه أنّ قليلاً منهم ليسوا بفاسقين و إذا كان كذلك فبين الكفر و الفسق من النّسب الأربع العموم و الخصوص من وجه.

فمادّة الإجتماع الكافر الفاسق ومادّة الإفتراق الكافر الذي ليس بفاسيق، و المؤمن الفاسق هذا إذا قلنا أنّ الإيمان يحصل بمجرد الاعتقاد و لا يشترط فيه العمل و إلّا فالمؤمن لا يكون فاسقاً فلا بدّ لنا من وضع المسلم مكان المؤمن في القضية و هو ظاهر.

و قال بعض المفسرين الكفر مرادف للفسق فكلّ كافر فاسق و لا عكس  
 فيبينهما العموم و الخصوص المطلق لصدق الكلّية من أحد الطّرفين.  
 ثمّ قال في معنى الآية أنّ المراد رؤوساءهم وأن كانوا كلّهم فاسقين.  
 و لقائل أن يقول لو كان المراد رؤوساءهم لا يستقيم الكلام لأنّه يلزم أن  
 يكون أكثرهم علماء أو رؤوساء و ليس كذلك و بعبارة أخرى لو كان المراد،  
 بأكثرهم رؤوساءهم، يصير معنى الكلام أنّ أكثر رؤوساءهم فاسقون أيضاً ثبت  
 ما ذكرناه لا ما ذكره.

**اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ**

الظاهر عود الضمير على من قبله من المشركين المأمور بقتلهم.  
 و المعنى إشتروا بالقرآن و ما يدعوا اليه من الإسلام ثمنًا قليلًا و هو إتباع  
 الشّهوات و الأهواء و ذلك لأنك لمّا تركت دين الله و أثرت الكفر عليه كان  
 ذلك كالبيع و الشراء.

و قال مجاهد هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه.  
 و قال أبو صالح هم قومٌ من اليهود و آيات الله التّوراة.  
 و قال ابن عباس هم أهل الطّائف كانوا يمدّون النّاس بالأموال و يمنعونهم  
 من الدّخول في الإسلام فصدّوا عن سبيله أي صرفوا أنفسهم عن دين الله و  
 أعرضوا عنه.

و قال الشيخ في التّبيان معنى **اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ** استبدلوا بحجج الله و  
 بيناته العظيمة، الشّأن ثمنًا قليلًا أي عرضاً قليلًا.

**أقول** و على هذا فالمراد هو الكفّار من أهل الكتاب.

قال أبو عليّ الجبائي نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلّت  
 عليه هذه الصّفة و هذا هو الحقّ لأنّ قوله: **اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ** ثمنًا قليلًا لا

ينطبق على غير أهل الكتاب فالأمر يدور مدارهم، وحيث أنَّ تحريف الكتاب وتغييره عما كان عليه كان من دأب اليهود فلا يبعد أن يكون المراد في الآية قوم اليهود واللّه أعلم.

وكيف كان لاشكَّ أنَّ الكفار كانوا يصدّون أي يمنعون الناس عن سبيل الحقّ ومتابعته ثمّ قال تعالى: **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** وذلك لأنّ البقاء على الكفر قبيح ومنع الغير أيضاً عن متابعة الحقّ قبيح إلا أنَّ الثَّاني أقبح مِنَ الأوّل وأسوأ فأنّ منشأ الأوّل العناد ومنشأ الثَّاني العناد والحسد والبخل.

**تَنْبِيْهٌ**

**وأعلم أنَّ مورد الآية و أن كان خاصّاً إلا أنَّ معناها عامّ** والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد و حيثُ فنقول المراد بالاشتراء الإستبدال وليس معناه الحقيقي إذ ليست الآيات ممّا يُباع أو يشتري واقعاً كالمتاع والسِّلعة و لكن أهل التّوراة والإنجيل لمّا غيَّروا الآيات أو فسَّروها بآراءهم وأخذوا الثَّمَن من الظلمة يقال: **أَنْهُمْ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**.

وهذه السيرة الخبيثة بعد رسول الله كانت مستمرة إلى زماننا هذا. و قد نقل المؤرّخون أن سمرة بن جندب أعطاه معاوية أربع مائة ألف درهم وطلب منه أن يقول لأهل الشّام أنَّ قوله تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**<sup>(١)</sup> نزلت في مدح قاتل عليّ ابن أبي طالب لأنّه يقتله يقتل لا محالة فهو ممّن يشري نفسه ابتغاء مرضات الله حيث أراح الناس من عليّ و قتل به.

**أليس هذا من مصاديق قوله اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً.** و من المعلوم أنَّ الثَّمَن الذي يأخذونه ليس قليلاً في حدّ نفسه و لكنّه قليل بالنسبة إلى الذنب العظيم وهو الإفتراء على الله.

وهكذا من قال أو يقول أن المراد بأولي الأمر من بيده زمام الأمور في كل زمانٍ بعد رسول الله وأنما قالوا ذلك لأجل الحكام والمناصب في عصر الخلفاء فحكموا بصحة خلافتهم على أساس القرآن وأنهم خلفاء الله وخلفاء الرسول وأولوا الأمر في كتاب الله فمن خالفهم يقتل لأنه خالف الله ورسوله ليس هذا من مصاديق الآية.

وهكذا من قال بأن آية التطهير لا تختص بأصحاب الكساء بل تعم جميع أقرباء الرسول وزوجاته لصدق أهل البيت عليهم فعائشة وحفصة وسائر زوجاته وأقرباء كلهم داخلون فيها وهكذا.

والحاصل أن جعل الآيات وسيلة إلى التلبي بالخطايا الدنيوية وتفسيرها على مذاق المخالف لأخذ الثمن أو التقرب إلى الظلمة أمرٌ ذائعٌ شائعٌ في جميع الأمم وقليل من عبادي الشكور.

لَا يَزِقُّونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ.

قد ظهر معنى الآية عند قوله: كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً<sup>(١)</sup> فلا نحتاج إلى الإعادة.

أن قلت اليس هذا من التكرار.

قلت اللفظ مكرّرٌ والإعتبار متفاوت و تكرار اللفظ بإعتبار المعنى و بعبارة أخرى تكرار اللفظ لأجل المناسبات والإعتبارات المختلفة لا إشكال فيه بل هو من المحسنات والتأكيد والمقام من هذا القبيل فإن الآية السابقة نزلت بعد قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ أَلخ.

وهذه الآية نزلت بعد قوله: أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ولذلك قال في آخر تلك الآية: وَأَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ وقال في آخر هذه الآية: أُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ وذلك لأن الإعتداء هو التجاوز عن الحد والفسق هو الخروج من الشيء والفرق بينهما واضح.

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ  
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

وَمِمَّا ذَكَرْنَا يَظْهَرُ وَجْهَ التَّكَرُّارِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي  
الْآيَةِ السَّابِقَةِ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ<sup>(١)</sup> إِلَى قَوْلِهِ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا  
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ هُوَ أَنَّهُ  
جَعَلَ الْغَايَةَ هُنَاكَ تَحْلِيَةً سَبِيلَهُمْ وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ قَالَ: فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ  
الْفَرْقُ وَاضِحٌ إِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ بِأَنَّهُمْ إِنْ تَابُوا وَ  
رَجَعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَ الْإِعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَ الْإِقْرَارِ  
بِالنَّبِيِّ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْخَ فَاتَّهَمَ يَكُونُونَ إِخْوَانُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدِّينِ وَ الْإِيمَانِ وَ  
ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِيرُونَ بِذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ  
إِخْوَةٌ<sup>(٢)</sup> وَ فِي قَوْلِهِ: وَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِمَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَتِمَّلُ  
تَفْصِيلُ الْآيَاتِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَ الْفَهْمِ دُونَ الْجَهَالِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
عَنِ اللَّهِ.

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةً  
الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

لَمَّا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ بِشَرْطِ  
التَّوْبَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، عُلِّقَ الْأُخُوَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى  
الشَّرْطِ ضَمَنًا أَيْ الْأُخُوَّةُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ ثَابِتَةٌ إِذَا كَانُوا مُسْتَمْرِينَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ  
النَّبُوَّةِ وَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْخ....

فَأَنْ نَكَثُوا وَ نَقَضُوا إِيْمَانَهُمْ وَ رَجَعُوا إِلَى الشِّرْكِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ مِنْ بَعْدِ  
عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةً الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ وَ خَصَّ الْأَتِمَّةَ

بِسَبَبِ  
الْقُرْآنِ  
فِي قَوْلِهِ  
الْكَافِرِ



بِسَبَبِ  
الْقُرْآنِ  
فِي قَوْلِهِ  
الْكَافِرِ

بالذكر لأنهم يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر فالواجب قطع مادة الفساد و يظهر من الآية أنه لا يجوز تأمينه بل يجب قتله وذلك لأن الناكث لا إيمان له واقعاً ولأجل ذلك قاتل أمير المؤمنين مع أصحاب الجمل و قتلهم و إستصلهم لأنهم نكثوا عهده و نقضوا بيعته و لما قتل الزبير و طلحة وضعت الحرب أوزارها فلم يأمر أمير المؤمنين بقتل أتباع الزبير و طلحة و عائشة و ذلك لأن ذنبهم كان جهلهم و أنما الذنب في الحقيقة على الرؤساء الذين يريدون النيل الى مقاصدهم بسبب الجهال و العوام كالأنعام و ذلك داء لا دواء له و يؤيده ما ذهب اليه بعض المفسرين من أنه من أقدم على نكث العهد الطعن في الدين صار رأساً في الكفر فهو من أئمة الكفر.

و أصرح منه ما قاله ابن عطية حيث قال لا يعني بها معين و أنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة الى يوم القيامة دون تعيين.

و أنا أقول علق القتال في الآية على النكث لا على الكفر لأنه تعالى قال: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ إِلَى أَنْ قَالَ فَقَاتِلُوا أئمة الكفر و بعبارة أخرى القتال مشروط بالنكث و هو الشرط و مقتضى القاعدة هو تحقق المشروط بعد تحقق الشرط و عليه فإذا وجد الشرط وجد المشروط.

أَنْ قُلْتَ الشَّرْطُ أعني به نكث العهد مُقَيَّدٌ بِأَنْ صَدَرَ مِنَ الْكَافِرِ يَعْنِي أَنَّ الْكَفَّارَ إِذَا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ يَجِبُ الْقِتَالُ.

قُلْتَ الشَّرْطُ في الآية مطلق لم يُقَيَّدَ بشئٍ ومجرد نزول الآية في حق الكفار الناكثين للعهد لَوُ ثَبِتَ، لا ينافي إطلاق الآية وشمولها لغيرهم و ذلك لأن خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى هذا كله إذا أردنا من الكُفر في قوله: أئمة الكُفر الكُفر المصطلح بمعنى رجوع الناكث الى كُفره الأصلي.

و أما إذا قلنا أن المراد بالكُفر في الآية هو الكُفر بترك ما أمر الله فالأمر واضح إذ لا فرق فيه بين الكافر والمسلم و توضيح ذلك أن الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه:

أحدها: إنكار الرّب و هو قول من يقول لا ربّ و لا جنة و لا نار و هو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية و هم الذين يقولون و ما يهلكنا إلا الدهر.

الثاني: أن يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حقّ كما حكى الله تعالى عنهم.

بقوله: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتُوًّا<sup>(١)</sup>.

وقال لله تعالى: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مَا عَزَمُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ<sup>(٢)</sup>. فهذا تفسير

وجهي الجحود.

الوجه الثالث: من الكفر هو كفر النعم و ذلك قوله تعالى يحكي عن سليمان:

هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ<sup>(٣)</sup>.

الوجه الرابع: منها ترك ما أمر الله عزّ وجلّ كما قال تعالى:

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ أَفْتُمُونُونَ بِبَعْضِ

الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضِ<sup>(٤)</sup>.

الوجه الخامس: كفر البراءة و ذلك قول الله عزّ وجلّ يحكي قول إبراهيم:

كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَأَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ<sup>(٥)</sup>.

فهذه هي أقسام الكفر إذا عرفت هذا فنقول.

قوله: فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ليس المراد بالكفر إنكار الرّب إذا لا دليل في

الآية عليه بل الآية دلّت على أنّهم نكثوا أيمانهم فقط اللهم إلا أن يقال أنّهم

كانوا كافرين قبل العهد و بعده ولم يؤمنوا بالله أصلاً ففي هذه السّورة يراد

بالكفر كفر الرّب و لكن ينافيه قوله قبل هذه الآية فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ

في القرآن تفسير القرآن



المجلد الثاني

١- البقرة = ٨٩

١- النمل = ١٤

٢- البقرة = ٨٣ الى ٨٥

٣- النمل = ٤٠

٤- الممتحنة = ٤

وَأَتُوا الزُّكُوةَ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَجِهَ التَّنَافِي ظَاهِرٌ فَأَنَّ التَّائِبَ الَّذِي يقيم الصلاة لا يكون كافراً بالكفر بهذا المعنى أي كفر الرب.

**أما القسم الثاني:** منهما و هو الإنكار مع العلم بكون المنكر حقّ فهو محتمل لأنّ الناكث كذلك.

**أما القسم الثالث:** و هو كفر النعم فهو أيضاً محتمل.

**أما القسم الرابع:** و هو ترك ما أمر الله به فهو من أقوى الوجوه المحتملة في الآية.

**أما الخامس:** و هو كفر البراءة فهو بعيد و أن كان محتملاً، و حيث أن الله تعالى قال: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ.**

ثم قال: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** يظهر لنا أنّ النكث تعلّق بهم أي أنّ التائبين المقيمين للصلاة الخ.

إن نكثوا بعد أيمانهم من بعد عهدهم فقاتلوهم و عليه فالآية لا تختص بالمشرّكين بل لا يبعد أن تكون منصرفة عنهم لقوله تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ** فمن تاب و أقام الصلاة لا يكون مشركاً اللهم إلا أن يقال بأنّ الواو في قوله: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** ليس للعطف على الآية السابقة بل هو مستأنفة و إذا كان كذلك فالأمر أوضح إذ عليه نقول بأنّ الآية بصدد بيان حكم كليّ و هو أنّ جزاء الناكث القتل مسلماً كان أو كافراً و هذا المعنى ليس ببعيد فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الكافر يطلق على الناكث للعهد على ما مرّ الكلام فيه لأنّه ترك ما أمره الله به من الوفاء بالعهد و الميثاق و أن كان مسلماً ظاهراً و ذلك مثل الزبير و طلحة و عائشة حيث نقضوا عهدهم و بيعتهم فيشملهم قوله تعالى: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** و لأجل هذا استدّل أمير المؤمنين عليه السلام على مشروعية قتالهم بهذه الآية ثمّ حلف حين قرأها أنّه ما قوتل عليها منذ نزلت حتّى اليوم، فقوله عليه السلام حتّى اليوم أدلّ دليل على ما قلناه روي أنّ الأشتر دخل على عائشة فقالت له أو ما سمعت قول النبي أنّ المسلم لا يقتل إلاّ عن كفرٍ



بعد إيمانٍ أو زنى بعد إحصانٍ أو قتل النفس التي حَرَّمَ الله قتلها فقال الأشر لها  
على أحد الثلاثة قاتلناه ثم أنشد:

أعائش لولا أنني كُنت طاوياً      ثلاثاً لألقيت ابن أختك هالكاً  
عشية يدعوا والزجال تجوزه      بأضعف صوت أقولوني ومالكاً  
و عن تفسير علي بن إبراهيم، وأما قوله: وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ فَأَنْهَا نَزَلَتْ  
في أصحاب الجمل.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل ما قاتلت هذه الفئة الناكثة إلا بآية من  
كتاب الله يقول الله: وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي  
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةً الْكُفَرِ.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن حنان بن سدير قال:  
سمعت أبا عبد الله يقول دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني  
عن طلحة و الزبير فقلت لهم، كانا من أئمة الكفر، أن علياً يوم  
البصرة لما صف الخيول قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى  
أعذر فيما بيني و بين الله عز وجل و بينهم فقام اليهم فقال يا أهل  
البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم الله قالوا لا قال عليه السلام مخيفاً  
في قسم قالوا لا قال عليه السلام فرغبت في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي  
دونكم فنقمتم علي فنكتتم بيعتي قالوا لا، قال عليه السلام فأقمت فيكم  
الحدود و عطلتها عن غيركم قالوا لا قال عليه السلام فما بال بيعتي تنكت و  
بيعة غيري لا تنكت أني ضربت الأمر أنفه و عينه فلم أجد إلا الكفر  
أو السيف ثم ثنى على أصحابه فقال أن الله تبارك و تعالى يقول في  
كتابه: وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ  
فَقَاتِلُوا أَتَمَّةً الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ  
فقال أمير المؤمنين عليه السلام و الذي فلق الحبة و برئ السممة و أصطفى  
محمدًا بالنبوة أنهم لأصحاب هذه الآية و ما قوتلوا منذ نزلت إنتهى.

وعن آمالي الشيخ بأسناده الى أبي عثمان البجلي مؤذن بني أقصى قال بكير أذن لنا أربعين سنة قال سمعت علياً عليه السلام يقول: وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ثُمَّ حَلَفَ عَلَيْهِ حِينَ قَرَأَهَا أَنَّهُ مَا قُوتِلَ أَهْلُهَا مِنْذُ نَزَلَتْ حَتَّى الْيَوْمِ قَالَ بَكِيرُ فَسَمِعْتُ عَنْهَا أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ صَدَقَ الشَّيْخُ هَكَذَا قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَكَذَا كَانَ إِنْتَهَى.

و عن تفسير العياشي عن أبي الطفيل قال: سمعت علياً يوم الجمل و هو يحضّ النَّاسَ على قتالهم يقول و الله ما رمي أهل هذه الآية بكنانة قبل اليوم قاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون فقلت لأبي الطفيل ما الكنانة قال السهم يكون موضع الحديد فيه عظم تسميته بعض العرب الكنانة.

و عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب على هذا المنبر و ذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة و الزبير و عائشة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه و صلى على رسول الله ﷺ ثُمَّ قَالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا قَاتَلْتُ هَؤُلَاءِ إِلَّا بِآيَةٍ تَرَكْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

و قال يا علي لَتَقَاتِلَنَّ الْفِئَةَ الْبَاغِيَّةَ وَ الْفِئَةَ الْنَاقِثَةَ وَ الْفِئَةَ الْمَارِقَةَ) إِنْتَهَى.

و عن أبي عثمان مولى بني أقصى قال: سمعت علياً يقول (عذرني الله من طلحة و الزبير بايعاني طائعين غير مكرهين ثُمَّ نَكَا ببيعتي من غير حدث أحدثته و الله ما قُوتِلَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْذُ نَزَلَتْ حَتَّى قَاتَلْتَهُمْ وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) (١).

**أقول** الأحاديث بهذه المعنى كثيرة في كتب الأخبار وفيما مقلناه كفاية لمن كان له قلب، ويظهر منها أنَّ الآية وإن نزلت في عهد رسول الله ﷺ إلا أنَّ الرسول ﷺ ما قاتل المشركين بهذه الآية ويؤيده أن القتال معلق على وجود شرطه وهو النكث وليس في الآية ما يدل عليه وبعبارة أخرى الآية لا تدل على أنَّ النكث ونقض العهد وقع من المشركين بل دلت على أنَّ النكث أن وقع فحكمه كذا.

و حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام واللَّه ما قوتل على هذه الآية منذ نزلت حتَّى قاتلتهم فلا يبقى شك في صدق ما إدَّعينا ومحصَّل الكلام هو أنَّ القتال إمَّا على التنزيل وهو مختص بالرسول وأما على التأويل وهو مختص بالوَصي و حيث لم يثبت القتال على الأوَّل فالثاني ثابت قطعاً في حرب الجمل فالمراد بأئمة الكفر هو طلحة والزبير وعائشة ومن حذى حذوهم من رؤوساءهم وهذا هو الحقُّ الحقيق بالإتباع ولا سيَّما تصريح أمير المؤمنين عليه السلام بذلك وهو في رأس العترة التي جعلهم الله عدلاً للكتاب فقال إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي الخبر.

و العجب أنَّ مفسري العامة لم يتَّعرضوا في تفاسيرهم لذلك أصلاً والوجه فيه أنَّهم يقولون بأنَّ الزبير وطلحة من العشرة المبشرة على لسان النبي بقول أبي هريرة وأمثاله وإذا كان كذلك فكيف يقال بأنهم أئمة الكفر.

و لم يعلموا أنَّ الرسول ﷺ لم يقل ذلك أصلاً ولكن المنافقين نسبوه إليه ﷺ فالحديث في زمرة المجعولات الى رسول الله و نظائره كثيرة هذا مضافاً الى أن العقل السليم يكذِّبه اذ كيف يجوز له ﷺ عقلاً أن يقول ذلك وهو يوجب التجري في الاعتقاد والعمل و للبحث فيه موضع آخر.

أَلَا تَفَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ألا، كلمة، موضوعة للتَّحْضِيضِ عَلَى الفعل وأصلها لا، دخلت عليها ألف الإستفهام فصارت تحضيضاً كما أنها دخلت على، ليس، صارت تقريراً، وألا، موافقةً للتَّحْضِيضِ بالإستقبال و، أليس، أنما هي للحال، فاذا قيل، ألا تقاتلون، كان معناه التَّحْضِيضِ عَلَى قتالهم كما في الآية وإذا قيل: **أَلَا تُقَاتِلُونَ** كان تأنيباً، فقوله: **أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ فِيهِ حِصٌّ** وتحريض من الله تعالى للمؤمنين على قتال الناكثين الَّذِينَ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ وَهُمْ، أي قصدوا بإخراج الرسول من مكة وَهُمْ بَدْءُكُمْ **أَوَّلَ مَرَّةٍ**.

فقال الطَّبْرِي بدءوهم بخروجهم الى بدر لقتالهم.

و قال الرَّجَاجُ أي بدءوا حلفاء النَّبِيِّ بِالْقِتَالِ من خزاعة بعد عهد الحديبية و من المعلوم أَنَّ البادي أَظْلَم و اذا كان كذلك فما يمنعكم من أَنْ تقاتلوهم بمثله تصدمونهم بالشَّرِّ كما صدموكم و نَجَّهْهُمْ بترك مقاتلتهم و حَضَّهْم عليها ثُمَّ وصفهم بما يوجب الحَضَّ عليها و تَقَرَّرَ أَنَّ من كان مثل صفاتهم من نكث العهود و إخراج الرسول و البدء بالقتال من غير موجبٍ حَقِيقٌ بِأَنْ لا تترك مصادقته و أَنْ يُوَیْخَ من فَرَطَ فيها.

قال ابن عطية، **أَوَّلَ مَرَّةٍ قِيلَ** يريد أفعالهم بمكة بالنبي ﷺ و بالمؤمنين **أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** الإستفهام قيل أَنَّهُ إنكارِيٌّ أي لا تخشوهم و قيل للتَّوْبِيخِ، و قيل، أَتَخْشَوْنَهُمْ تقرير للخشية منهم و توبيخٌ عليها، و الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و الخشية نوع من الخوف و ذلك لِأَنَّ الخوف عبارة عن تألم القلب و إحتراقه بسبب توقعٍ مكروهٍ في الإستقبال مشكوك الوقوع ثُمَّ أَنَّهُ على نوعين:

مذمومٌ و هو الَّذِي لم يكن من الله و لا من معاصي العبد و جنائياته.

و ممدوحٌ و هو الَّذِي كان من الله تعالى، و من عظمته و كبريائه و هذا هو المسمى بالخشية و الرَّهْبَةِ في عرف أرباب القلوب.

و أما اذا كان من جنابة العبد بإقترانه المعاصي فلا يسمّى بالخشية كان من الخوف من الله سبحانه وعظمته موقوفاً على المعرفة به فمن لا يعرف الله لا يخشى منه ولأجل ذلك قالوا في تعريفها.

الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و أن شئت قلت الخوف عامّ و الخشية تختصّ بالعلماء و الى هذه الدقيقة أشار الله تعالى بقوله:

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَإِنَّمِ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ<sup>(٦)</sup> و الآيات في الباب كثيرة.

و أما قال تعالى: أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ وَلَمْ يَقُلْ أَتَخَافُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَافُوهُ، لأنهم كانوا عالمين بحال المشركين و أنهم لا يقدرّون على شيء كما كانوا عالمين بأن أزمة الأمور بيد الله و هو على كلّ شيء قدير و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا وجه للخشية منهم دون بل ينبغي أن يكون الأمر بالعكس و لذلك علّق الحكم على إيمانهم فقال أن كنتم مؤمنين و الإيمان لا يكون إلا عن علم و معرفة.

بَابُ الْقِيَامَةِ فِي تَعْرِيفِ الْخَشْيَةِ

جزء ١٠

بَابُ الْقِيَامَةِ

٢- النازعات = ٢٦

٤- سورة فاطر آية ١٨

٦- البقرة = ١٥٠

١- فاطر = ٢٨

٣- الأعلى = ١٠

٥- الزمر = ٢٣

و قيل أن كنتم مصدقين بثوابه وعقابه وهو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه لأن التصديق عبارة عن العلم بإذعان النسبة وبعد ذلك أمرهم الله بقتال الكفار فقال:

فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أمر الله المؤمنين بقتال هؤلاء الناقضين للعهد البادئين بقتال حلفاء النبي من خزاعة و وعدهم بأن يعذب الله الناقضين للعهد بأيديهم بالقتل والأسر و يخزيهم بالذلة و المقهورية و ينصر المؤمنين عليهم بالظفر و الغلبة و يشف صدور قوم مؤمنين و يذهب غيظ قلوبهم بسبب هذه الذلة و الإنكسار و هذه الأمور كلها لا يحصل إلا بالقتال و الاستقامة في طريق الحق فمن جلس في بيته ولم يقاتل صار ذليلاً قهراً و لأجل ذلك صار الجهاد واجباً لازماً.

و في قوله: يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ إشارة الى أن من تاب من هؤلاء الناقضين و رجع الى ما كان عليه من العهد فالله يتوب عليه و الله عليم حكيم، أي عالم بجميع الأمور و حكيم أي يضع الأشياء في مواضعها و فيها دلالة على صحة نبوة النبي لأنه تعالى وعده النصر فكان الأمر على ما قال و من المعلوم أن الله لا يخلف الميعاد و مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً<sup>(١)</sup>.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ قال الزمخشري، أم، في قوله، أم حسبتم، منقطعة و معنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان و المعنى أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

يَتَّبِعِينَ الْخَلَصَ مِنْكُمْ وَ هُمُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّخِذُوا وَلِيَّةَ أَيِّ بَطَانَةٍ مِنَ الَّذِينَ يَصَادُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَ الْمُؤْمِنِينَ انْتَهَى.

و قال الشَّيْخُ فِي التَّبَيَانِ، أَمْ حَسِبْتُمْ مِنَ الْإِسْتِفْهَامِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الْكَلَامِ فَيَجْعَلُ بَأَمٍ، لِيَفْرُقَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْإِسْتِفْهَامِ الْمَبْتَدَأِ الَّذِي لَمْ يَتَّصِلْ بِكَلَامٍ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْإِبْتِدَاءِ لَكَانَ إِمَّا بِالْأَلْفِ وَ بِهَلٍ، كَقَوْلِهِ: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ وَ الْمَعْنَى ظَنَنْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَ الظَّنَّ وَ الْحِسَابَانَ نَظَائِرَ انْتَهَى.

و كيف كان فالمعنى حسبتم أو ظننتم أن تتركوا:

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ<sup>(٤)</sup>.

و محصّل الكلام فيها أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَكْلَفَ لَا بَدَلَ لَهُ مِنَ الْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا:

قال الله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ<sup>(٥)</sup>.

و أيضاً أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتْرَكَ بِحَالِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ بِمَعْنَى عَدَمِ تَرْتَبِ الْجُزْءِ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: أَيْخُسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُذًى<sup>(٦)</sup> وَ هَذِهِ سِيرَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ مِنْ بَدْوِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَبْلَ

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد الثاني

٢- الجاثية = ٢١

١- العنكبوت = ٤

٤- آل عمران = ١٤٢

٣- البقرة = ٢١٤

٦- القيامة = ٣٦

٥- العنكبوت = ٢

لإمتحان لا يعرف نفسه ولذلك كثيراً ما يدّعي مالميس له ولذلك نقول أنّ الإبتلاء و الإمتحان لايزيد على علم الله بحال عبده و هو تعالى لم يجعل الإمتحان فيهم لأجل أن يعرفهم لأنّ الخالق لا يخفى عليه شيء من حالات مخلوقه.

و أنّما جعله فيهم لأن يعرف كلّ إنسان قدره و لا يدّعي أكثر منه و هذا ممّا لا كلام فيه و قد سبق ممّا البحث فيه مفصّلاً إذا عرفت هذا.

**فَاعْلَمُ** أنّ هذه الآية و نظائرها ناظرة الى ذلك الأصل و ذلك لأنّ المؤمنين في عهد الرّسول كانوا يدّعون الإيمان بالله و رسوله حقّاً فقال تعالى لهم ليس الأمر كما زعمتموه ظننتم أنّ تتركوا و لا تختبركم بالجهاد مع أعداء الدّين يعني أن صدقتم فيما تدّعون فجاهدوا في سبيله و لا تتخذوا من دون الله و رسوله وليجة أي الكفر و النفاق و أنّما قال تعالى فيهم ذلك لأنّهم كانوا يتخذون بطانة يغشون اليهم أسرارهم و لا نعني بالنفاق إلّا هذا و في الآية دلالة على أنّه لا يجوز أن يتخذ من الفساق وليجة لأنّ في ذلك تأليفاً بالفسق مع أنّ الواجب معاداة الفساق و البراءة منهم.

والوليجة كلّ شيء أدخلته في شيء و ليس منه، ففي الآية طعنٌ على المنافقين الذين يتخذوا الولائج لا سيما عند فرض القتال و أيضاً يظهر من الآية أنّ الجهاد لا بدّ له من الإخلاص خالياً عن النفاق و الرّياء و التّودد الى الكفار و في قوله: **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** إشارة الى أنّ الله يعلم ما في قلوبكم خبير بما تضمرونه في أنفسكم فضلاً عن أعمالكم.

**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**

قرأ ابن كثير و أبو عمرو مسجد الله على التّوحيد و الباقر على الجمع فمن قرأ على التّوحيد أراد به المسجد الحرام و به قال الجبائي و من قرأ بالجمع أراد جميع المساجد.



قال بعضهم من قرأ على التَّوْحِيدِ يحتمل أن يكون أراد المساجد كلها لأنَّ لفظ الجنس يدلُّ على القليل والكثير.

و من قرأ على الجمع أيضاً يحتمل أن يكون مراده المسجد الحرام لأنَّ كلَّ موضع منه مسجد يسجد عليه و القراءتان متناسبتان و الأصل في المسجد هو موضع السَّجود و في العرف يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّه ليس لمشرك أن يعمر مسجد الله و العمارة أن يجدد منه ما إستمر من الأبنية شاهدين عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أي لا يجوز لهم ذلك و الحال أنَّهم يشهدون على أنفسهم بالكفر فالمعنى ما إستقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافسين عمارة متَّعبدات الله مع الكفر بالله و بعبادته و معنى شاهدين على أنفسهم بالكفر و هو ظهور كفرهم و أنَّهم نصبوا أصنامهم حول البيت و كانوا يطوفون عراة و يقولون لا تطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي و كلَّما طافوا بها شوطاً سجدوا لها و قيل هو قولهم لبيك لا شريك لك.

و قيل قد أقبل المهاجرون و الأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك ففطق علي ابن أبي طالب يوبِّخ العباس بقتال رسول الله و قطيعة الرِّحم و أغلظ له في القول فقال العباس تذكرون مساوينا و تكتمون محاسننا فقال أو لكم محاسن قالوا نعم و نحن أفضل منكم أجراً أنا لنعمر مساجد الله (المسجد الحرام) و نحجب الكعبة و نسقي الحجيج و نفك العاني فنزلت الآية ذكره صاحب الكشاف.

و عليه فقوله تعالى بعد ذلك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إشارة الى أنَّ أعمالهم لا تنفع لهم في حال كفرهم و أنَّما هي تنفع اذا صدرت عن الإيمان و الخلوص و ذلك لأنَّ الكفر يسترها و يحبطها بالكلية فلا جرم هم في النَّار.

أقول الذي يظهر لنا من الآية هو أن المسجد الحرام كان في أيدي المشركين قبل الإسلام فلا محالة كان يعتمر المسجد والبيت أيضاً بيد المشركين ولما ظهر الإسلام أمر الله رسوله والمؤمنين أن يمنعهم عن تعمير المسجد بل عن الدخول فيه وهم على كفرهم لنجاستهم:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا<sup>(١)</sup>**.

ثم أشار الله تعالى الى من يصلح لتعمير المسجد فقال:

**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** كلمة، أنما، تفيد الحصر أي لا يكون تعمير المساجد إلا لمن كان واجداً لهذه الشروط خمسة:

**أحدها:** الإيمان بالله وهو يتحقق بالاعتقاد القلبي والإقرار اللساني والعمل بالأركان على مسلك الحق.

**ثانيها:** الإيمان باليوم الآخر وهو القيامة.

**ثالثها:** إقامة الصلاة بشرائطها.

**رابعها:** إعطاء الزكاة.

**خامسها:** الخشية من الله ثم فرع على الشروط المقررة إصابة الحق فقال: **فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** فالإهداء متفرع على وجود الشرائط فبإتقانها وإتفاء بعضها لا يحصل الإهداء وهذه الآية عامة لجميع المساجد وليس المراد من الحصر عدم قدرة الكافر على التعمير بل المراد به أن الكافر اذا فعل ذلك فهو كالعدم.

وإِعلم أنَّ تعمير المسجد يتَّصور على نوعين:

أحدهما: تعمير البناء في الظاهر.

ثانيهما: تعمير المسجد بإقامة الصَّلاة فيها.

أَمَّا الأوَّل: فلا خفاء فيه فإنَّ بناء المسجد أو تعميره من علائم الإيمان إلَّا أنَّ التَّعمير لا يختصَّ به فأنَّا نرى في زماننا هذا مساجد كثيرة مزينة بأنواع الزينة والتَّجمل إلَّا أنَّها خالية عن المصلَّى مع أنَّه قد ورد لا صلاة لجار المسجد إلَّا في المسجد (في مسجده) وقد ورد في الباب أحاديث كثيرة.

فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: شكت المساجد إلى الله تعالى الذين لا شهدونها من جيرانها فأوحى الله إليها وعزَّتي وجلالي لا قبلت لهم صلاة واحدة ولا أظهرنَّ لهم في النَّاس عدالة ولا نالتهم رحمتي ولا جاوروني في جنَّتي انتهى<sup>(١)</sup>.

وفيه أيضاً عن جعفر عن أبيه أنَّ علياً كان يقول ليس لجار المسجد صلاة إذا لم يشهد المكتوبة في المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً انتهى<sup>(٢)</sup>.

وأسناده عن علي عليه السلام قال: من إختلف إلى المساجد (المسجد) أصاب إحدى الثَّمان، أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو أية محكمة، أو يسمع كلمة تدلُّ على الهدى (هدى) أو رحمةً منتظرة، أو كلمة تردده عن ردئي، أو يترك ذنباً خسيّةً أو حياءً انتهى<sup>(٣)</sup>.

فهذه الأحاديث ناظرة إلى تعمير المسجد واقعاً وللبحث فيه مقام آخر يأتي إن شاء الله تعالى.



١- وسائل الشيعة ج ٣ كتاب الصَّلاة ص ٤٧٩

٢- ص ٤٨٠

٣- ص ٤٧٩

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
 كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً  
 عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ  
 رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا  
 نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ  
 أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا  
 آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ  
 عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ  
 الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَ  
 إِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ  
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ  
 مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ  
 رَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ  
 اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

### ◀ اللغة

سِقَايَةَ بكسر السين مصدر يقال سَقَى وسقايةً وهي آلة تتخذ لسقي الماء.  
 اقْتَرَفْتُمُوهَا، الإقتراف مصدر قولك إقترف إقترافاً ومعناه الإكتساب و  
 الإقتراف و الإقتراف في الأصل إقتراف الشيء عن مكانه إلى غيره.

فَتَرَبَّصُوا أَمْرًا مِنْ تَرَبَّصِ وَ التَّرَبُّصِ التَّثَبُّتِ فِي الشَّيْءِ حَقَّ يَجِيئُ وَقْتَهُ كَالْتَنْظَرِ وَ التَّوَقُّفِ.

### ◀ الإعراب

سِقَايَةَ الْحَاجِّ الْجُمْهُورِ عَلَى سِقَايَةِ بَالِيَاءٍ، وَ قَرَأَ سِقَاةَ الْحَاجِّ وَ عَمَّارِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، عَلَى أَنَّهُ جَمَعَ سَاقَ وَ عَامَرَ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ مُسْتَأْنَفٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ وَ الثَّانِي وَ يَكُونُ التَّقْدِيرُ سَوَّيْتُمْ بَيْنَهُمْ فِي حَالِ تَفَاوُتِهِمْ.

### ◀ التفسير

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَ آيَوْمِ الْآخِرِ  
 قيل نزلت الآية في عليٍّ عليه السلام و العباس.

و روى الطبري بأسناده عن ابن عباس أنها نزلت في العباس حين قال يوم بدر إن سبقتونا إلى الإسلام و الهجرة لم تسبقونا إلى سقاية الحاج و سدنة البيت.

و روى أيضاً بأسناده عن الحسن أنها نزلت في عليٍّ عليه السلام و العباس و عثمان و شيبة و قال الشعبي نزلت في عليٍّ و العباس و به قال ابن وهب و السدي.

و قال القرطبي ظاهر هذه الآية أنها مبطللة قول من إفتخر من المشركين بسقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كما ذكره السدي قال إفتخر عباس بالسقاية و شيبة بالعمارة و عليٍّ عليه السلام بالجهاد فصَّدقَ الله علياً و كذَّبهما و أخبر أنَّ العمارة لا تكون بالكفر و أئما تكون بالإيمان و العبادة و أداء الطاعة و هذا بين لا غبار عليه انتهى.

و قال الرّازي، قيل أنّ عليّاً قال للعبّاس بعد إسلامه يا عمّي ألاّ تهاجرون ألاّ تلحقون برسول الله فقال أأست في أفضل من الهجرة أسقي حاج بيت الله و أعمار المسجد الحرام فلمّا نزلت هذه الآية قال ما أراني إلّا تارك سقايتنا فقال رسول الله ﷺ أقيموا على سقايتكم فإنّ لكم فيها خيراً.

و قيل إفتخر طلحة بن شيبه و العبّاس و عليّ رضي الله عنهم فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو أردت بثّ فيه و قال العبّاس أنا صاحب السّقاية و القائم عليها و قال عليّ رضي الله عنه أنا صاحب الجهاد فأنزل الله تعالى هذه الآية انتهى كلامه.

أقول بعد التّفحص في تفاسير العامّة وجدنا أنّهم إنّفقوا في هذه المسألة و إن نقلوا أقوالاً أخر أيضاً.

و أمّا عندنا فلا كلام لأحد فيه و جميع المفسّرين من الخاصّة قالوا نزلت الآية في عليّ و العبّاس حين إفتخر بسقاية الحاج فنزلت الآية ففي تفسير عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر رضي الله عنه قال رضي الله عنه: نزلت في عليّ و حمزة و العبّاس و شيبه قال العبّاس أنا أفضل لأنّ سقاية الحاج بيدي شيبه أنا أفضل لأنّ حجابة البيت بيدي و قال حمزة أنا أفضل لأنّ عمارة البيت بيدي و قال عليّ رضي الله عنه أنا أفضل فأني أمنت قبلكم ثمّ هاجرت و جاهدت فرضوا برسول الله ﷺ حكماً فأنزل الله أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ إلی قوله أَجْرٌ عَظِيمٌ انتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و قد ذكر الحاكم الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل لقواعد التّفصيل كثيراً من الأخبار الواردة بطرق العامّة في الباب أن شئت الإطلاع عليها فعليك بمراجعة الكتاب و من جملة ما نقله فيه.

بأسناده عن أبي بريدة عن أبيه، قال: بينما شيبة و العباس يتفاخران اذ مرَّ بهما عليّ بن أبي طالب فقال لهما فيماذا تفاحران فقال العباس يا عليّ لقد أوتيتا من الفضل ما لم يؤت أحد فقال عليّ وما أوتيت يا عباس قال أوتيت سقاية الحاجّ فقال عليّ ما تقول أنت يا شيبة قال قد أعطيت عمارة المسجد الحرام فقال لهما عليّ استحييت لكما يا شيخان فقد أوتيت على صغري ما لم توتيتما فقالا وما أوتيت يا عليّ قال عليّ ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى أمنتما بالله و رسوله فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله ﷺ فقال له النبي ما وراءك يا عباس فقال أما ترى الى ما إستقبلني به هذا قال ﷺ و من ذاك، فقال عليّ ابن أبي طالب فقال ﷺ أدعوا لي علياً فدعى فقال رسول الله يا عليّ ما الذي حملك على ما إستقبلت به عمّك فقال يا رسول الله صدمته بالحقّ إن غلظت له أنفاً فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض اذ نزل جبرئيل فقال يا محمّد أنّ ربّك يقرأوك السّلام و يقول أتّل عليهم هذه الآية أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمِنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ فقال العباس أنا قد رضينا ثلاث مرّات انتهى<sup>(١)</sup>.

و قد نقل المجلسي رحمه الله في المجلد التاسع من بحار الأنوار أحاديث كثيرة من العامة و الخاصة و قال في آخرها نزولها في أمير المؤمنين ممّا أجمع عليه عامة المفسّرين من المتّقدمين و متّعصبين المتأخّرين كالبيضاوي و الزّمخشري و الرّازي و غيرهم و سيأتي الأخبار في باب شجاعته و يدلّ على أنّ مناط الفضل و الفخر الإيمان و الجهاد و لا ريب في سبقه فيهما على سائر الصّحابة

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

كما سيأتي تفصيلهما فهو أولى بالخلافة والإمامة لقبج تفضيل المفضل كما يشهد به الباب ذوي العقول انتهى كلامه رفع مقامه.

إذا عرفت نزول الآية و أنها فيمن نزلت و في أي شيء نزلت فلنرجع الى تفسير الآية فنقول قوله: **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** الإستفهام للإنكار أي ليس الأمر كذلك و لذلك قال تعالى: **(لَا يَسْتَوُونَ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** أي تقاسون هذا بذاك بل تفتخرون بالسقاية و العمارة (لا يستون) بل بينهما بون بعيد و **اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** يظهر من هذا الكلام في آخر الآية أن من قاس سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام بالإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد في سبيل الله فهو ظالم. أما لأنه أنكر الحق فهو ظالم.

و أما أن سقاية الحاج و عمارة المسجد من الكافر و المشرک ليس على ما ينبغي لقوله تعالى: **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ** <sup>(١)</sup> و حيث أن الكفر من أعظم الذنوب فصدور الفعل الذي يشترط فيه الإيمان.

منه أيضاً كفر و ظلم لأنه وضع الشيء في غير محله و لا نعني بالظلم إلا هذا. و في قوله: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** إشارة الى أن الكافر المعاند للحق بعد تمامية الحجة إذا بقى على كفره فأمر الله تعالى يكله الى نفسه هو المراد بقوله: **لَا يَهْدِي** و الألهادية بمعنى إرانة الطريق بتوسط الأنبياء ثابتة في حق الكل ثم أنه تعالى أثبت في هذه الآية لأمر المؤمنين. أوصافاً ثلاثة لا مزية لأحد فوقها:

**أحدها:** الإيمان و هو الأصل في جميع الأعمال كما هو واضح و لا شك أن أمير المؤمنين أول من آمن بالله و رسوله ولم ينكره أحد و من المعلوم أن



الفضل لمن سبق و قد تواترت الأخبار و اتفق أرباب السير و أجمع المورخون على أنَّ أول من آمن من الرجال أمير المؤمنين و من النساء خديجة و هذا فضل أي فضل و منقبة أئمة منقبة و هذا كان من المشهورات في صدر الإسلام عند الكل حتّى الأعراب في البوادي فعلى منكره لعنة الله.

قال في المناقب أستفاضت الرواية أنَّ أول من أسلم عليّ ثمّ خديجة ثمّ جعفر ثمّ زيد ثمّ أبوذر ثمّ عمرو بن عبسة السلمي ثمّ خالد بن سعيد بن العاص ثمّ سمّية أمّ عمّار ثمّ عبيدة بن الحرث ثمّ حمزة ثمّ خبات بن الأرت و هكذا و هذا ممّا لا كلام فيه و كفى في ذلك ما رواه السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ<sup>(١)</sup> سابق هذه الأمة عليّ بن أبي طالب قال النطنزي في الخصائص العلوية بالأسناد عن المأمون عن الرّشيد عن المهدي عن المنصور عن جدّه عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطّاب يقول، قال رسول الله ﷺ: يا عليّ أنت أول المسلمين إسلاماً و أول المؤمنين إيماناً.

و في حديث ابن عباس، قال رسول الله ﷺ عليّ عليه السلام أول من آمن بي و صدّقني، و عن أربعين الخطيب بأسناده عن ابن عباس و فضائل أحمد و كشف الثعلبي بأسنادهم الى عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال إنّ النّبي قال أن سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا طرفة عين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، و صاحبه ياسين و مؤمن آل فرعون فهم الصّديقون و عليّ أفضلهم.

و لنكتفي بهذا المقدار من النّصوص في الباب مع أنّه ليس بالنسبة الى فضائله إلا كقطرة من البحور و قد روي عنه عليه السلام في بعض احتجاجاته أنّه قال:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثالث

صَدَّقْتُهُ وَ جَمِيعَ النَّاسِ فِي بِهِمْ  
وَقَالَ الْحَمِيرِي:

مَنْ فَضَلَهُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ  
سَنِينَ سَبْعٍ وَأَيَّامَ مُحَرَّمَةٍ  
وَأَيْضاً قَالَ:

مَنْ كَانَ وَحْدَ قَبْلِ كُلِّ مُوَحِّدٍ  
مَنْ كَانَ صَلَّى الْقَبْلَتَيْنِ وَ قَوْمِهِ  
وَقَدْ رَوَى الْمُخَالِفُونَ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ  
لَوْ وَزَنَ إِيمَانُ عَلِيٍّ بِإِيمَانِ أُمَّتِي وَ فِي رِوَايَةٍ، وَ إِيمَانُ أُمَّتِي لَرَجَحَ  
إِيمَانُ عَلِيٍّ عَلَى إِيمَانِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.

وَلَنَعْمَ مَا قَالَ الْعَبْدِي:

أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ قَالَ لَنَا  
لَوْ أَنَّ إِيمَانًا جَمِيعَ الْخَلْقِ مِمَّنْ  
يَجْعَلُ فِي كِفِّهِ مِيزَانٍ لَكِي  
يُوفِي بِإِيمَانِ عَلِيٍّ مَا وَفَى  
وَلَنَخْتَمُ الْكَلَامَ فِي الْوَصْفِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ الْإِيمَانُ فَثَبَتَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
مُضَافاً إِلَى سَبْقِهِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَانَ إِيمَانُهُ عَلَيْهِ أَثْقَلَ  
مِنْ إِيمَانِ الْجَمِيعِ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ السَّبْقَ بِالْإِيمَانِ شَيْءٌ وَكَوْنُهُ أَثْقَلَ وَ أَحْكَمُ مِنْ  
إِيمَانٍ غَيْرِهِ شَيْءٍ آخَرَ وَ لَا مِلَازِمَةَ بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُمَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا أَمِيرُ  
الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي الْوَصْفِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ قَوْلُهُ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي وَ هُوَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَهُوَ مِنْ شُؤْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ  
لَوَازِمُهُ إِذْ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ كَامِلاً فِي إِيمَانِهِ بِاللَّهِ وَ هُوَ لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَ عَلَيْهِ فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّكَلُّمِ فِيهِ كَيْفَ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ  
الْمُتَّقِينَ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ  
يُوقِنُونَ<sup>(١)</sup> وَالْآيَاتُ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الوصف الثالث وهو قوله: وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(٢)</sup> فهو أيضاً من  
المسلّمات في حقه عليه السلام ولم يخالف فيه أحد إلا المكابر الذي لا ينبغي  
الالتفات إليه.

ف نقول إجتمعت الأمة و وافق الكتاب و السنة إنّ لله خيرة من خلقه و أنّ  
خيرته من خلقه هم المتّقون.

قال الله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ<sup>(٣)</sup>.

و أنّ خيرته من المتّقين المجاهدون:

قال الله تعالى: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى  
الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً<sup>(٤)</sup>.

و إنّ خيرته من المجاهدين السّابقون الى الجهاد:

قال الله تعالى: لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ<sup>(٥)</sup>.

و إنّ خيرته من المجاهدين أكثرهم عملاً في الجهاد و إتّفتت الأمة على أنّ  
السّابقين الى الجهاد هم البدرّيون و أنّ خيرة البدرّيين علي عليه السلام لإجماع  
المؤمنين على أنّ الفتح في يوم بدر كان بسبب جهاده إذ هو الذي قتل أبطال  
المشركين واحداً بعد واحد بشهادة التاريخ فلم يزل القرآن يصدّق بعضه بعضاً  
بإجماعهم حتّى دلّوا بأنّ علياً خير هذه الأمة و لنعم ما قيل:

ولو يستوي بالتهوؤ الجلوس لمّا بيّن الله فضل الجهاد

قال بعض المحقّقين المعروفون بالجهاد، عليّ، حمزة، جعفر، عبيدة بن  
الحارث، الزبير، طلحة، أبو دجّانة، سعد بن أبي وقاص، البراء بن عازب، سعد  
بن معاذ و محمّد بن مسلمة.

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

١- البقرة = ٢١٨

٢- البقرة = ٤

٣- النساء = ٩٥

٤- الحجرات = ١٣

٥- الحديد = ١٠

وقد اجتمعت الأمة على أنَّ هؤلاء لا يقاسوا بعليٍّ في شوكته وكثرة جهاده.

فأمَّا أبو بكر وعمر فقد تفحصنا كتب المغازي فما وجدنا لهما فيه أثر ألبتة انتهى. ولنعم ما قال الزَّاهي:

أيجعل سيّد الثّقلين شهباً  
لما يرتضيه له غلاماً  
الى من قطّ لم يهزم شجاعاً  
ولم يجعل بقبضته حساماً  
وقال آخر:

أيا ناصر المصطفى أحمد  
تعلّمت نصرته من أبيكا  
و ناصبت نصابه عنوةً  
فلعنة ربي على ناصيبكا  
وقال آخر:

إذا فاخر العباس عمّ المصطفى  
لعلّي المختار صهر محمّدٍ  
بعمارة البيت المعظم شأنه  
و سقاية الحجاج وسط المسجد  
فأتى بها جبريل عن ربّ السماء  
يقريّ السلام على النّبي المهتدي  
أجعلتم سقي الحجيج وما يرى  
من ظاهر الأستار فوق الجلمد  
كالؤمنين الضّاربي هام العدى  
وسط العجاج بساعدٍ لم يرعدٍ  
وقال الآخر:

يا قارئ القرآن مع تأويله  
مع كلّ محممة أتت في حالٍ  
أعمارة البيت المحرّم مثله  
و سقاية الحجاج في الأمثال  
أم مثلي التمي أم عدوئهم  
هل كان في حالٍ من الأحوال  
لا و الذي فرض عليّ وداده  
ما عندي العلماء كالجهال  
وقال الآخر:

وقال جعلتم السّقيّا كمن لا  
يزال مجاهداً لا يستونا  
و المقصود من ذكر الأشعار بعد الإخبار هو أنّه ما كان عند الأوائل في صدر  
الإسلام شكّ في أنّ الآية نزلت فيما ذكرناه و أثبتت لأمر المؤمنين على فضيلة

لم يسبقه إليها أحد و آية فضيلة أحسن مما نصّ عليه القرآن الكريم و الحمد لله رب العالمين.

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ

لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة أنّ الملاك في الفضيلة هو الإيمان و الجهاد في سبيل الله لا سقاية الحاجّ و عمارة المسجد أكّد ما ذكره بهذه الآية و قال: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ هَاجَرُوا مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جَاهَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أُولَئِكَ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ وَ حِلَاوَةِ النَّشْأَتَيْنِ وَ فِي قَوْلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ، إشارة إلى أنّ الجهاد في سبيل الله لا يختصّ بالسيف و السّلاح بل الجهاد بالأموال في موارد مثل الجهاد بالأنفس من حيث الفضيلة و ذلك مثل جهاد خديجة عليها السلام فإنّها بذلت أموالها في سبيل الله كما لا يخفى على أحدٍ فهي تكون من أعظم مصاديق الآية بالنسبة إلى الجهاد المالي كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يكون من أعظم مصاديقها في الجهاد بالنفس.

و أمّا غيرهما من المسلمين الذين جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فلكلّ واحدٍ منهم شأن و فضيلة على حسب مراتبهم و هذا ظاهر و المخالف معاند بشهادة الأئثار.

و الحقّ أنّ هذه الآية أيضاً تنطبق على أمير المؤمنين عليه السلام إنطباقاً لا يساويه أحد من أفراد الأمة أمّا الإيمان فهو أول من آمن بالله و رسوله إيماناً حقيقياً لا يشوبه شكّ و لا نفاق أصلاً كما اعترف به رسول الله في كثير من الأحاديث و كفى في إثبات المدعى ما قال الرسول فيه حيث قال لو وزن إيمان عليّ بإيمان أمّتي لرجح إيمانه على إيمان أمّتي إلى يوم القيامة.

و أما الهجرة و الجهاد بقسميه فهو أيضاً واضح لا نحتاج الى بسط الكلام فيه فإذاً هو أعظم درجة عند الله من جميع أفراد الأمة و لذلك كان عليه من أظهر مصاديق الفائزين، لأنه ولد في بيت الله الحرام و فاز الى الشهادة أيضاً في بيت الله و لا فوز أعلى من ذلك و أما في الآخرة فهو قسيم الجنة و النار و ساقى الكوثر و بالجملة لا يقاس به أحد بعد رسول الله وليست درجة أعظم و أشرف من هذه الدرجة عند الله قطعاً فالمطلوب ثابت.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ  
 أَيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُهَاجِرُونَ  
 الْمُجَاهِدُونَ يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ، أَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ مِنَ  
 اللَّهِ إِنْعَامٌ وَ إِفْضَالٌ وَ مِنَ الْأَدْمِيينِ رَقَّةٌ وَ تَعَطُّفٌ وَ إِذَا وَصَفَ بِهَا الْبَارِي فَلَا يَرَادُ  
 بِهِمَا إِلَّا الْإِحْسَانُ الْمَجْرَدُ دُونَ الرِّقَّةِ وَ هَذَا الْإِحْسَانُ الْمَجْرَدُ فِي الدُّنْيَا يَعْمُ  
 الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ لِقَوْلِهِ: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ<sup>(١)</sup>.

و أما في الآخرة فهو مختص بالمؤمنين و الى هذا أشار بقوله: فَسَأَكْتُبُهَا  
 لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ<sup>(٢)</sup> تنبيهاً على أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الدُّنْيَا عَامَّةٌ وَ فِي الْآخِرَةِ خَاصَّةٌ  
 بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ،  
 فَكَلِمَةُ، مِنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الَّتِي يَبَشِّرُهُمْ بِهَا رَبُّهُمْ لَيْسَتْ مِنْ أَنْعَامِهِ  
 الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا بَلْ هِيَ مِنْهُ تَعَالَى خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ.

و أما الرِّضْوَانُ فعلى ما فُسِّرَ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ، الرِّضَا الْكَثِيرُ، وَلَمَّا كَانَ  
 أَكْثَرُ الرِّضَا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى خَصَّ لَفْظَ الرِّضْوَانِ فِي الْقُرْآنِ بِمَا كَانَ مِنَ اللَّهِ  
 تَعَالَى وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرِّضَا الْكَثِيرَ أَعْنَى بِهِ رِضَى اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ النِّعَمِ وَ أَفْضَلِ  
 الْقُرْبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ جَنَّاتٍ جَمْعُ جَنَّةٍ يَعْنِي الْبَسَاتِينَ الَّتِي يَخْفَهَا الشَّجَرُ.

قال الرَّاغِبُ الجَنَّةُ كُلُّ بستانٍ ذي شَجَرٍ يسترُ بأشجاره الأرضَ و أما قوله: لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ أي لهؤلاء الموصوفين بالأوصاف المذكورة في الجنة نعيمٌ مقيمٌ فالنَّعيمُ لين العيش اللَّذِيذُ و هو مُشْتَقٌّ من النِّعْمَةِ و هى اللَّيْنُ و أما النِّعْمَةُ بكسر النُّونِ فهى منفعةٌ ليستحقَّ بها الشُّكْرُ، و المقيم الدائم بخلاف الرَّاحِلِ فكأنه قال المقيم أبداً.

### تنبيه

وإِعلمُ أَنَّهُ تعالى قال في هذه الآية يَبْشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ، و لم يقل بِالرَّحْمَةِ وَ الرِّضْوَانِ، و ذلك لِأَنَّ التَّنْكِيرَ يفيد التَّوَعُّبَ بخلاف التَّعْرِيفِ و حيث أَنَّهُ تعالى أَرَادَ نوعاً خاصاً من الرَّحْمَةِ وَ الرِّضْوَانِ و لا علم للمخاطب بها نَكَّرَهُمَا أي يَبْشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ وَ رِضْوَانٍ لا علم لکم بهما لِأَنَّهُمَا نوعان خاصان.

أَلَا تَرى أَنَّكَ إذا قلتَ مررتَ بِرَجُلٍ أو رأيتَ رجلاً بالتَّنْكِيرِ لا يعلم المخاطب من هو و أما إذا قلتَ مررتَ بِالرَّجُلِ مثلاً فهو يعلم أَنَّ الألفَ وَ اللَّامَ كناية عن الرَّجُلِ المَعْهُودِ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ وَ الخاطِبِ و حيث أَنَا لا نعلم من رحمته إِلَّا العامَّةَ منها و كذا الرِّضْوَانُ فقال تعالى قال أي أَنَّهُمَا ليسا من سنخ ما تعلمون و هذه نكتته خفيَّةٌ دقيقة الدَّالَّةُ على عَظَمِ الرَّحْمَةِ وَ الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَشَّرَهُمُ اللَّهُ بِهِمَا.

في تفسير القرآن



المجلد الثامن

ثم أَكَّدَ ما قال بقوله: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَ الْخُلُودُ في العرف الدَّوامُ في الشَّيْءِ، وَ الأبدُ الزَّمانُ المُستَقْبَلُ من غيرِ آخرٍ كما أَنَّ، قَطُّ، لِلماضي وَ حاصلِ هذا الكلام هو أَنَّ المؤمنين بتلك الصِّفَاتِ المَبْشَرِينَ بِالرَّحْمَةِ وَ الرِّضْوَانِ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خالدين فيها أبداً أي دائماً أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ أي كبير متضاعف لا تبلغه نعمة غيره من الخلق.

قال بعضهم أَنَّ الأبد قطعةٌ من الدهر متتابعة في اللّغة ومنه قول الشاعر:  
 أهّاج عليك الشّوق أطلال ذمّةٍ بناصفةٍ البردين أو جانب الهجل  
 أتى أبداً من دون حدثان عهدا وجرت عليها كلّ نافلةٍ شمل  
 وقالت صفية بنت عبد المطلب:  
 وخالجت أباد الدهور عليكم وأسماء لم تشعر بذلك أيّم  
 فلو كان زبر مشركاً لعذرته ولكنّ زبراً يزعم الناس مسلم  
 وأما الخلود فليس في كلام العرب ما يدلّ على أنّه بقاء لا غاية له وأنّما  
 يخبرون به عن البقاء الى مدّة ولأجل هذا قال تعالى خالدين فيها أبداً.

نقل بعض المفسّرين عن ابن عبّاس أنّه قال:  
 قوله تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ الى قوله: أَجْرٌ عَظِيمٌ نزل في شأن المهاجرين  
 خاصّة ولم يذكر مأخذاً ومستنداً عليه من الآثار وعليه لا دليل على صحّة قول  
 ابن عبّاس لوضح التّقلّ و ذلك لأنّ الآية ناظرة الى سابقتها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ  
 قال بعد ذلك يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ الْخ.

و ظاهر التعليق يشعر بأنّ الموصوفين بالأوصاف المذكورة يشملهم التبشير  
 من الله سواء فيه المهاجرين و الأنصار و كلّ من كذلك الى يوم القيامة و ذلك  
 لأنّ الله تعالى أثبت التّبشير، للمؤمنين، و المهاجرين و المجاهدين بأموالهم و  
 أنفسهم و غير المجاهدين من الأنصار و المؤمنين و المجاهدين و أن لم  
 يهاجروا من مكّة الى المدينة و لكنّهم آمنوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم هذا  
 إذا قلنا بأنّ المراد بالهجرة الهجرة من مكّة الى المدينة.

و أمّا إذا عمّمنا معناها فنقول المراد بالهجرة من الكفر الى الإيمان أو  
 الهجرة من الوسواس الشيطانيّة الى الله تعالى بالعبوديّة و الطاعة و عليه  
 فيدخل الجميع في الآية.



ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَسَدُ التَّبَشِيرِ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِأَنَّ مَالَكُمْ أَمْرَهُمْ وَالنَّظَرَ فِي مَصَالِحِهِمْ هُوَ الَّذِي يَبَشِّرُهُمْ وَلَمَّا كَانَتْ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَحَلَّوْا بِهَا وَصَارُوا بِهَا عِبِيدَهُ حَقِيقَةً هِيَ ثَلَاثَةٌ، الْإِيمَانُ، وَالهَجْرَةُ، وَ الْجِهَادُ بِالْمَالِ وَ النَّفْسِ قَبُولُوا فِي التَّبَشِيرِ بِثَلَاثَةٍ، الرَّحْمَةُ، وَ الرِّضْوَانُ، وَ الْجَنَّةُ، فَبَدَأَ بِالرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا الْوَصْفُ الْأَعْمُ النَّاشِئُ عَنْهَا تيسير الإيمان لهم، وَ ثَنَّى بِالرِّضْوَانِ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ إِحْسَانِ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ وَ هُوَ مُقَابِلُ الْجِهَادِ إِذْ هُوَ بِذَلِكَ النَّفْسِ وَ الْمَالِ، وَ قَدَّمَ عَلَى الْجَنَّةِ لِأَنَّ رِضَا اللَّهِ عَنْ الْعَبْدِ أَفْضَلُ مِنْ إِسْكَانِهِ الْجَنَّةَ وَ أَتَى ثَالِثًا بِقَوْلِهِ: وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ أَي دَائِمٌ لَا يَنْقُطِعُ وَ هَذَا مُقَابِلُ لِقَوْلِهِ: وَ هَاجَرُوا لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا أَوْطَانَهُم الَّتِي نَشَأُوا فِيهَا وَ كَانُوا فِيهَا مُنْعَمِينَ فَأَثَرُوا الْهَجْرَةَ عَلَى دَارِ الْكُفْرِ إِلَى مُسْتَقَرِّ الْإِيمَانِ وَ الرِّسَالَةِ فَقَبُولُوا عَلَى ذَلِكَ بِالْجَنَّةِ ذَوَاتِ النَّعِيمِ الدَّائِمِ فَجَاءَ التَّرْتِيبُ فِي أَوْصَافِهِمْ عَلَى حَسَبِ الْوَاقِعِ الْإِيمَانِ ثُمَّ الْهَجْرَةَ ثُمَّ الْجِهَادَ فِي الْمُقَابِلِ عَلَى حَسَبِ الْأَعْمِ ثُمَّ الْأَشْرَفِ ثُمَّ التَّكْمِيلِ هَذَا.

مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي الْآيَةِ وَلَا بِأَسَاسٍ بِهِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا  
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

قِيلَ فِي نَزُولِهَا، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطَبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ حَيْثُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ  
بِخَبَرِ النَّبِيِّ حِينَ أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ ذَكَرَهُ الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ رَاوِيًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَ أَبِي  
عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ تَبَعًا لِصَاحِبِ الْكُشَافِ كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ أَمْنٍ لَمْ  
يَتِمَّ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِأَنْ يَهَاجِرَ وَ يَصَارِمَ أَقَارِبَهُ (يَصَادِمُ خ) الْكُفْرَةَ وَ يَقْطَعُ مَوَالِيَهُمْ  
فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ إِعْتَزَلْنَا مَنْ يَخَالِفُنَا فِي الدِّينِ قَطَعْنَا آبَاءَنَا وَ أَبْنَاءَنَا وَ  
عَشَائِرَنَا وَ ذَهَبَتْ تِجَارَتُنَا وَ هَلَكْتَ أَمْوَالُنَا وَ خَرِبَتْ دِيَارُنَا وَ بَقِينَا ضَائِعِينَ

فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه إبنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل نزلت في التسعة الذين إرتدوا ولحقوا بمكة فنهى الله موالاتهم انتهى أقول لا يهمنا شأن النزول و أنما المهم ما يستفاد من الآية عموماً أو خصوصاً، فالحق أن الآية خطاب للمؤمنين كافة وهي باقية الحكم الى يوم القيامة ولا تختص بطائفة خاصة أو بزمان خاص أمر الله المؤمنين أن لا يتخذوا آباءهم أو إخوانهم أولياء أن أستحبوا الكفر على الإيمان فالنهي عن الإلتخاذ مشروط لا مطلق وذلك لأن الأب أو الأخ أو غيرهما من الأقارب إذا إختاروا الكفر على الإيمان لا فرق بينهم وبين الكافر الذي ليس من الأقارب لأن المانع هو الكفر وهو موجود فيهم على الفرض وقد نهى الله تعالى في كثير من الآيات عن إلتخاذ الكفار أولياء.

قال الله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعُرَّةَ فَإِنَّ الْعُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ<sup>(٤)</sup>.

والآيات في النهي عن ذلك كثيرة وإذا كان إلتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء منهياً عنه فهو ثابت الى يوم القيامة وفي قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إشارة إلى أن تولى الكافر ظلماً لأنه من وضع الشيء في غير محله بقى في المقام بحثان لا بد لنا من التنبيه عليهما:

أحدهما: أن النهي في قوله: لَا تَتَّخِذُوا نَهْيَ تَنْزِيهِه أو تحريم فقال بعض المفسرين أن النهي للتنزيه أي ترك الإتيان أولى من فعله والحق أنه للتحريم بدليل قوله في آخر الآية وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ومن المعلوم أن الظلم حرام فمن إتخذ الكفار أولياء فعل حراماً لأنه ظالم. ثانيهما: أن كلمة أولياء جمع ولي، والولي يطلق على معانٍ في القرآن. الأول: جاء بمعنى المعين والناصر ومنه:

قال الله تعالى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ<sup>(١)</sup>.

يعني ولم يكن له صاحب يتصر به من ذل أصابه:

قال الله تعالى: وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا<sup>(٢)</sup> يعني صاحب مرشداً.

الثاني: جاء بمعنى الولد ومنه:

قال الله تعالى: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا<sup>(٣)</sup> يعني ولداً.

الثالث: جاء بمعنى القريب من حيث النسب أو السبب ومنه:

قال الله تعالى: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ<sup>(٤)</sup> أي قريب ينفعكم وناصر ينصركم.

الرابع: جاء بمعنى الرب ومنه:

قال الله تعالى: قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٥)</sup> يعني أتعبد رباً.

في القرآن تفسير القرآن



٢- الكهف = ١٧

١- بني إسرائيل = ١١١

٤- العنكبوت = ٢٢

٣- مريم = ٥

٥- الأنعام = ١٤

و قال الله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ أَوْلَىٰ<sup>(١)</sup> يعني الرب.

**الخامس:** جاء بمعنى الله و منه:

قال الله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ<sup>(٢)</sup> يعني الآلهة.  
و قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ<sup>(٣)</sup> يعني الآلهة.

**السادس:** جاء بمعنى الناصح و منه:

قال الله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٤)</sup> يعني في المناصحة.

و قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥)</sup> يعني النصيحة.

و قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ  
أَوْلِيَاءَ<sup>(٦)</sup> يعني النصيحة إذا عرفت هذا.

فنقول قوله: لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ يحتمل أن يكون  
بالمعنى الأول و هو المعين و الناصر أي لا تستعينوا بهم و لا تستنصروا منهم و  
أن كانوا أقرباء لأنهم حيث إستحبوا الكفر على الإيمان فليسوا بمعتمدين فأن  
الكافر عدو المسلم و أن كان من الأقرباء.

و يمكن أن يكون بمعنى القريب و هو الثالث من الأقوال و عليه فالمعنى لا  
تتخذوا الكفار و أن كانوا من أقرباءكم من الأقرباء الذين ينفعونكم ينصرونكم و  
بعبارة أخرى لا تعدوهم من الأقرباء و النافعين بحالكم لأنهم بإختيارهم رجعوا  
الكفر على الإيمان كأنهم خرجوا من ربة القرابة.

و يمكن أن يكون بمعنى النَّاصِح وهو السَّادس منها و المعنى لا تَتَّخِذُوهُمْ ناصحين مشفقين و هذه الإحتمالات الثلاثة في معنى الولي لا إشكال فيها غيرها فلا يناسب المقام لأنَّهم لا يَتَّخِذُوا آبَاءَهُمْ وَأَخْوَانَهُمْ أولياء يعني أرباباً أو آلهة أو أولاداً و هو ظاهر فالآية لا تدل على عدم جواز معاشرتهم و مجالستهم و مؤانستهم و مراودتهم و لا سيَّما إذا كانوا أقرباء بل نقول أنَّ الآية و أمثالها لا دلالة لها على عدم جواز المحبة و الإعانة لهم إذا كانوا محتاجين فإنَّ صلة الأرحام مرغوب فيه شرعاً فلو كان الأب كافراً و الولد مسلماً يجب على الأولاد مراعاة حال الأباء و الأمهات و الأخوان و جميع الأقرباء لا لأجل كفرهم بل لأجل قرابتهم هذا بالنسبة إلى الأقرباء ممَّا لا كلام فيه فإنَّه من مصاديق صلة الأرحام التي أمر الله أن يوصل مسلماً كان أو كافراً.

و أمَّا بالنسبة إلى غيرهم من أصناف الكفار فليس الأمر كذلك إلا في صورة الاضطرار و هو أمر آخر.

أن قلت فعلى ما ذكرت يصير معنى الآية لا إشكال في إتخاذ الأقرباء أولياء.

قلت كلا و ذلك لأنَّ الآية تدل على عدم جواز إتخاذ الأقرباء أولياء في أمور دينكم بمعنى عدم الإعتماد على نصائحهم و بعبارة أخرى لا تستعينوا بهم قبلوا قولهم، فقله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ معناه من جعل أباه أو أخاه ولياً لنفسه فهو ظالم لأنَّ الكافر لا يكون ولياً للمؤمن.

قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (١).

و هذا هو السبب الأصلي في عدم جواز الكفار أولياء لأنَّهم من أتباع الشيطان و من إتخذ الشيطان و من تابعه ولياً لنفسه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

لَمَّا نَهَى اللَّهُ تعالى المؤمنين من أن يتخذوا آباءهم وأخوانهم أولياء على ما مرّ بيانه خاطب رسوله في هذه الآية وأمره أن يقول لهم أن كان آباءكم الآية وجه الربط بين الأيتين هو أن إتخاذ الآباء والأخوان أولياء من دون الله مع كفرهم لا يكون إلّا ناشئاً عن محبة المؤمنين أيّاهم إذ لولا المحبة والعلاقة لا يحصل المقصود فأَنْ من لم يكن محبوباً كيف صار وليّاً فقال تعالى في هذه الآية ما حاصله أن المؤمن ينبغي أن لا يحب الكافر بحيث لا يرجحه على الله ورسوله فيجعله وليّاً دونه.

ثم فصل الكلام فقال ما قال وقد ذكر في هذه الآية، الآباء أولاً والأبناء ثانياً والأخوان ثالثاً والأزواج رابعاً والعشيرة وهي القبيلة أو مطلق الأقرباء سبباً ونسباً، خامساً والأموال المكتسبة سادساً، والتجارة وهي البيع والشراء سابعاً، والمسكن وهي جمع مسكن وهو مكان السكونة ثامناً، فهذه الأمور الثمانية هي أصول العلائق في عالم الطبيعة ومدار الإعاشة فيها والجامع لهما هو الأقرباء والأموال ومن المعلوم أن وجود أحدهما بدون الآخر مصيبة وعدمهما من أعظم المصائب ولما كان كذلك فهي محبوبة لكل إنسان قهراً وطبعاً وبعبارة أخرى محبة الإنسان بالمال والأولاد والأقرباء غريزية فطرية لا يمكن سلبها منه إذ الشيء لا يقبل الرفع إلّا بعد قبوله الوضع فما لا يكون قابلاً للوضع والجعل لا يكون قبلاً للرفع وحيث أن المحبة بها غريزية فطرية وليست بجعل جاعل ووضع واضع فهي غير قابلة للرفع فلا يعقل أن يقال لأحد من أفراد الانسان يجب عليك أن لا تحب المال والأقرباء مثلاً كما لا

يعقل أن يقال له ذلك بالنسبة إلى حياته وصحته وعزته والسّر في الجميع ما ذكرناه اذا عرفت هذا فنقول:

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لم يمنهم عن أصل المحبة ولذلك لم يقل محبوا اليكم بدل قوله: أَحَبَّ إِلَيْكُمْ اذ لو قال محبوا اليكم كان التكليف بالمحال اذ لا يمكن لأحد أن يبغض ماله وأولاده وأقرباءه وهكذا وما لا يمكن فهو غير مقدور والأمر والنهي لا يتعلقان به، ولذلك قال أَحَبَّ اليكم، فلم يكلفهم بنفي المحبة رأساً بل كلفهم بأمر مقدور وهو عدم ترجيح حبهم على حب الله ورسوله وتوضيح الكلام إجمالاً هو أَنَّ المؤمن يحب ماله وأولاده كذلك يحب الله ورسوله إلا أَنَّ الأول فطري قهري والأخر كسبي يحصل له بسبب الإيمان فاذا دار الأمر في بعض الموارد بين إختيار أحدهما وترك الآخر فالمؤمن يختار رضا الله ورسوله وبعبارة أخرى يرجح حبهما على حب أولاده والكافر والمنافق بالعكس فالآية بصدد بيان هذه النكتة فكأنه تعالى قال أَنِّي لا أقول لم تحبونهم أو لا ينبغي أن تحبوا هؤلاء المذكورات في الآية رأساً بل أقول لا ترجحوا حبهم على حب الله ورسوله فاذا دار الأمر بين أحدهما فإختاروا حب الله والجهاد في سبيل الله وأتركوا تلك العلائق هذا ما فهمناه من الآية.

وأما تخصيص الجهاد بالذكر في الآية في قوله: وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فالوجه فيه واضح لأنهم كانوا متخلفين عن الهجرة والجهاد حباً لأموالهم وأقرباءهم فوجبهم الله عليه هذا اذا قلنا أَنَّ الآية خطاب إلى المؤمنين الذين تخلفوا من الهجرة.

وأما اذا قلنا بأن الآية خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة فالوجه فيه أَنَّ في الجهاد مظنته القتل أو الجرح وفي البقاء مع الأقرباء وعدم الدخول في الجهاد مظنة الحياة والسلامة ولا شك أَنَّ المؤمن الحقيقي يختار الأول اذ فيه رضا الله ورسوله، وأما غير المؤمن فلا.

فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ  
 فالترَبص، التَّصَبُّت في الشَّيْءِ حَتَّى يَجِيئَ وَقْتُهُ، و بعبارة أخرى هو الإنتظار  
 أمرهم الله به حَتَّى يَأْتِيَ اللَّه بِأَمْرِهِ مِنْ عَقُوبَةٍ عَاجِلَةٍ أَوْ أَجَلَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
 لَبالمرصاد وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ، أَي لَا يَهْدِيهِمْ إِلَى الثَّوَابِ وَالْجَنَّةِ  
 لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ هَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ:

قال الله تعالى: **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِصَى عَلَى الْهُدَى** <sup>(١)</sup>  
 و أَمَّا عَبْرٌ عَنْهُمْ بِالْفَاسِقِينَ و لم يقل الكافرين، لأنهم كانوا من المؤمنين  
 بالله و رسوله ظاهراً ولكنهم لم يطيعوا أمر الله و رسوله فصاروا بذلك من  
 الفاسقين أعادنا الله منه.





لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ  
 إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ  
 ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ  
 مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ  
 وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ  
 عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)  
 ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ  
 اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا  
 الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
 بَعْدَ غَايِهِمْ هَذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ  
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)  
 فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
 وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا  
 يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
 حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

### ◀ اللغة

حُنَيْنٍ بضم الحاء وفتح النون و سكون الياء و التّون إسم وادٍ بين مكة و  
 الطائف في قول قتادة و قال عروة هو وادٍ الى جانب ذي المجاز فلذلك صرف.  
 فَلَمْ تُغْنِ الإعناء إعطاء ما يرفع و الفعل مجزوم، بلم.  
 رَحِبَتْ، الرَّحْب السعة في المكان و قد يكون في الرزق.  
 مُدْبِرِينَ، الإِدبار الذّهاب الى جهة الخلف.

جزء ١٠

المجلد الثامن

سَكِينَتُهُ، السَّكِينَةُ بفتح السين وكسر الكاف الرَّحمة التي تسكن اليه النفس ويزول معها الخوف.

نَجَسَ بفتح النون والجيم وسكون السين كلَّ شَيْءٍ مستقذر ويقع على الذِّكر والأنثى سواء.

عَيْلَةً تقول عال يعيل اذا افتقر، العيلة الفقير.  
صَاعِزُونَ الصَّغار الذَّل والنَّكال الذي يصغر قدر صاحبه.

### ◀ الإعراب

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ معطوف على موضع في موطن واذا بدل من يوم دينَ الْحَقِّ يجوز أن يكون مصدر، يدينون، ويجوز أن يكون مفعولاً به، و يدينون بمعنى يعتقدون عَنْ يَدٍ في موضع الحال أي يعطوا الجزية أذلة.

### ◀ التفسير

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ

قيل اللام في قوله: لَقَدْ للقسم أقسم الله تعالى في هذه الآية بأنه نَصَرَ المؤمنين في موطن كثيرة والمواطن مقامات الحرب ومواقفها وقيل مشاهد الحرب وهذه المواطن التي نصرهم الله فيها وقعت بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وأما وصفت المواطن بالكثرة لأنَّ المؤرخين وأصحاب المغازي نقلوا أنها كانت ثمانين موطناً والله تعالى قد نصرهم في كلها ومنها غزوة حنين التي خصَّها الله بالذكر في هذه الآية وقلنا أنه وإد بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز.

وإجمال القصّة هو أنّه لما أذن أمير المؤمنين عليه السلام بمكة أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك العام جرعت قريش جزءاً شديداً وقالوا ذهبت تجارتنا وضاعت عيالنا وخربت دورنا فأنزل الله عزَّ وجلَّ قل يا محمد أن كان أباءكم أو أبناءكم الآية.

و أما سبب غزوة حنين أنه لما خرج رسول الله ﷺ الى فتح مكة أظهر أنه يريد هوازن و بلغ الخبر هوازن فتهاؤا و جمعوا الجموع و السلاح و اجتمع رؤساء هوازن الى مالك بن عوف النَّضري فرأسوه عليهم و خرجوا و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و مرّوا حتّى نزلوا بأوطاس و كان دريد بن الصّمة الجشمي في القوم و كان رئيسهم (رئيس جشم) و كان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فلمس الأرض بيده فقال في أيّ وادٍ قالوا بوادي أوطاس قال نعم مجال خيل لا حزن خرس و لا سهل دهس، مالي أسمع رعاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر و ثغاء الشاة و بكاء الصّبي فقالوا له أن مالك بن عوف ساق مع النَّاس أموالهم و نساءهم و ذراريهم ليقاتل كلّ إمري عن نفسه و ماله و أهله فقال دريد راعي الضّأن و ربّ الكعبة ماله و للحرب ثمّ قال أدعوا لي مالكا فلما جاء قال له يا مالك ما فعلت قال سقت مع النَّاس أموالهم و نساءهم و أبناءهم ليجعل كلّ رجلٍ أهله و ماله وراء ظهره فيكون أشدّ لحربه فقال يا مالك أنك أصبحت رئيس قومك و أنك تقاتل رجلاً كبيراً و هذا اليوم لما بعده ولم تضع في تقدّمة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئاً و يحك و هل يلوي المنهزم على شيء أردد بيضة هوازن الى عليا بلادهم و ممتنع محالّهم و أبق الرّجال على متون الخيل فأثّه لا ينفعك إلاّ رجل بسيفه و درعه و فرسه فأن كانت لك لحق بك من وراءك و أن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك و عيالك فقال له مالك أنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك فلم يقبل من دريد فقال دريد ما فعلت كعب و كلاب قالوا لم يحضر منهم أحد قال غاب الجدّ و الحزم لو كان يوم علا و سعادة ما كانت تغيب كعب و لا كلاب قال فمن حضرها من هوازن قالوا عمرو بن عامر و عوف بن عامر قال ذاك الجذعان لا ينفعان و لا يضّران ثمّ تنفّس دريد و قال حرب عوان ليتني فيها جنح أحبّ فيها واضع أقود و طفاء الزمّع كأنّها شاة صدع و بلغ رسول الله ﷺ إجتماع هوازن بأوطاس فجمع القبائل و رغّبهم في الجهاد و وعدهم النّصر و أن الله قد وعده

وَبِ  
الْقُرْآنِ  
فِي  
بَيْتِ  
الْقَابِ



أن غنيمة أولادهم ونساءهم و ذراريهم فرغب الناس و خرجوا على راياتهم و عقد اللواء الأكبر و دفعه الى أمير المؤمنين عليه السلام وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها و خرج في اثني عشر ألف رجل ممن كانوا معه و فى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال و كان معه من بني سليم ألف رجل رئيسهم عباس بن مرداس السلمي و من مزينة ألف رجل قال فمضوا حتى كان من القوم على مسيرة بعض ليلة و قال مالك بن عوف لقومه ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره و أكسروا جفون سيوفكم و أكمنا في شعاب هذا الوادي و فى الشجر فإذا كان فى غلس الصبح فأحملوا حملة رجل واحد و هداوا القوم فان محمدًا لم يلق أحدًا يحسن الحرب فلما صلى رسول الله الغداة إنحدر فى الوادي و هو واد له إنحدر بعيد و كانت بنو سليم على مقدمة فخرجت عليها كتائب هوازن من كل ناحية فأنهزمت بنو سليم و إنهزم من وراءهم و لم يبق أحد إلا إنهزم و بقى أمير المؤمنين عليه السلام يقاتلهم فى نفر قليل و مرّ المنهزمون برسول الله لا يلوون على شيء و كان العباس أخذ بلجام بغلة رسول الله عن يمينه و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره فأقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله ينادي يا معشر الأنصار الى أين المفر ألا أنا رسول الله فلم يلو أحد عليه و كانت نسيبته بنت كعب المازينة تحثوا التراب فى وجوه المنهزمين و تقول أين تفرون عن الله و رسوله و مرّ بها عمر فقالت له وملك يا عمر ما هذا الذى صنعت فقال لها هذا أمر الله فلمّا رأى رسول الله الهزيمة ركض يحوم على بغلته و قد شهر سيفه فقال يا عباس أصد هذا الطرب (الفرس) و ناد يا أصحاب البقرة و يا أصحاب الشجرة الى أين تفرون هذا رسول الله ثم رفع رسول الله يده فقال اللهم لك الحمد و اليك المشتكى و أنت المستعان فنزل جبرائيل فقال يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى حين فلق الله له البحر و نجّاه من فرعون ثم قال رسول الله لأبي سفيان بن الحارث ناولني كفاً من حصي فناوله فرماه فى وجوه المشركين ثم قال شأهت الوجوه

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَمْ تَعْبُدْ وَأَنْ شِئْتَ أَنْ لَا تَعْبُدَ لَا تَعْبُدْ، فَلَمَّا سَمِعَتْ الْأَنْصَارُ نِدَاءَ الْعَبَّاسِ عَطَفُوا وَكَسَرُوا جُفُونَ سِیُوفِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ وَمَرَّوْا بِرَسُولِ اللَّهِ وَاسْتَحْيُوا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَاحْزَمُوا بِالرَّايَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِلْعَبَّاسِ مِنْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا الْفَضْلِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْآنَ حَمَى الْوُطَيْسُ وَنَزَلَ النَّصْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَانْهَزَمَتْ هَوَازِنُ فَكَانُوا يَسْمَعُونَ قَمْقَعَةَ السَّلَاحِ فِي الْجَوِّ وَانْهَزَمُوا فِي كُلِّ وَجْهِ وَغَنِمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَقُولُ نَقَلْنَا الْقِصَّةَ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُمِّي (١).

إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

فقد ظهر معناه ممَّا ذكرناه و ذلك لأنَّ عدَّة المسلمين كانت إثني عشر ألف رجل و هذه الكثرة هي الَّتِي كانت أعجبتهم و أيقنوا أنَّ النَّصر معهم و هذا العجب صار سبباً لانهزامهم و ضيق الأرض عليهم فرَّجَحوا الفرار على القرار و في هذا الكلام إشارة إلى أنَّ الأمور بيد الله فالْمُؤْمِنُ المسلم ينبغي أن يتوكَّل عليه في جميع أموره مع الثَّبات و الإِسْتِقَامَة و لا يَغْتَرَّ بِالْأَسْبَابِ و الإِمْكَانَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ و كانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شَوَّال سنة ثمان.

في القرآن في تفسير القرآن

ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أُنْزِلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

جزء ١٠

أي ثُمَّ بعد ذلك أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ وَ هي الرِّحْمَة الَّتِي تسكن إليها النَّفْسُ و يزول معها الخوف حتَّى رجعوا إليهم و قاتلوهم و هزمهم الله بأنَّ أُنْزِلَ النَّصْرُ و

المجلد الثاني

أَنْزَلَ السَّكِينَةَ هِيَ الطَّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنَةُ وَقِيلَ هِيَ الْوَقَارُ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْأَنْصَارَ أَنْهَضُوا فِي بَدْءِ الْأَمْرِ وَمِنْشَأُ الْإِنْهَزَامِ الْخَوْفُ أَيُّ خَافُوا فَأَنْهَضُوا، ثُمَّ رَجَعُوا وَكَسَرُوا جَفُونَ سَيُفْهِمُ وَهُمْ يَقُولُونَ لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْنِي بِالسَّكِينَةِ إِلَّا هَذَا إِذْ لَاشْكُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْقُلُوبِ لَا غَيْرُهُ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِإِنْزَالِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** فَفِيهِ إْحْتِمَالَانِ:

**أحدهما:** أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرَوْهَا إِذِ الْمَلِكُ لَا يَرَى بِالْعَيْنِ الْمَلَكِي الْعَنْصَرِي وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: **لَمْ تَرَوْهَا** خُطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ لَا لِلنَّبِيِّ لِأَنَّ النَّبِيَّ يَرَى الْمَلَكَ كَمَا يَرَى غَيْرَهُ لِأَنَّهُ بَرَزَ بَيْنَ الْمَلَكُوتِ وَالْمَلِكِ، وَالإِحْتِمَالُ الثَّانِي أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْجُنُودِ غَيْرَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى جُنُودًا كَثِيرَةً لَا يَعْلَمُ عِدْدُهَا إِلَّا هُوَ كَمَا فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ وَالْأَقْوَى الْأَوَّلُ كَمَا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ السَّكِينَةَ وَالْجُنُودَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** أَمَّا عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَغْلُوبِيَّتِهِمْ وَمَقْهُورِيَّتِهِمْ وَسَبْيِ نِسَائِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ وَأَيُّ عَذَابٍ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ فِي حِينٍ فَأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا نَادِمِينَ خَاذِلِينَ بَلْ مَقْتُولِينَ أَوْ مَجْرُوحِينَ وَبِالْجُمْلَةِ ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ بِالْفَقْرِ وَالْإِسْتِثْصَالِ وَالذَّلَّةِ بَعْدَ مَا كَانُوا مُتَنَعِّمِينَ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ نِعْمَةِ الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعَشِيرَةِ وَغَيْرِهَا وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَكْتَنَفَةِ بِالشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ وَالْأَلَامِ الرُّوحِيَّةِ وَالْجَسْمِيَّةِ وَفَقْدَ الْأَحْبَةِ وَالْأَعَزَّةِ هَذَا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَذَابِ الْمَشَارِ إِلَى هِيَ الْآيَةُ هُوَ الْعَذَابُ الدُّنْيَوِيُّ وَأَمَّا أَنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْعَذَابُ الْآخِرِيُّ فَهُوَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنَ الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ بِمَرَاتِبٍ بَلْ لَا يُقَاسُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ لِأَنَّ الْعَاجِلِيَّ يَفْنَى وَالْآجِلُ يَبْقَى هَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى الْكَيْفِيَّةِ وَأَمَّا الْكَمِّيَّةُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَيَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ عَلَى عِبَادِهِ قَالَ تَعَالَى: **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ**

لِلْعَبِيدِ<sup>(١)</sup> بل الله تعالى يريد الخير و الصّلاح من عباده و لأجل ذلك بعث اليهم أنبياء و جعل لهم التكاليف و لم يتركهم سدى و مع ذلك هو أرحم الراحمين بالنسبة الى العصاة و لأجل ذلك جعل التوبة لهم.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
هاهنا تفيد العطف و إنّما حسن عطف المستقبل على الماضي لأنّه مشاكله فإنّ الأوّل تذكير بنعمه و الثّاني وعدّ بنعمه.

والتّوبة بفتح التّاء هي النّدم على ما مضى من القبيح و العزم على أن لا يعود الى مثله في الجني أو في القبح فشرط النّدم بالعزم لأنّ النّدم إنّما هو الماضي و العزم على ما يستقبل فلو لم يجتمعا لم تكن توبة و المراد بهما في المقام أنّه تعالى يقبل التّوبة من بعد هزيمة من إنهمز و رجوعه الى الحقّ المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب و يرجع الى طاعة الله و الإسلام و يندم على ما فعل من القبيح على من يشاء قال بعضهم و إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ قبول التّوبة و إسقاط العذاب عندها تفضّل منه تعالى على التّائب و لو كان ذلك و اجباً لما جاز تعلّق ذلك بالمشيئة و أمّا من خالفنا في ذلك و لم يقل بالتّفضّل فهو قال إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ منهم من له لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطّف له مع صرف العمل في ترك التّوبة الى الله و قوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ معناه أنّه ستارٌ للذنوب لا يفصح أحداً على معاصيه في الدّنيا و الآخرة بل يسترها عليه في النّشأتين و هو رحيمٌ بعباده لأنّ رحمته سبقت غضبه و إنّما قال الله تعالى ذلك في المقام ليرغب المنهزمين و المغلوبين الى التّوبة و الرجوع الى الإسلام.

بعبارة أخرى أعلم الله تعالى أنّه لم ينسّد عليهم باب التّوبة بعد كفرهم و قتالهم و هو من أكبر النّعم و لذلك رجع بعض المنهزمين من الكفّار الى الإسلام

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثالث

و حسن إسلامهم بعد ذلك منهم مالك بن عوف النَّضري رئيس هوازن فأثَّه و من معه من قومه أسلموا جميعاً.

و روي أَنَّ ناساً جاءوا فبايعوا على الإسلام و قالوا يا رسول الله أنت خير النَّاس و أئبر النَّاس و قد سبي أهلونا و أولادنا و أخذت أموالنا، و كان سبي يومئذ ستة آلاف نفس و أخذ من الإبل و الغنم ما لا يخفى فقال رسول الله ﷺ أَنَّ خير القول أصدقه إختاروا أمَّا ذراريكم و نساءكم و أمَّا أموالكم فقالوا ما نعدل بالأحساب شيئاً و تمام الحديث أَنهم أخذوا نساءهم و ذراريهم إلا امرأة وقع عليها صفوان بن أمية فحملت منه فلم يردها.

و قد نقل بعض العامة في تفسيره<sup>(١)</sup> لهذه الآية عن رجل كان يكنى بأبي حرد، قال لما كان يوم حنين أسرنا رسول الله فيينا هو يميز بين الرجال و النساء و ثبت امرأة حتَّى قعدت بين يديه أذكره حيث نشأ و شبَّ في هوازن أَرْضَعُوهُ فَأَنْشَأَتْ تَقُول:

أَمَنْتُ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَأَنْتَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ  
أَمَنْتُ عَلَى بَيْضَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ مَفْرُقٌ شَمَلَهَا فِي دَهْرَهَا غَيْرُ  
أَبَقْتُ لَنَا الْحَرْبَ هَتَافاً عَلَى حَزَنِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْغَمَاءُ وَالْغَمِيرُ  
إِنْ لَمْ تَدَارِكْهُمْ نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْماً حِينَ يَخْتَبِرُ  
أَمَنْتُ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فَوْكُ يَمْلَأُوهَا مِنْ مَخْضِهَا الدُّرَرُ  
إِذْ كُنْتُ طِفْلاً صَغِيرَ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ  
يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحَتْ كَمْتُ الْجِيَادِ بِهِ عِنْدَ الْهِيَاجِ إِذَا مَا اسْتَوْقَدَ الشَّرَرُ  
لَا تَجْعَلُنَا كَمَنْ شَأَلَتْ نُعَامَتَهُ وَلِئِنْ بَقِيَ مِنَّا مَعْشَرُ زَهْرٍ  
إِنَّا نَوْمِلُ عَفْوَاً مِنْكَ نَلْبِسُهُ هَذِي الْجَبْرِيةُ إِنْ تَعَفَوْا وَتَنْتَصِرُوا  
إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَى وَقَدْ كَفَرْتَ وَ عِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مَدَّخِرُ  
فَأَلْبَسَ الْعَفْوَ مِنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا مِنْ أَمَهَاتِكَ أَنَّ الْعَفْوَ مَشْتَهَرُ  
وَأَعْفُ عَفَى اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ رَاهِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ يَهْدِي لَكَ الظَّفَرُ



فلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الشَّعْرَ قَالَ ﷺ مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلَبِ فَهُوَ لَكُمْ وَقَالَتْ قُرَيْشٌ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِلَّهِ وَرَسُولُهُ وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِلَّهِ وَرَسُولُهُ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلَبِ فَلِلَّهِ وَلَكُمْ وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ مَا كَانَ لَنَا فَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَزِدَتْ الْأَنْصَارُ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهَا مِنَ الذَّرَارِيِّ وَالْأَمْوَالِ انْتَهَى.

أَقُولُ أَنْظُرُوا يَا أَهْلَ الْإِنْصَافِ إِلَى رَحِمِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَدْلِهِ، أَمَّا رَحِمُهُ فَلِلَّهِ ﷺ قَدْ عَفَى عَنْ سَهْمِهِ وَسَهْمِ أَقْرَبَائِهِ الَّذِينَ هُمْ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَعْفَ عَنْ سَهْمِ الْقُرَيْشِ وَالْأَنْصَارِ فَقَالَ أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَّلَبِ.

ثُمَّ أَنَّ قُرَيْشًا وَالْأَنْصَارَ قَدْ إِقْتَدَوْا بِنَبِيِّهِمْ فِي الْعَفْوِ وَتَرَكُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ نَكْتَتَهُ لَابَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهِيَ أَنَّ الْعَفْوَ وَالْإِغْمَاضَ مِنَ الْمُسْلِمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَاطِئِ وَالْعَاصِي إِذَا نَدِمَ مِنْ فَعْلِهِ أَمْرٌ مُرْغُوبٌ فِيهِ كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْفُو عَنِ الْمَذْنِبِ التَّائِبِ وَبِذَلِكَ أَمَرَ جَمِيعَ أَنْبِيََاءِهِ وَأَوْصِيَائِهِ وَمَنْ حَذَى حَذْوَهُمْ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِي حُسْنِهِ وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَلَا سِيَّمَا حُكَّامَهُمْ تَرَكُوا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السَّنَةَ الْمَرْضِيَّةَ الَّتِي تَوْجِبُ جَلْبَ الْعَاصِي إِلَى الطَّاعَةِ الْخَاطِئِ إِلَى الْإِنْقِيَادِ وَالْكَافِرِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ لَا دِينَ الْخَشُونَةِ وَالْإِنْتِقَامِ وَهَذَا أَيْ تَرَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الْمَرْضِيَّةَ صَارَ بَاعِثًا لِرُكُودِ الْإِسْلَامِ وَإِنْتِشَارِ أَحْكَامِهِ فِي الْأَفَاقِ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْعَدَالَةِ فَهِيَ الَّتِي بَنَى الْإِسْلَامَ عَلَيْهَا وَاقِعًا فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فِي كَلَامِهِ أَمَّا مَا كَانَ لِي مِثْلًا فَهُوَ لَكُمْ وَلَا يَقُولُ مَا كَانَ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ لَكُمْ فَمَا تَفْهَمُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، هَذَا، مَعَ أَنَّهُ ﷺ مُضَافًا إِلَى مَقَامِ وَلَايَتِهِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالنَّفُوسِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** <sup>(١)</sup> كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّ جَمِيعَ الْأَمْوَالِ وَالسَّبَايَا لَمْ يَخَالَفْ فِيهِ أَحَدٌ كَمَا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

الجلد الثاني

رَأَيْتَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ حَيْثُ قَالُوا مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا هَذَا الْمَنْوَالِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ عَالِمًا بِهِ مَضَافًا إِلَى مَقَامِ وَلَايَتِهِ فَلَمْ يَلَمْ يَقُلْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مَا كَانَ لِي وَلِلْمُسْلِمِينَ فَهُوَ لَكُمْ جَمِيعًا.

لَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّ أَسَاسَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْعَدْلِ وَهُوَ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لَا يَحِلُّ مَالٌ إِمْرًا إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسِهِ، وَ قَالَ تَعَالَى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ** <sup>(١)</sup> وَقَالَ ﷺ النَّاسُ مَسْلُطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَكَذَا وَحَيْثُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَاتَلُوا الْكُفَّارَ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ مَا أَخَذُوا تَحْتَ عُنْوَانِ الْغَنِيمَةِ فَصَارُوا مَالِكِينَ لَهَا قَهْرًا بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَالْحُكْمُ بِأَنَّهُ لَاحِقٌ لَهُمْ فِيهَا مُخَالَفٌ لِلْعَدْلِ وَهَذِهِ النِّكَّةُ أَيْضًا مِمَّا غَفَلَ عَنْهُ السَّمْلَمُونَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ فَأَنَّ وَلَا تَهْمُ وَحُكَّامُهُمْ حَكَمُوا فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَفْسِهِمْ بِمَا شَاءُوا وَأَرَادُوا وَهَذِهِ الرُّؤْيَا الرَّدِيئَةُ وَالطَّرِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الْخَبِيثَةُ سَرَتْ مِنْهُمْ إِلَى أَحَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا نَرَى فِي زَمَانِنَا هَذَا وَأَقْبَحُ مِنْهُ إِنْتِحَالُهُمُ الْحُكْمَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَصْبَحَ الْإِسْلَامُ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَرِيبًا لَا يَجِبُ دَعْوَتُهُ وَأَمْثَالُهُ يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَهْوَاءِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ غَامِهِمْ هَذَا**

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِنَجَاسَةِ الْمُشْرِكِينَ، النَّجَاسَةُ الْقَذَرَةُ وَذَلِكَ ضَرِبَانِ:

ضَرْبٌ يَدْرِكُ بِالْحَاسَّةِ وَهُوَ جَمِيعُ الْقَاذُورَاتِ الْمَحْسُوسَةِ مِثْلُ الْبَوْلِ وَالْمَنِيِّ وَالْدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلَا كَلَامَ لَنَا فِيهَا فَعَلًا.

وَضَرْبٌ لَا يَدْرِكُ بِالْحَاسَّةِ بَلْ يَدْرِكُ بِالْبَصِيرَةِ وَهَذَا هُوَ الْمَرَادُ فِي الْمَقَامِ ذَلِكَ كَالْكَفْرِ فَأَنَّهُ مِنْ أَنْجَسِ الْأَنْجَاسِ وَلَا يُطَهَّرُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّوْبَةِ.

و أما في اللغة فكل شيء مستقذر فهو نجس بفتح النون و كسر الجيم فاذا أستعمل مفرد قيل نجس بفتحهما و يقع على الذكر و الأنثى سواء و ظاهر الآية أن الكفار أنجاس و اذا ثبت ذلك بحكم الآية فيتفرع عليه أمور:

منها، عدم جواز دخولهم المساجد لأن شركهم أجرى مجرى القذر الذي يجب تجنبه و على هذا من باشر يده يد كافر مع الرطوبة يجب على المسلم أن يغسل يده و الأحكام المترتبة عليه كثيرة ليس المقام من مواضع ذكرها. أنما الكلام في دخولهم المساجد و قد أجمع الفقهاء على عدم جوازه و حيث أن الموضوع من أهم المسائل فلا بد لنا من التكلّم فيه بحسب ما يقتضيه المقام فنقول:

المتبادر من الشّرك هنا أنّه الذي أثبت له تعالى شريكاً أي اعتقد إلهاً غيره فالمشرك هو غير الموحّد فيه و بذلك قال بعض علماءنا و بعض العامة و يرشد اليه.

قال الله تعالى: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ<sup>(٣)</sup>.

كيفية الاستدلال بها أن الله تعالى عطف المشركين على الكفار بالواو و هو يقتضي المغايرة.

و من الأخبار مرسلة الوشا عن أبي عبد الله عليه السلام: أَنَّهُ كَرِهَ سُئُورَ وَلَدِ الزَّنا و اليهودي و النصراني و المشرك و كلّ من خالف الإسلام و كان أشدّ ذلك عنده سُئُورُ النَّاصِبِ و يدلّ على ذلك رواية سعد بن صدقة قال سمعت أبا عبد الله و قد سأل عن الكفر و الشّرك أيهما



أقدم فقال الكفر أقدم و ذلك أَنَّ ابليس لعنه الله أوّل من كفر وكان كفره غير شركٍ لأنّه لم يدع الى عبادة غير الله و أنّما دعا الى ذلك بعد فأشرك انتهئ.

و في الحسن عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: فيه من عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الإسم والمعنى فقد شرك و عبد اثنين و من عبد المعنى دون الإسم فذلك التّوحيد انتهئ.

فهذه الآيات والأخبار قد دلّت على أَنَّ الكفر غير الشّرك و يتفرّع عليه أَنَّ المشرك لا يجوز دخوله المسجد الحرام و أمّا غيره من أصناف الكفّار فلا و حيث أَنَّ اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالإتفاق فهم موحّدون لا مشركون فلا منع من دخولهم المسجد الحرام هذا ملخص كلامهم في الباب.

و قال أكثر علماءنا أَنَّ المراد بالمشركين في الآيات هنا ما يعمّ عبّاد الأصنام و غيرهم من اليهود و النصارى و إضرابهم لأنّه تعالى قد سمّاهم مشركين بقوله عزّ من قائل: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الى قوله اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَ رُهبانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(١)</sup>.

و هذه الآية مذكورة في سياق الآية المذكورة المتضمنة لوصفهم بالنجاسة فدلت على التعميم، و قال في المدارك بعد نقله لذلك نمنع هذه المقدّمة إذ المتبادر من معنى الشّرك هو من اعتقد آلهاً مع الله و قد ورد في أخبارنا أَنَّ معنى إتخاذهم الأخبار و الرّهبان أرباباً دون الله إمتثالهم أوامرهم و نواهيهم لا إعتقاد أنّهم آلهة انتهئ.

قال مؤلف آيات الأحكام بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه.

أَقُولُ فِي حَسَنَةِ أَبِي بَصِيرٍ وَ قَدْ سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَا وَاللهِ مَا دَعَوْهُ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ لَمَا أَجَابُوا أَحَلَّوْا لَهُمْ حَرَامًا وَ حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.  
و مرسلة ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام من أطاع رجلاً في معصيته فقد عبده انتهى.

و في رواية إسحاق عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل:  
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ<sup>(١)</sup>. قال يُطِيعُ الشَّيْطَانُ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ.

و عنه عليه السلام في قوله عز وجل: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ  
مُشْرِكُونَ قال عليه السلام شِرْكٌ طَاعَةٌ وَ لَيْسَ شِرْكُ عِبَادَةٍ.

و في رواية عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول أَمِرَ  
النَّاسُ بِمَعْرِفَتِنَا وَ الرَّدِّ إِلَيْنَا وَ التَّسْلِيمِ لَنَا ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ أَنْ صَامُوا  
وَصَلَّوْا وَ شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ جَعَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ لَا يَرُدُّوا  
إِلَيْنَا كَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ.

و عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: وَاللَّهِ أَنَّ الْكُفْرَ لِأَقْدَمَ مِنْ  
الشُّرْكِ وَ أَخْبَثَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ ذَكَرَ كُفْرَ بَلِيسَ حِينَ قَالَ لَهُ أَسْجُدْ لِأَدَمَ  
فَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ فَالْكَفْرُ أَعْظَمُ مِنَ الشُّرْكِ فَمَنْ اخْتَارَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ وَ أَبَى الطَّاعَةَ وَ أَقَامَ عَلَى الْكِبَائِرِ فَهُوَ كَافِرٌ وَ مِنْ نَصَبَ دِينًا  
غَيْرَ دِينِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مُشْرِكٌ انْتَهَى.

و في رواية يزيد بن خليفة قال: قال أبو عبد الله: كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ أَنَّهُ  
مِنْ عَمَلٍ لِلنَّاسِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَ مِنْ عَمَلٍ لِلَّهِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى  
اللَّهِ انْتَهَى.

و الأخبار الدالة على إطلاق الشُّرك على من يفعل بعض المعاصي و أن كان من المؤمنين كثيرة و قد يظهر من مجموع الأخبار الواردة في الباب إطلاق الشُّرك على بعض طوائف الكفار.

و على بعض المنتسبين إلى الإسلام بل على جميع المخالفين و على المرائي و بعض العصاة من المؤمنين و لا يجوز أن يكون الحكم بالنجاسة ثابتاً لكل فتعين صرف إطلاق الآية الكريمة إلى المشرك الذي جعل معه تعالى إلهاً إقتصاراً على موضع اليقين دون المشرك بحسب الطاعة أو يقال بثبوت الحكم لكل من إتصف بذلك إلا من قام الدليل على خروجه فيكون من قبيل العام و الخاص انتهى ما ذكره <sup>مفسر</sup>.

و أنا أقول لابد لنا من تحقيق معنى الشُّرك أولاً ثم التكلّم في الآية ثانياً.

و أعلم أنّ الشُّرك بكسر الشين مصدر قولك شرك شركاً و هو في الأصل يطلق على الشُّركَة والمشاركة بخلط الملكين و قيل هو أن يوجد شيء لأثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنى كمشاركة الإنسان و الفرس في الحيوانية و مشاركة فرس و فرس في الكمة والدهمة يقال شركته و شار كته و تشاركوا و إشتركوا و أشركته في كذا كما قال تعالى حكاية عن موسى <sup>عليه السلام</sup> و أشركه في أمري و في الحديث اللهم أشركنا في دعاء الصالحين و من المعلوم أنّ الشُّرك بهذا المعنى من الأمور المتعارفة بين الناس و ليس المراد من المشرك في الآيات هذا المعنى و أتما المراد به فيها هو الشُّرك في الدين و هذا هو الذي يحكم بنجاسته و هو على قسمين:

أحدهما: الشُّرك العظيم و هو إثبات شريك لله تعالى يقال أشرك فلان بالله و ذلك أعظم كفر قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** <sup>(١)</sup>.

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

**الثاني:** الشُّرك الصَّغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرِّياء والتَّفَاق المشار اليه بقوله: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** وغيرها من الآيات ولا شك أنَّ الشُّرك بالمعنى الثاني أعني به الشُّرك الصَّغير أيضاً خارج عن مورد البحث إذ لا يحكم بنجاسته قطعاً فبقى في المقام قسم واحد الشُّرك العظيم الَّذي لا يغفر وهذا هو المراد في الآية وقد قَسَم بعض المحقِّقين الشُّرك على أقسام ثلاثة بحسب الآيات:

**أحدها:** الشُّرك بالله وهو الشُّرك الأعظم.

**الثاني:** الشُّرك في الطَّاعة.

**الثالث:** الشُّرك بمعنى الرِّياء والتَّفَاق انتهى.

ولا شك أنَّ مورد البحث في الآية هو الأوَّل إذا عرفت هذا.

فنقول المشرك يطلق على معانٍ:

**أحدها:** من جعل لله شريكاً في إستحقاق العبادة وذلك كمشركي العرب و امثالهم فأنهم بعد علمهم بأنَّ صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته حيث حكى الله عنهم:

قال الله تعالى: **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى<sup>(١)</sup>**.

قال الله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ<sup>(٣)</sup>**.

**الثاني:** من جعل له شريكاً في خالقيته و صانعيته وذلك كالثنوية، القائلين بالتَّور والظُّلْمة فجعلوا التَّور فاعل الخيرات والظُّلْمة فاعل الشرور.

**الثالث:** من نسب اليه تعالى في صفاته الذاتية ما لا يليق بذاته المقدسة كالإشاعة القائلين بزيادة صفاته على ذاته و أن العباد مجبورون في أفعالهم و غير ذلك من المقالات السخيفة، و كالكرامية القائلين بإتصافه تعالى بالصفات الموجودة الحادثة و كالتصاري القائلين بأنه تعالى جوهر واحد من ثلاث أقانيم هي الوجود، و العلم و الحياة، المعبر عندهم بالأب و الأبْن و روح القدس و يقولون الجوهر القائم بنفسه و الأقنوم الصفة ثم قالوا، الكلمة و هي أقنوم العلم إتحدت بجسد المسيح و تدرّعت بناسوته بطريق الإمتزاج كالخمر بالماء عند الملكائية و بطريق الإشراف كما تشرق الشمس من كور على كور عند النطورية و بطريق الانقلاب لحماً و دماً بحيث صار الإله هو المسيح عند اليعقوبية و منهم من قال ظهر الألهوت بالناسوت كما يظهر الملك في صورة البشر و قيل ترّكب الألهوت و الناسوت كالتنس مع البدن و قيل أن الكلمة قد تداخل الجسد فيصدر عنه خوارق العادات و قد تفارقه فتحلّه الآلام.

و كمذهب الغلاة قالوا لا يمتنع ظهور الروحاني بالجسماني كجبرئيل في صورة دحية الكلبي و كبعض الجن في صورة الأناسي فلا يبعد أن يظهر الله في صورة بعض الكاملين و أولى الناس بذلك أمير المؤمنين عليه السلام و أولاده الذين هم خير البرية في الكمالات العلمية و العملية فلهذا كان يصدر عنهم من العلوم و الأعمال ما هو فوق الطاقة البشرية و نحو ذلك من المذاهب الباطلة، فيصدق على أهل هذه المذاهب أنهم مشركون لأن معبودهم الذي يعبدونه ليس هو المعبود الذي ليس كمثله شيء الذي لا تدركه الأبصار و لا يحيطون به علماً.

**الرابع:** من نسب اليه تعالى النقص في أفعاله كالعجز و الظلم و ترك اللطف و نحو ذلك كقول اليهود **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** فَأَنْ معبودهم ليس هو المعبود بالحق هذا تمام الكلام في معاني الشرك و إطلاق المشرك و من المعلوم المسلم عند الكل أن النجاسة ثابتة للقسم الأول و الثاني فَأَنْ مشركي العرب و الثنوية



القائلين بالنُّور والظُّلْمَة داخلون في هذا الشُّرك بلا كلام ولا خلاف في نجاستهم أيضاً.

وأما القسم الثالث والرابع فمختلف فيه فمنهم من قال أو يقول بنجاستهم ومنهم من لا يقول بها بعد إتِّفاقهم على كفرهم وخروجهم عن ربة المؤمنين وللبحث فيه مقام آخر ومقتضى القاعدة العقلية هو الأخذ بالمتقين وترك المشكوك. والمتيقن هو القسم الأول والثاني من معنى المشرك في الآية لإتِّفاق الكل على شركهم ونجاستهم شرعاً سواء كان المراد بالنجاسة هو خبث باطنهم وسوء اعتقادهم على ما قيل أو يكون المراد بها نجاسة ظواهرهم بالنجاسات العارضة لأنهم لا يغتسلون من الجنابة كما هو قول الآخرين والذي عليه علماءنا هو أنَّ المراد بها نجاسة ذواتهم بالنجاسة الشرعية كالكلاب والخنازير وهو المنقول عن ابن عباس وهو مذهب الرّازي وجماعة منهم أيضاً الظاهر المتبادر لغةً وعرفاً.

ثم أنَّ علماءنا قد أطبقوا على نجاسة ما عدا اليهود والنصارى من أصناف الكفار وأما هذان الصنفان فالمشهور عندهم أيضاً النجاسة وخالف في الحكم ابن الجنيّد وابن عقيّل والمفيد وجمع من المتقدمين والمتأخرين فأفتوا بطهارة أهل الكتاب والبحث فيه موكول إلى الفقه إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية فنقول:

أخبر الله تعالى رسوله والمؤمنين بأنَّ المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام الفاء للتفريع أي أنَّ النَّهي متفرّع على نجاستهم والقرب كناية عن دخولهم المسجد والمستفاد من الآية هو أنَّ المانع نجاستهم وهو كذلك.

قال بعض المحققين المراد بالمسجد تمام الحرم من تسمية الشيء بإسم أجزائه وقيل المراد نفس المسجد والنهي عن القرب للمبالغة كقوله تعالى: وَلَا تَقْرُبُوا الرِّثَا، وَلَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وهذا أمر للمؤمنين بأن لا يمكنهم ذلك كما يدل عليه صدر الآية.

و قال أبو حنيفة النهي عن الحجّ و العمرة خاصّة دون المسجد، و ليس بشئٍ لأنّه خلاف المتبادر و أمّا قوله: **يَعْدَ غَامِهِمْ هَذَا** فالمراد بالعام سنة تسع من الهجرة لأنّ في هذه السنّة بعث النبي أبا بكر بسورة براءة ثمّ أمر الله برّده و أن لا يقرأها إلا هو أو أحد من أهل بيته فبعث عليه السلام **عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ** فقرأها على أهل الموسم على ما مرّ تفصيله و قيل هي سنة حجّة الوداع.

**وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**

قيل أنّ المؤمنين خافوا العيلة و هي الفقر بسبب إنقطاع المشركين و ذلك لأنّ أمر التجارة كان بأيديهم فقال الله تعالى: **وَ إِنْ خِفْتُمْ أَتْيَهَا الْمُؤْمِنُونَ** العيلة و الفقر فسوف يغنيكم الله من فضله بسبب الجزية و غيرها فإنّ الرزاق هو الله تعالى و أنّما علّقهُ على المشيئة لأنّ منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به لأنّه يجوز أن يموت قبله في قول أبي عليّ.

و القول الآخر، أي لتقطع الأمال الى الله تعالى كما قال:

**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ<sup>(١)</sup>**

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** دمعه أنّه تعالى عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام.

تنبيه

يستفاد من الآية أحكام:

**أحدها:** نجاسة المشرك فيتفرّع عليه نجاسة ما باشره برطوبة و تحليل طعامهم قد عرفت معناه.

**الثاني:** كون نجاستهم من جهة الشّرك فلا تحصل لهم الطّهارة ما دام هذا الوصف ولو غسلوا أبدانهم بالماء فلا تطهر إلا بالإسلام.

**الثالث:** عدم دخولهم المسجد الحرام بل مطلق المساجد كما يفهم من تعليق الحكم على كونهم نجساً بل يفهم منه عدم جواز إدخال مطلق النجاسة الى المسجد وأن لم تكن متعدية.

**الرابع:** عدم جواز التمكن من إدخالها اليها و قد يفهم وجوب إخراجها وإزالتها عن المساجد و تفصيل البحث في الفقه.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ

قيل نزلت الآية حين أمر الرسول بغزو الروم و غزا بعد نزولها تبوك. و قيل نزلت في قريظة و النصير فصالحهم و كانت أول جزية أصابها المسلمون.

**أقول** هذه الآية دالة على وجوب قتال أهل الكتاب و قد وصفهم الله بصفات أربع كل واحدة منها موجبة لقتالهم.

**الأولى:** كونهم لا يؤمنون بالله في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين بالتوحيد و الى هذا أشار الله تعالى بقوله: **الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** و أنما قلنا في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين به لأن أهل الكتاب موحدون ظاهراً و مع ذلك أمر الله في هذه الآية بقتالهم لأنهم يعتقدون أن معبودهم على صفة يستحيل أن يكون الموصوف بها هو الله سبحانه كقولهم عزيز ابن الله و المسيح ابن الله و نحو ذلك مما أشرنا اليه في الآية السابقة عند قوله: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**

**الثانية:** كونهم لا يؤمنون باليوم الآخر أي لا يؤمنون بالبعث و النشور.

**الثالثة:** كونهم لا يحرمون ما حرّم الله كمنكاح المحرّمان و أكل لحم الخنزير و نحو ذلك و اليهما الإشارة بقوله: **وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** و المراد بالرسول نبينا ﷺ و يتحمل موسى و عيسى عليهما السلام حيث أخبرا بالنبى و بدينه و أمراً بإتباعه فحرّفوا و خالفوا.

الرابعة: كونهم ولا يدينون دين الحق أي الإسلام الذي هو ناسخ للأديان و هم لا يعتقدون صحته وإليه الإشارة بقوله: **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**. وقوله: **مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ** يشمل المجوس أيضاً ويدل عليه.

ما رواه ابن بابويه في الصحيح عن ابن عمير عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال **أَنَّ ذِمَّةَ الْمَجُوسِ مِثْلُ ذِمَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى** وقال أنهم أهل الكتاب

أن قلت كيف يحكم بأن دين هؤلاء من أهل الكتاب ليس دين الحق و المفروض أن دينهم كان من قبل الله تعالى لأن موسى وعيسى عليهما السلام و هكذا نبى المجوس بناء على كونهم من أهل الكتاب من قبل الله تعالى و ما كان من قبله فهو حق و أي فرق بين أديانهم و دين الإسلام و المفروض أن الجميع من الله تعالى.

قلت أما حكم بطلان دينهم في عهد رسول الإسلام لا مطلقاً و ذلك لأن أديانهم بعد مجيئ الإسلام صارت منسوخة و ما كان كذلك فهو باطل من حيث عدم جواز العمل به بعد نسخه و لو كان قبل النسخ حقاً هذا أولاً.

ثانياً: أن التوراة والإنجيل قد غيروهما و بدّلوهما و حرّفوهما بأيديهم كان كذلك لا يجوز التّدين به و العمل بأحكامه لأن الموجود ليس من قبل الله تعالى و هذا لا ينافي كونه حقاً في الأصل.

و أما قوله: **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** دفهو غاية لقتالهم فندل الآية على أن الحكم فيهم القتل أو الجزية.

أما القتل فلقوله: **فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**.

و أما الجزية فلقوله: **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ** أي قاتلوهم حتى حصلت الغاية و يستفاد من الآية مفهوماً أن من زالت عنه الصفات المذكورة و دخل في الإسلام فلا يقتل و لا تؤخذ منه الجزية و هو كذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: القتال قتالان قتال لأهل الشُّرك لا ينفر عنهم حتّى يسلموا أو يؤدّوا الجزية عن يدٍ و هم صاغرون و قتال لأهل الزَّيغ لا ينفر عنهم حتّى يفيتوا الى الله أو يقتلوا وقد يفهم من الإطلاق أنّ من ضربت عليه الجزية فأسلم سقطت عنه الجزية و أن كان ذلك بعد حلول وقت أجل الجزية و بذلك قال جماعة منهم المفيد في المقنعة و الشَّيخ في النّهاية و قيل اذا كان الإسلام بعد حلول الأجل لا يسقط.

وإعلم أنّه يشترط مع قبولهم الجزية شروط:

**أحدها:** أن لا يؤذوا المسلمين في أنفسهم و أموالهم و نساءهم.

**ثانيها:** أن لا يتظاهراً بشيء من المحرّمات في دين الإسلام كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و ضرب النّاقوس و إحداث البيع و الكنائس. ثمّ أنّ الجزية منوطة برأي الإمام كمّاً و كيفاً و عليه دلّت الأخبار خلافاً للعامة، و لا تؤخذ الجزية من النّساء و لا من الصّغير و لا من المعتوه و لا من الفقير و لا من الشَّيخ القاني.

و يجوز أخذ الجزية من أثمان المحرّمات كثمن لحم الخنزير و ثمن الخمر و غير ذلك و أمّا قوله: **عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ** فقد اختلفوا في المراد باليد في المقام.

فقال قوم معناه نقداً لا نسيئةً من قولهم يعته يدأ بيدٍ، و قيل معناه أنّهم يعطونها و يسلمونها بأيديهم لا على يد نائبٍ و وكيلٍ لأنّه أنسب بالصّغار و الدّلة.

و قيل عن قهرٍ و قدرةٍ لكم عليهم، و قيل اليد هنا بمعنى النّعمة فيعطونها على وجهٍ يرون أنّ لكم عليهم النّعمة بإقرارهم على دينهم و قبولكم منهم الجزية و قوله و هم صاغرون، جملة حالية من ضمير يعطوا.

روي في الفقيه في الصحيح عن حريز عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله ما حدّ الجزية على أهل الكتاب و هل عليهم في ذلك شيء مؤظف لا ينبغي أن يجوز الى غيره فقال <sup>عليه السلام</sup>: ذلك الى الإمام يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ماله و ما يطيق أنما هم قوم فدوا أنفسهم أن لا يستعبدوا أو يقتلوا فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم به حتّى يسلموا قال الله عزّ وجلّ: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ وَ هو لا يكثرث لما يؤخذ منه حتّى يجد ذلاًّ لما أخذ منه فيألم لذلك فيسلم انتهى.

أقول يظهر من الرواية أنّ الصغار يحصل بمجموع شيئين:

أحدهما: عدم تقديرها بقدر ليبقى غير مؤظفٍ نفسه على شيء.

الثاني: إلزامهم بما يراه محققاً بهم بالنسبة الى أحوالهم و بذلك تحصيل لهم الخوف و الإضطراب المفضي الى الذلة.

و قال ابن إدريس اختلف المفسرون في الصغار و الأظهر أنّه إلزام أحكامنا و إجرائها عليهم و أن لا تقدر الجزية بل بحسب ما يراه الإمام و هو قول الشيخ في الخلاف و المبسوط.

و قيل هو أن تؤخذ الجزية منه قائماً و المسلم جالس و يقال له أدّ الجزية و أنت صاغر و يصفع على قفاه صفعة و قيل هو أن يدفع و يقهر بحيث تظهر ذلته.

و نقل عن المفيد هو أن يأخذهم الإمام بما لا يطيقون حتّى يسلموا هذا تفسير الآية على ما هو الحقّ عندنا.

و أمّا العامة فقد سلكوا مسلكاً آخر في تفسير الآية.

فقال القرطبي في قوله: فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْلِيَوْمِ الْآخِرِ أَنَّ اللَّهَ أَمْرٌ بِمَقَاتِلَةِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ لِإِصْفَاقِهِمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَ خَصَّ

أهل الكتاب بالذِّكر إكراماً لكتابهم و لكونهم عالمين بالتَّوحيد و الرُّسل و الشَّرائع و الملل و خصوصاً ذكر مُحَمَّد ﷺ و ملته أمته فلَمَّا أنكروه أَكَدَتْ عليهم الحِجَّة و عظمت منهم الجريمة فنبَّه على محلَّهم ثمَّ جعل للقتال غاية إعطاء الجزية بدلاً عن القتل و ساق الكلام الى أن قال إختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية.

قال الشَّافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصَّة عرباً كانوا أو عجماً لهذه الآية فأنَّهم هم الَّذِينَ خَصَّوا بِالذِّكر فتوجَّه الحكم اليهم دون من سواهم لقوله عزَّ و جلَّ: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**<sup>(١)</sup> و لم يقل حتَّى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب و تقبل من المجوس بالسنة و به قال أحمد و أبو ثور و هو مذهب الثُّوري و أبو حنيفة و أصحابه.

و قال الأوزاعي تؤخذ الجزية من كلِّ عابِدٍ و ثنيٍّ أو نارٍ أو جاحِدٍ أو مكذَّبٍ و كذلك مذهب مالك فإنَّه رأى أنَّ الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشُّرك و الجحد كائنًا من كان إلا المرتد.

و قال ابن القاسم و أشهب و سحنون تؤخذ الجزية من مجوس العرب و الأمم كلَّها و أمَّا عبدة الأوثان فلم يستنَّ الله فيهم جزية ثمَّ ذكر في المقام أقوالاً كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و التَّعرض لها لأنَّهم قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و لم يستندوا أقوالهم و آراءهم الى ركنٍ وثيقٍ فقالوا ما شاءوا في تفسير كلام الله و لم يخافوا في ذلك لومة لائم.

و قال القرطبي أيضاً في مقدار الجزية ما لفظه الرابعة لم يذكر الله سبحانه و تعالى في كتابه مقدراً للجزية المأخوذة منهم و قد إختلف العلماء فيه فقال عطاء ابن أبي رباح لا تَوَقَّيت فيها و أنَّما هو على ما صولحوا عليه و به قال يحيى بن آدم و أبو عبيد و الطَّبْري إلا أنَّه أي الطَّبْري قال أقلُّه دينار و أكثره لا

في تفسير القرآن



المجلد الثاني

حدّ له و قد أطال الكلام في نقل الأقوال التي لا فائدة فيها لا علماً و لا عملاً أن شئت الإطلاع عليها فعليك بمراجعة كتابه فأَنَّ العمر أعزّ و أشرف من صرفه حول هذه الموهومات التي تفوّها بها، و من يحيى ابن آدم و أبو عبيد و ابن القاسم و أشهب و سحنون و أمثالهم حتّى ينقل كلماتهم في تفسير كلام الله و الله من وراء القصد.





وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى  
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ  
 يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتْلُهُمْ اللَّهُ  
 أَنَّى يُؤْفِكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ  
 أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا  
 أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا  
 نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ  
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ  
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى  
 الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا  
 الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ  
 لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ  
 سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَ  
 لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ  
 (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا  
 جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ  
 لَا تَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

### ◀ اللغة

يُضَاهَوْنَ أي يشابهون ومنه قولهم امرأة ضهياء التي لا تحيض ولا يخرج  
 ثدياه أي أشبهت الرجال.

يُؤْفَكُونَ، الإفك الكذب والمعنى يصرفون عن الحق.  
أَحْبَارُهُمْ وهو جمع حبر وهو العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن  
البيان.

رُهبَانُهُمْ، الرُّهبان بضمّ الرّاء جمع راهب وهو الخاشي الذي يظهر عليه  
للناس الخشية وقد كثرت استعماله في متنسكي النصارى.  
يُطْفِئُوا، الإطفاء إذهاب نور النّار ثمّ أستعمل في إذهاب كلّ نور.  
يَكْزِبُونَ أصل الكنز كبس الشّيء بعضه على بعض ومنه قولهم كنز التّمر و  
الطعام.

يُحْمَى بضمّ الياء بصيغة المجهول والإحماء جعل الشّيء حاراً في  
الإحساس وهو فرق الإسخان وصدّه التبريد.  
فَتَكْوَى بضمّ التاء أيضاً بصيغة المجهول، والكّي إلصاق الشّيء الحار  
بالعضو من البدن.

جِبَاهُهُمْ جمع جبهة وهي صفحة أعلى الوجه فوق الحاجبين.  
جُنُوبُهُمْ جمع جنب وهو الضلع.  
ظُهُورُهُمْ جمع ظهر وهو الصّفحة العليا من الخلف

### ◀ الإعراب

عَزِيزٌ أَبْنٌ اللَّهِ مبتدأ وخبر ولم يحذف التنوين من عزيز إيذاناً بأنّه مبتدأ و  
أنّ ما بعده خبر وليس بصفة و يقرأ بحذف التنوين أيضاً وفيه ثلاثة أوجه:  
أحدها: أنّه مبتدأ وخبر أيضاً وأنّما حذف التنوين لالتقاء الساكنين.  
الثاني: أنّ عزيز خبر مبتدأ محذوف تقديره نبينا أو صاحبنا أو معبودنا و  
إبن، صفة أو يكون عزيز مبتدأ و، إبن، صفة والخبر محذوف وتقديره عزيز  
إبن الله صاحبنا.

الثالث: أنّ إبناً بدل من عزيز أو عطف بيان.

ذَلِكَ مَبْتَدَأُ وَقَوْلُهُمْ خَبِرْهُ بِأَفْوَاهِهِمْ حَالُ وَالْعَامِلُ فِيهِ الْقَوْلُ يُضَاهِيهِ  
الْجُمْهُورُ عَلَى ضَمِّ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَالْأَصْلُ، ضَاهِي، وَالْأَلْفُ مُنْقَلَبَةٌ عَنْ يَاءٍ وَ  
حُذِفَتْ مِنْ أَجْلِ الْوَاوِ وَ قَرِئَ بِكَسْرِ الْهَاءِ وَ هَمْزَةٍ مُضْمُومَةٍ بَعْدَهَا وَ هُوَ ضَعِيفٌ وَ  
الْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ لُغَةً فِي ضَاهِي وَ لَيْسَ مُشْتَقًّا مِنْ قَوْلِهِمْ إِمْرَأَةً ضُهِيَاءَ لِأَنَّ الْيَاءَ  
أَصْلُ وَالْهَمْزَةُ زَائِدَةٌ وَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْيَاءُ زَائِدَةً إِذْ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فَعِيلٌ يَفْتَحُ  
الْفَاءَ وَ الْمَسِيحُ أَيُّ وَ اتَّخَذُوا الْمَسِيحَ رَبًّا فَحُذِفَ الْفِعْلُ وَاحِدَ الْمَفْعُولِينَ وَ  
يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ وَ عَبَدُوا الْمَسِيحَ وَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَبْتَدَأُ وَ الْخَبَرُ يَوْمٌ  
يُحْمَى يَوْمَ ظَرْفٍ عَلَى الْمَعْنَى أَيُّ يَعَذِّبُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ قِيلَ تَقْدِيرُهُ عَذَابُ  
يَوْمٍ وَ قِيلَ التَّقْدِيرُ، أَذْكَرَ عَذَابُ يَوْمٍ يَحْمَى، وَ عَلَيْهَا فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ لِقِيَامِهِ  
الْفَاعِلُ.

### ◀ التفسير

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ  
لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةَ عَلَى الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ شَرَحَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ قَالَ قَالَتِ الْيَهُودُ كَذَا وَ النَّصَارَى قَالَتْ كَذَا، وَ  
تَقْرِيرُهُ أَنَّ مَنْ أَثْبَتَ ابْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْكَرٌ لَهُ وَ دَاخِلٌ فِي زِمْرَةِ  
الْمُشْرِكِينَ فَأَنَّ طَرُقَ الشُّرْكِ كَثِيرَةٌ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ الصَّنَمَ وَ مَنْ يَعْبُدُ  
الْمَسِيحَ وَ غَيْرَهُ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلشُّرْكِ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا فَإِذَا  
حَصَلَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَدْ حَصَلَ الشُّرْكَ بَلْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ كُفْرَ النَّصَارَى  
أَوْ الْيَهُودِ أَشَدُّ مِنْ كُفْرِ عَابِدِ الْوَثْنِ لِأَنَّ عَابِدَ الْوَثْنِ لَا يَقُولُ بِأَنَّ الْوَثْنَ خَالِقُ الْعَالَمِ  
أَوْ أَنَّ الْخَالِقَ إِتَّحَدَ مَعَ الْوَثْنِ بَلْ جَعَلَ الْوَثْنَ مِمَّا يَتَّقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَ أَمَّا الْيَهُودُ وَ  
النَّصَارَى فَأَنَّهُمْ يَثْبُتُونَ الْحُلُولَ وَ الْإِتِّحَادَ وَ ذَلِكَ كُفْرٌ قَبِيحٌ جَدًّا فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا فَرْقَ  
بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْحُلُولَةِ وَ بَيْنَ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ وَ أَنَّمَا خَصَّصَهُمْ بِقَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ  
لِأَنَّهُمْ فِي الظَّاهِرِ أَلْصَقُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُوسَى وَ عِيسَى وَ أَدَّعَوْا أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠  
المجلد الثاني

بالتَّوْرَةِ وِ الْإِنْجِيلِ فِقْبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ أَنْمَا هُوَ لِأَجْلِ تَعْظِيمِ هَٰذَيْنِ الرَّسُولَيْنِ الْمَغْطَمَيْنِ وَ تَعْظِيمِ كِتَابَيْهِمَا وَ تَعْظِيمِ أَسْلَافِ هَٰؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْهُ.

ثُمَّ أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْقَانِلِينَ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ السَّخِيفَةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْضُهُمْ بَلْ قِيلَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِسْمُهُ فُغَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ وَ قَدْ نَقَلُوا عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ أَتَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَ هُمْ سَلَامُ بْنُ مَشْكَمٍ وَ النَّعْمَانُ بْنُ أَوْفَى، وَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ وَ قَالُوا كَيْفَ نَتَّبِعُكَ وَ قَدْ تَرَكْتَ قَبْلَتَنَا تَزْعُمُ أَنَّ عَزِيرَ إِبْنِ اللَّهِ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَ عَلَى هَٰذَا فَالْقَانِلُونَ بِهَٰذَا الْمَذْهَبِ بَعْضُهُمْ لَا جَمِيعُهُمْ إِلَّا أَنَّ نِسْبَةَ الْقَوْلِ إِلَى الْجَمِيعِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي إِيقَاعِ إِسْمِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ، وَ أَنْتَ تَرَى أَنَّ إِطْلَاقَ إِسْمِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَمَّا عَلَى الْأَكْثَرِ فَلَا إِشْكَالَ فِيهِ فَلَا يَعْقِلُ أَنَّ يَكُونَ الْقَانِلُ شَخْصاً وَاحِداً مِنَ الْيَهُودِ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ وَ قَالَتِ الْيَهُودُ، بَلْ يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى أَنَّ أَكْثَرَ الْيَهُودِ كَانُوا قَانِلِينَ بِهَا وَ هَكَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّصَارَى وَ أَمَّا وَجْهُ بَطْلَانِ مَقَالَتِهِمْ فَلَأَنَّ إِثْبَاتَ الْأَبْنِ لَهُ تَعَالَى يَوْجِبُ إِدْخَالَهُ فِي الْمَحْدَثَاتِ لِأَنَّ التَّوَالِدَ وَ التَّنَاسُلَ مِنْ شُؤْنِ الْحَادِثِ.

وَ أَمَّا الْقَدِيمُ فَلَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الْحَادِثِ وَ تَوْضِيحُ ذَلِكَ إِجْمَالاً هُوَ أَنَّ الْبَنُوَّةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الْوَلَادَةِ لِأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَادِ بِغَيْرِ الْوَلَادَةِ لَا يَكُونُ إِبْنًا بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لَخَالِقِهِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَ إِذَا كَانَ الْأَبْنُ لَا يَوْجَدُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوَلَادَةِ فَلَا يَدَّ لَهُ مِنَ الْأَمِّ وَ لَازِمُ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ يَكُونَ لَهُ تَعَالَى صَاحِبَةً ثُمَّ الْمُضَاجَعَةُ وَ لَا يَحْصُلُ الْمَطْلُوبُ إِلَّا بِبَرَكَةِ الشَّهْوَةِ الْجَنَسِيَّةِ وَ هِيَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِي الْأَجْسَامِ الْمُرَكَّبَةِ إِذِ الْمَوْجُودُ الْبَسِيطُ لَا شَهْوَةَ لَهُ فَيَلْزَمُ مِنَ الْقَوْلِ بِالْبَنُوَّةِ هَذِهِ الْمَحَاضِيرُ كُلُّهَا وَ لَا شَكَّ أَنَّهَا مِنْ شُؤْنِ الْمَخْلُوقِ الْحَادِثِ فَيَلْزَمُ أَنَّ يَكُونَ مِنَ الْمَحْدَثَاتِ.

ثانياً: قد ثبت أن الله تعالى غني بالذات عن جميع ما سواه وحينئذ فنقول أن كان غنياً عن الأبن فالمطلوب ثابت و أن كان محتاجاً اليه فكل محتاج ممكن و كل ممكن يجوز عليه العدم و المفروض أنه واجب الوجود الذي يستحيل عليه العدم و هو كما ترى.

ثالثاً: لاشك أنه تعالى واجب الوجود و أمّا الإبن فأن كان ممكناً فهو مثل غيره من الممكنات و أن كان واجباً يلزم تعدد القديم مضافاً الى عدم إمكان كونه قديماً لأن المفروض وجوده بعد وجود الواجب فهو حادث و كل حادث ممكن و محصل الكلام هو أن إثبات الإبن له تعالى كفر محض ينكره العقل السليم و لا يقول به إلا مخبط مجنون و لا كلام لنا معه و لعله لأجل هذه الدقيقة و هي أن العقل السليم لا يقبل تلك المقالة و أمثالها قال تعالى: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَأَنْقَضَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلَهُمْ نَسُوا حَظًّا فَمَا لِلْكَافِرِينَ فِي الْعَذَابِ حِيلٌ يَذَلُّ عَلَى عَدَمِ اعْتِقَادِ هَؤُلَاءِ أَيْضاً بِمَا يَقُولُونَ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ سَنَخِ الْمَجَانِينِ ظَاهِراً وَ الْعَاقِلِ لَا يَعْتَقِدُ بِمَا يَنْكَرُهُ الْعَقْلُ وَ أَنَّ تَقْوَاهُ بِهِ ظَاهِراً وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ<sup>(١)</sup> وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللِّسَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا شَاءَ وَ الْعَقْلُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ فَأَنَّهُ إِذَا أَدْرَكَ شَيْئاً وَ أَعْتَقَدَ الْإِنْسَانُ صِحَّتَهُ فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَعْقِلَ خِلَافَهُ مِثْلَ إِذَا حَكَمَ الْعَقْلُ بِأَنَّ الْوَاحِدَ نِصْفَ الْإِثْنَيْنِ فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّ الْوَاحِدَ ضَعْفُ الْإِثْنَيْنِ وَ لَعَلَّهُ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ بِقُلُوبِهِمْ مِثْلًا وَ نَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْمَحَاوِرَاتِ فَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

إن قلت أن كان الأمر كما ذكرت فلم يحكم بكفرهم و المفروض أنهم لم يعتقدوا ذلك.

في القرآن  
نفس القرآن

جزء ١٠

الجلد الثاني

قلت مدار الحكم بالكفر والإيمان على اللسان دون القلب فمن أنكر التوحيد والثبوت بلسانه يحكم بكفره وأن أعتقد بقلبه خلاف ما ذكره باللسان ومن أقر بهما يحكم بإسلامه وأن كان في القلب منكراً وهكذا في المقام حكم الله بكفر اليهود والنصارى لقولهم بأنّ عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ألا ترى أنّه تعالى قال بعد ذلك: **يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ولم يقل إعتقاد الذين كفروا مثلاً ففيه إشارة الى أنّ الملاك في نسبة الكفر أو الإيمان هو القول باللسان فقط وكيف يعقل أن يقول عاقل بهذه المقالة السخيفة الباطلة وفي قوله: **يُضَاهُونَ** حيث شبه قول اليهود والنصارى بقول الكفار الذين أنكروا وجوده تعالى رأساً، إشارة الى عدم الفرق بين القولين واقعاً وأن كان بينهما فرق ظاهراً لأنّ الكفار أنكروا وجوده تعالى هؤلاء لم ينكروا وجوده بل أثبتوه إلا أنّهم قالوا ولد: وذلك لأنّ الإله الذي له ولد فهو ليس بإله بل هو مخلوق محدث كغيره فأبى فرق بين هذا الإله الممكن وبين من أنكر وجوده رأساً فكما يحكم بكفر المنكر يحكم بكفر من أثبت الإله الذي له ولد **فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ** أي لعنهم الله وقيل، قتلهم الله أني يؤفكون، أي كيف يصرفون عن الحق الى الإفك الذي هو الكذب والحق وهو ظاهر لا خفاء فيه.

**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.**

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود والنصارى أنّهم إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم أي وأتخذوه أيضاً رباً والحال أنّهم كانوا مأمورين بعبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو الذي منزه عن الشرك

أن قلت كيف إتخذوا المخلوق رباً وهم عقلاء وعاقل يعلم أنّ المخلوق لا يكون خالقاً.

قلت ليس المراد بالرَّب في قوله: **أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمُ الرَّبِّ** بمعنى الخالق كما في قوله: **أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ** بل المراد منه في الآية أنهم كانوا مطيعين لأحبارهم و رهبانهم في جميع الأمور و أمّا بالنسبة الى المسيح فالظاهر أنهم كانوا يقولون بالالوهية و عليه فالرَّب في المعطوف و المعطوف عليه يفترق من حيث المراد و توضيحه أن كلمة الرَّبِّ في الأصل بمعنى التربية إنشاء الشيء حالاً فحالاً الى حدِّ التَّمام يقال ربّه و ربّاه و ربّه يُقال لأنَّ يرَبِّي رجلاً من قريش أحبَّ إليَّ من أن يرَبِّي رجلاً من هوازن فالرَّب مصدر للفاعل و لذلك لا يقال الرَّبِّ مطلقاً إلاَّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات:

قال الله تعالى: **بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبُّ غَفُورٌ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **أَمَّا بِرَبِّ أَلْعَالَمِينَ**<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ**<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ اجْزُ دَعْوِيهِمْ أَنْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ**<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ**<sup>(٧)</sup>.

وأمثال ذلك من الآيات التي أطلقت فيها كلمة الرَّب على الله تعالى كثيرة جداً و أمّا إطلاق الرَّب على المخلوق أيضاً كثير.

قال الله تعالى: **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**<sup>(٨)</sup>.

و حكاية عن يوسف عليه السلام:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

١- سبأ = ١٥

٢- الأعراف = ١٠٤

٣- الأعراف = ١٢١

٤- الأعراف = ١٢٢

٥- التوبة = ١٢٩

٦- يونس = ١٠

٧- الشعراء = ١٦

٨- الأنعام = ١٦٤

قال الله تعالى: يَا صَاحِبِي الْمَسْجِنِ أَمَا أَخَذْتُكَمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ<sup>(٢)</sup>.

و حكاية عن فرعون.

قال الله تعالى: قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا<sup>(٣)</sup>.

و يقال رَبُّ الدَّارِ وَ رَبُّ الْفَرَسِ قال عبد المطلب عليه السلام أنا رَبُّ الإِبِلِ وَ اللَّيْتِ رَبًّا، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَاقُولْ قَوْلَهُ تَعَالَى: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ أَرْبَابًا لَيْسَ الْمَرَادُ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً بَلِ الْمَرَادُ بِالرَّبِّ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي أَعْنِي بِهِ الرَّئِيسَ وَ الرَّعِيمَ وَ الْمَطَاعَ وَ أَمْثَالُ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بَأَنَّ الْحَبِيرَ هُوَ اللَّهُ أَوْ الرَّاهِبَ هُوَ اللَّهُ وَ هُوَ مَعْلُومٌ لَا خِلَافَ فِيهِ.

و قد روي التعلبي - في تفسيره بأسناده عن عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب فقال صلى الله عليه وسلم: يَا عَدِي أَطْرَحْ هَذَا الْوِثْنَ عَنْ عُنُقِكَ فَطَرَحْتَهُ ثُمَّ أَتَيْتَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا حَتَّى فَرَعَ مِنْهَا فَقُلْتُ لَهُ صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ صلى الله عليه وسلم: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ وَ يَحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَحْلُونَهُ قَالَ فَقُلْتُ بَلَى قَالَ صلى الله عليه وسلم: فَتَلَكَ عِبَادَتُهُمْ إِنْتَهَى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَالَ عليه السلام: أَمَا وَاللَّهِ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ لَمَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَهْلُوا حَرَامًا وَ حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.



و بأسناده عنه عليه السلام قال: من أطاع رجلاً في معصية الله فقد عبده إنتهى.

و في تفسير العياشي: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال عليه السلام: أما والله ما صاموا لهم ولا صلُّوا ولكنهم أحلُّوا لهم حراماً وحَرَّموا عليهم حلالاً فَاتَّبَعُوهُمْ إنتهى.

و في خبر آخر عنه عليه السلام ولكنهم أطاعوهم في معصية الله. و عن جابر عنه عليه السلام قال سئلت عن قول الله عزَّ وجلَّ: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال عليه السلام: أما أنتم لم يتَّخِذُوهم آلهة، إلا أنتم أحلُّوا حراماً وحَرَّموا حلالاً فأخذوا به فكانوا أربابهم من دون الله تعالى إنتهى <sup>(١)</sup>.

و في تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ قال عليه السلام: أمَّا المسيح فعصوه وعظَّموه في أنفسهم حتَّى زعموا أنه إله وأنه ابن الله وطائفة منهم قالوا ثالث ثلاثة وطائفة منهم قالوا هو الله وأما أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ فَأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ وَأَخَذُوا بِقَوْلِهِمْ وَأَتَّبَعُوا مَا أَمَرُوهُمْ بِهِ وَدَانُوا بِهِ بِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ فَاتَّخَذُوهُمْ أَرْبَابًا بِطَاعَتِهِمْ لَهُمْ وَتَرَكَهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ الْأَحْبَارُ وَ الرُّهْبَانُ اتَّبَعُوهُ وَأَطَاعُوهُ وَعَصُوا اللَّهَ وَ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا فِي كِتَابِنَا لِكَيْ نَنْتَعِظَ بِهِمْ فَغَيَّرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَنَعُوا يَقُولُ اللَّهُ: وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ إنتهى <sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقول يستفاد من هذه الأخبار ولا سيما الأخير منها تفسير الآية بأوضح بيان ومحصل الكلام هو أن الأرباب في قوله: **إِتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** أطاعوهم فيما أمرهم به ونهوهم عنه ويستفاد أن الإطاعة بلا قيد و شرط مخصوصة بالله تعالى وأما غيره كائناً من كان فالإطاعة منه مشروطه بكون المطاع أمراً بما أمر الله به و ناهياً عما نهى الله عنه و أما إذا قال من عند نفسه ما شاء و أراد و إن إنتحله الى الله فلا يجب طاعته بل تحرم لأن طاعته طاعة الشيطان بعينه.

و أما قوله: **وَ أَلْمَسِيحَ** فإطلاق الرّب عليه ليس من سنخ إطلاقه على الأخبار و الرّهبان بل الرّب هنا بمعنى الإله على ما ذكره الإمام في الحديث الأخير و قد تكلمنا فيه سابقاً و قلنا أن كثيراً بل أكثرهم لولا كلهم قالوا بأن المسيح ابن الله أو هو الله و أمثال ذلك من الأباطيل، و هذا كفر محض نعوذ بالله منه و أما قوله: **وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**.

فالوجه فيه واضح لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا مأمورين بتبليغ هذا الحكم قال رسول الله ﷺ: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا**.

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه.

**قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ<sup>(١)</sup>**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ<sup>(٣)</sup>**.

قال الله تعالى: **قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ<sup>(٤)</sup>**.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ<sup>(٥)</sup>**.

والآيات كثيرة.

كيف وقد قال الله تعالى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** <sup>(١)</sup>.

وأما قوله: **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** فيه إشارة الى تنزهه تعالى عما نسبوه اليه من الشرك وذلك لأن نسبة الشرك اليه تعالى من أعظم الظلم وأقبحه قال تعالى حكاية عن لقمان حيث قال:

**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** <sup>(٢)</sup>.

وذلك لأن إثبات الشريك له تعالى مساوق للمخلوقية فالمشرك جعل الله مخلوقاً من حيث لا يشعر والمخلوق لا يستحق أن يعبد وأي ظلم أقبح وأشنع منه هذا ما فهمناه في تفسير الآية وبقي في المقام شيء لا بأس بالإشارة اليه إجمالاً وهو قول أبي جعفر الباقر عليه السلام في الخبر الذي روينا عن تفسير علي بن إبراهيم حيث قال عليه السلام (وأما ذكر هذا في كتابنا لكي نتعظ بهم فغير الله بني إسرائيل بما صنعوا) الخ.

يظهر من هذا الكلام أن اتخاذهم الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله، بالمعنى الذي ذكره عليه السلام ليس مختصاً بقوم اليهود والنصارى بل هو سيرة مستمرة في جميع الأمم قل أو كثر والمراد بقوله نتعظ به، هو أن لا نكون مثلهم.

فإن حكم الأمثال واحد فإذا كان المسلم في دينه تابعاً لشخص خاص في جميع أوامره ونواهيهِ طابق قوله الشرع أم لا فلا فرق بينه وبين اليهود والنصارى وذلك لأن الأحرارية والرهبانية وأمثال ذلك من الألفاظ المستعملة في كل زمان لا توجب تغيير أصل الحكم الموجب للتغيير ونحن نرى جريان هذا الأصل في المسلمين طابق النعل بالنعل فإن أكثرهم نبذوا الكتاب وراء ظهورهم وتركوا سنة رسول الله ﷺ وأخذوا بما أمروا أو نهوا عنه من قبل زعماءهم ولأجل ذلك ظهرت في الإسلام بدعاً كثيرة وللبحث فيه مقام آخر.

في تفسير القرآن



المجلد الثالث

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَنْ يُمْتُّ نُورُهُ وَ لَوْ  
كَرِهَ الْكَافِرُونَ

الإطفاء إذهاب نور النار ثم إستعمل في إذهاب كل نور أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء الكفار يريدون إطفاء نور الله و المراد بالنور الإسلام، بأفواههم الأفواه جمع فوه فحذفت الهاء و أبدلت من الواو ميم لأنه حرف صحيح من مخرج الواو و مشاكل لها ثم أبدلت الضمة الفتحة فصارت الكلمة، فم، ولو كره الكافرون من إتمام نوره فأَنَّ الله يتم نوره قطعاً و في هذه الآية مسائل:

**الأولى:** أنَّ مخالفة أتباع الباطل للحق أمرٌ قهريٌّ لا مناص عنه لأنَّ الباطل ضدَّ الحقِّ و لكلِّ واحدٍ منهما أشباع و أتباع فإذا ظهر الحقُّ لا مجال لظهور الباطل و بالعكس و لذلك فكلُّ طائفةٍ منهما يريد ظهور مطلوبه و محبوه يوجب بروز الاختلاف بينهما و هذه سيرة مستمرة من البدو الى الختم و لا إختصاص لها بزمانٍ دون زمانٍ و اذا كان الأمر على هذا المنوال فبعد ظهور الإسلام أراد أتباع الباطل إطفاء نور الحقِّ كما كانوا كذلك في الأمم السَّالفة أيضاً و هذا ممَّا لا شك فيه.

**الثانية:** أنَّ الله تعالى أخبر في هذه الآية و أمثالها أنَّهم أي أتباع الباطل لا يقدرون على ذلك لأنَّ الحقَّ ثابت لا يتغير و الباطل ليس كذلك.

نعم يمكن تضعيف الحقِّ إمَّا إطفاءه و إماتته بالكلية فلا لأنَّ الحقَّ لا سبيل للبطلان اليه و يؤيده العقل أيضاً لأنَّ الله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير عقلاً و نقلاً فإذا أراد القادر المطلق شيئاً فمن يقدر على منعه و ردعه.

و المفروض أنَّه أراد إعلاء كلمة التوحيد بوساطة أنبياءه و رسله و وعدهم بذلك أيضاً فهو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قال الله تعالى: **كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **كَتَبَ اللَّهُ لِلَّهِ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **فَعَلِّبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** <sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** <sup>(٧)</sup>.

فهذه الآيات ونظائرها تدل على إثبات المدعى وهو أن الله يتم نوره ولو كره الكافرون.

**الثالثة:** أنه تعالى عبّر عن الإسلام بالنور وذلك لأن النور على ما قيل في تعريفهما ظاهرة بذاتها مظهره لغيرها كما هو تعريف الوجود أيضاً.

و المقصود من كون النور كذلك هو أن نورانية النور ذاتية لها وليست بجعل جاعلٍ و أمّا غيرها فظهوره بها وهذا كما نرى أن النور في الظلمات توجب ظهور الأشياء بها.

و الإسلام أيضاً كذلك لأن الإسلام حقٌ و حقايقه ليست بجعل جاعلٍ فالحق حق بذاته لا بشئٍ آخر لأنه من قبيل تحصيل الحاصل فهو كالسراج في الظلمات في طريق السلوك الى الله فكما أن الإنسان في الظلمة الحسية لا يقدر على رؤية الأشياء و لا يجد الطريق في سلوكه كذلك في ظلمات الكفر و الجهل لا يقدر على تشخيص الطريق و تحصيل الكمال و كسب السعادة إلا بالدين و العمل بأحكامه فالدين نورٌ و الكفر و الجهل ظلمات.

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٠

المجلد الثاني

١- المائدة = ٦٤

٢- الصّف = ٨

٣- المجادلة = ٢١

٤- آل عمران = ١٦٠

٥- الأعراف = ١١٩

٦- يوسف = ٢١

٧- الصافات = ١٧٣

الزبابة: قوله تعالى: **يَأْقُواهُمْ** فيه إشارة الى أنَّ الكفَّار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ليست لهم حجة قاطعة على صحة قولهم و أنما قالوا ما قالوا بمجرد اللفظ وذلك لا يكفي في حصول مطلوبهم، ويمكن أن يكون قوله: **يَأْقُواهُمْ** إشارة الى أنَّ الكفَّار يريدون إطفاء الحق بسبب الكذب والإفتراء الذي يظهر على ألسنتهم لتضعيف الحق ولم يعلموا أنَّ هذا لا يغنيهم وكيف كان فإضافة الإطفاء الى الأفواه في الآية من أحسن الاستعارات فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس وهذا من عجب البيان مع ما فيه من تصغير شأن الكفَّار والمخالفين للحق وتضعيف كيدهم وذلك لأنَّ النَّفْخ يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة.

و نور الله تعالى من أعظم الأنوار والأقباس فكيف يمكن لهم إطفاءها بمجرد الألفاظ الخالية عن المعنى والإفتراءات التي ليس لها أصل والدليل على ما ذكرناه هو أنَّ الكفَّار والجاحدين للحق لم يقدرُوا على ذلك وهو واضح لمن تدبَّر وأمعن النظر في التاريخ.

فمن كتاب الغيبة لشيخ الطائفة عليه السلام بأسناده عن محمد بن سنان قال ذكر علي بن حمزة عند الرضا عليه السلام فلعله ثم قال عليه السلام: **أَنَّ عَلِيَّ بْنَ حَمْزَةَ أَرَادَ أَنْ لَا يَعْبُدَ اللَّهَ فِي سَمَاءِهِ وَأَرْضِهِ وَيَأْبَى اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نوره ولو كره اللعين المشرك.**

قلت، المشرك قال عليه السلام نعم والله رغم أنفه كذلك هو في كتاب الله: **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهُمْ** وقد جرت فيه وأمثاله أنه أراد أن يطفئ نور الله انتهى.

وبأسناده الى الصادق عليه السلام والحديث طويل يقول فيه وقد ذكر شقَّ فرعون بطون الحوامل في طلب موسى عليه السلام كذلك بنو أمية و بنو العباس لما أن وقفوا على أنَّ زوال ملكة الأمر والجبايرة منهم على

يدي القائم ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول الله و إبادة نسله طمعاً لهم في الوصول الى قتل القائم فأبى الله ن يكشف أمره لواحدٍ من الظلمة إلا أن يُتمّ نوره ولو كره المشركون انتهئ.

و عن تفسير العياشي عن أحمد بن محمد قال وقف علي أبو الحسن الثاني عليه السلام في بني زريق فقال لي و هو رافع صوته يا أحمد قلتُ لبيك قال أنه لما قبض رسول الله ﷺ جَهد الناس على إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتمّ نوره بأمر المؤمنين عليه السلام انتهئ.

### تنبيه

يظهر من تفاسير العامة أن الآية نزلت في الكفار من اليهود و النصارى و غيرهم حيث أنهم أنكروا نبوة نبينا و جحدوا بها مع أن أهل الكتاب منهم قد علموا أن محمداً ﷺ رسول الله و هو الذي بشر به موسى و عيسى و قد ذكر الله تعالى في التوراة و الإنجيل من أوصافه ﷺ ما يدل على صدقه في إدعاءه النبوة و الأوصاف المذكورة في التوراة و الإنجيل لا تنطبق على غيره ﷺ إلا أنهم أي علماء اليهود و النصارى حرّفوا كتابهم إطفاءً منهم لنور الله و لكن الله تعالى قد أتمّ نوره على رغم أنوفهم و أظهر الحق ولو كره المشركون.

و نحن نقول لا كلام لنا فيما ذكره فإنه حق لا مرية فيه إلا أن تخصيص الآية به بعيد عن الإنصاف مع أنه لا دليل عليه و لو فرضنا نزول الآية فيما ذكره فهو لا ينافي إرادة العموم منها من حيث المعنى و ذلك لما مرّ منا مراراً أن خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى فلا يجوز لنا أن نقول أن الآية لا مصداق لها فعلاً فالحق أن الآية بصدد بيان حكم كلّي في كلّ عصرٍ و زمانٍ فلو كان الكفار أنكروا نبوة الرسول و لم يقدروا على إطفاء نور النبوة والذين فقد

أنكر المسلمون بعد رسول الله ﷺ خلافة أوصيائه وأَيَّ فرقٍ بين الإنكارين فكما أنَّ الكفار لم يصلوا الى ما أرادوا كذلك السقيفة وأصحابها وأذناها من خلفاء الجور لم يصلوا الى ما شاءوا وأرادوا وكما أنَّ منكري النبوة لم يقصروا في إيذاء النبي كذلك الخلفاء لم يقصروا في إيذاء أوصيائه وأهل بيته بل أنهم فعلوا بأهل البيت من الظلم بأنواعه ما لا يخفى على أحد.

و لو قلنا بأنَّ ظلم المسلمين على بيت نبيهم كان أضعاف ظلم الكفار على رسول الله لم نقل جزافاً ولكن الله تعالى بما وعد رسوله في الآية فقد ومن أصدق من الله قليلاً فأظهر الحق على رغم أنوف المعاندين المنافقين في الإسلام كما أظهره على رغم الكفار بالنسبة الى رسوله.

والحاصل أنَّ خلفاء المسلمين بعد رسول الله ﷺ وأتباعهم وأذناهم لم يألوا جهداً في إيذاء أهل بيت رسول الله ﷺ وقتلهم و هتكهم و سبهم بل و سبي نساءهم و ذرايرهم كل ذلك لإطفاء نور الحق و أن شئت قلت عداوة لله و لرسوله فإن لم يكن لذلك فلماذا فعلوا ما فعلوا و المفروض أنَّ أهل البيت لم يذنبوا ذنباً أصلاً وهذا ظاهر لا خفاء فيه.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه هو الذي أرسل رسوله الى الخلق و هذا نص على رسالة الرسول و أنه جاء من عند الله لا من قبل نفسه و قوله: بِالْهُدَىٰ يعني بالحجج و البينات و البيان لما يؤدبهم العمل به الى أبواب الجنة، و دين الحق، هو الإسلام و قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ معناه ليعلى دين الإسلام على جميع الأديان بالحكم و القهر و الغلبة لهم.

هكذا قيل و عليه فالألف و اللام في قوله: عَلَى الدِّينِ للجنس أو الاستغراق حتى يشمل الجميع و قوله: وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ إشارة الى كراهة الكفار من ذلك.



و من المعلوم أنّ المشرك لا يرضى بإعلاء كلمة التّوحيد و ظهور الحقّ و لكنّ الله يتمّ نوره على ما مرّ بيانه في الآية السّابقة.

قالوا و في الآية دلالة على صدق نبوّته ﷺ لأنّها تضمّنت الوعد بظهور الإسلام على جميع الأديان و قد صحّ ظهور عليها.

و قال أبو جعفر عليه السلام أنّ ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام و قال ابن عباس أنّ الهاء في ليظهره عائدة الى الرّسول ﷺ أي ليعلمه الله الأديان كلّها حتّى لا يخفى عليه شيء منها ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول أمّا ما ذهب اليه ابن عباس من أنّ الضّمير عائدة الى الرّسول فهو بعيد عن مساق الآية و الحقّ أنّها عائدة الى الدّين كما عليه جمهور المفسّرين.

و أمّا قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ إِلَى الْآنَ وَنَعْلَمُ أَيْضاً أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى صَدَقَ وَحَقٌّ وَهُوَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَ إِنْ يَلْزَمُ كَذِبُ الْآيَةِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَ بِذَلِكَ نَحْكُمُ بِصَحَّةِ مَا رَوَى عَنْ أُمَمَتِنَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَثَارِ.

منها، ما رواه في كتاب كمال الدّين وتمام النّعمة بأسناده الى أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: في قوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى قَالَ عَلَيْهِ السلام وَاللّهُ مَا نَزَلَ تَأْوِيلُهَا حَتَّى يَخْرُجَ الْقَائِمُ فَإِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ لَمْ يَبْقَ كَافِرٌ بِاللّهِ الْعَظِيمِ وَ لَا مُشْرِكٌ بِالْإِمَامِ إِلَّا كَرِهَ خُرُوجَهُ حَتَّى لَوْ كَانَ كَافِراً أَوْ مُشْرِكاً فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَقَالَتْ يَا مُؤْمِنُ فِي بَطْنِي كَافِرٌ فَأَكْسِرْنِي وَ أَقْتَلْهُ انْتَهَى.

و بأسناده الى سليط قال: الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام مثا أثنى عشر مهدياً أوّلهم أمير المؤمنين عليه السلام عليّ بن أبي طالب و آخرهم التّاسع من ولدي و هو القائم بالحقّ يحيي الله به الأرض بعد موتها و يظهر به الدّين الحقّ على الدّين كلّ و لو كره المشركون انتَهَى.

و بأسناده الى محمد بن مسلم الثَّقفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام محمد بن علي عليه السلام يقول القائم منّا منصور بالرُّعب مؤيد بالنصر تطوي له الأرض و تظهر له الكنوز يبلغ سلطانه المشرق و المغرب و يظهر الله عزّ و جلّ دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون فلا يبقى في الأرض خرائب إلّا عمر و ينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

و في أصول الكافي بأسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قُلْتُ هو الَّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ الآية قال هو الَّذي أمر رسوله بالولاية لوّصيه و الولاية هي دين الحقّ قلت ليظهره على الدّين كلّه قال عليه السلام: يُظهر على جميع الأديان عند قيام القائم قال يقول الله: وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ قال ولاية القائم ولو كره الكافرون بولاية عليّ قلت هذا تنزيل قال عليه السلام نعم هذا الحرف فتنزيل و أمّا غيره فتأويل و الحديث طويل إنتهى.

و في تفسير العياشي عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَكُونُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَقَرَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنتهى <sup>(١)</sup>.

أقول هذا الَّذي ذكرناه في تفسير الآية لا كلام له عندنا و أمّا العامة فسلكوا مسلكاً آخر و ذلك لأنهم يمعزل عمّا نعتقده من ظهور المهدي من أهل البيت على الوجه المقرّر في أخبارنا و لذلك وقعوا في تفسير الآية في تزلزل و اضطراب و لم يعلموا ما قالوا و ما يقولون فمثلهم كمثل الغريق يتشبّث بكلّ حشيش و هذا إمامهم الرّازي و هو عندهم يقول ما هذا لفظه.

إعلم أنّه تعالى لمّا حكى عن الأعداء أنّهم يحاولون إبطال أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و بيّن أنّه يأبى ذلك الإبطال و أنّه يتمّ أمره بيّن كيفيّة ذلك الإتمام

فقال: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَحْصِلُ إِلَّا بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ:

**أولها:** كثرة الدلائل والمعجزات وهو المراد من قوله: أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ.  
**ثانيها:** كون دينه مشتملاً على أمورٍ يظهر لكلٍّ أحدٍ كونها موصوفة بالصواب والصّلاح ومطابقة الحكمة وموافقة المنفعة في الدّنيا والآخرة المراد من قوله: وَدِينِ الْحَقِّ.

**ثالثها:** سيرورة دينه مستعلياً على سائر الأديان عالياً عليها غالباً لأضدادها قاهراً لمنكريها وهو المراد من قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

ثم قال و اعلم أَنَّ ظهور الشّي قد يكون بالحجّة وقد يكون بالكثرة والوفور وقد يكون بالغلبة والإستيلاء ومعلوم أَنَّهُ تعالى بشرّ بذلك ولا يجوز أن يبشّر إلا بأمرٍ مستقبل غير حاصل وظهور هذا الدّين بالحجّة مقرر معلوم فالواجب حمله على الظهور بالغلبة.

فإن قيل ظاهر قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ كونه غالباً لكلّ الأديان وليس الأمر كذلك فإنّ الإسلام لم يصّر غالباً لسائر الأديان في أرض الهند والصّين والرّوم و سائر أراضى الكفرة قلنا جابوا عنه من وجوه:

**الأول:** أَنَّهُ لا دين بخلاف الإسلام إلا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليه في بعض المواضع وأن لم يكن كذلك في جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النّصارى على بلاد الشّام وما والاها الى ناحية الرّوم وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عبّاد الأصنام على كثيرٍ من بلادهم ممّا يلي التّرك والهند وكذلك سائر الأديان فثبت أنّ الَّذِي أخبر الله عنه في هذه الآية وقع وحصل وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

**الوجه الثّاني:** في الجواب أن نقول روي عن أبي هريرة أَنَّهُ قال هذا وعدٌ من الله بأنّه تعالى يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان و تمام هذا أنّما يحصل عند خروج عيسى عليه السلام.

و قال السُّدي ذلك عند خروج المَهدي لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أَدَّى الخراج.

**الوجه الثالث:** المراد ليظهر الإسلام على الدِّين كُلِّهِ في جزيرة العرب حصل ذلك فأنَّه تعالى ما أبقي فيها أحداً من الكفَّار.

**الوجه الرابع:** أنَّ المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** أن يوقفه على جميع شرائع الدِّين و يطلعه عليها بالكلِّية حتَّى لا يخفى عليه منها شيء.

**الخامس:** أنَّ المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** بالحجَّة و البيان إلَّا أنَّ هذا الوجه ضعيفٌ لأنَّ هذا وعدٌ بأنَّه تعالى سيفعله و التَّقوية بالحجَّة و البيان كانت حاصلة من أوَّل الأمر و يمكن أن يجاب عنه بأنَّ في مبدأ الأمر كثرت الشُّبهات بسبب ضعف الاسلام و إستيلاء الكفَّار و منع الكفَّار سائر النَّاس من التَّأمل في تلك الدَّلائل.

أمَّا بعد قوَّة دولة الإسلام عجزت الكفَّار فضعفت الشُّبهات فقوي ظهور دلائل الإسلام فكان المراد من تلك البشارة هذه الزَّيادة انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

نحن نقول أصل الإشكال في الآية لا خفاء فيه و ذلك لأنَّه تعالى قال: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** أي على الأديان كلِّها لأنَّ اللَّام في قوله: **عَلَى الدِّينِ** للجنس أو الإستغراق و هذا ممَّا لم يخالفه أحد و من المعلوم أنَّ ما وعده لم يقع بل نرى إستيلاء الكفر على الإسلام في زماننا هذا و هكذا كان بعد رسول الله فإنَّ الإسلام لم يظهر على الأديان كلِّها من أوَّل البعثة الى زماننا هذا و هذا ممَّا لا يخفى على أحدٍ و الرَّازي أيضاً اعترف بما ذكرناه من الإشكال إلَّا أنَّه عبَّر عنه بقوله فأن قيل، ثم أجاب عنه بوجوهٍ ضعيفة باطلة نشير الى وجهه ضعفها إجمالاً.

**أما الوجه الأول:** فضعفه بل بطلانه ظاهر لا يحتاج الى الجواب لأنَّ التَّاريخ يحكم بكذب ما قاله الرَّازي و كان على المستدل أن يذكر في إستدلاله و نقله

زماناً ظهر المسلمون على الكفار بحيث لم يبق من الكفار وأديانهم أثراً في وجه الأرض كما هو مقتضى الآية بدليل قوله: **كُلِّهِ** و مجرد غلبة المسلمين على اليهود أو النصارى في جزيرة العرب أو بعض البلاد مع أن الغلبة كانت على طائفة قليلة منهم لا على كل الكفار لا يسمى بغلبة الإسلام بقولٍ مطلق و ظهوره على الأديان كلها كما هو مفاد الآية و بعبارة أخرى المدعى ظهور الإسلام على جميع الأديان كلها بحيث لا يبقى كافر على وجه الأرض و هو لم يحصل قطعاً.

**أما الوجه الثاني:** و هو ما نقله عن أبي هريرة فيه أن الله تعالى وعد نبيه بذلك فقال: **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى** و لازم ذلك أن يكون الإظهار بتوسط النبي أو وصيه و خليفته الذي هو كنفس الرسول بحيث صَحَّ ما نسب إليه ما نسب الى الرسول و أما عيسى عليه السلام فهو رسول آخر و قد نسخ دينه بعد الإسلام فالقول بأن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم يظهر على الأديان بتوسط عيسى لا نفهم معناه.

و المفروض أن رسالة عيسى قد إنقضت مدته فلو ظهر أو نزل عيسى في آخر الزمان لا يكون إلا مطيعاً و تابعاً للإسلام متقاداً لوحي رسول رب العالمين الذي به يظهر الإسلام على الأديان كما دلَّت عليه أخبارنا المروية عن أئمة أهل البيت و يدل على ما ذكرناه أنه يصلي خلف القائم عليه السلام.

**أما الوجه الثالث:** فهو من أوهن الوجوه و أضعفها و ذلك لأن الآية تقول ليظهره على الدين كله و لا تقول في جزيرة العرب مع أنه أيضاً لم يحصل بشهادة التاريخ و العجب من قوله فإنه تعالى ما أبقى فيها أحد من الكفار بلغ وقوفه و إطلاعه على التاريخ بهذا المقدار و لم يعلم أن الكفار في عهد النبي و عهد الخلفاء بعده كانوا كثيرين و مع ذلك يقول أنه ما أبقى فيها أحد من الكفار فلا كلام لنا معه.

**أما الوجه الرابع:** وهو أن المراد أن يوقفه على جميع الشرائع ويطّلعها عليها فهو أيضاً خلاف ظاهر الآية لأنّ الوقوف والإطّلاع على جميع الأديان يرجع الى العلم بها وهو لا يعدّ ظهور الدّين ضرورة وجود الفرق بين العلم بالدّين وظهوره على الأديان وهو واضح.

**أما الوجه الخامس:** فلا يحتاج الى الجواب لأنّه أجاب عنه بنفسه وأما ذكره في آخر كلامه بقوله ويمكن أن يجاب عنه فهو كما ترى خارج عن مورد البحث فإنّ إظهار الدّين وغلّبه على جميع الأديان لا ربط له بوجود الشّبّهات وعدمه وكثرتها وقلتها.

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّه لا يمكن رفع الإشكال من الآية إلا بما ذكرناه تبعاً لأثار أهل البيت وقد أشرنا الى بعض ما ورد في الباب فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ تأويل الآية يحتاج الى ظهور القائم الذي يملأ الله الأرض به قسطاً وعدلاً كما ملأت ظلماً وجوراً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ  
هذا خطاب للمؤمنين يعلمهم الله تعالى أنّ كثيراً من أخبار اليهود وعلماهم وكثيراً من رهبان النصارى لياكلون أموال الناس بالباطل.

قال بعضهم أنّهم كانوا يأخذون الرّشا في الأحكام، ولا شكّ أنّه من أكل المال بالباطل، وقيل أنّهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم باسم الكنائس والبيع. وقيل أنّهم كانوا يملكون أموال الناس من الجهات التي يحرم منها أخذه وقيل غير ذلك والجامع بين الأقوال كلّها هو أخذ أموال الناس من غير طريق الشّرع وقد نهى الله تعالى في كلّ الأديان قال رسول الله لا يحلّ مال إمريء إلا بطيب نفسه.

قال الله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تَذُلُوا بِهَا إِلَى  
الْحُكَّامِ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**<sup>(٣)</sup>.

و الحاصل أنَّ أكل المال بالباطل ممنوع شرعاً و عقلاً و حيث أنَّ علماء اليهود و النَّصارى كانوا يأخذون أموال النَّاس بأنواع الحيل و الخدعة أو بعنوان الرِّشاء أو بغير ذلك من الوجوه المحرَّمة عيَّره الله في هذه الآية.

و أعلم المسلمين أيضاً بقبح ذلك و أنَّما خاطب المؤمنين بذلك مع أنَّ الأفعال صدرت من علماء اليهود و النَّصارى دون المسلمين لأنَّ حكم الأمثال واحد ففيه إشارة الى أنَّ المؤمن لو فعل ما فعله اليهود و النَّصارى من أكل أموال النَّاس بالباطل فهو مثلهم و حيث أنَّهم استحقَّوا التَّعيير بما فعلوه فأنتم أيُّها المؤمنون لو أكلتم أموال النَّاس بالباطل فأنتم مثلهم و هو كذلك لأنَّ الأصول في جميع الأديان محفوظة و هذا منها.

و أمَّا قوله: **يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ففيه إشارة الى أنَّ علماءهم قصدوا بذلك إضلال النَّاس و إنحرافهم عن طريق الحقِّ و ذلك لأنَّ العوام في جميع الأديان و المذاهب يتبعون علماءهم و ليس عقلٌ يميِّزون به الحقَّ عن الباطل كما إشتهر أنَّ العوام عقولهم في أعينهم لا في رؤسهم أي ليست لهم قدرة التَّفكر و لا سيِّما في أمور دينهم و إذا كان كذلك فالذَّنْب ثابت على العلماء أولاً و عليهم ثانياً فالعالم الفاسد يصدِّ عن سبيل الله من حيث لا يشعر قال رسول الله إذا فسد العالم فسد العالم، و الحقُّ أنَّ هذه الموعظة و التذكير من الله تعالى لم يؤثِّر في المسلمين فأنَّ علماءهم تابعوا اليهود و النَّصارى في

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠  
المجلد الثاني

أعمالهم الشنيعة وأكلهم أموال الناس بالباطل كأنهم لم يعلموا أن القرآن، من قبيل إياك أعني وأسمعي يا جارة، بمعنى أن الآيات الواردة في الكتاب وأن كانت في الظاهر في حق اليهود والنصارى ومثالهم إلا أن الغرض الأصلي من حكاية أحوالهم وأقوالهم هو أن نتعظ بها ولنعم ما قال أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال ما أكثر العبر وأقل الاعتبار ألا ترى أن الله تعالى أشار إلى هذه الدقيقة في كثير من الآيات، وأما قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أَلْخَ فَهُوَ حَكَمٌ آخر نهى الله تعالى عن كنز الأموال وهذا الحكم عام يشمل الكافر والمؤمن.

أَنْ قُلْتُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ نَهْيٌ وَإِنَّمَا الْأَخْبَارُ فَقَطْ.

قُلْتُ الْإِخْبَارُ هُنَا فِي قُوَّةِ النَّهْيِ حَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي آخِرِهِ: فَسَبِّسْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ فَكَأَنَّهُ قَالَ لَا تَكْنِزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَإِنَّ فِيهِ عَذَابَ أَلِيمٍ. قال الشيخ في التبيان معناه الذين يخبئون أموالهم من غير أن يخرجوا زكاتها لأنهم لو أخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين بلا خلاف. أقول وعلى ما ذكره الشيخ رحمه الله فالنهي والعذاب مختصان بما عنى الزكاة ولعل قوله: وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ الزَّكَاةُ لَوْجُوبُ هَذَا الْإِنْفَاقِ، وَأَمَّا أَنْ قُلْنَا أَنَّ الْمَرَادَ مَطْلُقُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ فَالْآيَةُ عَلَى الْعُمُومِ.

و قال كثير من العلماء الكنز هو المال الذي لا تؤدي زكاته وأن كان على وجه الأرض فأمّا المال المدفون إذا خرجت زكاته فليس بكنز.

قال رسول الله ﷺ كُلُّ مَا أُدِّيتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَقَالَ الْجَبَائِي وَغَيْرُهُ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ آيَةَ نَزَلَتْ فِي مَانَعِي الزَّكَاةَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، وَقَالَ قَوْمٌ نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ وَالْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ وَالَّذِي نَقُولُ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ الْمَالَ الَّذِي أَخْرَجَتْ زَكَاتُهُ لَا دَلِيلَ عَلَى حُرْمَةِ كَنْزِهِ فَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الْمَوْجُودُ فِي آيَةِ إِلَّا فِي مَوَارِدِ الضَّرُورَةِ وَالْإِضْطَرَّارِ كَمَا إِذَا فَرَضْنَا إِحْتِيَاجَ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي



عام القحط والشدة و هو خارج عن مورد البحث و إنما قلنا ذلك لأنَّ النَّاسَ مسلَّطون على أموالهم خرج عنه ما خرج بالدليل الشرعي و بقي ما بقي تحت الأصل.

أَن قُلْتُ روي في تفسير علي بن إبراهيم وغيره من الآثار المروية من طريق العامة والخاصة والحديث مشهور بين الفريقين أنَّ عثمان بن عفان سأل كعب الأحبار و قال له يا أبا إسحاق ما تقول في رجل أذى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء فقال لا، و لو إتخذ لبننة من ذهب و لبننة من فضة ما وجب عليه شيء فرفع أبوذر رضي الله عنه عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له يا بن اليهودية الكافرة ما أنت و النضر في أحكام المسلمين قول الله أصدق من قولك حيث قال: **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ.**

قُلْتُ أَمَا أَوَّلَ هذا الحديث و أن كان مشهوراً بين النَّاسِ إلاَّ أنَّه ربَّ شهرة لا أصل له إذ لم ينقل في موثق يعتمد عليه.

ثانياً: على فرض صحة سنده لا يكون حجة لأنَّ أباذر و أن كان من كبار الأصحاب و قد صدَّقه الرسول في أقواله إلاَّ أنَّه لم يكن من المعصومين ليكون فعله حجة لنا و عليه فما قاله أبوذر في جواب كعب الأحبار أو عثمان مربوط بشخصه.

ثالثاً: لعلَّ غرضه أنَّ عثمان كان عالماً بأنَّ أباذر أعلم و أصلح و أتقى من كعب الأحبار و أمثاله و هو كان حاضراً في المجلس و هو الذي أنكر على عثمان تصرفاته في أموال المسلمين و إنفاقها على أقربائه من بني أمية و منعه المسلمين عن حقوقهم المالية الموجودة في بيت المال و لما كان الأمر على هذا المنوال فسؤال عثمان عن كعب الأحبار في محضر أباذر و عثمان يعلم أنَّه أي كعب الأحبار لا يخالفه قطعاً لم يرد به إلاَّ تكذيب أباذر في أنظار المسلمين و أنَّ ما يفعله في أموال النَّاسِ مطابق للشرعية الحقَّة و لأجل ذلك أنكر أباذر على كعب الأحبار و هكذا من الإحتمالات التي أوجبت لنا أن نقول تلك قضية

شخصية وقعت في صدر الإسلام على فرض صحتها و الحاضر يرى ما لا يراه الغائب و كيف كانت فليست لنا بحجة و لا برهان هذا كله مع أنه لم يكن لعثمان مال و لا درهم و دينار و لا غيره و ما نقله أهل السنة في هذا الباب و أنه كان ممن أنفق أمواله في سبيل الله من الأكاذيب و إذا كان كذلك فغرضه من السؤال ما ذكرناه و مع ذلك كله فنحن نشير الى بعض ما ورد في الباب.

في آمال الشيخ رحمته الله عليه بأسناده لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: (كُلِّ مالٍ تَوَدَّى زَكَاتِهِ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَّ أَنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ وَّ كُلِّ مالٍ لَا تَوَدَّى زَكَاتِهِ فَهُوَ كَنْزٌ وَّ أَنْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ) إنتهى.

و في مجمع البيان - و روي عن علي عليه السلام (ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدها و ما دونها فهي نفقة فبشرهم بعذاب أليم) إنتهى.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ فَأَنْ اللَّهَ حَرَّمَ كَنْزَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ أَمَرَ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إنتهى.

و قال الطبري في تفسيره لهذه الآية، و اختلف أهل العلم في معنى الكنز فقال بعضهم هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته قالوا و عنى بقوله: وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لا يؤدّون زكاتها ثم ذكر بأسناده عن ابن عمر أنه قال كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز و أن كان مدفوناً و كل ما لم تؤد زكاته فهو كنز و إن لم يكن مدفوناً.

و بأسناده عن عكرمة قال، ما أدّيت زكاته فليس بكنز، و بأسناده عن السدي قال أما الذين يكنزون الذهب و الفضة فهؤلاء أهل القبلة و الكنز ما لم تؤد زكاته و أن كان على ظهر الأرض و أن قلّ، و أن كان كثيراً قد أدّيت زكاته

فليس بكنزٍ والأحاديث التي نقلها كثيرة ثم قال الطبري في آخر كلامه وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكر عن ابن عمر من أن كل مال أديت زكاته فليس بكنزٍ يحرم على صاحبه إكتنازه وأن كثروا أن كل مالٍ لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب مستحق وعيد الله إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وأن قل إنتهى موضع الحاجة منه.

**أقول** بعد التخصص التام فيما بأيدينا من التفسير لم نر مخالفاً في المسئلة بل جميع المفسرين من العامة والخاصة إتفقوا على ذلك و يظهر من كلام الرّازي التّرديد ونحن ننقل كلامه بعين ألفاظه و عباراته قال في الآية مسائل.

**المسئلة الأولى:** في قوله: **وَالَّذِينَ** احتمالات ثلاثة لأنه يحتمل أن يكون المراد بقوله: الَّذِينَ أولئك الأحرار والرهبان و يحتمل أن يكون المراد كلاماً مبتدأ على ما قال بعضهم المراد منه مانعوا الزكاة من المسلمين و يتحمل أن يكون المراد منه كل من كنز المال و لم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحرار و الرهبان أو كان من المسلمين فلا شك أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذه الوجوه الثلاثة و روي عن زيد بن وهب قال مررت بأبي ذر.

**فَقُلْتُ** يا أباذر ما أنزلك هذه البلاد فقال كُنْتُ بالشَّامِ فقرأتُ و الَّذِينَ يَكْنُزُونَ الدَّهَبَ و الْفِضَّةَ الآية فقال معاوية هذه الآية نزلت في أهل الكتاب فقلت أئها فيهم و فينا.

فصار ذلك سبباً للوحشة بيني وبينه فكتب الى عثمان أن أقبل إلي فلما قدمت المدينة إنحرف الناس عني كأنهم لم يروني من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لي تَنَحَّ قريباً فقلت أَنِّي و اللَّهُ لن أدع ما كنت أقول انتهى موضع الحاجة من كلامه ثم ساق الكلام الى أن قال.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ الْحَقَّ أَنَّ يَقَالَ الْأَوَّلَى أَنَّ لَا يَجْمَعُ الرَّجُلُ الطَّالِبَ لِلدِّينِ الْمَالِ الْكَثِيرَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ عَنْهُ فِي ظَاهِرِ الشَّرْعِ فَلِأَوَّلِ مَحْمُولٍ عَلَى التَّقْوَى وَ الثَّانِي عَلَى ظَاهِرِ الْفَتْوَى انْتَهَى وَ هُوَ مَتْنٌ جَدًّا.

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَنْفُسُكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ

يوم يُحْمَى، متعلق بقوله فبشّروهم بعذاب أليم في يوم يحمى عليها، معناه أنه يدخل الذهب والفضة في النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التي كنزوا فالهاء في قوله: عَلَيْهَا عائدة على الكنوز أو الفضّة، والإحماء جعل الشئ حاراً في الإحساس وهو فوق الإسخان وضده التبريد، والكَيّ الصّاق الشئ الحار بالعضو من البدن ومنه قولهم آخر الداء الكيّ، لفظ أمره كقطع العضو إذا عظم فساده قالوا ومعنى الآية أن الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حقّ الله منها وجنوبهم وظهورهم فيكون ذلك أشدّ لعذابهم وأعظم لخزيهم وقوله هذا ما كنزتم لأنفسكم أي أذخرتموه لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون أي فأطمعوا أجزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكّوات و الحقوق الواجبة في أموالكم وعلى ما ذكرناه في الآية السابقة ظهر لك تفسير هذه الآية أيضاً وأنها نزلت في حقّ مانعي الزكّوة وغيرها من الحقوق الواجبة وقد ورد في حديث طويل في كتاب من لا يحضره الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام حيث يذكر فيه الكبائر قال عليه السلام ومنع الزكاة المفروضة لأن الله عز وجل يقول : يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ واستدلال الإمام عليه السلام بها دليل على أنها نزلت في منع زكاة ماله وهو المطلوب.

و عن صحيح البخاري وصحيح مسلم، الوحيد الشديد لمانع الزكاة.



إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي  
 كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا  
 أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ  
 أَنْفُسَكُمْ وَفَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا  
 يُفَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ  
 (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا  
 لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ  
 زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا  
 قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى  
 الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا  
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا  
 تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا  
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ  
 يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
 سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ  
 كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ  
 الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللغة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِدَّةَ بَكْسَرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمَشْدَدَةِ مُصَدَّرٌ مِثْلُ الْعَدَدِ وَ الشُّهُورُ بِضَمِّ الشَّيْنِ جَمْعُ شَهْرٍ قِيلَ وَ هُوَ مَأْخُذٌ مِنْ شَهْرَةٍ أَمْرُهُ لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ وَ مُحَلٌّ دِيُونِهِمْ وَ حَجَّهْمُ وَ صَوْمُهُمْ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمُ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّرِيعَةِ.

كَأَفٍّ هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ كَفَّ الشَّيْ وَ هِيَ طَرَفُهُ وَ أَنْمَا أَخَذَ مِنْ أَنَّ الشَّيْ إِذَا أَنْتَهَى إِلَى ذَلِكَ كَفَّ عَنِ الزِّيَادَةِ وَ هِيَ لَا يَثْنَى وَلَا يَجْمَعُ. النَّسِيءُ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ وَ هُوَ مُصَدَّرٌ يَقَالُ نَسَأْتُ الْأَبْلَ فِي ظَمْنِهَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ وَ مَعْنَاهُ التَّأْخِيرُ.

لِيُؤَاظَمُوا الْمَوَاطَاةَ مُوَافَقَةً أَمْرُ التَّوَاطُعَةِ أَيْ لِيُؤَافَقُوا. أَنْفَرُوا أَمْرٌ مِنَ النَّفَرِ وَ هُوَ الْخُرُوجُ أَيْ أَخْرَجُوا. آثَاقَلْتُمْ التَّثَاقُلُ تَعَاطَى إِظْهَارُ ثَقُلِ النَّفْيِ وَ مِثْلُهُ التَّبَاطُيُ وَ ضَدُّهُ التَّسْرَعُ.

## ◀ الإعراب

عِدَّةَ الشُّهُورِ عِدَّةَ مُصَدَّرٌ مِثْلُ الْعَدَدِ وَعِنْدَ مَعْمُولٍ لَهُ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ صِفَةٌ لِأَثْنَيْ عَشَرَ وَ لَيْسَ بِمَعْمُولٍ لِعِدَّةٍ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْهُ لَا يَعْمَلُ فِيْمَا بَعْدَ الْخَبَرِ وَ يَوْمٌ خَلَقَ مَعْمُولٌ لِكِتَابٍ مِنْهَا أَرْبَعَةُ الْجُمْلَةِ صِفَةٌ لِأَثْنَيْ عَشَرَ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْ إِسْتِقْرَارٍ وَ أَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً مِنْهُنَّ ضَمِيرُ الْأَرْبَعَةِ إِثْنَيْ عَشَرَ كَأَفٍّ مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْمُشْرَكِينَ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي قَاتَلُوا إِنَّمَا النَّسِيءُ يُقْرَأُ بِهَمْزَةٍ بَعْدَ الْيَاءِ وَ هُوَ فَعِيلٌ مُصَدَّرٌ مِثْلُ التَّنْذِيرِ وَ التَّنْكِيرِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ أَنْمَا الْمَنْسُوءُ وَ قَدْ يُقْرَأُ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءٌ وَ يُقْرَأُ بِسُكُونِ الشَّيْنِ وَ هَمْزَةٌ بَعْدَهَا وَ هُوَ مُصَدَّرٌ نَسَأْتُ يُحْلُوهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْسَرًا لِلضَّلَالِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَوْضِعٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا آثَاقَلْتُمْ الْمَاضِي هُنَا بِمَعْنَى الْمُضَارِعِ أَيْ مَا لَكُمْ تَتَنَاقَلُونَ وَ مَوْضِعُهُ نَصَبُ أَيْ

أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِي التَّنَاقُلِ أَوْ فِي مَوْضِعٍ جَزَّ عَلَى رَأْيِ الْخَلِيلِ مِنْ الْآخِرَةِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ ثَانِيًا أَتَيْنِي هُوَ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ أَيْ أَحَدُ اثْنَيْنِ إِذَا هُمَا ظَرَفٌ لِنَصْرِهِ لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ إِذَا الْأُولَى إِذَا يَقُولُ بَدَلٌ أَيْضًا سَكَبَتْهُ هِيَ فِعْلَةٌ بِمَعْنَى فَعْلَةٌ أَيْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَا يَسْكُنُهُ كَلِمَةً اللَّهُ بِالزَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَهِيَ الْعُلْيَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَقَرِيٌّ بِالنَّصْبِ أَيْ وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللَّهِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا.

### ◀ التفسير

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِعلم أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا عِيشَ لَهَا إِلَّا مِنَ الْغَارَاتِ وَأَعْمَالِ سَلَامِهَا فَكَانَتْ إِذَا تَوَالَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْبَعَةُ الْحَرَمُ صَعِبَ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَقُوا وَكَانَ بَنُو فُقَيْمٍ مِنْ كِنَانَةَ أَهْلِ دِينَ وَتَمَسَّكُ بِشَرِّعِ إِبْرَاهِيمَ فَأَنْتَدَبَ مِنْهُمْ الْقَلَمْسُ وَهُوَ حَذِيفَةُ بْنُ عُبَيْدٍ بَنٍ مَقِيمٍ فَنَسَأَ الشُّهُورَ لِلْعَرَبِ ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُهُ عِبَادٌ ثُمَّ ابْنُهُ قَلْعٌ ثُمَّ ابْنُهُ أُمَيَّةٌ ثُمَّ ابْنُهُ عَوْفٌ ثُمَّ ابْنُهُ جَانِدَةُ بْنُ عَوْفٍ وَ عَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا فَرَّغَتْ مِنْ حَجَّهَا جَاءَ إِلَيْهِ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَقَالُوا أَنْسْنَا شَهْرًا أَيْ أَضْرَعْنَا حَرَمَةَ الْمُحَرَّمِ فَأَجْعَلْهَا فِي صَفَرٍ فَيَحِلُّ لَهُمُ الْمُحَرَّمُ فَيَغْيِرُونَ فِيهِ وَيَعِيشُونَ ثُمَّ يَلْزَمُونَ حَرَمَةَ صَفَرٍ لِيُؤَافِقُوا عِدَّةَ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ وَيَسْمُونَ ذَلِكَ الصَّفَرَ الْمُحَرَّمِ وَيَسْمُونَ رِبْعًا الْأَوَّلَ صَفْرًا وَرِبْعًا الْآخَرَ رِبْعًا الْأَوَّلَ وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الشُّهُورِ يَسْتَقْبِلُونَ نَسِيئَهُمْ فِي الْمُحَرَّمِ الْمَوْضُوعِ لَهُمْ فَيَسْقِطُ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي حَلَّ لَهُمْ وَتَجِي السَّنَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ شَهْرًا أَوَّلُهَا الْمُحَرَّمُ ثُمَّ الْمُحَرَّمُ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ صَفَرٌ ثُمَّ اسْتِقْبَالَ السَّنَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَالَ مُجَاهِدٌ ثُمَّ كَانُوا يَحْتَجُّونَ فِي كُلِّ عَامٍ شَهْرَيْنِ وَلَاءٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَبْدَلُونَ فَيَحْتَجُّونَ عَامَيْنِ وَلَاءٌ ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَتْ حَجَّةُ أَبِي بَكْرٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ حَقِيقَةً وَهُمْ يَسْمُونَهُ ذَا الْحَجَّةِ ثُمَّ حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ سَنَةَ عَشْرِ فِي ذِي الْحَجَّةِ

وَيَسْمُونَهُ ذَا الْحَجَّةِ

جزء ١٠  
المجلد الثاني

حقيقةً فذلك قوله ﷺ أَنَّ الزَّمانَ قد إستدار كهيئة يوم خلق الله السَّموات و الأرض السَّنة إثني عشر شهراً أربعة حرم ذو القعدة و ذى الحجة و المحرم و رجب هكذا قيل.

و أعلم أَنَّ مناسبة الآية لما قبلها هو أَنَّهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَّ فيها أنواعاً من قبائح أهل الشُّرك و أهل الكتاب ذكر في هذه الآية نوعاً آخر منه و هو تغيير العرب أحكام الله تعالى لأنَّهُ تعالى حكم في وقتٍ بحكم خَاصٍ فإذا غَيَّرُوا ذلك الوقت فقد غَيَّرُوا حكم الله و الشُّهور جمع كثرة لَمَّا كانت أَزيد من عشرة بخلاف الاشهر في قوله: **أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ** حيث جاء بلفظ جمع القلَّة و المعنى شهور السَّنة القمريَّة لأنَّهم كانوا يُورِّخون بالسَّنة القمرية لا شمسيَّة توارثوه عن إسماعيل و إبراهيم و معنى، عند الله، أي في حكمه، و قال الرازي في تفسيره.

**إِعلم** أَنَّ السَّنة عند العرب كانت عبارة عن إثني عشر شهراً من الشُّهور القمريَّة و الدليل عليه هذه الآية و أيضاً:

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَ النَّجْمِ** (١).

فجعل تقدير القمر بالمنازل علَّةً لِلَّيْلِ و الحساب و ذلك أَنَّمَا يَصَحُّ إذا كانت السَّنة معلَّقة بسير القمر و أيضاً:

قال الله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ** (٢).

و كانت السَّنة عند سائر الطوائف عبارة عن المدة الَّتِي تدور الشَّمس فيها دورة تامة و السَّنة القمريَّة أَقلُّ من السَّنة الشمسية بمقدارٍ معلوم و بسبب ذلك النِّقصان تنتقل الشُّهور القمرية من فصلٍ الى فصلٍ فيكون الحجُّ واقعاً في الشَّتاء مرَّة و في الصيف أخرى و كان يشقُّ الأمر عليهم بهذا السبب و أيضاً إذا



حَضَرُوا الْحَجَّ حَضَرُوا لِلتَّجَارَةِ فَرِيْمَا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِحَضُورِ التَّجَارِ  
مِنَ الْأَطْرَافِ فَهَذَا السَّبَبُ أَقْدَمُوا عَلَى عَمَلِ الْكِبِيْسَةِ عَلَى مَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي  
عِلْمِ الزِّيَجَاتِ وَاعْتَبَرُوا السَّنَةَ الشَّمْسِيَّةَ وَعِنْدَ ذَلِكَ بَقِيَ زَمَانُ الْحَجِّ مُخْتَصَّاً  
بِوَقْتٍ وَاحِدٍ مُعَيَّنٍ مُوَافِقٍ لِمَصْلَحَتِهِمْ فَهَذَا النَّسِيءُ وَإِنْ كَانَ سَبَباً لِحُصُولِ  
الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ لَزِمَ مِنْهُ تَغْيِيرُ حُكْمِ اللَّهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا خَصَّ الْحَجَّ  
بِأَشْهُرٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى الْيَقِيْنِ وَكَانَ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّسِيءِ يَقَعُ فِي سَائِرِ الشُّهُورِ تَغْيِيرُ  
حُكْمِ اللَّهِ وَتَكْلِيْفُهُ فَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ لِرْعَايَةِ مَصَالِحِهِمْ فِي الدُّنْيَا سَعَوْا فِي تَغْيِيرِ  
أَحْكَامِ اللَّهِ وَلِهَذَا اسْتَوْجَبُوا الذَّمَّ الْعَظِيْمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ هَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَقَامِ وَيُظْهَرُ مِنْهُ أَنَّهُمْ غَيَّرُوا السَّنَةَ وَالشُّهُورَ لِأَجْلِ  
مَنَافِعِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا** أَنَّهُمْ  
جَعَلُوهَا أَكْثَرَ مِنْهَا وَلِذَلِكَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّ السَّنَةَ  
الشَّمْسِيَّةَ كَانَتْ أَزِيدُ مِنَ السَّنَةِ الْقَمَرِيَّةِ فَجَمَعُوا تِلْكَ الزِّيَادَةَ فَإِذَا بَلَغَ مَقْدَارُهَا  
الْحَيَّ شَهْرًا جَعَلُوا تِلْكَ السَّنَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا فَأَنكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: **إِنَّ عِدَّةَ  
الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ.**

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ أَحْوَالُ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْرَافِهَا  
وَهُوَ الْأَصْلُ الْكُتُبِ الَّذِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ.  
وَقِيلَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنَ، وَقِيلَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَيَّ فِيمَا أَوْجَبَهُ وَ  
حُكْمَ بِهِ فَالْكِتَابُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْحُكْمُ وَالْإِجَابُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ** <sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِضَاصُ** <sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ** <sup>(٣)</sup> وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد العاشر

و المشهور بين المفسرين هو القول الأول.

و أما قول من قال أن المراد به الحكم فهو بعيد عن مساق الكلام مضافاً الى أنه مستلزم للمجاز و في قوله: **يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** إشارة الى مبدء خلق العالم أي من أول الأمر كان كذا ثم أن الشهور القمرية شرعوها من المحرم و ختامها ذو الحجة، و هكذا، محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادي الأول، جمادي الثاني، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

و أما قوله: **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** فهي رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم قيل المراد بالدين القيم هو القضاء المستقيم، و قيل العدد الصحيح، و قيل الشرع القويم إذ هو دين إبراهيم.

و قيل الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسبي. و قيل معناه ذلك الدين هو الدين القيم، و قال بعضهم الدين القيم الذي لا يبدل و لا يغير فالقيم هاهنا بمعنى القائم بالحق الذي لا يزول و هو الدين الذي فطر الناس عليه، **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** الفاء للتفريع أي إذا كان الدين القيم هو هذا فلا تظلموا فيهن، أي في الأشهر الحرم أو في الشهور الأثني عشر أنفسكم و المقصود لا تعصوا الله فيهن، أي في السنة و لا سيما في الأشهر الحرم و في قوله: **أَنْفُسَكُمْ** إشارة الى أن تبعات الظلم ترجع اليكم لا الى الله تعالى و أظن أن قوله: **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ** معناه المنع من القتال فيهن و أن كان ترك جميع المعاصي أولى **و قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً و أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** أمرهم الله بقتال المشركين كافة، أي جميعاً و فيه قولان:

أحدهما: أن يكون المراد قاتلوهم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم بهذه الصفة.

الثاني: قال ابن عباس قاتلوهم بكتلتهم ولا تجادلوا بعضهم بترك القتال كما أنهم يستحلون قتال جميعكم وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ لمعاصيهم يؤدي الى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان أو محل لأنه تعالى لا يجوز عليه ذلك فهو من قبيل قوله: هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ<sup>(١)</sup> فالمعية معية العناية والولاية.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ غَامًا قد ذكرنا وجوه القراءة في النسئ عند شرح اللغات والإعراب صدر الآية بكلمة، أنما، التي تفيد الحصر فقال أنما النسئ أي التأخير زيادة في الكفر والمراد بالتأخير تأخير حرمة شهر الى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ما أحل الله ويحلون ما حرم الله المعلوم أن نفس تأخير الشهر ليس زيادة في الكفر وأنما الزيادة في تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة.

قال أنهم كانوا قد وكلوا قوماً من بني كنانة يقال لهم بنوا فقيم و كانوا يؤخرون المحرم وذلك نساء الشهور لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعات العرب للموسم فينادي مناد أن افعلوا ذلك لحاجة أو الحرب وليس كل سنة يفعلون ذلك فأن أرادوا أن يحلّلوا المحرم نادوا هذا صفر وأن المحرم الأكبر صفر وربما جعلوا صفرًا محرمًا مع ذي القعدة حتى يذهب الناس الى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك و كانوا يسمّون المحرم صفرًا و يقدمون صفرًا سنة و يؤخرونه.

وقال أبو علي كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهراً ومحصل الكلام هو أن النسئ المنهي عنه في الآية هو تأخير الأشهر الحرم عما رتبها الله وكانوا في الجاهلية يعملون ذلك وكان الحج يقع في غير وقته وإعتقاد حرمة الشهر في

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

غير أوانه ولذلك بَيَّنَّ الله تعالى أنَّ ذلك زيادة في الكُفْر والى هذا المعنى أشير بقوله: **يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ أَيِ الْحَجِّ عَاماً** و يحرمونه كذلك و من المعلوم أنَّ هذا يوجب الإضلال هذا بناءً على قراءة، **يُضِلُّ**، في الآية الشريفة بضمَّ الباء كما هو المشهور و عليه المصاحف فعلاً و أما على قراءة الفتح فالمعنى أنَّهم سبب النَّسي يضلُّون عن طريق الحقِّ و المآل واحد لأنَّ المضلَّ لغيره فهو ضالٌّ في نفسه فحاصل المعنى أنَّ الكفار أقدموا على ضلالتهم و ضلالة غيرهم بسبب النَّسي لأنَّه أوجب تحريم الحلال و تحليل الحرام و ما يلزم منه الكفر فهو كُفْر في نفسه و أنما فعلوا ذلك ليوافقوا عدَّة ما حرَّم الله كما قال تعالى: **لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ**. روي أنَّ رجلاً من كنانة يقال له أبو ثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحجِّ أنَّ ألَّهتكم قد أقسمت لنحرِّمن و ربما قال لتحلَّن هذا الشهر يعني المحرَّم فيحلُّونه و يحرمون صفاً و أن حرِّموا أحلُّوا صفاً و كانوا يسمُّونهما الصَّفرين فهذا إضلال من هذا المنادي زَيْنَ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ و المزيِّن لهم هو أنفسهم و الشيطان و التزيين يكون بمعنى الفعل له و يكون بمعنى تقبُّل الطَّبع و أنما سمِّي إنساءهم زيادة في الكفر لأنَّهم كانوا يعتقدون صِحَّتَه فلذلك كان كُفْراً.

و قوله: **وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** معناه أنَّه لا يهديهم الى طريق الجنة أو أنَّه تعالى بكل الكفار الذين لا يتبعون الحقَّ الى أنفسهم و أنما قلنا ذلك لأنَّ الله تعالى يهدي الكلَّ قال تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً<sup>(١)</sup>**.

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلَّتْكُمْ إِلَى الْأَرْضِ**

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين الذين تقاعدوا عن الجهاد في سبيل الله فقال لهم ما لكم، أي أي شيء لكم و ما الذي صار سبباً لهذا التقاعد و التناقل عن الجهاد.

**أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**

قيل في وجه ذلك لما أمر الله رسوله بغزاة تبوك و كان زمان جذب و حري شديد و قد طابت الثمار عظم ذلك على الناس و أحبوا المقام فنزلت الآية عتاباً لمن تخلف على هذه الغزوة و كانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام غزاً فيها الرّوم في عشرين ألفاً من راکب و راجل و تخلف عنه قبائل من الناس و رجال من المؤمنين كثير و منافقون و خصّ الثلاثة بالعتاب الشديد بحسب مكانهم من الصّحبة إذ هم من أهل بدر و ممّن يقتدي بهم و كان تخلفهم لغير علة و لما شرح معاتب الكفار رغب في مقابلتهم وقوله: **وَمَا لَكُمْ إِسْتِفْهَامَ** معناه الإنكار و التّقرّيع.

و قوله: **قِيلَ الْقَائِلُ هُوَ الرَّسُولُ لَمْ يَذْكُرْ إِغْلَظاً وَ مَخَاشَنَةً لَهُمْ وَ صَوْناً لَذِكْرِهِ** و أمّا الإستفهام في قوله: **أَرْضَيْتُمْ** فهو أيضاً نوع من الإنكار و التّعجب أي أرضيتم بالتّعيم العاجل في الدّنيا بدل النّعيم الأجل الباقي في الآخرة فقوله: **مِنَ الْآخِرَةِ** أي بدل الآخرة لإجماع المفسرين على أنّها بمعنى بدل في هذا المقام و ذلك كقوله: **لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ فُلَّانًا** (١) أي بدلاً منكم و منه قول الشّاعر:

فليست لنا من ماء زمزم شربة  
أي بدلاً من ماء زمزم و أمّا أنّ متاع الحياة الدّنيا بالنّسبة الى الآخرة قليل فلا شكّ فيه لمن له عقل و ذلك لوجوه:

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

**أحدها:** أَنَّ متاع الدُّنْيَا وحياتها فانية و حياة الآخرة و متاعها باقية المعلوم أَنَّ الباقي خير من الفاني و الدَّائم من الزَّائل.

**الثاني:** أَنَّ الدُّنْيَا و ما فيها من النِّعم محفوفة بالألام الجسمانيَّة و الرُّوحانيَّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام الدُّنْيَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَبِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ الخ. و هذا بخلاف الآخرة فَأَنْتَاهَا مشحونة بالسُّرور و الصَّحَّة و ليس هناك بلاء مرض و لا شَكُّ أَنَّ الحياة إذا كانت مصونة عن البلايا و الآلام فهي خير من الحياة المحفوفة بها.

**الثالث:** أَنَّ متاع الحياة الدُّنْيَا حَسْبِيَّ و متاع الآخرة عقلي و ذلك لأنَّ الإنتفاع بالدُّنْيَا يظهر بالحواس.

و أمَّا متاع الآخرة يظهر للعقل و الإدراك العقلي خير من الحسِّي. **الرابع:** أَنَّ الدُّنْيَا و ما فيها من النِّعم لا تختصُّ بالمؤمن بل حظُّ الكافر فيها منها أكثر و أوفر من حظُّ المؤمن منها و هو دليلٌ على ذنابها و رداءتها بخلاف الآخرة إذ لا نصيب للكافر من نعمها و لذاتها إلاَّ العذاب.

و من المعلوم أَنَّ الله تعالى يحبُّ المؤمن و يبغض الكافر فلو كانت الدُّنْيَا و نعمها و لذاتها تزن عند الله بقدر جناح بعوضة لما سقى منها الكافر شربة ماء و حيث نرى الأمر بالعكس نستكشف منه أَنَّهُ لا قيمة لها عنده.

و أمَّا الآخرة فقد جعلها الله لأوليائه الصَّالحين الَّذِينَ يَحِبُّهُمْ و يَحِبُّونَهُ و أين هذا من ذاك.

إِلَّا تَتُفَرِّوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

لَمَّا و بخهم في الآية السابقة على التَّناقل و التَّقاعد عن الجهاد في سبيل الله حذرهم في هذا الآية و قال: **إِلَّا تَتُفَرِّوْا يُعَذِّبْكُمْ** الله عذاباً أليماً أي مؤلماً و هذا سخطٌ من الله عليهم أو عدهم بعذابٍ مطلق يتناول عذاب الدَّارين و أَنَّهُ

يهلكهم و يستبدل قوماً آخرين خيراً منهم و أطوع و أنه غنّي عنهم في نصره دينه لا يقدح ثناقلهم فيها شيئاً واللّه قادر على ذلك أي على إهلاكهم و إستبدال قومٍ آخر و على نصره دينه بأحسن وجهٍ و الضمير في قوله: لَا تَضُرُّوهُ يرجع إلى الله لأنّه غنّي بنفسه عن جميع الأشياء و يتحمل رجوعه إلى النبي لأنّ الله عصمه من جميع الناس و الأوّل أحسن.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمْنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ وَ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ.

قال الله تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً<sup>(٣)</sup>.

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

هذا أيضاً خطاب للمتأقلين عن الجهاد و نصره النبي فأنّه تعالى بعد التوبيخ و الإبعاد خاطبهم بذلك و قال لهم إن لا تنصروا النبي فقد نصره الله الخ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

٢- آل عمران = ١٧٦

١- آل عمران = ١٤٤

٣- المائدة = ٤٢

و في الآية مسائل لابد لنا من البحث فيها فأنها معركة الأراء بين العامة و الخاصة لمسألة الغار و حيث أنهم لم يجدوا لأبي بكر في الإسلام فضيلة إلا مسألة الغار مع أنها أيضاً ليست فضيلة فقالوا فيها ما قالوا.

**المسألة الأولى:** قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** فيه إشارة الى أن الله تعالى قد نصر أنبياءه في جميع الموارد و ذلك لأن الله تعالى بعثهم الى خلقه و أكثر الخلق كانوا من أعداء الأنبياء و ما أمن معهم إلا قليل فلولا نصره الله إياهم لم يقدروا على إعلاء كلمة التوحيد و هذا أمر لا يحتاج الى الإثبات لوضوحه و منهم نبي الإسلام و هو أكملهم و أشرفهم و أفضلهم لكونه خاتم الأنبياء و سيد المرسلين و العلة الغائية لجميع الخلق الذي بدينه نسخت الأديان و بأحكام شريعته بطلت الأحكام في جميع الأديان و لذلك قال: **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (١) فهو **رَبُّكَ** أولى، بالنصرة من الله من غيره لأن دينه يبقى الى يوم القيامة و الى هذا المعنى أشار بقوله: **لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ** و فيه أن وفاة خديجة كانت بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام و قيل بعد شهر فتتابعت على رسول الله المصائب بموت خديجة و أبي طالب.

روي عن عبد الله بن ثعلبة قال لما توفي أبو طالب و خديجة اجتمعت على رسول الله مصيبتان فلزم بيته و أقبل الخروج و نالت منه قريش ما لم تكن تنال و لا تطمع فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه و قال يا محمد إمض لما أردت و ما كنت صانعاً اذا كان أبو طالب حياً فأصنعه لا واللات لا يوصل اليك حتى أموت هذه السنة خرج الى الطائف و معه زيد بن حارثة و ذلك في ليال بقرين من شوال سنة عشر من النبوة فأقام بها عشرة أيام فأذوه و رموه بالحجارة فانصرف الى مكة.



و روي أنه لما أنصرف من الطائف عمد الى ظل حبله من عنب فجلس فيه و قال اللهم أني أشكو اليك ضعف قوتي و قلة حيلتي و هواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين و أنت ربّي الى من تكلمي الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي و لكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات و صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لكن لك العتبى حتى ترضى و لا قوة إلا بك.

و لما دخل مكة كان يقف بالموسم على القبائل فيقول يا بني فلان أني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و كان خلفه أبو لهب يقول لا تطيعوه.

و في سنة إحدى عشرة من نبوته كان بدو إسلام الأنصار روي أن رسول الله خرج في الموسم يعرض نفسه على القبائل كما هو كان دأبه بعد ما أمر بإظهار الإسلام فيينا هو في العقبة إذ لقي رهطاً من الخزرج فقال ﷺ من أنتم فقالوا من الخزرج قال ﷺ أفلا تجلسون أكلّمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الإسلام و تلى عليهم القرآن و كان أولئك يسمعون من اليهود أنه قد أظّل زمان نبي يبعث فلما كلمهم قال بضعهم لبعض واللّه أنه للنبي الذي يعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه و أنصرفوا راجعين الى بلادهم و قد آمنوا و كانوا ستة أنفس أسعد بن زرارة، و عون بن الحرث و رافع بن مالك بن عجلان و قطبة بن عامر بن حديدة و عقبة بن عامر و جابر بن عبد الله فلما قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم رسول الله و دعوهم الى الإسلام حتى فشى دينهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا و فيها ذكر رسول الله.

و في سنة اثنتي عشرة من نبوته كان المعراج و في هذه السنة كانت بيعة عقبة الأولى و ذلك أن رسول الله خرج الى الموسم و قد قدم من الأنصار اثني عشر رجلاً فلقوه بالعقبة و هي العقبة الأولى فبايعهم رسول الله.

و في سنة ثلاثة عشرة كانت بيعة العقبة الثانية و ذلك أن رسول الله خرج الى الموسم فلقبه جماعة من الأنصار فواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق و كانوا سبعين رجلاً و معهم، إمرأتان من نساءهم نسيية بنت كعب أم عمار و أسماء بنت عمرو بن عددي قال كعب بن مالك فبايعنا و جعل علينا رسول الله إثني عشر نقيباً منّا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس ثم أمر رسول الله أصحابه بالخروج الى المدينة و أقام هو بمكة ينتظر أن يؤذن له قال في المتنفى كانت الهجرة سنة أربع عشرة من المبعث و هي سنة أربع و ثلاثين من ملك كسرى پرويز و سنة تسع لهرقل و أول هذه السنة المحرم و كان رسول الله مقيماً بمكة لم يخرج منها و قد كان جماعة خرجوا في ذي الحجة و قال محمد بن كعب القرطبي إجتمع قریش على بابه و قالوا أن محمداً يزعم لكم أن بايعتموه كنتم ملوك العرب و العجم ثم بعثتم بعد موتكم فجعل لكم جنان كجنان الأرض وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذبح ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون بها فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب ثم قال ﷺ نعم أنا أقول ذلك فثر التراب على رؤسهم و هو يقرأ يس، الى قوله: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ<sup>(١)</sup> فلم يبق منهم رجل وضع على رأسه التراب إلا قتل يوم بدر ثم أنصرف الى حيث أراد فأتاهم آت فقال ما تنتظرون هاهنا قالوا محمداً قال و الله قد خرج محمد عليكم ثم ما ترك رجلاً إلا و قد وضع على رأسه التراب و أنطلق لحاجته فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب ثم جعلوا يطيعون فأرأوا علياً على الفراش متشحاً ببرد رسول الله فيقولون أن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي من الفراش فقالوا والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا به.

و روي الواقدي و هو من أعيان العامة عن أشياخه أنّ الذين كانوا ينتظرون رسول الله تلك الليلة من المشركين، أبو جهل، و الحكم بن أبي العاص، و عقبة ابن أبي معيط، و النضر بن الحرث و أمية بن خلف و ابن الغيطلة و زمعة بن الأسود و طعمة بن عدي و أبولهب و أبي بن خلف و بني و منبه ابنا الحجاج فلما أصبحوا قام عليّ من الفراش فسأله عن رسول الله فقال لا علم لي به.

و روي أنهم ضربوا علياً و حبسوه ساعة ثم تركوه.

و أورد الغزالي في كتاب إحياء العلوم و هو من أكابر العامة و هو الذي سمّي بحجة الإسلام عندهم قال أنّ الليلة التي بات عليّ على فراش رسول الله أوحى الله تعالى الى جبرئيل و ميكائيل إنّي أخيت بينكما و جعلت عُمر أحكما أطول من عمر الآخر فأيتكما يؤثر صاحبه بحياته فإختار كل منهما الحياة و أحباها فاوحى الله تعالى اليهما أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب أخيت بينه و بين محمد فبات عليّ <sup>عليه السلام</sup> علي فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة إهبطا الى الأرض فأحفظاه من عدوه فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجله و جبرئيل ينادي بخّ بخّ من مثلك يا بن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله عزّ وجلّ: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ** <sup>(١)</sup>.

**أقول** و ساق حديث الغار الى أن قال كان رسول الله حين أتى الغار دعا الشجرة فأنته فأمرها أن تكون على باب الغار و بعث الله حمامتين فكانتا على فم الغار و نسج العنكبوت على فم الغار ثم أقبل فتيان قريش و كان أبو جهل قد أمر منادياً ينادي بأعلى مكة و أسفلها من جاء بمحمد أو دلّ عليه فله مائة بعير أو جاء يابن أبي قحافة أو دلّ عليه فله مائة بعير فلما رأوا الحمامتين و نسج العنكبوت على فم الغار إنصرفوا.

في تفسير القرآن



الجلد الثاني

و روي أرباب السُّير أنه اجتمعت قريش في دار الندوة و كان لا يدخلها إلا من أتى عليه أربعون سنة فأدخلوا فيها أربعين رجلاً من مشايخ قريش و جاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البَّواب من أنت قال أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مني رأي صائب أني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فخبثت لأشير عليكم فقال أدخل فدخل إبليس فلما أخذوا مجلسهم قال أبوجهل يا مشعر قريش أنه لم يكن أحد من العرب أعزَّ منَّا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرَّتين و يكرمونا و نحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتَّى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنا نسَميه الأمين لصلاحه و سكونه و صدق لهجته حتَّى اذا بلغ ما بلغ و أكرمناه.

إدعى أنه رسول الله و أن أخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا و سبَّ ألهتنا و أفسد شبَّاننا و فرَّق جماعتنا و زعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا و قد رأيت فيه رأياً قالوا و ما رأيت قال رأيت أن ندسَّ إليه رجلاً منَّا ليقته فأن طلب بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات فقال الخبيث هذا رأيي خبيث قالوا و كيف ذاك قال لأنَّ قاتل محمد مقتول لا محالة فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم فأنه اذا قتل محمد تعصبت بنو هاشم و حلفاءهم من خزاعة و أن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الأرض فيقع بينكم الحروب في حرمكم و تتفاوتوا.

فقال آخر منهم فعندي رأيي آخر قال و ما هو قال نلقيه في بيت و نلقي إليه قوته حتَّى يأتي عليه رب المنون فيموت كما مات زهير والتَّابغة و إمرو القيس فقال إبليس هذا أخبث من الآخر قال و كيف ذاك قال لأنَّ بني هاشم لا ترضى بذلك فاذا جاء موسم العرب إستغاثوا بهم و اجتمعوا عليكم فأخرجوه.

قال آخر منهم و لكنَّا نخرجه من بلادنا و نتفرغ نحن لعبادة ألهتنا قال إبليس هذا أخبث من الرَّاين المتقدِّمين قالوا و كيف.

قال لأنكم تعمدون الى أصبح الناس وجهاً و أنطق الناس لساناً و أفصحهم لهجةً فتحملوه الى بوادي العرب فيخذعهم و يسحرهم بلسانه فلا يفجأكم إلا و قد ملأها عليكم خيلاً و رجلاً فبقوا حائرين.

ثم قالوا لإبليس فما الرأي يا شيخ قال ما فيه إلا رأيي واحد قالوا و ما هو قال يجتمع من كل بطن من بطون قريش و قبائل العرب ما أمكن و يكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكينه أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه و قد شاركوه فيه فأن سألوكم أن تعطوهم الدية فأعطوهم ثلث ديات فقالوا نعم و عشر ديات ثم قالوا الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه و دخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي فنزل جبرئيل على رسول الله و أخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك و قال له جبرئيل خذ على طريق ثور و هو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار و كان من أمره ﷺ ما كان فلما أصبحت قريش و ثبوا الى الحجرة و قصدوا الفراش فوثب علي في وجوههم و قال ما شأنكم قالوا له أين محمد قال أجعلتموني عليه رقيباً أستم قلتم نخرجه من بلادنا فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي لهب يعيرونه و يقولون أنت تحدعنا منذ الليلة فتفرقوا في الجبال و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الأثار.

فقالوا يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول الله فقال هذه قدم محمد والله لأنها لأخت القدم التي في المقام و كان أبو بكر إستقبل رسول الله فقال أبوكرز و هذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثم قال و هاهنا غير ابن أبي قحافة فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال ما جوازوا هذا المكان إما أن يكونوا صعدوا الى السماء أو دخلوا تحت الأرض و بعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار.

ثم قال ما في الغار أحد فتفرقوا في الشّعاب وصرّفهم الله عن رسوله ثمّ أذن لنبيّه في الهجرة.

وعن أنس ابن مالك قال لما توجه رسول الله الى الغار ومعه أبو بكر أمر النبي علياً أن ينام على فراشه ويتّغشى ببردته فبات عليّ عليه السلام موطئاً نفسه على القتل وجاءت رجال قريش من بطونها يريدون قتل رسول الله فلمّا أرادوا أن يضعوا عليه أسياهم لا يشكون أنّه محمّد فقالوا أيقظوه ليجد ألم القتل و يرى السيوف مأخذه فلمّا أيقظوه وأوه علياً تركوه وتفرّقوا في طلب رسول الله فأنزّل الله عزّ وجلّ: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** <sup>(١)</sup>.

روي عن مجاهد أنّه قال فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله في الغار فقال لها عبد الله بن شدّاد بن الهاد وأين أنت من عليّ بن أبي طالب حيث نام في مكانه وهو يرى أنّه يُقتل فسكتت ولم تحر جواباً انتهى.

**أَقُولُ** إذا عرفت هذا فقد ظهر لك تفسير قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** وعلمت أنّ الكفار كيف اجتمعوا على قتله صلى الله عليه وآله وسلم وأنما ذكرنا قصّة الغار بتفصيلها بطرق مختلفة لئلا تحتاج الى مراجعة التواريخ وكتب السّير فهذا الذي ذكرناه من مصاحبة أبي بكر لرسول الله ونوم عليّ عليه السلام على فراشه ممّا اتّفق عليه جميع المؤرّخين وأرباب السّير والمفسّرين ولم يختلف فيه أحد أنما الاختلاف بين العامة والخاصّة في أنّ النّوم على فراش رسول الله أفضل أو مصاحبته في الغار.

وقد أطنب الكلام في الباب بعض علماء العامة من مؤرّخيههم ومفسّريهم على أنّ أبا بكر أفضل من عليّ لكونه من أصحاب الغار وقد قال الله تعالى: **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**

و حيث أنَّ الموضوع له ربطٌ بمسألة الإمامة و الآية معركة الأراء بين الباحثين و بها أوقعوا الشُّبه في أذهان العوام و ذلك لأنهم لم يجدوا بعد الفحص الكامل في التواريخ و السِّير و كتب الأخبار فضيلةً لأبي بكر الذي قالوا فيه أنَّه خليفة رسول الله حقاً فلا جرم تمسكوا بهذه الآية و جعلوا كونه في الغار مع النَّبي فضيلة له بل من رؤوس الفضائل فلا بد لنا من التكلُّم في الآية إجمالاً و أن كان خارجاً عن موضوع كتابنا و ذلك لأنَّ الدِّفاع عن حريم العترة كالِدِّفاع عن حريم الكتاب لكون العترة عدلاً له قال رسول الله أنِّي تارك فيكم الثَّقَلين كتاب الله و عِترتي أهل بيتي.

فنقول مستعيناً بالله و متوكلاً عليه قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

**السادسة:** قوله تعالى **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** هذه الآية تضمَّنت فضائل الصِّديق عليه السلام.

روي أصبغ و أبو زيد عن أبي القاسم عن مالك ثانياً **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** هو الصِّديق فحقَّق الله تعالى قوله له بكلامه و وصف الصُّحبة في كتابه.

قال بعض العلماء من أنكر أن يكون عمر و عثمان أو أحد من الصَّحابة صاحب رسول الله فهو كذابٌ مبتدع و من أنكر أن يكون أبو بكر عليه السلام صاحب رسول الله فهو كافر لأنَّه ردَّ نصَّ القرآن و معنى، أنَّ الله معنا، أي بالنَّص و الرِّعاية و الحفظ و الكلاءة.

روي التَّرمذي و الحارث ابن أبي أسامة قالَا حَدَّثَنَا عَفَّانُ قَالَ حَدَّثَنَا هُمَامُ قَالَ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ قَالَ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمِيهِ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا

قال المجاسي يعني معهما بالنصر والدفاع لا على معنى ما عمَّ به الخلائق فقال ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. فمعناه العموم أنه يسمع و يرى من الكفار والمؤمنين.

**السابعة:** قال ابن العربي قالت الإمامية قبحها الله حزن أبي بكر في الغار دليل على جهله ونقصه وضعف قلبه وخرقه.

و أجاب علماءنا عن ذلك بأن إضافة الحزن اليه ليس بنقص كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه:

نَكِرْهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ<sup>(١)</sup>.

و لم ينقص موسى قوله:

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَا لَا تَحْزَنْ<sup>(٢)</sup>.

و في لوط:

و لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَ أَهْلَكَ<sup>(٣)</sup>.

فهؤلاء العظماء عليهم السلام قد وجدت عندهم التقية نصاً و لم يكن ذلك طعناً عليهم و وصفاً لهم من نقص ثم هي عند الصديق احتمال فإنه قال لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

جواب ثان: إن حزن الصديق إنما كان خوفاً على النبي ﷺ أن يصل اليه ضرر و لم يكن النبي في ذلك الوقت معصوماً و إنما نزل عليه وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ<sup>(٤)</sup> بالمدينة انتهى.

**الثامنة:** قال ابن العربي قال لنا أبو الفضائل العدل قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى عليه السلام كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ<sup>(٥)</sup> و قال في محمد لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا لاجرم لما كان الله مع موسى وحده إرتد أصحابه بعده

٢- طه = ٦٧/٦٨

٤- المائدة = ٦٧

١- هود = ٧٠

٣- العنكبوت = ٣٣

٥- الشعراء = ٦٢



فرجع من عند ربّه ووجدهم يعبدون العجل ولما قال في محمّد ولا تحزن أنّ الله معنا، بقى أبو بكر مهتدياً موحّداً عالماً جازماً قائماً بالأمر ولم يتطرّق اليه إحتلال.

**التاسعة:** خرج الترمذي من حديث نبيط بن شريط عن سالم بن عبيد له صحبة، قال أغمي على رسول الله، الحديث.

وفيه واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا إنطلقوا بنا الى أخواننا من الأنصار ندخلهم في هذا الأمر معنا فقالت الأنصار منّا أمير ومنكم أمير فقال عمر، من له مثل هذه الثلاث، **ثَانِي أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.**

من هما قال ثمّ بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعةً حسنةً جميلةً. **قُلْتُ** ولهذا قال بعض العلماء في قوله: **ثَانِي أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ما يدلّ على أنّ الخليفة بعد النّبي ﷺ أبو بكر الصّديق لأنّ الخليفة لا يكون أبداً إلاّ ثانياً وسمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول إنّما استحقّ الصّديق أن يقال له ثاني إثنين لقيامه بعد النّبي بالأمر لقيام النّبي به أولاً لأنّ النّبي لمّا مات إرتدت العرب كلّها ولم يبق الإسلام إلاّ بالمدينة ومكة وجوatha، فقام أبو بكر يدعو النّاس الى الإسلام وبقايتهم على الدّخول في الدّين كما فعل النّبي فاستحقّ من هذه الجهة أن يقال له ثاني إثنين.

**قُلْتُ** وقد جاء في السّنة أحاديث صحيحة يدلّ ظاهرها على أنّه الخليفة بعده وقد إنفقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف والقادح في خلافته مقطوع بخطأه وتفسيقه وهل يكفر أم لا يختلف فيه والأظهر تكفيره وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في سورة الفتح إنشاء الله والذي يقطع به الكتاب والسّنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصّديق على جميع الصّحابة ولا مبالاة بأقوال أهل التشيع ولا أهل البدع فأتهم بين مكفر تضرب عنقه وبين مبتدع مفسق لا تُقبل كلمته ثمّ بعد الصّديق عمر الفاروق ثمّ بعده عثمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



روي البخاري: عن ابن عمر قال كُنَّا نَخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ فَنَخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ عِثْمَانَ وَ اُخْتَلَفَ أئِمَّةُ أَهْلِ السَّلَفِ فِي عِثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَالْجُمْهُورُ مِنْهُمْ عَلِيٌّ تَقْدِيمَ عِثْمَانَ.

و روي عن مالك أَنَّهُ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ.

و روي عنه أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ وَ هُوَ الْأَصَحُّ إِنْشَاءَ اللَّهِ إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ بِالْفَاضِلَةِ وَ عِبَارَاتِهِ.

وَ إِنَّمَا نَقَلْنَاهَا بِطَوْلِهَا مَعَ عَلَمِنَا بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهَا لِأَنَّ مَا ذَكَرَهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ وَ النَّقْلِ وَ إِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ أَوْهَامٍ وَ خَيَالَاتٍ، حَفْظًا لِلْأَمَانَةِ.

وَ نَحْنُ نَقُولُ، أَمَّا مَا ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِ الْبَحْثِ مِنْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ صَاحِبَهُ فِي الْغَارِ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى الْإِثْبَاتِ وَ ذَلِكَ لِدَلَالَةِ نَصِّ الْكِتَابِ عَلَيْهِ إِلَّا إِنَّا نَقُولُ أَنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ فِي الْغَارِ مَعَ النَّبِيِّ لَا يَثْبُتُ لَهُ فَضِيلَةٌ وَ عَلَى الْمُدَّعِي الْإِثْبَاتُ إِذْ كَلِمَةٌ، صَاحِبٌ، لَيْسَتْ فِيهَا فَضِيلَةٌ وَ لَا شَأْنٌ.

وَ أَمَّا نَقْلُهُ عَنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ: لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا لَا يَدُلُّ عَلَى النِّقْصِ وَ إِسْتِدْلَالِهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْأَيَّاتِ الْحَاكِيةِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ لُوطَ وَ أَنَّ الْإِمَامِيَّةَ قَالَتْ أَنَّ الْحَزْنَ يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ وَ النِّقْصِ الْخ.

فَفِيهِ أَنَّ الْحَزْنَ ثَابِتٌ بِصَرِيحِ الْآيَةِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: لَا تَحْزَنُ وَ أَمَّا أَنَّهُ نَقْصٌ وَ جَهْلٌ، فَهُوَ أَيْضًا لَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذِ الْمَخْلُوقُ كَانَتْ مِنْ كَانَ فَهُوَ نَاقِصٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَ الْكَامِلُ بِالذَّاتِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْحَزْنَ نَقْصٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَدَمِهِ فَمَا نَقْلُهُ مِنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ عَنْ الْإِمَامِيَّةِ.

مِنْ أَنَّ الْحَزْنَ يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ وَ النِّقْصِ عَلَى فَرَضِ صَحَّتِهِ كَلَامٌ مُطَابِقٌ لِلْأَصْلِ وَ لَا إِخْتِصَاصَ لَهُ بِأَبِي بَكْرٍ وَ كَأَنَّهُ أَيُّ ابْنِ الْعَرَبِيِّ، لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْحَزْنَ نَقْصٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ كَيْفَ دَخَلَ فِي الْمَعْقُولَاتِ.

وَ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ، فَلَمْ نَفْهَمْ مَا أَرَادَ مِنْ كَلَامِهِ لِأَنَّهُ أَشْبَهَ شَيْئًا بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ وَ أَقْبَحَ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ وَ بَقِيَ أَبُو بَكْرٍ مَهْتَدِيًا مُوَحِّدًا

عالمًا ألخ و لم يبين كيف صار مهتدياً مَوْحِداً عالمًا جازماً قائماً بالأمر وهل يجوز لقائل أن يقول لما قال لا تحزن أن الله معنا، فصار أبو بكر كذا وكذا وأيُّ ربطٍ بين قوله ﷺ لا تحزن أن الله معنا وبين كونه أي أبو بكر مهتدياً مَوْحِداً الخ.

و أمّا مانقله في المسألة التاسعة عن الترمذي وغيره الى أن قال فقال عُمر من له مثل هذه الثلاث الخ فنقول كلام عمر ليس حجةً ولا برهاناً على إثبات المدعى وهو واضح لأنَّ عمر كان بمنزلة الرُّوح في جسد أبي بكر فلو لم يثبت عمر لأبي بكر ما أثبت أبو بكر له ما أثبت بعده الم يعلم القُرطبي وأمثاله أنَّ شهادة أبي بكر لعمر أو شهادة عُمر لأبي بكر كانت لأجل المصلحة فتلك الشهادات أتما صدرت عن كلِّ واحدٍ منهما بعوضٍ معلوم.

و أمّا قول القُرطبي بأنَّ قوله ثاني اثنين، لقيامه بعد النبي بالأمر كقيام النبي به أولاً.

ففيه أنَّ الكلام خرج مخرج المصادرة بالمطلوب وذلك لأنَّه يصح لو كان قيام أبي بكر بعده بأذنه وتصريحه وهو أيضاً لا يدعي ذلك ومجرّد القيام ولو بغير إذنه لا يدلُّ على أنَّه ثاني اثنين.

و أمّا قوله إرتدت العرب كلّها بعد موت النبي فهو أوّل الكلام وعلى المدعى الإثبات نعم لو أراد القُرطبي بالإرتداد رجوعهم الى القهقري بعد موت النبي بسبب أعمال الخلفاء أو لأنَّهم لم يرضوا بخلافته لأنَّها كانت من غير مشورة وأمثال ذلك فله وجهٌ والعجب منه حيث يدعي أنَّ أبا بكر قام بالأمر وهو يدعوا الناس الى الإسلام ويقاثلهم على الدّخول في الدّين كما فعل النبي ﷺ فاستحق من هذه أن يقال في حقّه ثاني اثنين.

إذ يلزم على ما ذكره أن يكون أبو بكر مبعوثاً بعد النبي لدعوة الناس بالدّخول في الإسلام وذلك لأنَّ دعوة النبي قد زالت بموته على الفرض ولم يبق منها عينٌ ولا أثر لإرتداد العرب كلّها فلو لم يقم أبو بكر بعده ولم يدعوا

النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَقَاتِلْهُمْ عَلَى الدَّخُولِ فِيهِ كُنَّا مِنَ الْكَافِرِينَ وَعَلَيْهِ فَحَقُّ أَبِي بَكْرٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ النَّبِيِّ وَلاَ يَزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ وَجُودُ الرَّسُولِ بِلَا فَائِدَةٍ فَكَانَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَبْعَثَ أَبَا بَكْرٍ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ وَلاَ أَظُنُّ مَنْ يَقُولُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ إِلَّا الْمَلْحَدَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَفَوَاتِ الشَّيَاطِينِ.

وَأَمَّا مَا قَالَ وَادَّعَى أَنَّهُ جَاءَ فِي السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ وَإِنَعْقَدَ الْإِجْمَاعُ ذَلِكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخَالَفٌ.

فَيَقَالُ لَهُ إِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الصَّحِيحَةُ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ تَابِعٌ لِلسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ وَلَكِنْ عَلَى الْمَدَّعِي إِثْبَاتُ مَا قَالَ فَإِنَّ السَّنَةَ الصَّحِيحَةَ مَا ثَبَتَ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ أَدْرَى بِمَا فِي الْبَيْتِ. فَالسَّنَةُ لَا تَتَوَخَّذُ إِلَّا مِنْهُمْ وَأَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْكَذَّابِينَ فَلَا تُثَبِّتُ بِقَوْلِهِمُ السَّنَةَ.

وَأَمَّا إِنْعِقَادُ الْإِجْمَاعِ وَقَوْلُهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخَالَفٌ، فَهُوَ مِمَّا تَضَحَّكُ بِهِ الثَّكَلِيُّ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى الْإِجْمَاعِ وَلَوْ عَلِمَ كَانَ عِنَادُهُ وَتَعْصِبُهُ مَانِعًا عَنْ بَيَانِ الْحَقِّ وَإِلَّا كَيْفَ يَدَّعِي الْإِجْمَاعَ وَرُؤُوسَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كَانُوا مُخَالَفِينَ لَخِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَبَعْدَهُ عُمَرُ وَتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ خَارِجٌ عَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَلاَ مَبَالَاةَ بِأَقْوَالِ أَهْلِ التَّشْيِيعِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ فَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَكْفَرٍ تَضْرِبُ عُنُقَهُ وَبَيْنَ مُبْتَدِعٍ مَفْسُوقٍ لَا تَقْبَلُ كَلِمَتَهُ فَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الدَّلَائِلِ عَلَى صِحَّةِ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَلاَ دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى إِثْبَاتِ مَدَّعَاهُمْ أَقْوَى مِنْهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَجَزَ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ يَتَشَبَّثُ بِهَذِهِ الْأَقَاوِيلِ أَعْنِي بِهَا التَّكْفِيرُ وَضَرْبُ الْأَعْنَاقِ وَالرَّقْيُ بِالْبِدْعَةِ وَالْإِضْلَالُ كَمَا كَانَ قِيَامُ أَبِي بَكْرٍ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ وَمِنْ يَشَابِهِ أَبَدَ فَمَا ظَلَمَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَبَعْدَهُ عُمَرُ وَبَعْدَ عُثْمَانَ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ فَلَا بَحْثَ لَنَا فِيهِ فَعَلًا وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

و محصّل الكلام هو أنّ القرطبي لم يقدر على إثبات مدّعه و أنّما هو كالغريق يتشبّث بكلّ حشيش و سنجيم الدلائل العقلية و النقلية على أنّ المصاحبة لا تدلّ على الفضيلة أصلاً، إن شاء الله تعالى.

و ممّن تكلم في الآية و أثبت بزعمه الفضيلة لأبي بكر هو الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية فأنّه قد أطال الكلام في المقام و كلّ من جاء بعده من مفسري العامة أخذوا ما أخذوا منه و ذلك لإتفاقهم على ان الرازي أعلمهم و أقواهم في إقامة الدليل لتبحره في الفلسفة و الكلام و نحن لا بدّ لنا من التعرّض لدلائله و الجواب عنها مع مراعاة الإيجاز و الاختصار و إن كانت هذه المباحث خارجة عن موضوع الكتاب فنقول قال الرازي:

المسألة الثالثة: ذكروا أنّ قريشاً و من بمكة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله فنزل و **إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا<sup>(١)</sup>** فأمره الله تعالى أن يخرج هو و أبو بكر أوّل الليل إلى الغار والمراد من قوله: **أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** هو أنّهم جعلوه كالمضطر إلى الخروج و خرج رسول الله و أبو بكر أوّل الليل إلى الغار و أمر علياً أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السّواد من طلبه حتّى يبلغ هو و صاحبه إلى ما أمر الله به فلمّا و صلا إلى الغار دخل أبو بكر الغار أولاً يلتمس ما في الغار فقال له النّبي ما لك فقال بأبي أنت و أمّي الغيران مأوى السّباع و الهوام فأن كان فيه شيء كان بي لا بك و كان في الغار حجر فوضع عقبه عليه لتلا يخرج ما يؤذي الرّسول فلمّا طلب المشركون الأثر و قربوا بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله فقال **لَا تَحْزَنْ** أن الله معنا فقال أبو بكر أنّ الله لمعنا فقال الرّسول نعم فجعل يمسح الدّموع عن خدّه و يروي عن الحسن أنّه اذا ذكر بكاء أبي بكر بكى و إذا ذكر مسح الدّموع مسح هو الدّموع عن خدّه.

في تفسير القرآن



المجلد الثامن

و قيل لما طلع المشركون فوق الغار أشفق أبوبكر على رسول الله فقال أنتصب اليوم دين الله فقال رسول الله ما ظنك، بأثنين الله ثالثهما لما دخل الغار وضع أبوبكر ثمامة على باب الغار فبعث الله حمايتين فباضتا في أسفله و العنكبوت نسجت عليه و قال رسول الله الله أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار و لا يرون أحداً انتهى كلامه في هذه المسألة.

**أقول** أصل دخولهما الغار لا كلام لأحد فيه و لكن يلوح من نقله أثار الوضع و أنهم أضافوا الى قصّة الغار ما شاءوا و أرادوا ليثبتوا بذلك ما أرادوه من الفضيلة بزعمهم و أن لم تكن فضيلة واقعاً و نحن نشير الى الإضافات إجمالاً.

منها، قوله دخل أبوبكر الغار أولاً يلتمس ما في الغار، فأنه من المجموعات إذ من أخبر الرازي و أمثاله بذلك و المفروض أنه لم يكن معهما أحد فأن كان المخبر بذلك هو أبوبكر نفسه فهو من قبيل الإدعاء فأين الدليل لأن من كان بصدد إثبات الفضيلة لنفسه فيقول ما يشاء و العقل يحكم بعدم صحته و أن كان المخبر غير أبي بكر فمن هو و المفروض أنه لم يكن هناك أحد و أعجب بل أضحك منه ما نقله من أن أبابكر بكى و النبي مسح الدموع عن خده و ليت شعري من أخبر الرازي بهذه الأخبار من داخل الغار أنظروا يا أهل الإنصاف هذا الرجل من أعلم علماءهم و هو ممن كان يدعي التوغل في الفلسفة و المطالب العقلية فما تظنون بأمثال القرطبي و الألوسي و البيضاوي و غيرهم.

و أما قوله فقال رسول الله ما ظنك بأثنين الله ثالثهما فيقال له و أي فضيلة في ذلك و هذا يجري في جميع الموارد و بعبارة أخرى كل اثنين سواء كانا مؤمنين أم كافرين فلا محالة الله ثالثهما، فأنا الله مع كل أحد و هو معكم أينما كنتم و الحاصل أنه لا شك في كون أبي بكر مع النبي في الغار.

و أما إثبات الفضيلة فهو شيء آخر ثم شرع الرازي في إثبات مدعاه و قد أقام على ذلك إثني عشر دليلاً و نحن نشير الى كل واحد منها و نجيب عنه بحوله تعالى و قوته.

**قال الرّازي المسألة الرابعة:** دلّت هذه الآية على فضيلة أبي بكر من وجوه.

**الأول:** أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ذهب إلى الغار لأجل أنّه كان يخاف الكفّار من أن يقدموا على قتله فلولا أنّه كان قاطعاً على باطن أبي بكر بأنّه من المؤمنين المحقّقين الصّادقين الصّديقين لما أصبح نفسه في ذلك الموضع لأنّه لو جوّز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أن يدلّ أعداءه عليه و أيضاً لخافه من أن يقدم على قتله فلمّا إستخلصه لنفسه في تلك الحالة دلّ على أن كان قاطعاً بأنّ باطنه على وفق ظاهره انتهى.

**أقول** ليس في هذا الدّليل إثبات فضيلة لأبي بكر بل أثبت الرّازي بذلك أن باطنه كان موافقاً لظاهره و بعبارة أخرى أنّه لم يكن منافقاً، و هذا غير ما نحن بصدد إثباته من إثبات فضيلة له ليست لغيره لأجلها صار من أصحاب الغار فغاية ما يستفاد من دليله هو أنّ أبابكر كان من المؤمنين كغيره من آحاد المؤمنين و لم يكن منافقاً و من المعلوم أنّ هذا المعنى على فرض ثبوته أو إثباته لا يجعله ممتازاً بين المؤمنين و لا بحث لنا فيه فعلاً و أنّما البحث في إثبات فضيلة لم تكن لغيره و أنّي له بإثباته.

**الثاني:** و هو أنّ الهجرة كانت بإذن الله تعالى و كان في خدمة الرّسول جماعة من المخلصين و كانوا في النّسب إلى شجرة رسول الله أقرب من أبي بكر فلولا أنّ الله تعالى أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك الواقعة الصعبة الهائلة و إلاّ لكان الظّاهر أن لا يخصّه بهذه الصّحبة و تخصيص الله أيّاه بهذا التّشريف دلّ على منصب عالٍ في الدّين انتهى.

**أقول** أمّا أنّ الهجرة كانت بإذن الله فهو حقّ لا كلام لنا فيه.

و أمّا أنّ جماعة من المخلصين كانوا في خدمته من أقرباءه فهو أيضاً لا بحث فيه و أمّا أنّ الله تعالى أمر رسوله بأن يستصحب أبابكر فلا دليل عليه و من أين ثبت للمستدلّ هذا المعنى و على فرض ثبوته فلعلّه كان لغرض آخر غير ما زعمه الرّازي فمجرد كون أبي بكر مصاحباً له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار لا يدلّ

على أنه تعالى أمر رسوله بهذه الصّحبة لصفاء أبي بكر وإيمانه وإمّتيازه عن غيره وهو واضح.

**الثالث:** أن كل من سوى أبي بكر فارقوا رسول الله ﷺ أمّا هو فما فارق رسول الله كغيره بل صبر على مؤنسته وملازمته وخدمته عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد وذلك يوجب الفضل العظيم انتهى.

**أقول** كان على المستدل أن يبين من الذين فارقوا رسول الله. وأمّا أنه ما فارقه كغيره بل صبر الخ.

فهذا على فرض ثبوته يدل على أن أبابكر كان مؤمناً بالله ورسوله ولم يرتد عن دينه فهو كغيره من المؤمنين الذين بقوا على عهدهم ونصروا رسوله شك أنه أمر مستحسن ممدوح.

وأمّا قوله أنه صبر على الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد وذلك يوجب الفضل العظيم فنقول له مصاحبة أبي بكر في الغار كان أشدّ خوفاً أو نوم عليّ عليه السلام في فراشه بين السيوف والرّماح فأقض ما أنت قاض، هذا أولاً.

وثانياً، لو سلمنا ما قال نقول له ليس البحث في إثبات الفضيلة بل البحث في إثبات الأفضلية وأن أبابكر كان أفضل من غيره لأجل الغار والدليل على فرض تماميته لا يثبت المدعى ولو كان مجرد المصاحبة دليلاً على الأفضلية لكان أنس بن مالك أفضل الصحابة لكونه بواباً على باب الرسول ومصاحباً له أكثر من غيره وهكذا بلال المؤذن وزيد بن الحارثة وإبنة أسامة بل وزوجات النبي ولا يقول به عاقل.

**الرابع:** أنه تعالى سمّاه ثاني اثنين فجعل ثاني محمد حال كونهما في الغار والعلماء أثبتوا أن كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية فأنه ﷺ لما أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر ثم ذهب وعرض الإسلام على طلحة والزبير وعثمان وجماعة آخرين من أجله الصحابة والكّل آمنوا على يديه ثم أنه جاء بهم إلى رسول الله بعد أيام قلائل فكان هو



ثاني إثنتين في الدَّعوة الى الله و أيضاً كلمًا وقف رسول الله في غزوة كان أبو بكر يقف في خدمته و لا يفارقه فكانوا ثاني إثنتين في مجلسه و لمّا مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة الناس للصلاة فكان ثاني إثنتين و لمّا توفى ﷺ دفن بجنبه فكان ثاني إثنتين هناك أيضاً و طعن بعض الحمقى من الزوافض في هذا الوجه و قال كونه ثاني إثنتين للرسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعاً لكل ثلاثة في قوله: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ<sup>(١)</sup> ثُمَّ أَنَّ هذا الحكم عام في حق الكافر و المؤمن فلمّا لم يكن هذا المعنى منه تعالى دالاً على فضيلة الإنسان فلان لا يدلّ من النبي على فضيلة الإنسان كان أولى و أجاب عنه فقال.

الجواب أن هذا تعسف بارد لأنّ المراد هناك كونه تعالى مع الكلّ بالعلم و التدبير و كونه مطلعاً على ضمير كلّ أحدٍ

أما هنا فالمراد بقوله تعالى: ثَانِي اثْنَيْنِ تخصيصه بهذه الصّفة في معرض التعظيم و أيضاً قد دلّلنا بالوجوه الثلاثة المتقدمة على أنّ كونه معه في هذا الموضوع دليل قاطع على أنّه ﷺ كان قاطعاً بأنّ باطنه كظاهره فأين أحد الجانبين من الآخر انتهى.

أقول أمّا قوله أنّه تعالى سمّاه ثاني إثنتين فجعله ثاني محمّد حال كونها في الغار.

ففيه إشارة أنّ التسمية بذلك لا يدلّ على أنّه ثاني محمّد و ذلك لأنّه لم يكن في الغار إلاّ إثنان فقال تعالى ثاني إثنتين فلو كان هناك ثلاثة لا محالة يقول ثلاث ثلاثة مثلاً.

و ملخص الكلام هو أنّ التعبير بغيره لا يمكن أصلاً و بذلك لا يصير الإنسان ثاني محمّد ﷺ و أمّا قوله و العلماء أثبتوا أنّه ثاني محمّد ﷺ في أكثر المناصب الدّينية ثمّ ذكر منها موارد.

فيه القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

منها أنه آمن بالرسول بمجرد عرض الإسلام عليه و هو عرض الإسلام على طلحة و الزبير و عثمان و غيرهم فكأن الرازي كان غافلاً أو متغافلاً عما ذكره المؤرخون و أرباب السّير في الباب و من أراد الإطلاع على كذبه فعليه بالمراجعة الى مظانها و ذلك لأنه بحث تاريخي لا ربط له بما نبحت فيه فعلاً. و على فرض ثبوته هو لا يدل على أنه ثاني إثنين في الدّعوة لا غيره فأن جميع المسلمين بعد إسلامهم دعوا أقرباءهم و أحبّاءهم و أفراد القبائل بالإسلام و لم يكن هذا مختصاً بأبي بكر و أن شئت قلت جميع المسلمين كانوا ثاني إثنين في الدّعوة.

و أمّا قوله كلّما وقف رسول الله في غزوة كان أبوبكر يقف في خدمته يفارقه فكان ثاني إثنين في مجلسه.

فنقول ما ذكره في المقام في إثبات الأفضلية كان بالذّم أشبه منه بالمدح إذ لقائل أن يقول لم كان أبوبكر يقف في خدمته و لم يفارقه في الغزوات ألم يكن الجهاد واجباً عليه فأن كان واجباً عليه و تخلف عنه فهو عاصٍ و أن لم يكن واجباً عليه لمرضى أو جنونٍ أو سفهٍ أو غير ذلك فلا كلام لنا فيه و أن كان تقاعده عن القتال خوفاً من القتل فهو ناش عن ضعف إيمانه فالمستدلّ الذي اعترف بأنّ أبابكر كان في خدمة الرسول و لم يفارقه كان واجباً عليه أن يبيّن علّة القعود عن الجهاد الذي هو فرض على جميع المسلمين في حضور الإمام فمن كان معرضاً عما يجب عليه لا يكون ثاني إثنين في مجلسه.

و أمّا مسألة إمامته للناس في الصّلاة فهي ممّا إدّعه المستدلّ و أمثاله دليل له و لهم على اثبات ذلك و الحقّ أنّ أبابكر لم يكن إماماً للناس في صلاتهم عند مرض النبي و لولا خوف الإطالة لأشبعنا الكلام فيه و هذه الأخبار المروية بطرقهم من مجعولات الكذّابين الرّضاعيين في صدر الإسلام لإثبات دعاويهم الباطلة و كم له من نظير و مع ذلك لو سلّمنا ما ذكره فهو لا يثبت مدّعه و هو أنه ثاني إثنين و ذلك لأنّ الإمامة في غيبة الرسول لو كانت دليلاً على ما قاله لكان

إبن أم مكتوم أيضاً ثاني أثنين بل هو أعظم من أبي بكر لأن نيابته للرّسول كانت ثابتة لم يختلف فيه أحد و أمّا أبو بكر فلا.

و أمّا قوله لما توفى دفن بجنبه فكان ثاني أثنين، فهو غريب لأننا نقول:  
**أما أولاً:** فهذا مما لا يثبت به شيء أصلاً ولا فضيلة فيه أبداً.

**ثانياً:** من دفنه بجنب الرّسول فإن قالوا أن الرّسول أوصى بذلك مثلاً فهذا كذب صريح بل تهمة على الرّسول وإن قالوا دفنه هناك عُمر و كان حاكماً و لم يقدر أحد على منعه فهو حقّ إلا أنّه بذلك لا يصير ثاني أثنين بل يكون غاصباً ظالماً لو رضي به و إلا فوزره على من فعل ذلك و الحساب على الله.

فإن قالوا دفنه بجنب النّبي بأذن عائشة ففيه أن البيت لم يكن لعائشة لأنهم قالوا أن الأنبياء لا يورث و على فرض ثبوت الإرث كما نحن نقول به فعائشة أيضاً لم تكن صاحب البيت بل لها التسع من الثمن و في الكلّ تصرف و للبحث فيه أيضاً موضع آخر.

و أمّا ما طعن به على الرّوافض و عبّر عنهم بالحمقى ثم ردّ عليهم بزعمه فهو لا يليق بمقامه أن كان من أهل العلم و إلا فهو أليق به و العجب ممّن يدّعي العلم و هو يقول، أن قوله: **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ** أن المعية فيه بالعلم و التدبير.

و أمّا في قوله أن الله معنا فالمراد به هو تخصيص أبي بكر بهذه الصّفة، أليس هذا من قبيل قول القائل بآنك يجرّ و بائي لا يجرّ.

و ما الفرق بين المقامين و مجرد الإدّعاء لا يكفي في الاستدلال فإن قال قائل بعدم الفرق و طالب الدليل على وجود الفرق يعدّ من الحمقى و من يدّعي الفرق من غير دليل و لا برهان يعدّ من العقلاء فاعتبروا يا أولي الأبصار.

**الخامس:** قال من التمسك بهذه الآية ما جاء في الأخبار أن أبا بكر لما حرّز قال عليه الصّلاة و السّلام ما ظنك بأثنين الله ثالثهما و لا شك أن هذا منصب عليّ و درجة رفيعة.

في الفرق بين المقامين



الجلد العاشر

و الجواب عنه قد مرَّ و قلنا أنَّ الله تعالى ثالث كلِّ اثنين كافرين أو مسلمين و ليست فيه فضيلة أصلاً.

ثمَّ نقل عن والده شيئاً يشعر بأنَّه كان مجنوناً أو جاهلاً عامياً.

قال و اعلم أنَّ الرِّوافض في الدِّين كانوا اذا حلفوا قالوا و حق خمسة سادسهم جبرئيل و أرادوا به أنَّ الرِّسول و عليّاً و فاطمة و الحسن و الحسين كانوا قد إحتجوا تحت عباءة يوم المباهلة فجاء جبرئيل و جعل نفسه سادساً لهم فذكروا للشيخ الإمام الوالد أنَّ القوم هكذا يقولون.

فقال الوالد لكم ما هو خيرٌ منه يقوله ما ظنَّك بأثنين الله ثالثهما المعلوم بالضرورة هذا أفضل و أكمل انتهى.

**أقول** كان والده لم يعلم أنَّ جبرئيل إفتخر بكونه سادساً منهم و الله تعالى لم يفتخر بكونه معهم فإنَّه مع جميع مخلوقه و الفرق بينهما أبعد من بين السماء و الأرض هذا مضافاً إلى أنَّ هذه النسبة إلى الشيعة أيضاً كذب و إفتراء إذ لم يقل أحد و حق خمسة و سادسهم جبرئيل فإنَّ الشيعة تقول بأفضلية الخمسة من جميع ما سوى الله فلا نحتاج في حلفه بهم إلى ضمِّ جبرئيل اليهم و هو من خدامهم و خدام شيعتهم و لذلك إفتخر به.

**السادس:** أنَّه تعالى وصف أبابكر صاحباً للرِّسول و ذلك يدلُّ على كمال الفضل قال الحسين ابن الفضيل البجلي من أنكر أن يكون أبوبكر صاحب رسول الله كان كافراً لأنَّ الأمة مجمعة على أنَّ المراد من قوله إذ يقول لصاحبه هو أبوبكر و ذلك يدلُّ على أنَّ الله تعالى وصفه بكونه صاحباً له.

إعترضوا و قالوا أنَّ الله تعالى وصف الكافر بكونه صاحباً للمؤمن:

قال الله تعالى: **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ<sup>(١)</sup>**

و الجواب أَنَّ هناك و إن وصفه بكونه صاحباً له ذاكراً إلا أَنَّهُ أَرَدَفه بما يَدَلُّ على الإهانة و الإذلال قوله أَكْفَرْتَ أَمَّا هَاهُنَا فَبَعْدُ أَن وصفه بكونه صاحباً له ذكرنا ما يَدَلُّ على الإجلال و التَّعْظِيم و هو قوله: لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَيَّ مَنَاسِبَةٍ بَيْنَ الْبَاطِنِ لَوْلَا فَرَطُ الْعَدَاوَةِ انْتَهَى.

و الجواب أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ وصف أَبَاكِر بكونه صاحباً له و أَمَّا أَنَّهُ يَدَلُّ على كَمَالِ الْفَضْلِ فيحتاج إلى الإثبات لِأَنَّ الصَّاحِبَ في لغة العرب لم يَجِيءَ بِمَعْنَى الْفَضْلِ فَضْلاً عَن كَمَالِهِ.

و أَمَّا قَوْلُ الْبَجَلِيِّ أَنَّ مَنْكَرَ كَوْنِ أَبِي بَكْرٍ صَاحِباً لِرَسُولِ اللَّهِ كَافِرٌ فَهُوَ غَلَطٌ مُحْضٌ اللَّهُمَّ إِلَّا أَن يَرْجِعَ الْإِنْكَارُ بِإِنْكَارِ الْآيَةِ وَهُوَ بِإِنْكَارِ الْقُرْآنِ وَهُوَ أَمْرٌ آخَرٌ مُضَافاً إِلَى أَنَّ الْمَوْضُوعَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى فَتْوَى الْبَجَلِيِّ وَغَيْرِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ إِعْتَقَدُوا بِذَلِكَ لَوْجُودِ النَّصِّ فِي الْكِتَابِ إِلَّا أَنَّ الْبَحْثَ فِي أَنَّ الْمَصَاحِبَةَ تَدَلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ أَوَّلًا وَهُوَ بَحْثٌ آخَرٌ.

و أَمَّا جَوَابُهُ عَنِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ فَبَاطِلٌ عَاطِلٌ لِأَنَّ الْبَحْثَ فِي كَلِمَةِ الصَّاحِبِ وَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَدَلُّ عَلَى الْمَدْعَى أَمْ لَا لَا فِي مَوْرِدِ إِسْتِعْمَالِهَا وَ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ فِي الْمَوْرِدَيْنِ وَاحِدٌ وَبَعْدَ اللَّتْيَا وَالتِّي مَا ذَكَرَهُ لَا يَثْبُتُ مَدْعَاهُ. و أَمَّا قَوْلُهُ لَوْلَا فَرَطُ الْعَدَاوَةِ فَكَلَامٌ يَدَلُّ عَلَى جَهْلِ قَائِلِهِ أَوْ عِنَادِهِ إِذْ لَا عَدَاوَةَ فِي الْبَيْنِ أَصْلًا.

**السابع:** فِي دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ قَوْلُهُ: لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْنِيَةِ الْمَعْنِيَةِ بِالْحِفْظِ وَ النُّصْرَةِ وَ الْحِرَاسَةِ وَ الْمَعُونَةِ وَ بِالْجُمْلَةِ فَالرَّسُولُ ﷺ شَرَكٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ فِي هَذِهِ الْمَعْنِيَةِ فَأَن حَمَلُوا الْمَعْنِيَةَ عَلَى وَجْهِ فَاسِدٍ لَزِمَهُمْ إِدْخَالُ الرَّسُولِ فِيهِ وَ أَن حَمَلُوهَا عَلَى مُحْمَلٍ رَفِيعٍ شَرِيفٍ لَزِمَهُمْ إِدْخَالُ أَبِي بَكْرٍ فِيهِ وَ نَقُولُ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَبَابَكْرَ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ وَ كُلٌّ مِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَأَنَّهُ يَكُونُ

من المتقين المحسنين لقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ<sup>(١)</sup> والمراد منه الحصر والمعنى أَنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا لا مع غيرهم وذلك يدل على أَنَّ أبا بكر من المتقين المحسنين انتهى.

**والجواب** أَنَّ المراد بالمعية آية معية كانت هو أَنَّ اللَّهَ تعالى مع رسوله أي أَنَّ اللَّهَ يحفظه و يحرسه و يعينه أو ما شئت فسمه وهذا لا كلام لنا فيه.

و اذا كان اللَّهَ حافظاً لنبيه في الغار فهو حافظ لمن كان معه أيضاً فيه سواء كان أبوبكر أم غيره و بعبارة أخرى أَنَّ اللَّهَ حافظ رسوله بالإصالة و حافظ صاحبه بالتبع فاللَّهُ خير و هذا مسلم و لكن يبقى السؤال و هو أَنَّهُ آية فضيلة فيه و قد ثبت أَنَّ اللَّهَ حافظ عبده و ناصره و معينه و هذا لا اختصاص له بفرد دون فرد.

قال اللَّه تعالى: **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**<sup>(٢)</sup>.

قال اللَّه تعالى: **وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**<sup>(٣)</sup>

قال اللَّه تعالى: **وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**<sup>(٤)</sup>

قال اللَّه تعالى: **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ**<sup>(٥)</sup>.

و غيرها من الآيات و ما نحن فيه من هذا القليل

و أما إستدلالة بالآية الشريفة فطريف من الكلام جداً فكأنه لم يسمع مثل المشهور، ثبت العرش ثم أنقش، فَأَنَّ الآية قد صرحت به إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ فجعل اللَّه تعالى لإثبات المعية شرطين:

**أحدهما: التقوى لقوله: مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا.**

**الثاني:** كونه محسناً لقوله و الَّذِينَ هم محسنون فعلى المستدل إثبات وجود الشرطين في أبي بكر أولاً ثم الإستدلال بكون اللَّه معه و مجرد كونها موجودين في الرسول لا يكفي أبا بكر.

و العجب من شكل قياسه حيث قال دَلَّتْ الآية على أبا بكر كان الله معه و كل من كان الله معه فأنه من المتقين ينتج أن أبا بكر من المتقين.  
ولا نعلم أن الرازي بصدد إثبات التقوى لأبي بكر أو بصدد إثبات فضيلة خاصة و من المعلوم أن قياسه على فرض تماميته يثبت أنه من المتقين و أي ربط بينه و بين ما نحن بصده هذا أولاً.

ثانياً: أن القياس لا يتم و لا يصح لأن كل من كان الله معه فأنه من المتقين، هو أول الكلام و ذلك لأن الله قال في كتابه: **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**<sup>(١)</sup> و لا شك أن الخطاب عام يشمل الكل و لازم ذلك أن يكون جميع الناس من المتقين، إذ لكل أحد أن يقول، أن الله معي، و كل من كان الله معه فهو من المتقين فأننا من المتقين و لا يقول به عاقل و الحاصل أن المتقين كان الله معهم أي ينصرهم و يحفظهم و يتوجه اليهم و لا عكس فهذا القياس الذي رتبته بالمغالطة أشبه.

و أما قوله و المراد منه الحصر فهو أيضاً لا دليل عليه و هو واضح.  
**الثامن:** أن قوله: **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** يدل على كونه ثاني إثنين في الشرف الحاصل من هذه المعية كما كان ثاني إثنين إذ هما في الغار و ذلك منصب في غاية الشرف انتهى.

**أقول** قد ظهر جوابه مما ذكرناه سابقاً فأن دلائله في بعض الموارد من المكررات و هذا منها و أي شرف في هذه المعية و كونه ثاني إثنين حتى يقال أنه منصب عالي.

**التاسع:** أن قوله: **لَا تَحْزَنْ** نهى عن الحزن مطلقاً و النهي يوجب الدوام و التكرار و ذلك يقتضي أن لا يحزن أبوبكر بعد ذلك البتة قبل الموت و عند الموت و بعده انتهى.



و الجواب أَنَّ النَّهْيَ كالأمر لا يَدُلُّ إِلَّا على الطَّبِيعَةِ وَ المَرَّةِ وَ التَّكَرُّارِ خَارِجَانِ عَنْهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الْأَصُولِ وَ الْفَرْقُ أَنَّ الْأَمْرَ طَلَبُ إِيجَادِ الطَّبِيعَةِ وَ النَّهْيُ طَلَبُ تَرْكِهَا وَ قَدْ فَرَعْنَا عَنِ الْبَحْثِ فِي الْأَمْرِ وَ النَّهْيِ فِي الْأَصُولِ وَ أَمَّا قَوْلُهُ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّ لَا يَحْزَنُ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَامَ كَذِبٍ وَلَوْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ حَيًّا لَمَّا رَضِيَ بِهِ إِذْ كَيْفَ يُقَالُ أَنَّهُ لَمْ يَحْزَنْ قَبْلَ الْمَوْتِ وَ عِنْدَهُ وَ بَعْدَهُ وَ هَذَا مِنَ الرَّازِي عَجِيبٌ كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ وَ قَدْ ثَبَتَ حَزْنُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَ قَبْلَهُ وَ بَعْدَهُ حَتَّى يُقَالَ كَذَا.

**العاشر:** قوله: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ الخ.**

**أقول** يأتي الكلام في إنزال السَّكِينَةِ عند تفسيرها وَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى الرَّسُولِ لَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ كَمَا زَعَمَهُ هُوَ وَ غَيْرُهُ.

**الحادي عشر:** من الوجوه الدَّالَّةُ عَلَى فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إطباق الكلِّ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي اشْتَرَى الرَّاحِلَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَ عَلَى أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا يَأْتِيَانِ بِالطَّعَامِ.

روي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَ صَاحِبِي فِي الْغَارِ بَضْعَةَ عَشْرِ يَوْمًا وَ لَيْسَ لَنَا طَعَامٌ إِلَّا التَّمْرُ وَ ذَكَرُوا أَنَّ جَبْرِئِيلَ أَتَاهُ وَ هُوَ جَائِعٌ فَقَالَ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَدْ أَتَتْ بِحَيْسٍ فَفَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ وَ أَخْبَرَ بِهِ أَبَا بَكْرٍ وَ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَظْهَرَهُ لِأَبِي بَكْرٍ فَاتَى إِيْنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنَّ يَشْتَرِي جَمْلَيْنِ وَ رَحْلَيْنِ وَ كَسَوَتَيْنِ وَ يَفْضِلُ أَحَدَهُمَا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ وَصَلَ الْخَبَرَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَخَرَجُوا مَسْرِعِينَ فَخَافَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ فَالْبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ثَوْبَهُ لِيَعْرِفُوهُ فَلَمَّا دَنَوْا خَرُّوا لَهُ سَجْدًا فَقَالَ لَهُمْ إِسْجُدُوا لِلرَّبِّكُمْ وَ أَكْرَمُوا أَخَا لَكُمْ أَنَاخَتْ نَاقَتُهُ بَبَابِ أَبِي أَيُّوبَ رَوَيْنَا هَذِهِ الرُّوَايَاتِ مِنْ تَفْسِيرِ أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ انْتَهَى.

**أقول** ما نقله في هذا الوجه كلُّه كَذِبٌ مُحَضٌّ فَهَذِهِ التَّوَارِيخُ الْمَعْتَبَرَةُ مِنَ الْعَامَّةِ وَ السَّيَرِ وَ كُتُبِ الْأَخْبَارِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ كُلِّهَا يَشْهَدُ بِكَذِبِهِ فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ إِلَى



الآن ولم نر في كتاب أو تفسير أنَّ الرسول ﷺ كان في الغار بضعة عشر يوماً بل الكل متفقون على أنَّ الرسول كان في الغار ثلاثة ليال أو أيام و عليه جميع المفسرين و أرباب السير.

و أمّا قوله: فلمّا دنوا خرّوا سجّداً له فقال لهم أسجدوا لرّبكم الخ. فهذا أيضاً كذب و إفتراء على الأنصار إذ كيف خرّوا له سجّداً، و هم كانوا مسلمين و المسلم لا يسجد لغير الله ثمّ كيف لم ينههم النبي عن السجدة و أبوبكر نهاهم عنها و هكذا ما ذكره في هذا الوجه و لعله هو أيضاً علم كذبه حيث قال في آخر كلامه روينا هذه الروايات من تفسير أبي بكر الأصم فكانّه قال العهدة على الراوي و نحن لا نعرف أبابكر الأصم والله أعلم.

و الذي نقول للترّازي و أمثاله أن يجتنبوا من نقل هذه الموضوعات التي يحكم العقل بطلانها و الأخبار الصحيحة أيضاً تنكرها و محصل الكلام هو أنَّ ما ذكره خارج عن موضوع البحث إذ ليس البحث في أنّه من كان يأتيهما بالطعام و الشراب بل البحث في شيء آخر و هذه الأباطيل لا تثبت مدّعاهم لو كان لهم عقل.

**الثاني عشر:** أنَّ رسول الله حين دخل المدينة ما كان معه إلاّ أبوبكر و الأنصار ما رأوا معه ﷺ إلاّ أبابكر و ذلك يدلّ على أنّه كان يصطفيه لنفسه من بين أصحابه في السّفر و الحضر و أنّ أصحابنا زادوا عليه و قالوا لمّا لم يحضر معه في ذلك السّفر أحد إلاّ أبوبكر فلو قدرنا أنّه توفى رسول الله في ذلك السّفر لزم أن لا يقوم بأمره إلاّ أبوبكر و أن لا يكون وصيّته على أمته إلاّ أبوبكر و أن لا يبلغ ما حدث من الوحي و التّنزيل في ذلك الطّريق الى أمته إلاّ أبوبكر و كلّ ذلك يدلّ على الفضائل العالية و الدّرجات الرّفيعه لأبي بكر انتهى.

**أقول** أمّا ما ذكره من أنَّ رسول الله حين دخل المدينة ما كان معه إلاّ أبوبكر فهو أيضاً خلاف ما نقله أرباب السير فإنّ الرسول لم يدخل المدينة إلاّ بعد

مجئ أمير المؤمنين و ذلك لأنه ﷺ تَوَقَّفَ خارج المدينة و قال لا أدخلها حتى يأتي علي بن أبي طالب و من معه من أهل بيت الرسول.  
و لو سلمنا أنه دخلها مع أبي بكر وحده فهو أيضاً لا يثبت المدعى و أما قوله أنه يدل على أنَّ الرسول إصطفاه لنفسه فهو أيضاً عجيب إذ لازم ذلك أنَّ القادم من السفر مع غلامه يدل على أنَّ المولى إصطفى الغلام لنفسه فهو أفضل من غيره أليس لقائل أن يقول لعلَّ المولى إختاره لخدمته فكيف يدل هذا على فضيلته.

و أما قوله أنَّ أصحابنا زادوا عليه و قالوا كذا و كذا فنقول في جوابه الوصاية و الخلافة للرسول تتصور على قسمين:  
أحدهما: أن يكون ذلك بالشورى وبيعة أهل الحل و العقل كما يقول به الرازي و من تبعه.

ثانيهما: بالنص من رسول الله على شخص معين كما نقول به و هو علي بن أبي طالب و على التقديرين لو قدرنا أنه ﷺ تَوَفَّى في ذلك السفر لا تصل الخلافة و الوصاية لأبي بكر لعدم النص على مذهبنا و عدم وجود الشورى على مذهبهم فكيف يقول الرازي لو كان كذا كان كذا و أي عاقل لو مات شخص في السفر يقوم مقامه صاحبه منه و أعجب من الكل إدعاء أنه لو مات الرسول لا يبلغ الوحى الى أمته إلا أبو بكر و نحن نشكر الله على أنه ﷺ لم يمت في ذلك السفر و إلا كان أبو بكر نبينا بزعمه هذا ما ذكره الرازي في تفسيره.

و الجواب عنه و الكلام في المقام طويل و لكن أعرضنا عن ذكر سائر المقالات مراعاة للإختصار و أن لا يخرج الكتاب عن موضوعه و لنرجع الى تفسير بقية الألفاظ في الآية فنقول: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا مَرَّ الكلام في معنى السكينة عند شرح اللغات و قلنا أنها عبارة عما تسكن به القلوب يقول الله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ و اختلفوا في مرجع

الضَّمير و أنه الى من يعود فأكثر المفسرين على أنه يعود على رسول الله أي فأنزل الله سكينته على رسوله.

و قال بعضهم يعود على صاحب و هو أبو بكر أي أنزل سكينته على صاحب الرسول و في المقام قول ثالث.

رأيته في بعض التفاسير و هو أنه يرجع اليهما قال و أفرد لتلازمهما، و الأشهر الأقوى هو الأول.

و أما القول الثاني و الثالث فأنما اخترعوها لأن يشبوا بذلك فضيلة لأبي بكر بن عمهم قال قال الرازي أنه يرجع الى أبي بكر لا الى الرسول و استدلل على ما إدعاه بوجوه.

**الأول:** أن الضَّمير يجب عوده الى أقرب المذكورات و أقربها في هذه الآية هو أبو بكر لأنه تعالى قال: **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** و التقدير إذ يقول محمد لصاحبه أبي بكر لا تحزن و على هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة أبو بكر فوجب عود الضَّمير اليه.

**الثاني:** أن الحزن و الخوف كان لأبي بكر لا للرسول فإن ﷺ كان آمناً ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش فلما قال لأبي بكر لا تحزن صار آمناً فصرف السكينة الى أبي بكر ليصير ذلك سبباً لزوال خوفه.

**الثالث:** أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول لوجب أن يقال أن الرسول ﷺ كان خائفاً قبل ذلك ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر لا تحزن أن الله معنا فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره و لو كان الأمر على ما قالوه لوجب أن يقال: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** فقال لصاحبه لا تحزن أن الله معنا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** هذه الدلائل التي ذكرها لا طائل تحتها و ذلك لأن جميع الكنايات قبل هذا و بعده راجعة الى النبي ﷺ ألا ترى أن قوله: **وَالْأَنْتَ تَنْصُرُوهُ** الهاء راجعة الى النبي بلا خلاف و قوله: **فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** فالهاء أيضاً راجعة الى

النَّبِيِّ ﷺ و قوله إذ أخرجه يعني النَّبِيَّ، و إذ يقول لصاحبه يعني النَّبِيَّ ثُمَّ قال تعالى بعد هذه المذكورات فأنزل الله سكينته على النَّبِيِّ و قال بعده و أيده بجنودٍ يعني النَّبِيَّ فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره قاله الشَّيْخ في التَّبَيَّن و به قال جميع مفسري الشَّيْعة.

**أقول** سياق الكلام و فصاحته يقتضي رجوع الصَّмир الى الرُّسول بمعنى أنه تعالى قد ألقى في قلب رسوله ما سكن به و علم أنهم أي الكفار غير واصلين اليه و به قال الزَّجاج أيضاً.

و أما قول الرَّايزي لو كان المراد إنزال السَّكينة على الرُّسول لوجب أن يقال أن الرُّسول كان خائفاً قبل ذلك.

نقو في جوابه و أي إشكال فيه و لا دليل لنا أن الأنبياء لم يخافوا ثم أن الخوف في قلب النَّبِيِّ ليس نقصاً في نبوته فلو لم يكن الرُّسول خائفاً من الكفار لم ترك بيته و خرج الى الغار هذا مضافاً الى أنه تعالى قد صرَّح في كتابه بوجود الخوف في قلوب المرسلين و حكم الأمثال واحد قال في قصَّة موسى عليه السلام: قال الله تعالى: **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** (١).

قال الله تعالى: **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** (٢).

قال الله تعالى: **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ** (٣).

قال الله تعالى: **يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ** (٤).

قال الله تعالى: **إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ** (٥).

و قال في نوح و لوط و إبراهيم و غيرهم من الأنبياء مثل ذلك و قد صرَّح بما ذكرناه حيث قال في موسى عليه السلام:

قال الله تعالى: **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ** (٦).

قال الله تعالى: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ<sup>(١)</sup>.

و الرسول ﷺ أيضاً كان من مصاديق هذه الآيات لأنه ﷺ خرج من مكة خائفاً يترقب كما خرج موسى عليه السلام و قال رب نجنا... نجني من القوم الظالمين كما قال موسى و محصل الكلام هو أن مشكلة الخوف للبشر من أوضح المسائل و لا تحتاج الى الإثبات و إذا كان كذلك فأنزل الله سكينته أي رحمته على قلب الرسول فأسكن بها قلبه و أزال الخوف منه اللهم إلا أن يكون مراد الخصم من إصراره على أنزال الله سكينته على أبي بكر هو أنه أي أبابكر لحزنه و وحشته و خوفه و اضطرابه في الغار من القتل كان يجزع جزعاً شديداً و بذلك جعل الرسول في معرض الخطر فأنزل الله سكينته على قلب أبي بكر ليسكت و ينجو النبي من شر اضطرابه و كان الغرض بذلك حفظ النبي و إذا كان كذلك فإنزال السكينة على قلب أبي بكر لا فضيلة فيه بل أنزلت لدفع المضرة و لا يبعد أن يكون كذلك فإن كان غرضهم هذا فلا إشكال فيه لكنهم لا يقولون به بل يقولون أن الله أنزل سكينته على قلب أبي بكر في الغار و لم ينزلها على قلب رسوله و لم يعلموا أن موت أبي بكر و حياته كانا سيان بل موته كان حسن من حياته و العناية الربانية تشمل الرسول لا غيره إذ به قوام الدين و بحياته هداية الخلق و أما قوله: وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا.

معناه أن الله أيد رسوله بجنود و لعل المراد بهم الملائكة الحافين حول الغار حفظاً للنبي ﷺ و أما قولهم أن المراد بقوله هذا هو قصة بدر فإنه تعالى أيد رسوله فيها بالملائكة و قد مضى الكلام فيها.

و هذا لا يصح و لا يمكن لنا التعليل عليه و كيف يعقل أن يكون صدر الآية في قصة الغار و ذيلها في قصة بدر و ليت شعري ما الذي دعاهم الى ذلك لو لا التعصب و العناد فأنهم يقولون لو قلنا بعود الضمير في قوله: وَ أَيْدَهُ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

الى الرسول في قصّة الغار فلائد لنا من القول برجوع الضمير في، سكيته، الى الرسول بمقتضى العطف و حيث أنّ الضمير في سكيته الى أبي بكر ففي، قوله: وَ أَيْدُهُ الى الرسول في بدر لا في آية الغار إنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه التأويلات الباردة التي لا يقبلها العقل و محصل الكلام هو أنّ المراد بالجنود ما ذكرناه أو أنّ المراد تقوية الملائكة، لقلبه ﷺ بالبركة بالتصريح من ربه و من إلقاء اليأس في قلوب المشركين حتّى إنصرفوا خائبين وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ قِيلَ أَنَّ كلمة الذين كفروا، الشُّرك و كلمة الله، توحيد و المعنى جعل الله التوحيد أعلى من الشُّرك.

و قال بعضهم، المراد بكلمة الكفر هو ما تغامزوا عليه من قتله و من كلمة الله العليا ما وعده ربه من النصر و النجاة و كيف كان لا شك أنّ الكافر و ما يقول به لا يقاس بالمؤمن و ما يقول له فكلمة الكافر بأي معنى كان هي السفلى و كلمة الحق هي العليا:

قال الله تعالى: **إِنِّي يَضَعُ الذُّلَّ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَ قَرَعَهَا فِي أَسْمَاءٍ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** <sup>(٣)</sup>.

و لنختتم الكلام في تفسير الآية الشريفة بما ورد من أهل البيت فيها من الأخبار.

و منها ما رواه الصدوق عليه السلام في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: **أَنَّ أَبَا طَالِبٍ أَظْهَرَ الْكُفْرَ وَ**

ستر الإيمان فلما حضرته الوفاة أوحى الله عز وجل إلى الرسول،  
أخرج منها فليس لك بها ناصر انتهى.

ومنها ما رواه في البحار بأسناده عن جعدة بن هبيرة عن أمه أم  
هاني بنت أبي طالب عليها السلام: قالت لما أمر الله نبيه بالهجرة وأنام علياً  
على فراشه وسجّاه ببردٍ حضرمي ثم خرج فإذا وجوه قريش على  
بابه فأخذ حفنةً من ترابٍ فذرّها على رؤوسهم فلم يشعر به أحد  
منهم ودخل علي بيتي فلما أصبح أقبل علي وقال أبشري يا أم  
هاني فهذا جبرئيل يخبرني أن الله عز وجل قد أنجى علياً من عدوه  
قالت وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع جناح الصبح إلى غار ثور فكان  
فيه ثلاثاً حتى سكن عنه الطلب ثم أرسل إلى علي عليه السلام وأمره بأمره  
وإداء الأمانة انتهى.

ومنها ما روى أن أمير المؤمنين و هند بن أبي هالة دخلا على  
رسول الله في الغار فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هندا أن يبتاع له و  
لصاحبه بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ذلك يا نبي الله  
راحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال صلى الله عليه وآله وسلم أني لا آخذهما ولا  
أحدهما إلا بالثمن قال فهي لك بذلك فأمر علياً فأقبضه الثمن ثم  
وصّاه بحفظ ذمته وإداء أمانته وكانت قريش تدعوا محمداً في  
الجاهلية الأمين وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها و  
كذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم وجاءته النبوة والرّسالة  
والأمر كذلك فأمر علياً أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً و  
عشيّاً من كان له أمانة أو وديعة فليأت فلنؤد إليه أمانته قال  
فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنهم لن يصلوا من الآن اليك يا علي بأمرٍ تكرهه حتى  
تقدم علي فأد أمانتي على أعين الناس ظاهراً ثم أني مستخلفك على  
فاطمة إبنتي ومستخلف ربي اليكما ومستحفظه فيكما فأمره أن

يبتاع رواحله وللغواطم ومن أزعج للهجرة معه من بني هاشم و  
ساق الحديث الى أن قال وقال رسول الله ﷺ وهو يوصيه فإذا  
أبرمت ما أمرتك من أمر فكن على أهبة الهجرة الى الله ورسوله و  
سرّاً الى لقودم كتابي عليك ولا تلبث وأنطلق رسول الله ﷺ لوجهه يأم  
المدينة وكان مقامه في الغار ثلاثاً ومبيت عليّ على الفراش أول  
ليلة.

قال عبيد الله بن أبي رافع وقد قال عليّ بن أبي طالب يذكر مبيته على  
الفراش مقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر  
محمد لما خاف أن يمحروا به فوَّاه ربي ذو الجلال من المكر  
وبت أراعيهم متى ينشروني وقد وطئت نفسي على القتل والأسر  
وبات رسول الله ﷺ في الغار آمناً هناك وفي حفظ الإله وفي ستر  
أقام ثلاثاً ثم زمت قلايص قلايص يغرين الحصا أينما تفرى  
ولما ورد رسول الله ﷺ المدينة نزل من بني عمرو بن عوف  
بقباء فأراد أبو بكر على دخوله المدينة فقال ﷺ ما أنا بداخلها  
حتى يقدم ابن عمي وأخي علياً وإبنتي فاطمة عليها السلام ولم يدخلها  
حتى ورد عليه ﷺ انتهى.

ومن هذا الحديث وأمثاله يظهر كذب المعاندين كما يظهر مقام أمير  
المؤمنين علياً عليه السلام وأنه كيف يقاس كون أبي بكر في الغار من النبي بمبيت  
عليّ عليه السلام على فراش رسوله وإدائه الأمانات الى أهلها من قبل النبي وإعتماد  
رسول الله عليه في أهل بيته ولا سيما قرّة عينه ومهجة قلبه فاطمة  
الزّهراء عليها السلام وهكذا ولنا فعلاً بعد بيان فضائله التي لا تحصى هذا ما أردنا  
بيانه في تفسير الآية مع رعاية الإختصار ولنذكر ما ذكره الشيخ في التبيان  
بعين ألفاظه وعباراته.



قال ﷺ و ليس في الآية ما يدل على تفضيل أبي بكر لأن قوله، ثاني إثنين، مجرد الأخبار أن النبي ﷺ خرج معه غيره وكذلك قوله: إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ خبر عن كونهما فيه.

و أما قوله: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا مدح فيه أيضاً لأن تسميته الصاحب لا تفيد فضيلة ألا ترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر: قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَ<sup>(١)</sup> و قد يسمون البهيمة بأنها صاحب الإنسان كقول الشاعر:

و صاحبي بازل مشمول، و قد يقول الرجل المسلم لغيره أرسل اليك صاحبي اليهودي و لا يدل ذلك على الفضل وقوله: لَا تَحْزَنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ دِمَاءً فليس بمدح بل هو نهى محض عن الخوف وقوله: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا قِيلَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ و لو أريد به أبو بكر معه لم يكن فيه فضيلة لأنه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لا تفعل أن الله معنا يريد أنه متلع علينا عالم بحالنا، و السكنة قد بينا أنها نزلت على النبي ﷺ بما بيناه من التأيد بجنود الملائكة و أنه كان مختصاً بالنبي فأين موضع الفضيلة للرجل لولا العناد و لم نذكر هذا للطعن على أبي بكر بل بينا أن الاستدلال بالآية على الفضل غير صحيح انتهى كلامه رفع مقامه فإنه ﷺ قد أتى بما هو الحق مع إختصاره.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ  
 أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
 تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا  
 لَا تَبْعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ  
 سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ  
 يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)  
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ  
 الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا  
 يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ  
 أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ  
 بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
 بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي  
 رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ  
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ  
 فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ  
 خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا  
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ  
 اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ  
 قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ  
 أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

## ◀ اللّغة

خِفَافًا وَثِقَالًا الخفيف بأزاء الثّقل.

عَرَضًا بفتح العين والراء الغنيمة.

الْشُّقَّةُ بضم الشّين وفتح القاف المشددة يحتمل أن يكون من الشّق و أن يكون من المشقة.

وَآرْثَابَتْ، الإرتياب الإضطراب في الإعتقاد.

فَثَبَطَهُمْ أي حبسهم وشغلهم.

خَبَالًا، الخبال العناد والباقي واضح.

## ◀ الإعراب

عَرَضًا قَرِيبًا إسم كان مُضمَر تقديره ولو كان ما دعوتم اليه يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ يجوز أن يكون مستأنفًا وأن يكون حالاً من الضّمير في، يحلفون حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَتَّى متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام تقديره هَلَّا أَخْرَجْتَهُمْ الى أن يَتَبَيَّنَ خِلَالَكُمْ ظرف لأوضعوا يَبْغُونَكُمْ حال من الضّمير في أوضعوا.

## ◀ التفسير

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

هذا أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين أمرهم أن ينفروا الى جهاد الكفّار خِفَافًا وَثِقَالًا، أي شَبَانًا و شيوخاً على قول المجاهد و الحسن و الجبائي و قيل معناه أغنياء و فقراء و هو قول صالح.

و قيل نشاطاً و غير نشاط قاله ابن عباس و قتادة و قيل ركبَانًا و مشاةً و هو قول أبي عمرو و قيل ذَا ضِعَةٍ و غير ذي ضِعَةٍ، قاله ابن زيد.

و قال الحكم مشاغيل و غير مشاغيل، و قال الفراء ذو العيال و الميسرة نقل

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

الأقوال في التبيان والذي نقول هو أنّ الخفيف بأزاء الثَّقِيل و يقال ذلك.  
تارة باعتبار المضايقة بالوزن و قياس الشَّيْثَيْن أحدهما بالأخر نحو درهم  
خفيف و درهم ثقيل.

و أخرى باعتبار مضايقة الزّمان نحو فرس خفيف و فرس ثقيل اذا عدا  
أحدهما أكثر من الآخر في زمان واحد.

و هنا إعتبار ثالث و هو إطلاق الخفيف على ما يستحيله الناس و إطلاق  
الثَّقِيل على ما يستَوْخمه فيكون الخفيف مدحاً و الثَّقِيل ذمّاً و بعضهم زاد  
قسماً رابعاً و هو أنّه قد يقال خفيف فيمن يطيش و ثقيل فيما فيه وقار فيكون  
الخفيف ذمّاً و الثَّقِيل مدحاً.

و قسماً خامساً و هو أنّ الخفيف يقال في الأجسام التي من شأنها أن  
ترجعن الى أسفل كالأرض و الماء و الثَّقِيل ضده اذا عرفت هذا فنقول:  
قوله: **وَأَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا** معناه إنفروا على أيّ حالٍ من الحالات و  
الصفّات الى جهاد عدوكم فهو كناية عن إجتماع المسلمين و إتفاقهم على أمر  
الجهاد ثمّ أخبرهم أنّ الجهاد لا ينحصر بنوع خاص بل جاهدوا بأموالكم و  
أنفسكم في سبيل الله فإنّ الجهاد بالمال في بعض الموارد أنفع و أفيد للذين  
من الجهاد بالنفس وبالعكس كما أنّ خديجة الكبرى عليها السلام جاهدت بمالها في  
سبيل الله و أمير المؤمنين جاهد بنفسه و ماله معاً.

و في قوله: **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** إشارة الى أنّ المجاهد بالمال أو بالنفس اذا كان  
جهاده في الله و لله فهو و أن كان لغير الله و في سبيل الهوى فلا خير فيه و الى  
هذا المعنى أشار بقوله: **ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** معناه أنّ الجهاد  
بأقسامه اذا كان في سبيل الله فهو خير له أن كان عالمأ به.

و بعبارة أخرى يقول الله تعالى لهم أن كنتم صادقين في إدعاءكم الإيمان  
بالله و رسوله فكونوا كذلك لأنّ المؤمن العالم لا يتقاعد عن الجهاد فأن لم  
تجاهدوا فلستم منهم.

وإعلم أنَّ الجهاد بمعناه العام واجب عقلاً و شرعاً على كلِّ مؤمنٍ و هذا لا يختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ أو مكانٍ دون مكانٍ و هكذا نعم هو بمعناه الخاص له شرائط مقررّة في كتاب الجهاد و أنما قلنا ذلك لأنَّ فلسفة الجهاد هي الإعلاء لكلمة التوحيد و نشر أحكام الدين و الدِّفاع عنه في مقابل المخالف و عليه فلا معنى لقول بعض المفسرين أنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** <sup>(١)</sup> و ذلك لأنَّ النَّفْرَ كَافَةً لا ربط له بوجود أصل الحكم و معنى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أي أن كنتم تعلمون الخير في الجملة فأعلموا أنَّ هذا خير لكم في الدُّنيا و الآخرة لأنَّه يوجب العزّة في الدُّنيا و الثَّواب في الآخرة.

### لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ

قيل نزلت الآية في قوم تخلّفوا عن النَّبي و لم يخرجوا معه الى غزوة تبوك و الله تعالى بيّن في هذه الآية سبب تقاعدهم و تخلّفهم فقال لو كان عرضاً قريباً أي لو كان ما دعوا اليه غنيماً قريباً سهل المنال و سفراً قاصداً أي وسطاً مقارباً لاتبعوك **وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** أي المسافة الطويلة في غزو الروم و الشُّقَّة بالضمّ من الثَّياب و الشُّقَّة أيضاً السَّفر البعيد و ربما قالوه بالكسر قاله الجوهري.

و قيل الشُّقَّة الغاية التي تقصد و قال ابن عيسى الشُّقَّة القطعة من الأرض يشقُّ ركوبها و قال ابن فارس هي المسير الى أرض بعيدة **وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ** أي أنَّ المنافقين المتخلّفين عن الجهاد سيحلّفون بالله **لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** سدّ مسدّ جواب القسم والحاصل أنَّهم يعتذرون عن تقاعدهم و يقسمون بأنّهم لم نستطيع أي لم نقدر على الخروج.

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

## يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

أي يهلكون أنفسهم بالحلف الكاذب و يوقعونها في الهلاك به و الظاهر أنه إستئناف و إخبارٌ منه تعالى و يمكن أن يكون المراد يهلكون أنفسهم بسبب التّعاضد عن الجهاد الواجب و التّمرد من أمر الله و رسوله و الله يعلم أنّهم لكاذبون في حلفهم و إعتذارهم بعدم الإستطاعة بل كانوا مستطيعين قادرين و في الآية إشارة بل دلالة على أنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنّهم تخلّفوا عن القتال و الجهاد لأنّ المدعو اليه لم يكن عرضاً قريباً من الغنيمة و ما يطمعون فيه من المال و سفيراً سهلاً من غير طولٍ في آخره و لأجل ذلك لم ينفروا فكيف يحلفون بالله أن لو أستطعنا لخرجنا معكم.

بلى أنّهم كانوا مستطيعين قادرين على الخروج و لكن لم يخرجوا لما ذكرناه و فيه إيماء أيضاً الى عدم إيمانهم واقعاً فإنّ المؤمن لا يكون كذلك أي لا يترك الجهاد الذي أمره الله به لأجل الدنيا و مصالحها  
قال بعض المفسّرين في الآية دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل لأنّهم لا يخلون من أحد أمرين:

إمّا أن يكونوا مستطيعين من الخروج و قادرين عليه و لم يكونوا قادرين عليه و أمّا حلفوا أنّهم لو قدروا في المستقبل لخرجوا فإن كان الأوّل فقد ثبت أنّ القدرة قبل الفعل و أن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك و بين أنّه لو فعل لهم الإستطاعة لما خرجوا و في ذلك أيضاً تقدّم القدرة على المقدور و ليس لهم أن يحملوا الإستطاعة على آلة السّفرة وعدّة الجهاد لأنّه ترك الظّاهر من غير ضرورة فإنّ حقيقة الإستطاعة القدرة.

أقول ما ذكره موافق لما إستدلّ به أبو عليّ الجبائي فإنّه إستدلّ بها على أنّ الإستطاعة بها قبل الفعل و تبعه عليه الكعبي أيضاً بل عليه جميع المعزلة.  
و أمّا الأشاعرة فإنّهم حملوا الإستطاعة على الزّاد و الرّاحلة و هو بعيد و صرف اللفظ عن ظاهره.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ  
الْكَاذِبِينَ

هذا خطاب للرَّسُول ﷺ وفيه بعض العتاب له ﷺ في إذنه من  
إستأذنه في التَّأخُّر فأذِنَ له فأخبر الله بأنَّه كان الأولى عدم الإذن حتَّى إذا لم  
يخرجوا ظهر نفاقهم لأنَّه متى أذن لهم ثمَّ تأخَّروا لم يعلم أنَّ تأخَّره كان  
بالنِّفاق أو بغيرهم وكان الذين إستأذَنوه منافقين و حقيقة العفو الصَّفح عن  
الذَّنْب ومثله الغفران.

قال بعض المفسرين أنما قال عفى الله عنك على غير لفظ المتكلِّم لأنَّه  
أفخم من الكناية لأنَّ هذا الإسم من أسماء التَّعْظِيم كما أنَّ قولك أنَّ رأي الأمير  
أفخم من قولك أنِّي رأيت انتهي.

إِعلم أنَّ ظاهر الآية مشعر بصدور الذَّنْب من النَّبِيِّ ﷺ اذ لو لم يصدر منه  
ذنب فلامعني لقوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ فَإِنَّ العفو هو الصَّفح عن الذَّنْب.

قال أبو علي الجبائي في الآية دلالة على أنَّ النَّبِيَّ كان وقع منه ذنب في هذا  
الإذن قال لأنَّه لا يجوز أن يقال لم فعلت ما جعلت لك فعله كما لا يجوز أن  
يقول لم فعلت ما أمرتك بفعله ذكره في التَّبيان.

ثمَّ أجاب الشَّيْخُ ﷺ عنه بأنَّ قوله عفى الله عنك أنما هي كلمة عتاب  
له ﷺ ومعناه لم فعل ما كان الأولى أن لا يفعله لأنَّه وأن كان له فعله من  
حيث لم يكن محظوراً فَإِنَّ الأولى أن لا يفعله كما يقول القائل لغيره إذا رآه  
يعاتب أخاه لم عاتبته وكلمته بما يشقُّ عليه وكيف يكون ذلك معصية و قد  
قال الله في موضع آخر.

فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ<sup>(١)</sup>.

و أنما أراد الله أنَّه كان ينبغي أن ينتظر تأكيد الوحي فيه و من قال هذا ناسخ  
لذلك فعليه الدَّلالة انتهى كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

و قال بعض المحققين، ذهب ناس الى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل كان له أن يفعل وأن لا يفعل حتَّى ينزل عليه الوحي كما قال ﷺ لو إستبقت من أمري ما إستدبرت لجعلتها عمرة لأنه كان له أن يفعل وأن لا يفعل وقد قال الله: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ<sup>(١)</sup> لأنه كان له أن يفعل ما يشاء ممَّا لم ينزل عليه فيه وحي و إستأذنه المخلفون في التَّخلف وإعتذروا، إختار أيسر الأمرين تَكْرَماً و تفضلاً منه ﷺ فأبان الله تعالى أَنَّهُ لو لم يأذن لهم لأقاموا للفتاق الذي في قلوبهم و أَنَّهُم كاذبون في إظهار الطَّاعة و المشاورة فعفى الله عنك عنده إفتتاح كلام أعلمه الله به أَن لا حرج عليه فيما فعله من الإذن و ليس هو عفواً عن ذنب أَنَّمَا هو أَنَّهُ تعالى أعلمه أَنَّهُ لا يلزمه ترك الإذن لهم كما قال ﷺ عفى الله لكم عن صدقة الخيل و الرِّقيق و ما وجبا قطّ و معناه ترك أن يلزمكم ذلك انتهى كلامه.

و وافقه عليه قوم و قالوا أَنَّ العفو هنا لم يكن عن تقدّم ذنبٍ و أَنَّمَا هو إستفتاح كلام جرت عادة العرب ان تخاطب مثله لمن تعظمه و ترفع قدره يقصدون بذلك الدَّعاء له فيقولون أصلح الله الأمير كان كذا و كذا فعلى هذا صيغته صيغة الخبر و معناه الدَّعاء انتهى.

أقول و ممَّن أنكر كون العفو مسبوقاً بالذَّنب الفخر الرَّاзи فَأَنَّهُ قال إحتج بعضهم بهذه الآية على صدور الذَّنب عن الرِّسول من وجهين:

**الأول:** أَنَّهُ تعالى قال: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ و العفو يستدعي سابقة الذَّنب.

**الثاني:** أَنَّهُ تعالى قال: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ و هذا إستفهام بمعنى الإنكار فدلَّ هذا على أَنَّ ذلك الإذن كان معصيةً و ذنباً.

قال قتادة و عمرو بن ميمون أثنان فعلهما الرِّسول لم يؤمر بشيءٍ فيها إذنه للمنافقين و أخذه الفداء من الأسارى كما تسمعون.



والجواب عن الأول لا نسلم أن قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يوجب الذنب و لم لا يجوز أن يقال أن ذلك يدل على مبالغة الله في تعظيمه و توقيره كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظماً عنده عفى الله عنك ما صنعت في أمري و رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي و عافاك الله ما عرفت حقّي فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التّبحيل والتّعظيم.

قال علي بن الجهم فيما يخاطب به المتوكل و قد أمر بنفيه:

عفى الله عنك ألا حُرمة      تعود بعفوك أن أبعدا

ألم ترا عبداً عدى طوره      ومولى عفى ورشيد الهدى

أقلني أقالك من لم يَزَل      يقيقك ويصرف عنك الرّدى

والجواب عن الثاني أن نقول لا يجوز أن يقال المراد بقوله: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ الإنكار لأننا نقول.

أما أن يكون صدر عن الرّسول ذنب في هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب فإن قلنا أنه ما صدر عنه ذنب إمتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ إنكاراً عليه و أن قلنا أنه كان قد صدر عنه الذنب فقوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يدل على حصول العفو عنه و بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجّه الإنكار عليه فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال أن قوله لم أذنت لهم، يدل على كون الرّسول مذنباً و هذا جواب شاف قاطع.

وعند هذا يحتمل قوله لم أذنت لهم، على ترك الأولى و الأكمل و لاسيّما و هذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب و مصالح الدنيا انتهى كلام الرّازي.

و قال القرطبي قيل هو إفتتاح كلام كما تقول أصلحك الله و أعزك و رحمك كان كذا و كذا و على هذا التأويل يحسن الوقف عَفَا اللَّهُ عَنْكَ و أخبره بالعفو ما قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً و ساق الكلام الى أن قال و قال بعض العلماء إنما بدر منه ترك الأولى فقدّم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب إنتهى.

بَابُ فِي الْقَوْلِ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ



و العجب من الرّمخشري حيث قال في الكشّاف ما هذا لفظه.

عنى الله عنك، كناية عن الجناية لأنّ العفو رادف لها ومعناه خطأت و بشس ما فعلت، لمن أذنت لهم، بيان لما كنّى عنه بالعفو إنتهى كلامه خذله الله فى تفسير كلامه الله هكذا، و من الذى قال عفى الله عنك كناية عن الجناية من أهل اللغة و الأدب إلّا صاحب الكشّاف و على فرض كونه كذلك يمكن التعبير بوجه أحسن لا غفر الله له هذا ما قيل أو يقال حول الآية الشريفة و الذى يخطر بالبال هو أنّه لا شكّ في كون النّبي معصوماً و المعصوم لا يذنب و حيث أنّ ظاهر الآية يدّل على صدور الذّنّب عنه ﷺ و لذلك قال الله تعالى: عَفَا **اللَّهُ عَنْكَ** و قال: **لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ** فلاجد لنا من التكلّم حولها ولو إجمالاً

فنقول قال الرّاغب في المفردات العفو هو التجافي عن الذّنّب.

و قال في الذّنّب، الذّنّب في الأصل الأخذ بذنب الشّي يقال ذنبته أصبت ذنبه و يستعمل في كلّ فعلٍ يستوخم عقباه إعتباراً بذنب الشّي، إنتهى. و عليه فالعفو لا يكون إلّا بعد الذّنّب فإذا لم يكن ذنب لم يكن عفو أصلاً إذا عرفت هذا فلا شكّ في وجود العفو في الآية و هو قوله: **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ** و حيث ثبت أنّ العفو بعد الذّنّب و متفرّع عليه فنكشف من العفو أنّه كان هناك ذنب لا محالة ثمّ أنّ الذّنوب على قسمين: كبيرة و صغيرة.

**فالأولى:** مثل القتل و الزّنا، و شرب الخمر و أمثالهما و فى رأسها الشّرك بالله.

**الثانية:** ما دون ذلك و لا شكّ أنّ إطلاق الكبيرة و الصّغيرة على الذّنّب ليس على الحقيقة بل هو أمر نسبيّ فربّ ذنب يقال له الكبيرة بإعتبار و صغيرة بإعتبار آخر فلمس بدن المرأة أو تقبيلها صغيرة بالنسبة الى الزّنا و كبيرة بالنسبة الى النّظر اليها و الزّنا صغيرة بالنسبة الى قتلها و كبيرة بالنسبة الى مادونه من النّظر و اللّمس مثلاً و هكذا و لهذا قال بعضهم أنّ الكبائر لا تنحصر بعددٍ خاصّ ثمّ أنّ الذّنوب مطلقاً يعنى الكبيرة منها و الصّغيرة تتنوع بأنواع مختلفة

لأنّها قد تكون مآليّة و قد تكون بدنيّة و البدنيّة الى قوليّة و فعليّة و الفعلية تختلف باختلاف الآلات التي تفعل بها.

منها - ما يغيّر النعم.

منها - ما ينزل النقم.

منها - ما يقطع الرجاء.

منها - ما يدلّ الأعداء.

منها - ما يردّ الدعاء.

منها - ما يستحقّ بها نزول البلاء.

منها - ما يحبس غيث السماء.

منها - ما يكشف الغطاء.

منها - ما يعجلّ الفناء.

منها - ما يظلم لاهواء.

منها - ما يورث النّدم.

منها - ما يهتك العصم.

منها - ما يدفع القسم الى غير ذلك من أنواع الذّنوب من حيث الآثار المترتبة عليها اذا عرفت معنى الذّنوب و أنواعها و أقسامها فلنرجع الى أصل البحث و نقول:

لا شك أنّ الأنبياء لعصمتهم لم يرتكبوا الكبيرة قطعاً بلا خلاف الصّغيرة فإن كانت من سنخ ترك الأولى فلا إشكال فيه و أن كانت من سنخ غيره فهو أيضاً ينافي العصمة.

و المراد بترك الأولى هو أنّ التّرك أولى من الفعل و أحسن و أن كان الفعل أيضاً حسن و هذا كما في قصّة أبينا آدم حيث أكل من الشّجرة المنهيّة مع أنّ تركه كان أولى و قد يعبر عن هذا القسم من التّواهي بالنّهي التّزهيي و قد أجاز القوم هذا القسم من الذّنوب في حقّ الأنبياء عليهم السّلام و ما نحن فيه من هذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القبيل فقله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ، لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ إشارة إلى أن عدم الإذن كان أولى منه وهذا لا إشكال فيه ولا يضر بمقام العصمة وفي قوله: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا الخ إشارة إلى أن التأني في الأمور خير من العجلة فيها والله تعالى يؤدب رسوله ويرشده إلى ما هو بصلاحه أو لا مانع منه عقلاً وشرعاً ونظائره كثيرة في القرآن كما ستعرفها إن شاء الله تعالى.

وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الناس عبيد الدنيا والذين لعق على ألسنتهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون فينبغي للعاقل أن لا يغير بظاهر الشخص وكلامه قال الله تعالى وقليل من عبادي الشكور وإلى هذه النكتة أشار الله تعالى بقوله.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن المؤمنين بالله وباليوم الآخر لا يستأذنك في التأخر والتقاعد عن الجهاد وذلك لأن إيمانه يمنعه منه لعلمه بأن الطاعة واجبة عليه فإذا قال الرسول يجب إطاعته لأنه لا يقول إلا من الله تعالى وإنما يستأذنك المنافق الذي لم يؤمن بقلبه وأمن بلسانه وفيه إيماء إلى أن الميزان في معرفة المنافق وتمييزه عن المؤمن هو هذا.

ثم قال: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ أي أن الله تعالى يعلم من يتقي معصيته و يخاف عقابه ومن لا يتقي، وأن الله عالم بالضامات كما هو عالم بالظواهر وإذا كان كذلك فلا يعرف المنافق إلا هو لأن التفاضل أمر قلبي لا يطلع عليه أحد إلا الله وإلى هذا المعيار والميزان الذي ذكرناه في معرفة المنافق أشار الله تعالى بقوله حيث قال:

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ

بكلمة، أنعماء التي تفيد الحصر للدلالة على أن الأمر لا يكون غيرها ما ذكرناه و هو أن المستأذنين في التأخر عن الجهاد هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و إرتابت قلوبهم يعني إضطربت و شكّت فأُن الإرتياب هو الإضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرّة و التأخر أخرى و الريبة شكّ مع التهمة والله تعالى أشار بذلك الى علة نفاقهم أي أن علة نفاقهم هي إرتياب قلوبهم و إضطراب عقيدتهم فهم في ريبهم و شكهم يترددون و يتحيرون أي يذهبون و يرجعون.

و في هذا الكلام دلالة على أن المعارف ليست ضرورية بل هي كسيية اذ لو كانت ضرورية فلا معنى للتّحير و التردد فيها.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ  
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

بيّن الله تعالى في هذه الآية أن المستأذنين في عدم الخروج لم يريدوا الخروج أصلاً فكذبوا في إستئذانهم عدم الخروج و ذلك لأنهم لو أرادوا الخروج معك لأعدوا له عدة، أي لأعدوا للخروج معك ما يتهيأ لهم معها الخروج و لكن لم يكن لهم في ذلك نيّة بل كان قصدهم على أن النبي لو لم يأذن لهم في الإقامة فخرجوا ثم أفسدوا عليه و ضربوا بين أصحابه و أفسدوا قلوبهم فكره الله خروجهم على هذا الوجه لأن ذلك كفر و معصية والله لا يكره الخروج الذي أمرهم به و هو أن يخرجوا لنصرة نبيّه و قتال عدوّه و الجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك فثبّطهم الله أي حبسهم الله بالجبن.

يقال ثبّطه عن الأمور اذا حبسه و أشغله عنها و المعنى فحبسهم الله بالجبن عن الخروج الذي عرفوا عليه للإفساد و لكن لم يحبسهم عن الخروج بالحقّ الذي أمرهم به كسائر المؤمنين لأن الأولى كفر والثاني طاعة.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَ أَمَّا قَالَ ﷺ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ لَا عَلَى الْوَجْهِ الْإِذْنِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ بَعْضُ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ النَّبِيِّ نَصْرَةً لَهُ وَ رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ.

وَ إِحْتِمَالُ بَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ اللَّهِ فِي سَابِقِ قَضَاءِهِ. عَنْ الزَّمْخَشَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ جَعَلَ إِقْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ كِرَاهَةَ الْخُرُوجِ أَمْرًا بِالْقَعُودِ.

وَ قِيلَ هُوَ مِنْ قَوْلِ الشَّيْطَانِ بِالْوَسْوَسةِ.

أَنْ قُلْتُ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفُوسِهِمْ كِرَاهَةَ الْخُرُوجِ إِلَى الْغَزَا وَ قَبِيحَةَ وَ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْإِهَامِ الْقَبِيحِ.

قُلْتُ خُرُوجُهُمْ كَانَ مَفْسَدَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا فَكَانَ إِيقَاعُ كِرَاهَةِ ذَلِكَ الْخُرُوجِ فِي نَفُوسِهِمْ حَسَنًا وَ مُصْلِحَةً أَنْتَهَى مَا قَالَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ.

أَقُولُ لَا نَحْتَاجُ إِلَى هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِذَا كَانَ فِيهِ مَفْسَدَةٌ كَمَا هُوَ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَقَامِ فَعَدَمُ إِقْدَاءِ الْكِرَاهَةِ مِنَ اللَّهِ قَبِيحٌ لَا إِقْدَاءُهَا فَقَوْلُهُ كَيْفَ جَازَ لَا مَعْنَى لَهُ.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِتَةً وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

لَمَّا بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَرِيدُوا الْخُرُوجَ مَعَهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ وَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَيْضًا كَرِهَ إِنْجِعَانَهُمْ أَفَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ إِفْسَادًا أَوْ مَوْتًا فَأَنَّ الْخَبَالَ الْفَسَادَ وَ الْإِضْطِرَابَ فِي الرَّأْيِ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَوْتِ أَيْضًا وَ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا نَفْعَ فِي خُرُوجِهِمْ إِلَّا الضَّرْرَ.

وقوله: **وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ اِلْيَاضَاعِ الْاِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ بِطَرَحِ الْعَلْقِ**، قال الشاعر:

أرانا موضعين لأمر غيبٍ      ونسحر بالطعام وبالشراب  
و ربّما قالوا للركاب وضع بغير ألف ومنه وضعت النّاقة تضع وضعا و  
أوضعتها إيضاعاً قيل ومعنى إيضاعهم هاهنا هو إسرعهم في الدّخول بينهم  
للتّضريب بنقل الكلام على وجه التّخويف.

وقال الحسن مشوا بينكم بالنّميّة لإفساد ذات بينكم وملخص الكلام  
أنّهم لنفاقهم يفسدون عليكم ويقلّبون الأمور فعدمهم خير من وجودهم كيف  
وفيكم أيّها المؤمنون سمّاعون لهم أي فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم:  
**وَاللّٰهُ عَلَيْهِم بِالْظَّالِمِينَ** عالم بمن يستأذن النّبي في التّأخر شكّا في الإسلام و  
نفاقاً.

قال بعض المفسّرين لما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع و  
ضرب عبد الله بن أبي عسكره أسفل منها ولم يكن بأقلّ العسكرين فلما سار  
تخلّف عنه عبد الله فيمن تخلّف فنزلت بعريّ الله ورسوله الى قوله: **وَهُمْ كَارِهُونَ**.

وإختلفوا في الإستثناء في قوله: **إِلَّا خَبَالًا** فليل هو متّصل وهو مفرّع اذ  
المفعول الثاني، لزاد لم يذكر وقال قوم هو منقطع و تقديره ما زادوكم قوّة  
طلبوا لكم الخبال و يتحمل أن يكون المعنى أنّهم على خبالٍ في الرّأي فيعقده  
حتّى يصير خبالاً فعلى هذا يكون متّصلاً والمعنى واضح ثم أشار الله تعالى  
الى أن المنافق يطلب الفتنة دائماً فقال:

**لَقَدْ آتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ  
اللّٰهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**

اللَّامُ لِلْقِسْمِ وَقِيلَ لِلتَّأْكِيدِ فَعَلَى الْأَوَّلِ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يُبْتَغُوا الْفِتْنَةَ أَيَّ طَلَبُوا إِفْسَادَ ذَاتِ بَعْضِكُمْ وَإِفْتِرَاقَ كَلِمَتِكُمْ مِنْ جَعَلٍ وَهُوَ يَوْمٌ أَحَدٌ حَتَّىٰ إِنصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَأْسَحَابِهِ وَتَرَكَ النَّبِيَّ وَكَانَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ أُخْرَىٰ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُبْتَغُونَ لِلْإِسْلَامِ الْغَوَائِلَ قَبْلَ هَذَا فَسَلَّمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فِتْنَتِهِمْ وَصَرَفَهَا عَنْهُمْ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ.

قال ابن عباس بغوا لك الغوائل وقال بن جريح وقف اثني عشر من المنافقين على الثنية ليلة العقبة كي يفتكوا به.

وقال أبو سليمان الدمشقي إحتالوا في تشتيت أمرك وإبطال دينك و تقليب الأمور هو تدبيرها ظهر البطن والنظر في نواحيها وأقسامها والسعي بكل حيلة وقيل طلب المكيدة من قولهم هو حول قلب وقوله: حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ.

أشار بذلك أنهم بعد ظهور الحق وهو الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد خافوا على أنفسهم فسكتوا ظاهراً وهم في قلوبهم كارهون ظهور الحق بحيث لو قدروا على إطفاء نوره لأطفأوه ولكن الله يتم نوره ولو كره الكافروه وفيه تنبيه على أنه لا تأثير لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشر فأنهم مذ راموا ذلك رده الله في نحرهم وقلب مرادهم وأتى بضد مقصودهم فكما كان ذلك في الماضي كذا يكون في المستقبل.

إعلم أن بعض المفسرين أورد في المقام سؤالاً وجواباً لا بأس بالإشارة إليهما.

أما السؤال فحاصله أن خروج هؤلاء المنافقين مع الرسول ما كان فيه مصلحة بدليل أنه تعالى قد صرح بكونه خيلاً وفساداً وزاد في هذه الآية أنهم لقد إبتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور ومن كان كذلك فالمصلحة في عدم خروجه قطعاً وإذا كان كذلك أي كان الأصوب الأصلح عدم الخروج فلم



عاتب رسوله في الإذن و قال له عفى الله عنك، لم أذنت لهم، على ما مرّ الكلام فيه.

وأجاب عنه بأنه لا دليل لنا على أن العتاب كان في إذنه ﷺ للقعود و عدم الخروج كما عليه القوم بل يحتمل أن يكون العتاب على إذنه لهم في الخروج و بعبارة أخرى لعله ﷺ أذن لهم في الخروج فعاتبه الله عليه بدليل هذه الآيات و عليه فالمعنى لم أذنت لهم بالخروج معك و قد ثبت كونهم منافقين و المنافق مفسد و الله أعلم بحقيقة كلامه فأَنَّ الأقوال في تفسير الآيات كثيرة في التفاسير.



وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي  
 الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ  
 (٤٩) إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ  
 مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا  
 وَهُمْ فَارِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ  
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
 الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى  
 الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ  
 بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيُدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ  
 مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ  
 يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا  
 مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا  
 بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ  
 كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا  
 تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ  
 لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ  
 وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ  
 وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦)

### ◀ اللّٰغَة

وَلَا تَفْتِنِّي أَي لَا تَوَقِعْنِي فِي الْفِتْنَةِ.

تَرَبَّصُونَ مضارع ماضيه تَرَبَّصَ وَ التَّرَبُّصُ الانتظار.

تَرْهَقَ، الزُّهوق الخروج بسهولة.

### ◀ الإعراب

هَلْ تَرْبُصُونَ وَالْأَصْلُ تَتَرَبَّصُونَ فَسَكَنَ التَّاءُ الْأَوَّلَى وَأَدْغَمَهَا وَوَصَلَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَكَسَرَتْ اللَّامَ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مَفْعُولٌ فَتَرَبَّصْ أَنْ تُقْبَلَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بَدَلًا مِنَ الْمَفْعُولِ فِي مَنْعِهِمْ أَنْهُمْ كَفَرُوا فِي مَوْضِعِ الْفَاعِلِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ فَسَحَ اللَّهُ، وَأَنْهُمْ كَفَرُوا، مَفْعُولُهُ أَيَّ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا.

### ◀ التفسير

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَأُذْنُ لِي وَلَا تَفْتَنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ

قِيلَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا أَمْرٌ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ قَالَ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ هَلْ لَكَ الْعَامُ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ وَقَالَ لَهُ وَ لِلنَّاسِ أَغْرَوْا تَغْنَمُوا بَنَاتِ الْأَصْفَرِ فَقَالَ الْجَدُّ أَأُذْنُ لِي فِي التَّخَلُّفِ وَلَا تَفْتَنِّي بِذِكْرِ بَنَاتِ الْأَصْفَرِ فَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنِّي لَا أَتَمَالِكُ عَنِ النِّسَاءِ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ وَ تَفْتَنِّي وَلَا تَفْتَنِّي هُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٍ وَ قِيلَ وَلَا تَفْتَنِّي أَيَّ وَلَا تَصْعَبْ عَلَيَّ حَتَّى أُحْتَاجَ إِلَى مَوَاقِعَةٍ مَعْصِيَتِكَ فَسَهِّلْ أَنْتَ عَلَيَّ وَ دَعْنِي غَيْرَ مُخْتَلَجٍ وَ هُوَ قَوْلُهُ قَتَادَةُ وَ الْحَسَنُ قَالُوا أَلَا تَكْسِبُنِي الْأَثَمَ بِأَمْرِكَ أَيَّايَ بِالْخُرُوجِ وَ هُوَ غَيْرُ مَتَيْسِرٍ لِي فَأَتَمُّ بِمُخَالَفَتِكَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ لَا تَكْفُرْنِي بِالْإِزَامِكِ الْخُرُوجِ مَعَكَ.

وَقِيلَ لَا تَفْتَنِّي فِي الْهَلَكَةِ فَأَنِّي إِذَا خَرَجْتَ مَعَكَ هَلَكَ مَالِي وَ عِيَالِي وَ الْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ وَ الْجَامِعُ بَيْنَهَا أَنَّهُ أَيُّ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَوْ غَيْرِهِ خَاطَبَ الرَّسُولَ بِقَوْلِهِ وَ لَا تَفْتَنِّي أَيَّ لَا تَوَقَّعْنِي فِي الْفِتْنَةِ وَ لَا تَوَثِّمْنِي بِأَنْ تَكْلَفْنِي الْمَشَقَّةَ فِي ذَلِكَ فَأَنِّي لَا أُرِيدُ الْخُرُوجَ وَ لَكِنْ إِذَا أَمَرْتَنِي بِهِ وَ لَا أَخْرَجَ كُنْتُ عَاصِيًا وَ يَعْلَمُ مَنْ

بَابُ الْقِيَامَةِ فِي الْفِتْنَةِ



ذلك نفاق القائل لأنَّ المؤمن لا يقول أئذن لي في القعود عن الجهاد و أيضاً لا يعبر عن الجهاد في سبيل الله بالفتنة ثم ردَّ الله تعالى عليه وقال: **أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**.

و المقصود من هذا الكلام هو أنَّ القائل و أمثاله يضرّون من الفتنة بزعمهم و لم يعلموا أنَّهم سقطوا فيها و أيّ فتنة أعظم و أشدَّ من فتنة النفاق و عدم قبول الحقِّ واقعاً و يظهر من هذا الكلام بقرينة السياق أنَّ المراد بالفتنة هو الهلكة و ذلك لأنَّ الجهاد قد يكون فيه الموت و القتل و الأسر و هذه الأمور أن لم تكن في الواقع من الهلكة بل هي من مصاديق الحياة الأبدية إلاَّ أنَّها بزعم المنافق الذي لا يعتقد بالأخرة و ما فيها تُعدُّ من الهلكة و قوله: **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** يدلُّ على أنَّ المنافق في حكم الكافر من حيث العذاب بل هو أشدَّ منه بحسب الآيات و الأخبار و في قوله: **لَمُحِيطَةٌ** إشارة الى نكتة خفية و هي أنَّ الكافر و المنافق لا يمكن له الفرار من العذاب فيها لأنَّ معنى الإحاطة هو الإستيلاء على المحاط من جميع الجوانب و الجهات.

قال الله تعالى: **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ مُّحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **يَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**<sup>(٥)</sup>.

و المعنى أنَّ الله تعالى غالبٌ عليهم و اليّ هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال و لا يمكن الفرار من حكومتك لأنَّ فرار المحاط عن

المحيط غير معقولٍ اللهم إلا أن يكون المحيط ناقصاً في إحاطته و حيث أن جهنم كاملٌ فيها فالكافر يبقى فيها أبداً.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ

هذا خطاب من الله تعالى لنييّه بأن هؤلاء المنافقين ان تصيبك حسنة تسؤهم، أي تصيبك نعمة من الله أو ظفر بالأعداء أو غنيمة في الحرب ساءهم ذلك و أحزنهم لبخلهم و حسدهم عليك و إن تصيبك مصيبة أي مصيبة كانت يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل و معناه قد حذرنا و أحترزنا و قيل معناه أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة فسلمنا ممّا و قعوا فيه.

و قال ابن عباس الحسنة في يوم بدر و المصيبة يوم أحد و الحق أن اللفظ عام في كلّ مكروه و محبوب.

نعم سياق الحمل يقتضي أن يكون ذلك في الغزو و لذلك قالوا الحسنة الظفر و الغنيمة و المصيبة الخيبة و الهزيمة مثل ما جرى في أول غزوة أحد و يحتمل أن يكون المراد، بأمرنا، الذي نحن متسمون به من الحذر و التيقظ و العمل بالجزم في التّخلف عن الغزو من قبل ما وقع من المصيبة و قوله: يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ يحتمل أن يكون التّولي حقيقة أي و يتولّوا عن مقام التّحديث بذلك و الاجتماع له الى أهليهم و هم مسرورون، و قيل معناه أعرضوا عن الإيمان.

و قيل عن الرسول فيكون التّولي مجازاً.

أقول و لعلّه من دأب كلّ إنسان بالنسبة الى عدوه و لا يعلم أنّ ما يصيب الإنسان من قبل الله فهو متعلّق بالقضاء و القدر و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُؤْمِنُونَ

أي قل لهؤلاء المنافقين الشّامتين الذين يفرحون بمصائب المؤمنين، لن يصيبنا من قبل الله تعالى إلا ما كتب الله لنا، خيراً كان أو شراً فهو ممّا كتبه الله في اللّوح المحفوظ وليس على ما تظنون و تتوهمون من إهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا الى تدبير ربنا هذا قول الحسن.

و قال الجبائي و الرّجاج يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في غاية أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النّصر الّذي وعدنا.

و قيل يجوز أن يكون، كتب، بمعنى، علم أو حكم، و قوله: هُوَ مَوْلَانَا أي هو ناصرنا و حافظنا، أو مالكنّا و سيّدنا فيتّصرف كيف شاء فيجب الرّضا بما يصدر من جهته.

قال الله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(٢)</sup>.

و التّوكل تفويض الأمر اليه و الرّضا بتدبيره و الثّقة بحسن إختياره.

قال الرّازي في قوله: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا أقوال

أحدها: أن المعنى أنّه لا يصيبنا خيرٌ و لا شرٌ و لا خوف و لا رجاء و لا شدّة و لا رخاء إلاّ و هو مقدّر علينا مكتوب عند الله و كونه مكتوباً عند الله يدلّ على كونه معلوماً عند الله مقضياً به عنده فأَنْ ما سواه ممكن و الممكن لا يترّجح إلاّ بترجيح الواجب و الممكنات بأسرها منتهية الى قضاءه و قدره.

و أعلم أنّ أصحابنا يتّمسكون بهذه الآية في أنّ قضاء الله شامل لكلّ المحدثات و أنّ تغيير الشّيء عمّا قضى الله عليه محال و تقرير هذا الكلام من وجوه.

أحدها: أَنَّ الموجودات أَمَّا واجبٌ و أَمَّا ممكنٌ و الممكن يمتنع أن يترجح أحد طرفيه على الآخر لنفسه فوجب انتهاءه إلى ترجيح الواجب لذاته سواء فواجبٌ بإيجاده و تدبيره و تأثيره و تكوينه و لهذا المعنى قال النبي ﷺ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثانيها: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَتَبَ جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فلو وقع الأمر بخلافها لزم إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصدق كذباً و كل ذلك محال انتهى كلامه.

أقول ما ذكره من أَنَّ ما سواه ممكنٌ و الممكن لا يترجح إلا بترجح الواجب إلى آخر ما قال لا كلام لنا فيه إلا أَنَّ قوله و أَنَّ تغيير الشئ عَمَّا قضى الله عليه فمحال.

فأن أراد به تغيير الشئ عَمَّا قضى الله عليه بيد غيره من المخلوقات مثلاً فهو محال قطعاً و أن أراد به عدم إمكان تغييره ذاتاً حتّى أَنَّ الله أيضاً لا يقدر على تغيير ما قضى عليه سابقاً فهو يحتاج إلى الإثبات و ذلك لأنَّ الله تعالى إذا قضى بشئ لا مانع له من تغييره إذا شاء و الدليل عليه من العقل أَنَّهُ تعالى فاعلٌ بالإختيار لا فاعلٌ موجب يعني بالإيجاب و القادر المختار يتعرف في قضاءه بما شاء، و من النّقل قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup> و أن شئت زيادة توضيح في ذلك فأعلم أَنَّ لله كتابين أو لوحين، كتاب القضاء و القدر الَّذي يعبر عنه باللّوح المحفوظ، و كتاب المحو و الإثبات المعبر عنه باللّوح المحو و الإثبات، فيثبت في الأوّل و يمحوا في الثاني نعم تغيير اللّوح المحفوظ مختصّ به تعالى و هذا ممّا لا شك فيه.

و أَمَّا قوله: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَتَبَ جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فهو صحيح.

نبينا القرآن  
في تفسير القرآن



الجزء  
الثاني

و أما قوله: فلو وقع الأمر بخلافها لزم الإنقلاب يعني إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصدق كذباً وكل ذلك محال.

فنقول في جوابه أنه تعالى كما علم ما في اللوح المحفوظ و حكم به علم يتغيره و أن الأمر سيقع بخلافه و اذا كان كذلك فلا يلزم إنقلاب العلم جهلاً حكم الصدق كذباً نعم لو كان عالماً بما في اللوح المحفوظ و جاهلاً بتغيره لزم منه ما ذكره من المحاذير و لا نقول به.

و أما الحديث الذي رواه عن النبي على فرض صحته و صدوره عنه فهو لا يدل على ما ذكره في البا و رضي به لأن معناه أن ما هو كائن و ثابت في علمه الأزلي لا يتغير و لا يتبدل و هذا ممّا لا كلام لأحد فيه و أين هذا ممّا إدّعاه المستدل فإن الحديث لا يدل على أن ما علمه و كتبه في اللوح المحفوظ كائن الى يوم القيامة كما هو المدعى بل يدل على أن علمه الأزلي بشي لا يتغير و المفروض أنه تعالى عالم بعلمه الأزلي بأن ما كتبه في اللوح المحفوظ لا يبقى بل يمحو و يثبت شي آخر و لكن المستدل حيث أنه من الأشاعرة القائلين بالجبر غير كلام الله وكلام رسوله على طبق مسلكه.

و ليت شعري لو كان الأمر كما ذكره فما معنى قوله تعالى: **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** من أي شي يمحو و في أي شي يثبت هذا ورد في كثير من الأخبار أن الإحسان بالوالدين مثلاً يزيد في العمر و قتلها ينقص فيه.

أن قلت فما معنى قوله: **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**.

قلت معناه لن يصيبنا إلا ما كتبه الله بعلمه الأزلي و بعبارة أخرى لن يصيبنا إلا ما علم الله لنا سواء كان في اللوح المحفوظ أم كان في المحو و الإثبات و ذلك لأن الله تعالى هو مولانا أي هو أولى بالتصرف فينا كيف يشاء بالفقر و الغنى و الموت و الحياة و الشدة و الرخاء و غير ذلك فإن العبد و ما في يده كان لمولاه فهو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون و اذا كان كذلك فلا جرم عليه



يتوكل المؤمنون أي يفوضون أمورهم اليه في جميع الشئون كما هو وظيفة العبد الحقيقي بالنسبة الى مولاه و السرفيه هو أن الله عالم بكل الأشياء و قادر على كل شيء و اذا عرف المؤمن ذلك المعنى فالعقل يحكم بتفويض الأمر اليه فإنه أعرف بمصالح العباد منهم و لا يحكم في حقهم إلا بما هو خير لهم في الدنيا والآخرة.

قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ التَّرَبُّصُ، الإنتظار و قيل التَّربص التمسك بما ينتظر به مجي حينه و لذلك قيل تَرَبَّص بالطعام، وقرأ بعضهم تَرَبُّصُونَ بتشديد التاء و أن الأصل فيه، تَرَبَّصُونَ، فأدغم أحد التائين في الأخرى، أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المنافقين هل تَرَبُّصون بنا أي ما ينتظرون بنا إلا إحدى الحسينين أي إحدى العاقبتين كل واحدةٍ منهما هي الحسنی من العواقب إما النُصرة و أما الشَّهادة فالنُصرة مألها الى الغلبة و الإستيلاء، و الشَّهادة مألها الى الجنة.

و قال ابن عباس إن المراد بالحسينين الغنيمة و الشَّهادة، و قيل الأجر و الغنيمة و قيل الشَّهادة و المغفرة و نحن نترَبص أي ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده.

و اختلفوا في المراد به ف قيل هو هنا الصَّواعق قاله ابن عباس، و قيل الموت و قيل قارعة من السماء تهلكهم كما نزلت على عاد و ثمود و قيل المراد به عذاب الآخرة.

و قوله: أَوْ يَأْخُذُنَا أي بالقتل على الكفر، فَتَرَبَّصُوا صورته صورة الأمر و المراد به التهديد:

قال الله تعالى: **أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** <sup>(١)</sup>.

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٠

الحمد لله

قال الله تعالى: **وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَغَفْتَ** <sup>(١)</sup>.

**إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** أي منتظرون وحاصل المعنى هو إن الله تعالى أمر رسوله بأن يقول بهم ما تنتظرون بنا فهو خير لنا لأنه إحدى الحسينين وأما ما ننتظر بكم فهو العذاب من الله وبأيدينا فتربصوا أنا معكم متربصون، أي فأنظروا أنا معكم من المنتظرين ففي الآية دلالة على أن المؤمن المجاهد في سبيل الله لا يخلو حاله إما أن يقتل في سبيل الله أو يغلب على العدو وكلاهما خير.

وأما الكافر والمنافق فليس كذلك سواء قتل في المعركة أم لا فعلى التقديرين هو مخدول مطرود أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المنافقين أنفقوا صورته صورة الأمر وفيه ضرب من التهديد والتوبيخ.

وقال صاحب الكشف هو أمر في معنى الخير كقوله تعالى قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً، ومعناه لن يتقبل الله منكم الإنفاق أنفقتم طوعاً أو كرهاً ونحوه قوله تعالى: **إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** وعن بعضهم غير هذا بأن معناه الجزاء والشرط أي أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً لن نتقبل منكم و قيل أنفقوا أمر في ضمنه جزاء، وكلمة لن لنفر الأبد وقوله: **إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ فَاسِقِينَ** بمنزلة التعليل لعدم القبول وفيه إيماء إلى أن الله يتقبل من المتقين.

وأما الفاسقون فلا لأن شرط القبول الإيمان والفاسق لكونه متمرداً عن طاعة الله لا يقبل منه ولعل الوجه فيه هو أن الفاسق والكافر أنما ينفق ماله للرياء ودفعاً عن نفسه ولا يطلب به رضى الله ثم أوضح الله تعالى كلامه بقوله:

**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**

ذكر الله تعالى في هذه الآية السَّبَبَ الَّذِي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر وأتبعه بما هو ناشٍ عن الكفر ومستلزم له وهو دليل عليه وذلك هو إتيان الصَّلَاة وهم كسالى وإتياء النَّفَقَةِ وهم كارهون فقال.

وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ وكلمة ما، في قوله: وَمَا مَنَعَهُمْ نافية أي ليس عدم قبول نفقاتهم إلا ما ذكرناه والمنع أمرٌ يَضَادُ الفعل وينافيه.

وقال بعضهم معناه أَنَّ هؤلاء المنافقين منعوا أنفسهم أن يفعل بهم قبول نفقاتهم كما يقول القائل منعه برِّي وعطاني انتهى.

أقول يستفاد من الآية أَنَّ المانع من قبول نفقاتهم من قبل أنفسهم وبعبارة أَنَّهُم بإختيارهم أوجدوا المانع وهو الكفر بالله وبرسوله الخ.

وقيل تقدير الكلام وما منعهم الله أن تقبل منهم نفقاتهم إلا الكفر بالله وبرسوله الخ أي أن لم يكونوا كذلك فَأَنَّ الله تعالى يَتَقَبَّلُ منهم كما يَتَقَبَّلُ من غيرهم من المؤمنين، وهذا الوجه ضعيف إذ لا نحتاج إلى التقدير مع أَنَّهُ خلاف الأصل والمانع أَنَّمَا هو كفرهم وَأَمَّا أَنَّ الله منعهم فلا دليل عليه ومحصل الكلام في المقام هو أَنَّ الله تعالى أخبر بها عن حقيقة هي الأصل في قبول الأعمال والطاعات والنِّفَقَاتِ وهي أن لا يكون فاعلها مُتَّصِفًا بالفسق والكفر وأمثال ذلك ومجرّد الإتيان بالصَّلَاة وإعطاء الأموال لا يكفي في القبول إذا لم تكن الصَّلَاة عن نشاطٍ ورغبة والإنفاق بغير كراهية فَأَنَّ العمل إذا صدر عن فاعله عن كسالةٍ وكراهية فهو كالعدم.

وإِعلم أَنَّهُ هَاهُنَا كلام لا بد لنا من الإشارة إليه والجواب عنه وهو أَنَّ الجبائي قال، دَلَّت الآية على أَنَّ الفسق يحيط بالطاعات لِأَنَّهُ تعالى بيَّن فيها أَنَّ نفقتهم لا تقبل البتَّة وعُلِّلَ ذلك بكونهم فاسقين ومعنى التَّقَبُّل هو الثَّوَاب والمدح وإذا لم يَتَقَبَّل ذلك كان معناه أَنَّهُ لا ثواب ولا مدح فلَمَّا عُلِّلَ ذلك بالفسق دَلَّ على

أَنَّ الْفَسْقَ يُؤَثِّرُ فِي إِزَالَةِ هَذَا الْمَعْنَى وَحَيْثُ أَنَّ الْفَسْقَ يُوجِبُ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ  
الدَّائِمِينَ وَالطَّاعَةَ تَوْجِبُ الْمَدْحَ وَالْثَّوَابَ كَذَلِكَ وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ فَكَأَنَّ  
الْجَمْعَ بَيْنَ الْإِسْتِحْقَاقَيْنِ مُحَالًا.

وَقَالَ الرَّازِي بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

وَعِلْمُهُ أَنَّهُ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَذْكَرَ هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ بَعْدَ مَا أزالَ اللَّهُ هَذِهِ  
الشَّبْهَةَ عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: **وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ** فَبَيَّنَ تَعَالَى بِصَرِيحِ هَذَا اللَّفْظِ أَنَّهُ لَا مُؤَثِّرَ فِي مَنَعَ  
قَبُولِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ إِلَّا الْكُفْرَ وَعِنْدَ هَذَا يَصِيرُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ  
عَلَى أَنَّ الْفَسْقَ لَا يَحْبِطُ الطَّاعَاتِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**  
فَكَأَنَّهُ سَأَلَ سَائِلًا وَقَالَ هَذَا الْحُكْمُ مُعَلَّلٌ بِعُمُومِ كَوْنِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ فَسِقًا أَوْ  
بِخُصُوصِ كَوْنِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ مَوْصُوفَةً بِذَلِكَ الْفَسْقِ فَبَيَّنَ تَعَالَى مَا أزالَ هَذِهِ  
الشَّبْهَةَ وَهُوَ أَنَّ عَدَمَ الْقَبُولِ غَيْرُ مُعَلَّلٍ بِعُمُومِ كَوْنِهِ فَسِقًا بَلْ بِخُصُوصِ وَصْفِهِ وَ  
هُوَ كَوْنُ ذَلِكَ الْفَسْقِ كُفْرًا فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ بَاطِلٌ انْتَهَى.

أَقُولُ أَنَّ هَذَا النِّزَاعَ بَيْنَ الْجَبَائِنِ وَالرَّازِي لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍّ وَذَلِكَ لِأَنَّ  
الْفَسْقَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** لَيْسَ مُقَابِلًا لِلْكَفْرِ  
فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ** وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَسْقِ الَّذِي عُلِّقَ عَلَيْهِ عَدَمُ  
قَبُولِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُمْ هُوَ الْفَسْقُ الْحَاصِلُ لَا مُطْلَقَ الْفَسْقِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْفَسْقَ بِهَذَا الْمَعْنَى مَانِعٌ مِنْ قَبُولِ الطَّاعَاتِ وَيَعْضِدُهُ قَوْلُهُ  
تَعَالَى **وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ** وَأَنَّ  
شَتَّى قِلَتِ الْفَسْقِ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

قِسْمٌ مِنْهُ يُقَابِلُ الْكُفْرَ بِمَعْنَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ وَذَلِكَ كَفَسَاقِ  
الْمُؤْمِنِينَ وَقِسْمٌ يَجَامِعُ الْكُفْرَ كَفَسَاقِ الْكُفَّارِ وَالَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ  
الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا نِزَاعَ فِي الْبَيِّنِ هَذَا مَا أَفَادَهُ بَعْضُ  
الْمُحَقِّقِينَ.

ولقائل أن يقول اذا كان الفسق بمعنى الفسق بالكفر فما تقولون في قوله: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى أليس مفهوم هذا الكلام أنهم يصلّون ومن المعلوم أن الكافر لا يصلّي أصلاً كسالى وغير كسالى،

ويمكن الجواب عنه بأن المراد بالكفر ليس كفر المصطلح أعني به إنكار التوحيد والنبوة والأخرة بل المراد هو كفر النعمة وذلك لأن الفسق يجمع معه وأما الكفر بمعنى الإرتداد أو الإنكار فهو فوق الفسق والكافر بهذا المعنى يصلّي ويصوم ويحجّ وهكذا وعليه فقول القائل المراد بالفسق هو الفسق بالكفر يحمل على ما ذكرناه.

وأما الكافر بالكفر الأصلي فلا يصلّي هذا ما فهمناه من الآية والله أعلم بمراده.

وأما قول الجبائي بالإحباط فهو مردود والإحباط باطل ولتنصيل الكلام فيه محل آخر سيأتي إن شاء الله تعالى.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

لما قطع الله رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة بيّن في هذه الآية أن الأشياء التي تظنونها من منافع الدنيا لهم كالأموال والأولاد والمقام وأمثال ذلك جعلها الله تعالى أسباباً ليعذبهم بها في الدنيا فالمعنى لا يعجبك أيها السامع أموالهم وأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم أي تخرج أرواحهم عن أجسادهم حين الموت وهم كافرون، الواو للحال أي والحال أنهم كافرون والزّهق الخروج بصعوبة وشدة وهذا عذابهم في الدنيا وأما العذاب في الآخرة فهو على حاله.

وإعلم أن الله تعالى ذكر قبائح أفعال المنافقين وفضائح أعمالهم أولاً. وذكر ما لهم في الآخرة من العذاب الشديد وفي الدنيا وجوه المحنة والبلية ثانياً.

في القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

و ذكر بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر من الإنفاق وغيره لا ينتفعون به يوم القيامة ثالثاً.

ثم ذكر في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا كالأموال والأولاد فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلاءهم في الدنيا والآخرة وعند هذا يظهر أن التفاق أم الأفات في الدنيا والآخرة و مبطل لجميع الخيرات فيهما اذا عرفت هذا فلا بد لنا من بيان كون الأموال والأولاد سبباً للعذاب فنقول:

الاعجاب السُّرور بالشئ مع نوع من الافتخار به وإعتقاد أنه ليس لغيره ما هو له وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال ثلاث مهلكات شح مطاعٌ وهوى متبعٌ وإعجاب المرء بنفسه.

نقل عن بعض المحققين أنه قال الموجودات بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام:

**الأول:** أن يكون الموجود أزلياً وأبدياً أي لا أول ولا آخر له وهو الله جل جلاله.

**الثاني:** الموجود الذي لا يكون أزلياً ولا أبدياً عكس الأول وهو الدنيا فيها **الثالث:** الموجود الذي يكون أزلياً ولا يكون أبدياً وهذا محال لأنه ثبت بالدليل أن ما ثبت قدمه إمتنع عدمه.

**الرابع:** ما يكون أبدياً ولا يكون أزلياً وهو الآخرة فإن الآخرة لها أول لكن لا آخر لها وكذا المكلف مطيعاً كان أو عاصياً فله أول ولا آخر له وبذلك تثبت المناسبة بين المكلف وبين الآخرة أشد من المناسبة بينه وبين الدنيا ويظهر منه أن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا ويؤيده قوله ﷺ خلقتم للبقاء لا للفناء فينبغي أن لا يميل قلبه الى الدنيا لعدم المناسبة فإن المسكن الأصلي هو الآخرة.

ثم أن الأموال والأولاد لا شك أنها من نعم الدنيا وزيتها قال الله تعالى: **الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الدُّنْيَا** وإذا كان كذلك فكيف تكون الأموال والأولاد سبباً للعذاب في الدنيا والآخرة.

قال بعضهم أما كونها سبباً للعذاب في الدنيا فلائن الإنسان يحب أولاده و أمواله حباً شديداً و قد ثبت أن كل من كان حبه للشئ أشد و أقوى كان حزنه و تألم قلبه على فواته أعظم و أصعب و هذا أي الخوف على فواتها عذاب لصاحب المال و الأولاد في الدنيا فكلما كانت التعلقات أكثر كان العذاب الناشئ عن الفوات أشد هذا أولاً.

ثانياً: أن الإنسان يحتاج في تحصيل المال و الأولاد الى تعب شديد و مشقة عظيمة ثم بعد حصولها يحتاج في حفظها الى متاعب أشد و أصعب لأن حفظ النعمة أصعب من إكتسابه فالمشغوف بها يكون في تعب الحفظ أبداً و مع ذلك لا ينتفع إلا بالقليل منها فالتعجب كثير و النفع قليل و أي عذاب أشد منه في الدنيا و قد ذكروا وجوهاً آخر غير ما ذكرناه و لكن الإنصاف أنه لا يرجع الى محصل و ذلك لأن المال و الأولاد في كثير من الموارد لا يكون موجباً لهذه الآلام فالقول بأن المال و الأولاد يوجب العذاب في الدنيا على وجه الكلية و الإطلاق لا دليل عليه.

نعم يكون كذلك بالنسبة الى بعض الأفراد كالمنافقين مثلاً و الآية نزلت فيهم لا فيهم و غيرهم كائناً من كان و لا شك أن المنافق و الكافر و بالجملة كل من لم يؤمن بالله و باليوم الآخر يكسب هذه النعم من غير طريقها و يصرفها كذلك و إذا كان المال قبلاً حاصلاً للإنسان من طريق الحرام فهو موجب للعذاب في الدارين.

أما في الدنيا فلائها تبقى بعده و لا يبقى لصاحبها إلا الحسرة و الندامة حين الموت.

و أما في الآخرة فلائها حصلت له من غير طريقة فلا يبقى له إلا الوزر و الوبال و ما كان كذلك فعدمه أولى من وجوده و هذا بخلاف المؤمن فأنه يكتسب المال من طريقه المأذون شرعاً و عقلاً و يصرفه كذلك فالمال يكون سبباً لترفيه مقامه في الآخرة و كونه محبوباً عند الناس في الدنيا و السرفه هو

أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُؤَقٍّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَلَا وَحَصْلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْمَالَ بَلْ وَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا وَطَبِيعَتُهَا خَيْرٌ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي تَحْصِيلِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُنَافِقِ سَبَبٌ لِلْعَذَابِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِ سَبَبٌ لِلرَّحْمَةِ وَالتَّقَرُّبِ وَقَوْلُهُ: **وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ حَالُ الْمَوْتِ يَكُونُونَ بِصِفَةِ الْكُفْرِ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْ تَعَالَى بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَمُوتُونَ كَافِرِينَ.

أَمَّا قَوْلُ الْأَشَاعِرَةِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ إِزْهَاقَ نَفْسِهِمْ مَعَ الْكُفْرِ وَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَادَ الْكُفْرَ، فَهُوَ بَاطِلٌ لِأَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: **وَهُمْ كَافِرُونَ** لِلْحَالِ أَيَّ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مَدَّةَ عَمْرِهِمْ وَهَذَا وَاضِحٌ.

وَأَمَّا أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ فِي حَالِ مَوْتِهِمْ فَالْكَلَامُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَصْلًا هَذَا كُلُّهُ مُضَافًا إِلَى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ فَلَمْ يَعْذِبْهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ الْمَفْرُوضَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِلْكَفْرِ أَوْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ وَمَا شَاءَ اللَّهُ وَأَرَادَ فَهُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ فَأَيُّ ذَنْبٍ لِلْمَخْلُوقِ الَّذِي أَوْجَدَهُ كَذَلِكَ.

**وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**  
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ، أَيَّ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْكُمْ وَاقِعًا **وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** أَيَّ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ، مِنْ إِظْهَارِ الْكُفْرِ لثَلَا يَقْتُلُوا وَ الْفِرْقَ إِزْجَاجَ النَّفْسِ بَتَوَقُّعِ الضَّرَرِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ يَخَافُونَ إِطْلَاقَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ فَيَحِلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالْكَفَّارِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِسْلَامِ تَقِيَّةً وَأَعْلَمُ أَنَّ ضَرَرَ النِّفَاقِ أَكْثَرُ مِنْ ضَرَرِ الْكُفْرِ لِأَنَّ الْكَافِرَ يَعْرِفُ حَالَهُ وَالْمُنَافِقَ لَا يَعْرِفُ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَدْ حَذَّرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْآيَاتِ النَّازِلَةَ فِي شَأْنِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا



ورد في شأن الكفار ولزوم الإجتنب منهم و قد قال الله تعالى فيهم: إِنَّ  
 الْمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ<sup>(١)</sup> ولم يقل هذا في حق الكفار أعاذنا الله  
 من شرورهم بحق محمد وآله.



لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغَارًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا  
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي  
الْصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ  
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ  
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا  
اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى  
اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ  
الْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ  
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ  
ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ  
(٦٠) وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ  
أَذْنُ قُلْ أَذْنُ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ  
يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)  
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ  
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ  
يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ  
جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

### ◀ اللغة

مَلَجًا، المَلَجُ بفتح الميم إسم مكان من لجأ و هو الموضع الذي يتحصن فيه و مثله المعقل و المونل.

مَغَارَاتٍ بَفَتْحِ مِيمٍ جَمْعُ مَغَارَةٍ وَ هِيَ الْمَدْخَلُ السَّاتِرُ لِمَنْ دَخَلَ فِيهِ مَعْنَاهَا الْغَيْرَانِ.

مُدْخَلًا بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الدَّالِّ الْمَسْلُوكِ الَّذِي يَتَدَسَّسُ بِالذَّخُولِ فِيهِ وَ أَصْلُهُ، مَتَدَخَلَ.

لَوْلَا إِلَيْهِ يَجْمَحُونَ الْجَمَاحَ مَضِي الْمَاءِ مَسْرَعًا عَلَى وَجْهِهِ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ عَنْهُ.

يَلْمَزُكَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَ سَكُونِ اللَّامِ وَ ضَمِّ الْمِيمِ وَ كَسْرُهَا وَ هُمَا لَغَتَانِ وَ اللَّزْمُ الْعِيبُ عَلَى وَجْهِ الْمَسَاتَرَةِ.

يَسْخَطُونَ السَّخَطَ الْغَضَبَ.

رَاغِبُونَ الرِّغْبَةَ الْمِيلَ.

الرِّقَابِ جَمْعُ رَقَبَةٍ.

الْغَارِمِينَ جَمْعُ غَارِمٍ.

أَذُنٌ يَعْنِي كَثِيرَ الْإِسْتِمَاعِ.

يُحَادِدِ اللَّهَ الْمُحَادَّةَ مَجَاوِزَةَ الْحَدِّ.

## ◀ الإعراب

إِذَا هُمْ إِذَا هُنَا لِلْمَفْجَأَةِ وَ هِيَ ظَرْفُ مَكَانٍ وَ جَعَلَتْ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ كَالْفَاءِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَفْجَأَةِ وَ مَا بَعْدَهَا إِبْتِدَاءٌ وَ خَبَرٌ وَ الْعَامِلُ فِي إِذَا، يَسْخَطُونَ، فَرِيضَةً حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْفُقَرَاءِ أَيْ مَفْرُوضَةٌ وَ قِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ وَ الْمَعْنَى فَرَضَ اللَّهُ ذَلِكَ فَرَضًا قَلًّا أَذُنٌ خَيْرٌ أَذُنُ خَيْرٍ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيْ هُوَ وَ قَدْ يَقْرَأُ بِالْإِضَافَةِ أَيْ مُسْتَمَعَ خَيْرٍ وَ يَقْرَأُ بِالتَّنْوِينِ وَ رَفَعَ خَيْرٍ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِأَذُنٍ، وَ التَّقْدِيرُ، أَذُنُ ذُو خَيْرٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَفْعَلُ أَيْ أَذُنُ أَكْثَرَ خَيْرًا لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فِي مَوْضِعِ رَفَعِ صِفَةٍ أَيْضًا وَ رَحْمَةً بِالرَّفْعِ عَطَفَ عَلَى أَذُنٍ، أَيْ هُوَ أَذُنٌ وَ رَحْمَةٌ وَ يَقْرَأُ بِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى خَيْرٍ فَيَمُنُ جَرَّ خَيْرًا وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مُبْتَدَأُ

المجلد الثامن

يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ وَ مُحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً دَخَلُوا فِيهِ وَ تَمَسَّكُوا بِهِ وَ لَوْ وَجَدُوا ذَلِكَ لِأَسْرَعُوا إِلَيْهِ إِسْرَاعاً لَا يَرُدُّهُمْ عَنْهُ شَيْءٌ.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ قَرَأَ يَعْقُوبُ يَلْمِزُكَ بِضَمِّ الْمِيمِ وَ الْبَاقُونَ بِكسرها وَ هُوَ الْأَشْهُرُ وَ هُمَا لُغَتَانِ وَ فِي الْآيَةِ إِخْبَارٌ بِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مَنْ يَلْمِزُ الرَّسُولَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ اللَّمَزَ الْعَيْبَ عَلَى وَجْهِ الْمَسَاتَرَةِ.

قِيلَ اللَّامُزُ هُوَ حَرْقُوصُ بْنُ زَهِيرِ التَّمِيمِيِّ وَ هُوَ ابْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ رَأْسُ الْخَوَارِجِ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَقْسِمُ غَنَائِمَ حَنِينٍ فَقَالَ أَعْدَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَدِيثُ. وَ قِيلَ اللَّامُزُ هُوَ ابْنُ الْجَوَازِ الْمُنَافِقِ حَيْثُ قَالَ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى صَاحِبِكُمْ أَنَّمَا يَقْسِمُ صَدَقَاتِكُمْ فِي رِعَاةِ الْغَنَمِ.

وَ قِيلَ هُوَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ كَانَ يَقُولُ أَنَّمَا يُعْطِي مُحَمَّدٌ ﷺ قَرِيشاً.

وَ قِيلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى الرَّسُولَ بِصَدَقَةٍ يَقْسِمُهَا فَقَالَ مَا هَذَا بِالْعَدْلِ.

وَ قَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ كَانَتْ غَنَائِمُ هَوَازِنَ يَوْمَ حَنِينٍ إِذَا جَاءَهُ ابْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيِّ وَ هُوَ حَرْقُوصُ بْنُ زَهِيرٍ أَصْلُ الْخَوَارِجِ فَقَالَ أَعْدَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ ﷺ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُذْنُ لِي فَأُضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعِهِ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَاباً يُحْتَقَرُ أَحَدُكُمْ صَلَوَتَهُ مَعَ صَلَوَتِهِمْ وَ صَوْمُهُمْ مَعَ صَوْمِهِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ فَيَنْظُرُ فِي قَذَذِهِ فَلَا يَوْجَدُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يَوْجَدُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي لُضْلِهِ فَلَا يَوْجَدُ فِي شَيْءٍ وَ قَدْ سَبَقَ الْفَرْتُ وَ الدَّمُ صَاحِبَ رَأْيِهِمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ فِي إِحْدَى قَدَمَيْهِ أَوْ قَالَ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَدْرُدُ يَخْرُجُونَ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ النَّاسِ.

و في حديثٍ آخر فإذا خرجوا فأقتلوهم ثمّ إذا خرجوا فأقتلوهم  
فنزلت وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ.

قال أبو سعيد الخدري أشهد أنّي سمعت هذا من رسول الله و أشهد أنّ  
عليّاً حين قتلهم و أنا معه جيّ بالرجل على النّعت الذي نعته رسول الله رواه  
الثعلبي بأسناده في تفسير نور الثقلين<sup>(١)</sup>.

و أمّا قوله تعالى: فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا فالمقصود أنّ المنافقين لا  
يرضون منك إلّا أن تعطيهم ما أرادوا و شاءوا و لا يرضون بما شاء الله و رسوله  
و هو كذلك لأنهم بسبب عدم إيمانهم واقعاً يطلبون أكثر من حقهم لعدم  
إعتقادهم بعدالة الرسول في تقسيمه الغنائم و الحق أنّ أكثر الناس لحرصهم  
على جمع الأموال لا يقنعون بحقوقهم المقررة لهم و هذا لا يختصّ بزمانٍ دون  
زمانٍ فالآية على عمومها و أن كان موردها خاصاً.

كما روي في الكافي بأسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبد  
الله عليه السلام كم ترى أهل هذه الآية إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم  
يسخطون.

قال، ثمّ قال عليه السلام هم أكثر من ثلثي الناس انتهى.

تنبيه

قال أبو عبيدة، يلمزك، معناه، يعيبك و قال معناه، يطعن عليك و الهمز  
الغبية و منه قوله تعالى: هَـمَازٍ مُّشْتَأٍ بِمَعْمٍ<sup>(٢)</sup>.

و لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا  
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ

هذا وصفٌ لحال المستقيمين في دينهم أي ولو أنهم رضوا قسمة الله ورسوله وقالوا كفانا الله وعلّقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره وجواب لو، محذوف تقديره لو كانوا كذلك لكان خيراً لهم في دينهم وديناهم، وكان ذلك الفعل منهم دليلاً على إنتقالهم من النفاق إلى محض الإيمان لأن ذلك تضمن الرضا بقسم الله والإقرار بالله وبالرسول إذ كانوا يقولون: سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ.

وقيل جواب، لو، هو قوله وقالوا الخ على زيادة الواو وهو قول كوني. وقال الزمخشري والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن كل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله تعالى وصنعه حسبنا ما قسم الله لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فسيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما أتانا اليوم إنا إلى الله في أن يغنمنا ويحولنا فضله راغبون انتهى. وقال ابن عباس، راغبون فيما يمنحنا من الثواب ويصرف منا من العقاب. وقال بعضهم راغبون في أن يوسع علينا من فضله فيغنيينا عن الصدقة وغيرها مما في أيدي الناس.

وقيل المعنى، ما أتاهم الله بالتقدير ورسوله بالقسم وإعلم أنه تعالى أتى أولاً بمقام الرضا فقال ولو أنهم رضوا، أي الرضا فعل قلبي يصدر عن علم أنه تعالى منزّه عن العتب والخطأ عليهم بالعواقب فكل قضاءه سواب وحق لا اعتراض عليه وهو أي مقام الرضا من أعلى المقامات وأرفعها بل لا مقام فوقه لأن السالك إذا وصل إليه فقد كمل في سلوكه وصل إلى ما أراد منه لأنه بالرضا بقضاءه وقدره وقد فوّض أمره إليه تعالى ولا يرى لإرادته شيئاً فلا يريد إلا ما أراد الله له ولا يشاء إلا ما شاء الله وقد يعبر عنه بمقام الفناء في الله ذاتاً وصفةً.

ثم أردفه بإظهار أثار الوصف القلبي وهو الإقرار باللسان بقوله حسبنا الله وذلك لأن الكلام مظهر عما في القلب.

في التفسير  
في تفسير  
في تفسير



ثم أتى ثالثاً بأنه تعالى ما داموا في الحياة الدنيا ما دلّهم بنعمه وإحسانه فهو إخبار حسن إذ ما من مؤمنٍ إلّا ونعم الله مترادفة عليه حالاً ومالاً إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة.

ثم أتى رابعاً بالجملة المقتضية للإلتجاء الى الله لا الى غيره والرغبة اليه فلا يطلب بالإيمان أخذ الأموال والرئاسة في الدنيا، ولما كانت الجملتان متغايرتان أعني بهما ما تضمن الرضا بالقلب وما تضمن الإقرار باللسان تعاطفتا، ولما كانت الجملتان الأخيرتان من آثار قولهم حسبنا الله، لم تتعاطفا إذ هما كالشرح لقولهم حسبنا الله فلا تغاير بينهما.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الصدقات وهى زكاة الأموال خاصة للفقراء والمساكين الخ وهم ثمانية أصناف:

**الأول:** قوله تعالى: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** الدال جمع صدقة، قال بعضهم هي عطية يراد بها المثوبة لا المكرمة.

وقال في المفردات، الصدقة ما يخرج الإنسان من ماله على وجه القرية كالزكاة لكن الصدقة في الأصل يقال للمتطوع به والزكاة للواجب وقد سمي الواجب صدقة اذا تحرى صاحبها الصدق في فعله انتهى.

وقال في المجمع ما أعطي الغير به تبرعاً بقصد القرية وغير هدية فتدخل فيها الزكاة والمنذورات والكفارة وأمثالها وعرفها بعض الفقهاء بالعطية المتبرع بها من غير نصاب للقرية وإما الفقراء فهي جمع فقير بفتح الفاء وهو في الأصل بمعنى المحتاج فكل محتاج يقال له الفقير وأنما سمي به لأنه مكسور الفقار يقال فقرته فاقرة أي داهية تكسر الفقار وقيل هو من الفقرة أي



الحفرة و منه قيل لكل حفيرة يجتمع فيها الماء فقير و قد فرّقوا بينه و بين المسكين بأنّ الفقير هو المنعطف الذي لا يسأل و المسكين الذي يسأل لأنّه مستبق من المسكنة بالمسألة.

و قال قتادة الفقير ذو الزّمانة من أهل الحاجة و المسكين من كان صحيحاً محتاجاً و قال قوم هما بمعنى واحد قال الشاعر:

أنا الفقير الذي كانت هلوته وفق العيال فلم يترك له سبد

و كيف كان لا خلاف عندهم في إستحقاقهم الصّدقات كما هو صريح الآية.

**الثاني: المساكين** و هي جمع مسكين بكسر الميم و قد مرّ الكلام فيه قيل و سمّي المسكين بذلك تشبيهاً بأنّ الحاجة كأنّها سكنة عن حال أهل السّعة و الثروة قال الله تعالى: **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** (١).

فمن قال المسكين أحسن حالاً احتجّ بهذه الآية و من قال هما سواء قال السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكل واحدٍ منهم الشّي اليسير.

**الثالث:** و العاملين عليها، قيل المراد بهم سعاة الزّكاة وجباتها و هو قول الزّهري و ابن زيد و غيرهما.

**الرابع:** المؤلّفة قلوبهم قيل المراد بهم أقوام أشرف كانوا في زمن النبي ﷺ فكان يتألّفهم على الإسلام و يستعين بهم على قتال غيرهم و يعطيهم سهماً من الزّكاة ثمّ أنّهم اختلفوا في أنّ هذا الحكم هل هو ثابت في جميع الأحوال أم في وقتٍ دون وقتٍ.

فقال بعضهم أنّ هذا كان خاصّاً على عهد رسول الله رواه جابر عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام.

و قال الجبائي أنّه ثابت في كلّ عصر إلّا أنّ من شرطه أن يكون هناك إمام عدل يتألّفهم على ذلك و نسب الى الشافعي أنّه قال العامل و المؤلّفة قلوبهم مفقودان في هذا الزّمان بقيت الأصناف الستة فالأولى صرفها اليهم و ذهب

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

أيضاً الى أنه يعتبر في كل صنف ما دلّ عليه لفظه أن كان موجوداً فلا بدّ في كل صنف من ثلاثة لأنّ أقلّ الجمع ثلاثة فأن دفع سهم الفقراء الى فقيرين ضمن نصيب الثالث و هو ثلث سهم.

و قال أبو حنيفة يجوز أن يعطي زكاته مسكيناً واحداً و به قال مالك في زكاة الفطرة. أقول ما ذهب اليه الشافعي لا دليل عليه لا عقلاً و لا نقلاً و قوله أقلّ الجمع ثلاثة مجرّد إدعاء فقد قال قوم أنّ أقلّ الجمع أثنان و مع ذلك فالحكم يتعلّق بالجمع من حيث هو بل الحكم تعلّق بجنس الفقير ألا ترى أنّ المولى اذا أمر بإكرام العلماء فقال أكرم العلماء معناه أكرم كلّ عالم من العلماء لا أنّه يجب إكرام العلماء اذا كانوا ثلاثة و هذا ظاهر بحسب متفاهم العرف واللغة والعجب ممّن يدعي العلم و هو يقول بهذه المقالة السخيفة فاعتبروا يا أولي الأبصار.

**الخامس:** و في الرقاب يعني المكاتبين.

قال الشيخ في التبيان، و أجاز أصحابنا أن يشتري به عبداً مؤمناً اذا كان في شدة و يعتق من مال الزكاة و يكون ولاءه لأرباب الزكاة و هو قول ابن عباس و جعفر بن مبشر.

**السادس:** و الغارمين، و قد أجمع المفسرون على أنّ المراد بهم في الآية الذين ركبتهم الديون في غير معصية و لا إسراف فتقضى عنهم ديونهم.

**السابع:** و في سبيل الله يعني الجهاد بلا خلاف و يدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين كبناء المساجد و القناطر و المدارس و يدخل فيه قضاء الدين عن أموال المؤمنين ونحو ذلك من الطرق التي يراد بها وجه الله سبحانه كمعونة الزائرين و شراء الكتب و ما يحتاج اليه المشتغلون في ترويح الدين و هكذا.

**الثامن:** ابن السبيل، و هو المتقطع به في غير بلده و أن كان غنياً في بلده سمّي به لملازمته للسبيل أي الطريق فكأنّها ولدته و هذا تفسير أكثر علماءنا و به قال بعض العامة كأبي حنيفة و مالك.

وقال المفيد رحمته قد جاءت رواية أنه الضعيف أي من أضيف لحاجة إلى ذلك و أن كان له في موضع آخر غناء و يسار و نحوه قال في المبسوط و المدارك.

قال بعض المحققين بعد نقله ما نقلناه و الرواية بدخول الضيف في إبن السبيل لم نقف عليها في شيء من الأصول و لا نقلها ناقل في كتب الاستدلال انتهى.

أقول لا يبعد أن يكون المراد بها ما ورد أن من دخل بلدة فهو ضيف لأهلها. و قال إبن الجنيد هو المسافر في طاعة الله أو المنشئ السفر كذلك و ليس عنده ما يكفيه لسفره اذا كان قصده فيه قضاء فريضة أو قياماً لسنة. و فيه، أن المنشئ للسفر كذلك لا يصدق عليه ذلك إلا مجازاً أي من باب تسمية الشيء بما يؤل اليه اذا عرفت هذا فلنشر الى شطر من الأخبار الواردة عن أهل البيت في مصارف الصدقات في الأصناف الثمانية المذكورة فنقول:

مما روي في الفقراء، ما رواه في الكافي في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أنه سأل عن الفقير والمساكين فقال عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل و المسكين هو الذي يسأل (هو الذي أجهد منه الذي يسأل) انتهى

و حسنة أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله قول الله عز وجل: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ قال عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل الناس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم انتهى

و يدل عليه أيضاً ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره من أن العالم بين الأصناف فقال أن الفقراء هم الذين لا يسألون الناس إلحافاً و المساكين هم أهل الزمانة من العميان و العرجان و المجذومين و جميع أصناف الزماناء الرجال و النساء و الصبيان انتهى.

و روى في الكافي في الحسن عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أن الله عز وجل جعل للفقراء في أموال الأغنياء ما يكفيهم انتهى.

و مثلها صحيحة ابن سنان عن مبارك العرقوقي قال أبو الحسن عليه السلام أن الله عز وجل وصنع الزكاة قوتاً للفقراء انتهى.  
و في رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام: أن صدقة الخلف والظلف تدفع الى المتجملين من المسلمين و أما صدقة الذهب والفضة وما كيل بالقفيز مما أخرجت الأرض للفقراء المدقعين انتهى.  
و أنت ترى أن هذه الروايات ونحوها تدل على دخول المساكين في الفقراء قطعاً فلولاً الروايات الدالة على الفرق لكان القول بالترايف غير بعيد.

و مثاروي في المؤلفة قلوبهم ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام:  
المؤلفة قلوبهم أبو سفيان بن حرب بن أمية و سهيل بن عمرو أو مثالهما.

و منها، ما رواه في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل المؤلفة قلوبهم قال عليه السلام هم قوم وحدوا الله عز وجل وخلصوا عبادة من يعبد من دون الله و شهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله و هم في ذلك شكاك في بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأمر الله نبيه أن يتألفهم المال و العطايا لكي يحسن إسلامهم و يثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه و أقرؤا به انتهى.  
و هذه الأخبار دالة على صدق التأليف على من هذا حاله في الإسلام و يظهر منها أن المؤلفة قلوبهم لا يختص بالكفار بل تشمل المسلمين الشاكين أيضاً.

و مما روي في الرقاب ما رواه الشيخ في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل تجتمع عنده الزكاة يشتري بها نسمة يعتقها فقال اذا يظلم قوماً آخرين حقوقهم ثم قال إلا أن يكون عبداً مسلماً في ضرورة يشتريه و يعتقه انتهى.

ومنها ما رواه زرارة (عبيد بن زرارة) قال سألت أبا عبد الله عليه السلام: عن رجل أخرج زكاة ماله ألف درهم فلم يجد لها موضعاً يدفع ذلك اليه فنظر الى مملوك يباع فاشتراه بتلك الألف الدراهم التي أخرجت من زكاته فأعتقه هل يجوز ذلك قال نعم انتهى.

و مما روي في الغارمين الذين عليهم الديون التي أنفقوها في طاعة الله من غير إسرافٍ و أمّا الذين أنفقوها في معصية الله و أنفقوها في طريق الإسراف فلا يتعلق بهم شيء فقد روي الشيخ في الصحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن في رجل عارفٍ فاضلٍ توفى و ترك عليه ديناً قد إبتلى به لم يكن مسرفاً ولا مفسداً ولا معروفاً بالمسألة هل يقضى عنه من الزكاة الألف والألفان قال عليه السلام: نعم انتهى.

و مما روي في سبيل الله، فقد روى علي بن إبراهيم في التفسير عن العالم عليه السلام أنه قال: - في سبيل الله قوم يخرجون في الجهاد و ليس عندهم ما ينفقونه أو قومٌ من المسلمين ليس عندهم ما يحجّون به أو في جميع سبيل الخير فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصدقات حتى يقووا على الحجّ و الجهاد انتهى.

ومنها: ما رواه ابن بابويه في الصحيح عن علي بن يقطين أنه قال لأبي الحسن الرضا يكون عندي المال من الزكاة فأحجّ به موالي و أقاربي قال عليه السلام نعم انتهى.

ومنها: ما رواه في معاني الأخبار بأسناده الى الحسين بن عمر قال قلت لأبي عبد الله أن رجلاً أوصى إلي في السبيل قال عليه السلام: أصرفه في الحج فأتني لا أعرف سبيلاً من سبله أفضل من الحج انتهى. وفي خبر آخر عن العسكري قال عليه السلام: سبيل الله شيعتنا انتهى. وأما ابن السبيل وهو المنقطع به في غير بلده وإن كان غنياً في بلده.

روى علي بن إبراهيم عن العالم عليه السلام أنهم أبناء الطريق الذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيقطع عليهم و يذهب مالهم فعلى الإمام أن يردّهم الى أوطانهم من مال الصدقات انتهى.

أقول الأخبار التي نقلناها في المقام نقلناها عن كتاب آيات الأحكام للجزائري رحمته الله.

وإعلم أن الأصحاب ذكروا للمستحقين شروطاً لابد لنا من التعرض لها تكميلاً للبحث.

أحدها: الإيمان أي الإسلام مع الولاية للأئمة الأثني عشر عليهم السلام و هو مجمع عليه بين الأصحاب كما حكاه في المنتهى حتى أن المخالف لو استبصر يجب عليه إعادتها اذا كان أعطاها غير أهل الولاية و أن لم يجب عليه إعادة غيرها من العبادات و يدلّ عليه أخبار كثيرة و مع عدم المستحقّ يجب عليه حفظها و الإيصاء بها عند الموت و يشتري بها نسمة و يعتقها إلّا في الفطرة فقد روي أنّه يصرفها الى المستضعفين و هم الذين لا يعاندون الحقّ من أهل الخلاف و بذلك أفتى جماعة من أصحابنا و ذهب الأكثر الى المنع أيضاً الأقوى و هذا الشرط في غير المؤلّفة و بعض أفراد سبيل الله كالمجاهد في الجهاد.

الثاني: العدالة و بذلك قال كثير من الأصحاب و إكتفى ابن الجنيد بمجانبة الكبائر خاصّة و إقتصّر بعضهم على اعتبار الإيمان فقط و هو الأظهر لإطلاق

الآية و الروايات و عدم ما يصلح للتقييد إلا في العاملين و أما أطفال المؤمنين فيجوز إجماعاً.

**الثالث:** أن لا يكون ممن تجب نفقته إجماعاً كالأبويين و أن علوا والأولاد و إن سفلوا و الزوجة و المملوك.

**الرابع:** أن لا يكون هاشمياً أي من ولد هاشم و هو مجمع عليه و النصوص به أيضاً مستفيضة و الذي يطهر من الأخبار أن المحرم عليه الزكاة المفروضة خاصة و أما زكاة الفطرة فيجوز للهاشمي إعطاؤها لهاشمي آخر و أما غير الهاشمي فلا و بعبارة أخرى زكاة الفطرة من هاشمي الى هاشمي آخر لا بأس به.

و أما قوله: **فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ** فمعناه واضح أي تلك فريضة من الله و هو تعالى عليهم بأمور عباده حكيم في وضعها مواضعها.

**وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ قُلْ أَدْنُ خَيْرَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من جملة المنافقين الذين وصفهم و ذكرهم في الآيات السابقة من يؤذي النبي و الأذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في العاجل و أنهم يقولون هو أي النبي، أذن، أي أنه يصغي الى كل أحد فيقبل قوله.

قال الراغب في المفردات الأذن الجارحة و شبهه به من حيث المحلة أذن القدر و غيرها، و يستعار لمن كثر إستماعه و قوله لما يسمع و قيل أصله من أذن، إذ إستمع و كيف كان أنهم أرادوا بذلك إيذاء النبي و تنقيصه.

فأجاب الله تعالى عنهم بقوله قل، يا محمد، أذن خير لكم، و قيل السبب في ذلك أن قوماً من المنافقين تكلموا بما أرادوه و قالوا أن بلغه إعتذرنا اليه فإنه أذن يسمع ما يقال له.

في القرآن  
في تفسير  
الآيات



و قال بعض المفسرين كان قدام بن خالد و عبيد بن هلال بن سويد يؤذون النبي فقال بعضهم لا تفعلوا فأنا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا فقال الجلاس بل نقول بما شئنا فأذن محمد أذن سامعة ثم نأتيه فيصدقنا فنزلت الآية فقوله تعالى، قل أذن خير لكم، معناه قل يا محمد لهؤلاء المنافقين أتي أذن خير لكم لا أذن شر.

و في هذا الجواب منه تعالى إشارة الى أن مطلق الأذن ليس بمذموم بل هو مذموم اذا كان في طريق الشر و أما اذا كان في طريق الخير فلا و توضيحه إجمالاً هو أن الأذن يستعار لمن كثر إستماعه و من المعلوم أن كثرة إستماع الخيرات و الأقوال الحقة لا إشكال فيها عقلاً و شرعاً بل هي تدل على حرص صاحبه في طريق الخير و الصلاح و النبي ﷺ كان كذلك و لكن المنافقين لما أرادوا بقولهم، هو أذن تنقيص النبي و ذمه تخيلوا أنه أي النبي يسمع كل باطل و كذب و يقبله و ليس كذلك.

و أما قوله: **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** معناه أن النبي ﷺ لإيمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره لا أنه يعمل بكل يسمع حقاً كان أو باطلاً و ذلك لأن المؤمن بالله حقاً يكون خائفاً منه و الرسول في رأس المؤمنين بالله فكيف يعقل أنه يقبل الباطل.

و قيل معنى الكلام أنه ﷺ يصغي الى الوحي من قبل الله و من كان كذلك لا يسمع الباطل، و قوله و يؤمن للمؤمنين، معناه يسمع منهم و يسلم لهم ما يقولون و يصدقهم لكونهم مؤمنين قيل دخلت اللام كما دخلت في قوله: ردف لكم، أي ردفكم، و اللام معجمة و مثله لرّبهم يرهبون، و معناه يرهبون ربهم.

و قال قوم دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق و إيمان الأمان، و قوله: وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ معناه أن النبي ﷺ رحمة للمؤمنين منكم خاصة و وجه التخصيص بهم مع أنه ﷺ رحمة للكفار أيضاً لقوله تعالى فيه



وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ<sup>(١)</sup> الشَّامِلَ لِّلْكَفَّارِ أَيْضاً، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْكِتَابِ: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ<sup>(٢)</sup> وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي الْكُلَّ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ مِنْكُمْ.

نَقَلَ الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ يَقُولُ إِنِّي لِأَنَالَ مِنْ مُحَمَّدٍ مَا شِئْتُ ثُمَّ عَاتَبَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَاحْلَفَ لَهُ فَيَقْبَلُ فَجَاءَ جِبْرَائِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَنَّهُ يَجْلِسُ إِلَيْكَ رَجُلٌ أَدْلَمُ ثَائِرُ شَعْرِ الرَّأْسِ أَسْفَعُ الْخَدَيْنِ أَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ كَأَنَّهُمَا قَدْرَانِ مِنْ صَفَرٍ كَبِدُهُ أَغْلَظُ مِنْ كَبِدِ الْحَمَلِ يَنْتَقِلُ حَدِيثَكَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَأَحْذَرُهُ وَكَانَ ذَلِكَ صِفَةً نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ مُنَافِقِي الْأَنْصَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ اخْتَارَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ إِنَّتَهَى.

أَقُولُ لَوْ تَمَّ مَا ذَكَرُوهُ فِي مُورِدِ نَزُولِ الْآيَةِ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُورِدَهَا خَاصٌّ كَمَا هُوَ شَأْنٌ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ النَّازِلَةِ فِي الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَنَافِي عُمُومَ مَعْنَى الْآيَةِ وَلَا سِيَّماً إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، لِلِاسْتِثْنَاءِ كَمَا هُوَ الْأَقْوَى فِي النَّظَرِ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ أَفَادَ الْكَلَامُ أَنَّ الْمُؤْذِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ حَكْمَهُ كَذَا، سِوَاهُ كَانَ الْإِيْذَاءُ جِسْمًا وَرُوحًا فَمَنْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ آذَاهُ وَمَنْ شَتَمَهُ وَأَهَانَهُ فَهُوَ أَيْضاً آذَاهُ بَلْ نَقُولُ مَنْ خَالَفَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ فَهُوَ أَيْضاً مِمَّنْ آذَاهُ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ أَنَّ الْمَوْجِبَ لِلْعَذَابِ هُوَ تَحَقُّقُ الْإِيْذَاءِ وَجُودُهُ فِي الْخَارِجِ كَيْفَ اتَّفَقَ وَعَلَيْهِ فَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ خَالَفُوا قَوْلَهُ وَنَكَشُوا عَهْدَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بَلْ مِنْ آذَى أَوْلَادِهِ بِأَيِّ نَحْوٍ مِنَ الْإِيْذَاءِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْحَكْمِ وَهَذَا الْحَكْمُ جَارٍ فِي الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ.

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُزْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

الظاهر الخطاب في قوله: لَكُمْ و قوله: لِيُرْضَوْكُمْ لجميع المسلمين و المعنى أَنَّهُمْ يحلفون أي يقسمون بالله لكم أيها المسلمون ، ليرضوكم أي يقسمون لكم أَنَّهُمْ على دينكم و طريقتكم لتحمدوهم عليه، ولم يعلموا أَنَّ الله و رسوله أحقَّ أن يرضوه أن كانوا مؤمنين، أي مصدقين بالله و مقرين بنبوة نبيِّه و المعنى أَنَّ المؤمن ينبغي أن يطلب في إيمانه رضا الله و رسوله لا رضا الناس لأنَّ الإيمان بالله و رسوله غير الإيمان بالناس فهؤلاء المنافقين حيث أَنَّهُمْ كانوا يطلبون رضا الناس و إغفالهم و لم يطلبوا رضا الله و رسوله، لم يكونوا من المؤمنين حقاً إذ المؤمن لا يكون كذلك بل هو شأن المنافق بعينه حيث يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

و قال، بعض المفسرين أَنَّ الضمير في قوله: يَخْلِفُونَ عائد على الَّذِينَ تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع الرسول ﷺ و المؤمنون إعتذروا و حلفوا و أعتلوا.

قاله ابن السائب و اختاره البيهقي و كانوا ثلاثة و ثمانين حلف منهم ثمانون فقبل الرسول أعدارهم و أعترف منهم بالحق ثلاثة فأطلع الله رسوله على كذبهم و نفاقهم و هلكوا جميعاً بأفات و نجى الذين صدقوا. و قيل عائد على عبد الله بن أبي و من معه حلفوا أن لا يتخلفوا عن رسول الله و ليكونوا معه على عدوه إنتهى.

أقول الحقَّ أَنَّ المراد جميع المنافقين الَّذِينَ كانوا يحلفون للرسول و المؤمنين أَنَّهُمْ معهم في الدين و في كلِّ أمرٍ و حربٍ و كانوا يبطنون النفاق و يتربصون بالمؤمنين الدوائر و هذا هو المشهور بين المفسرين، و أفرد الضمير في قوله أن يرضوه.

لأنَّهما أي الله و رسوله، في حكم مرضي واحدٍ إذ رضا الله هو رضا الرسول.

وقيل في الكلام حذف و التقدير والله أحق أن يرضوه و رسوله أحق أن يرضوه فهما جملتان حذف الأولى لدلالة الثانية عليها ومنه قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف  
أي نحن بما عندنا راضٍ و أنت بما عندك راضٍ.

وقال المبرد أن في الكلام تقديماً و تأخيراً و تقديره والله أحق أن يرضوه و رسوله، و قدره الزمخشري والله أحق أن يرضوه و رسوله كذلك، و المعنى واضح لا خفاء فيه.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا  
ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة و مثله المباعدة، و الإستفهام في قوله: أَلَمْ يَعْلَمُوا للإنكار أي علموا قطعاً و المعنى ألم يعلموا هؤلاء المنافقين و قيل أن الكلام خرج مخرج التهديد و التقرع و التوبيخ لهؤلاء المنافقين و المآل واحد لأن المعنى يرجع الى أنهم علموا أن من يحادد الله و رسوله أي يتجاوز حدود الله التي أمر الله المكلفين بها من الأوامر و النواهي فإن له، أي للمتجاوز، نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم، الخزي بكسر الخاء الهوان بما يستحي منه.

قال أبو مسلم المحادة مأخوذة من الحديد حديد السلاح.

و قال ابن عباس المخالفة، و قيل المحاربة، و قيل المعاندة و قيل المعادة و قيل مجاوزة الحد في المخالفة و أنت ترى أن هذه الأقوال متقاربة.

و أعلم أن الجمهور على فتح الهمزة في قوله: فَإِنَّ و ذهب الزجاج على جواز الكسر فيها لكنه خلاف المشهور لم يذهب اليه غيره و لذلك تفصيل لا يسعه المقام.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ  
بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجُ مَا  
تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا  
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ  
كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ  
إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبْ طَآئِفَةٌ  
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَ  
الْمُنَافِقَاتُ يَفْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ  
يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا  
اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)  
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ  
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَ  
لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا  
أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا  
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا  
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ  
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي  
الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)  
أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ  
ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ  
الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ  
اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

## ◀ اللغة

تَبَيَّنَهُمُ الْإِنْبَاءُ الْإِخْبَارُ أَيِ تَحْبِيرُهُمْ.

نَحْوُ خَوْضِ الْخَوْضِ دُخُولُ الْقَدَمِ فِيمَا كَانَ مَانِعاً مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ثُمَّ كَثُرَ إِسْتِعْمَالُهُ فِي مَطْلُقِ الدُّخُولِ حَتَّى صَارَ فِي كُلِّ دُخُولٍ مِنْهُ أَذَى وَتَلْوِثٌ.

نَلْعَبُ اللَّعْبُ فَعْلٌ مَا فِيهِ سَقُوطُ الْمَنْزِلَةِ لِتَحْصِيلِ اللَّذَّةِ مِنْ غَيْرِ مَرَاعَاةِ الْحِكْمَةِ كَفَعْلِ الصَّبِيِّ.

يَقْبِضُونَ الْقَبْضَ ضِدَّ الْبَسْطِ.

فَاسْتَمْتَعُوا الْإِسْتِمَاعَ طَلَبُ الْمَتْعَةِ وَهِيَ فَعْلٌ مَا فِيهِ اللَّذَّةُ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاحِكِ.

بِخِلَافِهِمُ الْخِلَاقَ، النَّصِيبُ سَوَاءٌ كَانَ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً.

الْمُؤْتَفِكَاتِ قِيلَ هِيَ ثَلَاثُ قَرِيَّاتٍ لِقَوْمِ لُوطَ. قَالَ الزَّجَاجُ إِتَّفَكَتْ بِأَهْلِهَا إِنْقَلَبَتْ.

مَدِينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمٌ لَهُ.

## ◀ الإعراب

أَنْ تُنْزَلَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِيَحْذَرُ عَلَى أَنَّهَا مُتَعَدِيَّةٌ بِنَفْسِهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِحَرْفِ الْجَرِّ أَيِ مَنْ أَنْ تُنْزَلَ فَيَكُونُ مَوْضِعُهُ نَصَباً أَوْ جَرّاً عَلَى إِخْتِلَافٍ فِيهِ أَبَاللَّهِ الْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِيَسْتَهْزِؤْنَ وَ قَدْ قَدَّمَ مَعْمُولُ خَبَرِ كَانَ عَلَيْهَا وَ هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ التَّقْدِيمِ فِيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرُ أَيِ بَعْضُهُمْ مِنْ جِنْسِ بَعْضٍ فِي النِّفَاقِ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ مُسْتَأْنَفٌ مَفْسَّرٌ لَمَّا قَبْلُهَا كَالَّذِينَ الْكَافِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ كَمَا اسْتَمْتَعَ أَيِ إِسْتِمَاعاً كِاسْتِمَاعَهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا الْكَافِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ أَيْضاً وَفِي الَّذِي وَجْهَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جِنْسٌ وَ التَّقْدِيرُ خَوْضاً كَخَوْضِ الَّذِينَ خَاضُوا.

الثَّانِي: أَنْ، الَّذِي، هُنَا مُصَدِّرَةٌ أَيْ كخوضهم و هو نادر.  
قَوْمٌ نُوحٍ بَدَلَ مِنَ الَّذِينَ.

### ◀ التفسير

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ  
كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُعْبَوْنَ الرَّسُولَ وَيَقُولُونَ عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ سِرَّنَا فَنَزَلَتْ  
قَالَه مُجَاهِد.

و قَالَ السَّيِّدِي قَالَ بَعْضُهُمْ وَدَتْ أَنْ جُلْد مَائَةٍ وَلَا يَنْزِلُ فِينَا شَيْءٌ يَفْضَحُنَا  
فَنَزَلَتْ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ وَقَفَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ عِنْدَ  
مَرْجَعِهِ مِنْ تَبُوكَ لِيَفْتَكُوا بِهِ فَأَخْبَرَهُ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَزَلَتْ.  
و قِيلَ قَالُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَيْرَجُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ وَ  
حَصُونَهَا هِيَاهُ فَانْزَلَ اللَّهُ: قُلْ أَسْتَهْزِئُوكُمْ.  
و الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَ: يَحْذَرُ خَبَرَ وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا  
تَحْذَرُونَ.

و بِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَ مُجَاهِدٌ وَ اخْتَارَهُ الْجَبَائِي فَقَالُوا أَنَّ مَعْنَاهُ الْخَبَرُ عَنْهُمْ  
بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ تُنْزَلَ فِيهِمْ آيَةٌ يَفْتَضِحُونَ بِهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا شَاكِينَ.  
و قَالَ الرَّجَّاجُ أَنَّهُ تَهْدِيدٌ وَ مَعْنَاهُ لِيَحْذَرُوا وَ حَسَنَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَوْضِعَ الْكَلَامِ  
عَلَى التَّهْدِيدِ وَ الْحَذَرِ إِعْدَادُ مَا يَتَّقِي الضَّرَرَ وَ مِثْلُهُ الْخَوْفُ وَ الْفَزَعُ، وَ كَيْفَ فَقَدْ  
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا عَلَى حَذَرٍ وَ خَوْفٍ مِنْ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ  
تُنَبِّئُهُمْ وَ تَخْبِرُهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَ وَجْهَ الْحَذَرِ مَعْلُومٌ وَ هُوَ أَنَّ نَزُولَ  
السُّورَةِ يُوجِبُ الْإِفْتِضَاحَ وَ كَشْفَ الصَّمَائِرِ وَ هُوَ خِلَافُ مَقْصُودِهِمْ.

و قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ الضَّمِيرُ فِي عَلَيْهِمْ، وَ تَنْبِيْهُمُ، لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الضَّمِيرُ  
فِي قُلُوبِهِمُ لِلْمُنَافِقِينَ وَ الْمَعْنَى أَنَّ نَزُولَ السُّورَةِ يُوجِبُ إِطْلَاعَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا  
فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ قُلْ أَسْتَهْزِئُوكُمْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ الظَّاهِرُ أَنَّ

الأمر بالاستهزاء أمر تهديد و وعيد كقوله: **أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** ومعنى مخرج ما تحذرون، أن الله تعالى مبرز ومظهر إلى حيز الوجود ما تحذرونه بسبب إنزال السورة.

قال بعضهم أنهم كانوا سبعين رجلاً أنزل الله أسماءهم وأسماء آبائهم في القرآن ثم رفع ذلك ونسخ رحمة و رافة منه على خلقه لأن أبناءهم كانوا مسلمين.

**أقول** ما ذكره القائل لا دليل عليه بل الدليل ثابت على خلافه إذ لم يرفع شيء من القرآن بعد نزوله.

والحق أن المعنى أن الله تعالى وعد رسوله أن يبين له باطن المنافقين وسوء حالهم وقد فعل فقوله: **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** ليس معناه ما زعم بل المعنى أن الله مخرجه لرسوله ولا شك أن الرسول كان يعرفهم بأسماءهم وأسماء آبائهم وما أضمروا في قلوبهم ولكنه ﷺ لم يكن مأموراً بإظهاره كما وردت الآثار به.

قال رسول الله ﷺ في خطبة الغدير عند قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** <sup>(١)</sup> ما هذا لفظه.

وسألت جبرائيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك اليكم أيها الناس لعلمي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وإدغال الأثمين وحيل المستهزين بالإسلام الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم وكثرة إذا هم لي غير مرة حتى سموني أذنأ وزعموا أنني كذلك لكثرة ملازمة علي إياي (ملازمته) وإقبالي عليه حتى أنزل الله عز وجل في ذلك و منهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن، قل أذن، علي الذين يزعمون أنه، أذن، خير لكم الآية ولو شئت أن أسمي بأسماءهم

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَضْيِيقِ الْقُرْآنِ



المجلد الثاني

لَسَمِيتُ وَأَنْ أُوْمِي إِلَيْهِمْ بِأَعْيَانِهِمْ لِأُوْمَاتٍ وَأَنْ أَدُلَّ عَلَيْهِمْ لَدَّلْتُ وَلَكِنِّي وَاللَّهِ فِي أُمُورِهِمْ قَدْ تَكْرَّمْتُ وَكُلَّ ذَلِكَ لَا يَرْضِي اللَّهُ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَبْلُغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ ثُمَّ تَلَا سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَالْغَرَضُ مِنْ نَقْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَالِمًا بِأَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَأَوْصَافِهِمْ وَمَشْخَصَاتِهِمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَوْلُهُ: إِنَّ مَخْرَجَ مَا تَحْذَرُونَ، هُوَ أَنَّ اللَّهَ يَصْرِفُكُمْ لِرَسُولِهِ وَيَبَيِّنُ لَهُ بَاطِنَ حَالِكُمْ وَنِفَاقِكُمْ هَذَا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهَمِي الْقَاصِرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ

أَيُّ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَمَّا قَالُوا فِي حَقِّكَ وَحَقِّ أَصْحَابِكَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ أَنْظِرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يَرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ قُصُورَ الشَّامِ وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ كَأَنْتُمْ غَدَا فِي الْجِبَالِ أَسْرَى لِبَنِي الْأَصْفَرِ وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ مَا رَأَيْتُ كَهَوْلًا لَا أَرْغَبُ بَطُونًا وَلَا أَكْثَرَ كَذِبًا وَلَا أَجِبْنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ فِاطِلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ فَعَنَّفَهُمْ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ وَلَا أَمْرَ أَصْحَابِكَ أُنَمَا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِمَّا يَخُوضُ فِيهِ الرِّكْبُ كُنَّا فِي غَيْرِ حَدِّ قُلْ أَبِاللَّهِ، تَقْرِيرٌ عَلَى إِسْتِهْزَاءِكُمْ وَضَمْنُهُ الْوَعِيدُ لَمْ نَعْيَا بِإِعْتِدَارِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِيهِ فَجَعَلُوا كَأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِإِسْتِهْزَاءِهِمْ وَبَأَنَّهُ مَوْجُودٌ مِنْهُمْ حَتَّى وَبَخُوا بِأَخْطَاءِهِمْ مَوْضِعَ الْإِسْتِهْزَاءِ حَيْثُ جَعَلَ الْمُسْتَهْزِءَ بِهِ عَلَى حَرْفِ التَّقْرِيرِ وَذَلِكَ أُنَمَا يَسْتَقِيمُ بَعْدَ وَقُوعِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَثُبُوتِهِ قَالَهُ الرِّمَخْشَرِيُّ.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ لَا بِأَسْ بِهِ فَأَنَّ الْمُنَافِقَ يَقُولُ وَيَنْكُرُ مَا قَالَ كَمَا هُوَ شَأْنُهُ وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ أَنْظِرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يَرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ قُصُورَ الشَّامِ إِلَى آخِرِ مَا قَالُوا فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: تَسْتَهْزِءُونَ فَالْهَزَاءُ فِي الْأَصْلِ إِيهَامٌ أَمْرٌ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ بِهِ إِسْتِصْغَارًا لِصَاحِبِهِ.



قال أبو علي ذكر الإستهزاء هاهنا مجاز لأنه جعل الهزاء بالمؤمنين و بآيات الله هزاء بالله.

وأعلم أن هؤلاء المنافقين لما وقفوا على خطاءهم و قبح أفعالهم و أقوالهم شرعوا في الاعتذار عما قالوا و فعلوا فرد الله عليهم و قال:

لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ

نهاهم الله عن الاعتذار لكونهم كاذبين فيه فهو لا ينفع لهم ثم قال، قد كفرتم بعد إيمانكم، أي أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان و ذلك لأن المنافقين كانوا يسرون الكفر و يظهرون الإيمان كما هو شأن المنافق ثم بعد ذلك أظهروا الكفر بإستهزاءهم و إنكارهم و هذا هو المراد بالكفر بعد الإيمان. و أما قوله: إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فالوجه فيه هو إن المنافقين كانوا صنفين:

صنف منهم كانوا مأمورين بالجهاد معهم كما قال تعالى: جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ<sup>(١)</sup> و هم رؤوساءهم المعلنون بالأراجيف فعذبوا بإخراجهم من المسجد و إنكشاف معظم أحوالهم. و صنف ضعفة مظهرون الإيمان و إن أبطنوا الكفر لكنهم لم يؤذوا الرسول فعفي عنهم.

و هذا العذاب و العفو في الدنيا ثم علل ذلك بأنهم كانوا مجرمين. و قيل المعفو عنهما من علم الله أنهم سيخلصون من النفاق و يخلصون الإيمان و أما المعذبون فهم من مات على نفاقه. و قيل المعفو عنه رجل واحد اسمه مخشي بن خمير كان مع الذين قالوا أنما كنا نخوض و نلعب.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

و قيل كان منافقاً ثم تاب توبةً صحيحة و قيل غير ذلك.

**أقول** هذا ما ذكره في تفسير الآية و الحق أن الذين عفى الله عنهم من المنافقين، إشارة الى المعتذرين واقعاً و ذلك لأن الإعتذار عبارة أخرى عن التوبة فمن اعتذر حقاً فقد تاب و الله تعالى يقبل التوبة عن عباده.

و أما الذين كان إعتذارهم ظاهراً لا واقعاً فلا عفو لهم لكونهم من المستهزئين و لذلك عبر عنهم بالمجرمين.

و أما تخصيص العذاب بالدنيا فلا وجه له بعد ظهور الآية في العموم بل العذاب منصرف الى الآخرة.

و لذلك قال بعض المفسرين معناه أنما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبه مرتكبة لما يستحق به العقاب في الآخرة أو فيهما، و الإجماع الإنقطاع عن الحق الى الباطل و كيف كان ففي الآية دلالة على أن الله تعالى يعفو عن المعتذر التائب اذا كان الإعتذار كاشفاً عن الندامة و هو كذلك.

**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**

حكم الله تعالى على المنافقين ذكورهم و أناثهم أنهم على وتيرة واحدة في النفاق و الشقاق فأذن قوله تعالى: **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** معناه أنهم من سنخ واحد في الحكم و المنزلة و النفاق و إن شئت قلت أنهم على دين واحد فليس المعنى على التبعض حقيقة لأن ذلك معلوم.

ثم وصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فقال فيهم أنهم يأمرُونَ بالمنكر و ينهون عن المعروف و ذلك لأن المنافقين كانوا يأمرُونَ بالكفر و عبادة غير الله من الأوثان و الأصنام و المعاصي و أي منكر أنكر منه، و ينهون عن الإيمان و متابعة الرسول و من كان كذلك فهو على خلاف المؤمن فكيف يكون مؤمناً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أَي يُمْسِكُونَ أَمْوَالَهُمْ عَنْ إِنْفَاقِهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَأَنَّ قَبْضَ الْيَدِ كُنَايَةٌ عَنِ الْبَخْلِ وَالْإِمْسَاكِ كَمَا أَنَّ بَسْطَهَا كُنَايَةٌ عَنِ الْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ.

وَقِيلَ قَبْضُ الْيَدِ فِي الْمَقَامِ كُنَايَةٌ عَنِ الْقُعُودِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى يُمْسِكُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

**أَقُولُ:** الْأَلَى أَنْ يَقُولَ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ يُمْسِكُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ لِيَشْمَلَ الْكُلَّ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ قِيلَ مَعْنَاهُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ يَعْنِي صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْمُنْسِي.

وَقَالَ قَتَادَةُ نَسُوا مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يَنْسُوا مِنَ الشَّرِّ.

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَغْفَلُوا ذَكَرَهُ فَنَسِيَهُمْ أَيِ فَرَقَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَيَعْبُرُ بِالنِّسْيَانِ عَنِ التَّرْكِ مَبَالِغَةً فِي أَنَّهُ لَا يَخْطُرُ ذَلِكَ بِيَالٍ، وَقَوْلُهُ: هُمْ أَلْفَاسِقُونَ أَيِ هُمُ الْكَامِلُونَ فِي الْفَسْقِ الَّذِي هُوَ التَّمَرُّدُ فِي الْكُفْرِ وَالْإِنْسِلَاخُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَكُفْرِ الْمُسْلِمِ زَاجِرًا أَنْ يَلْمَ بِمَا يَكْسِبُ هَذَا الْإِسْمَ الْفَاحِشَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ.

**أَقُولُ** النَّسْيَانُ فِي الْأَصْلِ تَرَكَ الْإِنْسَانُ ضَبْطَ مَا اسْتَوْدَعَ، أَمَّا لَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَ أَمَّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِرَ عَنِ الْقَلْبِ ذَكَرَهُ قَالَهُ الرَّاغِبُ فِي الْمِفْرَدَاتِ فَالنِّسْيَانُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَهُوَ فِي الْإِنْسَانِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ.

وَأَمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُجَازٌ فَمَعْنَاهُ فِيهِ تَعَالَى هُوَ إِعْرَاضُهُ عَنِ الْعِبْدِ وَ إِيكَالَهُ إِلَى نَفْسِهِ حَقِيقَةً وَقَوْلُهُ فَنَسِيَهُمْ مُجَازٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ أَلْفَاسِقُونَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: فَنَسِيَهُمْ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَمْ نَسِيَهُمُ اللَّهُ فَقَالَ لَفَسَقَهُمُ وَالْفَاسِقُ لَا يَصْلِحُ لِلرَّحْمَةِ وَالْعَنَايَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ عَنْهُ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ إِذَا نَسَبَ النَّسْيَانُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ تَرَكُهُ إِيَّاهُمْ إِسْتِهَانَةً بِهِمْ وَ مُجَازَةً لِمَا تَرَكُوهُ.

بَابُ الْقِيَامِ فِي تَضْيِيقِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠  
المجلد الثاني

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه وعد المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم، أي النار حسبهم ولعنهم الله أي أبعدهم عن مقام الرحمة والعناية ولهم عذاب مقيم أي دائم لا يزول وهو عبارة أخرى عن الخلود.

قيل المراد بالكفار هنا المعلنون بالكفر ففي الآية مبالغة في عظم عذابهم إذ عذابهم شيء لا يزداد عليه ولعنهم أهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملائعين كما عظم أهل الجنة والحقهم بالملائكة المقربين.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا

هذا إلتفات من ضمير الغيبة الى ضمير الخطاب قبل التشبيه من جهة الفعل أي فعلتم كأفعال الذين من قبلكم وعليه فتكون الكاف في قوله: كَالَّذِينَ في موضع نصب والتقدير أحذروا أن يحلّ بكم من العذاب والعقوبة كالذين من قبلكم.

وقيل الكاف في موضع رفع والتقدير أنتم كالذين من قبلكم والتشبيه وقع في الإستمتاع والخوض وقوله كانوا أشدّ تفسير لشبههم بهم وتمثيل لفعلهم بفعلهم وفي الكلام إيماء وإشارة الى أنهم قد إغترّوا بأموالهم وأولادهم وقوتهم وشوكتهم ولم يعلموا أنّ الله تعالى قاهر فوق عباده وهو على كلّ شيء قدير ولذلك قال لهم على سبيل القهر والغلبة.

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا

الإستمتاع هو طلب المتعة و هي فعل ما فيه اللذة من المأكل و المشارب و المناكح و معناه أنهم تمتّعوا بنصيبهم من الخير و الباطل و باعوا بذلك الخير الاجل فهلكوا بشر إستبدال، و الخلاق النّصيب و الحظّ أي ما قدر لهم الخوض بفتح الخاء الدّخول في الماء.

قال الرّاعب في المفردات الخوض هو الشّروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور و معنى الآية أنهم أي الأمم السّالفة إستمتعوا بخلاقهم أي تمتّعوا بنصيبهم في الدّنيا فإستمتعتم أيها المنافقون بخلاقكم في الدّنيا كهؤلاء الماضيين من قبلكم و خضتم في الباطل و الكذب على الله و رسوله كالذي خاضوا من قبلكم.

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ  
فكذلك أنتم إذ حكم الأمثال واحد فاذا كانوا أشدّ منكم قوّة و أعظم منكم مالا و عشيرة و مع ذلك هلكوا لما عصوا فأنتم أخرى بالإهلاك لمعصيتكم و ضعفكم فالمعنى عجلوا حظّهم و تركوا باب الآخرة فإتبعتموهم أنتم.

قال بعض المفسّرين لما بيّن الله تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك الكفّار المتّقدين في طلب الدّنيا و الإعراض عن طلب الآخرة بيّن حصول المشابهة بين الفريقين في تكذيب الأنبياء و فى المكر و الخديعة و الغدر بهم فقال و خضتم كالذي خاضوا، فالذي، صفة مصدر محذوف دلّ عليه الفعل ثمّ قال تعالى: أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أي بطلت حسناتهم في الدّنيا بسبب الموت و الفقر و الإنتقال من العزّ الى الدّلّ من القوّة الى الضّعف و فى الآخرة بسبب أنهم لا يثابون بل يعاقبون أشدّ العقاب و أولئك هم الخاسرون، حيث أنعبوا أنفسهم في الرّدّ على الأنبياء و الرّسل و تكذيبهم فما وجدوا من تكذيبهم إلّا فوات الخيرات في الدّنيا و الآخرة انتهى.

وإعلم أنّ الخوض وأن كان في الأصل هو الشروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور كما نقلناه عن المفردات إلا أنه أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه.

قال الله تعالى: ذَرُهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يُلْعَبُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ.

قال الله تعالى: وَ خُضْنُمْ كَالَّذِي خَاضُوا.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الاستفهام إنكاري والمعنى قد أتاهم نبأ الذين من قبلهم والمقصود أنّ الله تعالى لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا والركون إليها و تكذيبهم الأنبياء و كان لفظ، الذين، فيه إيهام نصّ على طوائف بأعيانها ستّة و ذلك لأنهم كان عندهم شيء من أنباءهم وكانت بلادهم قريبة من بلاد العرب كانوا أكثر الأمم عدداً و أنبياءهم أعظم الأنبياء فمنهم نوح النبي و هو أول الرسل، و إبراهيم الأب الأقرب للعرب و ما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشدة و كثرة المال و الولد فقوم نوح أهلكوا بالغرق و قوم عاد بالريح و قوم ثمود بالصيحة و قوم إبراهيم لسلب النعمة منهم حتّى سلّطت البعوضة على نمروذ و كان ملكهم و أصحاب مدين بعذاب يوم الظلة، و المؤتفكات بجعل أعالي أرضها أسافل و إمطار الحجارة عليهم و السبب في الكلّ هو عصيانهم و تمردهم و تكذيبهم الأنبياء.

و حيث كان المنافقون أيضاً موصوفين بهذه الصفة و قد ثبت أن حكم الأمثال واحد فلا جرم كان ينبغي لهم ترك التكذيب والعصيان ولأجل ذلك هدّهم الله و أخافهم ممّا وقع على من قبلهم من العصاة.

و قال بعض المفسرين الإستفهام في قوله: **أَلَمْ يَأْتِهِمُ** للتقرير و التحذير لأنّ الإحتجاج بما يلزمهم الإقرار به فقوله تعالى: **أَلَمْ يَأْتِهِمُ** الخ أنما هو على وجه الإحتجاج عليهم ليتعظوا لأنّ الأمم الماضية اذا كان الله أنما أهلكها و دمرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كلّ أمة يساؤونهم في هذه الأحوال و لازم ذلك ألا يأمّنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك.

و قد نقل عن الرّماني أنّه قال الحكمة تقتضي إستحقاق العقاب في صورة التّساوي فلا يجوز العفو عن بعضهم دون بعض مع تساويهم في الأحوال و أنما يجوز العدول من قوم الى قوم في الواحد ممّا للحاجة و قد أوجب عنه بأنّ هذا يتم على قول من يقول بالأصلح.

و أمّا من لا يقول به و يقول بالتّفضل فيقول هو تعالى متّفضل بذلك فله أن يتّفضل على من يشاء و لا يلزم أن يفعل ذلك بكلّ مكلف انتهى.

**أقول** لا منافاة بين التّهديد و التّخويف و عدم فعلية العذاب و ذلك إمّا.

**أولاً:** فلأنّ الله تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد:

قال الله تعالى: **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** <sup>(٢)</sup> و أمثال ذلك من الآيات.

**ثانياً:** نقول أنّ الله تعالى رفع عن هذه الأمة العذاب في الدنيا لأجل الرّسول كما.

قال الله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ<sup>(١)</sup>.

وأما في الآخرة فالعذاب لهم مسلّم أن لم يتوبوا في الدنيا قبل الموت.

قال الله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ<sup>(٣)</sup>.

و محصل الكلام هو أنّ المنافقين في صدر الإسلام و أن كانوا في إيذاء الرّسول و تكذيبه كم كان قبلهم أو أشدّ منهم إلا أنّ الله تعالى أخّر عنهم العذاب في الدنيا لما ذكرناه أو لمصلحةٍ رآها لأنّه لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

و إعلم أنّهم أوختلفوا في المؤتفكات، فقال الحسن و قتادة هي ثلاث قريّات لقوم لوط جمعها بالألف و التّاء و قال تعالى في موضع آخر وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى<sup>(٤)</sup> فجاء به على طريق الجنس.

و قال الرّجاج، معناه، إنّفكت بأهلها إنقلبت و به قال الواحدي فأنّه قال و المؤتفكات صفة للقرى الّتي أنفكت بأهلها فجعل أعلاها أسفلها و المؤتفكات مدائن قوم لوط.

و قال بعضهم هي قريّات قوم لوط و هود و صالح و أنفكهن إنقلاب أحوالهن عن الخير الى الشرّ، و قيل هي أهل القرى الأربعة و قيل التسعة الّتي بعث اليهم لوط و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة نوح و هود و صالح و غيرهم من الأنبياء في مواضعها إنشاء الله تعالى.

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ



إشارة إلى أن العقاب من الله تعالى إنما يصح بعد تمامية الحجة وأما قبلها فلا وقد تمت الحجة ظاهراً وباطناً.

أما ظاهراً فلأنه أرسل الرسل اليهم وأما باطناً فلأنه تعالى أعطاهم العقل وهو الحجة باطناً وبهما قد تمت الحجة على الناس فلا عذر لهم في عصيانهم وخلافهم عند الله عقلاً وشرعاً وعليه فالعقاب وقع في محله لأنه بعد البيان وفي قوله: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** أُلخ إشارة إلى أن العقاب الواقع بهم بعد الحجة والبرهان هو عين العدل ومع ذلك فالعبد هو الباعث عليه لأنه أوجب السبب الباعث له بطغيانه وعصيانه وفي قوله: **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** إشارة إلى أنهم لم يظلموا على الله بل ظلموا على أنفسهم لأنه تعالى لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه لكونه غنياً بالذات عن طاعتهم آمناً من معصيتهم فمن عصاه ظلم على نفسه وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** <sup>(٦)</sup>.

والآيات بهذه المضامين كثيرة وأصرح من الكل:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

- |                  |                   |
|------------------|-------------------|
| ١- البقرة = ٥٧   | ٢- الزوم = ٩      |
| ٣- العنكبوت = ٤٠ | ٤- آل عمران = ١١٧ |
| ٥- الأعراف = ١٦٠ | ٦- الأعراف = ١٦٢  |

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ  
يَظْلِمُونَ<sup>(١)</sup>.

و الوجه فيه واضح و هو أنه تعالى عادل و قد ثبت عقلاً و شرعاً أَنَّ الظلم  
من القبائح و القبح لا يليق بساحة قدسه لأنه نقص و عيب و هو منزّه عنه كما  
ثبت في محله.



وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ  
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ  
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ  
الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ  
رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ  
(٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَ  
أَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَا بِهِمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ  
(٧٣) يَخْلِقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً  
الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمَا بِمَا لَمْ  
يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ  
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا  
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ  
مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٧٤) وَ  
مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتِيَانَا مِنْ فَضْلِهِ  
لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا  
آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ  
مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى  
يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا  
كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ  
سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

## ◀ اللغة

وَاعْلَظُوا غِلْظَةَ عَدَمِ الرَّقَّةِ وَإِحْلَالَ الْأَلَمِ.  
مَأْوَاهُمْ الْمَأْوَى الْمَكَانُ.  
يَنَالُوا النَّيْلَ لِحُوقِ الْأَمْرِ.

## ◀ الإعراب

وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ مُبْتَدَأٌ وَأَكْبَرُ خَبْرِهِ مَا قَالُوا هُوَ جَوَابُ قَسَمٍ وَيَحْلِفُونَ قائم مقام القسم وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنِيَهُمُ اللَّهُ أَنْ وَ مَا عَمِلْتَ فِيهِ مَفْعُولٌ، نَقَمُوا أَيْ وَ مَا كَرِهُوا إِلَّا إِغْنَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَ قِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ وَ الْمَفْعُولُ بِهِ مُحذُوفٌ أَيْ مَا كَرِهُوا الْإِيمَانَ إِلَّا لِيُغْنُوا لِنَفْسِ أَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ، فِيهِ وَجْهَانِ: أحدهما: تقديره، عاهد فقال لنن آتانا.

الثاني: أن يكون عاهد بمعنى قال إذ العهد قول نَجَوْنَهُمُ الْأَسْرَارَ إِخْفَاءَ المعنى فِي النَّفْسِ وَ النَّجْوَى رَفَعَ الْحَدِيثَ بِإِظْهَارِ الْمَعْنَى لِمَنْ يَسْلَمُ عَنْده مِنْ إِخْرَاجِهِ إِلَى عَدُوِّ فِيهِ لِأَنَّهُ مِنَ النَّجَاةِ وَ قَوْلُهُ، سَرَّهُمْ، مَفْعُولٌ لِيَعْلَمَ وَ النَّجْوَى مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ.

## ◀ التفسير

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافَقَاتِ وَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ وَ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ نِفَاقِهِمْ ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَالَ: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِنَّمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَ فِي الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِمَّا لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا وِلَايَةَ بَيْنَهُمْ وَ لَا شِفَاعَةَ وَ لَا يَدْعُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فَكَانَ الْمُرَادُ هُنَا الْوِلَايَةَ فِي اللَّهِ خَاصَّةً.

و إما لأنّ نفاقهم و كفرهم حصل بسبب التقليد دون الإستدلال و البرهان و هذا بخلاف الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنّها إنّما حصلت بسبب المشاركة في الإستدلال و التّوفيق و الهداية هكذا قيل و الحقّ أن يقال أنّ المؤمن أخو المؤمن و الأخوة إنّما تحصل بسبب الإيمان قد ثبت أنّ الله تعالى ولى المؤمنين لقوله تعالى: **اللّٰهُ وَلِيّ الَّذِينَ آمَنُوا**.

وإذا ثبت الولاية من الله فلا جرم بعضهم أولياء بعض و هذا بخلاف المنافق الذي وليه الشيطان، لقوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ** <sup>(١)</sup>. فالمنافق لا يدخل تحت ولاية الله لأجل نفاقه و إذا كان كذلك فلا ولاية لله عليهم فلا ولاية لبعضهم على بعض إذ المفروض إنتفائها في حقّه بالكلية و كيف كان فقد ذكر الله تعالى بعد ذلك ما هو يجري كالتفسير و الشرح لما ذكره من ولاية بعضهم على بعض فقال: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** هذا هو الوجه الأول و الثاني من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية التي يتمييز بها المؤمن عن المنافق لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف.

و ذلك لأنّ التّفاق عبارة عن مخالفة الباطل للظّاهر فلو كان المنافق أمراً بالمعروف و ناهياً عن المنكر مع علمه بهما باطناً كيف يكون منافقاً و المفروض موافقة الباطن للظّاهر و أن كان أمراً و ناهياً بهما مع جهله واقعاً فهو جاهل لا منافق لعدم مخالفة الباطن للظّاهر و بعبارة أخرى الأمر بالمعروف و النّاهي عن المنكر، إمّا أن يأمر و ينهى بهما ظاهراً مع علمه بهما واقعاً فهو مؤمن. و إمّا أن يأمر و ينهى عنهما ظاهراً و لا يعلم بهما واقعاً فهو جاهل. و أمّا أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ظاهراً على خلاف باطنه فهو منافق و عليه فالمنافق قد يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر إلاّ أنّه غير معتقد بكلامه واقعاً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فقول بعضهم في تفسير الكلام أنَّ المنافق لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لا نفهم معناه لأننا نرى أنَّ المنافقين أيضاً يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ظاهراً كيف لا يكون كذلك و من المعلوم أنَّ المنافق لو أمر بالمنكر وينهى عن المعروف صريحاً يردّ عليه ولا يقبل قوله وإذا كان كذلك فلا نفع لقوله قطعاً فالحق أن يقال في تفسير الآية أنَّ المؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظاهراً وباطناً أي يأمر به وينهى عنه عن اعتقادٍ وهذا بخلاف المنافق لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظاهراً وهو غير معتقد بما يقول كما هو شأن النفاق إذا عرفت هذا فنقول:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات بل هما من أوجب الواجبات وأصلها وأساسها فلو قلنا أنَّ الذين عبارة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان حقاً وذلك لأنَّ الأحكام الخمسة التكليفية من الوجوب والحرمة والنّدب والكراهة والإباحة ترجع إليها فأنَّ الوجوب والنّدب والإباحة داخلٌ في المعروف والحرمة والكراهة من المنكر وتوضيح الكلام إجمالاً:

هو أنَّ المعروف يقال لما في فعله مصلحة، والمنكر يقال لما في فعله مفسدة و حيث أنَّ الحرمة والكراهة في فعلهما مفسدة نهى الشارع عن فعلهما فهما من المنكرات.

وأما الوجوب والنّدب والإباحة ففي فعلها مصلحة ولذلك أمر الشارع بها وهذه في الأحكام الفرعية أعني بها الخمسة التكليفية لا كلام لنا ولا لغيرنا فيه لوضوحه كما عرفت.

وأما الاعتقادات من التوحيد والتّوبة والمعاد والإمامة وغيرها فهي أيضاً ترجع الى ما ذكرناه لأنَّ الاعتقاد الصحيح المأمور به داخل في المعروف والباطل منه كالشّرك والنّفاق والكفر والإلحاد داخل في المنكر وهذا معنى

قولنا أَنَّ الدِّينَ عبارةٌ عنهما و لأجل ذلك قد حثَّ الله عليهما في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ<sup>(١)</sup>**.

قال الله تعالى: **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْزُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ<sup>(٣)</sup>**.

و الآيات كثيرة و أمّا الأخبار الواردة في شأنهما فلا يخفى على أحد و قد أشرنا الى شطرٍ منها في سورة آل عمران و سيجي الكلام فيهما في المستقبل أيضاً.

و الذي نقول في المقام هو أَنَّ الله تعالى جعلهما من خصائص المؤمن تمييزاً بينه و بين المنافق و لعلَّ وجه الاختصاص هو أَنَّ المؤمن لإيمانه بالله يحبّ الخيرات و يبغض المنكرات لأنَّ الأول مأمورٌ به و الثاني منهيٌّ عنه و أن شئت قلت أَنَّهُ يحبّ المعروف لأنَّ الله تعالى يحبه و ينكر المنكر لأنَّ الله ينكره و المفروض أَنَّهُ تابع لموحده و خالقه في أوامره و نواهيه و اذا كان كذلك فلا محالة يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر بلسانه أيضاً كما هو شأن المؤمن.

و أمّا المنافق فلعدم إيمانه بالله يكون على العكس ممّا ذكرناه فهو دائماً يحبّ الفحشاء و يبغض المنكرات و القبائح فلا محالة يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



٢- آل عمران = ١١٠

١- آل عمران = ١٠٤

٣- لقمان = ١٧

**الوجه الثالث:** من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية قوله تعالى: وَ يَقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ أَي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقِيْمُونَ الصَّلَاةَ.  
 إن قلت المنافق أيضاً يصلي فالصلاة مشتركة بين المؤمن والمنافق فكيف جعلها الله من خواص المؤمنين.

قلت فرق واضح بين فعل الصلاة كيف إتفق وبين إقامتها أي الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها من النية وحضور القلب والطهارة وإباحة المكان وغيرها فإن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها الباطنية والظاهرية والمنافق لا يصلي كذلك فإن قصد القرية مثلاً لا يتمشى منه لنفاقه وعدم إيمانه بالله ولعله لهذه الدققة قال تعالى ويقومون الصلاة ولم يقل، و يصلون، مثلاً.

وقيل أَنَّ المراد بإقامتها إشاعتها في الناس وهي تحصل بعد ترغيب الناس وتحريضهم عليها وهو أيضاً لا يكون من شأن المنافق لأنه لا يحب كثرة المصلين وإعتناءهم بالدين وكيف كان لا شك أَنَّ الإتيان بها غير إقامتها يكفي في وجه اختصاصها بالمؤمن.

وقد ورد في زيارة الحسين عليه السلام أشهد أنك قد أقمت الصلاة وأتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر الخ....

**الوجه الرابع:** منها قوله: وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَأَمَّا خَصَّ الزَّكَاةَ بِالذَّكَرِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مِنْهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عَمُودُ الدِّينِ وَلِذَلِكَ تَرَى ذِكْرَهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فِي أَكْثَرِ الْمَوَارِدِ.

قال الله تعالى: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ <sup>(٢)</sup>.



قال الله تعالى: **وَأَوْضَنِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** <sup>(١)</sup>.  
 قال الله تعالى: **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ** <sup>(٢)</sup>.

والآيات في الباب كثيرة دالة على عظم شأن الزكاة.  
 ثم أنَّ الزكاة في الأصل النمو الحاصل عن بركة الله و يعتبر ذلك بالأموار الدنيوية والاخروية يقال زكا الزرع يزكو اذا حصل منه نمو وبركة وقد حثَّ الأخبار على وجوبها ورفع شأنها بل يستفاد منها أنَّ قبول الصلاة موقوف على إخراجها وقد ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشدَّ عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم انتهى.  
 وقد ورد في الأخبار أنَّ مانع الزكاة يخرج عن الإسلام وأمثال ذلك من الأخبار كثيرة وقد مضى شطر منها في سورة البقرة وسيأتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

روي في الكافي في الحسن عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير و بريد والفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا فرض الله الزكاة مع الصلاة في الأموال وسنَّها رسول الله في تسعة أشياء وعفى عما سواهن.  
 في الذهب والفضة والإبل والبقرة والغنم والحنطة والشعير والتَّمَرُ والزَّيْبِيبُ وعفى رسول الله عما سوى ذلك.

و نحو ذلك أخبار كثيرة وما تضمَّنه من الوجوب في التسعة فجمع عليه و تستجِبُ فيما عداها من الحبوب كما دلَّت عليه الأخبار ولها أحكام وشروط و تفصيل الكل في الكتب الفقهية وهي من ضروريات الدين بالإجماع.  
**الوجه الخامس:** منها قوله تعالى: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** أي يمتثلون أمرهما ويتبعون إرادتهما و رضاهما.

بناء القرآن في تفسير القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

أَنْ قُلْتَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَمَرْنَا بِذَلِكَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى فَمَنْ لَا يَطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْفَ يَصْلِي وَيُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** بَعْدَ ذِكْرِ الْأَرْبَعَةِ مُسْتَدْرِكٌ غَيْرُ لَازِمٍ. قُلْتَ لَعَلَّ الْوَجْهَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ بَلْ وَغَيْرَهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ مَشْرُوطَةٌ بِقَصْدِ الْقَرِيبَةِ وَلَا نَعْنِي بِالْقَرِيبَةِ إِلَّا كَوْنُ الْفِعْلِ عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَوْلُهُ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْوَجْهَ الْأَرْبَعَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ أَمَّا تَفْيِيدُهَا إِذَا كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالْخُلُوصِ الْمَعْبُورِ عَنْهُ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** لَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ بَلْ لِأَبَدٍ مِنْ ذِكْرِهِ لِيَحْصَلَ الْمَقْصُودُ هَذَا وَ يَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** يَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَحْرَمَاتِ وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ هَذَا، هُوَ أَصْلٌ مُسْتَقِلٌّ كَالْأَرْبَعَةِ السَّابِقَةِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ شَامِلَةٌ لِمَنْ رَاعَى هَذِهِ الْوُجُوهَ الْخَمْسَةَ الْمَذْكُورَةَ.

ثُمَّ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى الْإِيمَانِ الْمُتَحَقِّقِ فِي الْخَارِجِ فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَوْلُهُ: **أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أَي هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفِينَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ يَدْخُلَهُمْ فِي بَحَارِ رَحْمَتِهِ وَ مَغْفِرَتِهِ فَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَي قَادِرٌ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَ غَيْرِهِمْ، حَكِيمٌ فِي عِقَابِهِ وَ ثَوَابِهِ ثُمَّ أَرْدَفَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ:

**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**

و أعلم أن الله تعالى أخبر بهذه الآية بأنه كما وعد الكفار والمنافقين بنار جهنم و الخلود فيها كذلك وعد الله المؤمنين و المؤمنات المعترفين بوحديته و صدق رسله و أنبياءه قلباً و المقرين بها لساناً و العاملين بأحكام الله أركاناً الخلود في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار و التقدير تجري من تحت أشجارها الأنهار الجنة أخايد في الأرض فلذلك قال من تحتها، و أنهم فيها خالدون أي دائمون و أما المساكن الطيبة، فقل أنهما قصور من اللؤلؤ و الياقوت الأحمر و الزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر.

و عن ابن عباس هي دور المقرين، و قيل دور في جنات عدن مختلفة في الصفات باختلاف حال الحاليين فيها.

و قيل هي قصور من زبرجد و درّ و ياقوت يفوح طيبها من مسير خمس مائة عام في أماكن إقامتهم و قيل غير ذلك و الكل محتمل عقلاً إذ لا دليل على ما ذكره في الباب و الله أعلم بحقيقتها و كيفيتها.

و أما قوله: وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ففیه أيضاً أقوال.

منها ما نقله صاحب التبيان رحمته الله عن الرّماني أنه قال الرّضوان معنى يدعو الى الحمد بالإجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة.

و قال الحسن معناه، وصل الى قلوبهم برضوان الله من اللذة و السرور ما هو ألدّ عندهم و أقرّ لأعينهم من كلّ شيء أصابوه من لذة الجنة.

و قال ابن عطية هو إشارة الى منازل المقرين الشارين من نسيم.

و قال الزّمخشري رضاه تعالى سبب لكل فوز و سعادة و أنت ترى أن هذه الأقوال أيضاً من المحتملات التي لا يمكن الإعتماد عليها ضرورة أن الأخبار و الحكاية عمّا وراء عالم الطبيعة كمّاً و كيفاً يحتاج الى النص من الكتاب و السنة و من المعلوم المسلّم عند الكل أن النص في المقام لا يدلّ على أكثر من وجود الجنة و النار و ما فيهما من النعم و النقم و أما كيفية النعمة و العقاب في الجنة و

النَّارَ وَأَنَّ أَقْسَامَ الْجَنَّةِ مَا هِيَ وَكَيْفَ هِيَ وَهَكَذَا دَرَكَاتِ السَّقَرِ فَأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ مُعْتَبَرٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِذْ لَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ إِلَيْهَا قِطْعاً وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ وَأَمثَالِهِ هُوَ مُتَابَعَةُ النَّصِّ الْمُعْتَبَرِ فَأَنْ وَجَدَ فَهُوَ وَإِلَّا فَالسَّكُوتُ أَوْلَى، وَالَّذِي ثَبَتَ لَنَا أَنَّ الْجَنَّةَ وَاحِدَةٌ وَالنَّارَ وَاحِدَةٌ إِلَّا أَنَّهُمَا تَخْتَلِفَانِ بِإِعْتِبَارِ مَرَاتِبِهِمَا وَمَنَازِلِهِمَا وَكَثْرَةِ الْأَسْمَاءِ لَا تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْمُسَمَّى فَمَا ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ وَأَمثَالُهُ مِنَ الْعَامَةِ نَقْلًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَمثَالُهُ مِنَ الْكَذَّابِينَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ أَصلاً.

نعم قد ورد في الآثار أَنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ وَلِلنَّارِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ وَالْأَصْلُ فِيهِ هُوَ نَصُّ الْكِتَابِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّارِ: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ<sup>(١)</sup>.

و قال في وصف الجنة: جَنَّاتٍ عَذْنٍ مَفْتُحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ<sup>(٢)</sup>.

فقد روي المجلسي رحمته الله في البحار عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ قَالَ لِي جِبْرِيلُ قَدْ أَمَرَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَنْ تَعْرُضَ عَلَيْكَ فَرَأَيْتِ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَرَأَيْتِ النَّارَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، وَالْجَنَّةُ فِيهَا ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ كُلُّ كَلِمَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ يَعْلَمُ وَيَعْمَلُ بِهَا وَلِلنَّارِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ كُلُّ كَلِمَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ يَعْلَمُ وَيَعْمَلُ بِهَا فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ عليه السلام يَا مُحَمَّدُ اقْرَأْ مَا عَلَى الْأَبْوَابِ فَقَرَأْتُ ذَلِكَ.

أَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَعَلَى أَوَّلِ بَابٍ فِيهَا مَكْتُوبٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيَّ وَلِيَّ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ حِيلَةٌ وَحِيلَةُ الْعَيْشِ أَرْبَعُ خِصَالٍ، الْقَنَاعَةُ وَبَذْلُ الْحَقِّ وَتَرْكُ الْحَقْدِ وَمَجَالَسَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ.

على الباب الثاني: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله لكلّ شيءٍ حيلة و حيلة السُرور في الآخرة أربع خصالٍ، مسح رؤوس اليتامى و التّعطف على الأرامل و السّعي في حوائج المؤمنين و التّفقّد للفقراء و المساكين.

على الباب الثالث: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله لكلّ شيءٍ حيلة و حيلة العصمة في الدنيا أربع خصالٍ، قلة الكلام و قلة المنام و قلة المشي و قلة الطّعام.

على الباب الرابع: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله، من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر، فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم جاره، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم والديه، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت.

على الباب الخامس: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله، من أراد أن لا يظلم فلا يشتم و من أراد أن لا يذلّ فلا يذلّ و من أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا و الآخرة فليقل لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله.

على الباب السادس: لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله من أراد أن يكون قبره و سيعاً فسيحاً فليبن المساجد و من أراد أن لا تأكله الدّيدان تحت الأرض فليسكن المساجد و من أحبّ أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليكنس المساجد و من أحبّ أن يرى موضعه في الجنّة فليكنس المساجد بالبسط.

على الباب السابع: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله بياض القلب في أربع خصالٍ، عيادة المريض و إتباع الجنائز و شراء الأكفان و ردّ القرض على.

الباب الثامن: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ ولي الله من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال، السخاء، و حسن الخلق و الصدقة و الكف عن أذى عباد الله.

و رأيت على أبواب النار مكتوب:

على الباب الأول: ثلاث كلمات، من رجا الله مسعداً و من خاف الله أمن و الهالك المغرور من رجا غير الله و خاف سواه.

على الباب الثاني: من أراد أن لا يكون عرياناً يوم القيامة فليكسي الجلود العارية في الدنيا و من أراد أن لا يكون عطشاناً يوم القيامة فليسق العطاش في الدنيا و من أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً فليطعم البطون الجائعة في الدنيا.

على الباب الثالث: لعن الله الكاذبين، لعن الله الباخلين، لعن الله الظالمين.

على الباب الرابع: مكتوب ثلاث كلمات أذلّ الله، من أهان الإسلام أذلّ الله من أهان أهل البيت أذلّ الله من أعان الظالمين على ظلمهم للمخلوقين.

على الباب الخامس: مكتوب ثلاث كلمات، لا تتبعوا الهوى فالهوى يخالف الإيمان و لا تكثر منطقك فيما لا يعنك فتسقط من رحمة الله، و لا تكن عوناً للظالمين.

على السادس: مكتوب أنا حرام على المجتهدين أنا حرام على المتصدين أنا حرام على الصائمين.

على السابع: مكتوب ثلاث كلمات، حسابوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و نجّوا أنفسكم قبل أن توبّخوا و أدعوا الله عزّ وجلّ قبل أن تردوا عليه و لا تقدروا على ذلك انتهى<sup>(١)</sup>.

**أقول** أنما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من المواعظ لمن كان له قلب.  
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ: **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** فَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذِهِ  
النِّعَمَ الْمَشَارَ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ هِيَ النَّجَاحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ وَلَا أَعْظَمَ  
مِنْهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ إِذْ أَيْ شَيْءٍ أَعْظَمَ وَأَنْفَعَ مِنْ رِضَا الرَّبِّ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ.

**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا يُهِمُّهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبَيْتُ الْمَصِيرِ**

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن يجاهد الكفار والمنافقين والجهاد على  
ما قيل هو ممارسة الأمر الشاق لأنه مشتق من الجهد وهو قد يجب باليد وقد  
يجب باللسان وقد يجب بالقلب وقد يجب بالجميع فمن أمكنه الجميع  
وجب عليه جميعه ومن لم يقدر باليد باللسان فأن لم يقدر بالقلب.  
ثم أنهم اختلفوا في كيفية جهاد المنافقين والكفار.

فقال ابن عباس جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ و  
التخويف وهو قول الجبائي.

و قال الحسن و قتادة جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين بإقامة الحدود  
عليهم.

و قال ابن مسعود هو بالأنواع الثلاثة حسب الإمكان فأن لم يقدر فليكفر في  
وجوههم وهو الأعم.

وروي في قراءة أهل البيت وجاهد الكفار بالمنافقين قاله الشيخ في التبيان.  
وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** قَالُوا الْغُلُظُ ضِدُّ الرِّقَّةِ وَالْمُرَادُ خَشُونَةُ الْكَلَامِ وَ  
تَعْجِيلُ الْإِنْتِقَامِ عَلَى خِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: **وَاحْضَرِ  
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**<sup>(١)</sup> وَقَالُوا وَكُلٌّ مِنْ وَقَفَ مِنْهُ عَلَى فُسَادٍ فِي الْعَقَائِدِ فَهَذَا  
حُكْمُهُ يَجَاهِدُ بِالْحِجَّةِ وَيَسْتَعْمَلُ مَعَهُ الْغُلُظَ مَا أَمَكُنْ.

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

أقول في هذه الآية مسائل:

**الأولى:** أمر الله تعالى نبيه بالجهاد وهذا مما لا كلام لنا فيه لأن الجهاد من الأصول المسلمة في الإسلام كالصلاة والصوم والحج وغيرها وتفصيل الكلام فيه وفي أقسامه وشرائطه وكيفية مسطور في الكتب الفقهية ومن المعلوم أن الجهاد مع الكفار في بعض الأحيان من أوجب الواجبات إذ به يحصل شرف الإسلام وأنه يعلوا ولا يعلى عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدَنَعُ اللَّهِ الْحَصِينَةَ، وَجَنَّتُهُ الْوُثِيقَةَ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَسَمَلَةَ الْبَلَاءِ، وَدُيْتُ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَسْهَابِ، وَأُذِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمِ الْخُسْفِ وَمُنْعِ النُّصْفِ<sup>(١)</sup>.**

وقال عليه السلام: **إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِيْمَانُ بِهِ وَرِسُولُهُ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ<sup>(٢)</sup>.**

وقال عليه السلام: **أَوْهَى عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ فَأَقَامُوهُ أَخِيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَاجَابُوا وَوَقَفُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ<sup>(٣)</sup>.**

وقال عليه السلام: **أَيُّنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّيَهُوا<sup>(٤)</sup>.**

والحاصل أن أصل الجهاد مما لا ريب في وجوبه ومدحه أنما الكلام في أن الآية قد صرح بوجوبه مع الكفار والمنافقين والمخاطب بها وأن كان رسول الله في ظاهر الأمر إلا أن الأمة بعد الرسول أيضاً مخاطبون بها وإذا كان

بناء القرآن في تفسير القرآن

حزء ١٠

المجلد الثامن



كذلك فما وظيفة الأمة بعد الرّسول هل يجب عليهم الجهاد أم لا والذي نقول به ونذهب اليه هو وجوبه بمعناه العامّ الشّامل لجميع أقسام الجهاد سوى الجهاد بالسّيف والسّنان فإنّه مشروط بوجود المعصوم وأمره به وأمّا في زمان الغيبة كزماننا هذا فلا يجب وللبحث فيه مقام آخر اذا عرفت هذا فنقول:

ما ذهب اليه ابن عبّاس و تبعه على ذلك جميع العامّة في كتبهم و تفاسيرهم من أنّ الجهاد مع الكفّار بالسّيف ومع المنافقين باللسّان و شدّة الرّجر و التّعليظ فنحن لا نقول به بل هو مردودٌ و عندنا و ذلك لعدم الفرق بين الكافر و المنافق في وجوب الجهاد معهما في زمان المعصوم و مجرد كون المنافق متلبساً بلباس الإسلام ظاهراً لا يوجب ترك الجهاد معه بالسّيف و السّنان.

و الدّليل على المدّعى هو أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام جاهد النّاكثين و القاسطين و المارقين مع أنّ معاوية و أصحابه و هكذا أصحاب الجمل و التّهروان كانوا متظاهرين بالإسلام و لا سيّما الخوارج فتخصيص الجهاد بالسّيف و السّنان للكفّار و باللسّان و القلب بالمنافقين ممّا لا وجه له.

**المسألة الثانية:** في تفسير قوله: **وَ أَغْلَظْ عَلَيْهِمْ** قلنا أنّ الغلظ ضدّ الرّأفة و الرّقة و ظاهر الكلام أنّ الغلظ يجب على الكفّار و المنافقين و لا يجوز العفو عنهم و التّرحم عليهم كما صرّحوا به في تفاسيرهم لهذه الآية و هذا أيضاً لا يستقيم على إطلاقه لأنّ الإسلام دين الرّأفة و الرّحمة و أمّا الغلظة و الخشونة فلا محلّ لها في الإسلام قال الله تعالى مخاطباً لنبيه **لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**<sup>(١)</sup> مضافاً الى أنّ العقل أيضاً يحكم ببطلان الخشونة.

أن قلت فما معنى الكلام، قلت معناه و أغلظ عليهم اذا كانوا مضرين على كفرهم و نفاقهم و عنادهم و قتالهم و من المعلوم أنّ الرّأفة و الرّقة عليهم في هذه الحالة قبيح عقلاً ممنوع شرعاً بل تعدّ من الظلم كما قال الشّاعر بالفارسية:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثالث

تَرَحُّمٌ بِرِ بِلَنگ سَتِيز دَنَدَان سَتَم كَارِي بُود بِر گُوسَفَنَدَان  
و محصل الكلام هو أَنَّ الإسلام بريُّ من الخشونة والغلظة و النَّبِيُّ ﷺ  
بحكم الآية لم يكن غليظ القلب و اللِّسان فالغلظة في بعض الأحيان نشأت من  
عمل الكفَّار و المنافقين و أن شئت قلت أَنَّ الغلظة عليهم عين الرِّحمة و الرَّأفة  
ولو كانوا يعلمون.

و حيث إنَّجر الكلام الى الغلظة فلا بأس بنقل ما رواه البخاري و مسلم في  
صحيحهما في مناقب عمر بن الخطَّاب قالَا إِسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ و عِنْدَ نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَكْلَمُنَهُ وَ يَتَكَثَّرُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ  
عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا إِسْتَأْذَنَ عُمَرُ قَمْنَ فَبَادَرْنَ الْحِجَابَ فَأَذَنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
فَدَخَلَ عُمَرُ وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ فَقَالَ عُمَرُ أَضْحَكَكَ اللَّهُ سَنَكَ يَا  
رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ  
صَوْتَكَ إِبْتَدَرْنَ الْحِجَابَ فَقَالَ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهْبِنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ  
يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهْنِئْنَ وَلَا تَهْبِنَ رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْنَ نَعَمْ أَنْتَ أَغْظُوْا وَ أَغْلَظُ مِنْ  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِيهَآ يَا بَنَ الْخَطَّابِ وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا  
فَجَا إِلَّا سَلَكَ فَجَا غَيْرَ فَجَاكَ أَنْتَهَى نَقَلْنَا الْحَدِيثَ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١) وَ قَدْ  
نَقَلَهُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْعَامَّةِ وَ هُوَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ عِنْدَهُمْ.

و أنت ترى ما فيه من تنقيص الرسول و الإهانة به و كأنَّهم أرادوا من جعل  
هذا الحديث إثبات فضيلة لعمر و أنه كان من الغيرة و الحمية فوق الرسول أَنَّ  
النِّسَاءَ يَهْبِنَ عُمَرُ وَلَمْ يَهْبِنَ الرَّسُولُ وَ أَيْضًا أَتَبَتُوا بِذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ فَظًّا  
غَلِيظًا إِلَّا أَنَّ عُمَرَ كَانَ أَفْظَ مِنْهُ وَ أَغْلَظُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ وَ قَدْ نَفَى  
اللَّهُ تَعَالَى الْغَلْظَةَ عَنْهُ ﷺ فِي قَوْلِهِ:

لَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا لَأَقْلَبُ لَأَنْفَعُصُوا مِنْ حَوْلِكَ.  
وقوله تعالى: إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.

أعجب من الكلّ قوله في آخر الحديث إيهّا يابن الخطّاب و الذّي نفسي بيده ما لقيك الشّيطان سالكاً الى آخره فزعموا أنّ هذا الكلام يدلّ على فضيلة عمر و أنّ الشّيطان كان مأیوساً من إضلاله و لذلك سلك فجّاً غير فجّه ولم يعلموا أنّ الكلام على فرض صحته لا يدلّ على ذلك بل هو بالذّم أشبه منه بالمدح لأنّ الشّيطان لا يضلّ الشّيطان لأنّه من قبيل تحصيل الحاصل فاذا رأى شيطان شيطاناً آخر لا جرم يسلك مسلكاً غير مسلكه و لا سيّما اذا كان الآخر أعلم بطرق الإضلال منه و عليه فأنّ صحّ الحديث فهو في ذمّ عمر لا في مدحه هذ كلّ مع ما في ألفاظ الحديث من الفصاحة و الشّناعة ما لا يخفى على العاقل اللّبيب فاعتبروا يا أولي الأبصار.

**المسألة الثالثة:** قوله تعالى: **وَمَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ وَ يَسُوسَ الْمَاصِرِ الْمَأْوَى** المكان و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار و المنافقين اذا قالوا على الكفر و النّفاق ولم يرجعوا عمّا كانوا عليه في الدّنيا فلا جرم مأواهم جهنّم و لا شك أنّ طريق النّار من أخوف الطّرق و أقبحها لأنّها تنتهي الى العذاب الدّائم أعاذنا الله منه عذا تمام الكلام في تفسير الآية.

و قد ظهر ممّا ذكرناه أنّ الآية ليست بناسخة كما زعمه القرطبي و أمثاله حيث قال و هذه الآية نسخت كلّ شيء من العفو و الصّلح و ذلك لأنّ الآية تختصّ بما اذا كان الكافر أو المنافق مضراً على كفره و نفاقه محارباً للإسلام و المسلمين لا مطلقاً و عليه فالعفو و الصّلح و الصّفح في محله.

ألا ترى أنّ النّبي ﷺ لم يغلظ على كفّار يوم الفتح بل عفى عنهم بقوله أذهبوا أنتم الطّلقاء هذا.

و قد روي في قراءة أهل البيت جاهد الكفّار بالمنافقين قالوا لأنّ النّبي ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين و لكن كان يتألفهم ولأنّ المنافقين لا يظهرون الكفر و علم الله بكفرهم لا يبيح قتلهم اذا كانوا يظهرون الإيمان.

و قد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ جاهد الكفار بالمنافقين قال عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقاتل منافقاً قط أنما كان يتألفهم. وفي تفسير علي بن إبراهيم قال أنما نزلت يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم لأن النبي لم يجاهد المنافقين بالسيف.

و قد روي أبو بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: جاهد الكفار والمنافقين بالزمام الفرائض.

و عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين قال عليه السلام: هكذا نزلت فجاهد رسول الله الكفار و جاهد علي المنافقين فجاهد علي جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و في آمالي شيخ الطائفة بأسناده إلى ابن عباس قال لما نزلت يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين قال النبي صلى الله عليه وسلم: لأجاهدن العمالة يعني الكفار وأتاه جبرئيل و قال أنت أو علي عليه السلام: (١)

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ف قيل أنها نزلت في الخلاص بن سويد بن الصامت بأنه قال فأن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من الحمير ثم حلف بالله أنه.

قال القرطبي أن هذه الآية نزلت في الجلأس بن سويد بن الصامت و وداعة بن ثابت وقعوا في النبي و قالوا و الله لئن كان محمد صادقاً على أخواننا الذين

هم ساداتنا و خيارنا لنحن شرّ من الحمير فقال له عامر بن قيس أجل والله أن محمداً لصادق مصدق و أنك لشرّ من حمارٍ و أخبرها بذلك النبي ﷺ.

و جاء الجلاس فحلف بالله عند منبر النبي أن عامراً لكاذب و حلف عامر لقد قال و قال اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً فنزلت.

وقيل أنها نزلت في عبد الله ابن أبي، لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و أراد به الرسول ﷺ فسمع زيد بن أرقم ذلك و بلغه الى الرسول فجاء عبد الله و حلف أنه لم يقل.

وقيل نزلت في رجلين إقتلا أحدهما من جهينة و الآخر من غفار فظهر الغفاري على الجهيني الى آخر القصة.

و قال الرازي في تفسير لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه.

قال القاضي يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الوقائع و ذلك لأن قوله: يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ الى آخر الآية كلها صيغ الجموع و حمل صيغة الجمع على الواحد خلاف الأصل.

فأن قيل لعل ذلك الواحد قال في محفلٍ و رضي به الباقون.

قلنا هذا أيضاً خلاف الظاهر لأن إسناده القول الى من سمعه و رضي به خلاف الأصل ثم قال بل الأولى أن نحتمل هذه الآية على ما روي أن المنافقين هموا بقتله عند رجوعه من تبوك و هم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته الى الوادي و كان عمار بن ياسر أخذاً بالجطام على راحلته و حذيفة خلفها يسوقها فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل و قعقة السلاح فألنفت فإذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا و الظاهر أنهم لما اجتمعوا لذلك الغرض فقد طعنوا في نبوته و نسبوه الى الكذب و التصنع في إدعاء الرسالة و ذلك هو قول كلمة الكفر و هذا القول إختيار الزجاج انتهى ما أردنا ذكره عنه.

**أقول** هذا القول الأخير الَّذِي إختاره الرَّجَاجُ والقاضي هو المختار عندنا وقد نقله الألوَسي أيضاً في روح المعاني من جملة الأقوال أخرجه البهقي في الدلائل عن حذيفة بن اليمان إلا أَنَّهُ قال فإذا أنا بِأُتَى عشر راكباً قد إعترضوا فيها.

و نقله القرطبي في تفسيره و الزمخشري في تفسيره و السيوطي في الدر المنثور بطرق مختلفة و الحاصل أَنَّ أقوى الأقوال في نزول الآية هو هذا القول و ضمائر الجمع فيها أيضاً تدلُّ عليه كما قال القاضي و أمَّا تفاسير الشيعة، فقد نقل الشيخ في التبيان و الطبرسي في المجمع و الفيض في الصافي و غيرهم في غيرها الأقوال كُلِّها و منها هذا القول، إلا أَنَّهُم نقلوا قولاً آخر و هو أَنَّها نزلت في الَّذِينَ تحالفوا في الكعبة أَن لا يردُّوا هذا الأمر في بني هاشم فهي الكفر ثُمَّ قعدوا لرسول الله في العقبة.

إذا عرفت هذا إجمالاً فنقول لا إشكال و لا خلاف بين المفسرين من العامة و الخاصة في أصل وقوع الحلف منهم بأنَّهم ما قالوا شيئاً فَمَا نسب إليهم و الحال أَنَّهُم قد قالوا كلمة الكفر و بذلك كفروا بعد إسلامهم.

و أمَّا الخلاف في الحالف و تعيين كلمة الكفر و حيث أَنَّ الحالف لم يكن شخصاً واحداً بدليل قوله يحلفون بصيغة الجمع تقطع بصدور الحلف عن جماعة فلا جرم يقوي في النَّفس أَنَّ الآية نزلت في أصحاب العقبة دون غيرهم و أَنَّهُم حلفوا أولاً ثُمَّ فعلوا ما فعلوا.

و أمَّا المراد بكلمة الكفر في الآية هو إنكارهم الرسالة من الله تعالى و أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال ما قال أو فعل ما فعل من عند نفسه مع قطع النَّظر عن كونه رسولاً من عند الله و من المعلوم أَنَّ إنكار الرسالة كفرٌ مع أَنَّهُم كانوا قد أسلموا ظاهراً قبل التوطئة و بذلك قال الله تعالى: **كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ** و أمَّا قوله تعالى: **وَهُمْ أَيْمَانُكُمْ** أي قصدوا بما لم يصلوا إليه فمعناه أَنَّهُم قصدوا

قتل الرسول ليلة العقبة ولكنهم لم ينالوا اليه لأن الله تعالى قد أخبر نبيه بما قصدوه في حقه وما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ معناه لا وجه لنقمتهم هذا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله بعد كونهم محتاجين. قال الزاغب في المفردات نقمت الشيء و نقمته إذا نكرته أما باللسان بالعقوبة و النقمة العقوبة، و المقصود أن الله تعالى قد أغناهم بما فتح عليهم من الفتوح بواسطة الرسول و ذلك لأنهم كانوا قبل طلوع الإسلام من الفقراء و المساكين ثم صاروا ببركة الإسلام من الأغنياء و لازم ذلك هو الشكر لا النقمة فأَنْ شكر المنعم واجب عقلاً و حيث أنهم نقموا بدل الشكر فقال تعالى في حقهم ما قال فهو من قبيل قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم  
بهن فلول من قراع الكتائب  
و قول القائل:

مالي عندك ذنب إلا أني أحسنت اليك

فأن فعلهم تدل على أنهم كانوا لثاماً

قال الشاعر:

ولا عيب فينا غير عرقٍ لمعشرٍ كرام و آتلا لا نحط على التمل  
و محصل الكلام أنهم لأي شيء فعلوا ما فعلوا فإن يتوبوا يك خيراً لهم  
أي أن يتوبوا و يرجعوا عما فعلوا فهو خير لهم و إن يتولوا أي أن يعرضوا  
عنها و لم يتوبوا و ماتوا على كفرهم.

يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

كما هو شأن المرتد عن الإسلام.

قال بعض المفسرين عذابهم في الدنيا بأن يحل قتالهم و قتلهم و سبي أولادهم و أزواجهم و غنم أموالهم.

و أما في الآخرة فبالعذاب الذي أعدّه الله للكافرين و من المعلوم أنّ من خذله الله لا ناصر له في الأرض هذا تفسير ألفاظ الآية على ما يقتضيه النظر.

و أما الأخبار الواردة في الباب ففي تفسير القمي بأسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال، لما أقام رسول الله أمير المؤمنين يوم غدیر خم كان بحذائه سبعة نفر من المنافقين و هم فلان و فلان و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و أبو عبيدة و سالم مولى أبي حذيفة و المغيرة بن شعبة.

قال الثاني أما ترون عينيه كأنما عينا مجنون يعني النبي الساعة يقوم و يقول قال لي ربّي فلما قام قال أيّها الناس من أولى بكم من أنفسكم قالوا الله ورسوله قال ﷺ اللهم فأشهد ثم قال ألا من كنت مولاه فعليّ مولاه و سلّموا عليه بأمره المؤمنين فنزل جبرائيل و أعلم رسول الله بمقالة القوم فدعاهم و سألهم فأنكروا و حلفوا فأنزل الله **يُحْلِفُونَ بِاللّهِ**.

ثم ذكر البخلاء و سماهم منافقين وكاذبين الحديث.

و قال الفيض رحمته في الصافي نقلاً عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام لما قال النبي ما قال في غدیر خم و صاروا بالأخبية مرّ المقداد بجماعة منهم يقولون إذا دنا موته و فئت أيامه و حضر أجله أراد أن يوليّا عليّاً من بعده أما و الله ليعلمن قال عليه السلام فمضى المقداد و أخبر النبي فقال الصلاة جامعة قال عليه السلام فقالوا قد رمانا المقداد فقوموا نحلف عليه فجأؤا حتّى جثوا بين يديه فقالوا بآباءنا و أمهاتنا يا رسول الله و الذي بعثك بالحقّ و الذي كرّمك بالنبوة ما قلنا ما بلغك و الذي إصطفاك على البشر:

فقال النبي ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم، يحلفون بالله ما قالوا و لقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم و همّوا يا محمد ليلة العقبة و ما أنكروا و ما عابوا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله، قال كان أحدهم يبيع الرؤوس و آخر يبيع الكراع و يقتل القرامل فأغناهم الله برسوله ثم جعلوا حدّهم و حديدهم عليه انتهى ما أردنا نقله.



أقول يظهر من هذه الأخبار أنَّ ليلة العقبة كانت بعد وقعة غدير خم لا بعد غزوة تبوك و يظهر من بعض آخر أنها كانت بعد رجوعه عليه السلام من غزوة تبوك و هو الذي إختاره الطبرسي في تفسيره فأنه قال نزلت في أهل العقبة فأنهم أضمروا أن يقتلوا رسول الله في عقبة عند خروجهم من تبوك الى آخر ما قال و هذا هو الذي إختاره جميع المفسرين من العامة و على هذا لا خلاف في أصل القضية و هو أنها نزلت في أهل العقبة و أنما الخلاف في زمان الحادثة و أنها كانت بعد غزوة تبوك أو بعد غدير خم و الله أعلم.

و قد روي صاحب تفسير نور الثقلين عن تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال، لما أقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً بغدير خم و بلغ فيه عن الله ما بلغ ثم نزل إنصرفنا الى رحالنا و كان الى جانب خبائي خباء نفر من قريش و هم ثلاثة و معي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة يقول، و الله أن محمداً لأحمق أن كان يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده و قال الآخر أتجعله أحمق الم تعلم أنه مجنون و قد كاد أنه يصرع عند امرأة بن أبي كبشة.

و قال الثالث دعوه إن شاء أن يكون أحمق و أن شاء أن يكون مجنوناً و الله ما يكون ما يقول أبداً فغضب حذيفة من مقاتلهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه اليهم و قال فعلمتموها و رسول الله بين أظهركم و حي الله ينزل اليكم و الله لأخبرنه بكرة مقاتلكم فقالوا له يا عبد الله و أنك لهيئنا و قد سمعت ما قلنا أكنتم علينا فأن لكل جوار أمانة فقال لهم ما هذا من جوار الأمانة و لا مجالسها، ما نصحت الله و رسوله أن أنا طويت عنه هذا الحديث فقالوا له يا عبد الله فأصنع ما شئت فوالله لنحلفن أننا لم نقل و أنك قد كذبت الينا (علينا) إفتراءً يصدقك و يكذبنا و نحن ثلاثة فقال لهم أما أنا فال أبالي اذا أدت النصيحة الى الله و رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا ثم مضى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و علي الى جانب محتب بحمايل سيفه أخبره بمقالة القوم فبعث اليهم رسول

اللَّهُ فَأَتَوْهُ فَقَالَ لَهُمْ مَاذَا قُلْتُمْ فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا قُلْنَا شَيْئاً فَأَنْ كُنْتَ أَبْلَغْتَ عَنَّا شَيْئاً فَمَكْذُوبٌ عَلَيْنَا فَهَبْ جِبْرِئِلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا الْآيَةَ.

و قَالَ عَلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ لِيَقُولُوا مَا شَاءُوا وَاللَّهِ أَنَّ قَلْبِي بَيْنَ أَضْلَاعِي وَأَنْ سِيفِي لَفِي عُنُقِي وَلَنْ هَمَّوْا الْأَهْمَنَ فَقَالَ جِبْرِئِلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَخْبِرِ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلِيّاً بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ جِبْرِئِلُ فَقَالَ إِذَا أَصْبَرَ لِلْمَقَادِيرِ انْتَهَى.

أَقُولُ ثُمَّ نَقَلَ صَاحِبُ التَّفْسِيرِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ الصَّافِي.

و نَقَلَ أَيْضاً عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبَ قَالَ لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيّاً يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ فَقَالَ مَنْ كُنْتَ مَلَوْاهُ فَعَلَيَّْ مَوْلَاهُ فَهَمَّ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ رُؤُوسَهُمَا (حَدَهُمَا) وَ اللَّهُ لَا نَسْلَمُ لَهُ مَا قَالَ أَبَدَاً فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ فَسَأَلَهُمَا عَمَّا قَالَا فَكَذَّبَا وَ حَلَفَا بِاللَّهِ مَا قَالَا شَيْئاً فَنَزَلَ جِبْرِئِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ يَخْلِفُونِ بِاللَّهِ مَا قَالُوا الْآيَةَ

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَقَدْ تَوَلَّيَا وَمَاتَا إِنْتَهَى<sup>(١)</sup> وَ الْأَخْبَارُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ وَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَفَايَةً لِمَنْ أَنْصَفَ وَ تَدَبَّرَ فِي الْآيَةِ.

و ذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْحَلْفَ كَانَ مَسْبُوقاً بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا بِهَا أَوَّلاً ثُمَّ حَلَفُوا بِأَنَّهُمْ مَا قَالُوا وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلِقَائِلِي أَنْ يَقُولَ، لَمْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَ مَا الْبَاعِثُ عَلَى التَّقْوَلِ بِهَا لَوْلَا أَنَّ الرَّسُولَ أَتَى بِشَيْءٍ عَلَى خِلَافِ مِيلِهِمْ وَ رِضَاهُمْ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ غَزْوَةَ تَبُوكَ كَانَتْ مِثْلَ غَيْرِهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ فَلَمْ لَمْ يَقُولُوا بِهَا فِي غَيْرِهَا وَ هَذَا بِخِلَافِ نَصَبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَدِيرِ خَمٍّ فَأَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَتْ غَيْرَ مَتَرَقِبَةٍ وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا.

وَ حَيْثُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْمَقَامِ يَدُورُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَ قِصَّةِ غَدِيرِ خَمٍّ فَإِذَا إِنْتَهَى الْأَوَّلُ بَقِيَ الثَّانِي عَلَى قُوَّتِهِ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن بعض المنافقين الذين تقدّم ذكرهم كان كذلك قيل نزلت الآية في بلتعة بن حاطب كان محتاجاً فندر لئن إستغنى ليصدّقن فأصاب أثني عشر ألف درهم فلم يتّصدق فلم يكن من الصّالحين هكذا قال الواحدي.

و قال ابن إسحاق هما بلتعة ومقنب بن قثير وقيل نزلت في ثعلبة بن حاطب و كان من الأنصار فقال للنبي أدع الله أن يرزقني مالاً فقال ﷺ يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك بي أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تصير الجبال معي ذهباً وفضّة لصارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كلّ ذي حقّ حقه فقال ﷺ اللهم أرزق ثعلبة مالاً قال فأتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتّحنى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثر حتّى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة وبعث رسول الله ﷺ اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال ما هذه إلا أخت الجزية فقال رسول الله ﷺ يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة و أنزل الله الآيات.

وقيل نزلت في رجال من المنافقين ثبل بن الحارث وجذب بن قيس و ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قثير عن الضحاك ذكره الطبرسي رحمه الله في المجمع. وكيف كان يظهر من الآية وجوب الوفاء بالعهد فأئ المؤمن اذا وعد وفى، وحلف العهد من علام التّفاق ولهذا عدّ الله تعالى من نزلت الآية في حقّه من المنافقين.

وقال ومنهم، أي من المنافقين، ثم أردف كلامه بقوله:

فَلَمَّا أَتَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ  
أي فلما أتاهم من فضله من الأموال بخلوا بتّصّدقه وتولّوا وأعرضوا عمّا قالوا وعاهدوا الله عليه كما هو شأن المنافق.

و قيل قوله معرضون إخبارٌ منه تعالى بأنهم معرضون عن الحق بالكلية و كيف كان لا شك أن المنافق في الحقيقة لا قول له و لا عهد لأن الإلتزام بالقول و العهد من شئون المؤمنين.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

أي فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم بين الله تعالى أنه أعقب هؤلاء المنافقين أي أورثهم و أذاهم الى نفاق في قلوبهم بخلهم بما أتاهم الله من فضله مع الإعراض عن أمر الله.

و قال مجاهد معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم إبليس و جعل ذلك إمارة و دلالة على أنهم لا يتوبون أحداً لأحد شيئين فمن قال أعقبهم بخلهم ردّ الضمير في أعقبهم الى البخل و عليه فالمعنى يلقون جزاء بخلهم و من ذهب الى أن الله أعقبهم ردّ الضمير الى اسم الله و يمكن الجمع بين القولين بأن الضمير يرجع الى اسم الله ظاهراً أي أن الله أعقبهم و لكن سبب ذلك بخلهم بما وعدوا الله و كذبهم في قولهم.

و قال الزمخشري خذلهم الله حين نافقوا و تمكن من قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها الى أن يموتوا بسبب إخلافتهم ما وعدوا الله من الصدق و الصلاح و كونهم كاذبين و منه خلف الموعد ثلث النفاق انتهى.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ  
قوله: أَلَمْ يَعْلَمُوا استفهام تضمن التوبيخ و التقرع و قرأ بعضهم، تعلموا بالتاء و عليه فهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير و أنه تعالى فاضح المنافقين و معلم المؤمنين أحوالهم التي يكتُمونها شيئاً فشيئاً سرهم و نجواهم إشارة الى إحاطة علم الله تعالى بهم و أنه لا يخفى عليه شيء.

و الظاهر أنَّ الآية تشمل جميع المنافقين من عاهد و أخلف و خصَّتها فرقة  
 بمن عاهد و أخلف.  
 قيل سرَّهم ما يسَّار بعضهم بعضاً و نجواهم ما تحدَّثوا به جهراً بينهم و  
 المعنى واضح.



الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي  
الْصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ  
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ (٧٩) اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ  
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ  
خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا  
تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا  
يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا  
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ  
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ  
تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا  
إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ  
الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ  
أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ  
رَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ  
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ  
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ  
كَافِرُونَ (٨٥)

## ◀ اللّغة

يَلْمِزُونَ، لَمَزَهُ يَلْمِزُ لَمَزاً إذا انتقصه و عابه.  
 الْمُطَّوِّعِينَ عَلَى مِيزَانِ الْمُتَعَلِّينَ وَ تَقْدِيرِهِ الْمُطَّوِّعِينَ فَأَدْغَمْتَ التَّاءَ فِي  
 الطَّاءِ وَ مَعْنَاهُ الْمُتَّعِلِّينَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِمْ.  
 جُهِدَهُمْ بِالضَّمِّ وَ الْفَتْحِ كَالضَّعْفِ وَ الضُّعْفِ وَ الْوُجْدِ وَ الْوُجْدِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ  
 الْجُهِدُ فِي الْعَمَلِ وَ الْجُهِدُ فِي الْقُوَّةِ.  
 سَخِرَ قَالَ الرَّاعِبُ سَخَرَتْ مِنْهُ وَ اسْتَخَرْتُهُ لِلْهَزْءِ مِنْهُ، السَّخَرِيَّةُ الْإِسْتِهْزَاءُ وَ  
 السُّخَرِيَّةُ وَ السَّخَرِيَّةُ لِفَعْلِ السَّاخِرِ.  
 اسْتَغْفَرَ الْإِسْتِغْفَارَ طَلَبَ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِسْتِغْفَارِ بِهَا وَ الْمَغْفِرَةُ سِتْرُ  
 الْمَعْصِيَةِ يَرْفَعُ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهَا.  
 فَرِحَ الْفَرَحَ ضَدَّ الْغَمِّ وَ الْغَمَّ ضَيْقَ الصَّدْرِ بِفُوتِ الْمَشْتَهَى.  
 فِي الْحَرِّ الْحَرَّ ضَدَّ الْبَرْدِ وَ الْمَرَادُ بِهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَ الْبَاقِي  
 وَاضِحٌ.

## ◀ الإعراب

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ مَبْتَدَأٌ وَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْمُطَّوِّعِينَ وَ فِي  
 الْأَصْدَقَاتِ مَتَعَلِّقٌ يَلْمِزُونَ لَا بِالْمُطَّوِّعِينَ لَثَلَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَحْبَنِ وَ الَّذِينَ  
 لَا يَجِدُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ يَلْمِزُونَ وَ قِيلَ عَلَى الْمُطَّوِّعِينَ وَ قِيلَ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ وَ خَبَرُ الْأَوَّلِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ فِيهِ وَجْهَانِ:  
 أَحَدُهُمَا: فَيَسْخَرُونَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْخَبَرَ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ قِيلَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ وَ تَقْدِيرُهُ مِنْهُمْ  
 الَّذِينَ يَلْمِزُونَ سَبْعِينَ مَرَّةً هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ وَ الْعَدَدُ يَقُومُ مَقَامَ  
 الْمَصْدَرِ كَقَوْلِهِمْ ضَرَبْتَهُمْ عَشْرِينَ ضَرْبَةً بِمَقْعَدِهِمْ أَيَّ بِقُعُودِهِمْ وَ خِلَافُ

ظرف بمعنى خلف رَسُولِ اللَّهِ أي بعده والعامل فيه مقعد و يجوز أن يكون العامل فيه، فَرَح و قيل هو مفعول من أَجَلَهُ قَلِيلاً أي ضحكاً قليلاً أو زمناً قليلاً و جَزَاءٌ مفعول له أو مصدر على المعنى فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ هي متعدي بنفسها و مصدرها، رجع و تأتي لازمة و مصدرها الرُّجُوعُ مِنْهُمْ صفة لأحدٍ و ماتَ صفة أخرى و يجوز أن يكون منهم حالاً من الضمير في ماتَ.

## التفسير

### الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

قيل نزلت الآية في علي بن زيد الحارث و زيد بن أسلم العجلاني فجاء علي بصاع من تمره فنثره في الصدقة و قال يا رسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً قرضته ربّي و جاء زيد بن أسلم بصدقة فقال معتب بن قيثر و عبد الله بن نهيك أنما أراد الرياء و قال قتادة و غيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في حجاب بن عثمان لأنه أتى النبي بصاع من تمر و قال يا رسول الله أني عملت بصاعين في النخل من تمر فتركت للعيال صاعاً و أهديت لله صاعاً و جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار و هي شطر ماله للصدقة فقال المنافقون أن عبد الرحمن لعظيم الرياء و قالوا في الآخر أن الله لغنى عما أتى به فأنزل الله تعالى الآية فقال: **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ** أي ينسبونهم الى النقص في النفس الخ قاله الشيخ في التبيان.

و قال بعض المفسرين من العامة نزلت الآية فيمن عاب المصدقين رسول الله ﷺ **حَتَّىٰ عَلَى الصَّدَقَةِ فَتَصَدَّقَ** عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف و أمسك مثلها فبارك له الرسول ﷺ فيما أمسك و فيما أعطى و تصدق عمر بنصف ماله و عاصم بن عدي بمائة وسق و عثمان بصدقة عظيمة و أبو عقيل الأرتشي بصاع تمر و ترك لعياله صاعاً، و رجلٌ بناقة عظيمة قال هي و ذو بطنها صدقة يا رسول الله و ألقى الى الرسول خطامها فقال المنافقون ما تصدَّق



هؤلاء إلا رياءً وسمعة إلى آخر ما قال والحق أن ما ذكروه من المتصدقين لا دليل عليه والذي نقطع به هو وجود المتصدقين والآخرين والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرّون منهم قلنا أن الجهد والجهد لغتان بمعنى واحد وقد قرأ اللفظ بهما.

وقال القتيبي هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة.

وقال الآخر هو بالضم في الطاعات وبالفتح في تحصيل الرزق وغيره.

وقال الآخر هو بالضم القوت وبالفتح العمل ثم أن قوله: والذين لا يجدون معطوف على الذين يلمزون ذكره أبو البقاء وإعترض عليه بأنه غير ممكن لأن المعطوف على المبتدأ مشارك له في الخبر ولا يمكن مشاركة الذين لا يجدون إلا جهدهم مع الذين يلمزون إلا أن كانوا مثلهم منافقين، والحق أنه معطوف على المطوعين كأنه قيل يلمزون الأغنياء وغيرهم من الذين لا يجدون إلا جهدهم وقوله: فيسخرّون منهم يعني أن المنافقين يهزؤون بالمطوعين سخر الله منهم أي يجازيهم الله على سخريتهم بأنواع العذاب، ولهم عذاب أليم، أي مؤلم موجه ولما كان ضرر سخريتهم عائداً إليهم جاز أن يقال سخر الله منهم لا أنه تعالى يفعل السخرية وذلك كقوله تعالى: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين<sup>(١)</sup> أي ومكروا وجازاهم الله بمكرهم لا أنه تعالى مكر بهم ويستفاد من الآية أن اللّمز أي نسبة النقص في نفوس المطوعين في الحقيقة من الاستهزاء والسخرية فكأنهم أي المنافقين يهزؤون بالمطوعين في بذل أموالهم والتصدق بهما ويعدونهم من السفهاء ولذلك:

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

ضياء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

قال صاحب الكشف سئل عبد الله بن أبي رسول الله و كان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل فنزلت الآية فقال رسول الله أن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم إستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم إنتهى.

و المراد بالسبعين المبالغة لا العدد المخصوص و يجري ذلك مجرى قول القائل لو قلت ألف مرة ما قبلت فالمراد نفى الغفران جملة، والذي نقول في سبب نزول الآية هو أن النبي ﷺ كان إذا مات ميت من المسلمين صلى عليه و أستغفر له بحكم ظاهر الإسلام لأنه ﷺ لم يكن مأموراً بالواقع فأعلمه الله تعالى أن في جملة من تصلي عليهم من هو منافق و أن إستغفاره له لا ينفع قل ذلك أم كثر ثم نهى الله نبيه أن نصلي على أحد منهم و أن يستغفر له حين عرفه إياهم فقال: وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ و علل ذلك بقوله: ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ و الكافر الفاسق إذا مات على كفره و فسقه من غير توبة فهو لا يصلح للمغفرة هذا.

و أعلم أن ما ذكره صاحب الكشف من أن الرسول ﷺ قال فسأزيد على السبعين فنزلت الآية لا يلتفت اليه و ذلك لأن ما ذكره مأخوذاً مما رواه عن النبي ﷺ أنه قال والله لأزيدن على السبعين و هو خبر واحد لو لم يكن مجعولاً لا يلتفت اليه و كيف يقول النبي ذلك و هو ﷺ كان عالماً بأن عدد السبعين للمبالغة و الكثرة و لا يراد به العدد المخصوص و بعبارة أخرى خصوصية العدد لا دخل لها في المقصود حتى يقال فسأزيد على السبعين و إذا كان كذلك فما ذكره صاحب الكشف و تبعه عليه غيره لا معنى له و قال بعض آخر منهم أن الظاهر أن المراد بهذا الكلام التخيير و هو الذي روي عن رسول الله ﷺ و قد قال له عمر كيف تستغفر لعدو الله و قد نهاك الله عن الإستغفار لهم فقال النبي ﷺ ما نهاني و لكنه خيرني فكأنه قال له عليه السلام أن

شئت فاستغفر و أن شئت فلا تستغفر ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم و أن إستغفر سبعين مرة، و هذا القول أيضاً لا يرجع الى محصل أذ لا يستفاد منه التّخيير أصلاً و التّخصيص أن قوله إستغفر لهم صيغة صيغة الأمر و هذا ممّا لا كلام فيه و المراد به المبالغة في الأياس من المغفرة أنه لو طلبها طلبة الأمور بها أو تركها ترك المنهي عنها لكان ذلك على حدّ سواء في أنّ الله لا يفعلها كما قال في موضع آخر من كتابه: **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**<sup>(١)</sup> و القرآن يُفسّر بعضه بعضاً و محصل الكلام أنّ المقصود هو أنّ هؤلاء الذين كفروا بالله و رسوله و ماتوا على ذلك لن يغفر الله لهم أبداً و إنّما قال لن يغفر و لم يقل لا يغفر أنّ كلمة، لن، تُفيد، نفي الأبدكان كذلك فالإستغفار و عدمه بالنسبة اليه على حدّ سواء و يظهر منه أنّ النبي ﷺ كان مأموراً مأذوناً بالصّلاة على كلّ مسلم مات بحكم ظاهر الشريعة ثم أعلمه الله تعالى بأنّ الصّلاة و الإستغفار على هؤلاء المنافقين لا تنفعهم أبداً و سيأتي مزيد بيان في هذا الباب في سورة المنافقين إنشاء الله تعالى.

**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**  
هذا الكلام بمنزلة التعليل لقوله فلن يغفر الله لهم، فكأنه قيل و لم لن يغفر الله لهم فقال تعالى لكفرهم بالله و رسوله.

و الظاهر أنّ الكفر في المقام هو كفر الجحود أي جحدوا نعمه و جحدوا نبوة الرّسول لا كفر الإرتداد أو الكفر الأصلي و ذلك لأنّ الكلام في المنافقين لا الكفار فالمقصود أنّهم كفروا بالله و رسوله واقعاً و أن أظهروا الإسلام ظاهراً قوله: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** فمعناه أنّه تعالى لا يهديهم الى طريق الجنة و الثواب فأما الهداية الى الإيمان بالإقرار بالتوحيد و الإعتراف بنبوة

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

النبي فقد هدى الله اليه كل متمكن من النظر والاستدلال بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له قاله بعض المفسرين وهو كذلك.

### فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

قيل أن جماعة من المنافقين خلفهم النبي في المدينة و لم يخرجهم الى تبوك و ذلك لأنهم إستأذنوه في التأخر عن الخروج مع الرسول فأذن لهم الرسول في القعود ففرحوا بذلك لأنهم كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله هذا الكلام بمنزلة التعليل للخروج أي أنهم إستأذنوه في التأخر لكرهتهم أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله.

ولم يعلموا أن التخلف عن الجهاد من غير عذر من أكبر الذنوب كما أن الجهاد في سبيل الله بالأموال و الأنفس من أعظم القربات و أشرف الفضائل فكيف يفرح المسلم بترك الجهاد، و أشنع منه منعهم نظرانهم أيضاً عن الخروج مع الرسول كما قال تعالى: وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أي و قال هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد لغيرهم من نظرائهم و أمثالهم لا تنفروا في الحر أي لا تخرجوا في الوقت الحار فقال الله لنبيه قل لهم نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون.

و المعنى أنهم تخلفوا عن الجهاد في الدنيا لأجل الحر و لم يعلموا أنهم وقعوا بذلك التخلف في حرارة جهنم التي لا يقاس بحرارة الشمس في الدنيا و بعبارة أخرى فرّوا عن حرارة الشمس و وقعوا في حرارة النار في جهنم بتركهم الجهاد، و هو دليل على عدم تفقهم في الدين و أنهم أوقعوا نفوسهم في الهلاكة من حيث لا يحتسبون و لا يشعرون.

روي أن رسول الله ﷺ لقي الحر بن قيس (جد بن قيس خ ل) فقال له يا أبا وهب ألا تنفروا معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتقد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله و الله أن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشدّ عجباً بالنساء مني

و أخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تقتني و أئذن لي أن أقيم و قال لجماعة من قومه لا تخرجوا في الحر فقال ابنه ترد على رسول الله ﷺ و تقول ما تقول ثم تقول لقومك لا تنفروا في الحر والله لينزلن الله تعالى في هذا قرأنا يقرأه الناس الى يوم القيامة.

فأنزل الله تعالى على رسوله في ذلك و منهم من يقول أئذن لي، و نزل فيه أيضاً قوله: **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ.**

**فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**  
قوله: **فَلْيُضْحَكُوا** صيغته صيغة الأمر و معناه معنى التهديد و ليس أمراً بالضحك و ذلك لأن اللام فيه ساكنة ولو كانت لام الأضافة لكانت مكسورة لأنها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها.

و قال القرطبي و الأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها.  
قال الحسن معناه، فليضحكوا قليلاً في الدنيا و ليبكوا كثيراً في الآخرة في جهنم و قيل هو أمر بمعنى الخبر أي أنهم سيضحكون قليلاً و يبكون كثيراً و قوله: **جَزَاءً** أي للجزاء فهو مفعول من أجله و قيل هو منصوب على المصدر أي تجزون على معاصيكم ذلك جزاء على أفعالكم التي اكتسبتموها ثم شدد التكثير على المنافقين المتخلفين عن رسوله في الجهاد.

**فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**

يعني إن ردك الله تعالى الى طائفة يعني جماعة من هؤلاء المنافقين فاستأذنوك للخروج الى الجهاد فقل في جوابهم لن تخرجوا معي الى الجهاد أبداً و لن تقاتلوا معي عدواً و ذلك إنكم رضيتم بالعود أول مرة فافعدوا مع الخالفين و المعنى واضح لا خفاء فيه.

و محصل الكلام هو أن هؤلاء لنفاقهم لا يعتمد عليهم فتركهم أولى و أصلح للإسلام والمسلمين.

وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ

هذا نهى من الله تعالى لنبيه عن الصلاة على المنافقين بعد موتهم و القيام على قبورهم بأن يتولى الرسول دفن المنافق

روي أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سلول و صلوة النبي ﷺ عليه فقال بعضهم أن النبي صلى عليه ثم نزلت الآية.

و قال الآخر أن النبي لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبرائيل فحبذ ثوبه وتلا عليه و لا تصل على أحد منهم مات أبداً فأنصرف رسول الله و لم يصل عليه و المشهور عند العامة هو أول القولين.

و قد نقل القرطبي في تفسيره عن البخاري عن ابن عباس أنه قال فصلني عليه رسول الله ﷺ ثم أنصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت.

قال القرطبي و نحوه عن ابن عمر خرجه مسلم قال ابن عمر لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله الى رسول الله فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر و أخذ بثوب رسول الله فقال يا رسول الله أتصلي عليه نهاك الله أن تصلي عليه فقال رسول الله ﷺ أنما خيرني الله تعالى فقال:

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ فَصَلِّيْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ فَتَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَمَّا صَلَّي النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنَاءَ عَلَى الظَّاهِرِ مِنْ لَفْظِ إِسْلَامِهِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَمَّا نَهَى عَنْهُ أَتَاهُ.

و قال الطبري في تفسيره نقلاً عن قتادة أنه أرسل عبد الله عبد الله بن أبي بن مسلول و هو مريض الى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي أهلكك حب اليهود قال يا رسول الله أنما أرسلت اليك لتستغفر لي و لم أرسل اليك لتؤنّبني ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه فأعطاه أياه و صلّى عليه و قام على قبره فأنزل الله تعالى: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ** و قال في حديث آخر بعث عبد الله ابن أبي الى رسول الله و هو مريض ليأتيه فنهاه عن ذلك عمر فأتاه النبي فلما دخل عليه قال له أهلكك حب اليهود فقال عبد الله أتني لم أبعث اليك لتؤنّبني و لكن بعثت اليك لتستغفر لي و سأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه أياه فأستغفر له رسول الله فمات فكفن في قميص رسول الله و نفث في جلده و ذلاً في قبره فأنزل الله: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا**.

ثم قال الطبري أن نبي الله كلف في ذلك فقال و ما يغني عنه قميصي من الله و صلاتي عليه و أتني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه انتهى كلامه.  
أقول لا كلام لنا و لهم في أن الله تعالى نهى نبيه عن أن يصلّي على أحد من المنافقين أو يقوم على قبره بمعنى أن يتولّى دفنه أو ينزل في قبره لأنهم كفروا بالله و رسوله و ماتوا على الكفر و الفسق.

هذا هو الذي يستفاد من الآية الشريفة و هذا حكم من الله تعالى كغيره من الأحكام و لا يحتاج الى شأن نزولها من أنه ﷺ صلّى على عبد الله بن أبي أو أراد أن يصلّي فنزل جبرئيل و جذب ثوبه (جذب ثوبه) تلا عليه الآية أو أن عمر أخذ بثوب رسول الله و قال له أتصلّي عليه و قد نهاك الله أن تصلّي عليه كلّ ذلك لا يعتمد عليه و ذلك لأن الرسول كان يصلّي على كلّ مسلم قبل ذلك منافقاً كان أو مؤمناً لأنه ﷺ كان مأموراً بظاهر الشريعة إلا أن الله تعالى منعه بعد نزول الآية و النبي لم يصلّ بعد نزولها قطعاً و أما أن جبرئيل جذب ثوبه لما تقدّم ليصلّي على عبد الله أبي فهو إهانة بالرسول و تحقير له وهكذا أخذ عمر

في التفسير  
في القرآن



بنوبه اذ لقائل أن يقول لناقل الحديث كان أخذ عُمر بثوب رسول الله قبل نزول الآية أو بعده.

فعلى الأول كان عُمر عاصياً مخالفاً لحكم الشرع اذ لا يجوز لأحد أن يمنع عن الصلاة على الميت المسلم مضافاً إلى أن منع الرسول عن شيء بمنزلة الرد عليه وهو في حكم الكفر وأن كان بعد نزول الآية فكيف أقدم الرسول على الصلاة عليه وقد نهاه الله تعالى عنها كما هو المفروض.

وبعبارة أخرى أن كان أخذ عمر بثوب رسول الله ونهيه إياه عن الصلاة قبل نزول الآية فهو أي عمر كان عاصياً راداً على الله ورسوله وأن كان بعده يلزم أن يكون الرسول ﷺ عاصياً لإقدامه على الصلاة المنهي عنها.

لا سبيل إلى الشق الثاني فالأول مسلم هذا إن قلنا بصحة ما رواه في الباب وحيث أنهم لا يرضون بعصيان عُمر فالحديث مجعول لا أصل له المطلوب.

وقد أجاب القرطبي بزعمه عن هذا الإشكال في تفسيره فقال:

**الثانية:** أن قال قائل فكيف قال عمر أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ولم يكن تقدّم نهّي عن الصلاة عليهم.

قيل له يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ويكون من قبيل الإلهام والتحدث الذي شهد له به النبي ﷺ وقد كان القرآن ينزل على مراده كما قال وافقت ربي في ثلاث وجاء في أربعة وقد تقدّم في البقرة فيكون هذا من ذاك انتهى ما أردنا نقله عنه.

**أقول** أمّا ما نقله في البقرة فهذا لفظه:

**الثانية:** روي ابن عُمر قال قال عمر وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر خرّجه مسلم وخرّجه البخاري.

عن أنس قال قال عمر وافقت الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث الحديث وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده.



فقال حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال عمر وافقت ربي في أربع، قلت يا رسول الله لو صليت خلف المقام فنزلت هذه الآية:

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى<sup>(١)</sup>.

وقلت يا رسول الله لو ضربت على نساءك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله:

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ<sup>(٢)</sup>.

ونزلت هذه الآية:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ<sup>(٣)</sup>.

فلما نزلت قلت أنا تبارك أحسن الخالقين فنزلت:

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ<sup>(٤)</sup>.

ودخلت على أزواج النبي فقلت لتنتهن أو ليبدلن الله بأزواج خير منكن فنزلت الآية:

عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ<sup>(٥)</sup>.

قال القرطبي قلت ليس في هذه الرواية ذكر للأسارى فتكون موافقة عمر في خمس انتهى كلامه<sup>(٦)</sup>.

أقول لسنا فعلاً بصدد الجواب عن هذه الأراجيف والأباطيل التي إدعوها في المقام وأمثاله لأن العمر أعز وأشرف من صرفه في رد هذه الكلمات بل المقصود من نقلها أن يعلم المسلم المنصف أنهم هكذا يفسرون القرآن ووجهون الأحاديث المجعولة فيدعون أن عمر كان ملهماً من عند الله دون رسوله ولم يعلموا أو لم يبالوا بأن هذا تحقير لرسول الله وتقيص لنبوته وأنني

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَرْجُمَةِ



بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَرْجُمَةِ

٢- الاحزاب = ٥٣

٤- المؤمنون = ١٤

٦- ج ٢ ص ١١٢

١- البقرة = ١٢٥

٣- المؤمنون = ١٢

٥- التحريم = ٥

لا أَظُنُّ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ يَرْضَى بِهِ وَكَيْفَ يَرْضَى الْمُسْلِمَ فَضْلاً عَنْ الْمُؤْمِنِ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ كَانِ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَأَنْتِي أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ الْمَوْهَنْةَ مِنْ عُمُرٍ أَوْ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ كَانِ لَوْ صَحَّتْ لَا تُلَاقِمُ الْإِسْلَامَ أَصْلاً فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ مَلْهُماً.

وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَدْ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ بِنَزْوِلِهِمَا عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالتَّوَلَّى لِأُمُورِ أَمْوَاتِهِمْ مِنَ التَّكْفِينِ وَالتَّدْفِينِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَمَّا الْأَقَاصِيصُ الْمَنْقُولَةُ فَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا أَصْلاً وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنَ الرَّازِي وَهُوَ كَيْفَ حَكَمَ بِصَحَّةِ الْقِصَّةِ وَأَثَبَ بِهَا فَضِيلَةَ لِعُمَرَ قَالَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَدَّلُ عَلَى مَنْقِبَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ مَنَاقِبِ عُمَرَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ عَلَى وَفْقَ قَوْلِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ عُدَّ مِنْهَا مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ فِي حَدِيثِهِ مِنْ أَمْرِ النَّسْوَانِ وَأَسَارَى بَدْرٍ وَأُضَافَ إِلَيْهَا آيَةُ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ثُمَّ قَالَ.

خَاصِمُهَا: هَذِهِ الْآيَةُ فَصَارَ نَزُولُ الْوَحْيِ عَلَى مُطَابَقَةِ قَوْلِ عُمَرَ مُنْصَباً عَالِياً وَدَرَجَةً رَفِيعَةً فِي الدِّينِ وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَقِّهِ، لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبْعَثَ يَا عُمَرَ أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

أَقُولُ هَذَا رَجُلٌ يَدَّعِي الْفَلَسَفَةَ وَالتَّوَغُّلَ فِيهَا وَهَذَا الَّذِي نَقَلْنَاهُ عَنْهُ يَدَّلُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَاقِلاً فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ فِيلَسُوفاً وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ يَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ أَنَّهُ مَجْعُولٌ بَلْ هُوَ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِكَلَامِ الْعَاقِلِ فَاِغْتَبَرُوا يَا أَوْلَى الْأَبْصَارِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِذَا كَانَ حَالُ الْمُنَافِقِ هَكَذَا فَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِبَعْضِهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الدُّنْيَا أَلَيْسَ هَذَا التَّمَكُّنُ مِمَّا يَزِيدُ أَوْ يَعْينُ عَلَى أَعْمَالِ النِّفَاقِ.

فَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

الخطاب في ظاهر الأمر للنبي و في الحقيقة لكل مخاطب من أفراد أُمَّته لأن النبي ﷺ كان عالماً بمفاد الآية قطعاً و لم يكن من المعجبين و معنى الآية أنَّ كثرة الأموال و الأولاد في الدنيا لا تدل على أنَّ صاحبها محبوب عند الله و أنه يليق بها.

ألا ترى أنَّ أكثر الكفار من عبدة النيران والأوثان متنعمون متمكنون بأنواع النعم في كل عصرٍ و زمانٍ حتَّى زماننا هذا فضلاً عن المنافقين بل كثرة النعم في المؤمن لا تزيد إلا شكراً لله تعالى و في الكافر و المنافق و الفاسق لا تزيد إلا خسارة و وبالاً و كفراناً و عذاباً في الدنيا و الآخرة و الى هذه الدقيقة أشار الله تعالى في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ<sup>(٣)</sup>.

أن قلت يمكن أن يعذب الله الكفار في الدنيا و في الآخرة لكفرهم فقط لأنه في الحقيقة موجب للعذاب من غير أن يعطيهم الأموال والأولاد.

قلت أنَّ العذاب على الفعل و هو لا يتحقق إلا بأسبابه و مقدماته و من أسبابه الأموال و الأولاد اذ بها يتمكن الفاعل على أفعالٍ لا يتمكن عليها بغيرها فأن من ليس له ولد و لا مال في دار الدنيا لا يقدر على كثير من المعاصي بخلاف صاحب المال والأولاد فإنه يقدر على أكثر مما يقدر عليه

ببناء القرآن في تفسير القرآن



٢- آل عمران = ١١٦

١- آل عمران = ١٠

٣- آل عمران = ١٧٨

الفقير مثلاً و لعلّه لذلك الدّقيقة أشار الله تعالى بقوله ليزدادوا إثماً أي أنّ القدرة الماليّة والأعوان والأنصار توجب الإزدیاد في الإثم أنا فأنّا و هو معلوم مشاهد لكلّ أحدٍ في عصره و زمانه.

و قد سبق الكلام في هذا الباب عند قوله تعالى:

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ<sup>(١)</sup>.

فإنّ الآية قد ذكرت في موضعين من هذه السّورة و قد تكلمنا فيها هناك فلا نعيد الكلام بإعادته ثانياً.

قال بعض المفسّرين أنّ المراد بتعذيبهم في الدّنيا هو أنّهم لا ينفقون الأموال في طاعة الله و لا يخرجون حقّ الله منها و هذا عذاب لهم لو كانوا يعلمون.

و قال بعضهم يجوز أن يعذبهم في الدّنيا بما يلحقهم فيها من المصائب و العموم و بما يأخذه المسلمون على وجه الغنيمة و بما يشقّ عليهم من إخراجها في الزّكاة و الإنفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الإسلام و تشدّد ذلك عليهم و يكون عذاباً لهم و أنّ نفوسهم تزهق أي تهلك بالموت و هم كافرون أي في حال كفرهم فلذلك عذبهم الله في الآخرة.

أقول و يمكن أن يكون المراد بقوله: **أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا** هو تحريضهم على جمع الأموال كيف إنفق و حفظهم الأولاد للدّنيا من دون أن ينتفعوا بها فيها و لا شك أنّ فيه مشقّة عظيمة و عذاب أليم لمن كان له أدنى بصيرة و ذلك لأنّه قد جمع الأموال لغيره في الحقيقة و هو واضح.



وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ  
رَسُولِهِ أَسْتَأْذِنُكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا  
ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا  
يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرِّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ  
الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ  
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ  
مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى  
الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ  
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى  
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ  
لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا  
أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْهُمْ تَفِضْ مِنْ  
الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا  
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ  
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ  
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللغة

أَوَلُوا الطَّوْلُ بفتح الطاء أي ذوي الغنى و الثروة.

ذَرْنَا بفتح الذال أي أتركنا.

مَعَ الْخَوَالِفِ جمع خالفة و هم أصحاب الأعداء من النساء و الصبيان و الرجال و قيل هي جمع خالفة في الرجال اذا كان غير نجيب يقال فلان خالفة أهله اذا كان دونهم.

الْمُعَذِّرُونَ بفتح العين و تشديد الذال و قد قرأ بسكون العين و تخفيف الذال و لكل وجه.

الضُّعَفَاءِ جمع ضعيف و المرضى جمع مريض.

حَرَجٌ بفتح الحاء و الراء معناه الضيق و المشقة.

حَزَنًا الحزن بفتح الحاء و الراء ألم في القلب لفوت أمر.

يَسْتَأْذِنُونَكَ يطلبون منك الإذن.

## ◀ الإعراب

أَنَّ إِمْنُوا أي آمنوا والتقدير يقال فيها آمنوا و قيل أَنَّ هنا مصدرية تقديره أنزلت بان آمنوا أي بالإيمان إِذَا نَصَحُوا العامل فيه معنى الكلام أي لا يخرجون حينئذٍ وَلَا عَلَى الَّذِينَ هو معطوف على الضُّعَفَاءِ فيدخل في خبر ليس و أن شئت عطفته على المحسنين فيكون المبتدأ من سبيل و أَعْيَتْهُمْ تَقْيِضُ الجملة في موضع الحال و حَزَنًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو منصوب على المصدر بفعلٍ دلَّ عليه ما قبله.

## ◀ التفسير

وَ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ إِمْنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

بين الله تعالى أنه اذا أنزل سورة من القرآن و حكم الله فيها بالإيمان و

الجهاد و الخطاب للجميع لأنَّ جميع المسلمين كانوا مأمورين بالإيمان و الجهاد و مع ذلك يعتذر المنافق و يقول كذا وكذا و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **أَسْتَأْذِنُكَ أَوْ لَوْ أَلْطَوِلَ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ** أي يطلبون منك ترك الجهاد خصَّ الله بالإستئذان من الرّسول أولي الطّول منهم أي ذوي الغنى و الثّروة دون الفقراء لأنَّ الجهاد فيه فظنّته القتل و الخرج و من المعلوم أنّ ذوي الغنى لإعتيادهم بالتّرفه و التّنزه لا يقدمون على ما فيه القتل و الجرح و المشقّة بخلاف الفقراء فأنّهم ليسوا كذلك.

**ثانيًا:** أنّ الفقير يختار الدّين للدّين و الغني يختاره لحفظ ماله و نفسه ألا ترى أنّ كلّ نبيّ من الأنبياء في دعوته الى الحقّ كان مستظهرًا بالفقراء في بادي الأمر ثمّ تبعهم الأغنياء بعد ذلك لما ذكرناه من حفظ المال و النّفس و لذلك نقول أنّ أكثر الأغنياء الذين آمنوا به ظاهرًا كانوا من المنافقين و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلا جرم يفرون ممّا فيه ضررٌ على أنفسهم و أموالهم ولو إحتمالاً و حيث أنّ الجهاد فيه فظنّته الضّرر بزعمهم قالوا لرسول الله ذرنا أي أتركنا نكن مع القاعدين من الصّبيان و الأزمنى و المرضى الذين لا يقدرّون على الخروج هذا.

و قال بعض المفسّرين هذا خطاب للمؤمنين و أمر لهم بأن يدوموا على الإيمان و يتمسّكوا به في مستقبل الأوقات و يدخل فيه المنافق و يتناوله الأمر بأن يستأنف الإيمان و يترك التّفاق ثمّ يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم و أموالهم لأنّه لا ينفعهم الجهاد مع التّفاق.

**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** أي هؤلاء الذين إستأذّنوك من المنافقين و قالوا ذرنا مع القاعدين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالف و هم النّساء و الصّبيان و المرضى و القاعادون و في هذا الكلام إشارة الى دنائتهم و ذلّتهم و ذلك لأنّهم أدلّوا نفوسهم و حقّروها

بهذا الإستئذان و القعود في بيوتهم كالنساء و الصبيان و غيرهما من ذوي الأعدار و في قوله: **وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** في قولان: أحدهما: أنَّ تعالى يجعل نقطة سوداء في قلب المنافق و الكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه لا يفلح أبداً.

**الثاني:** أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها خير و لا ينتفي عنها شرُّ و الطبع في اللّغة هو الختم التّهيّ.

**أقول** أمّا الوجه الأوّل فلا معنى له لأنّه تعالى لم يقل طبع الله على قلوبهم بل قال طبع بصيغة المجهول.

فالقول بأنَّ الله يجعل في قلب المنافق نقطة سوداء لا معنى له مضافاً الى أنّه مستلزم للجبر و ذلك لأنّه تعالى لو فعل ذلك في قلب المنافق فلا يقدر على التّوبة و إصلاح نفسه و الرجوع عن نفاقه قطعاً و من كان كذلك فهو مجبورٌ مقهورٌ في نفاقه فكيف يعاقب عليه يوم القيامة.

و عليه فالوجه الثاني هو الأقوى عندي و الله أعلم.

**لَكِنَّ الرّسُولَ وَ الَّذِيْنَ أَمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**

في هذه الآية أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين المجاهدين مع الرّسول بأموالهم و أنفسهم فحكم بأنَّ لهم الخيرات و أنّهم هم المفلحون و ذلك لأنَّ هؤلاء آمنوا بالله و رسوله أولاً ثمَّ جاهدوا معه ولم يقولوا ذرنا نكن مع القاعدين و المراد بجهاد الأموال إنفاقها في مرضاة الله و بجهد النفس مقاتلتهم الكفّار بالسيف و السّنان و غيرهما من آلات الحرب ثمَّ أخبر الله تعالى عمّا يترتب على جهادهم من الجزاء فقال أولئك لهم الخيرات في الجنّة و نعيمها و خيراتها و أنّهم المفلحون أي الفائزون بكرامة الله فإنَّ الفلاح هو النّجاح بالوصول الى البغية و هو مأخوذ من نجاح الحاجة أي قضاؤها.



أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أي أن الله تعالى أعدَّ لهؤلاء المؤمنين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في الآخرة جَنَّاتٍ أي بساتين تجري من تحتها الأنهار، معناه من تحت أشجارها و لا شك أنه الفوز العظيم لأنها باقية غير نافية مشحونة بالسُرور و الفرح لا تصيبها الافات و الغوم و الفوز هو النجاة من الهلكة الى حال النعمة.

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قرأ بعضهم، المعذِّرون بسكون العين و تخفيف الدال و الباقيون بفتح العين و تشديد الدال و هو الأشهر الأقوى و عليه المصاحف فمن قرأ بالتخفيف أراد أنهم جاءوا بعذرٍ و من قرأ بالتشديد أنه أراد المعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن أو أنه أراد المقصِّرون و المعذِّر المقصِّر و أما المعتذر فأنه يقال لمن له عذر و لمن لا عذر له قال لبيد:

الى الحول ثم إسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً إعتذر  
أي جاء بعذر و قال بعضهم يجوز أن يكون المعتذرون هم المعتذرون فيوهمون أن لهم عذراً و لا عذر لهم وكيف كان فمعنى الآية أن قوماً من الأعراب أظهروا الإيمان للنبي ولم يكن لهم منه نصيب و لا في الجهاد رغبة و استأذنوا النبي ليأذن لهم في التخلف عنه فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التخلف عن الجهاد و قعد الذين كذبوا الله و رسوله يعني المنافقين عن الجهاد فيما كانوا يظهرون من الإيمان فقال الله تعالى: سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أي ينالهم عذابٌ مؤلِّمٌ موجعٌ في الآخرة و حاصل الكلام في الآية هو أنه قعد قوم عن الجهاد بعذرٍ أظهروه عند النبي ﷺ و قعد قوم آخر بغير عذرٍ أظهروه جرأةً على رسول الله و هم الذين أخبر الله عنهم بقوله:

في القرآن في تفسير الآية

جزء ١٠

المجلد الثاني

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فليُبقِ في البين إلاً المؤمنون الخالصون  
الصادقون المطيعون لله ورسوله وأولئك هم المهتدون حقاً.  
قال الله تعالى: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ<sup>(١)</sup>.

لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا  
يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ  
اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

إِعلم أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاً بقدر وسعها فمن عجز عن الفعل لا  
تكليف له قال الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاً وَسْعَهَا<sup>(٢)</sup> وهو مقتضى العدل.  
فإن التكليف بما لا يطاق ظلمٌ قبيح و عليه فمن كان له عذر يختلف فتارة  
يكون بالمرض وتارة بالضعف وتارة بشئ آخر إذا عرفت هذا.

فأعلم أن الله تعالى لما بيّن الوعيد والعذاب في حق من لا عذر له واقعاً و  
أن كان يومهم العذر بزعمه ذكر في هذه الآية أصحاب الأعدار الحقيقية و بيّن  
أن التكليف بالجهد ساقط عنهم وهم على أصناف.

**الأول:** الضعفاء جمع ضعيف وهو الذي في بدنه الضعف مثل الشيوخ و  
من خلق في أصل الخلقة و الفطرة ضعيفاً نحيفاً و الى هؤلاء أشار بقوله: لَيْسَ  
عَلَى الضَّعْفَاءِ وهم لا يقدرّون على الجهد لضعفهم و عجزهم.

**الثاني:** المرضى، جمع مريض قيل ويدخل فيهم أصحاب العمي و العرج  
و الزمانة و كلّ من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن و القدرة على  
المحاربة و الى هذا المعنى أشار بقوله: وَلَا عَلَى الْمَرْضَى.

**الثالث:** الذين لا يجدون الزاد و الرأحة و سائر ما يحتاجون اليه في حرب  
العدو و ذلك لأنّ حضور الغازي في الحرب ينفع اذا قدر على الإنفاق على  
نفسه من مال نفسه أو من يعينه عليه فأن لم تحصل هذه القدرة صار كلاً و وبلاً

على المجاهدين و هو كما ترى يمنعهم من الإشتغال بالمقصود قال بعض المفسرين أنه تعالى لما ذكر هذه الأقسام الثلاثة حكم بأنه لا حرج عليهم في المقصود عن الجهاد ومعناه الجواز لا اوجوب أي بمقتضى عدم الحرج هو عدم الوجوب و أما أنه لا يجوز عليهم الخروج فلا يستفاد من الآية فإذا خرج الواحد أو أكثر منهم للغزو تحت عنوان الإعانة و النصرة لجيش المسلمين بقدر ما أمكن له مثل حفظ متاعهم أو تكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً و وبالأعلى عليهم كان ذلك طاعة مقبولة إنتهى.

و الحق أن ما ذكره لا فائدة فيه لأن قوله تعالى: **وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حُكْمٌ** عام يشمل جميع ما ذكره و ما لم يذكره لأن الإنفاق أعم من الإنفاق بالمال أو البدن أو غيرهما اللهم إلا أن يقال بإختصاص الإنفاق في المقام بالمال و كيف كان فالأمر واضح و المقصود الأصلي في عدا الوجوب هو وجود الغدر العقلي أو الشرعي و لذلك يعمم الحكم بالمحبوس و المعنى عليه و الممنوع عن الخروج و غيرها من الموانع ثم أنه ذكر في الآية شرطاً معنياً لفني الحرج عنهم و هو قوله: **إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ** أي أن هؤلاء المذكورين يجوز لهم التخلف عن الجهاد اذا نصحوالله و رسوله بمعنى أنهم اذا أقاموا في البلد سعوا في إيصال الأخبار الى المجاهدين و قيل معناه أن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم و قيل غير ذلك مما هو داخل تحت الحكم و قال بعض المفسرين معناه أن تكون نياتهم و أقوالهم سراً و جهراً خالصة لله من الغش ساعية في إيصال الخير للمؤمنين داعية لهم بالنصر و الظفر على الأعداء فإن من رضي بفعل قوم فهو منهم.

وقد روى العامة عن سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ: **أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ لَقَدْ تَرَكْتُمْ بَعْدَكُمْ قَوْمًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ وَايًّا إِلَّا وَ هُمْ مَعَكُمْ فِيهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ كَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَ هُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ ﷺ حَسْبُهُمُ الْعَذْرُ انتَهَى.**

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كلمة، ما، للنفي أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق، والإحسان هو إيصال النفع إلى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح والمقصود أن فعل هؤلاء القاعدين حسن لمطابقتها العقل والشرع ومن كان كذلك فلا سبيل عليه من لائمة تناط به أو عقوبة تعاقب عليها والله غفور رحيم قيل الواو للحال أي لا سبيل عليهم والحال أن الله غفور رحيم وقيل للإستئناف والمأل واحد.

## تنبيه

ذكر الرّازي في المقام ما لا يخلو نقله عن فائدة ونحن ننقل ما ذكره بألفاظه وعباراته.

قال: وقوله تعالى: مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ يقتضي نفي جميع المسلمين فهذا بعمومه يقتضي أن الأصل في حال كل مسلم براءة الذمة وعدم توجه مطالبة الغير عليه في نفسه وماله فيدل على أن الأصل في نفسه حرمة القتل إلا لدليل منفصل والأصل في ماله حرمة الأخذ إلا لدليل منفصل وأن لا يتوجه عليه شيء من التكليف إلا لدليل منفصل فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلاً معتبراً في الشريعة في تقرير أن الأصل براءة الذمة فإن نص خاص يدل على وجوب حكم خاص في واقعة خاصة قضينا بذلك النص الخاص تقديماً للخاص على العام وإلا فهذا النص كافٍ في تقرير البراءة الأصلية.

ومن الناس من يحتج بهذا على نفي القياس قال لأن هذا النص دل على أن الأصل هو براءة الذمة وعدم الإلزام والتكليف فالقياس أمّا أن يدل على براءة الذمة أو على شغل الذمة.

**والأول:** باطل لأن براءة الذمة لما ثبت بمقتضى هذا النص كان إثباتها بالقياس عبثاً.

**الثاني:** أيضاً باطل لأن على هذا التقدير يصير ذلك القياس مخصصاً لعموم هذا النص وأنه لا يجوز لما ثبت أن النص أقوى من القياس قالوا وبهذا الطريق تصوير الشريعة مضبوطة معلومة ملخصة بعيدة عن الإضطراب و الاختلافات التي لا نهاية لها و ذلك لأن السلطان اذا بعث واحداً من عماله الى سياسة بلده فقال له أيها الرجل تكليفي عليك و على أهل تلك المملكة كذا وكذا وعدّ عليهم مائة نوع من التكاليف مثلاً ثم قال و بعد هذه التكاليف ليس لأحدٍ عليهم سبيل كان هذا تنصيصاً منه على أنه لا تكليف فيما وراء تلك الأقسام المائة المذكورة.

و لو أنه كلف ذلك السلطان بأن ينص على ما سوى تلك المائة بالنفي على سبيل التفصيل كان ذلك محالاً لأن باب النفي لا نهاية له بل كفاه في النفي أن يقول ليس لأحدٍ سبيل إلا فيما ذكرت و فصلت فكذا هاهنا أنه تعالى لما قال ما على المحسنين من سبيل يقتضي أن لا يتوجه على أحدٍ سبيل.

ثم أنه تعالى ذكر في القرآن ألف تكليف أو أقل أو أكثر كان ذلك تنصيصاً على أن التكاليف محصورة في ذلك الألف المذكور و أما فيما وراءه فليس لله على الخلق تكليف و أمرٌ و نهْيٌ و بهذا الطريق تصوير الشريعة مضبوطة سهلة المؤنة كثيرة المعونة و يكون القرآن وافياً ببيان التكاليف و الأحكام قوله:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ<sup>(١)</sup>.

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup>.

حقاً و يصير قوله: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.

حقاً و لا حاجة البتة الى التمسك بالقياس في حكم من الأحكام أصلاً فهذا ما يقرره أصحاب الظواهر مثل داود الأصفهاني و أصحابه في تقرير هذا الباب انتهى كلام الرازي.

فيه القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وَأَنَا أَقُولُ يظهر من نقل الرّازي ما نقلناه عنه أنّه تلقّى ما ذكره بالقبول لأنّه لم يردّ عليه بل إكتفى بالتّقلّ فقط و إذا كان كذلك فنقول ما ذكره في بطلان القياس حقّ لا مريّة فيه و هذا هو مذهب الشيعة في الأحكام الشرعية لأنّ القياس يوجب إدخال ما ليس من الدين في الدين و هو بدعة و صاحبها في النّار و هذا ممّا لا شكّ فيه عندنا.

و أمّا ما ذكره في أواخر كلامه و هو بمنزلة النّتيجة لمّا ذكره من أنّ التّكاليف محصورة في القرآن و أمّا فيما وراءه فليس لله على الخلق تكليف و أمرٌ و نهْيٌ فهو على إطلاقه باطل و ذلك لأنّ كون التّكاليف أو جميع الأحكام محصورة في القرآن لا يوجب ما ذكره من أنّه ليس على الخلق تكليف فيما وراءه ممّا لا خفاء فيه على المتأمّل المنصف لأنّ المراد بكونها محصورة في القرآن هو وجودها فيه بحسب الواقع فهو مسلمٌ مقطوع به لقوله تعالى: لَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ<sup>(١)</sup>.

و إن كان المراد بكونها محصورة فيه هو ذكر الأحكام و بيانها فيه ظاهراً على وجه التّفصيل فهو ممنوعٌ اذ ليست الأحكام موجودة فيه بهذا المعنى و لأجل ذلك قرن الرّسول و العترة بالقرآن في قوله: أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَ عِترتي أَهْلَ بَيْتِي ما أن تمسّكتم بها لن تضلّوا أبداً فلو كانت الأحكام الشرعيّة موجودة في القرآن على وجه التّفصيل فأيّ إحتياج بالعترة في المقام و لا معنى لقوله ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً فما ذكره الرّازي على إطلاقه لا يصحّ إلّا على مذهبه الذي أخذه من عمر حيث قال.

حسبنا كتاب الله و منه يظهر فساد قوله و يكون القرآن وافيّاً ببيان التّكاليف و الأحكام نعم هو وافيّ لها لمن أنزله الله عليه و هو الرّسول و أهل بيته الطاهرين الذين قرّنههم الله بالكتاب على لسان رسوله.

و محضَل الكلام هو أنَّ إستنباط الأحكام وإستخراجها من القرآن مختص بالرسول و أهل بيته الَّذِينَ عصمهم الله من الزَّلَل و أَمَا غيرهم كائناً من كان فلا يقدر على ذلك و لذلك ترى الإختلاف في الفروع الفقهيَّة بين المسلمين و تَشَتَّت الأراء بين المفسرين في تفسير كلام الله و لتفصيل الكلام في الباب موضع آخر هذا كله مضافاً الى أنَّ قوله: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ لَا يَرْبُطُ بِهِ» المباحث الخارجة عن تفسير الآية.

لأنَّ معنى الكلام بقرينة السياق و المقام هو أنَّ القاعدةين عن الجهاد المعذورين في قعودهم النَّاصِحِينَ لله و رسوله لكونهم من المحسنين لا سبيل عليهم من الدَّم على القعود في الدنيا و العذاب عليه في الآخرة لأنَّهم كانوا معذورين فيه عقلاً و شرعاً.

ثم ذكر الله قسمًا رابعاً من المعذورين فقال:

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ

الحمل هو إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك و هذه الآية عطف على الآية السابقة و هي قوله ليس على الضَّعفاء الآية و المعنى كما أنَّه لا حرج على الضَّعفاء و المرضى كذلك لا حرج على الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ أَي يطلبون منك المركوب و أنت تقول لهم لا أجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، أي ليس لي مركوبٌ أحملكم عليه، تولَّوْا، أي أعرضوا و اعينهم تفيض من الدَّمْع حَزَنًا على عدم و جدانهم ما ينفقون.

أَن قُلْتَ أَلَيْسَ أَنَّ هَؤُلَاءِ دَاخِلُونَ تَحْتَ قَوْلِهِ وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي إِعَادَتِهِ.

قلت قوله: الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ في الآية السابقة هم الفقراء الَّذِينَ ليس معهم دُون النَّفَقَةِ، و أَمَا الآية الأخيرة فالمراد بهم الَّذِينَ ملكوا قدر النَّفَقَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْمَرْكُوبَ هَكَذَا قِيلَ.

فِي الْقُرْآنِ  
فِي الْقُرْآنِ  
فِي الْقُرْآنِ



و الحق في الجواب أن يقال أن الثقة عبارة عن الزاد فقط وليست عبارة عما يحتاج اليه المجاهد من زاد و مركوب و سلاح و الذي يحتاج اليه المجاهد في جهاده هو جميعها لا الثقة و الزاد فقط ففي الآية السابقة نفى الجميع.

و في المقام أثبت الزاد و نفى المركوب و بعبارة أخرى بعضهم قعدوا عن الجهاد لفقرهم و بعضهم لعدم المركب من فرس و بعير و قد حكم الله تعالى بنفي الحرج عنهما و في قوله تعالى تفيض أعينهم، إشارة الى أن قلوبهم كانت مع الرسول و لذلك كانوا يكون و هو كاف لقبول عذرهم.

قال القرطبي نزلت في عرياض بن سارية و قيل نزلت في عائذ بن عمرو و قيل نزلت في بني مقرن و عليه جمهور المفسرين و كانوا سبعة أخوة كلهم صحبوا النبي ﷺ و ليس في الصحابة سبعة أخوة غيرهم و هم النعمان و معقل و عقيل و سويد و سنان و عبدالله و عبدالرحمن.

و قيل نزلت في سبعة نفر من بطون شتى و هم البكاءون أتوا رسول الله في غزوة تبوك ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه فتولوا و أعينهم تفيض من الدمع، و هم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، و علي بن زيد أخو بني الحارثة و أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن ابن النجار، و عمرو بن الحمام من بني سلمة و عبد الله بن المغفل المزني و هرمي بن عبد الله أخو بني واقف و عرياض ابن سارية الفزاري هكذا سماهم أبو عمرو في كتاب الدر له و فيهم إختلاف انتهى كلام القرطبي في المقام.

قال القيسري، معقل بن يسار و صخر بن خنساء و عبد الله بن كعب الأنصاري و سالم بن عيمرة و ثعلبة بن غنمة و عبد الله بن فضل و آخر قالوا يا نبي الله لقد ندبتنا للخروج معك فأحملنا على الخفاف المرفوعة و النعال المخصوفة نغز معك فقال ﷺ لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا و هم يبيكون.



و قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب و كان الرجل يحتاج الى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل ماء و زاده لبعد الطريق.

و قال الحسن نزلت في أبي موسى و أصحابه أتوا النبي ليستحملوه و وافق ذلك منه غضباً فقال ﷺ و الله لا أحملكم و لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا يكون فدعاهم رسول الله ﷺ و أعطاهم ذوداً فقال أبو موسى أأست حلفت يا رسول الله فقال ﷺ أني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير و كفرت عن يميني.

أقول الذي يستفاد من الآية هو أن بعض المسلمين أتوا رسول الله و سألوه ما سألوه من الحمل و قال لهم رسول الله لا أجد ما أحملكم عليه، و هذا القدر مسلم لا إشكال فيه و أما أنهم أي شيء قصدوا بهذا الكلام و أي شيء طلبوا منه ﷺ و كم كانت عدتهم و من كان السائل فلا نعرف منها شيئاً و الآية ساكنة عنها و ما روه في المقام لا يعتمد عليه و أما قوله: **وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** الى آخر الكلام ففيه إشارة الى أنهم كانوا محزونين حيث لم يوفقوا على الجهاد و بهذا يظهر لنا أنهم كانوا مؤمنين مخلصين فأل المناق لا يتأثر يتأسف في أمثال المقام و الدليل على ما ذكرناه هو نفي الحرج عنهم لأنهم بمنزلة قبول العذر منهم و هو واضح.

**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**

كلمة أنما تفيد الحصر و المقصود أن اخرج الذي هو طريق للعقاب ثابت للأغنياء الذين لا عذر لهم في التخلف لتمكنهم من الجهاد في سبيل الله و لكنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف و هم النساء و الصبيان و من لا حراك به.

و أما قوله: **وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** معناه وسم قلوبهم بسمه تعرفوا الملائكة فيميزون بينهم و بين غيرهم من المؤمنين.

فيل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠  
المجلد الثاني

و قيل المراد من الطَّبْع أَنَّ قلوبهم بمنزلة المطبوع في أن لا يدخلها الإيمان كما لو طبعوا على الكفر ومثله قوله تعالى: **صُمُّ بُكْمٌ عُفَىٰ فِهِمْ** لترك تَلَفُظِهِم بالحقِّ وعدولهم عن سماعه وإنصرفهم عن النظر الى الصَّحِيح كأنهم صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ، وهم لا يعملون ذلك ولا يدرون الى ما يصير أمرهم من عقاب الأبد.

و قال بعضهم، معناه لإلغهم للخلاف والمعصية كأنهم لا يعلمون و الحاصل أنهم قد فتحوا على أنفسهم أبواب العذاب والعقاب **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** <sup>(١)</sup>.

أقول قد مضى الكلام في هذا الباب عند قوله: **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** فلا يفيد الكلام بذكره ثانياً. وقد ذكر الرَّايزي في المقام ما يوهم الجبر المنفِي في الشريعة المقدَّسة موافقاً لمذهب الأشاعرة القائلين به وهو منهم فقال، وطبع على قلوبهم يعني أَنَّ السَّبَب في نفرتهم عن الجهاد هو أَنَّ الله طبع على قلوبهم فلاجل ذلك الطَّبْع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدِّين والدُّنيا انتهى.

وهو كما ترى ينادي بأنَّ العلة والسَّبَب في نفرتهم وتخلُّفهم عن الجهاد هو أَنَّ الله طبع على قلوبهم وبذلك صاروا من الجهال الذين لا يعلمون منافع الجهاد وإذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذنبهم في التَّخلف عنه ولا نعني بالجبر إلَّا هذا أعني عدم قدرة العبد على الفعل وهو كما ترى والحقُّ أن يقال أنَّه إشارة الى ما أجرى الله به العادة أنَّ الانسان إذا تنهى في اعتقادٍ باطلٍ أو ارتكابٍ محظورٍ ولا يكون منه تَلَفٌ بوجهٍ الى الحقِّ يورثه ذلك هيئَةً تمرَّنه على إستحسان المعاصي وكأتمَّا يختم بذلك على قلبه.

بَابُ التَّوْبَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء ١٠  
العبد الثاني

و من المعلوم أنَّ التَّناهي في الباطل و عدم التَّلَفُّت الى الحقِّ ليس خارجاً عن إختياره و قدرته و اذا كان كذلك فالعبد في الحقيقة يوجد في نفسه ما يمنعه من قبول الحقِّ و الإعراض عن الباطل و يعبر عنه بالطَّبع فكأنَّما طبع و ختم بذلك على قلبه و على ما ذكرناه فكلمة الطَّبع، في قوله: وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ كناية و إستعارة.

و على هذا النِّحو إستعارة الإغفال:

في قوله تعالى: وَ لَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا<sup>(١)</sup>.  
و إستعارة الكن:

في قوله: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ<sup>(٢)</sup>.  
و إستعارة القساوة:

في قوله: وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً<sup>(٣)</sup>. و أمثال ذلك كثيرة.

و أمَّا ما نقلوه عن الجبائي من أنَّ الله يجعل ختماً على قلوب الكفَّار ليكون دلالةً للملائكة على كفرهم فلا يدعون لهم، فليس ذلك بشئٍ لأنَّ هذه الكتابة لا يحتاج الملائكة اليها لإطلاعهم على إعتقاداتهم من قبلُ الله تعالى فهم مستغنية عن الإستدلال هذا تمام الكلام في تفسير الآية.

و آخر الكلام في الجزء العاشر من كتابنا و تيلوه جزء الحادى عشر اوله تعيذرون اليكم و المرجو هذا و المرجو منه تعالى أن يوفِّقنا لإتمام سائر الأجزاء إن شاء الله و أن يرزقنا الإخلاص في العمل ليكون ذخراً ليومٍ لا ينفع فيه مال و لا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم بحقِّ محمّدٍ وآله الطَّاهرين.

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

**الجزء**

**الحادى عشر**



يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا  
لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ  
سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى  
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ (٩٢) سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ  
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ  
رَجِسٌ وَ مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ (٩٣) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ  
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ  
الْفَاسِقِينَ (٩٤) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ  
أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ  
رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٥) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ  
مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدُّوَّارِ  
عَلَيْهِمْ ذَا بَرَّةٍ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٦) وَ  
مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ  
يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ  
الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي  
رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٧)

## ◀ اللغة

يَعْتَذِرُونَ: الاعتذار طلب قبول العذر.  
 نَبَأْنَا اللَّهَ: النبأ الخبر أي أخبرنا الله.  
 سَيَحْلِفُونَ: الحلف القسم.  
 أَنْقَلَبْتُمْ: أي رجعتم.  
 رَجِسَ: الرَجِس بكسر الراء التن.  
 مَأْوِيَهُمْ: المأوى المكان.  
 أَجْدَرُ: أي أخلق وأولى وأقرب.  
 مَغْرَمًا: أي غرمًا من قولهم غرمته غرمًا و غرامةً.  
 يَتَرَبَّصُ: التَّربص التمسك بالشئ لعاقبة ومنه التَّربص بالطعام لزيادة السعر.  
 الدَّوَائِرُ: بفتح الدال جمع دائرة وهي العواقب المذمومة.  
 قُرْبَاتٍ: بضمّ الراء وإسكانها وفتحها، جمع، قرية وهي طلب الثواب و  
 الكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة وهي تدني من رحمة الله.

## ◀ الإعراب

جَزَاءٌ مصدر يجوزون بذلك أو هو مفعول له بِكُمْ الدَّوَائِرُ الباء تتعلق  
 بـيَتَرَبَّصُ ويجوز أن يكون حالاً من الدوائر دَائِرَةُ السَّوءِ بضمّ السين وهو الضَّرر  
 وهو مصدر في الحقيقة وقد يقرأ بفتح السين وهو الفساد والرَّدائَة قُرْبَاتٍ  
 مفعول ثانٍ لِيَتَّخِذَ وَعِنْدَ اللَّهِ صفة لقربات أو ظرف لها أو لِيَتَّخِذَ، وَصَلَوَاتٍ  
 الرُّسُولِ معطوف على ما ينفق تقديره وصلوات الرُّسُولِ قربات.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

## ◀ التفسير

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ  
 نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ

أخبر الله تعالى في هذه الآية رسوله و الذين جاهدوا معه عن حال هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الجهاد في سبيل الله ولم يخرجوا مع النبي من غير عذر فقال لهم أن القاعدين المتخلفين يعتذرون اليكم عن تأخيرهم بالأباطيل و الكذب بعد رجوعكم اليهم و يقولون كذا وكذا قل يا محمد لهم لا تعتذروا فإننا لا نصدقكم على ما تقولون و تعتذرون لأن الله تعالى قد أخبرنا من أخباركم و أعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم و أنكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم كما هو شأن المنافق في أقواله و أفعاله: **وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** قالوا في معناه أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه.

و قيل المراد أنه يحل في الظهور محل ما يرى و قال بعضهم (سيرى الله) توعد أي سيراه في حال وجوده فيقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخييراً و إن شراً فشرراً.

و قال الزمخشري و سيرى عملكم أتيبون أم تثبتون على الكفر، و قيل كانوا يظهرون للرسول عند تقريرهم معاذيرهم حباً و شفقة فقل و سيرى الله عملكم هل تبقون على ذلك أم لا.

و قال الألوسي في تفسيره أي سيعلمه سبحانه علماً يتعلّق به الجزاء فالرؤية علمية انتهى.

أقول ما ذكره الألوسي لا نفهم معناه و أظن أنه تكلم بما لم يعلم معناه فأَنَّ الرؤية العلمية في حقه تعالى لا معنى لها.

و قال النيسابوري في تفسيره المسمى بغرائب القرآن، و سيرى الله عملكم، يعني رؤية وقوع أي سيقع أنكم هل تبقون على الحالة التي تظهرونها أم لا انتهى.

و قال الطبري يقول الله تعالى و سيرى الله و رسوله فيما بعد عملكم أتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه انتهى.



و قال الرّازي معناه هل تبقون بعد ذلك على هذه الحالة الّتي تظهرونها من الصّدق و الصّفاء أو لا تبقون عليها انتهى.

**أقول** هذا ما ذكره في تفسير الكلام و الّذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المنافقين لمّا إعتذروا عمّا فعلوا من تخلفهم عن الجهاد و رأوا قبح ذلك فقالوا لرسول الله في مقام الإعتذار بخلاف ما في قلوبهم و ذلك لأنّهم كانوا راضين بما فعلوا من التّخلف واقعاً ولكنّهم قالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال الله تعالى لنبيه فسيرى الله و رسوله عملكم فيما بعد هل تمشون على النّفاق أم لا و أنّما قال لهم ذلك لأنّ القصد و النّية يظهر بالعمل و أمّا قبله فلا يعلمه إلّا الله و محصل الكلام هو أنّ الله تعالى كان عالماً بضمايرهم و أنّهم يكذبون ولكنّه تعالى قال ما قال ليقف النّاس على نفاقهم بعد ظهوره في أعمالهم في عالم الخارج فتعالى الله.

**ثمّ تردّون إلى عالم الغيب و الشّهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**

في هذا الكلام إشارة الى أنّ الجزاء يوم القيامة متفرّع على العمل في الدنيا لا على النّية و القصد فقط و لذلك قال فينبئكم أي فيخبركم بما كنتم تعملون أي في الدّنيا ولم يقل بما كنتم تقصدون و تضمرون مثلاً و لعلّه لهذا السّر قال تعالى: **وَسِيرَىٰ إِلَهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ** أي أنّ الله تعالى لا يعاقب العبد على ما قصده و باطنه ما لم يظهره في العمل و ذلك من لطافة الخفيّة.

و أنّما سميت الآخرة بعالم الغيب لأنّها غائبة عن الحواسّ هذا إذا قلنا بفتح اللّام.

و أمّا إذا قلنا بكسرها كما عليه المصاحف غالباً فالمقصود أنكم ترجعون الى الله الّذي يعلم السّر و ما يخفى فهو تعالى عالم بالظواهر و عليه فالله تعالى عالم الغيب و الشّهادة و هو المطه.

## تذنيب

إِعلم أنَّ الإعتذار و هو اظهار ما يقتضي العذر يمكن أن يكون صحيحاً و يمكن أن يكون فاسداً و ما نحن فيه من قبيل الثاني و هو ظاهر ثمَّ أنَّ الفرق بين الإعتذار و التوبة هو أنَّ التوبة إقلاع عن سيئة وقعت و الإعتذار إظهار ما يقتضي أنَّها لم تقع و لذلك يجوز أن يتوب العبد الى الله و لا يجوز أن يعتذر اليه.

و أما الإعتذار الصحيح الذي له وجه عقلي فهو ما كان صاحبه محققاً هذا. ثمَّ أنَّ الله تعالى أخبر عن هؤلاء المنافقين المعتذرين بالباطل.

سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا فِيهِمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ  
و المقصود أنَّ المنافقين لا يقنعون بالإعتذار فقط كما أشار الله تعالى اليه في الآية السابقة بل يؤكدون تلك الإعتذار بالحلف و اليمين فيحلفون بالله لكم إذا إنقلبتم أي رجعتم اليهم أي يحلفون بالله تعالى بأنَّ إعتذارهم حقُّ و أنَّهم كانوا معذورين واقعاً و عرضهم بذلك أنَّما هو أن تصفحوا عنهم و تعرضوا عن ذمهم و توبيخهم و تعنيفهم، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ أي أتركوهم و لا تلوموهم، لأنهم رجس، أي معتذرون بما إنطوا عليه من النفاق فتجب مبادعتهم و إجتناهم:

قال الله تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا<sup>(٢)</sup>.

و أنَّما أطلق عليهم الرِّجس في الأصل الشئ القدر يقال رجل رجس و رجال أرجاس ثمَّ أنَّ على أربعة أوجه:  
إمَّا من حيث الطبع.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الْعَقْلُ.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الشَّرْعُ.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعُ.

**وَالأَوَّلُ:** كَالْقَاذوراتِ مِثْلَ الدَّمِّ وَالبَوْلِ وَالمَنِيِّ وَأَمْثَالِهَا.

**الثَّانِي:** كَالْبَخْلِ وَالحَسَدِ وَالخِيَانَةِ وَالظُّلْمِ وَغَيْرِهَا.

**الثَّالِثُ:** كَالخَمْرِ وَالمَيْسِرِ.

**الرَّابِعُ:** كَالْمَيْتَةِ فَأَنْهَا رَجَسَ طَبْعاً وَعَقْلاً وَشَرْعاً إِذَا عَرَفْتَ الرِّجْسَ وَأَقْسَامَهُ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمَنَافِقَ أَمْرَهُ يَدُورُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ رَجْساً عَقْلاً أَوْ شَرْعاً.

وَأَمَّا الْقِسْمَانِ الْأَخْرَانِ فَلَا يَطْلُقَانِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ ظَاهِراً وَبَعْدَ التَّوْبَةِ عَنِ التَّفَاقِ يَكُونُ مُؤْمِناً فَهُوَ لَا يَكُونُ رَجْساً بِحَسَبِ الطَّبْعِ كَالْقَاذوراتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّطْهِيرَ.

وَهَكَذَا الْكَافِرُ عَلَى قَوْلٍ لِأَنَّهُ أَيْضاً يَقْبَلُ التَّطْهِيرَ بِسَبَبِ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا كَوْنُ الْمَنَافِقِ رَجْساً بِحَسَبِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ فَوَاضِحٌ لَا خِلَافَ فِيهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَرَادَ هُوَ الرِّجْسُ الرُّوحَانِيُّ لَا الْجِسْمَانِيُّ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُتَصَفَّ بِه لَا تَنْفَعُ فِيهِ الْمَعَاتِبَةُ وَاللُّومُ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ الْحَلْفِ مَخَافَتُهُمْ أَنْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَلَا يَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَلَا يُوَادُّوهُمْ فَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَعَدَمَ تَوَلِّيهِمْ وَبَيَّنَّ الْعِلَّةَ فِي ذَلِكَ بِرَجْسِيَّتِهِمْ وَأَنَّ مَالَ أَمْرِهِمْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، أَيِ مُسْتَقَرَّهُمْ فِيهَا، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنَ التَّفَاقِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، أَيِ لَا تَكَلِّمُوهُمْ.

أَقُولُ مَا نَقَلُوهُ عَنْهُ مَعَ بَعْدِهِ لَا يَسَاعِدُهُ اللَّفْظُ.

يَخْلِقُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ  
الْفَاسِقِينَ.

قال مقاتل نزلت في عبد الله بن أبي حلف بالله الذي لا إله إلا هو أن لا يتخلف عنه بعدها وحلف ابن أبي سرح لتكونن معه على عدوه وطلب من الرسول أن يرضى عنه فنزلت وهنا حذف المحلوف به وفي قوله: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَثْبَتَ ولا فرق بين حذفه وإثباته في إنعقاد ذلك يميناً ورضاهم في الحلف هو رضا الرسول والمؤمنين منهم لنفعهم في دنياهم لا أن مقصدهم وجه الله تعالى ثم أن الفرق بين الحلف في الآية السابقة وهذه الآية هو أن الحلف هناك لأجل الإعراض والصفح عنهم والإجتنب عن توبيخهم ولومهم فجاء الأمر بالإعراض نصاً فقال: فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَأَمَّا في هذه الآية ذكر الحلف لأجل الرضا وهو أمر قلبي ولذلك أبرز النهي عن الرضا في صورة شرطية فقال تعالى: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ولم يقل لا ترضوا عنهم صريحاً.

ومن المعلوم أنهم لا يرضون عمن لا يرضى الله عنه فقوله: عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ كأنه نص على أن إنتفاء الرضا لأجل فسقهم ومنه يعلم أن النفاق فسق وهو كذلك.

ثم أشار الله تعالى الى أحوال الأعراب وأصحاب البوادي.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

قال الزاغبي في المفردات العرب ولد إسماعيل عليه السلام والأعراب جمعه في الأصل وصار ذلك إسماء لسكان البادية.

وقيل في جمع الأعراب أعراب والأعرابي في التعارف صار إسماء للمنسوبين الى سكان البادية انتهى.

أقول يظهر من كلامه أن الأعراب في أصل اللغة يطلق على ولد إسماعيل سواء كانوا من أهل البوادي أم من أهل الحضرة والبلاد إلا أنه في التعارف يطلق

على سكان البادية و على هذا المعنى أطلق المفسرون قوله: **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا** و قالوا المراد بالأعراب في الآية هو سكان البادية حول المدينة و غيرها.

و قال بعضهم نزلت في أعراب، أسد و غطفان و تميم و أعراب حاضري المدينة و حكم بأنهم أشد كُفْرًا و نفاقاً من غيرهم من أهل الحضر و أنما كانوا كذلك لتوحشهم و إستيلاء الهواء الحار عليهم فيزيد في تيههم و نخوتهم و فخرهم و طيشهم و تربيتهم بلا سائس و لا مؤدب و لا ضابط فنشأوا كما شاؤوا لبعدهم عن مشاهدة العلماء و معرفة كتاب الله و سنة رسول الله و لبعدهم عن مهبط الوحي كانوا أطلق لساناً بالكفر و النفاق من منافقي المدينة و ذلك لأن هؤلاء المنافقين من أهل الحضر كان الخوف من المؤمنين مستولياً عليهم و لذلك كان كفرهم سرّاً و لا يتظاهرون به إلا تعريضاً.

و أمّا قوله: **وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا** معنا أنهم أي الأعراب أعني بهم سكان البوادي أحق بالجهل بكتاب الله و سنة رسوله.

و قيل المراد بحدود الله الفرائض وكيف كان فالأمر واضح لا خفاء فيه بل نقول هذا الحكم لا يختص بالأعراب بل هو من الأحكام العامة الشاملة لجميع أهل البوادي من الأعراب و غيرهم ألا ترى أن سكان البوادي من العجم أيضاً كذلك و لذلك قيل عليكن بالمدن لا بالبوادي.

وقد روي عن رسول الله ﷺ: **أَنَّهُ قَالَ عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ وَ الْمَقْصُودِ الْبِلَادِ الْكَبِيرَةِ فَأَنَّ الْبِلَادَ الصَّغِيرَةَ فِي حَكْمِ الْبَوَادِي.**

و لنعم ما قيل بالفارسية:

ده نشيني مرد را أحق كند      مرد حق را كافر مطلق كند

روي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة و كان قاعداً يوماً يروي الحديث و الى جانبه إعرابي فقال له أن حديثك يعجبني و أن يدك تربيني فقال أنها الشمال فقال و الله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال فقال زيد صدق الله وقرأ: **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا** و موضع أن، في قوله

أَلَا يَعْلَمُوا، نَصَبَ لَأَنْ تَقْدِيرَهُ أَجْدَرُ بَأَنْ لَا يَعْلَمُوا فَحَذَفَ الْبَاءَ فَأَنْتَصَبَ وَ  
التَّقدير أَجْدَرُ بترك العلم غير أَنَّ الْبَاءَ لَا تَحذف مع المصدر الصَّرِيحَ وَأُنْما  
تَحذف مع، أَنْ، لِلزَّومِ الْعِلْمَ بِهَا وَحَمَلَهَا عَلَى التَّأْوِيلِ وَ أَجْدَرُ مَاخُوذٌ مِنْ جَدَرِ  
الْحَائِطِ تَعَالَى: عَلِيمٌ حَكِيمٌ مَعْنَاهُ هُوَ عَالِمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، حَكِيمٌ فِيمَا  
يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ  
دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قرأ بعضهم دائرة السُّوء بِضَمِّ السَّيْنِ وَ الْبَاقُونَ بفتحها فَمَنْ فَتَحَهَا أَرَادَ  
المصدر وَ إِنَّمَا أَضَافَ الدَّائِرَةَ إِلَى السُّوءِ تَأْكِيداً كَمَا يُقَالُ عَيْنِي رَأْسُهُ وَ شَمْسُ  
النَّهَارِ:

قال الله تعالى: مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَظَلَنْتُمْ ظَنُّ السَّوءِ<sup>(٢)</sup>.

وَ كَلِمَةٌ، مَنْ، لِلتَّبَعِيضِ أَيِ الْأَعْرَابِ أَيِ بَعْضِهِمْ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا، أَيِ  
غَرَمًا.

قِيلَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي إِعْرَابِ أَسَدٍ وَ غُطْفَانَ وَ تَمِيمٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مَا  
يُؤْخِذُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَ قِيلَ مِنَ الزَّكَاةِ وَ لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ مَا هِيَ إِلَّا جَزِيَّةٌ  
أَوْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْجَزِيَّةِ وَ قِيلَ كُلُّ نَفَقَةٍ لَا تَهَوَّاهَا أَنْفُسُهُمْ وَ هِيَ مَطْلُوبَةٌ شَرْعاً وَ  
الْمَعْنَى مِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْجِهَادِ وَ غَيْرِهِ، مَغْرَمًا، أَيِ  
غَرَامَةٍ وَ خَسْرَانٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ كَذَلِكَ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْفِقُونَ إِلَّا  
تَقِيَّةً أَوْ رِيَاءً لَا لَوَجْهَ لِلَّهِ وَ إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ لَا لَوَجْهَ  
لِلَّهِ بَلْ لِأَجْلِ الْخَوْفِ وَ التَّقِيَّةِ وَ الرِّيَاءِ لَا يَرَى إِنْفَاقَهُ إِلَّا مِنْ مَصَادِيقِ الْغَرَامَةِ وَ  
الْخَسْرَانِ وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ.

معناه ينتظر بكم الموت و القتل أي ينتظر أن تغلب الأمور عليكم بموت الرسول و يظهر عليكم المشركون ثم أنه أعاده عليهم فقال عليهم دائرة السوء، و الدائرة تستعمل في آفة تحيط بالإنسان كالدائرة بحيث لا يكون له منها فخلص و قال ابن فارس المغرم ما لزم أصحابه و الغرام اللازم و منه الغريم للزومه و إلحاحه و التربص الإنتظار و الدوائر هي المصائب التي لا مخلص منها تحيط به كما تحيط الدائرة.

و قيل تربص الدوائر هنا موت الرسول ﷺ و ظهور الشرك قال الشاعر:  
تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت جليلاً  
و تربص الدوائر ليخلصوا من إعياء النفة و قوله: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ دعاء معترض دعاء عليهم بنسبة ما أخبر عنهم كقوله: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ<sup>(١)</sup> والدعاء من الله إنجاب الشيء لأنه تعالى لا يدعوا على مخلوقاته و هي في قبضته.

و قال الكرمانى عليهم تدور المصائب و الحروب التي يتوقعونها على المسلمين و هنا وعد للمسلمين وإخبار و قوله: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ معناه أنه تعالى عالم بالسموعات عليم بالظواهر و الضمائر فلا يخفى عليه شيء أصلاً.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة أن من الأعراب أي بعضهم من يتخذ ما ينفق مغرمًا أخبر في هذه الآية بأن بعضاً آخر منهم بخلاف ذلك بسبب إيمانهم بالله و اليوم الآخر فهم يتخذون ما ينفقونها في سبيل الله قربات عند الله أي أنهم يتقربون بذلك الى الله وليس ذلك إلا لإحلاصهم و إيمانهم بالله ورسوله.  
قال الزجاج يجوز في، قربات، ثلاثة أوجه:

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

ضَمَّ الرِّءَاءَ وَإِسْكَانَهَا وَفَتَحَهَا، وَ مَا قَرِئَ إِلَّا بِالضَّمِّ وَالْقُرْبَةِ فِي الْأَصْلِ هِيَ طَلَبُ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللَّهِ بِحَسَنِ الطَّاعَةِ وَ هِيَ تَدْنِي مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ التَّقْدِيرُ أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ نَفَقَاتِهِمْ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَيْ إِدْعَائِهِمْ لَهُ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ وَ قِيلَ مَعْنَى، وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ، إِسْتِغْفَارُ لَهُمْ.

وَ قَالَ قَتَادَةُ مَعْنَاهُ دَعَاؤُهُ بِالْخَيْرِ وَ الْبَرَكَةِ قَالَ الْأَعْشَى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتَ مَرْتَحِلًا يَا رَبَّ جَنَّبَ أَبِي الْأَوْصَابِ وَ الْوَجْعَا عَلَيْكَ مِثْلَ الَّذِي صَلَّيْتُ فَأَغْتَمَضُ نَوْمًا فَأَنْ لَجِبَ الْمَرْءَ مَضْطَجِعًا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَيْ أَنَّهَا وَسِيلَةٌ إِلَى تَقَرُّبِهِمْ إِلَى ثَوَابِ اللَّهِ وَ يَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ نَفَقَتَهُمْ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي بَنِي مُقْرَنٍ مِنْ مِزْنِيَّةٍ قَالَه مُجَاهِدٌ.

وَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ فَضْلٍ بْنُ مُقْرَنٍ، كُنَّا عَشْرَةَ وَلَدَ مُقْرَنٍ فَنَزَلَتْ: **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** يَرِيدُ السَّتَّةَ وَ السَّبْعَةَ الْأَخُوَّةَ عَلَى الْخِلَافِ فِي عِدَدِهِمْ وَ بَيْنِهِمْ وَ كَيْفَ كَانَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي الْقُرْبَاتِ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمُ الْآخِرُ إِذْ جَزَاءُ مَا يَنْفَقُ إِنَّمَا يَظْهَرُ ثَوَابُهُ الدَّائِمُ فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ اكْتَفَى فِي قِصَّةِ أُولَئِكَ بِذِكْرِ نَتِيجَةِ الْكُفْرِ وَ عَدَمِ الْإِيمَانِ وَ هُوَ إِتْخَاذُهُ مَا يَنْفَقُ مَغْرَمًا وَ تَرْبِصُهُ بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرُ، وَ الْأَجُودُ تَعْمِيمُ الْقُرْبَاتِ مِنْ جِهَادٍ وَ صَدَقَةِ هَذَا الَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَا أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ بِالْخَيْرِ وَ الْبَرَكَةِ وَ الْإِسْتِغْفَارِ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ فَشَهِدَ اللَّهُ لَهُمْ بِأَنَّهُ كَذَلِكَ فَقَالَ **إِلَّا أَنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ** ثُمَّ أَكَّدَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: **أَلَا وَ بِحَرْفِ التَّحْقِيقِ وَ هُوَ، أَنَّهَا، ثُمَّ زَادَ فِي التَّأَكِيدِ وَقَالَ: سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا.**



وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا وَاتَّبَعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّبِقُ كُنَ الشَّيْ قَبْلَ غَيْرِهِ وَ مِنْهُ قِيلَ فِي الْخَيْلِ السَّابِقُ.  
حَوْلَكُمْ، حَوْلَ الشَّيْ الْمَحِيطُ بِهِ هُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ إِذَا كَانُوا  
مَطْبُوعِينَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ.  
مَرَدُّو، يُقَالُ مَرَدٌ عَلَى الشَّيْ إِذَا عَتَا وَ طَغَى وَ أَغْيَا خَبْنًا وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ لَا  
خَفَاءَ فِيهِ.

وَالسَّابِقُونَ مَبْدَأُ الْأَوَّلُونَ خَبِرَهُ وَقِيلَ خَبِرَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقِيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ مِنْ بَعْنَى الَّذِي وَمُنَافِقُونَ مَبْدَأُ قَدَمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمَبْدَأِ فَقَوْلُهُ مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، خَبِرَهُ مَرَدُّ وَاصِفَةٍ لِمَبْدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ مَرَدُوا وَقِيلَ، مَرَدُوا، صِفَةٌ لِمَنَافِقُونَ وَقَدْ فَصَّلَ بَيْنَهُمَا وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ خَبِرَ مَبْدَأُ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ مَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ كَذَلِكَ لَا تَعْلَمُهُمْ صِفَةٌ أُخْرَى مِثْلُ مَرَدُوا وَآخَرُونَ آعْتَرَفُوا هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى، مَنَافِقُونَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَبْدَأُ، وَاعْتَرَفُوا صِفَةٌ وَخَلَطُوا خَبِرَهُ وَآخَرُ سَيِّئًا مَعْطُوفٌ عَلَى عَمَلِ عَسَى اللَّهُ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةٌ، بِخُذْ، وَأَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْ صَدَقَةٍ تُطَهِّرُهُمْ وَتُطَهِّرُهُمْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ صِفَةً لَصَدَقَةٍ وَيَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَالتَّاءُ لِلخُطَابِ أَيْ تُطَهِّرُهُمْ أَنْتَ إِنْ صَلَوَاتِكَ يَقْرَأُ لِلْأَفْرَادِ وَالْجَمْعِ سَكَنٌ بِمَعْنَى مَسْكُونٍ لِيَهِيَ فَلِذَلِكَ لَمْ يُؤْنَسْ وَهُوَ مِثْلُ الْقَبْضِ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضِ هُوَ يَقْبَلُ مَبْدَأُ وَيَقْبَلُ الْخَبَرَ.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ  
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

إِعلم أَنَّ اللَّهَ تعالى قد أخبر بهذه الآية أَنَّ السَّابِقِينَ من المهاجرين و هم الَّذِينَ هاجروا معه الى المدينة، و الأنصار و هم أهل المدينة الَّذِينَ نصرُوا دين اللَّهَ بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة و التَّابِعِينَ و هم الَّذِينَ تبعوا هؤلاء بأفعال الخير و الدَّخُول في الإسلام و سلوكهم منهاجهم.

قال الفراء يدخل في ذلك من يحيي بعدهم الى يوم القيامة فحكم اللَّه تعالى في الآية بأنَّه رضي عنهم و رضوا عنه ثم قال: وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية.

فقال أبو موسى و سعيد بن المسيب، نزلت فيمن صَلَّى القبلتين.  
و قال السَّعْبِي: نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان و هي بيعة الحديبية من أسلم بعد ذلك و هاجر فليس من المهاجرين الأولين.  
و قال أبو علي نزلت في الَّذِينَ أسلموا قبل الهجرة نقل هذه الأقوال في التَّبيان و اختلفوا أيضاً في المراد بالسَّابِقِينَ الأولين.

فقال ابن بحر، السَّابِقُونَ بالموت أو بالشَّهادة من المهاجرين و الأنصار سبقوا الى ثواب اللَّه و حسن جزائه قال و المراد بالمهاجرين و الأنصار أهل العقبة أولاً و كانوا سبعة و أهل العقبة الثانية و كانوا سبعين و الَّذِينَ آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب ابن عمير فعلمهم القرآن.

و قال ابن عطية ولو قال قائل أَنَّ السَّابِقِينَ الأولين هم جميع من هاجر الى أن انقضت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللَّفْظ و تكون من، لبيان الجنس و الَّذِينَ اتَّبَعُوهم بإحسانٍ هم سائر الصَّحابة و يدخل في هذا اللَّفْظ الباقون و سائر الأُمَّة لكن شرط الإحسان و قد لزم هذا الإسم الَّذي هو التَّابِعُونَ من رأى النَّبِي ﷺ انتهى كلامه.

فيه القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

و قال الرازي الصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة و في النصرة و الذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين و لم يبين أنهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملاً إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين و أنصاراً فوجب صرف ذلك اللفظ الى ما به صاروا مهاجرين و أنصاراً و هو الهجرة و النصرة فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة و النصرة إزالة للإجمال عن اللفظ انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و كيف كان لما تقدّم ذكر المنافقين و الكفار عقبه سبحانه بذكر السابقين الى الإيمان فقال و السابقون الأولون، الى الإيمان و الطاعات و أنما مدحهم بالسبق لأنّ السابق الى الشئ يتبعه غيره فيكون متبوعاً و غيره تابع له فهو إمام فيه وداع له الى الخير يسبقه اليه و كذلك الشر فأَنْ من سبق الى الشر يكون أسوأ حالاً ممّن يتبعه فيه لهذه العلة.

مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الظاهر أن المراد بالمهاجرين من هاجر من مكة الى المدينة و الى الحبشة قاله الطبرسي في المجمع.

وَأَنَا أقول أن كان المراد بالمهاجرين من هجر من بلده الى بلد آخر فالحق ما ذكره عليه السلام و أن أريد به الهجرة من الباطل الى الحق أو من الكفر الى الإيمان فهو يشمل من هاجر مع الرسول الى الشعب أي شعب أبي طالب على ما ذكره أهل السير.

نعم الأنصار أعني بهم أهل المدينة كانوا بمعزل عنها و محصل الكلام هو أن المراد بالمهاجرين أهل مكة و بالأنصار أهل المدينة و حيث أن الأنصار لم تتحقق منهم الهجرة قطعاً فالمقصود من الآية هو السبق الى الإيمان و الطاعة و عليه فمعنى الآية أن الذين سبقوا الى الإيمان بالله و رسوله من المهاجرين أعني بهم أهل مكة الذين هاجروا منها الى المدينة مع النبي، و الأنصار و هم أهل المدينة و الذين إتبعوهم بإحسان أي بأفعال الخير و سلوك منهاجهم رضي الله عنهم و رضوا عنه.

و يستفاد من الآية أَنَّ اللَّهَ تعالى رضي عنهم لسبقهم الى الإسلام و الإيمان و فعل الطاعات و النصرة لدين الله و هذا هو الذي صار سبباً للرضا و اذا كان الملاك ما ذكرناه فكل من كان من المهاجرين و الأنصار أقدم إسلاماً و أسبق نصرة لدين الله فهو أحب الى الله تعالى لأن المفروض أَنَّ علّة الرضا هي السّبق الى الإيمان بالله و رسوله.

اذا عرفت هذه الدّقيقة فاعلم أَنَّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أوّل من آمن بالله و رسوله على ما هو المشهور بين العامة و الخاصة.

و قيل أوّل من آمن خديجة ثمّ بعدها أمير المؤمنين و الحقّ هو الأوّل لقوله عليه السلام فَأَتَيْتُ وَلَدَتِ عَلَى الْفِطْرَةِ و سبقت الى الإيمان و الهجرة و قد جمع بعضهم بين الأخبار التي وردت في الباب في تقديم إسلام خديجة على إسلامه و بالعكس بأنّ خديجة كانت أوّل من آمن من النساء و عليّ كان أوّل من آمن من جنس الذّكور و كيف كان فالخلاف أنّما هو في سبق إسلام أحدهما على الآخر و أمّا بالنسبة الى غيرهما من المسلمين فلا خلاف في تقديم إسلامهما عليهم.

قال ابن هشام في السّيرة و هو من أعيان العامّة و أعرفهم بالأثر و الأخبار الواردة في الباب نقلاً عن ابن إسحاق الذي كان إمام الكلّ في معرفة السّيرة و هو أوّل من كتب السّيرة ما هذا لفظه:

قال ابن إسحاق ثمّ كان أوّل ذكر من النّاس آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و صليّ معه و صدّق بما جاءه من الله تعالى عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه و هو يومئذ ابن عشر سنين و كان ممّا أنعم الله به على عليّ ابن أبي طالب عليه السلام أنّه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الإسلام و ساق الكلام الى أن قال فلم يزل عليّ مع رسول الله حتّى بعثه الله تبارك و تعالى فاتبعه عليّ عليه السلام و آمن به و صدّقه.

ثم قال و ذكر بعض أهل العلم أنّ رسول الله كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة و خرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب و من جميع أعمامه و سائر قومه فيصلّيان الصلاة فيها فاذا أمسيا فمكثا كذلك ما شاء الله انتهى موضع الحاجة من كلامه<sup>(١)</sup>.

و قال الحافظ الحسكاني الحنفي اليسابوري و هو من أعلام القرن الخامس الهجري في كتابه القيم شواهد التنزيل في ذيل الآية الشريفة بأسناده عن حميد بن القاسم بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف في قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هم سَبَّةٌ من قريش أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب انتهى.

و بأسناده عن الزبير بن عدي عن الضحاک وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هم سَبَّةٌ من قريش أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب و عمار و أبو ذر و سلمان و مقداد انتهى. و بأسناده عن محمد بن خالد الضبي و عبد الله بن شريك العامري عن سليم بن قيس عن الحسن بن علي عليه السلام أَنَّهُ حَمَدَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ فَمَا أَنَّ السَّابِقِينَ فَضَّلَهُمْ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ كَذَلِكَ لِأَبِي عَلِيّ بن أَبِي طالب فضيلة على السابقين بسبقه السابقين انتهى.

و بأسناده عن ابن عباس في قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أَنَّهُ قَالَ نَزَلَتْ فِي عَلِيّ سَبَقَ النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ صَلَّي الْقِبْلَتَيْنِ وَ بَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ وَ هَاجَرَ الْهَجْرَتَيْنِ ففیه نزلت هذه الآية<sup>(٢)</sup>. و قال الشيخ سليمان الحنفي البلخي في كتابه الموسوم ينابيع المودة ما هذا لفظه الباب الثاني عشر في سبق إسلام علي كرم الله وجهه، الترمذي بسنده عن أنس بن مالك قال بُعث النبي ﷺ يوم

الأثنين وصلي عليّ يوم الثلاثاء هذا حديث غريب انتهى ابن ماجة  
القزويني و أحمد في مسنده و أبو نعيم الحافظ و الثعلبي و  
الحمويني أخرجوا جميعاً بأسانيدهم عن عباد بن عبد الله قال قال  
أبا عبد الله و أخو رسول الله و أنا الصديق الأكبر لا يقولهما بعدي  
إلا كذاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين انتهى.

و بأسناده عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ  
صلّت الملائكة عليّ و على عليّ سبع سنين لأنه لم يكن من الرجال  
غيره انتهى.

و بأسناده عن ابن عباس أنّه قال أول من أسلم من الناس بعد  
خديجة عليّ بن أبي طالب و قد أنشد بعض أهل الكوفة أيام صفين  
في مدحه شعراً:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته	يوم التشور من الرحمن غفراناً
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً	جزاك ربك منّا فيه إحساناً
نفسى الفداء لأولى الناس كلّهم	بعد النبي عليّ الخير مولانا
أخي النبي و مولى المؤمنين معاً	و أول الناس تصديقاً و إيماناً

و بأسناده عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: أَلَسَابِقُونَ  
أَلَسَابِقُونَ قال سبق يوشع بن نون، و سبق مؤمن آل فرعون الى  
موسى و سبق صاحب يس الى عيسى و سبق عليّ إلى  
محمد ﷺ انتهى (١).

و الأحاديث هناك كثيرة جداً بل لا يبعد كون المسألة من ضرورات الدين  
فأني لم أر مخالفاً فيها من العلماء من العامة إلا شذمة قليلة من الجهال  
المعاندين الذين لا يعنى بقولهم لخروجهم عن قاعدة الإنصاف و دخولهم في

ورطة البغي والإعتساف و ذلك لأنَّ سبق عليٍّ عليه السلام في الإيمان بالله و برسوله على من سواه كائناً من كان إلا خديجة الكبرى على قولٍ ممَّا لا خلاف و لا نزاع فيه عند أهل الفن ولولا مخافة التّطويل و خروج كتابنا عن موضوعه لأشبعنا الكلام في هذا الباب و لكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب و من أراد الوقوف على أكثر منه فعليه بمراجعة الكتب الموضوععة لهذا الفن و عليه فلا عبرة بما نقله الرّازي في تفسيره لهذه الآية حيث.

قال بعد الوجوه الدّالة على أنّ السّبق الى الهجرة و النّصرة من أفضل القربات و أعظم الطّاعات ما هذا لفظه فإذا ثبت هذا فنقول.

أنَّ أسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر لأنّه كان في خدمة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و كان مصاحباً له في كلّ مسكن و موضع فكان نصيبه من هذا المنصب أعلى من نصيب غيره و عليّ بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين الأوّلين إلا أنّه هاجر بعد هجرة الرّسول و لا شك أنّه أنما بقى بمكّة لمهمات الرّسول إلا أنّ السّبق الى الهجرة أنما حصل لأبي بكر فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر فإذا ثبت صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضي الله عنه و رضي هو عن الله و ذلك في أعلى الدّرجات من الفضل و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ لو كانت إمامته باطلة لأستحقّ اللّعن و المقت ينافي حصول مثل هذا التّعظيم، فصارت هذه الآية من أدلّ الدّلائل على فضل أبي بكر و عمر و على صحّة إمامتهما انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** أمّا قوله أنّ أسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر.

ففيه **أما أولاً:** أنّه من أين ثبت له أنّ أبا بكر كان أسبق النّاس الى الهجرة.

نعم هو كان مصاحباً له صلّى الله عليه وآله وسلّم في الغار و بعده حتّى ورد المدينة و من المعلوم أنّ المصاحبة أعمّ من الهجرة فإنّ الهجرة عبارة عن الخروج من دار الكفر الى دار الإيمان لحفظ الدّين و النّصرة له.



و أما مجرد السفر و السير من بلد الى بلد آخر إذا لم يكن مسبوقاً بالإيمان فلا يعدّ منها و إذا كان كذلك فمن أين ثبت له أنّ أباً بكر هاجر مع الرسول لنصرة دين الله و إعلاء كلمته إذ لا يبعد أن يكون غرضه شيئاً آخر خفي على الرّازي و أمثاله مثل أن يكون عيناً للمشركين مثلاً أو أنّ الرسول إتخذّه مصاحباً لنفسه لئلا يخبرهم بخروجه ﷺ عن مكة و أمثال ذلك من الإحتمالات و إذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال.

نعم لو ثبت أنّ أباً بكر كان مؤمناً بالله و برسوله حقاً و على هذا الأساس صار مصاحباً له ﷺ فتمّ ما ذكره و أتى له بإثبات ذلك.

و أما ثانياً: أنّ الآية ناظرة الى سبق الإيمان و أما سبق الهجرة فالآية ساكتة عنه و ذلك لأنّ قوله: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ معناه و السّابقون الأولون في الإيمان لا في الهجرة مع قطع النظر عن الإيمان، فلمّا مدحهم الله كأنّه قيل و من هم فقال من المهاجرين و الأنصار هذا إذا قلنا أنّ كلمة، من، بيانية.

و أمّا أن قلنا أنّها تبعيضية فالمعنى أنّ السابقين الأولين في الإيمان بعض المهاجرين و الأنصار لا جميعهم و عليه فالأمر أوضح و محض الكلام هو أنّ الفضل ثابت لمن سبق الى الإيمان على غيره و قد ثبت بالضرورة أنّ السابق في الإيمان بقولٍ مطلق هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و هو المطلوب.

و بذلك ظهر لك فساد ما علّل الحكم بقوله لأنّه كان في خدمة الرسول و مصاحباً له فكان نصيبه أعلى من نصيب غيره وجه الفساد أنّ مجرد كون أبي بكر مصاحباً له لا يثبت مدّعه لما ذكرناه.

و أمّا قوله و عليّ بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين إلّا أنّه أنّما هاجر بعد هجرة الرسول.

فنقول أنّما هاجر عليّ عليه السلام بعد هجرة الرسول ظاهراً لأنّه بات على فراشه ﷺ في ليلة المبيت بأمر من الله و رسوله كما هو المسلّم عند الكلّ بلا خلاف فيه و لذلك قال الله تعالى في مدحه: وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ

أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ<sup>(١)</sup> و قصّته مشهورة بحيث لا تخفى على أحد حتّى على العجائز و المخذرات في الحجال فكيف خفيت على الرّازي فضيلة تلك الليلة التي قد باهى الله ملائكته المقرّبين على ما هو مسطور في التّواريخ و السّير. و قول جبرائيل من مثلك يا بن أبي طالب فإنّ الله قد باهى بك على الملائكة المقرّبين.

قال بعض المحقّقين و لنعم ما قال عليّ عليه السلام سبق الكلّ بالإيمان ثمّ بالهجرة الى الشّعب ثمّ بالجهاد و أمّا أبو بكر فقد هاجر الى المدينة و ذلك أنّ النّبي أخرجه مع نفسه أو خرج هو لعلّه، و أمّا أمير المؤمنين فقد تركه الرّسول للمبيت باذلاً مهجته فبذل النّفس أعظم من الإبقاء على النّفس في الهرب الى الغار.

و قد روي أبو المفضل الشّيباني بأسناده عن مجاهد قال فخرت عائشة بأبنها و مكانه مع رسول الله في الغار فقال عبد الله بن شدّاد بن الهاد فأين أنت من عليّ بن أبي طالب حيث نام في مكانه و هو يرى أنّه يقتل فسكتت ولم تحر جواباً و شتان بين قوله: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** و بين قوله: **لَا تَخْزَنَ لِنِ اللَّهِ مَعْنًا**<sup>(٢)</sup> و كان النّبي معه يقوي قلبه ولم يكن مع عليّ لم يصبه و جمع و عليّ يرمي بالحجارة و هو مختفٍ في الغار و عليّ ظاهر للكفّار و مع هذا كلّ يقول المعاند فكان نصيب غيره فكأنّه أي الرّازي نسي قوله و الصّحيح عندي أنّهم السّابقون في الهجرة و النّصرة لا في الهجرة فقط فيقال له و أيّة نصرّة أعظم و أفضل من نداء النّفس طلباً لمرضات الله ثمّ أيّة نصرّة لدين الله أعظم من طاعة الرّسول و الإنقياد له و حيث أنّ نوم عليّ على فراش رسول الله لم يكن إلّا لنصرة دين الله و إعلاء كلمة التّوحيد و طاعة الرّسول فالفضل له قطعاً فقد قال رسول الله ﷺ يا عليّ أنّ الله قد أذن لي بالهجرة و أنّي أمرك أن تبيت على فراشي و أنّ قريشاً إذا رأوك لم يعلموا بخروجي، و

عَلَيَّ عَلَيْهِ قَدْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَبَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ وَ أَيْ فَضِيلَةٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، وَ لَنَعْمَ مَا قِيلَ:

وَنَامَ عَلَى الْفِرَاشِ لَهُ نَدَاءٌ وَ أَنْتُمْ فِي مَضَاجِعِكُمْ رَقُودٌ وَ قَالَ الْآخَرُ:

وَلَمَّا سَرَى الْهَادِي النَّبِيَّ مُهَاجِرًا وَ قَدْ مَكَرَ الْأَعْدَاءُ وَ اللَّهُ أَمَكْرُ  
وَ نَامَ عَلَيَّ فِي الْفِرَاشِ بِنَفْسِهِ وَبَاتَ رَبِيطَ الْجَاشِ مَا كَانَ يَذْعُرُ  
فَوَافِي بَيَاتًا وَ الدُّجَى مُتَقَوِّضٌ وَ قَدْ لَاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ  
فَأَلْفَوْا أَبَا شَبْلِينَ شَاكِي سِلَاحِهِ لَهُ ظَفَرٌ مِنْ صَاتِكِ الدِّمِّ أَحْمَرُ  
فَصَالَ عَلَيَّ بِالْحَسَامِ عَلَيْهِمْ كَمَا صَالَ فِي الْعَرِيسِ لَيْثٌ غَضَنَفُرُ  
فَوَلَّوْا سِرَاعًا نَافِرِينَ كَأَنَّمَا هُمْ حَمَرٌ مِنْ قُورٍ الْغَابِ تَنْفَرُ  
فَكَانَ مَكَانَ الْمَكْرِ حِيدَرَةُ الرِّضَا مِنْ اللَّهِ لَمَّا كَانَ بِالْقَوْمِ يَمَكُرُ  
وَ قَالَ الْآخَرُ:

بَاهِيَ بِهِ الرَّحْمَنُ أَمْلَاكَ الْعُلَى لَمَّا إِنْتَنِي مِنْ فَرَشِ أَحْمَدٍ يَهْجَعُ  
يَا جَبْرِئِيلَ وَ مِيكَائِيلَ فَأَنْتَنِي آخِيتَ بَيْنَكُمَا وَ فَضْلِي أَوْسَعُ  
أَفَأَنْ بَدَا فِي وَاحِدِ أَمْرِي فَمَنْ يَفْدِي أَخَاهُ مِنَ الْمُنُونِ وَيَقْنَعُ  
فَتَوَثَّقَا كُلُّ يَضُنٍّ بِنَفْسِهِ قَالَ الْإِلَهَ أَنَا الْأَعَزُّ الْأَرْفَعُ  
أَنَّ الْوَصِيَّ فَدَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَلَفَعْلَهُ زَلْفَى لَدَيَّ وَ مَوْضِعُ  
فَلْتَهَيِّطَا وَ لَتَمْنَعَا مِنْ رَامِهِ أَمْ مَنْ لَهُ بِمَكِيدَةِ يَتَسَّرَعُ  
وَ قَالَ الْآخَرُ:

عَلَيَّ فِي مَهَادِ الْمَوْتِ عَارٍ وَ أَحْمَدُ مَكْنَسُ غَارٍ إِبْتَغَاتٍ  
يَقُولُ الرُّوحُ بَخْ يَا عَلِيَّ فَقَدْ عَرَّضْتَ رَوْحَكَ لِإِنْتِهَابِ

وَ الْأَشْعَارُ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِهَا هُوَ أَنَّ الْمَوْضُوعَ كَانَ فِي صَدْرِ  
الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ هَذَا كُلَّهُ مَعَ أَنَّ مَجْرَدَ الْخُرُوجِ وَ الْمَصَاحَبَةَ مَعَ الرَّسُولِ  
لَوْ كَانَ مِنْ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَ الْفَضَائِلِ لَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرْقَطٍ أَيْضًا مُصَاحِبًا

فِي الْقُرْآنِ  
فِي الْقُرْآنِ  
فِي الْقُرْآنِ



للرّسول لأنّه كان دليلهما على الطّريق فهو مثل أبي بكر في الفضل بل هو أفضل لأنّ الدّليل مقدّم على المدلول ولا يقول به عاقلاً فضلاً عن فاضل و أعجب من هذا كله.

قوله فإذا ثبت هذا صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضى الله عنه و رضى هو عن الله و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول الله.

و نحن نقول أمّا أولاً أنّ الهجرة لا ربط لها بالخلافة و الإمامة فقوله وجب أن يكون إماماً حقّاً، لا نعلم أنّ هذا الوجوب عقليّ أو شرعيّ أو عرفيّ أمّا العقل فإنّه لا يحكم بهذا الوجوب أصلاً و أمّا الشّرع فهو معلوم البطلان إذ لا دليل شرعاً على أنّ مصاحب الرّسول يجب أن يكون إماماً لأنّ الإمامة إمّا بالنّص من الرّسول كما نقول به أو بمشورة أهل الحلّ العقد كما يقولون به و أمّا مجرد المصاحبة فلم يقل به أحد إلّا الرّازي و لم يعلم أنّ مجرد المصاحبة لو كان كافياً في الإمامة فعبد الله ابن أرقط الذي كان دليلهما و مصاحبهما كان أولى بالإمامة من أبي بكر و لا أقلّ من أن يكون مثله و الخصم لا يقول به.

و أمّا قوله إذ لو كانت إمامته باطلة لإستحقّ العن و المقت و ذلك ينافي حصول مثل هذا التّعظيم فالجواب عنه واضح إذ لم يثبت في الآية تعظيم له و أين هذا التّعظيم و الآية أثبتت الفضيلة و التّعظيم للسّابقين الأوّلين في الإيمان بالله و رسوله و إثبات هذا المعنى لأبي بكر أوّل الكلام.

و أمّا مجرد كونه مصاحباً للرّسول مع قطع النّظر عمّا ذكرناه يفيد التّعظيم فعلى المدّعي الإثبات مع أنّه على فرض ثبوته ثابت لعبد الله بن أرقط أيضاً.

و أمّا في قوله لو كانت إمامته باطلة لإستحقّ كذا وكذا فنحن نقول ببطلانها بعد رسول الله في غير عليّ و الأئمّة المعصومين من ولده كائناً من كان و الحمد لله ربّ العالمين على هذه النّعمة.

ثمّ أنّ الرّازي أطال الكلام في المقام الى أن قال أنا بيّنّا أنّه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين و ذلك يقتضي أنّ المراد كونهم سابقين في الهجرة

ثُمَّ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِهَذَا الْوَصْفِ أَثْبَتَ لَهُمْ مَا يُوْجِبُ التَّعْظِيمَ وَهُوَ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَالسَّبْقُ فِي الْهَجْرَةِ وَصِفَ مُنَاسِبٌ لِلتَّعْظِيمِ وَذَكَرَ الْحَكَمَ عَقِيبَ الْوَصْفِ الْمُنَاسِبَ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ الْحَكَمِ مَعْلَلًا بِكَوْنِهِمْ سَابِقِينَ فِي الْهَجْرَةِ وَالْعَلَّةُ مَا دَامَتْ مَوْجُودَةً وَجِبَ تَرْتِبُ الْمَعْلُولِ عَلَيْهَا وَكَوْنِهِمْ سَابِقِينَ فِي الْهَجْرَةِ وَصِفَ دَائِمٌ فِي جَمِيعِ مَدَّةِ وَجُودِهِمْ فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّضْوَانُ حَاصِلًا فِي جَمِيعِ مَدَّةِ وَجُودِهِمْ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَأَنَا أَقُولُ لَيْسَتْ الْهَجْرَةُ عِلَّةٌ لصدور الحكم بل العلة هي السبق إلى الإيمان كما أشرنا إليه سابقاً والهجرة من آثار الإيمان وهو معلوم من الآية ألا ترى أن الآية ساكنة عنها وإذا كان الأمر على هذا المنوال فالعلة هي الإيمان والمعلول مترتب عليها ما دامت موجودة فقوله تعالى رضي الله عنهم إلى آخر الآية أنما هو ثابت لمن كان باقياً على الإيمان ماذا زال الإيمان زال المعلول قطعاً مهاجراً كان أو غير مهاجر فقولهم تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية لا كلام لنافيه.

إِلَّا أَنَا نَقُولُ أَنَّ الْوَصْفَ الَّذِي نَعْبَرُ عَنْهُ بِالْعَلَّةِ هُوَ مَا تَسْبِقُ بِالْإِيمَانِ الَّذِي مِنْ أَثَارِهِ الْهَجْرَةُ مَعَ الرَّسُولِ وَالْإِنْقِيَادَ وَالطَّاعَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَعَلَيْهِ فَنَ أَمِنَ بِالرَّسُولِ وَأَطَاعَهُ فِي جَمِيعِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مَدَّةَ وَجُودِهِ فَالْحَكَمُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ ثَابِتٌ لَهُ وَأَمَّا مَنْ أَمِنَ بِهِ ثُمَّ إِرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ فَلَا لَأَنَّ الْمَعْلُولَ يَنْتَفِي بِإِنْتِفَاءِ الْعَلَّةِ فَكَلَامُهُ بِالْمَغَالِطَةِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالْبَرْهَانِ فَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ يَشْمَلُهُ الْحَكَمُ بِالرِّضَا عَنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَجَزَاءُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا هَذَا مَا اسْتَفَدْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

فيه الترتيب في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ  
الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ  
عَظِيمٍ

كلمة، من في قوله تعالى: مِمَّنْ لِلتَّبَعِضِ وكلمة، من موصولة بمعنى الذي والتقدير و من الذين حولكم أي حول مدينتكم و حول الشئ المحيط به من الأعراب، من بيانة والأعراب هم الذين يسكنون البوادي والمعنى من الأعراب الذي يسكنون البادية حول المدينة منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق أي أقاموا على النفاق أي أن النفاق لا يختص بأهل البادية ولا بأهل المدينة فكما أن أهل البادية بعضهم من أهل النفاق وبعضهم ليس كذلك هكذا أهل المدينة بعضهم سلك مسلك الطغيان و دخل في النفاق.

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمُ الخطاب للنبي ﷺ أي أنت لا تعلم ونحن نعلم وذلك لأن النفاق من الأمور القلبية التي لا يعلمها إلا هو و من المعلوم أن النبي لا يعلم إلا ما علمه الله تعالى: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ إختلفوا في معنى قوله مرّتين، فقال بعضهم معناه في الدنيا بالقتل و السبي و في القبر.

و قال ابن عباس تعذيبهم في الدنيا بالفضيحة لأن النبي ذكر رجالاً منهم و أخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته و قال أخرجوا فأنكم منافقون، و العذاب الثاني في القبر.

و قال بعضهم إقامة الحدود عليهم في الدنيا و عذاب القبر بعد الموت.

و قال بعضهم يحتمل أن يكون لا يراد بها شفع الواحد بل يكون المعنى على التكاثر كقوله تعالى: ثُمَّ أَرْجَعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ<sup>(١)</sup> أي كرّة بعد كرّة كذلك يكون معنى هذا سنُعَذِّبُهُمْ مرّة بعد مرّة.

وأما قوله: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ فالمراد به عذابهم في جهنم بعد عذاب الدنيا و عذاب القبر و أنما وصفه بالعظمة إذ لا عذاب أشدّ و أوجع من عذاب جهنم أعادنا الله منه ففي الآية إشارة الى أن المنافق يعذب في الدنيا و

الأخرة وهو دليل على أن التفاق أعظم من الكفر و المنافق أخبث من الكافر و هو كذلك و السّر فيه هو أن المنافق في الحقيقة كافر في لباس الإسلام و الكافر كافر و هو في لباس الكفر و بينهما بونٌ بعيد.

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا ضَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله و من أهل الدينة أي و من أهل المدينة مردوا على التفاق و بقوا عليه الى أن قالوا و آخرون منهم إعترفوا بذنوبهم فرجعوا عما كانوا عليه من خلطهم العمل الصالح بالسّي فدخلوا في التّوايين فتاب الله عليهم أن الله غفورٌ رحيمٌ.

قيل نزلت في عشرة رهطٍ تخلّفوا عن غزوة تبوك فلما دنا الرّسول من المدينة وثق سبعة منهم و قيل كانوا ثمانية منهم كردم و مرداس و أبو قيس و أبو لبابة.

و قال أبو جعفر عليه السلام نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره و كان سبب نزولها فيه ما جرى منه في غزوة بني قريظة حين إستشاروه في النّزول على حكم سعد فأشار هو لهم الى حلقة يريد أن الرّسول يذبحهم إن نزلوا على حكمه فلما إفتضح تاب و ندم و ربط نفسه في سارية في المسجد و أقسم أن لا يطعم و لا يشرب حتّى يعفو الله عنه أو يموت فمكث كذلك حتّى عفى الله عنه و الأقوال في شأن نزولها كثيرة لا يهمنّا البحث فيها فإنّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد.

و الذي يستفاد منها هو أن النّاس بالنّسبة الى التّكاليف الشرعيّة على ثلاثة أصناف:

**الصنف الأول:** المطيعين لله و رسوله العاملين بأحكام الله المقرّرة لهم و هم الأقلّون.

**الثاني:** العصاة والطغاة والكفار والفساق الذين لا يعملون بالأحكام لعدم إيمانهم بالله ورسوله.

**الثالث:** من يطيع تارة ويعصي أخرى وهم أكثر المسلمين ونحن منهم. أمّا الصنف الأول والثاني فلا كلام لنا معهم فعلاً والآية الشريفة غير ناظرة إليهما وأما الكلام في الثالث والآية نزلت فيه وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ثم اعترفوا بذنوبهم فتابوا عنها.

ففي الآية إشارة إلى أن العاصي إذا أراد أن يتوب عن معصيته ينبغي له أن يعترف بذنبه أولاً قبل التوبة ثم يتوب عنها إذ لو لم يعترف به فعن أي شيء يتوب فإذا اعترف به وتاب عنه عسى الله أن يتوب عليه أي يجب لأن الترجي لا معنى له في حقه تعالى وهذا الوجوب عقلي لا شرعي وفي الآية أبحاث لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً.

**أحدها:** أن الاعتراف على ما قيل عبارة عن الإقرار بشيء عن معرفة فمعناه أنهم أقرّوا بذنوبهم وأنهم بنسما فعلوا في تخلفهم عن الجهاد أو مطلق المعصية.

**ثانيها:** أن الاعتراف والإقرار بالذنب لا يكون إلا إذا اقترن به الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل وكان هذا الندم والتوبة لأجل كونه منهياً عنه من قبل الله تعالى فكان هذا المجموع توبة قاله بعض المفسرين.

**ثالثها:** أن قوله تعالى: **خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** قالوا أنه إشارة إلى خروجهم مع الرسول في الغزوات وتخلفهم عن غزوة تبوك فعبر عن الخروج بالعمل الصالح وعن التخلف بالسّي وأنت ترى أن حمل الآية على العموم أولى وعليه فالمعنى أن من الناس من يعصي تارة ويطيع تارة أخرى كما هو حال أكثر الناس.

**رابعها:** أن في الآية دلالة بل صراحة على أن العاصي ينبغي أن يتوب عن ذنبه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولأجل ذلك قد حثّ الله تعالى عباده عليها في كثير من الآيات منها.



قال الله تعالى: أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ<sup>(٤)</sup>.

والآيات كثيرة و سيأتي منا البحث في التوبة مفصلاً في المستقبل إن شاء الله.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن يأخذ من أموالهم صدقة و أنها توجب التطهير و التذكية ثم أمره تعالى بالصلاة عليهم أعني بها الدعاء لهم و أنها أي الصلاة من الرسول تسكن بها نفوسهم و تطيب بها قلوبهم.

فالبحث في الآية يقع في مقامين:

**الأول:** قالوا أَلِ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: أَمْوَالِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى الَّذِينَ خَلَطُوا، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَصَدَّقْ بِهَا وَطَهِّرْنَا عَنِ الذَّنْبِ الَّذِي صَدَرْنَا لَتَخْلَفَ عَنِ الْجِهَادِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَمَرْتُ أَنْ آخِذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً فَنَزَلَتْ فَأَخَذَ الرَّسُولُ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ مِرَاعَةً لِقَوْلِهِ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَيَّ بَعْضِ أَمْوَالِهِمْ فَأَنْ كَلِمَةً، مِنْ، لِلتَّبَعِيزِ.

و قال آخرون و منهم ابن عباس الضمير عائد الى المتخلفين عن الجهاد دون الخالطين لأنهم تابوا عما فعلوا و خلطوا.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وفي المقام قول ثالث وهو أنها نزلت في الزكاة المفروضة وكيف كان يظهر من الآية أَنَّ الصَّدَقَاتِ توجب التَّطْهِيرَ وَالتَّزْكِيَةَ وهذا ممَّا لا خلاف فيه سواء كانت الصَّدَقَةُ مفروضة أم غير مفروضة.

أَنْ قلت ما الفرق بين التَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ فقد قال قوم تبرأوا منهما وَأَنْ معناهما واحد.

قلت ليس كذلك لِأَنَّ الطَّهَّارَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الطَّهْرِ يقال طهرت المرأة وطهرت خلاف طمئت فالطَّهَّارَةُ ضِدُّ الْخَبَائِثِ وَالنَّجَاسَةِ وَ الْقَذَارَةِ وَأَمْثَالِهَا وَهِيَ ضربان، طهارة جسم و طهارة نفس.

**الثاني:** هو المراد في الآية وَأَمْثَالُهَا فَأَنْ قوله: **تُطَهَّرُهُمْ** أي تطهر نفوسهم عن الأرجاس الباطنية المعبر عنها بالملكات الرذيلة والإعتقادات والصفات الخبيثة.

فقوله تعالى: **فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** <sup>(١)</sup> معناه مطهرات من درن الدنيا وأنجاسها أو من الأخلاق السيئة بدليل قوله، عرباً أتراباً، وقوله في صفة القرآن مرفوعة مطهرة، أي من المعاييب وقوله: **وَ عَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْنِنَا** <sup>(٢)</sup> أي من الأوثان فأنها من الأرجاس وهكذا.

وَأَمَّا الزَّكَاةُ فأنها عبارة عن النُّمُو الحاصل من بركة الله فتزكية النفس هي نموها الحاصل عن بركته إذا عرفت هذا.

فقوله: **تُطَهَّرُهُمْ** إشارة الى ما ذكرناه في معنى الطَّهَّارَةِ النَّفْسِيَةِ وَتَزْكِيَتِهِمْ، إشارة الى النُّمُو الحاصل للنفس ببركة الصَّدَقَةِ فَالصَّدَقَةُ توجب تطهير النفس وتزكيتها وهو المطلوب.

**المقام الثاني:** أَنْ قوله: **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** معناه أَدْعُ لَهُمْ بعد أخذ الصَّدَقَةِ مِنْهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّ دَعَاكَ سَكَنٌ لَهُمْ أي تسكن اليه نفوسهم و تطيب به لَأَنَّهُ كَاشَفَ عَنْ قَبُولِ صَدَقَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ.

قال بعض المحققين أنّ صلوات الرّسول و صلواة الله للمسلمين هو في التحقيق تزكية أيّاهم ومن الملائكة هي الدّعاء والإستغفار.

قال الرّازي في قوله: **إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ.**

**أقول** أنّ روح محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت روحاً قوياً مشرقة صافية باهرة فإذا دعى محمد لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوّته الرّوحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السّبب أرواحهم وصفت أسرارهم و أنتقلوا من الظّلمة الى النّور ومن الجسمانيّة الى الرّوحانية انتهى كلامه.

**وأنا أقول** لا شكّ لنا ولا لأحدٍ من المسلمين في قوّة روحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا أنّ هذا الموضوع خارج عن مورد البحث و تفسير الكلام لا يحتاج الى هذه التّأويلات الباردة التي لا يفهم معناها و أظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال و الحقّ أنّ يقال أنّ الرّسول تقرّبه الى الله و وساطته الى الخلق من جانب خالقه فإنّ دعاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقّهم في الحقيقة دعاء الله تعالى و إذ قلنا أنّ الدّعاء منه بمعنى الرّحمة كما هو الحقّ و قلنا أنّ دعاءه دعاء الله فالمعنى أنّ الرّحمة من الله تشملهم بواسطة الرّسول ولا شكّ أنّ عناية و رحمته توجب الطّمأنينة و السّكون في قلوب عباده كما قال تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** <sup>(١)</sup>.

**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**

الألف في قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** للإستفهام والمراد بها التّنبيه على ما يجب أن يعلم المخاطب إذا رجع الى نفسه و فكر فيما نبّه عليه وجوباً و أنما وجب أن يعلم أنّ الله يقبل التّوبة لأنّه إذا علم كان ذلك داعياً له الى فعل التّوبة و التّمسك بها و المسارعة اليها قاله الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في التّبيان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و نقل عن أبي مسلم أنه قال، قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** وأن كان بصيغة الإستفهام إلا أن المقصود منه التّقرير في النّفس و من عادة العرب في إزالة الشكّ عن المخاطب أن يقولوا أما علمت أن من علّمك يجب خدمته، أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره فبشّر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم ثمّ زاده تأكيداً بقوله: **هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ** انتهى.

ثمّ أن الظاهر من قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** بصيغة الغيبة أن الضمير عائد الى هؤلاء الذين تابوا يعني ألم يعلموا هؤلاء قبل أن يتاب عليهم و تقبل صدقاتهم، أن الله يقبل التوبة الصحيحة عن عباده و يقبل الصدقات الصادرة عن خلوص النية كذلك، و يتحمل أن يكون الضمير عائداً الى غير التائبين في المقام ترغيباً له في التوبة.

و ذلك لما روي عن رسول الله ﷺ أنه لما حكم بصفة توبتهم قال الذين لم يتوبوا، هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون و لا يحاسبون فنزلت هذه الآية.

و قال صاحب الكشاف، ألم يعلموا، بالياء و التاء، والوجه فيهما ظاهر. قال الزمخشري في الكشاف و قيل معنى التخصيص في هو، أن ذلك ليس الى رسول الله ﷺ أنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة و يردها فأقصده بها و وجهوها اليه انتهى.

أقول مراده بالتخصيص هو الذي يستفاد من قوله: **أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** و قد ثبت أن تقديم المسند اليه يوجب الحصر فكأنما حصر القبول في الآية لنفسه و هو كذلك و أنما أتى بكلمة، هو، بعد كلمة، الله، لتأكيد الحصر أي أن قبول التوبة منحصر به تعالى و السر فيه هو أن العبد قد عصى ربّه ثمّ ندم على ما فعل فاذا تاب يحتاج الى القبول و القبول لا يعقل إلا ممّن عصى العبد إياه و هو الله لا غيره فالقبول ينحصر به.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ مَعَ أَنَّ الْأَخِذَ هُوَ الرَّسُولُ فَالْوَجْهَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فَمَا أَخَذَهُ الرَّسُولُ أَخَذَهُ اللَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا أَنَّ أَمْرَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَنَهْيُهُ نَهْيُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ طَاعَةُ اللَّهِ وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَةُ اللَّهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ فَذَكَرَ الرَّحِيمَ، بَعْدَ التَّوَابِ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نَكْتَةٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ مَنَشَأَ قَبُولِ التَّوْبَةِ هُوَ الرَّحْمُ وَالشَّفَقَةُ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ مُجْبُوراً عَلَى قَبُولِ تَوْبَةِ الْعَبْدِ بَلْ هُوَ مُخْتَارٌ إِنْ شَاءَ قَبْلَ وَ إِنْ لَمْ يَشَأْ فَلَا إِلَّا أَنَّهُ يَقْبَلُ لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ تَوْجِبُ قَبُولَ التَّوْبَةِ وَ هَذَا مِنْ لَطَائِفِ الْكَلَامِ.

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَيُّ لِلْمُعْتَذِرِينَ التَّائِبِينَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى قَوْلٍ وَ لِلْمُعْتَذِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا عَلَى قَوْلٍ آخَرَ، وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ جَمِيعاً عَلَى قَوْلٍ ثَالِثٍ (إِعْمَلُوا) بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ الطَّاعَةِ وَاجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ فَإِنَّ اللَّهَ سِيرَى عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ.

وَ قِيلَ هُوَ أَمْرٌ ضَمَّنَهُ الْوَعِيدُ وَ التَّهْدِيدُ وَ الْمَعْنَى إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الرُّؤْيَةِ فَقِيلَ هِيَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْمَعْرِفَةُ وَ لِذَلِكَ عَدَّاهُ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَلَوْ كَانَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ بِمَعْرِفَةٍ لَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى فَسِيرَافَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ.

وَ اسْتَدْلُوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْعِلْمَ لَعَدَّاهُ إِلَى الْجُمْلَةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ مَا كَانَ بِمَعْنَى الظَّنِّ وَ هُوَ لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ وَ أَيْمًا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا كَانَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ هَذَا.

أَقُولُ وَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلُوا مَا رَوَى فِي الْخَبَرِ مِنْ أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَعْرَضُ عَلَى النَّبِيِّ فِي كُلِّ أَثْنَيْنِ وَ خَمِيسٍ فَيَعْلَمُهَا وَ كَذَلِكَ تَعْرَضُ عَلَى الْأُتَمَّةِ فَيَعْرِفُونَهَا وَ هُمُ الْمُعْنِيُونَ بِقَوْلِهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ.

إن قلت لم قال فسيرى الله على وجه الإستقبال و هو عالم بالأشياء قبل وجودها.

قلت لأن المراد بذلك أنه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة فكونه عالماً بوجودها اذا وجدت لا يجدد حال له بذلك.

وقوله: وَ سَتَرْدُونِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الى آخر الآية. معناه سترجعون الى الله الذي يعلم السر والعالية فينبئكم أي فيخبركم بأعمالكم في دار الدنيا و يجازيكم عليه.

وإعلم أن الرازي في تفسير الآية سلك مسلكاً آخر فقال ما هذا لفظه:

**المسألة الثانية:** دلت الآية على مسائل أصولية:

**الحكم الأول:** أنها تدل على كونه تعالى رانياً للمرئيات لأن الرؤية المعداة الى مفعول واحد هي الإبصار والمعداة الى مفعولين هي العلم كما تقول رأيت زيداً فقيهاً و هاهنا الرؤية معداة الى مفعول واحد فتكون بمعنى الإبصار يدل على كونه مبصراً للأشياء.

كما أن قول إبراهيم لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر يدل على كونه تعالى مبصراً و رانياً للأشياء و مما يقوي أن الرؤية لا يمكن حملها هاهنا على العلم أنه تعالى وصف نفسه بالعلم بعد هذه الآية فقال: وَ سَتَرْدُونِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ و لو كانت هذه الرؤية هي العلم لزم التكرار الخالي عن الفائدة باطل انتهى.

**أقول** أما ما ذكره من أن المراد بها ليس العلم فإن كان مراده بالعلم العلم المصطلح فلا كلام لنا فيه وأن كان العلم المطلق فهو أول الكلام فإن العلم بمعنى المعرفة تطلق الرؤية عليه و هو المراد في المقام.

سلمنا لكن نقول أن الله تعالى مبصر للأشياء و هو مما لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً.

**الحكم الثاني:** قال مذهب أصحابنا أن كل موجود فأنه يصح رؤيته و احتجوا عليه بهذه الآية و قالوا قد دللنا على أن الرؤية المذكورة في هذه الآية معدة الى مفعول واحد و القوانين اللغوية شاهدة بأن الرؤية المعدة الى المفعول الواحد معناها الإبصار فكانت هذه الرؤية معناها الإبصار ثم أنه تعالى عدى هذه الرؤية الى عملهم و العمل منقسم الى أعمال القلوب كالإرادات و الكراهات و الأنظار الى أعمال الجوارح كالحرركات و السكنات فوجب كونه تعالى رائيًا للكل و ذلك يدل على أن هذه الأشياء كلها مرئية لله تعالى أنتهى.

و الجواب أن قوله كل موجود فأن يصح رؤيته، أن كان مراد بالرؤية بالبصر كما في حق المخلوق.

فهو أول الكلام و عليه بالإثبات و أن كان المراد بها الرؤية العلمية أعني بها المعرفة فهو صحيح و بعبارة أخرى كون الرؤية المعدة الى المفعول الواحد معناها الأبصار بالعين و الحاسة فهو مما لم يثبت و لا هو قابل للإثبات و كيف يقال أن كل موجود فأنه يصح رؤيته بالبصر.

و نحن نعلم أن النفس موجودة و العقل موجود و الملك موجود والله تعالى موجود مع أن الرؤية بالبصر في أمثال ذلك محال أليس من شرائط تحقق الرؤية بالبصر محاذاة المبصر للمبصر و كون المبصر في الواضع و الجهة مثلاً فإذا كان الموجود خارجاً عن شرائط تحقق الأبصار فكيف يقال تصح رؤيته.

نعم الرؤية بمعنى المعرفة محققة قطعاً و هو المطلوب.

فمعنى الأبصار في حقه تعالى هو علمه أي معرفته بالمبصرات كما أن معنى السمع في قوله: سميع مثلاً هو علمه بالمسموعات و معنى رؤيته تعالى هو علمه أي معرفته بالمرئيات و هكذا فإن كان مراد بالأبصار هو هذا المعنى فهو متين و أن كان مراد من الأبصار الرؤية نجاسة البصر فنعوذ بالله منه.

ثم أنه نقل عن حكماء الإسلام أنهم قالوا فسيرى الله عملكم، إشارة الى الثواب الروحاني، و أوضح هذا الكلام بما لا فائدة فيه.

أقول ما نقله عن حكماء الإسلام لا نفهم معناه ولا نعرف حكيمًا قال بذلك والعهد عليه ولكن نقول هذا الذي ذكره خلاف ظاهر الآية بل هو أجنبي عنه فلا يصح تفسير كلام الله به والله أعلم بحقائق الأمور.

وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرأ أهل المدينة (مرجون) بغير همزة، والباقون بالهمزة والوجه فيهما أنهما لغتان يقال أرجئت وأرجيت بمعنى واحد أعلم أن الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ على أقسام:

**أولهم:** المنافقون الذين مردوا على النفاق

**الثاني:** التائبون وهم المرادون بقوله: **أَخْرُونَ** اعترفوا بذنوبهم وبين تعالى أنه قبل توبتهم.

**و القسم الثالث:** الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون في هذه الآية والفرق بين القسم الثاني والثالث أن أولئك سارعوا إلى التوبة فتابوا وهؤلاء لم يسارعوا إليها هكذا قيل ثم أن هذه الآية عطف على قوله ومن أهل المدينة مردوا على النفاق.

و آخرون اعترفوا بذنوبهم والمعنى، وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ، يعذبهم الله أن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، وإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، أن تابوا قيل وهم ثلاثة، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحدا لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله قاله في الكشف.



و عن مجاهد و قتادة أنها نزلت في هلال بن أمية و فزارة بن ربيعي و كعب بن مالك من الأوس و الخزرج و كان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه و أتما تخلف توانياً عن الإستعداد حتى فاته المسير و إنصرف رسول الله و لم يعتذر اليه بالكذب و قال و الله مالي عذر فقال ﷺ صدقت فقم حتى يقضي الله فيك و جاء الرجال الأخران فقالا مثل ذلك و صدقا فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم بعد ما عذر المنافقين و جميع المتخلفين و كانوا نيئاً و ثمانين رجلاً فأقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم و نساءهم طاعة لرسول الله ﷺ بأمره و بنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وعده ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يتبذرونهم و يبشرونهم قال كعب فجئت الى رسول الله في المسجد و كان اذا سرّ يستبشر كأن وجهه فلقة قمر فقال لي و وجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمك قال كعب فقلت له أمن عند الله أو من عندك يا رسول الله ﷺ قال فقال من عند الله و تصدق كعب بثلاث ماله شكراً لله على توبته.

و أنا أقول و نحن أيضاً من مصاديق هذه الآية فأنا قد تخلفنا عن الجهاد النفساني و كنا مأمورين به و لا نعلم أن الله تعالى يعذبنا أو يتوب علينا فأن عذبنا فبعده و إن عفى عنا فبفضله و حيث ثبت أنه تعالى دائم الفضل على البرية نرجو منه العفو و الله عليهم حكيم.

عليهم بما يؤل اليه حالنا، حكيم بما يفعله بنا يوم القيامة و الأمر اليه و لا حول و لا قوة إلا به.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَ  
تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا  
الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا  
تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ  
أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ  
أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ  
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ  
أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ  
بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً  
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ (١١٠) إِنْ اللَّهُ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي  
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ  
مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ  
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) الَّذِينَ لَا يُعَابِدُونَ  
الْأَحْمَادُونَ السَّائِحُونَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ  
الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ  
الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

## ◀ اللغة

ضِرَارًا بكسر الضاد أي مَضَارَة والضَّرار هو طلب الضر ومحاولته كما أنَّ الشَّقاق محاولة ما يشقّ تقول ضارّة مضارة ضراراً.

شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ، الشَّفَا بفتح الشين الحرف والشِّفير وجرف الوادي جانبه الَّذِي يَتَحَضَّر أصله بالماء و تجرّفه السيول فيبقى واهياً، و الهار الهائر وهو المتصدع الَّذِي أَشْفَى على التَّهَرَم والسَّقُوط و ألفه ليست بألف فاعل أنما هي عينه و أصله هور و المعنى كأنه أسسّ بنياناً على شفا جرفٍ من أودية جهنّم فإنهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها.

رَيْبَةً، الرَّيْبَةُ بفتح الراء الشكّ.

## ◀ الإعراب

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ (وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ) أَيِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ قَوْلُهُ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ أَيِ مِنْهُمْ فَحَذَفَ الْعَائِدُ لِلْعِلْمِ بِهِ وَ قَدْ يُقْرَأُ بِغَيْرِ وَاوٍ وَعَلَيْهِ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَ الْخَبَرُ مَا تَقَدَّمَ ضِرَارًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا لِاتَّخَذُوا وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ وَ هَذِهِ الْمَصَادِرُ كُلُّهَا وَاقِعَةٌ مَوْضِعَ إِسْمِ الْفَاعِلِ أَيِ مَضَرًّا أَوْ مَفْتَرَقًا وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا مَفْعُولًا لَهُ لِمَسْجِدٍ اللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ وَقِيلَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ وَ أُسِّسَ نَعَتْ لَهُ مِنْ أَوَّلٍ يَتَعَلَّقُ بِأُسِّسَ وَ الْخَبَرُ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ وَفِيهِ الْأَوَّلَى تَتَعَلَّقُ بِتَقُومَ وَ التَّاءُ خُطَابٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ رِجَالٌ صَفَةُ لِمَسْجِدٍ جَاءَتْ بَعْدَ الْخَبَرِ عَلَى التَّقْوَى فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، أُسِّسَ أَيِ عَلَى قَصْدِ التَّقْوَى جُرْفٍ بِالضَّمِّ وَ الْإِسْكَانِ وَ هُمَا لَغْتَانِ وَ فِي هَارٍ وَجْهَانِ:

أحدهما: أصله هور أو هير.

الثاني: أن يكون أصله هاوراً و هائراً وَعَدًّا مُصْدَرٌ أَيِ وَعَدَهُمْ بِذَلِكَ وَعَدًّا وَ

حَقًّا صِفَةُ التَّائِبِينَ بِالرَّفْعِ أَيِ هُمُ التَّائِبُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأُ وَ الْخَبَرِ  
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ مَا بَعْدَهُ.

### التفسير

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ  
إِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

قرأ ابن عامر و أهل المدينة الَّذِينَ اتَّخَذُوا، بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ وَ الْبَاقُونَ بِإِثْبَاتِهَا  
فَمَنْ أَثْبَتَهَا عَطَفَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ وَ تَقْدِيرُهُ وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا  
مَسْجِدًا ضُرَارًا، وَ مِنْ أَسْقَطَهَا إِبْتَدَأَ الْكَلَامَ وَ حَذَفَ الْخَبَرَ لَطُولِ الْكَلَامِ وَ  
الْمَشْهُورِ إِثْبَاتِهَا وَ عَلَيْهِ الْمَصَاحِفُ فِي زَمَانِنَا هَذَا.

قِيلَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

قَالَ الْفَرَاءُ كَانُوا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَ قَالَ غَيْرُهُ كَانُوا مِنْ بَنِي  
غَنَمٍ مِنْ عَوْفٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَ قِيلَ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَفِيلٍ.

وَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ هُوَ نَفِيلُ بْنُ الْحَارِثِ وَ لَمْ يَذْكُرْ عَبْدُ اللَّهِ وَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ  
فِي إِسْمِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَنْتَقِلُ حَدِيثَ النَّبِيِّ إِلَى الْمُنَافِقِينَ.

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهَ ذَلِكَ وَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ بَنُوا الْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَوْهُ ضُرَارًا أَيْ  
مَضَارَةً قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ.

أَقُولُ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ بَيَّنَّ لِرَسُولِهِ أَوْصَافَهُمْ  
الذِّمِيمَةَ وَ أَنََّّهُمْ عَلَى أَصْنَافٍ وَ أَقْسَامٍ ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ بَالِغٌ فِي الشَّرِّ حَتَّى يُبْتَنَى  
مَجْمَعًا لِلْمُنَافِقِينَ يَدْبُرُونَ فِيهِ مَا شَاءُوا مِنَ الشَّرِّ وَ سَمُّوهُ مَسْجِدًا وَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا  
بَنَى عَمْرِو بْنُ عَوْفٍ مَسْجِدَ قَبَاءَ.

وَ قَدْ نَقَلَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَ يَزِيدُ بْنُ  
رُومَانَ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ وَ غَيْرُهُمْ قَالُوا: أَقْبَلَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، بَلَدٌ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ مَدِينَةِ سَاعَةِ

من نهار و كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه و هو يتجهز الى تبوك فقالوا يا رسول قد بنينا مسجداً لذي العلة و الحاجة و الليلة المطيرة و الليلة الشتائية و أنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال ﷺ أتني على جناح سفر و حال شغل و لو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال إنطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله و أهدماه و حرّقه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف و هم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنني حتى أخرج البك بنار من أهلي فدخل على أهله فأخذ سفعاً من النخل فأشتعل فيه ناراً ثم خرجا ليشتدان حتى دخلا المسجد و فيه أهله فحرّماه و هدماه و تفرّقوا عنه و نزل فيهم من القرآن ما نزل و الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضَرَاراً و كان الذين بنوه إثني عشر رجلاً خدام بن خالد بن عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف و من داره أخرج مسجد الشقاق، و ثعلبة بن حاطب من بني عبيد، و هو الي بني أمية بن زيد، و معتب بن قيسر من بني ضبيعة بن زيد، و أبو جيئية بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد و عباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من عمرو و جارية بن عامر و إبنه مجمع بن جارية و زيد بن جارية و نبثل بن الحرث و هم من بني ضبيعة و نجدج و هو الي بني ضبيعة و بجاد بن عثمان و هو من بني ضبيعة و وديعه بن ثابت و هو الي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

ثم قال الطبري فتأويل الكلام، و الذين إبتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله و كفراً بالله لما حدثهم بذلك رسول الله ﷺ و يفرّقوا به المؤمنين ليصلي في بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ و بعضهم في مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك و يفرّقوا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وَ إِزْصَادًا لِمَنْ خَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

إشارة إلى قصة أبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما وقاتل رسول الله ﷺ من قبل بناءهم ذلك المسجد وذلك أن أبا عامر كان حزب الأحزاب لقتل رسول الله فلما خذله الله لحق بالرُّوم يطلب النصر من قيصر ملك الرُّوم على نبي الله وهو الذي كتب إلى أهل مسجد الضرار وأمرهم ببناء المسجد ليصلي فيه إذا رجع اليهم ففعلوا ذلك وهذا معنى قوله وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أي وليحلفن بانوه إن أردنا أي ما أردنا إلا الحسنى أي ما أردنا من بناءنا المسجد إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه وتلك هي الفعل الحسنة فقال تعالى: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ في حلفهم ذلك وقولهم ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى ولكنهم بنوه يريدون به السَّوَايَ ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفراً بالله وتريقاً بين المؤمنين وإرساداً لأبي عامر الفاسق هذا ما ذكره في تفسير الآية.

وأعلم أن الله تعالى ذكر هذه القصة وغيرها من القصص في كتابه العزيز، لنكتة وهي تنبيه المسلمين وإرشادهم بأن يعتبروا بها واليها الإشارة بقوله: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> إذا عرفت هذا فنقول. لا شك لنا ولا لأحد من أهل العلم والفهم من المسلمين أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه لكونه جامعاً لما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة فهو أكمل الأديان وأفضلها وأشرفها وأحقّ بالإتباع من جميع الأديان:

قال الله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ <sup>(٣)</sup>.

و من المعلوم المسلم عند الكل أن الإسلام من بدو ظهوره كانت له أعداء من اليهود والنصارى والمجوس و عبدة الأوثان و بالجملة جميع فرق الكفار والمعاندين الذين بقوا على كفرهم و عنادهم و لم يؤمنوا بالله وبرسوله بل حاربوا رسول الله في بدر و أخذوا حنين و غيرها من الغزوات حتى خذلهم الله و شردهم أو قتلهم بسيف أمير المؤمنين و سائر المسلمين كلام لنا فيهم فعلاً.

و أما الكلام فيمن أسلم منهم ظاهراً لما عجزوا عن القتال أو علموا أن القتال لا نفع لهم فيه فدخلوا في الإسلام ليحاربوا المسلمين في لباس الإسلام وهؤلاء يعبر عنهم بالمنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فيحاربون الدين بالدين و القرآن بالقرآن و الصلاة بالصلاة و المسجد بالمسجد و هكذا سيرة خبيثة شيطانية إستمرت من صدر الإسلام الى زماننا هذا و الظاهر أنها تكون كذلك الى يوم ظهور الحجة المنتظر سلام الله عليه.

و إذا كان الرسول ﷺ و هو كان لا يعرفهم لقوله تعالى: لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ<sup>(١)</sup> فما ظنك بسائر الناس الذين أكثرهم لا يعقلون أعاذنا الله من شرور آفاتهم بحق محمد و آله.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ و هو مسجد قبا أسسه رسول الله ﷺ و صلى في أيام مقامه و بقاء و هي يوم الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و خرج يوم الجمعة و قيل المراد به مسجد الرسول لأنه روي عنه ﷺ لما سأل عن المسجد الذي أسس على التقوى، قال ﷺ هو مسجدي هذا و الظاهر أن المراد مسجد قباء لأن الموازنة بين مسجد قباء و مسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول و مسجد الضرار يهمننا البحث فيه لأن مسجد الرسول أيضاً كذلك و لا فرق

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

الحمد لله

بينهما من هذه الجهة أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أَيَّ أَنْ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى أَحَقُّ وَأَجْدَرُ أَنْ يَقُومَ فِي الصَّلَاةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا مِنَ الذُّنُوبِ بِالْمَاءِ مِنَ الْغَائِطِ وَالبَوْلِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الذُّنُوبِ وَكَذَلِكَ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ النَّجَاسَةِ بِالْمَاءِ.

وَرُوي عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِأَهْلِ قَبَاءَ، مَاذَا تَفْعَلُونَ فِي طَهْرِكُمْ فَأَنَّ اللَّهَ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ الشَّيْءَ قَالُوا نَغْسِلُ الْغَائِطَ فَقَالَ ﷺ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ وَفِي الْآيَةِ نَكَاتٌ لَا يَأْسُ بِالإِشَارَةِ إِلَيْهَا.

**الأولى:** قوله لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا قَالُوا الْقِيَامُ هَذَا الصَّلَاةُ إِذْ قَدْ يَعْبُرُ عَنْهَا بِهِ يَقَالُ فَلَانْ يَقُومُ بِاللَّيْلِ أَوْ قَائِمَ اللَّيْلِ أَيَّ لِيَصَلِّيَ فِيهِ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ مَنْ أَقَامَ الْفَرَاضَ فَلَهُ كَذَا وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: لَا تَقُمْ فِيهِ مَعْنَاهُ لَا تَصَلِّيَ فِيهِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَبَدًا دَائِمًا لِأَنَّهُ ظَرْفُ زَمَانٍ وَظَرْفُ الزَّمَانِ عَلَى قَسْمَيْنِ:

ظَرْفٌ مُقَدَّرٌ كَالْيَوْمِ، وَظَرْفٌ مُبْهَمٌ كَالْحَيْنِ وَالْوَقْتِ وَالْأَبَدِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنْ أَبَدًا وَأَنْ كَانَتْ ظَرْفًا مُبْهَمًا لَا عُمُومَ فِيهِ وَلَكِنَّهُ إِذَا إِنْصَلَّ بِلَا النَّافِيَةِ أَفَادَ الْعُمُومَ فَلَوْ قَالَ لَا تَقُمْ لَكُنِيَ فِي الْإِنْكَفَافِ الْمَطْلُوقِ فَإِذَا قَالَ أَبَدًا فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَا فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

وَأَمَّا التَّكْرَرُ فِي الْإِثْبَاتِ إِذَا كَانَتْ خَبْرًا عَنْ وَاقِعٍ لَمْ تَعَمْ.

**الثاني:** قوله لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ قِيلَ أَيَّ بَنِيَتْ جِدْرُهُ وَرَفَعَتْ قَوَاعِدُهُ وَالْأُسُسُ أَصْلُ الْبِنَاءِ وَكَذَلِكَ الْأَسَاسُ، عَلَى التَّقْوَى أَيَّ الْإِخْلَاصِ مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِ تَعَالَى وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى، أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الْبَانِي الْمَوْسَسِ تَرْوِيجَ الدِّينِ وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَتَعْظِيمَ الشَّعَائِرِ وَالْجَامِعُ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى لَا الرِّيَاءَ وَالتَّفَاقُ وَتَفْرِيقَ الْكَلِمَةِ وَإِجَادَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا عَرَفَتْ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ وَهَذَا أَيَّ بِنَاءِ



العمل على التقوى لا يختص بالمسجد بل هو مطلوب في جميع الأعمال لقوله تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** <sup>(١)</sup> وفي قوله: **مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** إشارة إلى أن المسئس ينبغي له مراعاة التقوى من يوم الشروع إلى آخر الأمر وفي قوله: **أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** إشارة إلى أن فعل النبي حجة فلو صلى في مسجد الضرار مثلاً يعلم منه صحة الصلاة فيه وهو كما ترى ويشير إلى هذا المعنى كلمة، أحق، أي أجدر وأليق بمقام الرسول وهو الأسوة في فعله وقوله وتقريره هو عدم القيام فيه للصلاة، واللام في قوله: **لَمَسْجِدٍ** لام قسم وقيل لام الابتداء كما تقول لزيداً أحسن الناس قولاً أو فعلاً وهي مقتضية للتأكيد.

**الثالثة:** قوله **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ** هذا كلام بمنزلة التعليل للحكم فكأنه قال قائل لم يكون القيام للصلاة في المسجد الذي أسس على التقوى أحق وأجدر فقال تعالى فيه رجال الخ. والتقدير لأن فيه رجالاً كذلك وقوله **يُحِبُّونَ** أن يتطهروا معناه يحبون أن يتطهروا من الذنوب والخطايا فأنها من الأرجاس والخبائث الباطنية وتركها والإجتناب منها بمنزلة التطهير كيف وهو تطهير النفس عن الرذائل. ومن المعلوم أن تطهير النفس أنفع وأفضل من تطهير الجسد والدليل على ما قلناه هو قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** <sup>(٢)</sup> ولا شك أن ذكر الطهارة بعد التوبة دليل على ما ذكرناه أي أن التوبة توجب التطهير من الذنوب.

**الرابعة:** قوله **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ** أي أن الله تعالى ينعم عليهم لأن محبة الله للعبد إنعامه عليه ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه فإذا كان العبد مطيعاً لله تعالى متصفاً بالصفات الحسنة المطلوبة للشارع فالله تعالى يحبه أي يكرمه وينعم عليه في الدنيا والآخرة وإذا كان مطيعاً للشيطان عاصياً ربه

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



الجزء ١١

مَتَّصِفًا بِالْصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ الْخَبِيثَةِ فَهُوَ تَعَالَى يَبْغُضُهُ أَيْ لَا يَنْعَمُ عَلَيْهِ بَلْ يَكْهِنُ إِلَى نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ تَرَى فِي الْقُرْآنِ مَا يُشِيرُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَأَصْلُنَاهُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ<sup>(٣)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ<sup>(٤)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ فِي الْعَاصِينَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ<sup>(٦)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا<sup>(٧)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا<sup>(٨)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ<sup>(٩)</sup>.

وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لَهُ تَعَالَى فَلْيَتَّخِذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا.

أَقَمْنَ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ  
بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

قَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ عَبَّاسٍ أُسِسَ بِضَمِّ الهمزة وكسر السين ورفع النون في بنيانه،  
والباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه.

١- التوبة = ٤

٢- آل عمران = ١٤٦

٣- المائدة = ٤٢

٤- النساء = ٣٦

٥- المائدة = ٦٤

٦- البقرة = ١٩٥

٧- آل عمران = ١٩٥

٨- آل عمران = ٧٥

٩- النساء = ١٠٧

و قرأ ابن عامر جُرْفٍ بسكون الراء و الباقون بضمها، فمن قال في أسس، بفتح الهمزة جعل قوله: بُنْيَانُهُ مفعولاً فلاجرم فتح التّون و عليه فالخير يرجع الى المؤسس لا الى المؤسس أعني به المسجد و هكذا في الجملة الثانية و عليه فالمعنى أنّ من أسس بنيان المسجد على تقوى من الله و رضوان خيرٌ أم من أسس بنيان المسجد على التّفاق مثلاً هذا معنى الكلام بناءً على الفتح بناءً على الضّم فالخير يرجع الى المؤسس أعني به المسجد و المعنى أنّ المسجد الذي بني على التقوى خيرٌ أو المسجد الذي بني على شفا جرفٍ هارٍ.

و أنت ترى أنّ المعنى الثاني أعني به ضمّ الهمزة لا يستقيم لأنّ المسجد ليس من ذوي العقول بل هو داخل في غير ذوي العقول فلو كان المعنى ما ذكره و كان اللازم أن يقال أفما أسس، بدل قوله أفمن أسس و لم يقل ذلك اللهم إلا أن يقال في معنى الكلام أفمن أسس بنيانه أي بنيان المؤسس لا بنيان المسجد أي أنّ المؤسس المتقي خير من المتقى و هذا التفسير و أن كان ممكناً في ظاهر الأمر إلا أنّه عند الدقة أيضاً لا يستقيم في المقام لأنّ الذين بنوا مسجد رسول الله كانوا كمن بنى مسجد الضرار من هذه الجهة أي من حيث البنيان و الأصل أي أصل الولادة و ملخص الكلام هو أنّه بناء على ضمّ الهمزة فالهاء في قوله: بُنْيَانُهُ بم يرجع.

فأن قالوا يرجع الى المسجد الذي مضى ذكره في الآية السابقة في قوله لمسجد أسس على التقوى، كما هو الظاهر فكان حقّ العبارة أن يقال أفما أسس بنيانه على التقوى، لتكون كلمة، ما، كناية، عن المسجد و مرجعاً للتصميم الرجوع اليه.

و أن قالوا يرجع الى، من، في قوله: أَفَمَنْ فيصير المعنى أفمن أسس بنيانه أي بنيان المؤسس و المفروض أنّ كلّهم من هذه الجهة كانوا على حدّ سواء أي إنعقدت نظفتهم على الشّرك اللهم إلا أن يراد بالبنيان شيئاً آخر لا نفهم معناه فثبت و تحقّق أنّ الحقّ هو فتح الهمزة.

نعم على قول من يقول بأن كلمة، من، تشمل ذوي العقول و غير ذوي العقول فتطلق على المسجد كما تطلق على باني المسجد فلا إشكال في تلك القراءة و ليس هذا القول بعيداً من الصواب لأن العرب يقول من كان ناطقاً خير ممن لم يكن كذلك و كيف كان فالقراءة على الفتح أولى منها على الضم كما هو الأشهر و عليها المصاحف ولنرجع الى تفسير الآية و نقول:

قوله: أَقَمْنِ أَسَسَ به صورة الإستفهام و معناه التّقرير و الإنكار أي ليس كذلك، لأن من أسس بنیان المسجد على تقوى من الله و الرضوان، ليس كمن أسس بنیان مسجده على التّفاق و الظلم و تفریق الكلمة و هذا معلوم إلاّ أنّه لا بدّ لنا من توضيح بعض كلمات الآية:

منها، قوله: بُنْيَانُهُ الثّينان بضمّ الباء على ما قيل مصدر و هو جمع و الواحد بنيانة، قال الشاعر:

كبنيانة القرى موضع رحلها      وأثار نعيها من الدّف أبلقُ

و جاء بناء المصادر على هذا المثال في غير هذا الحرف نحو الغفران قالوا و ليس بنیان جمع بناء.

و قال بعضهم البناء و البنية مصدران و من ثمّ قول به الفراش في قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً<sup>(١)</sup>.

و منها، قوله: شَفَا جُرْفٍ هَارٍ الشّفا بفتح الشّين الحرف و الحدّ قال الشاعر:

نحن حضرنا للحجيج سحله      نابتة فوق شفاها بقلّة

يقال أشفى على الشّيء أي أشرف عليه و منه أشفى المريض على الموت و ما بقي منه إلاّ شفاً، أي قليل و الأصل في شفا، شفوا ولهذا يكتب بالالف يمال.

قال الأخفش لمّا تجر فيه الإمالة عرف أنّه من الواو.

و منها، و قوله: جُرْفٍ بضمّ الرّاء و إسكانها مثل شغل و شغل و الرّسل و الرّسل يعني جرفاً ليس له أصل و الجرف ما يتجرّف بالسيول من الأودية

جوانبه التي تنحصر بالماء وأصله من الجرف والإجتراف وهو إقتلاع الشئ من أصله (هار) أي ساقط يقال تهوّر البناء اذا سقط وأصله هائر فهو من المقلوب يقلب و تؤخر ياؤها فيقال هار.

ومنها، قوله: فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فاعل إنهار الجُرف كأنه قال فإنهار الجُرف بالبنين في النار لأن الجرف مذكر ويجوز أن يكون الضمير في (به) يعود على (من) وهو الباني والتقدير فإنهار من أسس بنيانه على غير تقوى وهذه الآية ضرب مثل لهم أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والتفاق و بين فيها أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهوّر بأهله فيها ولاشفا الشفير وأشفى على كذا أي دنا منه.

إذا عرفت معنى اللغات فيها فيصير معنى الآية هكذا، أقمّن أسس بنيانه على تقوى من الله و رضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار كناية عن أن بانيه كان غير متقٍ فإنهار به في نار جهنم والإنهيار السقوط والله لا يهدي القوم الظالمين وعلى هذا فشبه الله تعالى بنیان هؤلاء المنافقين مسجد الضرار ببناء يبنى على شفير جهنم فإنهار ذلك البناء بأهله فيها.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرأ ابن عامر و حمزة و حفص و أبو جعفر و يعقوب تَقَطَّعَ بفتح التاء و الباقون بضمها، أي لا يزال بناء المبنى الذي بنوه ريبة في قلوبهم أي شكاً فيها فيما كان من إظهار إسلامهم و ثباتاً على التفاق الى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلوى.

و قال ابن عباس معناه لا يزالون شاكين و قيل حسرة و ندامة لأنهم ندموا على بنيانه.

و قال الرازي جعل نفس البنين ريبة لكونه سبباً لها و كونه سبباً لها أنه لما أمر بتخريب ما فرحو ببناءه ثقل ذلك عليهم و ازداد بغضهم له و إرتياهم في نبوته.

و قرأ الحسن و يعقوب و أبو حاتم الى أن تَقَطَّعَ على الغاية و عليه  
فالمعنى لا يزالون في شك منه الى أن يموتوا.  
و محصل الكلام هو أنهم كانوا شاكِّين في هذا الأمر كما هو شأن المنافق و  
هذا الشك ثابت في قلوبهم الى أن يموتوا.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ  
لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى فيما مضى من الآيات أوصاف المنافقين شرع في بيان  
أوصاف المؤمنين و هم الذين آمنوا بالله و برسوله حقاً ظاهراً و باطناً و أثبتوا  
إيمانهم بأعمالهم فقال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
من المعلوم أن حقيقة الإشتراء لا يجوز على الله تعالى لأن المشتري يشتري ما  
لا يملك و هو تعالى مالك الأشياء كلها و لما كان الله تعالى رغب في الجهاد و  
قتال الأعداء و ضمن على ذلك الثواب عبّر عن ذلك بالإشتراء فجعل الثواب  
ثمناً و الطاعات مثمناً على ضربٍ من المجاز و كما أن في مقابلة الطاعة الثواب  
فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أن الثواب مقترن بالإجلال و الإكرام و  
العوض خالٍ منهما هكذا قيل و عليه فقوله هذا من قبيل قوله تعالى: مَنْ ذَا  
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا<sup>(١)</sup> مع أنه تعالى غني بالذات يحتاج الى  
الاستقراض.

ثم أن المشتري في الآية الأنفس و الأموال والوجه فيه هو أن الجهاد يحتاج  
الى النفس و المال و لا يتحقق بغيرهما فاذا كان المؤمن باذلاً نفسه و ماله في  
إعلاء كلمة الحق و إذلال أعداءه فهو المجاهد حقاً، و يتحمل أن يكون الوجه  
في إختصاصهما بالذكر أن أعز الأشياء عند الإنسان نفسه ثم ماله لأنه يفدي  
بماله لحفظ نفسه ثم جعل الله ثمن هذه المعاملة الجنة فقال بأن لهم الجنة  
ثمن أعلى منها.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

أي أنهم يقاتلون الكفار فيقتلونهم أو يقتلون بأيدي الكفار وكلاهما حسن لأن الجنة ثابت لهم على التقديرين.

وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْأَقْرَانِ

وعداً، نصب على المصدر بما دل عليه إشتري اذ يدل على أنه وعد والوعد خبرٌ بما يفعله المخبر من الخير بغيره كما أن الوعيد خبرٌ بما يفعله المخبر من الشر بغيره.

قال الزمخشري أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته في التوراة والإنجيل والقرآن انتهى.

أقول قوله: حقاً أيضاً منصوب على المصدر أو على أنه حال أي أن الثواب حق لهم في كل عصر و زمان بحكم جميع الأديان.

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْلَى بِوَفَاءِ الْعَهْدِ مِنْ غَيْرِهِ فَالْأَحَدُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ بِهِ مِنْهُ وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنَّ نَقْضَ الْعَهْدِ قَبِيحٌ عَقْلاً وَهُوَ مُنْزَعٌ مِنَ الْقَبَائِحِ وَأَمَّا قُلْنَا نَقْضَ الْعَهْدِ قَبِيحٌ عَقْلاً لِأَنَّهُ كَاشَفٌ عَنِ الْكَذِبِ وَالنَّفَاقِ وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ عَدَمَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ قَدْ يَكُونُ لِلْعَجْزِ وَقد يَكُونُ لِلنَّفَاقِ وَكِلَاهُمَا فِي حَقِّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَعْقُولٍ لِأَنَّ الْعَجْزَ يَنَافِي وَجُوبَ الْوُجُودِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالنَّفَاقُ وَالْكَذِبُ أَيْضاً فِي حَقِّهِ مُحَالٌ لِأَنَّهُ مُنْزَعٌ عَنِ جَمِيعِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ تَعَالَى يَفِي بِعَهْدِهِ وَلَا يُمْكِنُ لَهُ التَّخَلُّفُ عَنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ: فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ أَيِ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ أَيِ أَنَّهُ تَعَالَى وَعَدَ الثَّوَابَ عَلَى الْجِهَادِ وَهُوَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَاسْتَبَشِّرُوا، أَيِهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، يَعْنِي ذَلِكَ الشَّرَاءَ وَالبَيْعَ فَإِنَّهُ الْفَلَاحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُقَارَنُ شَيْءٌ فَأَنَّ فِي هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ رِبْحٌ عَظِيمٌ.

في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قالوا في سبب نزول الآية أنها نزلت في البيعة الثانية و هي بيعة العقبة الكبرى و هي التي أناف فيها رجال الأنصار على السَّبعين و كان أصغرهم سنّاً عبد الله بن رواحة فقال عبد الله يا رسول الله اشترط لربك و لنفسك ما شئت قال ﷺ اشترط لربّي أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً و اشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال ﷺ لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيّل و لا نستقيّل و مرّ برسول الله ﷺ أعرابي يقرأها فقال كلام، من، قال كلام الله، قال بيع و الله مربح لا نقيله و لا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد.

و قد روي عن الصادق عليه السلام أنه لما نزلت الآية قام رجل الى النبي ﷺ فقال يا نبي الله أرأيتك الرجل يأخذ سيفه فيقاتل حتى يقتل إلا أنه يقترب من هذه المحارم أشهد هو فأنزل الله على رسوله.

الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ  
وَالَّذِينَ يَلْعَبُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ  
وَالَّذِينَ يَلْعَبُونَ  
بِالْمُنْكَرِ  
وَالَّذِينَ يَلْعَبُونَ  
بِالْحُدُودِ  
وَالَّذِينَ يَلْعَبُونَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ

ففسّر النبي ﷺ المجاهدين من المؤمنين الذين هذه صفتهم و حليتهم بالشهادة و الجنة و قال: الَّذِينَ يَلْعَبُونَ مِنَ الذَّنُوبِ، الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِاللَّهِ و لا يشركون به شيئاً، الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الشَّدَةِ و الرِّخَاءِ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الصَّائِمِينَ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الَّذِينَ يَؤَظُّونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْحَافِظُونَ لَهَا و الْمُحَافِظُونَ عَلَيْهَا بِرُحُوعِهَا و سُجُودِهَا و الْخُشُوعِ فِيهَا و فِي أَوَاقَاتِهَا الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ ذَلِكَ و الْعَامِلُونَ بِهِ و الَّذِينَ يَلْعَبُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ و الْمُتَهَوِّينَ عَنْهُ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْحُدُودِ اللَّهِ فِي أَمْرِهِ و نَوَاهِيهِ فَبَشَّرَ مَنْ قَتَلَ و هُوَ قَائِمٌ بِهَذِهِ الشَّرَائِطِ بِالشَّهَادَةِ وَ الْجَنَّةِ هَذَا و أَعْلَمَ أَنَّهُ قِيلَ فِي إِرْتِفَاعِ.



قوله: **التَّائِبُونَ** الخ (ثلاثة أقوال:

**أحدها:** أنه إرتفع بالمدح و التقدير هم التائبون.

**الثاني:** بالابتداء و خبره محذوف بعد قوله: **الْحَافِظُونَ** لِحُدُودِ اللَّهِ لَهُمُ الْجَنَّةُ.

**الثالث:** على أن يكون بدلاً من الضمير في يقاتلون أي أنما يقاتل من هذه صفته و قيل هو كقوله: لكن الرسول، و الذين معه الخ.

التائبون هذا على القول بالرفع كما هو المشهور و قرأ أبي و عبد الله بن مسعود و الأعمش بالنصب على أنه صفة للمؤمنين و يظهر من بعض الأخبار الواردة في الآية الشريفة عن أهل البيت عليهم السلام رجحان النصب بل هو الحق لا غيره.

فعن روضة الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أي قال الراوي، تلوث التابعون العابدون، فقال عليه السلام لا، إقرأ التابعين العابدين الى آخرها فسأل عن العلة في ذلك فقال عليه السلام إشتري من المؤمنين التابعين العابدين انتهى.

و عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ أَنَّ اللَّهَ إِشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَةَ قَالَ عليه السلام: يعني في الميثاق ثم قرأت عليه التائبون العابدون، فقال أبو جعفر، لا، و لكن إقرأها التابعين العابدين الى آخر الآية.

و عن تفسير علي بن إبراهيم في قوله: إِنَّ اللَّهَ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

قال عليه السلام: نزلت في الأئمة انتهى.

و قد ذكر صاحب تفسير نور الثقلين بعد نقله ما نقلناه عنه عن بعض رجاله أنه قال - لقي الزُّهري علي بن الحسين عليه السلام في طريق الحج فقال له يا علي بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته و أقبلت

على الحجّ ولنيته أن الله تعالى يقول: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فقال له عليّ بن الحسين أنما هم الأئمة فقال التائبون العابدون الآية فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ انتهى.

و قد نقل عن عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال عليه السلام لقي عباد البصري عليّ بن الحسين في طريق مكة ثم ساق الحديث كما مرّ<sup>(١)</sup>.

و أنا أقول يستفاد من الأيتين أن قبول الجهاد و ترتب الثواب الموعود عليه أنما هو مشروط بالشرائط المذكورة في الآية و ذلك لأن الله تعالى رتب الثواب و هو الجنة على الجهاد الصادر عن المؤمن لا على مطلق الجهاد من أي شخص صدر و لذلك قال في صدر الآية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ و لم يقل أن الله يشتري من المجاهدين.

و من المعلوم أن المؤمن الحقيقي لا يكون فاقداً لهذه الأوصاف المقررة المذكورة لأن الإيمان لا يتحقق، بالإقرار فقط أو به مع الاعتقاد بل يتحقق بهما مع العمل الصالح و العمل يتحقق بالتوبة و العبادة و الحمد و الصوم و الصلاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الحفاظ لحدود الله في أوامره و نواهيه و هذه مفاد الآية.

نعم على مسلك المخالف يتحقق الإيمان بدون العمل و لا كلام لنا فيه فعلاً.



مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا  
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا  
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ  
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا  
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ  
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ  
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ  
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ  
اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ  
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ  
قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ  
رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا  
حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ  
ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ  
اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ  
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا  
اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ  
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا  
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ  
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ  
عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)

### ◀ اللغة

لَا وَهْ أَيُّ تَوَابٍ وَأَصْلُهُ مِنَ التَّأَوُّهِ وَهُوَ التَّوَجُّعُ وَالتَّحْزَنُ.  
يَزِيعُ، الزَّيْعُ مِيلُ الْقَلْبِ عَنِ الْحَقِّ.  
ضَاقَتْ، الضَّيْقُ ضِدُّ السَّعَةِ وَمِنْهُ ضَيْقُ الصَّدْرِ.

### ◀ الإعراب

مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيعُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ إِيخْتَلَفُوا فِي فَاعِلٍ، كَادَ، عَلَى ثَلَاثَةِ  
أَوْجِهٍ:

أحدهما: ضمير الشأن والجملة يعده في موضع نصب.

الثاني: فاعله مُضْمَرٌ تَقْدِيرُهُ مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ الْقَوْمُ وَالعائد على هذا الضمير  
في منهم.

الثالث: فاعله القلوب، ويزيع في نية التأخير وفيه ضمير فاعل وإنما  
يحسن ذلك على القراءة بالتاء وأما على القراءة بالياء فيضعف أصل هذا  
التقدير.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ مَعْطُوفٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيُّ تَابَ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ،  
وَقِيلَ مَعْطُوفٌ عَلَى، عَلَيْهِمْ، أَيُّ تَابَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ  
خَبَرٌ، لَا، مِنَ اللَّهِ، إِلَّا إِلَيْهِ إِسْتِثْنَاءٌ مِثْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

## ◀ التفسير

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ كَلِمَةٌ، مَا لِلنَّبِيِّ أَيْ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْ يَطْلُبُوا الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ وَالْمُشْرِكُ هُوَ الَّذِي يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَقِيلَ الْمُشْرِكُ مَنْ لَا يُوَحِّدُهُ وَلَا يَقَرُّ بِالْوَهْيَةِ سِوَاءِ يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَمْ لَا وَالْحَقُّ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ كَمَا هُوَ الْمُسْتَفَادُ مِنْ لَفْظِ الْمُشْرِكِ.

أَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي: فَهُوَ مَعْنَى الْكَفْرِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ بَعْدَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ وَهُوَ كَمَا تَرَى أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْآيَاتِ فَتَارَةً عَبَّرَ بِالْكَافِرِ آخَرَى بِالْمُشْرِكِ فَكُلُّ مُشْرِكٍ كَافِرٌ وَلَا عَكْسَ ثُمَّ أَنَّ الشَّرْكَ فِي الدِّينِ عَلَى قَسَمَيْنِ:

أحدهما: الشَّرْكُ الْعَظِيمُ وَهُوَ إِثْبَاتُ شَرِيكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي لَا يُغْفَرُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ<sup>(٤)</sup> وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

الثَّانِي: الشَّرْكُ الصَّغِيرُ وَهُوَ مَرَاعَاةُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَهُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَقَدْ يَعْبَرُ عَنْهُ بِالرِّيَاءِ وَالتَّفَاقُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ<sup>(٥)</sup> فَلَفْظُ الشَّرْكِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمَشْتَرَكَةِ وَقَدْ جُمِعَ الْمَعْنِيَيْنِ فِي قَوْلِهِ: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا<sup>(٦)</sup>.

فيه التفرقة في تفسير القرآن

جزء ١١  
المجلد الثاني

١- لقمان = ١٣

١- النساء = ٤٨

٢- المائدة = ٧٢

٣- النساء = ١١٦

٤- الكهف = ١١٠

٥- سورة يوسف آية ١٠٦

و أما الكفر، فهو في اللّغة ستر الشّيء و أعظم الكفر جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة اذا عرفت الشّرك و الكفر فنقول:

أَنَّ اللَّهَ تعالى منع نبيّه و الذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين بالشّرك العظيم و أما المشركون الشّرك الصّغير فلا و هكذا الكفّار نعم من قال بأنّ الكفر قسمٌ مِنَ الشّرك فهو داخل في المنع و كيف كان فقد منع الله رسوله عن ذلك فقالوا: وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ أَي و لو كان المشرك من أقرباء الرّسول و المؤمنين فَإِنَّ الْحُكْمَ عَامٌ يَشْمَلُ الْكُلَّ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أَي من بعد ما ظهر لهم أي للمستغفرين، أَنَّهُمْ أَي المشركين من أصحاب الجحيم.

فَمَفْهُومُ الْآيَةِ أَنَّ قَبْلَ التَّبَيُّنِ لَا إِشْكَالَ وَ لَا مَنَعَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَ هُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ فِي سَعَةِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي نَزُولِ الْآيَةِ.

قال الطّبرسي رحمته الله في المجمع أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ لَا تَسْتَغْفِرُ (نستغفر) لأبَاءَنَا الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ وَ لَا مُؤْمِنٍ أَنْ يَدْعُوَ لِلْكَافِرِ وَ يَسْتَغْفِرَ لَهُ نَقْلَهُ الطّبرسي عن تفسير الحسن و منه يَظْهَرُ أَنَّهُ لَيْسَ رَأْيُهُ فِي شَأْنِ نَزُولِ الْآيَةِ وَ هُوَ الْحَقُّ فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنَعَ النَّبِيِّ وَ مَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمَشْرُكِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشّرك و هذا ممّا لا كلام فيه و به قال جميع المفسّرين من الشيعة.

و أما العامّة فقال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

و اختلف أهل التّأويل في السّبب الَّذِي نَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي طَالِبٍ عَمَّ النَّبِيُّ لِأَنَّ النَّبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَنَهَاها اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ عَنْ مُعَمَّرٍ قَالَ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ عِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَا عَمُّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُ بِهَا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ يَا أَبَا طَالِبٍ

أَتَرَعِبَ عَنْ مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ فَقَالَ النَّبِيُّ لَا تُسْتَغْفَرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَهْ عَنْهُ  
فَنَزَلَتْ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ  
نَزَلَتْ: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ<sup>(١)</sup> انتهى.

ثم نقل بعد ذلك عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب  
الوفاة و ساق الحديث كما مرّ و هكذا و هكذا.

ثم قال الطبري و قال آخرون بل نزلت في سبب أم رسول الله و ذلك أنّه  
أراد أن يستغفر لها فمُنع من ذلك.

قال حدثنا محمد بن إسحاق (أحمد بن إسحاق) قال: حدثنا أبو أحمد  
قال: حدثنا فضيل عن عطية قال: لما قدم رسول الله ﷺ مَكَّةَ  
ووقف على قبر أمّه حتّى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له  
فيستغفر لها حتّى نزلت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا  
لِلْمُشْرِكِينَ انتهى.

ثم روى بأسناده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبي ﷺ أتى  
رسماً قال: و أكثر ظنّي أنّه قال قبراً فجلس لايه فجعل يخاطب ثم  
قام مستعبراً فقلت يا رسول الله أنّا رأينا ما صنعت قال أنّي  
إِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي فَأُذِنَ لِي وِإِسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ  
لَهَا فَلَمْ يَأْذُنْ لِي فَمَا رَأَيْتُ بَاكِياً أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِئِذٍ انتهى.

ثم ذكر الطبري حديثاً آخر بأسناده عن قتادة في قوله: مَا كَانَ  
لِلنَّبِيِّ ذِكْرُنَا أَنْ رَجَالاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ  
مِنْ أَبَائِنَا مَنْ كَانَ يَحْسُنُ الْجَوَارِ و يصل الأرحام و يَفْكَ الْعَانِي و  
يُوفِي بِالذِّمِّ أَفَلَا نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ وَاللَّهُ لَا تُسْتَغْفَرَنَّ لِأَبِي  
كَمَا إِسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ  
الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَتَّى بَلَغَ الْجَحِيمَ انتهى.

تفسير القرآن



المجلد الثاني

أقول ما نقلناه عن الطبري في الباب من الأخبار قليل من كثير فإنه قد أطنب الكلام في نقل الأحاديث الدالة على مدعاه بزعمه و من أراد الإطلاع على أكثر مما ذكرناه عنه فعليه بمراجعة كتابه.

و أما غيره من مفسري العامة فقد سلكوا مسلكه فنسجوا على منواله و تابعوه على ذلك حذو النعل بالنعل من غير تدبر و تعمق كما هو شأن المقلد الذي لا رأي له.

فقال الزمخشري في الكشف ما هذا لفظه:

قيل قال ﷺ لعمه أبي طالب أنت أعظم الناس على حقاً و أحسنهم عندي يدأ فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي فقال لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت الآية.

و قيل لما افتتح مكة سأل أي أبويه أحدث به عهداً فقبل أمك أمانة فزار قبرها بالأبواء ثم قام مستعبراً فقال أني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي فأذن لي و استأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي فنزلت و هذا أصح لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة و هذا آخر ما نزل بالمدينة.

و قيل استغفر لأبيه و قيل قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا وذوي قرابتنا و قد استغفر إبراهيم لأبيه و هذا محمد يستغفر لعمه فنزلت انتهى كلامه.

و نقل القرطبي في تفسيره عن مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل و عبد الله بن أبي أمية و ساق الحديث الى آخر كما نقلناه عن الطبري.

و قال الألوسي في روح المعاني و الآية على الصحيح نزلت في أبي طالب فقد أخرج أحمد و ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في الدلائل و آخرون عن المسيب بن حزن قال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي و ساق الحديث كما نقلناه عن الطبري و القرطبي ثم أنه زاد في الطنبور نعمة أخرى.



فقد روي عن ابن سعد وابن عساكر عن عليّ عليه السلام أنه قال أخبرني الرسول بموت أبي طالب فبكى و قال إذهب فغسله وكفّنه و واره غفر الله له ففعلت و جعل رسول الله يستغفر له أياماً و لا يخرج من بيته حتّى نزل عليه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية ثم ذكر الألويسي في آخر كلامه عن ابن مسعود أنه خرج النبي يوماً الى المقابر فجاء حتّى جلس الى قبر منها فناجاه طويلاً ثمّ بكى فبكينا لبكائه ثمّ قام فصلّى ركعتين فقام اليه عمر فدعاه ثمّ دعانا فقال ما أبكاكم قلنا بكينا لبكاءك قال أنّ القبر الذي جلست عنده قبر أمانة و أنّي إستأذنت ربّي في زيارتها فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار لها فلم يأذن لي و أنزل عليّ ما كان للنبي الخ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذاك الذي أبكاني انتهى.

ثمّ قال و لا يخفى أنّ الصحيح في سبب النزول هو الأوّل.

نعم خبر الإستئذان في الإستغفار لأمّه و عدم الإذن جاء في رواية صحيحة لكن ليس فيها أنّ ذلك سبب النزول انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و نظير ذلك ما رواه السيوطي في الدر المنثور و البيضاوي في تفسيره و الرازي في تفسيره و الحقي في روح البيان و غيرهم من مفسري العامة فإنهم قد أجمعوا و إتفقوا على أنّ الآية نزلت في أبي طالب أو أمانة أم النبي.

و قال بعضهم عبد الله اب النبي وقوله: **لَوْ كَانُوا أَوْلِيَّ قُرْبِي** إشارة الى أقرباء النبي أولاً و الى أقرباء المؤمنين ثانياً و العجب أنّهم لم يتفقوا على شيء مثل إتفاقهم على هذا و لا سيّما أبو طالب فإنّ أكثر تعرضاتهم له و أنّ الآية نزلت في أبي طالب لما مات على كفره وأنما أطلنا الكلام فيه بنقل رواياتهم لأنّ أبا طالب عليه السلام بزعمهم مات كافراً و لذلك منع الله النبي عن الإستغفار له و حيث إنّجر البحث الى هذا المقام فالواجب علينا التكلّم حول هذه القصّة المختلفة المجعولة الناشئة عن عداوتهم لأمر المؤمنين عليهم السلام.

و عندنا أنَّ أبا طالب عليه السلام لا ذنب له إلا كونه حامياً لرسول الله و أعظم منه كونه أبا لأُمير المؤمنين عليه السلام و إلا فالآية بمعزلٍ عن هذه الأراجيف قطعاً فنقول مستعيناً بالله و متوكلاً عليه أنَّ ما ذكره في المقام باطلٌ من وجوه:

أحدها: أنَّ الأحاديث المذكورة في تفاسيرهم من المجعولات التي لا يقبلها العقل السليم و ذلك لأنَّ النَّاسَ قبل البعثة كانوا على دين المسيح عليه السلام رأسهم أقرباء النَّبي و قد روي أنَّ عبد المطلب كان من الأوصياء فكيف يحكم بكفر من مات قبل البعثة فلو فرضنا أنَّ كثيراً منهم أو أكثرهم في عهد الجاهلية كانوا فساقاً بل كفاراً كما هو كذلك لا يجوز لنا و لا لغيرنا أن يحكم بكفر الجميع و أنهم ماتوا عليه فإنَّ أقرباء النَّبي كانوا من المؤمنين الموحدين خرج عنهم من خرج بالدليل و الباقي داخل تحت الأصل و حيث أنَّ البحث يدور مدار أبي طالب و أمانة و عبد الله فنقول:

أما أمانة و عبد الله فأنهما ماتا قبل البعثة فإنَّ أمانة ماتت و قد مضى من سنِّ رسول الله خمس سنين أو أقلَّ أو أكثر و أما عبد الله فقد مات قبل ولادة النَّبي على الأشهر و من المسلَّم المقطوع به أنَّ الدين الإلهي الذي كان النَّاسَ مأمورين بإتباعه هو دين المسيح قبل الإسلام و حيث أنَّ أمانة و عبد الله ماتا قبل البعثة فلم يكونا مأمورين بمتابعة النَّبي الذي لم يولد أو ولد و هو صغير و عليه فإنَّ دَلَّ الدليل على أنَّهما ماتا على الكُفر و لم يتبعا دين المسيح فهو وإلاَّ فلا و على المستدل الإثبات و إلاَّ فالحكم بكفر من مات قبل البعثة كائناً من كان تحكُّم و بهتان و لا ينبغي لمن يدَّعي الإسلام و العقل، أن يحكم بكفر كلِّ من مات قبل البعثة ما لم يدلَّ دليل على أنَّه مات كافراً فثبت و تحقَّق أنَّ أمانة و عبد الله لما ماتا قبل البعثة و كان الدين المرَضِي عند الله في عهدهما هو دين المسيح و لم يدلَّ على أنَّهما تركاه و كفر به ماتا مسلمين مؤمنين و يجب على مدَّعي الكفر الإثبات و إذ ليس فليس و لا أقلَّ من السُّكوت و التَّوقف في

الحكم بالكفر والإيمان في حقّ من مات قبل البعثة فكيف يحكم الخصم بكفرهما وأنهما قد ماتا عليه ألم يعلم أنّ دين المسيح قبل النسخ باق على قوته هذا بالنسبة اليهما.

و أما أبو طالب فهو كما حيّاً بعد البعثة و نسخ الشريعة السابقة و مات قبل الهجرة و كان مأموراً باتباع النبي كغيره من الناس و أهل السنة يقولون بأنّه لم يؤمن بالله و برسوله و مات على كفره كما عرفت من كلماتهم و أحاديثهم فنزلت الآية في حقّه و أما أهل الحقّ و هم أتباع أهل البيت أجمعوا و إتفقوا على إيمان أبي طالب تبعاً لأنمتهم فإنّ أهل البيت أدري بما في البيت إلا أنّه لم يكن متظاهراً به على رؤوس الأشهاد بل كان مختفياً به لنصرة النبي ﷺ كما هو مذكور مسطور في أخبار أهل البيت فكان حاله حال مؤمن آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه لمصلحة الدين و يدلّ على ما ذكرناه أشعار أبي طالب مصافاً الى الأخبار فمن الأشعار قوله:

وَاللّٰه لَنْ يَصِلُوْا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ	حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَأُصَدِّعُ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ	وَأُنْشِرُ نَدَاكَ وَقَرْمَنَكَ عَيُونًا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ	فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينًا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتَ بِأَنَّهُ	مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَخَافَةُ أَنْ يَكُونَ مَعْرَةً	لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مَبِينًا

و قال أيضاً:

يقولون لي دع نصر من جاء بالهدى

و غالب لنا غلاب كل مغالب

و سلم الينا أحمداً وأكفلنا لنا

نبيّاً ولا تحفل بقول المعاتب

فقلت لهم الله ربّي وناصري

على كلّ باغٍ من لؤي بن غالب

وقال أيضاً:

حميت الرسول رسول الإله      ببيض تلاً مثل البروق  
أذب وأحمي رسول الإله      حماية عمّ عليه شفيق  
ولمّا أسلم حمزة بن عبد المطلب سرّ أبو طالب بإسلامه وأنشأ يقول:  
صبراً أبا لعلّي على دين أحمد      وكن مظهراً للدين وفقت صابراً  
وحط من أتى بالدين من عند ربّه      بصدقٍ وحقٍّ لا تكُن حمز كافراً  
فقد سرّني إذ قلت أنك مؤمنٌ      فكن لرسول الله في الله ناصراً  
فناد قريشاً بالذي قد أتته      جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً  
ولمّا حصن رسول الله الشعب كان أبو طالب يحرسه بالليل والنهار وهو  
الذي يقول.

ألم تعلمونا وجدنا محمداً      نبياً كموسى خطّ في أول الكتب  
أليس أبونا هاشم شدّ أزره      وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب  
وأنّ الذي علّقتم من كتابكم      يكون لكم يوماً كراعية التعب  
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحضر الثرى      ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب  
وكان النبي إذا أخذ مضجعه ونامت العيون جاء أبو طالب فأنهضه عن  
مضجعه وأضجع علياً مكانه وكلّ عليه ولده وولد أخيه فقال عليّ يا  
أبتاه أنّي مقتول ذات ليلة فقال أبو طالب:

إصبرن يا بني فالصبر أحجى      كلّ حي مصيره لشعوب  
قد بلوناك والبلاء شديد      لفداء النجيب وابن النجيب  
لفداء الأعزّ ذي الحسب      والثاقب والفناء الرّحيب

وقال أيضاً:

أنا أمرني بالصبر في نصر أحمد      والله ما قلت الذي قلت جازعاً  
ولكنني أحببت أن تر نصرتي      وتعلم أنّي لم أزل لك طائعاً  
وسعى لوجه الله في نصر أحمدٍ      نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً

و الأشعار المروية عنه في مدح رسول الله كثيرة ولا سيما قصيدته المشهورة باللامية التي يقول فيها:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه  
ثمال اليتامى عصمة للأرامل  
الى آخر القصيدة و حيث أنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذا الفن أعرضنا عن ذكرها و ذكر غيرها ممّا يدلّ على إثبات المدعى صريحاً أو تلويحاً فهذا أبو طالب الذي يقول المعاند بأنّه مات على الكفر فإن كان الأمر كما ذكره الخصم فما معنى هذه الأشعار التي صرّح في كثير منها بأنّه رسول الله أو يقول هو فينا كموسى بن عمران و ما معنى قوله حميت الرسول رسول الإله، و قوله، أذب و أحمي رسول الإله الى آخر ما قال و كيف يصرّح الكافر في كلامه بأنّه رسول الإله هذا كلّ مضافاً الى حمايته عن رسول الله و ذبّه المشركين عنه و كيف يقول:

أنت الأمين أمين الله لا كذب      والصادق القول لا لهو ولا لعب  
أنت الرسول رسول الله نعلمه      عليك تنزل من ذي الغرة الكتب  
و لو كان كافراً فما الذي دعاه الى إنشاء هذه الأشعار و النصرة لرسول الله بقدر الإمكان أليس أبولهب من أعمام الرسول و قد فعل ما فعل أليس عباس و سائر أعمامه أحياء و لم ينصروه أصلاً بل خالفوه و نصروا أعداءه أمين الإنصاف أن يتهم الإنسان و لا سيما من يدعي الإسلام أبا طالب بالكفر و أنّ الله منع رسوله أن يستغفر له فأقض ما أنت قاض إن كنت من أهله و العجب كأ العجب من الألوسي الحنفي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأحاديث المجعولة نقلناها عنه و عن غيره حيث قال فلمّا تقارب لأبي طالب الموت نظر العباس اليه يحرك شفّيته فأصغى اليه بأذنه فقال يا بن أخي لقد قال أفي الكلمة التي أمرته بها فقال <sup>صلى الله عليه</sup> ~~وآله~~ لم أسمع قال و أحتج بهذا و نحوه من أبياته المتضمنة للإقرار بحقيقة ما جاء به و شدّة حنوه عليه و نصرته له، الشيعة الذاهبون الى موته مؤمناً و قالوا أنّه المرّوي عن أهل البيت و أهل البيت أدري

و أنت تعلم قوة دليل الجماعة فالإعتماد على ما روي عن العباس دونه ممّا تضحك منه التكلّي والأبيات على إنقطاع أسانديها ليس فيها النطق بالشهادتين و هو مدار فلك الإيمان و شدة الحنوة و النصرة ممّا لا ينكره أحد إلّا أنّها بمعزل عمّا نحن فيه و أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت و أنّه لأوهن البيوت انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و نحن نقول كأنّ الألوسي لشدة تعصّبه و عناده صار من المجانين الذين لا يعلمون ما يقولون و ذلك لأنّه يقول نظر العباس اليه يحرك شفّته فأصغى اليه بأذنه فقال يا بن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فهذا الكلام إقرار من الألوسي بأنّ أبا طالب مات مؤمناً بشهادة العباس.

ثمّ يقول بعد سطرين فالإعتماد على ما روي عن العباس و دونه ممّا تضحك منه التكلّي فيقال له أن كان الإعتماد على ما روي عن العباس كما تقول و تُقّ به فما معنى قولك و أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت و المفروض أنّ أخبار الشيعة مصرّحة بأنّه مات مؤمناً كما نقلته عن العباس هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الشيعة لم تحتج في إيمان أبي طالب به وبالأبيات فقط بل أنّ إيمانه في حياته و مماته من المسلّمات عندهم بحسب الأخبار الواردة عن أهل البيت و أرباب السير و قوله أنّ أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت كلام لا يصدر عن عاقل فضلاً عمّن يدّعي الإسلام و الإيمان بل هذا الكلام و أمثاله من التّعابير بالنسبة الى أهل البيت يدّل على خبث ذات القائل و عدم طهارة مولده.

و كيف يقول ولد الحلال أنّ أخبار أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت.

فأن كان الإسلام يقتضي هذا فعلى الإسلام السّلام و بعد اللّيا و اللّتي.

نقول أيّها الألوسي أن كان أخبار أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت، فأين الأخبار التي أوثق منه في الإسلام حتّى نتمسك بها، أترى أنّ ما تروون عن

أحمد وابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و أبو هريرة و أنس و أمثالهم أوثق من أخبار أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً.

و في خاتمة البحث نقول إذا كان الغراب دليل قوم، سيهديهم سبيل الهالكين، و لنختم الكلام في المقام و أنما أطلنا الكلام لأنّ الدّفاع عن المظلوم واجب على كلّ من يقدر عليه و أبو طالب كان مظلوماً و قد ورث ذلك من ابنه أمير المؤمنين و الله تعالى يقضي بين العباد يوم القيامة و الحمد لله ربّ العالمين.

فقد ثبت و تحقّق إنّ الآية الشريفة أجنبية عمّا حملوها عليه و هو الحقّ الحقيق بالاتباع و هو المطلوب.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ

كلمة ما في قوله: و مَا كَانَ لِلنّفي فكأنّه جواب عن سؤال فقدّر و هو أنّه قال بعض المسلمين نستغفر لموتانا كما إستغفر إبراهيم لأبيه فقال تعالى في جوابهم:

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ وَالْمُؤْمِنُ إِذَا وَعَدَ وَفَى بوعده فلما تبين له أي لأبراهيم أنّه عدو الله أي لما ظهر له أنّه لم يؤمن تبرأ منه و لم يستغفر له بعد التّبين و المعنى لا حجة لكم أيّها المؤمنون في إستغفار إبراهيم لأبيه فإنّ ذلك لم يكن إلّا عن عدة و اختلفوا في الواعد فقال بعضهم كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله و يخلع الإنداد فلما مات على الكفر علم إبراهيم أنّه عدو الله فتبرأ منه.

و قال الآخرون كان الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له فلما مات مشركاً تبرأ منه.

قال الشيخ في التبيان بعد نقله القولين والذي عندي وهو الأقوى أن أباه أظهر له الإيمان وصار إليه وكان وعده أن يستغفر له أن آمن فلما أظهر الإيمان استغفر له فأعلمه الله أن ما ظهر منه بخلاف ما يظنه، فتبرأ منه و يقوي ذلك قوله: **وَاعْفُ رُ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** <sup>(١)</sup>.

أي فيما مضى ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد الإيمان فلما تبين ذلك تبرأ منه فأمّا مَنْ قال أن الوعد كان من إبراهيم فالسؤال باق لأنّ لقائل أن يقول ولم وعد كافراً أن يستغفر له فأن قلنا وعده بأن تستغفر له إن آمن، كان الرجوع الى الجواب الآخر انتهى كلامه رفع مقامه.

و في تفسير العياشي بأسناده عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد الله ما يقول الناس في قول الله عز وجل: **وَ مَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ قُلْتُ** يقولون إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال ليس هو هكذا أن إبراهيم وعده إن يسلم فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه انتهى.

و في حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما مات تبين أنه عدو لله فلم يستغفر له.

و في تفسير علي بن إبراهيم قوله: **وَ مَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ** قال قال إبراهيم لأبيه أن لم تعبد الأصنام أستغفر لك فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم وقد نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن القاضي أبوبكر بن العربي أنه قال تعلق النبي صلى الله عليه وآله في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى: **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي** <sup>(٢)</sup> فأخبره الله أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبين الكفر منه فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافراً انتهى.

أقول أنظر الى عناد هذا القوم لأولاد الرسول وأقرباءه فأنهم لا يرضون أنفسهم في أبي طالب بأقل من الكفر وأنه مات عليه ولا أدري لم يصرون عليه، و



أَيُّ نَفْعٍ يَحْصُلُ لَهُمْ فِيهِ أَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ مَعَ أَنَّهُمْ إِنْتَفَقُوا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَّاهٍ حَلِيمٌ. فَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الدُّعَاءُ الَّذِي يَكْثُرُ الدُّعَاءُ وَقِيلَ أَنَّهُ الرَّحِيمُ بَعْبَادِ اللَّهِ أَنَّهُ الْمُؤْمِنُ وَقِيلَ أَنَّهُ الْمُؤْمِنُ بِلُغَةِ الْحَبْشَةِ وَالْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ وَالْأَقْوَى هُوَ الْأَوَّلُ وَأَنَّ كَانَ لِكُلِّ مِنْهَا وَجْهٌ وَقَدْ نَقَلُوا عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغَفَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الْمَتَأَوِّهِ ذَلِكَ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ، آه مِنَ النَّارِ قَبْلَ أَنْ لَا تَنْفَعُ آهٌ وَقَوْلُهُ: حَلِيمٌ أَيُّ كَثِيرِ الْحِلْمِ وَهُوَ الَّذِي يَصْفَحُ عَنِ الذُّنُوبِ وَيَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى وَقِيلَ، الَّذِي لَمْ يِعَاقِبْ أَحَدًا إِلَّا فِي اللَّهِ وَلَمْ يَنْتَصِرْ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: لِأَبِيهِ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ الْمُرَادُ بِهِ عَمَّهُ لِأَنَّ الْأَبَ يَطْلُقُ عَلَى الْعَمِّ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَبَاهُ الَّذِي وَلَدَهُ لِأَنَّ آبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَكُونُونَ إِلَّا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةً عَيْنٍ قَالُوا وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِأَبِيهِ فِي الْآيَةِ هُوَ عَمَّهُ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً<sup>(١)</sup> مَعَ أَنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ كَانَ تَارِخًا وَآذَرَ كَانَ عَمَّهُ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ هُنَاكَ وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ فَلَا يَفْتَرِقُ الْحَالُ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

قِيلَ فِي وَجْهِهِ إِتِّصَالَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلُهَا هُوَ أَنَّهُ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْإِسْتِغْفَارَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَأْخُذَكُمْ بِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَذْلَكُمْ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّقُوهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ، مَاتَ قَوْمٌ كَانَ عَمَلُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ كِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَشَرَبِ الْخَمْرِ فَسَأَلَ قَوْمَ الرَّسُولِ بَعْدَ مَجِيئِ النَّسْخِ وَنَزُولِ الْفَرَائِضِ عَلَى ذَلِكَ فَنَزَلَتْ.

ضِيَاءُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



الجزء الثالث

و قال الكرمانى، أسلم قومٌ من الأعراب فعملوا بما شاهدوا الرسول يفعلُه من الصَّلاة الى بيت المقدسّ و صيام أيام البيض ثم قدّموا عليه فوجدوه يصلي الى الكعبة و يصوم رمضان فقالوا يا رسول الله دنا بعدك بالضلال أأنك على أمرٍ و إنّا على غيره فنزلت، و قيل خاف بعض المؤمنين من الإستغفار للمشرّكين دون إذنٍ من الله فنزلت الآية و كيف كان فمعنى الآية أنّ الله تعالى لا يحكم بضلال من عدل عن طريق الحقّ على وجه الدّم إلا بعد ان ينصب له على ذلك الدليل و الحجّة و أمّا بعد البيان فيحكم، والوجه فيه هو قبح العقاب بلا بيان، و على هذا فمن إستغفر للمشرّكين قبل نزول الآية و شرب الخمر قبل نزول الحكم بحرّمته و هكذا لإشكال فيه و لا دُمّ عليه و على هذا المعنى فقلوه: **لِيُضِلَّ** معناه ليحكم بضلاله.

**أقول** الظاهر أنّ الآية بعد بيان حكم عامّ و هو أنّ الله تعالى يجب عليه البيان قبل العقاب كما هو مقتضى العدل فلّقائل أن يقول لا شك أنّ الله تعالى هدانا للإسلام بواسطة النّبي فالنّبي إمامٌ متّبع ما دام كونه حيّاً و أمّا بعد موته فمن الإمام فهل يجب على الله تعالى أن يبيّن للأمة ذلك أو لا يجب.

**على الثّانى:** لا يلزم العقاب يوم القيامة لأنّ الله تعالى لم يبيّن لنا الإمام و القدوة بعد الرسول لناخذ عنه أحكام ديننا كما هو مقتضى الآية و صريح حكم العقل.

**على الأوّل:** و هو وجوب التّعيين و التّبين كما هو الحقّ يثبت المطلوب لنا و نحكم ببطلان السّقيفة إذا عرفت هذا فنقول لا يبعد أن تكون الآية بصدد بيان هذا الأصل الأصيل و الرّكن الرّكين أعني به الإمامة و الخلافة بعد النّبي ﷺ و ذلك لوضوح أنّ شرب الخمر مثلاً قبل تحرّمه من قبل الشّارع لا ذمّ فيه عقاب عليه و هذا لا يحتاج الى نزول الآية لأنّه من المقطوع به عقلاً ضرورة أنّ قاعدة قبح العتاب بلا بيان تكفي في هذه الموارد و لا يحتاج الى نصّ خاص من الشّارع و عليه فإختصاص الآية بأمثال هذه الموضوعات بعيد جدّاً و إذا

كان كذلك فلا نحتاج الى صرف الآية عن ظاهرها و نقول معنى ليُضِلَّ قومًا، لم يكن الله ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحق قبل الدليل بل نأخذ الآية بظاهرها و نقول ترك التبيين هو بعينه الإضلال أو موجب و سبب له و التبيين يحتاج الى المبين و المبين الكتاب و السنة بعد النبي بواسطة الإمام العارف بهما لا هما بذاتهما و إذا كان كذلك فالأمة تحتاج بعد النبي الى من يبين الأحكام و يوضحها لهم تفصيلاً إتماماً للحجة و لا شك أن المبين بهذا المعنى لا يكون إلا من كان عالماً عارفاً بهما و هو الإمام المعصوم لا غيره و يدل ذلك على ما ذكرناه و أستنبطناه من الآية.

ما رواه علي بن محمد عن إسحاق بن محمد شاهويه بن عبد الله قال كتب إلي أبو الحسن في كتاب أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر و قلقت لذلك فلا تغتم فإن الله عزّ وجلّ لا يضلّ قوماً بعد إذ هديهم حتى يبين لهم ما يتقون و صاحبكم بعدي أبو محمد إبنني و عنده ما تحتاجون اليه يقدم ما يشاء الله و يؤخر ما يشاء ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها قد كتبت بما فيه بيان و قناع لذي عقل يقظان انتهى.

و في كتاب التوحيد بأسناده عن حمزة بن الطيار عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ قال: حتّى يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه انتهى.

و فيه أيضاً عن حماد بن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عزّ وجلّ: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ قال عليه السلام: حتّى يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه انتهى <sup>(١)</sup>.

أقول ما يرضيه و ما يسخطه أي ما يرضي الله و يسخط الله و قوله يعرفهم، فالمعروف هو الإمام إذ لا يقدر على ذلك غيره فثبت المطلوب.



وقوله: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ معناه أَنَّ اللَّهَ يعلم حيث يجعل رسالته و  
 أَن شئت قلت أَنَّهُ تعالى يعلم أَنَّ بيان الأحكام بعد النبي مفوض إلى باب  
 مدينة علمه و الأئمة الطاهرين من ولده و هذا هو الصراط المستقيم في قوله:  
 أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فأفهم فلو كان الأمر على غير هذا المنوال يلزم إضلال  
 النَّاس بعد إذ هديهم إلى الإسلام والله تعالى أجلُّ من ذلك هذا ما فهمناه من  
 الآية والله أعلم.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ  
 اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

الملك بضم الميم الحق الدائم لله الملك بكسر الميم هو كالجنس للملك  
 فكلُّ ملكٍ ملكٍ وليس كلُّ ملكٍ ملكاً فقوله: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ  
 الْأَرْضِ معناه ضبط الشئ المتصرف فيه بالحكم و مع ذلك تدخل فيه  
 الملكية أيضاً لما ذكرناه و قيل الملك إتساع المقدور لمن له السياسة و التدبير  
 و خزائن الله لا تقنى و ملكه لا يبيد و لا يبلى و إذا كان كذلك فهو تعالى  
 يتصرف في ملكه كيف يشاء بما يشاء و ليس لأحد منعه منه.

و أما قوله: يُحْيِي وَيُمِيتُ فهو من شؤون الملك و ذلك لأن الإحياء و  
 الإماتة نوع من التصرف فله أن يتصرف في ملكه بالإحياء و الإماتة و قوله: وَ  
 مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ يظهر معناه ممّا ذكرناه في معنى  
 الملك و ذلك لأن الإنسان داخل في السموات و الأرض فيدخل تحت ملكه  
 فهو القادر القاهر فوق عباده لأنّه على كلّ شئ قدير و من زعم أنّ له وليّ و  
 ناصر غير الله فقد أخطأ لأنّ غيره تعالى كائناً من كان مخلوق له محتاج إليه في  
 جميع شئونه و أن شئت قلت لا قدرة له من ذاته إلا ما أقدره الله عليه فالوليّ و  
 الناصر في الحقيقة هو الله تعالى والى هذا المعنى أشار بقوله:

قال الله تعالى: **وَلَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** <sup>(٣)</sup>.

و في هذا الكلام إشارة الى أنَّ الإنسان ينبغي له أن لا يعتمد إلا على الله و لا يستنصر إلا من الله و لا يستعين إلا به و هكذا و هذا هو رمز التوحيد الخالص.

**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**

قيل أنَّ اللام في قوله: **لَقَدْ** لام القسم بأنه تعالى تاب على النبي و المهاجرين و الأنصار بمعنى أنه رجع اليهم و قبل توبتهم لأنهم الذين إتبعوه في ساعة العسرة يعني في الخروج معه الى تبوك، و العسرة بضم العين صعوبة الأمر و قيل الضيق و الشدة و هذه أي غزوة تبوك هي جيش العسرة الذي قال فيه رسول الله ﷺ من جهز جيش العسرة فله الجنة و إنما سميت بها لأنه بلغت العسرة بهم الى أن كان العشرة منهم يعقبون على بغير واحد و الى أن قسموا التمرة بين الرجلين و كان النصر يأخذون التمرة الواحدة فيمصها أحدهم و يشرب عليها الماء ثم يفعل بها كلهم ذلك من بعد ما كاد يزيع قلوب قريبي منهم ثم تاب عليهم لأنه بهم رؤوف رحيم الزيع ميل القلب عن الحق و منه:

قال الله تعالى: **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **رَبَّنَا لَا تَرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** <sup>(٥)</sup>.

٢- الأسراء=٥٦

٤- الصّف=٥٥

١- الفرقان = ٣

٣- فاطر=١٣

٥- آل عمران=٨

قِيلَ أَنْ مِنْ شِدَّةِ مَا لَحِقَهُمْ هُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالرَّجُوعِ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ قِيلَ  
 مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ شَكٌّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ فِي دِينِهِ ثُمَّ تَابُوا فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَيْ قَبْلَ  
 تَوْبَتِهِمْ أَنَّهُ تَعَالَى: رَعُوفٌ رَحِيمٌ وَ الرَّأْفَةُ أَعْظَمُ الرَّحْمَةِ.

قال كعب بن مالك الأنصاري:

نَطِيعٌ نَبِينَا وَنُطِيعُ رَبًّا      هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بَنَّا رُؤْفًا

و قال الآخر:

تَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ حَقًّا      كَمِثْلِ الْوَالِدِ الرَّؤْفِ الرَّحِيمِ

قال ابن هشام في السيرة أن رسول الله ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِعَزْوِ  
 الرُّومِ وَ ذَلِكَ فِي زَمَانٍ مِنْ عُسْرَةِ النَّاسِ وَ شِدَّةٍ مِنَ الْحَزِّ وَ جَدْبٍ مِنَ الْبِلَادِ وَ  
 حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَ النَّاسُ يَحْبُونَ الْمَقَامَ فِي ثَمَارِهِمْ وَ ظِلَالِهِمْ وَ يَكْرَهُونَ  
 الشَّخْصَ عَلَى أَحَالٍ مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَمًا  
 يَخْرُجُ فِي غَزْوَةِ الْاَكْنَى عَنْهَا وَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَرِيدُ غَيْرَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصْمَدُ لَهُ إِلَّا مَا  
 كَانَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ لِبَعْدِ الشَّقَةِ وَ شِدَّةِ الزَّمَانِ وَ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ الَّذِي يَعْمَدُ لَهُ  
 لِيَتَأَهَّبَ النَّاسُ لِذَلِكَ أَهْبَتَهُ فَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجِهَازِ وَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الرُّومَ وَ سَاقَ  
 الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ وَ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى أَهْلِهِ وَ  
 أَمَرَهُ بِالْإِقَامَةِ فِيهِمْ فَأَرْجَفَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ وَ قَالُوا مَا خَلَفَهُ إِلَّا إِسْتِقْلَالًا لَهُ وَ تَخَفُّفًا  
 مِنْهُ فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ أَخَذَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِلَاحَهُ ثُمَّ خَرَجَ  
 حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَ هُوَ نَازِلٌ بِالْجَرَفِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ زَعَمَ الْمُنَافِقُونَ  
 أَنَّكَ إِنَّمَا خَلَفْتَنِي لِأَنَّكَ إِسْتَقْلَلْتَنِي وَ تَخَفَفْتَ مِنِّي فَقَالَ ﷺ كَذَبُوا وَ لَكِنِّي  
 خَلَفْتُكَ لِمَا تَرَكْتَ وَرَائِي فَأَرْجِعْ فَأَخْلِفْنِي فِي أَهْلِي وَ أَهْلِكَ أَفَلَا تَرْضَى: يَا عَلِيُّ  
 أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هُرُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي فَرَجَعَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 إِلَى الْمَدِينَةِ وَ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سَفَرِهِ ثُمَّ أَنَّ أَبَا خَثِيمَةَ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ سَارَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيَّامًا، إِلَى أَهْلِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ فَوَجَدَ إِمْرَأَتَيْنِ لَهُ فِي عَرْشَيْنِ لِهَمَّا

في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها و بردت له فيه ماء و هيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العرش فنظر الى امرأته و ما صنعتا له فقال رسول الله في الصبح، (في الصبح) و الريح و الجر و أبو خثيمة في ظل بارد و طعام مهياً و امرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف ثم قال و الله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهينا لي زاداً ففعلتا ثم قدم ناضحه فأرتحلته ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل تبوك الى آخر القصة و هو الذي يقول:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا      أتيت التي كانت أعف و أكرما  
وبايعت باليمنى يدي لمحمد      فلم اكتسب إثماً و لم أغش مجرمأ  
تركت خفيئاً في العريش و حرمة      صفايا كراماً بسرهما قد تحمما  
و كنت إذا شك المنافق أسمجت      الى الدين نفسي شطره حيث يمما

و عَلَى الثَلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ  
و ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ  
عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

و عَلَى الثَلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا عَنِ التَّوْبَةِ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ، وَعَنْ غَزْوَةِ  
تَبُوكَ عَنْ قَتَادَةَ وَ قِيلَ مَعْنَى خُلِفُوا، ثَرَكُوا، وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ، خَلَفُوا بِالتَّخْفِيفِ أَيْ  
أَقَامُوا بِعَقْبِ رَسُولِ اللَّهِ وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ خَالَفُوا، وَ قِيلَ، خَلَفُوا بِفَتْحِ اللَّامِ أَيْ  
أَرَجَوْا وَ أُخْرُوا عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يَقْضُوا مِنْهُمْ بِشَيْءٍ وَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ  
خُلِفُوا هُمُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَ مِرَارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ، وَ هَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ وَ  
كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ قِيلَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ نِفَاقٍ لَكِنْ عَنْ تَوَانٍ ثُمَّ نَدَمُوا عَلَى مَا  
فَعَلُوا مِنَ التَّخَلُّفِ فَلَمَّا وَرَدَ النَّبِيُّ جَاءُوا وَ اعْتَدَرُوا فَلَمْ يَكَلِّمَهُمُ النَّبِيُّ وَ تَقَدَّمَ  
إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ لَا يَكَلِّمَهُمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَهَجَرَهُمُ النَّاسُ حَتَّى الصَّبِيَّانِ وَ  
أَهْلِيهِمْ وَ جَاءَتْ نِسَائُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لِيَعْتَزَّلَهُمْ فَقَالَ لَا وَ لَكِنْ لَا يَقْرَبُونَكُنَّ

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا الى رؤوس الجبال فكان أهاليهم يحيئون لهم بالطعام و يتركونهم و لا يكلمونهم فقال بعضهم لبعض قد هجرنا الناس و لا يكلمنا أحد فهلاً تنهاجر نحن أيضاً ففترقوا و لم يجتمع منهم إثنان و ثبتوا على ذلك نيفاً و أربعين يوماً و قيل سنة يضرعون الى الله تعالى و يتوبون اليه فقبل الله حينئذ توبتهم و أنزل فيهم هذه الآية فقلوه: **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ فَالْضِيقُ ضِدَّ السَّعَةِ** و منه ضيق الصدر خلاف إتساعه و قوله: **بِمَا رَحُبَتْ** أي بما إتسعت **وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ** ضيق النفس هاهنا بمعنى ضيق الصدر باللهم الذي حصل فيها و قوله: **وَ ظَنُّوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ** قيل ظن هاهنا بمعنى، علم، أي علموا و تيقنوا أنه لا ملجأ و لا معصم من الله إلا به ثم **تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** أي جعل لهم التوبة ليتوبوا بها و المخرج ليخرجوا به و قيل لطف لهم في التوبة كما يقال في الدعاء تاب الله عليهم

و قيل معناه، قبل توبتهم ليمسكوا بها في المستقبل **إِنَّ اللَّهَ هُوَ آتِي التَّوَابِ الرَّحِيمُ** معناه واضح.

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**

أمر الله المؤمنين في هذه الآية بتقوى الله و الكون مع الصادقين و إنما خص الخطاب بهم و لم يقل يا أيها الناس مثلاً لأن التقوى و الكون مع الصادقين لا يتحقق إلا من المؤمن بالله و رسوله ثم أن التقوى لا خفاء فيها و أما الكون مع الصادقين فأختلفوا فيه فقال بعضهم المراد بالصدق هاهنا صدق الحديث.

و قال الآخر الصّحة في الدين و التمكن في الخير.

و قال الآخر معناه كونوا مع محمد و أبي بكر و عمر و خيار المهاجرين الذين صدقوا الله في الإسلام.



وقيل هم الثلاثة أي كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم.

وقال صاحب الكشف هم الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم الله ورسوله من قوله: رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup> وهم الذين صدقوا في دين الله نيّةً وقولاً وعملاً إنتهى.

**أقول** ما ذكره الزمخشري، لا بأس به وهو أحسن الأقوال المذكورة ولكن لا مِصدق له بين المسلمين بعد رسول الله إلا أوصيائه وخلفائه الإثني عشرهم الذين صدقوا إيمانهم ومعاهدتهم الله ورسوله وهم الذين صدقوا في دين الله نيّةً وقولاً وعملاً ولم يوجد ولن يوجد من يتّصف بها إلا المعصوم قطعاً وعليه قوله: وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ أي كونوا مع المعصومين وقد تنبّه الرّازي وهو إمام أهل السّنة وأعلمهم وأشهرهم لهذه النكتة الخفية إلا أنّه قال ذلك المعصوم هو مجموع الأئمة ونحن نذكر عين عباراته ثم نتكلّم في كلامه قال الرّازي.

**الرابع:** وهو أنّ قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أمر لهم بالتقوى وهذا الأمر إنّما يتناول من يصح منه أن لا يكون متّقياً وإنّما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ فكانت الآية دالة على أنّ ما كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة وهم الذين حكم الله تعالى بكونهم صادقين فهذا يدل على أنّه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ حتّى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ وهذا المعنى قائم في جميع الأزمان فوجب حصوله في كلّ الأزمان ان قلت لم لا يجوز أن يكون المراد هو كون المؤمن مع المعصوم الموجود في كلّ زمان قلنا نحن نعترف بأنّه لا بد من معصوم في كلّ زمان إلا إنّنا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأئمة وأنتم تقولون ذلك المعصوم واحد.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فنقول هذا الثاني باطل لأنه تعالى أوجب على كل واحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين وإنما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأن ذلك الصادق من هو لا الجاهل بأنه من هو، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليف ما لا يطاق وأنه لا يجوز ولكننا لا نعلم إنساناً موصوفاً بوصف العصمة والعلم بإننا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة فثبت أن قوله وكونوا مع الصادقين ليس أمراً بالكون مع شخص معين ولما بطل هذا بقي أن المراد منه الكون مع مجموع الأمة وذلك يدل على أن قول مجموع الأمة حق وصواب ولا معنى لقولنا الإجماع حجة إلا ذلك إنتهى كلامه.

**وأنا أقول** أنت ترى أن الرازي تفتن لهذه الدقيقة إلا أن تعصبه وعنايه منعه عن بيان الحق وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الذي يعمي ويصم وأول من سلك هذا المسلك أعني إنكار الحق مع وضوحه وعلمه به هو أبو بكر بن أبي قحافة حيث أنه تصدى لمنصب الخلافة مع علمه بأن الخلافة حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد تمسك هو وأتباعه في ذلك بإجماع الأمة وإنما قلنا بأنه كان عالماً.

لقول أمير المؤمنين في الخطبة الشقشقية:

أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةٍ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلَّيْهَا مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى.

وإذا كان أبو بكر مع مصاحبته للنبي مدة عشرين سنة أو أقل أو أكثر كذلك فلا عجب من أتباعه وأشياعه أن يحذوا حذوه ويسلكوا مسلكه فأن قال قائل أن أبا بكر أو عمر أو عثمان ومن تابعهم في صدر الإسلام كانوا من العوام الذين لا يعلمون الحر من البرد فلو كان حب الدنيا غالباً عليهم كغيرهم من العوام فهو مطابق للأصل لأن الأصل فيهم أنهم أبناء الدنيا مغلوبين للشهوات وأما الرازي وأمثاله مع توغلهم في العلوم العقلية كيف يتكلمون على خلاف العقل.

نقول في جوابه حُب الدُّنْيَا غالب على العقل أيضاً فلا فرق في ذلك بين العالم والجاهل والذي يعجبني من كلامه هو قوله (نحن نعتزف بأنه لا بُد من معصوم في كلِّ زمانٍ) إلا أنا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأمة الخ.

وجه التَّعَجُّب من كلامه هو أننا لا نعلم ولا نفهم ما أراد بذلك القول وهو أنَّ المعصوم مجموع الأمة فأنَّه كلامٌ لا طائل تحته ولا يفهم معناه أحدٌ حتَّى القائل به وذلك لأنَّ مجموع الأمة عبارة عن جميع المسلمين وعليه فالمعنى يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وكونوا مع المسلمين أو مع الأمة وهذا الكلام لا ينبغي أن يصدر من أحاد النَّاس فضلاً عن اللَّهِ تعالى وذلك لأنَّ المؤمن المتَّقِي كيف يكون خارجاً عن الأمة أو من المسلمين إذ لو كان خارجاً منهم ولم يكن معهم لا يكون مؤمناً مسلماً والمفروض أنَّ الخطاب للمؤمنين.

ثانياً: لو كان الأمر كما ذكره فحقَّ العبارة أن يقول كونوا مع المسلمين أو كونوا مع الأمة ولم يقل ذلك بل قال كونوا مع الصادقين.

ثالثاً: أنَّ مجموع الأمة منهم صادق ومنهم كاذب وعليه فالمعنى كونوا مع الصادقين والكاذبين وظاهر الآية يابأه لأنَّ المعية إختصت بالصادقين.

رابعاً: أنَّ المجموع من حيث هو هو من الأمور الإنتزاعية التي لا وجود لها في الخارج بل وجوده يدور مدار الإنتزاع وتعلَّق الحكم بأمر لا وجود له في الخارج غير معقول وأشنع منه قوله فنقول هذا الثاني باطل لأنَّه تعالى أوجب على كلِّ أحدٍ من المؤمنين أن يكون مع الصادقين وجه الشَّناعة أنَّه أيُّ إشكالٍ في هذا الوجوب.

قوله وأنَّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنَّ ذلك الصَّادق من هو لا الجاهل بأنَّه من هو.

نقول تحصيل هذا العلم أمرٌ سهل لكلِّ أحدٍ كما أنَّه يعلم أنَّ الرِّسُول من هو وبعبارة أخرى معرفة الصَّادق معرفة الرِّسُول بعينه لأنَّه رأس الصَّادقين و

رئيسهم فكما أنَّ المكلف يقدر على معرفة الرسول كذلك يقدر على معرفة شخص المعصوم بعد الرسول في كلِّ عصرٍ و زمانٍ ولا فرق بين المعرفتين أصلاً.

قوله بأنَّ ذلك تكليفٌ بما لا يطاق و أنه لا يجوز كلامٌ بلا محصل لأنَّ الجاهل على قسمين، جاهلٌ يقدر على رفع جهله و جاهل لا يقدر عليه كالمجانين و أمثالهم و من المعلوم أنَّ القسم الثاني رفع عنهم القلم ما داموا كذلك فلم يكلفوا بمعرفة الرسول فضلاً عن المعصوم بعده.

**أما القسم الأول:** فأنَّهم مكلفون بمعرفة الله و معرفة الرسول و معرفة الوصي و معرفة الدين و هكذا و ذلك لأنَّ رفع الجهل مقدور لهم بحسب إستعدادهم و مراتبهم و هو ظاهر و قوله لكنَّنا لا نعلم إنساناً معيناً موصوفاً بوصف العصمة و العلم بأنَّنا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة.

فالحقُّ أنه من ت جاهل العارف فإنَّ الرازي و أمثاله من الفحول كالغزالي و التفتازاني و الطبري و السيوطي و القرطبي و هكذا لإطلاعهم على الأخبار و الآثار الواردة لا يخفي عليهم هذا الأمر الذي هو أظهر من الشمس و أبين من الأمس ألَمْ يعرفوا علي بن أبي طالب و أولاده المعصومين كالباقر عليه السلام و الصادق عليه السلام و الرضا عليه السلام و غيرهم من هم أليس الرازي يقول في تفسير سورة الفاتحة و لا شك في أنه من إقتدى في دينه لعلِّي فقد إهتدئ و هل يجوز لعاقلي من المسلمين أن يقول و العلم بأنَّنا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة فضلاً عن الرازي و أمثاله كيف تكون معرفة أبي بكر و عمر و أبي هريرة و أبي حنيفة و الشافعي و ابن حنبل و غيرهم ممكناً و معرفة ولاد رسول الله غير ممكنٍ أيجوز للمسلم أن يقول بهذه المقالة في مقام الإستدلال على إنكار الحق و حيث إنجرَّ الكلام الى هذا المقام.

فَنَحْنُ نُشِيرُ إِلَى شَطْرِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْمَرَادِ بِالصَّادِقِينَ مِنْ طَرَقِ  
الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ لِيَهْلِكَ مِنْ هَلِكٍ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيٍّ عَنْهَا  
فَنَقُولُ:

قال الحافظ الحسكاني وهو من مشاهير علماءهم في كتاب شواهد  
التنزيل بأسناده عن محمد بن أبي الصلت قال حدثني أبي عن  
جعفر بن محمد عليه السلام في قوله **إِتَّقُوا اللَّهَ** وكونوا مع الصادقين  
قال عليه السلام يعني مع محمد وعلي انتهى.

وأسناده عن الكلبي مع أبي صالح عن ابن عباس في قوله **إِتَّقُوا اللَّهَ** وكونوا  
مع الصادقين، قال: نزلت في علي بن أبي طالب خاصة انتهى.

وأسناده عنه عن ابن عباس أيضاً بطريق آخر في هذه الآية يا أيها الذين  
أمنوا **إِتَّقُوا اللَّهَ** وكونوا مع الصادقين، قال مع علي وأصحاب علي انتهى

وأسناده عن جابر عن أبي جعفر وهو الباقر عليه السلام في قوله و  
كونوا مع الصادقين، قال عليه السلام: مع آل محمد انتهى.

وأسناده عن أبي سعيد البلخي عن مقاتل بن سليمان عن  
الضحك عن ابن عباس في قوله: **أَتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**  
قال: يعني مع علي بن أبي طالب انتهى.

وأسناده عن أبان بن تغلب عن أبي جعفر في قوله تعالى: **أَتَّقُوا  
اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** قال: مع علي بن أبي طالب.

وأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: **وَكَُونُوا  
مَعَ الصَّادِقِينَ** قال: مع علي وأصحاب علي انتهى.

وأسناده عن نافع عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: **أَتَّقُوا اللَّهَ وَ  
كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** قال: أمر الله أصحاب محمد أن يخافوا الله ثم  
قال لهم وكونوا مع الصادقين يعني محمداً وأهل بيته انتهى.

وفي كتاب غاية المرام روي عن صدر الأئمة عند المخالفين أخطب خوارزم أبو المؤيد موفق بن أحمد من أعيان علماء العامة في كتاب الفضائل بأسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: هو علي بن أبي طالب انتهى.

و عن موفق بن أحمد بأسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال هو علي بن أبي طالب انتهى.  
و عن إبراهيم بن محمد الحموي من أعيان علماء العامة بأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية قال: مع علي بن أبي طالب انتهى.

و عن أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصفهاني في كتابه بأسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قال هو علي بن أبي طالب انتهى.

أبو نعيم هذا بأسناده عن جعفر بن محمد في قوله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: محمد وعلي عليهما السلام انتهى والأحاديث من طرق العامة في الباب كثيرة جداً.

وأما الأخبار الواردة في الباب من طريق الخاصة فأكثر من أن تُحصى ونحن نشير الى قليل منها تكميلاً للبحث

منها، ما رواه في غاية المرام عن محمد بن يعقوب بأسناده عن يزيد بن معاوية العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال عليه السلام إيانا عني.

وعنه بأسناده عن ابن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل: اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال الصادقون هم الأئمة الصديقون بطاعتهم انتهى.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قَالَ عليه السلام: مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالب انتهى.

و عن محمد بن الحسن الشيباني في نهج البيان في معنى الآية قال: روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أَنَّ الصَّادِقِينَ هَاهُنَا هُمُ الْأَئِمَّةُ الطَّاهِرُونَ مِنْ أُلِ مُحَمَّدٍ قَالَ وَ رُوي أَيْضاً أَنَّ النَّبِيَّ سئلَ عَنِ الصَّادِقِينَ هَاهُنَا فَقَالَ صلوات الله عليهم هُمُ عَلِيٌّ وَ فَاطِمَةُ وَ الْحَسَنُ وَ الْحُسَيْنُ وَ ذُرِّيَّتُهُمُ الطَّاهِرُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.

و عن سليم بن قيس الهلالي في كتابه في حديث المناشدة قال أمير المؤمنين فَأَنشِدْكُمْ اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنزَلَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فَقَالَ سَلْمَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمَّ عَامَّةٍ هِيَ أَمْ خَاصَّةٌ قَالَ صلوات الله عليهم: الْمَأْمُورُونَ فَالْعَامَّةُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرُوا بِذَلِكَ وَأَمَّا الصَّادِقُونَ فَخَاصَّةٌ لِأَخِي عَلِيٍّ وَ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.

و عن تفسير العياشي بأسناده عن هشام بن عجلان قال قلت لأبي عبد الله أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ أَسْأَلُكَ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي لَا يَسَعُ النَّاسَ جَهْلُهُ، قَالَ عليه السلام: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ وَ الْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِقَامُ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ وَ حَجُّ الْبَيْتِ وَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ وَ الْوَلَايَةُ لَنَا وَ الْبِرَاءَةُ مِنْ عَدُوِّنَا مَعَ الصَّادِقِينَ انْتَهَى.

أَقُولُ فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كَمَا تَرَى تَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّادِقِينَ فِي الْآيَةِ هُمُ الْأَئِمَّةُ بَعْدَ الرَّسُولِ أَوَّلَهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَ آخِرُهُمْ حُجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ الْإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْفَرَجَ وَ جَعَلَنَا مِنْ أَعْوَانِهِ وَ أَنْصَارِهِ

بحقّ محمدٌ و آله الطّاهرين و لختّم الكلام في تفسير الآية بما قاله بعض المحقّقين من المفسّرين أعلى الله مقامه حيث قال عليه السلام.

و قال بعضهم أراد بكونهم مع الصّادقين كونهم مع كعب بن مالك و أصحابه الذين صدّقوا في أقوالهم و لم يكذبوا في الاعتذار عن تخلفهم في الجهاد و لم يعلموا أنّ الصّادق الحقيقي هو القائل بالحقّ العامل به لأنّها صفة مدح لا تطلق إلاّ على من يستحقّ المدح على صدقه فأما من فسق بإرتكاب الكبائر والإصرار على الصّغائر فلا يطلق عليه إسم صادق و لذلك مدح الله الصّديقين و جعلهم قالين للنبيين في قوله: **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصّٰدِقِينَ وَ الشّٰهَدَاءِ وَ الصّٰلِحِينَ** (١).

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ تَأَخَّرَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ النَّبِيِّ وَ الْخُرُوجَ مَعَهُ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ وَ إِعْتَذَارَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَ تَوْبَتَهُمْ مِنْهُ وَ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَأْفَتِهِ وَ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِمْ ذَكَرَ عَقِيبَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ وَ الْإِزْرَاءِ عَلَى مَا فَعَلُوهُ مِنَ التَّخَلُّفِ وَ الْإِعْتَذَارِ وَ التَّوْبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَ سَكَانِ الْبَوَادِي، أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَي لَا يَجُوزُ لَهُمْ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّخَلُّفَ عَنْهُ صلى الله عليه وآله هُوَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْإِسْلَامِ بَعِينَهُ وَ مَعْصِيَتِهِ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، أَي وَ لَا أَنْ يَطْلُبُوا نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ وَ بَعَارَةً أُخْرَى لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَعْزُضُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ كَلِمَةَ (رَغِبَ) إِذَا تَعَدَّيَتْ بَعْنَ فَمَعْنَاهَا الْإِعْرَاضُ يُقَالُ رَغِبْتُ عَنْهُ أَي أَعْرَضْتُ عَنْهُ وَإِذَا تَعَدَّيَتْ بِغَيْرِهَا مَعْنَى الْمِيلُ يُقَالُ رَغِبْتُ إِلَيْهِ أَوْ بِهِ أَي مِلْتُ إِلَيْهِ وَ تَشَوَّقْتُ إِلَيْهِ وَ هِيَ هَاهُنَا مِنْ قِسْمِ الْأَوَّلِ



لأنَّ التَّقْدِيرَ وَ لَا يَرْغَبُوا عَنْ نَفْسِهِمْ وَأَظَنَّ أَنَّ فِي تَقْدِيمِ بَأْنَفْسِهِمْ عَلَى نَفْسِهِ دَلَالَةٌ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَيْثُ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ فِي التَّخَلُّفِ وَ هَذَا لَا يَجُوزُ.

قال الله تعالى: أَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

أَي كَانَتْ عِلَّةُ تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ أَنَّ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ هُوَ شِدَّةُ الْعَطَشِ وَ لَا نَصَبٌ، أَي تَعَبٌ وَ مَشَقَّةٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ، يَعْنِي مُحَاجَّةٌ وَ أَصْلُهُ خَمُورُ الْبَطْنِ لِلْمَجَاعَةِ وَ مِنْهُ رَجُلٌ خَمِصَ الْبَطْنَ وَ إِمْرَأَةٌ خَصْمَانَةٌ وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ تَقَاعَدُوا عَنِ الْجِهَادِ لِأَجْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ بَعَارَةٌ أُخْرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَرْضُوا بِتَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ هُوَ الْجِهَادُ مَعَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقِيقِي لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَ الْعَجَبُ أَنَّهُمْ رَضُوا بِتَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ فَقَدَّمُوا نَفْسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ.

وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: وَ لَا يَطْؤُونَ لِلْحَالِ أَي أَنَّهُمْ كَانُوا كَذَلِكَ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَخْطُونَ خُطْوَةً تَوْجِبُ غِيظَ الْكُفَّارِ وَ لَا يَنَالُونَ نِيلاً أَي وَ لَا يُصِيبُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرًا مِنْ قَتْلِ أَوْ جَرَحِ أَوْ مَا يَغْمَهُمْ وَيَغِيظُهُمْ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ أَي إِلَّا وَ يَكْتَبُ اللَّهُ لَهُمْ بِهِ عَمَلًا صَالِحًا أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، أَي أَجْرَ مَنْ فَعَلَ الْأَفْعَالَ الْحَسَنَةَ الَّتِي يَسْتَحَقُّ بِهَا الْمَدْحَ وَ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ فَمَا بَالُ قَوْمٍ يَتَّقَاعَدُونَ عَنِ الْجِهَادِ أَوْ كُلِّ مَا فِيهِ تَقْوِيَةُ الدِّينِ.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١  
المجلد الثامن

قال قتادة حكم هذه الآية مختص بالنبي ﷺ فإنه إذا غزا لم يكن لأحد أن يتخلف عنه فأما من بعده من الخلفاء فأذن ذلك جائز.

و قال الأوزاعي وغيره أن هذه الآية لأول الأمة و آخرها من المجاهدين في سبيل الله و قال ابن زيد هذا حين كان المسلمون قليلين فلما كثرو أنسخ بقوله: **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً** <sup>(١)</sup>.

قال الشيخ في التبيان بعد نقله الأقوال المذكورة عنهم و هذا هو الأقوى لأنه لا خلاف أن الجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كل أحد النفر لصار من فروض الأعيان إنتهى كلامه رفع مقامه.

**أقول** و فيه بحث لا يسعه المقام و موضعه الكتب الفقهية.



وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا  
يَقْطَعُونَ وَأَدْيَا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ  
أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ  
الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ  
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا  
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ  
الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ  
مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ  
مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ آيَاتًا فَأَمَّا الَّذِينَ  
آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ  
أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا  
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا  
يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ  
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا  
أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ  
مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ  
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ  
أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ  
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ  
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللغة

لِيَتَفَرَّوْا، التَّفَرُّ بِسُكُونِ الْفَاءِ الْإِنْزِعَاجُ عَنِ الشَّيْءِ وَالْيَ إِلَى الشَّيْءِ كَالْفَرْعِ إِلَى الشَّيْءِ  
وَعَنِ الشَّيْءِ يُقَالُ نَفَرْنَا عَنْ الشَّيْءِ نَفَرًا.  
يَلُونَكُمْ أَي يَقْرُبُونَ إِلَيْكُمْ.  
غَلْظَةً بِكَسْرِ الْغَيْنِ وَفَتْحِ الظَّاءِ ضِدَّ اللَّيْنِ خِلَافَ الرِّقَّةِ.  
يُفْتِنُونَ، الْفِتْنَةُ الْمَحَنَةُ (مَا عَنَّتْ أَي مَا يُلْحَقُكُمْ مِنْ الْأَذَى الَّذِي يَضِيقُ  
الصَّدْرَ بِهِ).

## ◀ الإعراب

فِرْقَةٍ مِنْهُمْ قَوْلُهُ مِنْهُمْ صِفَةُ لِفَرْقَةٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ طَائِفَةِ عَزِيزٍ  
عَلَيْهِ هُوَ صِفَةُ لِرَسُولٍ وَمَاءٌ، مُصَدَّرَةٌ مَوْضِعُهَا رَفَعَ بِعَزِيزٍ.

## ◀ التفسير

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ  
لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هَذِهِ الْآيَةُ عَطَفَ عَلَى السَّابِقَةِ أَيِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكَفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ  
مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا، وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً أَيِ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَنْفِقُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ وَجِهَادِ أَعْدَاءِ نَفَقَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ يَرِيدُونَ بِهَا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ وَ  
إِعْزَازَ دِينِهِ وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ وَنَفْعَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ مَتَى كَانَ  
لِلشُّهُوَةِ أَوْ لِلشُّهُرَةِ كَانَ مَبَاحًا وَإِنْ كَانَ لِلزَّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ أَوْ لِلْمَعَاوَنَةِ عَلَى الْفَسَادِ  
كَانَ مَعْصِيَةً وَأَنْ كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ وَمُقَرَّبًا إِلَيْهِ فَهُوَ الْمَمْدُوحُ وَحَيْثُ أَتَاهُمْ  
لَمْ يَنْفِقُوا وَأَنْ أَنْفَقُوا كَانَ إِنْفَاقَهُمْ مِنَ الْقَسَمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَا جَرَمَ حَكَمَ اللَّهُ بَعْدَهُ  
لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَسِيلَةً لِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَعَالَى فَهُوَ كَالْمَعْدُومِ هَذَا كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ  
إِلَى الْإِنْفَاقِ.

و أما تحمل المشاق في السير الى الجهاد فهو أيضاً كذلك أي لا ينفع اذا لم يكن لله تعالى فيصير محصل المعنى أن ما بالهم لا ينفقون في سبيل الله يسيرون الى الجهاد مع أنهم لو أنفقوا في سبيل الله و ساروا الى الجهاد يجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ففي هذه الآية و سابقتها حث و ترغيب الى الإنفاق و الجهاد و توبيخ على التقاعد و التخلف عنه.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ قوله: فَلَوْلَا معناه، هلاً نفر لأنها أي لولا للتخصيص اذا دخلت على الفعل و أما اذا دخلت على الاسم فهي بمعنى إمتناع الشيء لأجل وجود غيره و قيل في معنى الآية ثلاثة أوجه:

**أحدها:** ما قاله الحسن و هو أن الله تعالى حث الطائفة النافرة على التفقه لترجع الى المتخلفة فتحذرهما.

**ثانيها:** ما قاله قتادة أن المعنى أنه لم يكن لهم أن ينفروا بأجمعهم في السرايا و يتركوا النبي بالمدينة وحده و لكن تبقى بقية لتفقه البقية ثم تنذر النافرة.

**ثالثها:** قال أبو علي الجبائي تنفر الطائفة من كل ناحية الى النبي لتسمع كلامه و تتفقه عنه ثم يتبينوا ذلك لقولهم اذا رجعوا اليهم.

و قال مجاهد نزلت الآية في قوم خرجوا الى البادية ليفقهوهم و ينالوا منهم خيراً فلما عاتب الله من تأخر عن النبي عند خروجه الى تبوك و ذم آخرين خافوا أن يكونوا منهم فنفروا بأجمعهم فقال الله، لا نفر بعضهم ليفقه عن النبي ما يجب عليهم و ما لا يجب و يرجعون فيخبرون أصحابهم بذلك ليحذروا هذا ما ذكره الشيخ في التبيان.

و قال القرطبي في تفسيره لها أن هذه الآية أصلٌ وفي وجوب طلب العلم لأن المعنى وما كان المؤمنون لينفروا كافةً والنبي ﷺ في المدينة مقيمٌ لا ينفر فيتركوه وحده فلولوا نفر.

بعد ما علموا أن التضيير لا يسع جميعهم، من كل فرقة منهم طائفة، و تبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين و يتفقوها فإذا رجع النافرون اليهم أخبروهم بما سمعوا و علموهم و في هذا ايجاب التفقه في الكتاب و السنة و أنه على الكفاية دون الأعيان انتهى كلامه.

و قال الطبري بعد نقله الأقوال في تفسير الآية، و أولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال تأويله و ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً و يتركوا رسول الله و أن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا الى غزو و جهادٍ و غير ذلك من أمورهم و يدعوا رسول الله ﷺ وحيداً و لكن عليهم اذا سرى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معها من كل قبيلة من قبائل العرب و هي الفرقة، طائفة و ذلك من الواحد الى ما بلغ من العدد ثم قال بعد أسطر.

### لِيَتَّفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

فأن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال ليتفقه الطائفة النافرة بما تعين من نصر الله أله دينه و أصحاب رسوله على أهل دينه و أصحاب رسوله على أهل عداوته و الكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة أمر الإسلام و ظهوره على الأديان فعلم بذلك من لم يكن فقهه و لينذروا قومهم فحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا و عاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك اذا هم رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال الرازي يمكن أن تكون الآية من بقية أحكام الجهاد و يمكن أن تكون كلاماً مبتدأ لا تعلق لهما بالجهاد.

**فعلى الأول:** نقل عن ابن عباس أنه قال كان الرسول إذا خرج الى الغزو لم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله سبحانه في عيوب المنافقين في غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع الرسول ولا عن سرية فلما قدم الرسول ﷺ المدينة وأرسل السرايا الى الكفار نفر المسلمون جميعاً الى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية وعليه فالمعنى لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكليتهم الى الغزو والجهاد بل يجب أن تنفر طائفة و تبقى طائفة أخرى في خدمة الرسول للتفقه في الدين وحفظ التكاليف وإبلاغها الى الغائبين بعد رجوعهم اليهم من الغزو وهاهنا احتمالان:

**أحدهما:** أن تكون الطائفة المقيمة هم الذين يتفقهون في الدين بسبب أنهم لا زموا خدمة الرسول فيندرون الطائفة النافرة.

**ثانيهما:** أن التفقه صفة للطائفة النافرة لأنهم كانوا يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين.

**على الثاني:** وهو أن الآية ليست من بقايا أحكام الجهاد بل هو حكمٌ مبتدأ فقد بين في هذه الآية عبادة التفقه بعد ما بين في الآيات السابقة عبادة الهجرة والجهاد ثم قرّر ما أفاد بما لا مزيد عليه هذا كلامه ملخصاً.

**أنا أقول** المستفاد من الآية الشريفة هو لزوم التفقه في الدين أو وجوبه على سبيل الواجب الكفائي لا العيني وهذا ممّا لا خلاف فيه بين الكل.

و أيضاً يستفاد منها أن التفقه مقدّمة لإنذار القوم و بعبارة أخرى أنه ليس مطلوباً إلا لأجل الإنذار وهذا أيضاً ممّا لا خلاف فيه عندهم و أمّا أن الآية من بقية أحكام الجهاد أو أنها كلامٌ مبتدأ فلا يهمنّا البحث فيه.

به عبارة أخرى يستفاد من الآية أنه يجب على المسلم التفقه كفاية ثم الإنذار بعده وهذا حكم عام لا يختص بزمانٍ دون زمان وقد قلنا مراراً أن خصوصية المورد لا تنافي عمومية الحكم فلو فرضنا أن الآية نزلت في الجهاد لا يمتنع ذلك عن حملها على العموم من حيث المعنى اذا عرفت هذا فنقول:

في التفسير  
في القرآن  
في الحديث



قوله تعالى: **فَلَوْلَا نَفَرَ** معناه فهلاً نفرم من كُـلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ أي من المسلمين، طائفة و هي في اللغة الجماعة و قد تقع على أقل من ذلك حتّى تبلغ الرّجلين و للواحد على معنى نفس الطائفة و لا شك أنّ المراد بها هنا جماعة عقلاً و لغةً.

**أَمَّا الْعَقْلُ** فالأنّ العلم لا يتحصّل بواحدٍ في الغالب.  
و أما اللغة فلقوله: **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ** حيث جاء بضمير الجماعة.

و قيل أنّ الطائفة هاهنا واحد و يعتضدون ذلك بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد و فيه بحث و تفصيل الكلام فيه في الأصول **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** أي يتبصّروا و يتقنوا في أصول دينهم و فروعه و ما يتعلّق به من الأحكام بقدر الإمكان و الإستطاعة و القدرة.

**وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**  
الإنذار ضدّ البشارة و الضمير في قوله لينذروا يرجع الى المتّقين المتبصّرين أي و لينذروا قومهم بعد الرجوع اليهم، من الكفّار هذا على مسلك القوم.

و أمّا على المختار في معنى الآية فالمعنى، و لينذروا قومهم من عذاب الله و سخطه لعلّهم يحذرون أي لكي يحذروا من عذابه و لنذكر بعض ما ورد في التّفقه من الأخبار و منه يعلم تفسير الآية أيضاً.

عن أصول الكافي بأسناده عن عليّ بن حمزة قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ فَإِنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَهُوَ أَعْرَابِي**، أنّ الله يقول في كتابه: **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** انتهى.



وأسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد إذا أحدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس قال عليه السلام: أين قول الله عز وجل: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ.

ثم قال عليه السلام: هم في عذرٍ ما داموا في الطلب و هؤلاء الذين ينتظرونهم في عذرٍ حتى يرجع اليهم أصحابهم انتهت

عن علي بن إبراهيم بأسناده عن عبد الأعلى قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله من مات و ليس له إمام مات ميتة جاهليّة، قال الحقّ و الله، قلت إماماً هلك و رجل بخراسان لا يعلم من و صّيه لم يسعه ذلك قال لا يسعه أن الإمام اذا هلك وقعت حُجّة و صّيه على من هو معه في البلد و حقّ النّفَر على من ليس بحضرته اذا بلغهم أن الله عزّ وجلّ يقول فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ و عن محمّد بن يحيى بأسناده عن محمّد بن مُسلم قال: قلت لأبي عبد الله أصلحك الله بلغنا شكواك و أشفقنا فلو أعلمتنا من، فقال عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام كان عالماً و العلم يتوارث فلا يهلك عالمٌ إلّا بقى من بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء الله قلت أفيسع الناس اذا مات العالم أن لا يعرفوا الذي بعده فقال أمّا أهل هذه البلدة فلا يعني المدينة، و أمّا غيرها من البلدان فبقدر مسيرهم أنّ الله عزّ وجلّ يقول: وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ الخبر انتهت موضع الحاجة منه.

و عن عيّن الأخبار في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها من الرضا عليه السلام فأن قال فلم أمر بالحجّ قيل لعلّه الوفادة و طلب الزيادة الى أن قال عليه السلام: مع ما فيه من التّفقه و نقل أخبار الأئمّة عليهم السّلام الى كلّ صقعٍ و ناحية كما قال الله عزّ وجلّ: فَلَوْلَا نَفَرَ

مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ وَلِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ انْتَهَى.

و عن كتاب علل الشرائع بأسناده عن عبد الله بن المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد الله أَن قوماً يروون أَن رسول الله قال: إختلاف أمتي رحمة، فقال صدقوا فقلت أَن كان إختلافهم رحمة فاجتماعهم عذابُ قال عليه السلام: ليس حيث تذهب و ذهبوا أَنما أرادوا قول الله عز وجل: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ فَأُمِرَهُمْ أَن يَنْفَرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَخْتَلِفُوا إِلَيْهِ فَيَتَعَلَّمُوا ثُمَّ يَرْجِعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَيُعَلِّمُوهُمْ أَنَّمَا أَرَادَ إختلافهم من البلدان لا إختلافاً في دين الله أَنما الدين واحد انتَهَى.

و بأسناده عن عبد الأعلى قال قلت لأبي الحسن عليه السلام أَن بلغنا وفاة الإمام كيف نصنع قال عليكم التغير قلت التغير جميعاً قال عليه السلام: أَن الله يقول: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ.

و عن تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له اذا حدث للإمام حَدَّثَ كَيْفَ يَصْنَعُ النَّاسُ قَالَ عليه السلام: يَكُونُ كَمَا قَالَ اللَّهُ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَالَ قلتُ فَمَا حَالُهُمْ قَالَ هُمْ فِي عُذْرٍ انْتَهَى و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثقلين (١).

و قد نقل عليه السلام كثيراً من الأخبار بهذا المضمون فمن شاء الإطلاع على أكثر ممَّا نقلناه فعله بمراجعته و قد تحسَّل ممَّا ذكرناه أَن الآية أَنما نزلت لأجل التَّفَقُّه في الدِّين و هو لا ينافي أَن يكون نزولها في الجهاد فَأَن المقصود حصول التَّفَقُّه و الإنذار بعده و من المعلوم أَن التَّغَيَّر للتَّفَقُّه من أعظم مصاديق الجهاد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

قرأ عاصم، غلظة، بفتح الغين و الباقون بكسرهما قيل قراءة الكسر هي العربية و ذكر الزجاج أنَّ فيه ثلاث لغات الفتح و الضمّ و الكسر أفصحها و الكسر لغة أهل الحجاز و الضمّ لغة تميم.

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب.

قال بعض المفسرين و ذلك يدل على أنه يجب على أهل كل ثغر أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الإسلام اذا لم يكن هناك إمام عادل و أنما جاز من الله تعالى أن يأمر بالقتال ليدعوهم الى الحق و لم يجوز أن يمنعهم من الكفر لأن المنع ينافي التكليف و من قاتل الأبعد من الكفا و ترك الأقرب فالأقرب فأن كان بأذن الإمام كان مصيباً و أن كان بغير أمره كان مخطئاً انتهى.

و هو حق لا مرية فيه لأن الدّفاع لا يحتاج الى إذن الإمام و أمّا الجهاد فيحتاج الى اذنه.

و أمّا قوله: وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً معناه و ليخشوا منكم بالغلظة و هي ضدّ اللين و خلاف الرّقة و معناها الشدّة في إحلال النّعمة.

و أمّا قوله: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ فمعناه واضح و أعلم أنه نقل عن الحسن أنه قال أنَّ الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافّة ثمّ أنهم صارت منسوخة بقوله قاتلوا المشركين كافّة.

و قد أجمع أهل التحقيق على خلافة و ذلك لأنه تعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافّة أرشدهم الى الطريق الأصوب الأصلح و هو أنَّ القتال ينتقل من الأقرب فالأقرب الى الأبعد فالأبعد و ذلك لأنّ أمر الدّعوة يقع على هذا التّرتيب هكذا قيل.

و الحقُّ أَنَّا لَا نحتاج إلى هذه التَّخريجات في عدم النَّسخ بل نقول الآية ناظرة إلى الدَّفَاع عن بيضة الإسلام وحفظ نوااميس المسلمين وأموالهم وأنفسهم وهذا ممَّا يتقبل به العقل السَّليم ولا يحتاج إلى إذن الإمام وإذا كان كذلك فهو غير قابلٍ للنَّسخ فَأَنْ حُكِمَ العقل لا نسخ فيه.

ألا ترى أَنَّهُ تعالى يقول: **فَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ** فَأَنْ مفهوم الكلام هو عدم القتال في غيرهم لَأَنَّهُ محتاج إلى إذن الإمام.

**وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**

أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّهُ متى نزلت سورة مِنَ القرآن فمنهم، أي من المنافقين من يقول على وجه الإستهزاء والإنكار أَيُّكُمْ زادته هذه إيماناً، أي أيُّ شخصٍ منكم زيد في إيمانه بسبب نزول السُّورة و غرضهم من هذا الكلام هو أَنَّ القرآن لا يزيد في إيمانكم فلا فرق في نزول السُّورة و عدمه وهذه مقالة المنافقين المستهزئين فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بالله و رسوله حقاً فلا يقولون ذلك بل يعترفون و يعتقدون بأنَّ السُّورة تزيد في إيمانهم و هم يستبشرون به أي و الحال أَنَّهُم يستبشرون به و في هذا الكلام إشارة إلى أَنَّ المنافق لنفاقه و عدم إعتقاده و إيمانه باطناً دائماً بصدد الإستهزاء للذين و إنكار الحقائق و المؤمن بخلافه و هذا معلوم من حالهما و لا حاجة إلى تفصيل الكلام في المقام هذا حال المنافقين الذين ليس في قلوبهم مرض و نعبّر عنهم بالمتوسطين.

و أمَّا الَّذِينَ في قلوبهم مرض كما أشار الله تعالى إليهم بقوله: **وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** قالوا يعني شكٌ و نفاق من الإسلام و يتحمل أن يراد به العناد فَأَنَّ المنافقين على صنفين:

معاند، و غير معاندٍ فالآية السَّابقة ناظرة إلى غير المعاندين و هذه الآية ناظرة إلى المنافقين المُعاندين و هم الَّذِينَ يقول الله فيهم: **مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ**

رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ أَي نِفَاقًا وَكَفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ وَذَلِكَ لِكُونِهِمْ شَاكِينَ فِي دِينِهِمْ بَلْ مُنْكَرِينَ لِلدِّينِ وَاقِعًا وَهَذَا فُسَادٌ فِي الْقَلْبِ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِلَاجِ كَالْفُسَادِ فِي الْبَدَنِ يَحْتَاجُ إِلَى مَدَاوَاةٍ وَمرض القلب أعضل و علاجه أعسر والرجس بكسر الراء والنّجس واحد و سَمِيَ الكفر رجساً لأنه يجب تجنّبه كما يجب تجنّب الأنجاس قيل أَنَّمَا أَضَافَ الزِّيَادَةَ إِلَى السُّورَةِ لِأَنَّهُمْ يَزْدَادُونَ عِنْدَهَا وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً قَالَ الشَّاعِرُ:

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صَحَّةٍ وَ حَسْبَكَ دَاءٌ أَنْ تَصَّحَ وَ تَسْلَمًا  
وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَ مَا تُوتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ فَالْوَجْهُ فِيهِ أَنَّ الْمَرَضَ الْقَلْبِيَّ يُوْدِّي  
صَاحِبَهُ إِلَى الْمَوْتِ عَلَى شَرِّ حَالٍ لِأَنَّهُمَا تَسُوقُ إِلَى النَّارِ دَائِمًا قَالَ مَا تُوتُوا وَ لَمْ يَقُلْ  
يَمُوتُونَ لِأَنَّهُ عَطَفَ عَلَى زَادَتَهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَإِلَّا فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ  
وَ هُمْ كَافِرُونَ.

أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا  
هُمْ يَذْكُرُونَ

قِرَاءُ حِمْزَةٍ وَ يَعْقُوبُ، بِالتَّاءِ وَ الْبَاقُونَ بِالْبَاءِ وَ عَلَيْهِ الْمَصَاحِفُ وَ هُوَ الْأَشْهُرُ  
أَي أَوْلَا تَرَوْنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ  
مَرَّتَيْنِ الْفِتْنَةُ الْمَحْنَةُ بِالْقَتْلِ وَ السَّبْيِ وَ نَصَرَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ حَتَّى يَسْتَعْلَى عَلَى  
كُلِّ مَنْ نَاوَاهُ فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَ قِتَادَةٍ وَ قَالَ مُجَاهِدٌ، هِيَ بِالْقَحْطِ وَ الْجَوْعِ، وَ قِيلَ  
هِيَ بِالْمَرَضِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِمْ.

أَقُولُ الْإِفْتِنَانِ الْإِحْتِبَارَ فَقَوْلُهُ يُفْتَنُونَ أَيِ يَخْتَبِرُونَ وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْإِحْتِبَارَ تَارَةً  
يَكُونُ بِالْقَحْطِ وَ تَارَةً بِشُيُوعِ الْأَمْرَاضِ وَ تَارَةً بِالْأَلَامِ وَ الْمَصَائِبِ وَ تَارَةً بِالْغِنَى وَ  
الثَّرْوَةِ وَ هَكَذَا وَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْأَخْبَارِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتَبِرُ جَمِيعَ النَّاسِ  
فِي مَدَّةِ حَيَاتِهِمْ:

قال الله تعالى: أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ،  
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٍ<sup>(٢)</sup>.  
قال الله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً<sup>(٣)</sup>.

أن قلت إذا كان كذلك فما الفرق بين المؤمن والمنافق.

قلت من هذه الجهة لا فرق بينهم وإنما الفرق في أن المؤمن يتذكر ويتوب إلى الله والمنافق لا يتوب ولا يتذكر بل يدوم على ما هو عليه وإلى هذا المعنى أشار بقوله ثم يتوبون ولا هم يذكرون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَي نَظَرَ الْمُنَافِقِينَ إِلَى بَعْضٍ.  
قال بعض المفسرين أي إذا حضروا الرسول وهو يتلوا قرآنًا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرعب على جهة التقدير يقول: هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِذَا تَكَلَّمْتُمْ بِهَذَا فَيَنْقِلُهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وذلك لجهلهم بنبوته وأن الله يطلع على ما يشاء من غيبه.

وقد حكى الطبري عن بعضهم أنه قال، نظر، في هذه الآية موضع قال أي كأنه قال بعضهم لبعض وإلى هذا المعنى ينظر من قال أن، نظر، في هذه الآية بمعنى، أنبأكم أنصرفوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أي ثم يقومون فينصرفون صرف الله قلوبهم، عن رحمته عقوبة لهم بأنهم قوم لا يفقهون، مواعظ الله وأوامره ونواهيهِ وأما قال ذلك في حقهم مع أنهم كانوا عقلاء يفقهون الأشياء لأنهم لم ينظروا فيه حق النظر ولم يتدبروا في القرآن و مواعظ الرسول حق التدبر ولذلك لم يعملوا بموجبه فصاروا كأنهم لم يفقهوه كما يقال لمن لا يتفهم بما يسمع و يبصر صُمٌّ بَكْمٌ عُفَى مع أن الحجة قد تمت عليهم بمجئ الرسول وإلى الإشارة بقوله:

في القرآن في تفسير القرآن

المجلد الثاني

جزء ١١

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ

قيل اللام في قوله: لَقَدْ جَاءَكُمْ للقسمة و عليه فأقسم الله في الآية بأنه قد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، و الخطاب متعلق الى جميع الخلق لأنه الرسول ﷺ قد بعث الى كافة الخلق:

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا<sup>(١)</sup>.

و قوله: مِنْ أَنْفُسِكُمْ أي من جنس البشر فالمعنى أنكم ترجعون الى نفس واحدة:

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ<sup>(٢)</sup>.

و قيل أن المراد بقوله: مِنْ أَنْفُسِكُمْ أي من العرب و على هذا فيكون الخطاب متوجهاً الى العرب خاصة.

و نقل القرطبي أن عبد الله بن قسيط المكي قرأ من أَنْفُسِكُمْ، بفتح الفاء من التفاسير و عليه فالمعنى جاءكم رسولٌ من أشرفكم و أنفسكم أي أفضلكم من قولك شيء نفيس إذا كان مرغوباً فيه.

و قيل أي أكثركم طاعةً، و لكل وجه وجه و مع ذلك لا يخفى عليك أن ضمّ الفاء أولى و عليه جميع المصاحف و المعنى هو بشرٌ مثلكم ليفهموا عنه و تأتموا به إذ لو كان من جنس الملك مثلاً لم تحصل بينكم ألفة أو مؤانسته لعدم السخية بين الملك و البشر و قوله: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ أي يعزّيه عليه مشقتكم و العنت المشقة، و، ما، في ما عنتم مصدرية و هي ابتداء و عزيزٌ خبر مقدّم و قيل: مَا عَنِتُّمْ فاعل بعزير، و عزيز صفة للرسول و كذا قوله: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ و كذا رؤفٌ رحيمٌ، رفع على الصفة، و معنى حريصٌ عليكم أن الرسول حريص على أن تؤمنوا بالله و رسوله و تدخلوا الجنة و هو يدل على كمال رأفته و علاقته بالمؤمنين.

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

الفاء للتفريع والمعنى وأن أعرضوا عن الحق وإتباع الرسول وما يأمرهم به فقل يا محمد حسبي الله أي كفاني الله فأني لا أحتاج الى إيمانكم وذلك لأن نفع الإيمان يرجع اليكم في الدنيا والأخرة ولا أعتمد عليكم بل توكلت وأعتمدت على الله وهو رب العرش العظيم ومن كان الله تعالى مغنيه وناصره فهو غني عن غيره فأنا لله على كل شيء قدير ومحصل الكلام في الآية و سابقتها هو أن الله تعالى بمنه وكرمه ولطفه وعنايته بعباده قد أرسل رسله اليهم في كل عصر وزمان وقد جعل الأنبياء من جنس البشر وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط مع العلم بعدم احتياجه تعالى اليهم في خلقهم ولا في عبادتهم لأنه لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه بل خلقهم على أساس جوده وكرمه وكلفهم وأرسل اليهم الرسل بمقتضى لطفه ورحمته وعلى هذا فمن تولى وأعرض عن الحق فإنه لا يضُر الله شيئاً ومن إهتدى وعمل بما قرره الشارع من الأوامر والنواهي فهو سعيد في الدنيا والأخرة.

قال الله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا<sup>(٢)</sup>.

و من المعلوم أن الداعي الى الحق وظيفته الدعوة فقط قال تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ<sup>(٣)</sup> وهذا آخر الكلام في تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين.

\* \* \*





## سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكُنَ لِلنَّاسِ  
عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ  
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ  
رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي  
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا  
مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ  
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا  
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ  
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ  
الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ  
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ  
ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)  
إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ  
 الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا  
 غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاوِيَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ  
 تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوِيهِمْ  
 فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ  
 دَعْوِيهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

### ◀ اللغة

أَوْحَيْنَا الوحي في الأصل الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمرٌ وحي  
 و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض.  
 لَسَاحِرُ السَّحَرِ الخداع و تخيلات لا حقيقة لها.  
 بِالْقِسْطِ أي بالعدل.  
 حَمِيمٌ وهو الذي أسخن بالنار أشد إسخان.  
 مَاوِيَهُمُ المأوى المكان.

في القرآن في تفسير القرآن

### ◀ الإعراب

أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا؟ أَوْحَيْنَا إسم كان وخبرها عجباً، وللناس  
 حال من عجب و التقدير، أكان عجباً للناس أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ يجوز أن تكون،  
 أن، مصدرية فيكون موضعها نصباً، بأوحينا، و أن تكون بمعنى، أي، فلا يكون  
 لها موضع يُدَبَّرُ الْأَمْرُ يجوز أن يكون مستأنفاً، و أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون



المجلد الثاني

حَالاً وَعَدَّ اللَّهُ هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفَعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَهُوَ قَوْلُهُ: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وَحَقًّا مَصْدَرٌ آخَرُ تَقْدِيرُهُ حَقٌّ ذَلِكَ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ الْجُمْهُورَ عَلَى كَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْإِسْتِنَافِ وَقَرِئَ بِفَتْحِهَا وَالتَّقْدِيرُ حَقٌّ أَنَّهُ يَبْدَأُ فَهُوَ فَاعِلٌ بِمَا كَانُوا فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةِ أُخْرَى، لِعَذَابٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً مَفْعُولَانِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، ضِيَاءٌ، حَالاً وَجَعَلَ بِمَعْنَى خَلَقَ وَالتَّقْدِيرُ ذَاتُ ضِيَاءٍ وَالْقَمَرُ نُورٌ أَيْ ذَا نُورٍ وَقِيلَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَيْ مَنِيراً (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) أَيْ وَقَدَّرَ لَهُ مَنَازِلَ فَحُذِفَ حَرْفُ الْجَزْرِ التَّقْدِيرِ ذَا مَنَازِلَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ خَيْرَ، أَنْ، أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ فَأُولَئِكَ مُبْتَدَأٌ وَمَاؤُهُمْ مُبْتَدَأُ ثَانٍ وَالنَّارُ خَبَرُهُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ، أُولَئِكَ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ فِي، يَهْدِيهِمْ، فِي جَنَاتٍ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِتَجْرِي وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْأَنْهَارِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِيَهْدِي وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ فِي، يَهْدِي، وَأَنْ يَكُونَ خَبَرًا ثَانِيًا، لِأَنَّ دَعْوَهُمْ مُبْتَدَأٌ وَسُبْحَانَكَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ وَهُوَ تَفْسِيرُ الدَّعْوَى لِأَنَّ الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ (فِيهَا) مُتَعَلِّقٌ بِتَحْيَةِ أَنْ الْحَمْدُ أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَقَدْ يقرأ، أَنْ بِتَشْدِيدِ التَّوْنِ وَهِيَ مَصْدَرِيَّةٌ وَالتَّقْدِيرُ آخِرُ دَعْوَاهُمْ فِيهَا حَمْدُ اللَّهِ.

## التفسير

### الر

ليست به آية مستقلة وإنما لم تعد آية كما عد ألم في عدد الكوفيين آية لأن آخره لا يشاكل رؤوس الأي التي بعده ثم أنهم اختلفوا في معنى هذه الحروف التي في أول السور وقد تكلمنا فيه في أول سورة البقرة وأنها أسماء السور ولا يعلم معناها إلا الله تعالى لأنها من الرموز فكل ما قيل أو يقال في معناها استخراجاً ظنية لا مأخذ لها من الشرع تلك آيات الكتاب الحكيم اختلفوا في المشار إليه بقوله تلك، فقال قوم المعنى الآيات التي تقدم ذكرها.

وقيل إشارة الى الكتاب المحكم الذي هو مخزون مكتوب عند الله ومنه نسخ كل كتاب كما قال بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ.

وقيل إشارة الى، أورا وأخواتها من حروف المعجم أي تلك الحروف المفتحة بها السور وأن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المثال وهي آيات الكتاب بها يتلى وألفاظه اليها ترجع، وقيل، تلك، بمعنى هذه والمشار اليه حاضر قريب والأقوال فيها كثيرة والمراد بالكتاب في الآية القرآن وأما وصف بأنه حكيم لأنه دليل على الحق كالتألق بالحكمة ولأنه يؤدي الى المعرفة التي يميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة.

أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ  
الألف في قوله: أَكُنْ ألف إستفهام والمراد به الإنكار أي ليس كذلك قيل  
عجبت العرب و قريش أن يبعث الله نبياً فأنزل الله الآية.

وقال الحسن معناه ليس بعجب ما فعلناه في ذلك والمعنى ألم يبعث الله رسلاً من أهل البادية ولا من الجن ولا من الإنس والعجب تعيّر النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة الى ما يجوز كونه.

وقيل معناه لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة وقوله: أَنْ أَوْحَيْنَا اليه الى الرجل المبعود والوحي بفتح الواو الإشارة السريعة وتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض يكون بصوت مجرد عن التركيب وبأشارة ببعض الجوارح وبالكتابة وقد حمل على ذلك قوله تعالى حكاية عن زكريا.

قال الله تعالى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا<sup>(١)</sup>.

فيه القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فقد قيل، رمزاً وقيل إعتبار وقيل كتب وعلى هذه الوجوه:

قال الله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ<sup>(٢)</sup>.

فذلك بالوسواس المشار اليه:

قال الله تعالى: مِنْ شَرِّ أَلْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ<sup>(٣)</sup>.

وقوله ﷺ أَنَّ لِلشَّيْطَانَ لَمَّةَ الْخَيْرِ وَيُقَالُ لِلْكَلِمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَلْقَى إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَحَيٍّ، وَذَلِكَ عَلَى أَقْسَامٍ حَسَبَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ:

قال الله تعالى: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ<sup>(٤)</sup>

وذلك إما برسولٍ مشاهد ثرى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل النبي في صورة معينة و أما بسماع كلام من معانيه كسماع موسى كلام الله.

و أما بإلقاء في الروح كما ذكر عليه السلام، إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوحِي. و إما بإلهام:

قال الله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْ مُوسَى أَنْ أَرْضِعْهُ<sup>(٥)</sup>.

و أما بتسخير:

قال الله تعالى: وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ<sup>(٦)</sup>.

أو بمنام كما قال ﷺ: إِنْقَطَعَ الْوَحْيُ وَ بَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ فَإِلْهَامٌ وَ التَّسْخِيرُ وَ الْمَنَامُ دَلٌّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِلَّا وَحْيًا وَ سَمَاعُ الْكَلَامِ مَعَانِيَةٌ دَلٌّ

١- الأنعام= ١١٢

٣- ناس= ٣

٢- الأنعام= ١٢١

٤- الشورى= ٥١

٦- النحل= ٦٨

٥- القصص= ٧

عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَزَاءِ حِجَابٍ وَ تَبْلِيغِ جِبْرِيلَ فِي صُورَةٍ مَعِينَةٍ دَلَّ عَلَيْهِ:**  
**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى**  
**حَكِيمٍ<sup>(١)</sup>.**

**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ**  
**وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ<sup>(٢)</sup>.**

إذا عرفت الوحي وأقسامه فقد ظهر لك معنى الآية وأنه لا عجب من وحي الله تعالى الى رجلٍ خاصٍ الذي يسمّى بالنبي اذ لا إشكال فيه بل هو أمرٌ جرى على السيرة المستمرة في جميع الأنبياء.

و أمّا قوله: **وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا** فهو مفاد الوحي و محتواه فكأنه قيل و لم أوحى الله تعالى الى رجلٍ من البشر و ما الفائدة فيه فقال تعالى أن أنذر الآية أي أوحينا اليه أن أنذر الناس من عذاب الله و سخطه في الدنيا و الآخرة و بشر المؤمنين **أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ** أي عَرَفَ لَهُمْ ما فيه السرور و الخلود في نعيم الجنة على وجه الإكرام و الإجلال بالأعمال الصالحة لأن لهم سابقة إخلاص الطاعة كإخلاص الصّدق من شائبة الكذب.

و قال الزّمخشري، **قَدَمَ صِدْقٍ** عند ربهم، أي سابقة و فضلاً و منزلةً رفيعة فأن قلت لم سميت السابقة قدماً.

**قُلْتُ** لما كان السعي و السبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة و السابقة قدماً كما سميت النعمة، يداً لأنها تعطى باليد و باعاً لأن صاحبها يبوع بها ف قيل لفلان قدمٌ في الخير و إضافته الى صديقٍ دلالة على زيادة فضل و أنه من السوابق العظيمة.

و قيل مقام صديق، هذا الكتاب و ما جاء به محمد ﷺ انتهى كلامه.

**قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ** أي قال الكافرون بالله و رسوله أن هذا أي النبي ساحرٌ مبين أي مظهر أو ما أتى به سحرٌ مبين على اختلاف

في تفسير القرآن

جزء ١١

الجلد الثاني

القراءات فعلى قراءة السّاحر يكون هذا، إشارة الى النّبي و على قراءة السّحر إشارة الى القرآن أو ما جاء به النّبي من المعجزات و السّحر يقال على معانٍ:

**الأول:** الخداع و تخيلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبد بصرف الأبصار عمّا يفعله لخفة يد و ما يفعله النّمام بقول مزخرف عاتقٍ للأسماع و على ذلك:

قال الله تعالى: **فَلَمَّا أَتَقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ أَسْتَرَهُبُهُمْ<sup>(١)</sup>**.

**الثاني:** استجلاب معاونة الشّيطان بضربٍ من التّقرب اليه وعلى ذلك:

قال الله تعالى: **وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ<sup>(٢)</sup>**.

**الثالث:** ما يذهب اليه الإغتمام و هو إسم لفعل يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصّور و الطّبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند أهل الفهم و الدّراية و سيأتي البحث ممّا فيه و فى أنواعه فى المستقبل إن شاء الله تعالى و لا شك أنّ نسبة السّحر الى النّبي كذبٌ محض ينشأ من عجز الكاذبين فإنّ العاجز يكذب و يتهم غيره بأنواع التّهم و هذا لا يختصّ بنبيّ الإسلام بل كان شائعاً فى الأمم الماضية أيضاً كما سيأتى.

**إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**

أصل «ستّة» سدسة أبدل من إحدى السّنين تاء و أدغم فى الدّال لأنك تقول فى تصغيرها سديسة و الجمع أسداس و الجمع و التّصغير يردّان الى أصولها بين الله تعالى فى هذه الآية مسائل:

**الأولى:** أن ربكم و هو الذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة الذي خلق أي أوجد السّموات و الأرض فى ستّة أيّام فقال بعضهم أي من أيّام الأخره كلّ يوم ألف سنة.



وقال مجاهد وغيره من أيام الدنيا وإختلفوا في وجه إختصاص الخلق بالسَّنة مع أنه تعالى لو أراد خلقها في لحظة لفعل لأنه على كل شيء قدير على قولين:  
**أحدهما:** أن في إظهارهما كذلك مصلحة للملائكة وعبارة لهم.  
**الثاني:** لما فيه من الاعتبار إذا أخبر عنه بتصرف الحال كما صرف الله الإنسان من حال إلى حال لأن ذلك أبعد من توهم الإتفاق فيه.  
 وفي المقام قول ثالث، وهو أنه تعالى أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور وتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء وأما كيفية خلق السموات والأرض فقد تكلمنا فيها سابقاً بقدر وسعنا والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.  
**الثانية:** قوله **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** الإستواء الإستيلاء بإنشاء التدبير كما يستوي الملك على سرير ملكه بالإستيلاء على تدبيره قال الشاعر:

ثُمَّ اسْتَوَى بَشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ      من غير سيفٍ ودمٍ مهراقٍ  
 وقوله: **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** فالتدبير تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها مأخوذ من الدبر فتجري على أحكام الدابر في الباري.  
**وإعلم أن العرش بفتح العين و سكون الرء في الأصل شيء سَقَفٌ وجمعه عروش.**

قال الله تعالى: **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** (١).  
 ومنه قيل عرشت الكرم وعرشته إذا جعلت له كهيئة السقف وقد يقال لذلك المعرش.

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ** (٢).

قال الله تعالى: **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** (٣).

نبذة القرآن في تفسير القرآن



و سَمِّيَ مَجْلِسُ السُّلْطَانِ عَرْشاً إِعْتِبَاراً بَعْلَوَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَيْكُمُ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ<sup>(٢)</sup>.

إذا عرفت معنى العرش و موارد إطلاقه بحسب العرف فنقول:

أَنَّ عَرْشَ اللَّهِ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِالْإِسْمِ وَ لَيْسَ كَمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ أَوْهَامُ الْعَامَّةِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ حَامِلًا لَهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ لَا مَحْمُولًا وَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ يُفْسِكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ<sup>(٣)</sup>.

فَقَالَ قَوْمٌ هُوَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى وَ الْكُرْسِيُّ فَلَكِ الْكَوَاكِبُ وَ قِيلَ أَنَّ الْعَرْشَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى هُوَ إِمَارَةٌ إِلَى مَمْلَكَتِهِ وَ سُلْطَانُهُ لَا إِلَى مَقَرِّهِ لِيَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. وَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ، قَلْبُ الْمُؤْمِنِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَ كَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْعَرْشَ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ أَوْ الْمُتَعَارَفِ عِنْدَ الْعَوَامِّ لَا يُمْكِنُ إِطْلَاقُهُ عَلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ لِنَتْنِيزِهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى عَنْ كَوْنِهِ فِي الْمَكَانِ أَوْ فِي جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ<sup>(٤)</sup>.

مَا هَذَا لَفْظُهُ وَ الْأَكْثَرُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّهُ إِذَا وَجِبَ تَنْزِيهِ الْبَارِي سَبَّحَانَهُ عَنِ الْجِهَةِ وَ التَّخِيرِ فَمِنْ ضَرُورَةِ ذَلِكَ وَ لَوَاحِقِهِ الْإِلَازِمَةُ عَلَيْهِ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَ قَادَتِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ تَنْزِيهِهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى عَنِ الْجِهَةِ

فليس بجهة فوقٍ عندهم لأنه يلزم من ذلك عندهم متى إختصَّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيزٍ و يلزم على المكان و الحيز الحركة و السكون للمتَّحيز و التَّغْيِير و الحدوث هذا قول المتكلمين و قد كان السلف الأول لا يقولون بنفي الجهة و لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم و الكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه و أخبرت رسله و لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه إستوى على عرشه حقيقةً و خصَّ العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته و أنما جهلوا كيفية الإستواء فأثَّه لا تعلم حقيقته.

قال مالك، الإستواء معلوم يعني في اللغة و الكيف مجهول و السؤال عن هذا بدعة و كذا قالت أم سلمة و هذا القدر كافٍ و من أراد زيادةً عليه فليقف عليه في موضعه انتهى كلامه.

وَأَنَا أَقُول ما ذكره أولاً و نسبه الى المتكلمين لا كلام لنا فيه فأثَّه قد ثبت عقلاً و نقلاً كونه تعالى منزهاً عن الجهة و المكان فليس له عرش بالمعنى المتعارف عند النَّاس.

و أمَّا ما نقله عن السلف الصالح بزعمه من أنه تعالى إستوى على عرشه حقيقةً و أنهم لم يقولوا بنفي الجهة عنه تعالى فهو كفرٌ محض و القائل به خارج عن حوزة الإسلام اللهم إلا أن يقال أنَّ السلف الصالح لم يفهموا و لم يعلموا ما يقولون و هو أمرٌ آخر.

إِنْ قُلْتَ فما معنى قوله: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قلت معناه إستولى عليه لتدبير أمور مملكته و يدل عليه قوله يدبر الأمر.

المسألة الثالثة: قوله مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ و هذا ممَّا لا كلام لأحدٍ فيه و قد مرَّ الكلام في الشفاعة و أنها لا تكون إلا بإذنه تعالى عند قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ<sup>(١)</sup>.

فبناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

المسألة الرابعة: قوله ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ذلك إشارة الى ما مرّ ذكره و بيانه أي أن الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش الى آخره ذلك الله ربكم فاعبدوه و الفاء للتفريع أي فهو الذي يستحق العباداة لا غيره ممن لا يقدر على شيء و اليه الإشارة بقوله: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ الإستفهام للتوبيخ ففيه حث على التذكر و التفكير و على تعرف صحة ما أخبرهم به.

قال بعضهم أما ذكر الشفيع في الآية و لم يجر له ذكر لأن المخاطبين بذلك كانوا يقولون الأصنام شفعاؤهم عند الله كما سيأتي فقال تعالى: مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ثُمَّ قَالَ فِي آخِر كَلَامِهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، أشار بذلك الى أن الأصنام التي لا تعقل فكيف تكون شافعة مع أنه لا شفيع عنده إلا من إرضاه الله.

و محصل الكلام في الآية هو أن الرب الذي ينبغي أن يعبد هو الموصوف بهذه الصفات و أما غيره كائناً ما كان فهو مخلوق مثلكم مردود اليكم و العقل السليم لا يحكم بعبادة المخلوق لمخلوق آخر مثله ثم أعقب الكلام بقوله:

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

أي الى الرب الموصوف بالصفات المذكورة مرجعكم جميعاً أي يرجع اليه جميع الناس موحداً كان أم غيره وعد الله حقاً، مصدر أن أي وعد الله ذلك وعداً و حققه حقاً صدقاً لا خلف فيه و من أصدق من الله قِيلاً.

إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هَذَا هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَهُ وَ حَقَّقَهُ حَقًّا أَي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أَي هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ الْخَلْقَ ابْتِدَاءً وَ هُوَ الَّذِي يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمُ النُّشْأَةَ الْآخَرَى وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ كَمَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ مَعَ أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ أَصْعَبُ وَ أَشْكَلُ مِنَ الْإِعَادَةِ إِرْجَاعِ الشَّيْءِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فَهُوَ مُسْبِقَةٌ بِالْوُجُودِ بِخِلَافِ الْإِبْتِدَاءِ فَأَنَّهُ إِيجَادٌ

الشَّيْءُ بعد أن لم يكن موجوداً ومن المعلوم أنَّ إخراج الشيء من ورطة العدم المحض الى الوجود أصعب من إرجاع الموجود الى ما كان عليه من الوجود مع بقاء المادة الأصلية كما ستعرف تفصيل الكلام في هذه المباحث في أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

و حيث كانت هاهنا فطنة سؤالٍ و هو أنَّه ما الفائدة في الإعادة فقال تعالى:  
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: لِيَجْزِيَ  
لِلْغَايَةِ أَوْ لِلْعَلَّةِ فعلى الأول يكون الجزاء غاية للإعادة.

و على الثاني هو علةٌ و سبب لها و على التقديرين معنى الكلام واضح أنَّ الله تعالى يعيد الخلق ليجزيهم بما عملوا في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ فيجزى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالقسط و العدل أي أنَّ العدل الذي هو وضع الشَّيْءِ في محله يقتضي أن يجزي النَّاسَ على أعمالهم وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ أي أنَّ الذين أنكروا التَّوْحِيدَ وَ النَّبُوَّةَ وَ جحدوا بآيات الله لهم شرابٌ من حميم، و هو الذي أسخن بالنَّارِ أشدَّ إسخانٍ و عَذَابٌ أَلِيمٌ أي مولم بما يكفرون أي بسبب كفرهم إشارة الى أنَّ هذا الجزاء ليس خارجاً عن القسط و العدل بل هو عين العدل لأنَّ السيئة لا تجزى إلا بمثلها فالسبب فيه هو الكفر و ما ربك بظلام للعبيد.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ في الآية مسائل.

الأولى: قوله هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا أي أنَّ الله تعالى جعل الشمس و القمر كذلك لا غيره و يستفاد منه الحصر لأنَّ تقديم المسند اليه أعني به (هو) يفيد الحصر لا ترى أنَّ قول القائل هو القائم يفيد حصر القيام فيه بخلاف قوله هو و كذلك في المقام فأنَّه تعالى مال هو الذي

فعل كذا أو كذا معناه أن غيره لا يقدر عليه فقله: **جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا** معناه إنحصار الفعل فيه وهو المطلوب، والجعل بفتح الجيم و سكون العين واللام في اصطلاح الفلاسفة على قسمين، بسيط و مركب، و البسيط عبارة عن إيجاد الشيء و المركب عبارة عن إيجاد الشيء شيئاً آخر و توضيحه إجمالاً هو أن الوجود ينقسم الى الوجود الرابط و الى الوجود النفسي أي أنه رابط و نفسي، فالجعل البسيط ما كان متعلقة الوجود النفسي و الجعل المركب و قد يعبر عنه بالتأليفي ما كان متعلقة الوجود الرابط فأول جعل الشيء و إضافة نفس الشيء و بلسان الأدباء الجعل المتعدي لواحد.

**والثاني:** و هو المركب عبارة عن جعل الشيء شيئاً و الجعل المتعدي لأثنين و هذا الجعل أعني به المؤلف أو المركب يختص بالعرضيات المفارقة لخلو الذات عنها و لا يتصور بين الشيء و نفسه و لا بينه و بين ذاتياته و لا بينه عوارضه اللازمة كالإنسان إنسان و الأربعة زوج و الإنسان حيوان لأنها نسب ضرورية و أنما قالوا ذلك لأن ثبوت الشيء لنفسه و ذاتياته ضروري و سلبه عن نفسه و هكذا سلب ذاتياته عنه محال فأل الإنسانية للإنسان و الحيوانية له و الزوجية للأربعة و الفردية للثلاثة و الرطوبة للماء و هكذا ضروري لا يمكن سلبها عنه و الى هذا المعنى أشار الشيخ الرئيس أبو علي سينا، حيث قال ما جعل الله الشمس و لكن أوجده.

و أنما قال ذلك لأن المشمشية للمشمش ضروري لا يمكن سلبها عنه فهو أي المشمش غير قابل للجعل التأليفي فلا محالة يكون مجعولاً بالجعل البسيط أعني به صرف الإيجاد لا جعل الشيء شيئاً آخر اذا عرفت معنى الجعل فنقول: قوله: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا** أن قلنا أن الضوء للشمس و النور للقمر ذاتي لهما بحيث لا يمكن مفارقتها عنهما كالزوجية للأربعة و الفردية للثلاثة فهما مجعولان بالجعل البسيط و المعنى أن الله أوجد الشمس والقمر.

وإن قلنا بأنَّ الضَّوءَ مثلاً من العوارض المفارقة للشمس وليس ذاتياً لها فهي أي الشمس معجولة بالجعل المركب أي أنَّ الله تعالى أوجد الشمس وجعلها ذات ضياء والقمر ذا نور وبعبارة أخرى جعل الشمس مضيئة والقمر منيراً وعليه فالإضاءة لها من إفاضات الجاعل الموجد لا من ذاتها والذي يؤدي إليه النظر هو أنَّ الجعل في الآية تركيبياً تألفي لأنَّ الله تعالى يقول: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وفيه إيماء إلى أنَّ الضَّوءَ ليس عين الشمس ولا من ذاتياتها إذ لو كان كذلك لقال هو الذي جعل الشمس والقمر ولم يقل ذلك.

ألا ترى أنَّه لا يقال هو الذي جعل الإنسان إنساناً ويقال هو الذي جعل الإنسان ضاحكاً، ماشياً متكلماً وهكذا ومحصل الكلام هو أنَّ الله تعالى خلق الشمس وأفاض عليها الضَّوءَ وخلق القمر وأفاض عليه النُّورَ ولو بالإكتساب من الشمس فهو من جعل الشئ شيئاً آخر وهو المطلوب.

والشمس يقال للقرصة وللضَّوءَ المنتشر عنها والقمر معلومٌ والله تعالى أثبت للشمس ضياءً وللقمر نوراً.

والضياء بكسر الضاد جمع ضَوْء بفتحها مثل سوط وسياط وحوض وحياض وروض ورياض أو مصدر ضاء ضَوْءً وضياءً مثل قام يقوم وقياماً وصام يصوم وصياماً.

ثم أنَّ الضَّوءَ في الأصل ما إنتشر من الأجسام النيرة يقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءها غيرها.

قال الله تعالى: يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَا فِيهِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ<sup>(٣)</sup>.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

والتُّور بَضَمُ النَّونِ الضُّوءَ المنتشر الَّذِي يعين على الإبصار وهو على ضربين معقولٌ ومحسوسٌ.

**فالأول:** كُتِبَ العقل وتُور القرآن ونور العلم قال <sup>الغلا</sup>عليه السلام نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

**والثاني:** ما إنتشر من الأجسام النيرة كنور القمر والنجوم والنيرات وهذا هو المراد به في المقام فأن نور القمر من الأنوار المحسوسة وعليه فيصير معنى الكلام هو الَّذِي جعل الشَّمْس ذات ضياء والقمر ذا نورٍ وقد ثبت أن القمر يكتسب نور من الشَّمْس فهو في حد ذاته لا نور له ولعله لذلك أثبت الضياء لها والتُّور له أي أن الضُّوء المنتشرة في الشَّمْس حيث أنه من ذات الشَّمْس فيعبر عنه بالضياء وأن لم يكن كذلك فهو تُور.

وقال الرازي أعلم أن التُّور كيفية قابلة للأشد والأضعف فأن نور الصباح أضعف من التُّور الحاصل في أول النهار قبل طلوع الشَّمْس وهو أضعف من التُّور الحاصل في أافية الجدران عند طلوع الشَّمْس وهو أضعف من التُّور الساطع من الشَّمْس على الجدران وهو أضعف من الضُّوء القائم بجرم الشَّمْس فكمال هذه الكيفية المسماة بالضُّوء أقوى من الكيفية القائمة بالشَّمْس فهو من مواقف العقول.

وإختلف الناس في أن الشعاع الفاضل من الشَّمْس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة وإذا أثبت أنه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشَّمْس أو لأجل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه الكيفية في الأجرام المقابلة لقرص الشَّمْس على سبيل العادة فهي مباحث عميقة وأتما يليق الإستقصاء فيها بعلوم المعقولات وإذا عرفت هذا فنقول:

التُّور إسم لأصل هذه الكيفية وأما الضُّوء فهو إسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية والدليل على أنه تعالى سَمَّى الكيفية القائمة بالشَّمْس ضياءً و



الكَيْفِيَّةُ القائمةُ بِالْقَمَرِ نوراً ولا شكَّ أَنَّ الكَيْفِيَّةَ القائمةَ بِالشَّمْسِ أقوى وأكمل من الكَيْفِيَّةِ القائمةَ بالقمر انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** أمّا قوله أَنَّ النُّورَ كَيْفِيَّةٌ قابلةٌ للأشدَّ والأضعف فهو متين ولا كلام لنا فيه لإتفاق الفلاسفة عليه.

قال السبزواري في المنظومة:

مراتباً غنيّ وفقرّاً تختلف كالنور حيثما يقوّي وضعف

و أمّا قوله أَنَّ الشَّعاعَ الفائضَ من الشَّمْسِ عرض فهو مردودٌ وقد ثبت خلافه في هذا العصر بدليلٍ قاطعٍ والبحث فيه خارج عن موضوع الكتاب.

وقوله النُّورُ إسمٌ لأصل هذه الكَيْفِيَّةِ والضَّوءُ إسمٌ لها إذا كانت كاملة قوّة، يحتمل أن يكون صحيحاً إلا أننا لم نسمع هذا الكلام من غيره فلعلّه من إستخراجاته وإستظهاراته ولا إشكال فيه أن ساعده الدليل وعليه فالفرق بين الضَّوءِ والنُّورِ بالشدّة والضعف وحيث أَنَّ النُّورَ في الشَّمْسِ أقوى وأكمل فسُمّي بالضياء وفي القمر أضعف فسُمّي بالنُّورِ فالفرق بينهما بالشدّة والضعف والكمال والنقص وكيف كان ففي الآية دلالة قوّة على التّوحيد فأنّ القادر على هذا الخلق والجعل منحصراً به فهو الله الَّذي لا إله إلا هو.

و أمّا قوله: وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ أَي وقدر مسيره منازل وقيل المعنى قدره ذا منازل وإختلفوا في الضمير في، قدره على قولين:

**أحدهما:** أنّه يرجع الى كلّ واحدٍ من الشَّمْسِ والقمر وحيد الضمير للإيجاز وإلّا فهو في معنى التثنية إكتفاءً بالمعلوم لأنّ عدد السنين والحساب أنما يعرف بسير الشَّمْسِ والقمر نظيره قوله تعالى: وَ اللَّهُ وَ رُسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ (١).

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

**ثانيهم:** أنه يرجع الى القمر و حده لأن بسير القمر تعرف الشهور لأنها مبنية على رؤية الأهلية و السنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية كما قال تعالى: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>** و هذا هو الأقوى في النظر و أوفق بسياق النظم و الأدب، و فيه إشارة الى أن المقدر هو الله تعالى أي أن الله جعله كذلك و تقدير الله الأشياء على وجهين:

**أحدهما:** بإعطاء القدرة.

**الثاني:** بأن يجعلها على مقدار مخصوص و وجه مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة و ذلك أن فعل الله ضربان:

ضرب أوجده بالفعل بأن أبدعه كاملاً دفعةً بحيث لا تعثره الزيادة و التقصان الى أن يشاء أن يغييه أو يبذله كالسموات و ما فيها.

و ضرب جعل أصوله موجوده بالفعل و أجزاءه بالقوة و قدره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح و الزيتون و تقدير مني الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات فتقدير الله تارةً بالحكم منه أن يكون كذا و لا يكون كذا أما على سبيل الوجوب و أما على سبيل الإمكان و على ذلك قوله: **فَدَجَّلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا<sup>(٢)</sup>**.

و تارةً بإعطاء القدرة عليه و منه قوله تعالى: **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَائِرُونَ<sup>(٣)</sup>**.

إذا عرفت هذا فقلوه: **وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ** ليس من إعطاء القدرة للقمر بل هو من القسم الثاني أعني جعله على مقدار مخصوص و وجه مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة فيه، و المنازل هي البروج و كانت العرب تنسب اليها الأنواء و هي ثمانية و عشرون منزلة الشرطين و البطين و الثريا و الدبران و الهقعة و الهنعة و الذراع و النثرة و الطرف و الجبهة و الذبرة و الصرفة و العواء،

و السَّمَالِكِ و الغفر و الزَّيَّانَانِ و الإِكْلِيلِ و القلب و الشَّوْلَةَ، و النَّعَائِمِ و البلدة، و سعد الذَّابِحِ، و سعد بلغ، و سعد السَّعُودِ، و سعد الأَخْبِتِيَّةِ، و الفرع المؤخَّر، و الرِّشَاءِ و هو الحوت.

### لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابِ

و اللَّامُ متعلِّق بقوله: وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ أَي قَدَّرَهُ فِيهَا لتعلموا عدد السِّنِينَ و ذلك لِأَنَّ السِّنِينَ جمع سنة و كُلِّ سَنَةٍ أَثْنِي عَشَرَ شَهْرًا و أَن شُتِ قُلْتُ معرفة السَّنَةِ تَتَوَقَّفُ عَلَى معرفة الشُّهُورِ و الشَّهْرُ لَا يَوْجَدُ إِلَّا بَعْدَ رُؤْيَا الْهِلَالِ فَلَوْلَا وَجُود الْقَمَرِ لَمْ يَعْرِفِ الشَّهْرُ و لَمْ يَعْرِفِ السَّنَةُ و هَذَا مَعْلُومٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ بَيَانٍ وَ مِنْهُ يَعْرِفُ أَنَّ الْحِسَابَ أَيْضًا يَتَوَقَّفُ عَلَى الشَّهْرِ كَالسَّنَةِ فَلَوْلَا الشَّهْرُ وَ لَا سَنَةٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحِسَابَ أَصْلًا.

### مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و المعنى مَا خَلَقَ اللَّهُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ مَا قَدَّرَ فِيهِمَا إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ أَي يُمَيِّزُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ يَصَّحُّ مِنْهُمْ الْإِسْتِدْلَالُ دُونَ الْبَهَائِمِ وَ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ كَالْمَجْنُونِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاقِلَ يَعْلَمُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَ الْمَنَافِعِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ التَّعْيِشُ بِدُونِهَا فَالشَّمْسُ سُلْطَانُ النَّهَارِ وَ الْقَمَرُ سُلْطَانُ اللَّيْلِ وَ بِسَبَبِ وَجُودِ الشَّمْسِ تَنْقَسِمُ السَّنَةُ إِلَى الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ وَ بِهَا تَنْتَظِمُ مَصَالِحُ هَذَا الْعَالَمِ وَ بِحَرَكَةِ الْقَمَرِ تَحْصُلُ الشُّهُورُ وَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابُ وَ بِالْحَرَكَةِ الْيَوْمِيَّةِ تَحْصُلُ النَّهَارُ وَ اللَّيْلِ فَالنَّهَارُ لِلتَّكْسِبِ وَ الطَّلَبِ وَ اللَّيْلِ يَكُونُ زَمَانًا لِلتَّوَمُّ وَ الرَّاحَةِ وَ كُلِّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَ عَظَمِ عَنَايَتِهِ بِهِمْ.

و حيث قد ثبت في موضعه أَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَسَاوِيَةً فَكُلُّ جِسْمٍ بِشَكْلِهِ الْمَعْيَنِ وَ وَضْعُهُ الْمَعْيَنِ وَ حَيْزُهُ الْمَعْيَنِ وَ صِفَتُهُ الْمَعْيَنَةُ وَ أَثَارُهُ الْمَخْتَلِفَةُ لَيْسَ إِلَّا بِتَدْبِيرٍ مَدْبَرٍ حَكِيمٍ قَادِرٍ قَاهِرٍ وَ بِهِ يَظْهَرُ أَنَّ جَمِيعَ الْمَنَافِعِ الْحَاصِلَةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ أَنَّهَا هِيَ بِسَبَبِ حَرَكَاتِ الْأَفْلاكِ وَ الْأَثَارِ الْمَتَرَبِّتَةِ عَلَيْهَا بِتَدْبِيرِ خَالِقِهَا الْمَدْبَرِ الْحَكِيمِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ

قالوا الاختلاف ذهاب كل واحد من الشئين في غير جهة الآخر وعليه  
فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة  
الظلام ولا شك أن جهة الضياء غير جهة الظلام والليل جمع ليلة كتمر وتمر  
وهو عبارة عن ابتداء غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني كما أن النهار  
عبارة عن إتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني الى غروب الشمس وهو اليوم  
بمعنى واحد.

وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ  
أصل الخلق التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشئ من غير أصل  
احتذاء وقد يستعمل في إيجاد الشئ من الشئ.

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (١).

مِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا  
زُجْجَهَا (٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُنُفَّةٍ (٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ (٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ أَلْمَاءٍ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ  
صِهْرًا (٥).

وغيرها من الآيات وليس الخلق بالمعنى الأول وهو الإبداع إلا لله تعالى.

وَأَمَّا الْخَلْقُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي وَهُوَ إِيجَادُ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ فَلَا يَخْتَصُّ بِهِ تَعَالَى

١- الأعراف = ١٨٩

٢- المؤمنون = ١٢

٣- البقرة = ١١٧

٤- النحل = ٤

٥- الفرقان = ٥٤

و الى الفرق بين الخلقين أشار الله تعالى بقوله: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** <sup>(١)</sup> أي أفمن لا يخلق كذلك.

و أما الخلق الذي يكون بالإستحالة فقد جعله الله لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال: **وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي** <sup>(٢)</sup> اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** إشارة الى الموجودات التي خلقها الله فيهما من الملائكة و الإنسان و الحيوان و النبات و الجماد و الجن و غيرها مما يصدق عليه المخلوق فأف في ذلك لأيات لقوم يتقون والآية العلامة و المعنى أن المخلوقات كلها علامات للتوحيد و معرفة الخالق للمتقين كما قال الشاعر:

وفي كل شيء له أية      تدل على أنه واحد

و أما خص ذلك بالمتقين لأنهم هم المتفعون بها دون غيرهم من الغافلين عن أسرار التوحيد و أما تفصيل الكلام فيما خلق الله في السموات والأرض فهو خارج عن قدرة البشر و مع ذلك خارج عن موضوع الكتاب قال الله تعالى: **إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** <sup>(٣)</sup>.

و أنا أقول كما أن النعم غير قابلة للإحصاء كذلك المخلوقات الموجودة غير قابلة لنا للإحصاء و لا سيما في النباتات و الحيوانات و لذلك نرى في زماننا هذا كل يوم يكشف فيه ما كان مجهولاً عندهم قبل اليوم و أظن أن هذه السيرة مستمرة الى آخر الدنيا هذا كله من جهة الإحصاء.

و أما من جهة أن المخلوق كائناً ما كان فهو أية و علامة للتوحيد و معرفة الخالق فالأمر فيها أوضح من أن يخفى على العاقل اللبيب.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ

اللقاء بكسر اللام الملاقاء وهو في الأصل مقابلة الشيء ومصادفته معاً وقد يعبر به عن كل واحد منهما يقال لقيه لقاءً ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة.

قال الله تعالى: وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ (١).

قال الله تعالى: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٢).

والحاصل أَنَّ اللقاء والملاقاء لا يختص بالحس أو بالبصر أو بالبصيرة بل يقال في مطلق الإدراك هذا ثم أَنَّ ملاقاته عز وجل عبارة عن المصير اليه يوم القيامة واليه الإشارة بقوله.

قال الله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوا (٣).

قال الله تعالى: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ (٤).

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٥).

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٦).

إذا عرفت معنى اللقاء فنقول:

قال بعض المفسرين أَنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، يحتمل أمرين:

أحدهما: لا يخافون عقابنا كما قال الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت ندب عواسل

الثاني: معناه لا يطمعون في ثوابنا ومنه قول الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائياً

٢- الكهف = ٦٢

٤- البقرة = ٢٢٩

٦- البقرة = ٤٦

١- آل عمران = ١٤٣

٣- البقرة = ٢٢٣

٥- الإنشقاق = ٦

أي يطمع بنو مروان كذا و الحال أنَّ قومي تميم الخ و عليه فالزجاء يكون  
بمعنى الخوف و الطَّمَع أي لا يخافون عقاباً و لا يرجون أي لا يطمعون ثواباً، و  
جعل لقاء العذاب و الثواب لقاء الله تفخيماً لهما.  
قال القرطبي و قيل يجري اللقاء على ظاهره و هو الرؤية أي لا يطمعون في  
رؤيتنا.

**أقول** هذا الذي ذكره القرطبي من حمل اللقاء على ظاهره و هو الرؤية فهو  
على مسلكه و مذهبه من أنَّ الله تعالى سيرى يوم القيامة برؤية البصر مذهب  
أكثر العامة و قد أقيمت الدلائل على بطلان الرؤية في حقّه تعالى في الدنيا و  
الأخرة عقلاً و نقلاً بما لا مزيد عليه كما سبق ذكره و بيانه و سيأتي البحث في  
هذا الباب بوجه أبسط في موضعه إن شاء الله تعالى.  
و أمّا قوله: **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا فَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ قَنَعُوا**  
**بالحياة الدنيا عن الآخرة، واطمأننوا بها، أي ركنوا إليها على وجه التمكن فيه و**  
**من كان على هذه الصفة فهو مذموم لأنقطاعه بها عن الواجب من أمر الله.**  
**و الوجه فيه هو أنَّ الحياة الدنيا فانية زائلة و الحياة بعد الموت باقية دائمة**  
**لا زوال فيها و لا شك أنَّ الباقي خير من الفاني فمن رجح الفاني على الباقي**  
**فهو مذموم.**

**ثانياً: أنَّ الحياة الدنيوية محفوفة بالألام و الهموم و حياة الآخروية محفوفة**  
**بالسرور لا ألم فيها و لا غم و لا هم، فمن رجح المحفوفة بالهموم و الألام على**  
**المحفوفة بالسرور و اللذات فهو مذموم و اذا كان كذلك فكيف يطمئن العاقل**  
**بما لا بقاء له و لا لذة فيه بل هو بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و يترك الحياة**  
**الدائمة التي لا بلاء فيها و لا فناء و قد ذمَّ الله تعالى الدنيا و حياتها و مدح**  
**الأخرة و بقاءها في كثير من الآيات فتارة:**  
**قال الله تعالى: وَمَا الْخَيْرُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ<sup>(١)</sup>.**

و تارةً يعبر عنها باللّهو واللعب:

قال الله تعالى: **وَمَا الْخَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْخَيَوةُ الدُّنْيَا** <sup>(٢)</sup>.

كما مدح الآخرة والحياة فيها في كثير من الآيات أيضاً.

منها قال الله تعالى: **وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** <sup>(٣)</sup>.

منها قال الله تعالى: **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى** <sup>(٤)</sup>.

منها قال الله تعالى: **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** <sup>(٥)</sup>.

منها قال الله تعالى: **وَلِذَاؤِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** <sup>(٦)</sup>.

منها قال الله تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْخَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** <sup>(٧)</sup>.

منها قال الله تعالى: **وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى** <sup>(٨)</sup>.

و الآيات كثيرة جداً و اذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يرجح العاقل الدّنيا على الآخرة و يطمئن بها و يغفل عنها و هذا من الواضحات.

و أمّا قوله: **وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** فيه إشارة الى الغافلين عن الآيات التكوينية و التشريعية التي تدلّ على وجود خالقها و أمّا ذكر هذا بعد قوله و رضوا بالحياة الدّنيا، لنكتة دقيقة و هي أنّ منشأ الغفلة عن الآيات و التدبر فيها أمّا هو حبّ الدّنيا و إختيارها على الآخرة و الإطمئنان بها و من كان كذلك فلامحالة يكون غافلاً عن الله تعالى فضلاً عن آياته فإنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و منشأ كلّ غفلة و بالجملة فيه خسران الدّنيا و الآخرة أعدنا الله منه.

١- الأنعام = ٧٠

٢- النساء = ٧٧

٣- النحل = ٣٠

٤- الضحى = ٤

١- الأنعام = ٣٢

٢- الأنعام = ٣٢

٣- الأنعام = ٦٧

٤- الزوم = ٧



## أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

قيل الكاف في أولئك حرف الخطاب مثل الكاف في قولهم أنا ذاك ولهذا لم يجز تأكيده ولا البدل منه وأولاء مبني على الكسر لتضمنه معنى الإشارة إلى المعرفة ويستعمل هؤلاء لما قرب، وأولئك لما بعد كما تقول في هذا للقريب وذاك للبعيد لأن ما بعد يقتضي التعريف بالخطاب.

وأما ما قرب يكفي فيه التنبيه والمعنى أولئك الذين تقدم وصفهم في الآية السابقة أعني بهم الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا وغلغولوا عن آياتنا، وأوهم النار، أي مصيرهم اليها بما كانوا يكسبون، الباء للسبب أي بسبب ما كانوا يكسبون بأيديهم ففيه إشارة إلى أنهم بإختيارهم وإرادتهم وقعوا فيما وقعوا فإن ربك ليس بظلام للعبيد ومن المعلوم أنهم لو تابوا ورجعوا عما كانوا عليه يتوب الله عليهم وهو واضح.

## إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

لما بين الله تعالى فيما مضى أن مصير أولئك إلى النار بين في هذه الآية أن مصير المؤمنين إلى الجنة، فقال: (أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وفيه إشارة إلى أن الإيمان لا يتحقق إلا بالعمل الصالح فهو مشروط به وهو الحق خلافاً للعامة حيث لم يشترطوا فيه العمل وقالوا أنه يتحقق بمجرد الاعتقاد وقد تكلمنا فيه سابقاً بما لا مزيد عليه وقلنا أن الآثار مترتبة على الوجود الخارجي.

وأما الوجود الذهني فلا يترتب عليه شيء والإيمان في الخارج يتحقق بالعمل.

وأما قوله: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ فالباء للسبب أي يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم فالإرشاد منه تعالى بمنزلة الجزاء على الإيمان وقيل وصفهم بالهداية

جزاء على إيمانهم به تعالى و تقدير الكلام يهديهم ربهم بإيمانهم الى الجنة و ذلك لأن قوله: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** يدل على ما ذكرناه و يوضحه قوله: **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ و عليه** فالمعنى يهديهم ربهم بسبب إيمانهم الى الجنة التي تجري من تحتها الأنهار التي فيها النعيم يعني أنواع اللذات و المنافع التي يتنعمون بها فيها.

و قال صاحب الكشف يهديهم ربهم بإيمانهم، أي يسددهم بسبب إيمانهم للإستقامة على سلوك السبيل المؤدي الى الثواب و لذلك جعل **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** بياناً له و تفسيراً لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول اليها و يجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم الى طريق الجنة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** ما ذكره صاحب الكشف لا بأس به و يؤيده ما ورد في الأخبار الواردة عن أهل البيت من أن الله تبارك و تعالى يضل الظالمين يوم القيامة عن دار كرامته و يهدي أهل الإيمان و العمل الصالح الى جنته كما قال تعالى: **و يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** (١).

و يفعل الله ما يشاء و قال عز وجل: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**.

**دَعْوِيهِمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوِيهِمْ أَنْ**  
**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**

لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن المؤمنين في جنات النعيم أشار في هذه الآية الى دعاء المؤمنين لله فيها و هو أنهم يقولون، سبحانك اللهم، معناه أننا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت اللهم أياك نعبد و لك نصلي و نسجد، هذا إذا قلنا بأن الدعاء في قوله: **دَعْوِيهِمْ** نداء الله و يتحمل أن يكون

الدَّعَاءُ بِمعنى العبادة، كقوله تعالى: **وَاعْتَزِلْكُمْ** وَ **مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** <sup>(١)</sup> أي ما تعبدون من دون الله و حيث لا تكليف في الجنة فيكون ذلك على سبيل الإبتهاج و الإلتذاذ و أطلق عليه العبادة مجازاً أو أن عبادتهم فيها تسبيح و تحميد و قوله و تحيتهم فيها سلام.

قيل التَّحِيَّةُ مأخوذة من قولهم أحياك الله حياة طيبةً و المعنى تحية بعضهم لبعض فيها سلامٌ، أي سلمت و آمنت ممّا إبتلى به أهل النار و آخر دعوايهم أي خاتمة دعوايهم فيها الحمد لله رب العالمين.

و (أن) هي الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ و الميم في اللهم بمعنى، يا، كأنه قال يا الله، و حَقَّ لهم أن يختموا دعائهم بذلك لأنهم إذا مرَّ بهم الطَّيْر يشتهونه قالوا سبحانك اللهم، فيؤتون به فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا الحمد لله رب العالمين.



وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ  
لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ  
لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ  
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا  
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ  
مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
(١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا  
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ  
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ  
تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ  
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ  
بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَن أَبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي  
إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ  
رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا  
تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ  
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن  
أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا  
يُقْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ  
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ  
شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ  
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ

تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا  
 أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ  
 رَبِّكَ لَفُتِّي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ  
 يَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا  
 الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ  
 الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

### ◀ اللغة

فِي طُعْيَانِهِمْ، الطُّعْيَانُ بَضْمُ الطَّاءِ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْعَصِيَانِ..  
 يَعْْمَهُونَ الْعَمَهُ التَّرَدَّدُ فِي الْأَمْرِ مِنَ التَّحِيرِ.  
 أَلْضُرُّ بَضْمُ الضَّادِ سَوْءُ الْحَالِ إِمَّا فِي نَفْسِهِ وَ أَمَّا فِي بَدَنِهِ.  
 لِحَبْنِهِ بَفَتْحِ الْجِيمِ فِي الْأَصْلِ الْجَارِحَةِ وَ جَمْعُهُ جُنُوبٌ.  
 خَلَايَفَ بَفَتْحِ الْخَاءِ جَمْعُ خَلِيفَةٍ، وَ خُلَفَاءُ جَمْعُ خَلِيفٍ.

### ◀ الإعراب

أَلْشَّرُّ مَفْعُولٌ يَعْبَلُ وَ أَسْتَعْجَلَهُمْ تَقْدِيرُهُ تَعْجِيلًا مَثَلًا إِسْتَعْجَالَهُمْ فَحَذَفَ  
 الْمَصْدَرُ وَصِفَةُ الْمُضَافَةِ وَ أَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُمَا وَ قِيلَ هُوَ مَنْصُوبٌ بِتَقْدِيرِ  
 حَرْفِ الْجَزْأِ أَيِ كَأَسْتَعْجَلَهُمْ وَ هُوَ بَعِيدٌ إِذْ لَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ زَيْدٌ غَلَامٌ عَمْرُو أَيِ  
 كَغَلَامٍ عَمْرُو فَنَدَّرُ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى فِعْلِ مُحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ وَ لَكِنْ نَمَهْلُهُمْ فَحَذَفَ  
 لِحَبْنِهِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيِ دَعَانَا مُضْجَعًا وَ مِثْلُهُ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا وَقِيلَ الْعَامِلُ فِي  
 هَذِهِ الْأَحْوَالِ هُوَ، مَسٌّ، كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْفَاعِلِ فِي، مَرٍّ،  
 مِنْ قَوْلِكُمْ مَتَعَلِّقٌ بِأَهْلِكُنَا وَلَيْسَ بِحَالٍ مِنَ الْقُرُونِ لِأَنَّهُ زَمَانٌ وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
 يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا أَيِ وَ قَدْ جَاءَتْهُمْ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى، ظَلَمُوا.

## ◀ التفسير

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ  
 كلمة لَوْ شَرْطِيَّة وجوابها، لقضى إليهم أجلهم وقرأ ابن عامر و يعقوب،  
 لقضى إليهم، بفتح القاف والباقون بضمها على ما لم يسم فاعله، والشَّر والخير  
 ضدَّان، والشَّر يقال لما يرغب عنه الكل كما أنَّ الخير هو الَّذي يَرغب فيه  
 الكل فالجهل والظلم والخيانة والكذب وأمثالها شرور، والعلم والأمانة و  
 العدالة والصدق وأمثالها خيرات، ثمَّ أنَّ الخير مطلق وهو أن يكون مرغوباً  
 فيه بكلِّ حالٍ و عند كلِّ واحدٍ كما وصف عليه السلام به الجنة فقال لا خير  
 بخير بعده النَّار ولا شرٌّ بشرٍّ بعد الجنة وقد يكونان مقيدان وهو أن يكون خيراً  
 لواحدٍ و شرّاً لآخر كالمال الذي ربماً يكون خيراً لزيد و شرّاً لعمره ولذلك  
 وصفه الله تعالى بالأمرين فقال في موضع:

الْمَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>

وقال في موضع آخر.

قال الله تعالى: أَنْتُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنْهُمْ نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي  
 الْخَيْرَاتِ<sup>(٣)</sup>.

ثمَّ أنَّ الخير يقابل به الشرَّ مرَّةً والضرورة أخرى.

قال الله تعالى: وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ  
 يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٤)</sup>

إذا عرفت معنى الخير والشر فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية.

## وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ

قيل في معناه أي ما يدعون به من الشر على أنفسهم و أولادهم في حال ضجرٍ و بطرٍ و شدّةٍ لو يعجل الله تعالى لهم العقوبة كما يستعجلون الثواب و الخير لماتوا و بعبارةٍ أخرى دعاء الإنسان لا يخلو إما أن يدعو بخيرٍ و أما أن يدعو بشرٍ في الحالين يطلب من الله الإجابة و لكن الله يؤخر إجابة الشر و يسرع في إجابة الخير و ذلك لمصلحة ذكرها في الآية و هو أنه تعالى لو عجل لهم العقوبة في دعاء الشر كما يعجل في جانب الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ و إنقضاء الأجل كناية عن الموت أي لو كان الإستعجال في المقامين على حدٍّ سواء لماتوا.

قال بعض المفسرين أنه خاص بالكافر أي و لو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال و الولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة.

و قال مقاتل هو قول النضر بن الحارث: **اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ<sup>(١)</sup>** و قال مجاهد نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب، اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك له فيه و ألعنه أو نحو هذا فلو أستجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي اليهم أجلهم فالآية نزلت دأمةً لخلقٍ ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر فلو عجل لهم لهلكوا.

قال بعضهم التعجيل من الله و الإستعجال من العبد.

و قال أبو علي هما من الله و في الكلام حذف أي و ليعجل الله للناس الشر تعجيلاً مثل إستعجالهم بالخير، ثم حذف تعجيلاً و أقام صفة مقامه ثم حذف

صفة وأقام المضاف اليه مقامه فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ معناه ترك الذين لا يخافون لقاءنا أو لا يطمعون فيه بمعنى أنهم لا يخافون عقاب معاصينا ولا يطمعون في ثواب طاعتنا في طغيانهم يعمهون، الطغيان العُلو وتجاوز الحد في ظلم العباد والعمه الحيرة والتردد والمعنى نتركهم في طغيانهم يتحيرون وأنما نتركهم ليتوبوا من ذلك و قبل المعنى نتركهم في الآخرة يتحيرون في جزاء طغيانهم.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ  
المس بفتح الميم كاللمس وزناً ومعنى لكنّ اللمس قد يقال لطلب الشيء و أن لم يوجد والمس يقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس وكني به عن النكاح.  
قال الله تعالى: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ<sup>(١)</sup>.  
وكني به عن الجنون في.

قال الله تعالى: الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ<sup>(٢)</sup>.  
والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى  
قال الله تعالى: مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ<sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ<sup>(٤)</sup>.

والضر بضم الصاد سوء الحال وهو إما في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفة. وإما في بدنه لعدم جارحة أو نقص منه.  
و أما في حالة ظاهرة من قلّة مالٍ وجاهٍ والضر في المقام محتمل للأقسام الثلاثة.



فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال الإنسان إذا ناله الضرُّ أيُّ ضرٌّ كان و عن قلة صبره في المكروهات الواردة عليه سواء كان قائماً أو قاعداً إذا أطاقه أو على جنبه من شدة المرض فهو في هذه الحالة يجتهد في الدعاء فيدعو الله و يطلب منه العافية و أنما غرضه في ذلك زوال ما هو فيه من الآلام و ليس غرضه نيل الثواب للأخرة فإذا كشف ذلك الضرُّ و أعطاه العافية مرَّ معرضاً عن شكر ما وهبه الله من العافية و لا يتذكر ما كان من الآلام و صار في ذلك بمنزلة من لم يدع الله كشف ألمه و لا سألَه إزالة الضرر عنه الذي كان به كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و المزين لهم هو الشيطان أي أنه زين لهم أعمالهم السيئة، و إغواءهم بها و بترك شكر نعم الله الذي يجب على المنعم عليه عقلاً و شرعاً.

و المقصود من الآية أنه ينبغي لمن وهب الله له العافية بعد المرض أو الفقر أو مطلق الشدة أن يتذكر حسن صنع الله اليه فيشكره على ذلك فإن شكر المنعم واجب عقلاً و مع ذلك فيه تنبيه على أنه يجب عليه الصبر في الشدائد و الآلام و ترك الجزع عند احتساب الأجر و طلب الثواب في الصبر على ذلك و أن يعلم أن الله محسنٌ اليه بذلك و ليس بظالم له أعاننا الله عليه هذا كله بمقتضى ظاهر الآية بالنسبة الى الضعفاء و المتوسطين من المؤمنين المؤمنين الحقيقي الذي وصل الى مقام الرضا و التسليم فهو يعلم أن ما قدره الله له من الصحة و المرض و الفقر و الغنى و الشدة و الرخاء كل ذلك بمقتضى مصلحته و حكمته و أنه لا يحب للعبد إلا ما هو خير له و أن كان العبد، جاهلاً له.

قال الله تعالى: وَ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup>  
قال الله تعالى: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا<sup>(٢)</sup>

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

و محصّل الكلام أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفساد الواقعيّة و لا فرق في ذلك بين الأحكام الشرعيّة من الأوامر و النواهي و غيرها من المقدّرات المعلوم أنّ العلم بالمصالح و المفساد مختصّ به تعالى.

و أيضاً لا شكّ أنّ الله تعالى رؤوفّ بعباده كما وصف نفسه بذلك في كثير من الآيات و إذا كان الأمر على هذا المنوال فهو بمقتضى علمه و رأفته لا يحكم بما فيه مفسدة في حقّ العبد كما أنّه لا يظلم عليه أبداً و عليه فكلّ ما أعطاه للعبد خير له قطعاً و أن كان في نظر العبد شراً و إذا كان العبد راضياً بحكمه تسليماً لقضاءه فقد يكون شاكرّاً له على كلّ حالٍ إلّا أنّ هؤلاء الأخيار أعزّ من الكبريت الأحمر.

قال الله تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**<sup>(١)</sup>.

**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ.**

قيل اللّام في قوله: **وَلَقَدْ** للقسمة و القرون بضمّ القاف جمع قرن بفتحها و سمّي أهل كلّ عصرٍ قرناً لمقارنة بعضهم لبعض و القرن هو المقاوم لقرينه في الشدّة و الظلم وضع الشّي في غير محلّه.

و أن شئت قلت هو التّجاوز عن الحدّ، أقسم الله تعالى في هذه الآية أنّه أهلك من كان قبل هذه الأمتة من القرون و علل ذلك بأنّهم ظلموا بعد ما جاءتهم الرّسل من قبل الله اليهم بالبيّنات من المعجزات و الكرامات الدالّة على صدق دعوايهم و في قوله و ما كانوا ليؤمنوا، إشارة الى عنادهم و ثباتهم على ما كانوا عليه من الظلم و قوله: **وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُخْسِنِينَ**<sup>(٢)</sup> إشارة الى أنّ حكم الأمثال واحد أي أنّ الإهلاك لم يكن مختصّاً بهم بل هو ثابت لكلّ مجرمٍ

ظالم من آية أمة كان وذلك لأنَّ علَّة الإهلاك هي ظلمهم بعد تمامية الحجة بواسطة الرسل وهذه العلَّة أينما وجدت يترتب عليها وجود المعلول الإهلاك وهو المطلوب.

فهذا تفسير ألفاظ الآية و أن شئت الإطلاع على كيفية إهلاك القرون و سببه فعليك بمراجعة التواريخ.

و قد أشار الله تعالى الى شطر منه في كتابه:

قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِءْيَا** <sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ** <sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ** <sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: **فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَبَقِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** <sup>(٩)</sup>.

و الآيات كثيرة جداً.

نبذة القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

١- النجم=٥٠

٢- الحجر=٤

٣- مريم=٧٤

٤- القمر=٥١

٥- القصص=٧٨

٦- الأنعام=٦

٧- الإسراء=١٧

٨- مريم=٩٨

٩- الحج=٢٥

## تَنْبِيْهٌ

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ هُوَ أَنَّ الظُّلْمَ صَارَ سَبَباً لِإِهْلَاكِ الْقُرُونِ  
كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْهَا وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ أَعَمُّ مِنَ الْكُفْرِ وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ  
أَرَادُوا بِالظُّلْمِ الْكُفْرَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَصْرَوْنَ عَلَى  
كُفْرِهِمْ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ، لَمَّا ظَلَمُوا أَيَّ كُفْرًا وَأَشْرَكُوا.

وَبِهِ قَالَ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ مَفْسَّرِي الْعَامَّةِ وَلَعَلَّ الْوَجْهَ فِيهِ هُوَ أَنَّهُمْ اسْتَفَادُوا  
ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: **وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** فَعَبَّرُوا فِي كَلِمَاتِهِمْ عَنْ عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ بِالْكَفْرِ  
وَهَذَا كَمَا تَرَى لَا يَسَاعِدُ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الظُّلْمِ أَوْ عَدَمُ الْإِيْمَانِ  
هُوَ الْكُفْرُ فَحَقَّ الْكَلَامُ أَنَّ يُقَالُ فِيهِ لَمَّا كُفَرُوا، بِدَلِّ قَوْلِهِ: **لَمَّا ظَلَمُوا**.

وَأَنَّ يُقَالُ وَمَا كَانُوا لِيَسْلَمُوا بِدَلِّ قَوْلِهِ: **لِيُؤْمِنُوا** وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَإِذَا كَانَ  
كَذَلِكَ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا الدَّاعِي لَهُمْ عَلَى حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهِ مَعَ  
إِمْكَانِ حَمْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ هَذَا أَوَّلًا.

ثَانِيًا: أَنَّ قَوْلَ بَعْضِهِمْ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كَفَّارِ مَكَّةَ وَأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ يَخْوْفُهُمْ مِنْ  
الْعَذَابِ بِتَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ، لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلِ الْآيَةُ بَاقِيَةٌ عَلَى عُمُومِهَا وَأَنَّهَا  
بَصْدَدَ بَيَانَ حُكْمِ كُلِّيِّ عَامٍ وَهُوَ أَنَّ الْأُمَّمَ الْمَاضِيَةَ لَمَّا أَهْلَكُوا بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ  
فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَوْ سَلَكَتْ مَسْلَكَهُمْ وَظَلَمُوا يَتَرْتَّبُ عَلَى ظُلْمِهِمُ الْعَذَابُ وَ  
الْإِهْلَاكُ وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي نَقْلِ قِصَصِ الْقُرْآنِ فَالْمَلَاكُ كُلُّ الْمَلَاكِ فِي الْإِهْلَاكِ  
هُوَ الظُّلْمُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُ الشَّامِلُ لِلْكَفْرِ أَيْضًا بَلْ قُلْنَا أَنَّ الْكَافِرَ الْعَادِلَ خَارِجٌ عَنْ  
مَصْدَاقِ الْآيَةِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذْ لَيْسَ كُلُّ كَافِرٍ ظَالِمٌ عَلَى غَيْرِهِ نَعَمْ أَنَّهُ ظَالِمٌ عَلَى  
نَفْسِهِ وَالْآيَةُ ظَاهِرَةٌ فِي الظُّلْمِ عَلَى الْغَيْرِ وَكَيْفَ كَانَ فَحَمِلَ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَ  
هُوَ الظُّلْمُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُ هُوَ الْمَعْتَمَدُ وَالْمُخَالَفُ يَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ وَإِذْ لَيْسَ  
فَلَيْسَ وَعَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَذَّرَ النَّاسَ عَنْ  
الظُّلْمِ بَلْ هَدَدَهُمْ عَلَيْهِ وَأَفَادَ أَنَّ مَالَ الْأُمَّةِ الظَّالِمَةِ بَعْدَ تَمَامِيَةِ الْحُجَّةِ إِلَى

الهلاك و الفناء في الدنيا و العذاب في الآخرة و هذا هو جزاء المجرم العاص لا غير، نعم في الآية موعظة و تذكير بأن حكم الأمثال واحد.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

قلنا أن الخلائف جمع خليفة و الخطاب في الآية لهذه الأمة الإسلامية و كلمة، ثم تفيد التأخير و المعنى أنا أخرناكم عن القرون من قبلكم في الحياة الدنيا و جعلناكم خلائف لهم في الأرض من بعد موتهم و هلاكهم بسبب ظلمهم لننظر كيف تعملون.

أن قيل كيف جاز النَّظَر على الله تعالى و فيه معنى المقابلة، يقال في الجواب هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ موجوداً شبه بنظر الناظر و عيان المعايين في تحقيقه قاله في الكشف.

و قال بعض المفسرين في قوله: لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فيه دلالة لهم على أنني أفعل بكم هذين، الثواب أن أمتنم و أطعم و العذاب أن كفرتم و عصيتم و استعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله أهل اللغة على هذا المعنى لأنهم لا يعلمون ما يكون من المكلفين و ما يفعل بهم من الثواب و العقاب و هو عالمٌ بذلك و مثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الإنسان يقول القائل لغلامه الذي يأمره، أنني سأعاقبك و أضربك لأنظر كيف صبرك و أعطيك مالاً لأنظر كيف تعمل، و أن كان عالماً بما يؤل إليه الأمر في ذلك انتهى كلامه.

و قال الآخر معناه ليقع منكم ما تستحقون به من الثواب و العقاب و لم يزل يعلمه غيباً، و قيل يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل.

و قيل النَّظَر راجع الى الرِّسَال أي لينظر رسلنا و أوليائنا كيف أعمالكم، و كيف نصب بقوله تعملون لأنَّ الإستفهام له صدر الكلام انتهى.

و قال الرّازي أنّه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله: **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** <sup>(١)</sup> و قد مرّ نظائر هذا رسول الله ﷺ أنّ الدنيا خضرة حلوة و أنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. و قال قتادة صدق الله ربّنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر الى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل و النهار انتهى.

**أقول** فهذه أقوالهم في المسألة و أنا أقول:

النّظر في الأصل تليب البصر و البصيرة لإدراك الشّي و رؤيته و قد يراد به التأمّل و الفحص و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص و هو الرّؤية يقال نظرت فمل تنظر أي لم تتأمّل و لم تترو فقوله تعالى: **قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ** <sup>(٢)</sup> أي تأملوا فيها و إستعمال النّظر في البصر أكثر عند العامّة البصيرة أكثر عند الخاصّة، **فَمِنَ الْأَوَّلِ**:

قال الله تعالى: **وَ إِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **فَقَدْ رَأَيْنُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** <sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ، وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ** <sup>(٧)</sup> و

غيرها من الآيات.

**من الثاني**: أعني به إستعماله في البصيرة.

قال الله تعالى: **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** <sup>(٨)</sup>.

أي أفلا يتأمّلون في خلقها.

١- هود = ٧

٢- يونس = ١٠١

٣- التوبة = ١٢٧

٤- البقرة = ٥٠

٥- البقرة = ٥٥

٦- آل عمران = ١٤٢

٧- الغاشية = ١٧

٨- الواقعة = ٨٣/٨٤

قال الله تعالى: فَتَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ غَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>(٣)</sup>.

فهذه الآيات وأمثالهما مما أستعمل فيها بمعنى البصيرة والتأمل في المنظور اليه اذا عرفت هذا و علمت أَنَّ النَّظَرَ يستعمل في لغة العرب في كلا المعنيين فنقول:

النَّظَرُ في حَقِّه تعالى الى عبادته معناه إحسانه اليهم وإفاضة نعمه عليهم.

قال الله تعالى: وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: كَذَلِكَ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ<sup>(٥)</sup>.

معناه منع إحسانه اليهم أو عدم إعتناء بهم والحاصل هو أَنَّ نظر الله الى عبادته هو كناية عن تَوَجُّه المعبود اليهم بنظر الرَّحْمَةِ والرَّأْفَةِ والعناية و عليه فيصير معنى الآية ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم أي من بعد القرون الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ لينظر كيف تعملون، يَأْتِي لتظهر أعمالكم من الخير والشر و هل تستحقون بها الرَّحْمَةَ أو العذاب فيه إختبارٌ لهم ليهلك من هلك عن بينة و هو واضح.

وَ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ أَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّ الكُفَّارَ اذا قرأ النَّبِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ و بَيِّنَاتِهِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، أي لقاء عذاب الله إن عصوه أو ثواب الله إن

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

١- الأعراف = ١٨٥

١- الصّافات = ٨٨/٨٩

٢- آل عمران = ٧٧

٣- يوسف = ١٠٩

٥- المطففين = ١٥

أطاعوه، أنت بقرآنٍ غير هذا الَّذِي تتلوه علينا، أو يَدِّلُه أي يَدِّلُ القرآنَ بغيره و التَّبدِيلُ لا يكون إلا برفعهِ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لَهُؤُلَاءِ الْكَفَّارُ لَيْسَ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي أَيُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِي وَ نَاحِيَةِ نَفْسِي، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَتَّبِعُ إِلَّا الَّذِي يُوحَىٰ إِلَيَّ، وَ كَلِمَةً، مَا، وَ كَلِمَةً، إِنْ، لِلتَّغْيِ بِمَعْنَى لَيْسَ إِلَيَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي فِي إِتِّبَاعِ غَيْرِهِ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال بعضهم أَنَّ الآيةَ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ يَجُوبُ التَّبدِيلُ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ السَّنَةَ لَا يَقُولُهَا النَّبِيُّ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ. قال الله تعالى: وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ<sup>(١)</sup>.

هذا تفسير ألفاظ الآية و فيها مسائل يجب التنبيه عليها:

**الأولى:** لم قالوا أنت بقرآنٍ غير هذا أو يَدِّلُه و ما الفرق بين المقامين، أقول أنما قالوا ذلك لأنَّ بعض الآيات كان مخالفاً لأُميالهم و شهواتهم النفسانية مثل آية الرِّبَاءِ وَ الزَّنا وَ شرب الخمر و القمار و أمثال ذلك من الآيات الَّتِي نزلت في المحرَّمات بل أكثر الواجبات مثل الصَّوم وَ لا زكاة وَ الجهاد وَ غيرها وَ ذلك لأنَّ النَّاسَ عبيد الدنْيَا وَ الدِّينَ لثَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمُ الْخ.

و لَمَّا كَانَ كَذَلِكَ فَقَالُوا مَا قَالُوا وَ أَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِمْ أَنْتَ بَقْرَآنٍ غَيْرِ هَذَا وَ قَوْلِهِمْ يَدِّلُهُ، فَهُوَ أَنَّ الْإِيتِيَانِ بغيره قَدْ يَكُونُ مَعَهُ وَ أَمَّا التَّبدِيلُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِرَفْعِهِ.

**الثانية:** أَنَّ وَصْفَهُمْ بِكَوْنِهِمْ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ قِيلَ أَرِيدَ بِهِ كَوْنَهُمْ مَكْذِبِينَ بِالْحَشْرِ وَ النَّشْرِ مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ وَ الْقِيَامَةِ وَ لِأَنَّ مَنْ لَا يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ مَعْنَاهُ لَا يَرْجُو لِقَاءَ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَخَافُ أَيْضاً مَا يُوْعَدُهُ بِهِ مِنَ الْعِقَابِ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مِنْ لَا يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ لَا يَخَافُ عِقَابَهُ أَيْضاً وَ هُوَ



كاشف عن إنكاره الحشر و النّشر و الثّواب و العقاب و جمع ذلك يرجع الى إنكار الله تعالى فثبت وتحقق أنّ الذين لا يرجون لقاء الله هم الكفّار المنكرين للتّوحيد و النّبوة و المعاد.

الثّالثة: قوله: **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** فيه إشارة الى أنّ القرآن كلام الله تعالى لا كلام النّبي ولا كلام غيره من المخلوق وذلك لأنّه لو كان من كلام النّبي لم يقل: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** فأدّ معنى هذا الكلام هو أنّ النّبي كان تابعاً للوحي فيه

ومن المعلوم أنّ تبديل ما كان بالوحي لا يمكن إلّا بالوحي و أمّا ما كان بغير وحي فتبديله لا يحتاج اليه و حيث أنّه ﷺ قال: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** نكشف عنه أنّ القرآن كلام الله و قد أوحى الله تعالى به الى نبيّه و هو المطلوب. و يدلّ على ذلك.

قال الله تعالى: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** (١).

قال الله تعالى: **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ** (٢).

قال الله تعالى: **وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ** (٣).

قال الله تعالى: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ** (٤).

قال الله تعالى: **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** (٥).

قال الله تعالى: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (٦) والآيات كثيرة.

٢- يوسف = ٣

٤- الكهف = ١١٠

٦- سورة الزّخرف آية ٢٣

١- النّجم = ٤

٣- يونس = ١٠٩

٥- طه = ١٣

الرابعة: قوله إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فيه إشارة إلى أَنْ التصرف في كلام الله من تلقاء النفس معصية والعاصي يعذب غداً يوم القيامة وهو كذلك ولا فرق في ذلك بين النبي وغيره من أحاد الناس فأَنْ المعصية معصية سواء صدرت عن النبي أو صدرت من غيره بل هي منه أعظم وعذابه أشدّ وإذا كان النبي ﷺ وهو يقول: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وما ظنك بمن سواه كائناً من كان ويستفاد من مجموع ما ذكرناه في تفسير الآية وجوب حفظ الآيات عن التحريف والتغيير بأي نحو كان وحتى التحرز عن تفسيرها بالرأي لأنه أيضاً داخل في التغيير التبديل بل هو الأصل فيهما فأَنْ اللفظ يجب مراعاته تحفظاً على المعنى وإلا فهو مع قطع النظر عن المعنى ليس بشيء ولذلك قال رسول الله ﷺ من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون كذا وكذا لو شاء الله ما أرسلني اليكم فتلوت عليكم القرآن ولا أدريكم به أي أعلمكم الله ولا أخبركم به فقد لبثت فيكم عمراً وهو أربعون سنة من قبله أي من قبل أن أبعث أو من قبل أن أتلو عليكم الآيات أفلا تعقلون.

روي أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ إئتنا بقرآن غير هذا فإن هذا شيء تعلمته من اليهود والنصارى قال الله عز وجل: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَيْ قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ لَمْ أَتَكُم بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أُوْحِيَ اللَّهُ إِلَيَّ بِهِ، وفي قوله: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ إشارة إلى نكته دقيقة وهي أن المنكرين والكفار زعموا أن القرآن ليس من عند الله ولا هو كلامه بل هو من كلام الرسول وقد تعلمه من اليهود والنصارى ولذلك قالوا له

انت بقرآنٍ غير هذا أو بدله، فأمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم ليس لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى الخ.  
و حيث أنهم لم يقنعوا بهذا الجواب أمره الله تعالى ثانياً أن يقول لهم.

**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ**

أي أنني تلوته عليكم بمشيئة الله وإرادته فقد لبثت فيكم عمراً أفلا تعقلون، أي أنكم عرفتموني في مدة أربعين سنة و علمتم أنني ما طالعت كتاباً ولا رأيت أستاذاً ولا تعلّمت من أحدٍ ثم بعد مضي أربعين سنة جئتكم بهذا الكتاب الذي يشتمل على نفائس الأصول و دقائق الأحكام و لطائف علم الأخلاق و بالجملة جميع ما يحتاج اليه البشر في الدنيا و الآخرة و قد عجز عن معارضته العلماء و الخطباء و الفصحاء.

و العاقل لا يشك أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي إذ لو كان من كلام البشر لما عجز عن معارضته البلغاء هذا كلّهُ مضافاً الى أنكم ما سمعتم في مدة أربعين سنة مني كذباً ولا رأيتم مني خيانة.

فكيف تزعمون أن الكتاب من إختلاقي و إفتعالي، أفلا تعقلون، قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** على سبيل الإستفهام الإنكاري دلالة على عنادهم ولجاجهم كما هو دأب كثير من أبناء الدنيا و المغرورين بها فأنهم اذا رأوا شيئاً مخالفاً لمقاصدهم و أمالهم أنكروه اذ لا حرب لهم في قتالهم مع الحق إلا الإنكار. و الدليل على ذلك هو قوله تعالى حكايةً من أهل الكتاب.

قال الله تعالى: **الَّذِينَ اتَّخَذْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَغْرُقُونَ كَمَا يَغْرُقُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** (١).

قال الله تعالى: **يَغْرُقُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم  
في تفسير القرآن



قال الله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ<sup>(١)</sup> وغيرها من الآيات.

فقوله: أَقْلًا تَعْقِلُونَ ليس على سبيل الإستفهام الحقيقي لعلم الرسول بأن المنكرين كانوا من عقلاء زمانهم ولكن العقل اذا صار مقهوراً مغلوباً للشهوات وهو كالعدم أعاذنا الله منه.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ.

قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ كلمة من إستفهامية والمراد هنا الإستعظام والإخبار به أي أنه لا أحد أظلم ممن إخترع كلاماً أو خبراً ثم أضافه الى الله و يريد به النبي نفسه لو كان فعل أو كذب بآياته وهم الكفار والمكذبون لأنهم كذبوا بآياته.

ومن المعلوم أنه لا يفلح المجرمون، وهذه الآية ناظرة الى الآية السابقة فقوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ناظر الى النبي وقوله أو كذب بآياته الخ الى الكفار المنكرين.

و تقريره هو أنكم أيها الكفار تقولون أن القرآن ليس من عند الله فالنبي إفتري على الله كذباً حيث قال أنه من عند الله ويلزم من ذلك أن يكون النبي من أظلم الناس لإفتراءه على الله ولا يقول به عاقل.

و أما أنتم فلتكذيبكم آيات الله تعدون من المجرمين والمجرم لا يفلح و بعبارة أخرى من أظلم من المفترى على الله ومن المكذب آيات الله ولما كان الإفتراء من أقيح الظلم ولا سيما الإفتراء على الله فالنبي ﷺ منزه عنه فما قاله النبي لكم حق لا مرية فيه وأما التكذيب لآيات الله فهو ثابت لكم فأنتم من المجرمين الذين لا يفلحون وأتما قال لا أحد أظلم ممن هذه صفة لأنه ظلم كفر وهو أعظم من ظلم غيره من أقسام الظلم.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ

العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى والعبادة ضربان:

عبادة بالتسخير وعبادة بالإختيار وهي لذوي النطق وهي المأمور بها في الدين وما نحن فيه من هذا القبيل فقوله: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يعني يعبدونه بالإختيار والإرادة.

والعبادة بهذا المعنى يترتب عليها الثواب أو العقاب فأن كانت له تعالى يثاب فاعلمها وأن كانت لغيره يعاقب عليها والمعنى أن هؤلاء الكفار يعبدون بإختيارهم من دون الله من الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع لهم بمعنى أن وجودها كالعدم وما كان كذلك لا ينبغي أن يعبد.

إن قلت كيف يصح ذمهم على عبادة الوثن الذي لا يضر ولا ينفع مع أنه لو نفع وضر أيضاً لم تجز عبادته.

قلت إذا كان من يضر وينفع قد لا يستحق العبادة إذا لم يقدر على أصول النعم فمن لا يقدر على النفع والضرر أبعد من أن يستحق العبادة، هكذا قال بعض المفسرين.

إن قلت الأصنام والأوثان بل وكل ما يعبد من دون الله وإن لا ينفع إلا أنه يضر لأنه يوجب العذاب في الآخرة ويضيع العمر في الدنيا وأي ضرر أعظم من خسران الدنيا والآخرة وإذا كان كذلك فما معنى قوله تعالى: لَا يَضُرُّهُمْ.

قلت أن عابد الوثن مثلاً إنما يستضر بعبادته من جهة العبادة وعبادة أخرى الإستضرار من جهة عبادته إياه لا من جهة الوثن لأنه جماد ولا يعقل النفع والضرر من ناحيته وأما قوله: وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا معناه أننا نعبد الأصنام لنشفع لنا عند الله ولم يعلموا أن الجماد لا يشفع فأن الشفع لا يكون إلا عاقلاً وهو ظاهر وكيف يشفع ما لا يضر ولا ينفع.

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

أمر الله نبيه أن يقول لهم أتنبئون أى أخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الأوثان وكونها شافعة لأن ذلك لو كان صحيحاً لكان الله به عالماً ولما نفى العلم بذلك نفى المعلوم سبحانه وتعالى عما يشركون تنزيه منه تعالى لنفسه وتنزيه من أن يُعبد معه إله أو يتخذ من دونه معبود و زبعبارة أخرى أخبرون الله أن له شريكاً في ملكه أو شافعياً بغير إذنه والله تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً في السموات والأرض لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه لأن نفي المعلوم يستلزم نفي العلم كما يقال أن الله تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً معناه أنه لا شريك له وفيه دلالة على أن العلم لا يتعلق بالمعدوم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

الأمة الجماعة التي على معنى واحد في خلق أو ما يستمر على عبادته بالظاهر فعلى هذا الناس أمة والطير أمة قیل والمراد هاهنا أنها كانت على دين واحد ثم أنهم اختلفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الاختلاف بينهم على أقوال.

فقيل أنهم كانوا على الشرك لقوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ<sup>(١)</sup> وقيل أراد بذلك العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ فأنهم كانوا مشركين فلما بعث النبي آمن به قوم وكفر به آخرون، وقيل أنهم كانوا على الإسلام في عهد آدم ولده وأختلفوا عند قتل أحد بنيهِ الإبن الثاني.

وقيل أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْكُفْرِ وَ أَنْكَرَهُ قَوْمٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا<sup>(١)</sup> فلو كانوا على الكفر لما كان فيهم شهيد أصلاً هذه الأقوال نقله الشيخ في التبيان.

وقال صاحب الكشاف و ما كان الناس إلا أمة واحدة، أي حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم و ذلك في عهد آدم الى أن قتل قابيل هابيل.

وقيل بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً.

وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام الى أن غيّر عمرو بن لحي و على هذا القول فالمراد بقوله: وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا العرب خاصة.

أقول الأقوال المذكورة و غيرها ممّا هو مسطور في التفاسير على نمطٍ واحدٍ و هو أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِيمَانِ فَاخْتَلَفُوا أَوْ عَلَى الْكُفْرِ فَاخْتَلَفُوا فأمّن بعض و كفر بعض و هذا هو حاصل الأقوال المذكورة لكن لا يساعده العقل و النقل.

أما العقل فلاّ المقصود من الأمة أعني بها الجماعة هو جماعة الناس ممّا لا خلاف فيه بينهم و لا يعقل أن تكون الأمة جميعاً على الكفر بعد ما ثبت و تحقّق أنّ الأمة في كلّ عصرٍ و زمانٍ لا تخلوا من حجةٍ لقوله عليه السلام لولا الحجة لسافت الأرض بأهلها، و لا على الإيمان لأنّ الشيطان كان موجوداً في جميع الأزمنة بعد خلق البشر و كان له أتباعاً و أعواناً لا محالة قلّ أو كثر فالحق أنّ الأمة من بدو الخلق الى زماننا هذا كان بعضهم كافراً أو بعضهم مؤمناً فحمل الآية أعني قوله: وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا على أحد الشّقيين من الكفر و الإيمان دون الآخر ترجيح من غير مرجح و هو خلاف العقل.

في تفسير القرآن



في تفسير القرآن

وَأَمَّا النَّفْلُ فَلَأَنَّ الْأَثَارَ وَالْأَخْبَارَ وَالتَّوَارِيخَ حَاكِيةً عَنْ أَنَّ النَّاسَ فِي كُلِّ عَصْرٍ كَانُوا بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَلَمْ نَرِ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بَرَهَةٍ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى الْكُفْرِ فَقَطْ أَوْ عَلَى مُحَضِّ الْإِيمَانِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى آخَرَ غَيْرَ مَا ذَكَرُوهُ وَالَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ هُوَ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً بِحَسَبِ الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَهِيَ التَّوْحِيدُ فَأَخْتَلَفُوا، أَيْ فَأَخْتَلَفُوا فِي الدُّنْيَا بَعْدَ مَا كَانُوا مَخْلُوقِينَ عَلَيْهَا بِسَبَبِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْإِحْتِمَالُ قَوْلُهُ ﷺ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَنَصْرَانِهِ وَبِمَجْسَانِهِ، وَنَعْبَرُ عَنِ الْكُفْرِ بِالْفِطْرَةِ الثَّانِيَةِ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَاحْتِمَالُنَا يُؤَيِّدُهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِمَقْتَضَى عَدْلِهِ لَا يَخْلُقُ مَخْلُوقًا عَلَى الْكُفْرِ ثُمَّ يِعَاقِبُهُ عَلَى كُفْرِهِ فِي الْقِيَامَةِ ضَرُورَةً أَنَّ الْمَخْلُوقَ عَلَى الْكُفْرِ لَا يَصْلَحُ لِلْإِيمَانِ وَهَذَا ظَلَمٌ قَبِيحٌ وَأَجَلَ ذَلِكَ لَا نَقُولُ بِالْجَبْرِ وَنَحْكُمُ بِكُفْرٍ مَنْ يَقُولُ بِهِ وَإِذَا لَمْ يَخْلُقْ عَلَى الْكُفْرِ فَلَا مُحَالَةَ يَخْلُقُ عَلَى ضَدِّهِ لِعَدَمِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِنْ شَأْنِ الْإِخْتِلَافِ فِي الْعُقَائِدِ هُوَ الْأَسْبَابُ الْخَارِجِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ مَا نَاحِيَةَ الْخَلْقِ لَا مِنْ نَاحِيَةِ الْخَالِقِ فَقَوْلُهُ: **فَاخْتَلَفُوا** حَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى نَسَبَ الْإِخْتِلَافِ إِلَيْهِمْ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ مِنْهُمْ لَا مِنْهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** فالمراد بها المشيئة أي لولا أن مشيئة الحق سبقت من ربك قبل إيجادهم بإختيارهم في دار الدنيا وأنها دار عملٍ ولا حساب لقضي بينهم فيما فيه يختلفون، أي لجعلهم مثل الملائكة، ويتحمل أن يكون المعنى لقضي بينهم في دار الدنيا بتعجيل الحساب العقاب، وقيل أن المراد بالكلمة في الآية هو التكليف الذي كلفهم الله به في دار الدنيا وهو أيضاً يرجع إلى ما ذكرناه ومحصل الكلام هو أن المصلحة أوجبت الإختيار وتأخير العذاب وهذا ما



فهمناه من الآية و لا ندعي أنه حق فأَنْ كَلام الخالق لا يفهمه إلا من خوطب به  
و هو النبي ﷺ و عترته و الحمد لله رب العالمين.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي  
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ.

أي يقولون هؤلاء الكفار هلاً أنزل عليه أي على محمد ﷺ آية قيل أراد بها  
ما يضطرهم الى المعرفة بحيث لا يحتاجون معها الى النظر و الاستدلال و لم  
يطلبوا معجزة يستدل بها على صدقه و ذلك لأنه قد كان أتاهاهم بالمعجزات  
التي تدل على صدقه و بعبارة أخرى كانوا يقولون هلاً أنزل عليه آية أي معجزة  
غير ما أتى به فيجعل لنا الجبال ذهباً و يحيي لنا من مات من آبائنا و قال  
الضحاك عصا كعصا موسى و امثال ذلك.

قال الزمخشري في الكشاف أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها و  
كانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على  
أحد من الأنبياء مثلها و كفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة  
غريبة في الآيات الى آخر ما قال.

أقول و الذي يظهر من كلماتهم حول الآية هو أن الكفار أرادوا بذلك نزول  
آية خاصة من قبل الله تعالى دالة على نبوته سوى ما أنزل عليه من المعجزات  
و الكرامات أن قلنا أن المراد بها الآيات التكوينية و سوى ما أنزل عليه من  
الآيات القرآنية إن قلنا بأن المراد بهما الآيات التشريعية.

و أما قوله: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به و  
لا علم لي و لا لأحد به يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب  
لا يعلمه إلا هو.

أن قلت لم لم ينزل الله تعالى عليهم آية و هم طلبوها.

قُلْتُ لَأَنَّهُ تَعَالَى كَانِ عَالَمًا بَعْنَادِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهَا كَمَا لَمْ يَقْبَلُوا  
 الْآيَاتِ النَّازِلَةَ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُ: فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ أَيِ  
 فَاِنْتَظِرُوا نَزُولَ مَا اقْتَرَحْتُمُوهُ أَنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ، لَمَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ  
 لِعَنَادِكُمْ وَجُحُودِكُمُ الْآيَاتِ قِيلَ سَلَطَ اللَّهُ الْقَحْطَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ  
 حَتَّى كَادُوا يَهْكُلُونَ ثُمَّ رَحِمَهُمْ فَلَمَّا رَحِمَهُمْ طَفَفُوا يَطْعَنُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَ  
 يَعَادُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.



وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ  
 إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ  
 رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ  
 فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ  
 جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ  
 غَاصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا  
 أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ  
 لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)  
 فَلَمَّا أَنْجَيْهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ  
 الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ  
 مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ  
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ  
 الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا  
 أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا  
 أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا  
 فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ  
 نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ  
 يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى  
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ  
 زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ  
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللغة

أَذَقْنَا الذَّوْقَ وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأَنْ  
ما يكثر منه يقال له الأكل.

ضَرَاءَ بفتح الضاد يقابل بالسراء والنعماء.

مَكْرٌ، المَكْر بفتح الميم مصدر وهو صرف الغير عما يقصده بحيلة.

آفُلْكَ بضم الفاء و سكون اللام السَّفينة و يستعمل للواحد والجمع.

رِيحٌ عَاصِفٌ أي كاسر.

يَبْغُونَ البغي التعدي و الخروج عن الحد.

زُخْرِفَهَا، الزُّخْرُف بضم الزاء الزينة المزوقة و منه قيل للذهب زخرف.

حَصِيداً أصل الحصد قطع الزرع.

يَرْهَقُ يقال رهقه الأمر أي غشيه بقهري.

قَتَرَ، القَتْر تقليل الثقة و هو بإزاء الإسراف.

## ◀ الإعراب

وَإِذَاْ أَذَقْنَا جَوَابَ، إذا، الأولى (إذا الثانية) الثانية للمفاجأة والعامل في  
الثانية الإستقرار الذي في لَهُمْ و قيل اذا الثانية زمانية و هي و ما بعدها جواب  
الأولى إِذَا هُمْ جواب لما و هي للمفاجأة بَعِيْكُمْ مبتدأ و فى الخبر وجهان:  
أحدهما: عَلَى أَنْفُسِكُمْ و على متعلقة بمحذوف أي كائن لا بالمصدر لأن  
الخبر لا يتعلّق بالمبتدأ مَتَاعٌ خبر مبتدأ محذوف أي هو متاع، أو خبر بعد خبر  
و قيل أَنَّ الخبر متاع، و على أنفسكم متعلّق بالمصدر و يقرأ متاع بالنصب  
فعلى هذا، على أنفسكم خبر المبتدأ و متاع منصوب على المصدر أي  
يتمتعكم بذلك متاع.

و قيل هو مفعول به و العامل فيه، بغيكم و يكون البغي بمعنى الطُّلب أي  
طلبكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا فعلى هذا على أنفسكم ليس بخبر لأن

المصدر لا يعمل فيما بعد خبره بل على أنفسكم متعلق بالمصدر والخبر محذوف تقديره طلبكم متاع الحياة الدنيا ضالاً و يقرأ متاع، بالجر على أنه نعتٌ للأنفس و التقدير ذوات متاع فأختلطَ به نباتُ الأرضِ الباء للسبب أي اختلط النبات بسبب إتصال الماء به ممّا يَأْكُلُ كلَّ حال من النباتِ وَ أَرَيْنَتْ أصله تَرَيْنَتْ كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ الْمَسْ يراد به هنا الماضي لا حقيقة أمس الذي قبل يومك و اذا أريد به ذلك كان معرباً و كان بلا ألف و لام و إضافة نكرة و لا يَرْهَقُ وَ جُوهَهُمُ الجملة مستأنفة و يجوز أن يكون حالاً و العامل فيه الإستقرار فى الذين و لا يجوز أن يكون معطوفاً على الحسنى لأنَّ الفعل اذا عطف على المصدر احتاج الى أن، ذكراً أو تقديرأ وهو غير مقدرة لأنَّ الفعل مرفوع.

### ◀ التفسير

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا

قلنا في شرح اللغات أنَّ الذُّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يَقلُّ تناوله فأنَّ ما يكثر منه يقال له الأكل اذا عرفت هذا فنقول:  
أنَّ لفظ الذُّوق قد يستعمل في العذاب و هو الأكثر و قد يستعمل في الرَّحمة و هو الأقل كلَّ ذلك على سبيل المجاز و الإستعارة.

### فَمِنَ الْأُولَى:

قال الله تعالى: ذَلِكَ فَذُقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ<sup>(١)</sup>.  
قال الله تعالى: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخُرْزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْخَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ<sup>(٣)</sup>.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

قال الله تعالى: وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَنَذْبِقَنَّ الْأَذْيَنَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْفُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ<sup>(٣)</sup> من

الآيات الكثيرة.

من الثَّانِي: أعني به إستعماله في الرَّحمة.

قال الله تعالى: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْآءٍ مَسَّئَةٍ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ

رَحْمَتِهِ<sup>(٧)</sup>.

و غيرها من الآيات ثم أنه تعالى أخبر في هذه الآية بأنه إذا أذاق الناس يعني الكافرين رحمةً من بعد ضراء أي بعد شدة كانوا فيها من جدبٍ و ضيقٍ نالتهم مكروا في آياتنا و قوله: مَسَّئَتُهُمْ إشارة الى الأذى لأنَّ المسَّ يقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذى.

قال الله تعالى: وَلَئِنْ مَسَّئَتُهُمْ نَفْخَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا<sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ<sup>(٩)</sup>.

و كيف كان ففي الآية إشارة الى أنَّ الإنسان كفورٌ بنعمة ربِّه فاذا كان في الشدة يدعو ربِّه و يتضرع اليه و اذا خلص منها و صار مشمولاً لرحمة ربِّه نسي ما كان فيه فلا يحمده و لا يشكره و هذا لا يختص بالكافر فتخصيص الآية

٢- فُصِّلَتْ = ٢٧

٤- الرِّوْمُ = ٣٦

٦- هُودٌ = ١٠

٨- الأنبياء = ٤٦

١- الفرقان = ١٩

٣- سبأ = ١٢

٥- الشورى = ٤٨

٧- سورة الروم آية ٤٦

٩- الإسراء = ٦٧

بالكفّار لا وجه له بل الآية شاملة للكافر والمسلم ومن إستدل في تخصيصها بالكافر بقوله: إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا والمسلم لا يمكر في آيات الله فقد أخطأ وذلك لأن الآيات في الباب كثيرة ولا يمكن لنا حملها على الكفّار ظاهره ولتوضيح ذلك نقول:

المكر على ما قاله في المفردات هو صرف الغير عمّا يقصده بحيلة ضربان مكرٌ محمود وذلك يتحرى بذلك فعل جميل، ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وعليه فالمكر المذموم من العبد لا يختص بالكفّار فإن أكثر المسلمين متّصفون به فقوله تعالى إذا لهم مكرٌ في آياتنا معناه إذا للناس مكرٌ في آياتنا فإنّ الضمير في لهم، يرجع الى الناس في صدر الآية والعجب أنّ الله تعالى قال: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ وَلَمْ يَظْلَمُوا شَيْئًا إِذْ أَذَقْنَا الْكَافِرَ وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ أَنَّ الْآيَةَ نَازِلَةٌ عَلَى الْكَافِرِ وَلَعَلَّ نَظَرَهُمْ إِلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ لَا أَنَّ الْمَعْنَى يَخْتَصُّ بِهِمْ قُلْنَا مَرَارًا أَنَّ خُصُوصَ الْمُرَادِ فِي النَّزُولِ لَا يَنَافِي عُمُومُهُ بِحَسَبِ الْمَعْنَى.

**قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا** المكر من الله تعالى إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مُكْرَبٌ بِهِ فَهُوَ مَخْدُوعٌ عَنْ عَقْلِهِ، ويتحمل أن يكون المراد بمكر الله في الآية هو القسم الممدوح منه وبمكر الناس المذموم منه فالمعنى في قوله: إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا أَنَّهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ عَنِ الشَّدَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا يَتَشَبَّهُونَ بِأَقْسَامِ الْحِيلِ الْمَذْمُومَةِ لَدَفْعِ آيَاتِ اللَّهِ وَإِنْكَارِهَا.

وقيل مكرهم إستهزاءهم وتكذيبهم لها، وأما قوله: **قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا** أي أسرع إمهالاً أو أسرع أن يفعل بهم ما يليق بمكرهم وقوله: **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** معناه أننا نعلم ما تمكرون وفيه دلالة على أنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء والمراد بالرُّسل هاهنا هو الملائكة المعبر عنهم بالكرام الكاتبين.

قال بعض المفسرين أنما سمّي جزاء المكر مكرراً لأنهم اذا نالهم العذاب على مكرهم لا يحسبونه ولا يتوقعونه فكأنه مكر بهم هذا تفسير الآية على ما يقتضيه الظاهر والله أعلم بمراده.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي الْأَصْلِ يُقَالُ لِكُلِّ مَكَانٍ وَاسِعٍ جَامِعٍ لِلْمَاءِ الْكَثِيرِ ثُمَّ أَنَّهُمْ سَمَوْا كُلَّ مَتَّوَسِعٍ فِي شَيْءٍ بَحْرًا حَتَّى قَالُوا فَرَسٌ بَحْرٌ بِإِعْتِبَارِ سَعَةِ جَرِيهِ وَيُقَالُ لِلْمَتَّوَسِعِ فِي عِلْمِهِ بَحْرٌ وَالتَّبَحُّرُ فِي الْعِلْمِ التَّوَسُّعُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ فِي الْآيَةِ هُوَ مَعْنَاهُ الْأَصْلِي أَعْنِي بِهِ الْمَاءُ الْكَثِيرُ بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ لِلْبَرِّ، وَالسَّيْرُ بِفَتْحِ السَّيْنِ وَسُكُونِ الْيَاءِ الْمَضْيِ فِي الْأَرْضِ وَ مُرْجَعِ الضَّمِيرِ فِي، هُوَ، اللَّهُ تَعَالَى وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ، أَيِ أَقْدَرُكُمْ عَلَى السَّيْرِ فِيهِمَا.

حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ هُوَ السَّفِينَةُ وَ يَسْتَعْمَلُ لِلوَاحِدِ وَ الْجَمْعِ وَ الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا الْجَمْعُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ فَأَنَّ الضَّمِيرَ فِي جَرَيْنَ لِلْفُلْكِ لِأَنَّهُ جَمْعُ فُلْكِ كَالْأَسَدِ وَ أَسَدٌ وَ فِي قَوْلِهِ: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ أَلْخَ عَدُولٍ عَنِ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ تَصَرُّفًا فِي الْكَلَامِ مَعَ أَنَّهُ خُطَابٌ لِمَنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَ الْعَدُولُ عَنِ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ وَ بِالْعَكْسِ مِنْ مُحَسِّنَاتِ فَرْقِ الْبَلَاغَةِ، وَ الْمَعْنَى إِذَا رَكِبْتُمُ السَّفِينَةَ وَ هِيَ تَجْرِي عَلَى الْمَاءِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ أَيِ بِمَنْ رَكَبَ السَّفِينَةَ رِيحًا طَيِّبَةً مُعْتَدِلَةً ثُمَّ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ شَدِيدٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَيِ أَيْقَنُوا أَنَّهُ أَيِ الْمَوْجِ أُحِيطَ بِهِمْ.

وَ قِيلَ أَيِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَمَّا أَحَاطَ بِهِمُ الْأَمْوَاجُ فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَيِ يَدْعُوهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِخْلَاصِ وَ لَمْ يَذْكُرُوا الْأَوْثَانَ وَ



الأصنام لعلمهم بأنها لا تنفع هاهنا شيئاً وقالوا لئن أَنجَيْنَا من هذه الورطة لنكوئن من الشَّاكرين لك فلما أَنجَاهم الله منها كفروا بربهم ولم يشكروا له. ومحصل الكلام في الآية هو أَنَّ كفران النعمة من أقبح الظلم ولا يليق بمن يدعي العقل أن يكون كذلك لأنه قسم من العناد والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله فَلَمَّا أَنجَيْهِمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَي فلما أَنجَاهم الله عما كانوا فيه من الشدة والمحنة أعرضوا عن شكره تعالى بل سلكوا مسلك الطغيان والخلاف وعادوا الى البغي وهو الإستعلاء بالظلم بغير الحق.

قيل أي بالتكذيب والأولى أن يقال أي بالباطل وذلك لعدم الوساطة بين الحق والباطل فما ليس بحق فهو باطل والبغي في الأصل الطلب أي يطلبون الإستعلاء بالفساد بغير الحق.

قال بعض المفسرين، إن قيل فما معنى قوله: بِغَيْرِ الْحَقِّ والبغي لا يكون بحق أبداً.

قلنا البغي قد يكون بالحق وهو إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة و هدم دورهم وإحرق زورعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة إنتهى كلامه وأنا أقول في كلامه نظر.

أما أولاً: فلأن إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّى من البغي بل هو من الغلبة على العدو وكل غلبة لا يسمّى بغياً لأن البغي على ما عرّفوه طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرى تجاوزه يقال بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب وبعبارة أخرى البغي هو أن يطلب الباغي ما ليس من حقه فأن طلب الحق وصل إليه بسبب الإستيلاء على الظالم، لا يكون باغياً لأنه إستولى على الظالم أو غيره وأخذ حقه منه فظهر أَنَّ مجرد إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّى بغياً.

ثانياً: هدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم لم يثبت في الأخبار  
المعتبرة وأتما نقله المؤرخون في بعض التواريخ ونحن لا نعتمد عليه وعلى  
فرض ثبوته فهو ليس من البغي بل هو من الظلم والظلم لا يكون بحق أبداً و  
أيّ ذنب للدور والزروع والأشجار حتى يحكم بإفنائها وإحراقها وشخريها.  
وإن شئت قلت الجماد والنّبات لا ذنب لهما وأتما الذنب لصاحب  
الجماد والنّبات ولا تزر وازرة وزر أخرى وقد قال رسول الله ﷺ **أُطْلُبُ**  
**النَّصْرَ بِالْجَوْرِ** وعليه فكيف حكم بهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع  
أشجارهم لأجل الوصول إلى المقصد والهدف وهو الغلبة على العدو و  
محصل الكلام هو أنّ قبح البغي والظلم والكذب والخيانة وأمثالها عقليّ و  
أحكام العقل غير قابلة للتخصيص والتقييد هذا مضافاً الى أنّ الإسلام دين  
الرفّة والرّحمة والعطوفة ورسول الإسلام نبيّ الرّحمة وهذه المنقولات لا  
يعتمد عليها بل لا يبعد أن تكون من الإسرائيليات لتضعيف الإسلام وأنه دين  
الخشونة والغلظة وإذا كان كذلك فقول الرازي أنّه من البغي بالحق لا معنى له  
لأنّ البغي لا يكون بحق أصلاً.

قلت فما معنى قوله يبغيون في الأرض بغير الحق.

قلت معناه إنهم بعد النّجاة عن الشّدة التي كانوا فيها كانت وظيفتهم الشّكر  
بمقتضى العقل فإنّ شكر المنعم واجب عقلاً، والخلاص من الشّدة والمحنة  
من أعظم النعم إلاّ أنّهم بدّلوا الشّكر بالبغي فبغوا في الأرض وهذا العمل منهم  
كان باطلاً عاطلاً يحكم بفساده العقل والنقل فقول بغير الحقّ معناه بطلان  
البغي كأنه قيل البغي في الأرض يكون بغير الحقّ ولا يكون بحقّ أصلاً.

قال الله تعالى: **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ** <sup>(١)</sup> معناه أنّ قتل النبي لا يكون  
بحقّ وقد يكون بغير الحقّ، وأتما وقعوا في هذا الإشتباه لأنهم زعموا أنّ

مفهوم قوله: **يَبْعُثُونَ فِي الْأَرْضِ بَغِيرَ الْحَقِّ** أَنَّهُ قد يكون البغي بالحقّ ولم يعلموا أَنَّ هذا الكلام لا مفهوم له ألا ترى أَنَّ قوله تعالى: **فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ** <sup>(١)</sup> لا مفهوم له فلا يقال نهى الله عن الأف و أما غيره من الضرب و الشتم لا إشكال فيه هذا ما فهمناه من الآية و الله أعلم بحقيقة كلامه.

**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**

لَمَّا أخبر الله تعالى عن بغيهم بعد النجاة من الشدة (فإذا بغى) هذا الكلام أَنَّ البغي يرجع إليهم لا إلى غيرهم فقال **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ** و تصدير الكلام بكلمة، **أَتَمَّا**، التي تفيد الحصر يدلّ على ما ذكره بطريق الإنحصار و المقصود من البغي تبعاته و ما يترتب عليه من خسران الدنيا و الآخرة.

و أما قوله: **مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** فقد قرأه حفص بنصب العين في، **مَتَاع**، على المصدر و قرأ الباقر برفع العين بأنّه خبر المبتدأ أعني به قوله: **بَغْيُكُمْ** أي بغيكم متاع الحياة الدنيا، و يمكن أن يكون البغي مبتدأ، و قوله على خبره و رفع متاع على الحياة الدنيا و الرفع هو الأشهر و عليه المصاحف و عليه فالمعنى و **أَتَمَّا** بغيكم على أنفسكم هو متاع الحياة الدنيا أو ذلك متاع الحياة الدنيا أي حبّكم للدنيا صار سبباً للبغي أو متاع الحياة الدنيا صار سبباً له أو أَنَّ البغي عبارة عن متاع الحياة الدنيا و كيف كان فالكلام يدلّ على أَنَّ الباغي لا يريد إلا الدنيا و متاعها و هو كذلك لأنّ الباغي لا يريد ببغيه الآخرة و الوصول إلى درجاتها بل يريد الدنيا و زخارفها و البقاء فيها و محصل الكلام هو أَنَّ الوزر و الوبال في كلّ عملٍ فاسدٍ يرجع إلى صاحبه كما أَنَّ الثواب في كلّ عملٍ صالحٍ يرجع إليه فإِنَّ الجزاء يترتب على نفس العمل إن خيراً فخييراً و إن شراً فشرّاً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

الجلد الثاني

وهذا الحكم لا يختص بالبغي بل هو حكم كلي عام يشمل جميع الأعمال.

قال الله تعالى: مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ<sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ<sup>(٥)</sup> والآيات كثيرة.

ولأجل ذلك.

قال الله تعالى: مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ<sup>(٧)</sup>.

وهذا مما لا كلام فيه والذي ينبغي التوجه إليه هو أن منشأ جميع المعاصي هو حب الدنيا والركون إليها والإعتماد عليها إذ لم يعص الله أحدٌ و لن يعصيه أحدٌ إلى آخر الدنيا لأجل الآخرة ولذلك قال متاع الحياة الدنيا.

قال رسول الله ﷺ حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ.

وأما قوله: ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ الخ ففيه إشارة إلى أن الدنيا فانية والحياة فيها غير دائمة والتَّعْنَمُ بمتعها زائلة دائرة والموت مما لا بد منه لكل مخلوق و

١- الإسراء = ١٢

٢- الأنعام = ١٠٤

٣- فصلت = ٤٦

٤- الإسراء = ١٥

٥- الفاطر = ١٨

٦- النساء = ١١١

٧- الأنفال = ٥١، آل عمران = ١٨٢

الرجوع إلى الله الذي خلقنا و أوجدنا قال الله تعالى: **إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ولا مفر لأحد من ذلك.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنْ أَلْمُوتُ أَلَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (١).

قال الله تعالى: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ** (٢).

و الحاصل أنكم تطلبون بالبغي التمتع في الحياة الدنيا ثم بعد ذلك ترجعون إلى الله بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ما عملتموه و ما استحققتكم به من أنواع العقاب كل ذلك بما كسبت أيديكم في دار الدنيا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

**أَنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ**

إعلم أنه تعالى شبه الحياة الدنيا بماء أنزله من السماء و وجه الشبه في التشبيه هاهنا هو المصير إلى الزوال في النبات و الدنيا فكما أن مصير النبات المختلط بالماء إلى الزوال لأنه مما يأكله الناس و الأنعام فكذلك الدنيا مصيرها إلى الزوال، و قيل شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به الإنتفاع ثم الإنقطاع.

ثالث الأقوال: أنه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدره على هذه الأوصاف و قال صاحب الكشف شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها و إنقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه و ذهابه حطاماً بعد ما التفت و تكاثف و زين الأرض بخضرتها و رفيفه، فاختلط به، أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً **أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيِنَتْ** كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكستها و تزينت بغيرها من ألوان الزين و أصل، **إزْيِنَتْ**، تزينت فأدغم و بالأصل قرأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبد الله وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَي وَ ظَنَّ أَهْلُ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ  
مَتَمَكِّنُونَ مِنْ مَنَفْعَتِهَا مَحْصُلُونَ لثَمَرَتِهَا رَافِعُونَ لَعَلَّتْهَا أَتَيْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا  
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا شَبِيهًا بِمَا يَحْصَدُ مِنَ الزَّرْعِ فِي قِطْعِهِ وَ اسْتِئْصَالِهِ كَأَنَّهُ لَمْ  
تَغْنِ بِالْأَمْسِ أَي كَأَنَّهُ لَمْ يَغْنِ زَرْعُهَا أَي لَمْ يَنْبِتْ إِنْتَهَى كَلَامُ صَاحِبِ الْكَشَافِ.  
وَأَنَا أَقُولُ لَأَشْكُ أَنَّ فِي الْكَلَامِ تَشْبِيهًا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: كَمَا أَنَّزَلْنَاهُ فَإِنَّ الْكَافِ  
مِنْ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ يُقَالُ زَيْدٌ كَالْأَسَدِ وَ هُوَ مَعْلُومٌ، وَ لَا شَكَّ أَيْضًا أَنَّ الدُّنْيَا وَ الْحَيَاةَ  
فِيهَا مَشَبَّهُ وَ الْمَاءُ الْمُخْتَلِطُ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ الْخِ مَشَبَّهُ بِهِ وَ هَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ  
فِيهِ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ وَ أَمَّا الْخِلَافُ فِي وَجْهِ الشُّبْهِ وَ قَدْ ذَكَرُوا فِيهِ وَجُوهًا كَثِيرَةً  
مِنْهَا مَا ذَكَرْنَاهُ.

وَمِنْهَا، مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ وَ هُوَ أَنَّ عَاقِبَةَ الدُّنْيَا كَعَاقِبَةِ هَذَا النَّبَاتِ فِي تَحَقُّقِ  
الْيَأْسِ بَعْدَ الرَّجَاءِ.

وَمِنْهَا، أَنَّ الزَّرْعَ عَاقِبَتُهُ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ فَكَذَلِكَ الدُّنْيَا.

وَمِنْهَا، كَمَا أَنَّ السَّعْيَ فِي هَذَا الزَّرْعِ بَاطِلٌ بِسَبَبِ حَدُوثِ الْأَسْبَابِ  
الْمَهْلَكَةِ فَكَذَلِكَ سَعْيُ الْمُغْتَرِّ بِالدُّنْيَا.

وَمِنْهَا، أَنَّ مَالِكَ الزَّرْعِ بَعْدَ فَنَائِهِ يُعْرَضُ لَهُ الْعَنَاءُ الشَّدِيدُ فِي حُصُولِ الزَّرْعِ  
فَلَمَّا صَارَ الزَّرْعُ فِي مَعْرَضِ الزَّوَالِ يُحْصَلُ فِي قَلْبِهِ حَسْرَاتٌ فَكَذَلِكَ طَالِبُ  
الدُّنْيَا حَالُ مَوْتِهِ يُحْصَلُ فِي قَلْبِهِ حَسْرَاتٌ.

أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ فِي وَجْهِ الشُّبْهِ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ وَ هُوَ عَدَمُ الْبَقَاءِ وَ  
الدَّوَامِ وَ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْعَاقِلُ وَ إِنْ شَتَّ قُلْتُ كَمَا أَنَّ نِضَارَةَ الزَّرْعِ  
وَ لَطَافَتَهُ وَ حَسَنَ مَنْظَرِهِ لَا بَقَاءَ لَهُ كَذَلِكَ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ  
الْجَاهِ وَ غَيْرِهَا وَ هَذَا أَمْرٌ مُحْسُوسٌ لَا يَشْكُ فِيهِ أَحَدٌ.

قَالَ بَعْضُهُمْ إِيَّاكَ وَ الْإِغْتِرَارُ بِالدُّنْيَا وَ الرُّكُونُ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَمَانَتَهَا كَازِبَةٌ وَ أَمَالُهَا  
خَائِبَةٌ وَ عَيْشُهَا نَكْدٌ وَ صَفْوُهَا كَدْرٌ وَ أَنْتَ عَلَى حَظَرٍ، إِمَّا بَلِيَّةٍ نَازِلَةٍ وَ إِمَّا مُصِيبَةٍ  
مَوْجِعَةٍ وَ إِمَّا مَنِيَّةٍ مُفْجِعَةٍ وَ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَيْفَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَ لَنَعْمَ مَا قِيلَ.

تنافس في الدنيا و نحن نعيها  
وما نحسب الساعات نقطع مدة  
كأنني برهطي يحملون جنازتي  
وباكية حري تنوح و أنني  
أيا هادم اللذات مامك مهرب  
رأيت المنايا قسمت بين أنفس  
فقوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** أي حسنها و زينتها و  
الزخرف كمال حسن الشيء و منه قيل للذهب زخرف و **وَأَرِيَّتْ** أي و إزيّت  
الأرض بالحبوب و الثمار و الأزهار و **ظَنَّ أَهْلُهَا** أي يظن أهل الدنيا أنهم  
**قَادِرُونَ عَلَيْهَا** أي على حصادها و الإنتفاع بها **أَتَيْتُهَا أَمْرُنَا** أي أمرنا بهلاك  
الزرع **لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا** أي محصودة مقطوعة و لذلك لم  
يؤت لأنه فيل بمعنى مفعول **كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأُمْسِ** أي كأن لم تكن عامرة  
**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** أي كذلك نبين الآيات لقوم  
يتفكرون و يعتبرون بها فهذا تفسير ألفاظ الآية.

**وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**  
لما بين في الآية السابقة أن حياة الدنيا محفوفة بالأفات و البليات و مع  
ذلك لا دوام لها و لا بقاء، ذكر في هذه الآية وصف الآخرة و الحياة فيها و بين  
أنها دار السلام لسلامتها عن الأفات و الحوادث و البليات و المصائب فقال  
تعالى: **وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ**  
**مُسْتَقِيمٍ** أي يفعل الألفاف التي تدعوهم إلى طريق الحق.

و قيل معناه الأخذ بهم في الآخرة إلى طريق الجنة و قال أبو علي يريد به  
نصب الأدلة لجميع المكلفين دون الأطفال و المجانين و أما الإستقامة فهي  
المرور في جهة تؤدي إلى البغية.

وإعلم أن الدعوة هي طلب الفعل بما يقع لأجله والداعي إلى الفعل خلاف الصّارف عنه والفرق بين الأمر والدعاء أن في الأمر ترغيباً في الفعل و زجراً عن تركه وله صيغة تنبيئ عنه والدعاء وليس كذلك وكلاهما طلب و أيضاً الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الأمر في الرتبة والدعاء يقتضي أن يكون فوقه.

قال في المفردات السّلم والسّلامة التّعري من الأفات الظّاهرة و الباطنة و لذلك أن السّلامة بمعناها الواقعي لا توجد في الدّنيا و هي في الحقيقة ليست إلّا في الجنّة إذ فيها بقاء بلا فناء و غنى بلا فقر و عزّ بلا ذلّ و صحّة بلا سقم، و هذه الأمور كلّها من مختصات الدّنيا إذ فيها بقاء مع الفناء و غنى مع الفقر و عزّ مع الذلّ و صحّة مع السّقم و ما كان كذلك فهو دار الأفات لا دار السّلام و من المعلوم أن الله تعالى لا يدعوا إلى دار الأفات و الشّرور بل يدعوا إلى دار السّلام.

و قال بعضهم السّلام هو الله تعالى فقلوه: دار السّلام أي دار الله ليست إلّا الجنّة و أمّا قوله: وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فالهداية منه تعالى ليست إلّا الألفاظ التي تدعوهم إلى طريق الحقّ.

و قيل هي نصب الأدلّة لجميع المكلفين دون الأطفال و المجانين.

و أعلم أن الهداية في الأصل دلالة بلطفٍ ومنه الهدية و هو ادي الوحش أي متقدّماتها الهادية لغيرها و أمّا هداية الله تعالى للإنسان على ما قيل على أربعة أوجه:

**الأول:** الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلفٍ من العقل و الفطنة و المعارف الضرورية التي أعمّ منها كلّ شيءٍ بقدرٍ فيه حسب إحتماله.  
قال الله تعالى: رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى<sup>(١)</sup>.



الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعاه أيامهم على السنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود:

قال الله تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا<sup>(١)</sup>.

الثالث: التوفيق الذي يختص به من إهتدى وهو المعنى.

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ أَهْتَدُوا زَانَهُمْ هُدًى وَ أَنْتَهُمْ تَقْوِيَهُمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا<sup>(٥)</sup>.

الرابع: الهداية في الآخرة الى الجنة:

قال الله تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَ يَصْلِحُ بَالَهُمْ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: وَ نَرْغَبُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا أَلْحَقِدْ لِلَّهِ الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا<sup>(٧)</sup>.

إذا عرفت معنى الهداية وأقسامها فقد علمت أن قوله: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ من القسم الثالث أعني به التوفيق الشامل للعبد من قبل الله تعالى يوفق من يشاء الى صراط مستقيم والصراط المستقيم ليست إلا صراط أهل البيت وطريقهم في الدين والدنيا.

روي الحافظ الحسكاني وهو من أعيان علماء العامة في كتابه المسمى بشواهد التنزيل بأسناده عن عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى: وَ أَلَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ يعني به الجنة، ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم يعني به ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

١- الأنبياء=٧٣

٢- محمد=١٧

٣- التّغابن=١١

٤- يونس=٩

٥- العنكبوت=٦٩

٦- الأعراف=٢٣

٧- محمد=١٧

٨- يونس=٩

٩- التّغابن=١١

١٠- العنكبوت=٦٩

١١- الأعراف=٢٣

و أيضاً بأسناده عن فضيل بن الزبير قال قال زيد بن علي في هذه الآية: وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قال الى ولاية علي بن ابي طالب عليه السلام.

و في المناقب عن تفسير وكيع بن الجراح عن سفيان الثوري عن السدي عن أسباط عن مجاهد عن عبد الله بن عباس في قوله: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

قال قولوا معاشر العباد أرشدنا الى حب النبي و أهل بيته انتهى و عن تفسير الثعلبي و كتاب ابن شاهين عن رجاله عن مسلم بن حيان عن بريدة في قوله: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال صراط محمد و آله و الأحاديث كثيرة.

و أما عندنا فهو من المسلمات و لا نحتاج الى نقل الأخبار الواردة في الباب لوضوح المطلوب و لنعم ما قال الحميري:

و أنت صراطه الهادي اليه و غيرك ما ينبجي الماسكينا و قال آخر:

إما في صراط الله منهاج قصده إذا ضلّ من أخطأ الصواب عن السبل و قال:

عليّ ذا صراط هدى فطوبى لمن اليه هدى و قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ <sup>(١)</sup> أنا و سيلته.

و قال الحميري:

سمّاه جبار السماء	صراط حقّ فسما
فقال في الذكر وما	كان حديثاً يفتري
هذا صراطي فأتبعوا	وعنهم لا تخذعوا

فَخَالَفُوا مَا سَمِعُوا      وَالْخَلْفَ مِمَّنْ شَرَعُوا  
وِاجْتَمَعُوا وَاتَّفَقُوا      وَعَاهَدُوا ثِمَّ اتَّقُوا  
إِنْ مَاتَ عَنْهُمْ وَبَقُوا      أَنْ يَهْدِمُوا مَا قَدْ بَنُوا

قال النبي ﷺ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتِمَّسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ فَلْيَتِمَّسَكَ بِحَبِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمَتَمَسِّكِينَ بِحَبِّهِ وَوَلَايَتِهِ آمِينَ.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ  
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ  
الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الأنعام على الغير يقال أحسن الى فلان أي أنعم عليه.

الثاني: إحسان في فعله وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل حسناً والى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا يُحْسِنُونَ، أي منسوبون الى ما يعملون وما يعملونه من الأفعال الحسنة والإحسان أعم من الأنعام وهو فوق العدل وذلك لأن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له فالإحسان زائد على العدل فتجري العدل واجب وتجري الإحسان ندب وتطوع.

وأما الحُسْنَىٰ بضم الحاء فهي ضد السوأى يقال أحسن اليه كما يقال أساء اليه وقيل أنها العاقبة الحسنة.

وقيل هي من أسماء الله كالكريم والرحيم وقيل هي الجنة.

وقوله: وَلَا يَرْهَقُ يُقال رهقه الأمر غشيه بقهر، أي لا يغشى وجوههم قتر. وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلامٌ مراهق إذا لحق بالرجال.

وقيل معناه، يعلو والكل متقارب، وقوله: قَتَرٌ بفتح القاف والتاء أي غبار و معنى الآية أن للذين يفعلون الحسن من الطاعات التي أمرهم الله بها جزاء على ذلك الحسنى، وهى الجنة ولذاتها وقيل جامعة المحاسن من السُّرور و

اللذات على أفضل ما يكون وهى تأنيث الأحسن، و زيادة، أي و لهم زيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب وهى المضاعفة المذكورة في قوله تعالى: **فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** <sup>(١)</sup>.

و عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال المراد بالزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة.

وأما قوله: **وَلَا يَزْهَقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ** قالوا معناه لا يلحق وجوههم غبارٌ ولا ذلةٌ وهى صغر النفس بالإهانة والذلة نقيض العزة **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** أي هؤلاء الذين أحسنوا الخ. **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ففيه إخبار بأن الذين وصفهم الله أصحاب الجنة على وجه الخلود فيها ولا زوال لذلك عنهم.

وأعلم أن المفسرين إختلفوا في معنى الحسنى، و زيادة فقال بعضهم الحسنى، الجنة وقوله زيادة أي ما يزيد على المثوبة تفضلاً لقوله تعالى: **وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** <sup>(٢)</sup> وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة.

و قال الطبري، الحسنى عام في كل حسن فهو يعم جميع ما قيل و وعد الله في جميعها بالزيادة و يؤيد ذلك قوله: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ولو كان معنى الحسنى الجنة لكان في القول تكرير في المعنى.

و قال مجاهد الزيادة مغفرة من الله و رضوان، و قالت المجبرة و المشبهة أن الزيادة النظر الى وجه الله و الحق ما ذكرناه.



وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُوَهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي

إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا  
يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ  
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

### ◀ اللغة

تَرْهَقُهُمْ أي تلحقهم وقد مرَّ أن الرَّهَقَ لحاق الأمر.  
عَاصِمٌ أي حافظ أو مانع.  
قَطْعًا بفتح الطاء وسكونها وهما لغتان هو بعض الليل تقول أتيتَه لقطع من  
الليل أي ساعة منه.  
فَزَلَّنا هو من قولهم زلت الشَّيْء عن مكانه أزيله و زَلَّنا للكثرة من هذا اذا  
نحيته عن مكانه و زاليت فلاناً اذا فارقتَه و قيل هو مأخوذ من زال يزول غلط.  
تَبَلَّوْا من البلاء أي تختبر و قد قرأ بالتاء من التلاوة.  
تَوْفَكُونُ أي تصرفون عن الحق والإفك الكذب

### ◀ الإعراب

وَالَّذِينَ كَسَبُوا مَبْدَأُ و في الخبر وجهان:  
أحدهما: هو قوله: مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ أو قوله: كَانَمَا أَغْشَيْتُ أو  
قوله أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الخ و يكون جزاء سيئة بمثلها، معترضاً بين  
المبتدأ و خبره.

ثانيهما: أن الخبر جزاء سيئة و جزاء مبتدأ و الخبر بمثلها والباء زائدة و قيل  
الباء متعلقة بجزاء و الخبر محذوف أي و جزاء سيئة بمثلها واقع و تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ  
هو معطوف على كسبوا، و هو ضعيف لأنَّ المستقبل لا يعطف على الماضي.

و قيل الجملة حال قطعاً بكسر القاف و فتح الطاء جمع قطعة و هو مفعول ثان لأغشيت ومن اللَّيْلِ صفة لقطع ومُظْلَمًا حال من اللَّيْلِ، و أما على قول من قرأ بسكون الطاء فيكون مظلماً صفة لقطع أو حالاً منه أو حالاً من الضمير في، من، أو حالاً من اللَّيْلِ مَكَانَكُمْ هو ظرف مبني لوقوعه موقع الأمر أي أَلْزَمُوا فيه ضمير فاعل و أنتم، توكيد له والكاف والميم في موضع الجرّ عند قوم و للخطاب عند آخرين و شركاءكم، عطف على الفاعل لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً في موضع المصدر أي إغناء و يجوز أن يكون مفعولاً، ليغني و من الحقّ حال منه.

### التفسير

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا مَضَى مَا أَعَدَّ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا وَحَالَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ مَأْلَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا أَعَدَّ لِلْعَصَاةِ وَبَيَّنَّ حَالَهُمْ وَمَأْلَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ فَقَالَ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا السَّيِّئَاتِ جَمْعُ سَيِّئَةٍ وَهِيَ الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ كَمَا أَنَّ الْحَسَنَةَ هِيَ الْفَعْلَةُ الْمَمْدُوحَةُ عَقْلاً وَشَرْعاً.

و قيل أَنَّ الْحَسَنَةَ يَعْبَّرُ بِهَا عَنْ كُلِّ مَا يَسُرُّ مِنْ نِعْمَةٍ تَنَالُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ وَبَدَنِهِ وَأَحْوَالِهِ وَالسَّيِّئَةُ تَضَادُّهَا.

قَالَ الرَّائِبِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: بِحَسَبِ إِعْتِبَارِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا<sup>(٢)</sup>.

ثَانِيَهُمَا: بِحَسَبِ إِعْتِبَارِ الطَّبَعِ وَذَلِكَ مَا يَسْتَخْفُهُ الطَّبَعُ وَ مَا يَسْتَثْقَلُهُ.

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قال الله تعالى: فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ <sup>(٣)</sup> انتهى  
موضع الحاجة من كلامه.

وإعلم أنَّ الكسب فعل يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر و قد يكتسب الإنسان الحسنة و قد يكتسب السيئة ولهذا لا يوصف الله تعالى بالكسب و ذلك لأنَّ جلب المنفعة أو دفع المضرة لا يعقل في حقَّه تعالى لأنَّه لا يستفيع بشي كما لا يستضر به و أما الإنسان فليس كذلك لفقره و ضعفه فقوله: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ إشارة الى أنَّ الإنسان قد يكسب السيئات بإختياره و إرادته فإنَّ الكسب لا يكون إلا كذلك و لازم ذلك أنَّه يقدر على تركه أيضاً اذ لو لم يقدر على تركه لا يقدر على فعله أيضاً و المفروض أنَّه قادر عليه فهو قادر على تركه و ليس هذا إلا لكونه مختاراً في الفعل و تركه فثبت و تحقق أنَّ كسب السيئات و الحسنات تحت قدرة العبد و هو المطلوب.

و أما قوله: جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا يعني قدر ما يستحقَّ عليها من غير زيادة كما هو مقتضي العدل فإنَّ الزيادة على قدر المستحقَّ من العقاب ظلم و ليس كذلك الزيادة على قدر المستحقَّ من الثواب لأنَّ ذلك تفضل يحسن فعله إبتلاء و على هذا فالمثل في الآية المراد به هو مقدار المستحقَّ من غير زيادة نقصان لأنَّ الزيادة على قدر الإستحقاق في السيئات توجب الظلم القبيح عليه تعالى مضافاً الى أنَّه تعالى لو فعله ليطل الوعد والوعيد و الترهيب و التحذير لأنَّ الثقة بذلك أنما تحصل اذا ثبت حكمته تعالى و لو فعل الظلم



لبطلت حكمته تعالى عن ذلك علواً كبيراً و الى هذه الدقيقة أشار الله تعالى بقوله: **جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا**.

قال في الحسنات فله عشر أمثالها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أي يلحقهم هوانٌ في أنفسهم مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ أي ليس لهم مانعٌ من عقاب الله فهو الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و فيه إشارة الى عموم قدرته تعالى و ضعف ما سواه كأننا ما كان فلو كان هناك مانعٌ من عذاب الله يمنعه منه فهو أقدر منه تعالى و هو خلاف الفرض و أنه على كل شيء قدير.

**كَأَنَّمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** شبه الله تعالى سواد وجوههم بقطع من الليل المظلم و ذلك لما ألبست وجوههم السواد و قال كأنما أغشيت وجوههم ولما كانت ظلمة الليل نهاية في السواد شبه سواد وجوههم بقطع من الليل حال اشتداد ظلمته فالمشبه به في الحس أقوى من المشبه فثبت التشبيه.

قال الرازي و اعلم أن حكماء الإسلام قالوا المراد من هذا السواد المذكور هاهنا سواد الجهل و ظلمة الضلالة فأن العلم طبعه طبع النور والجهل طبعه طبع الظلمة فقوله: **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ، ضَآكِرَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ** <sup>(١)</sup> المراد منه نُور العلم و روحه و بشره و بشارته و قوله: **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** <sup>(٢)</sup> المراد منه ظلمة الجهل و كدورة الضلالة انتهى كلامه.

**أَقُول** ليت شعري ما الذي دعاه الى حمل كلام الله على هذه التأويلات السخيفة في هذا المقام و غيره من الموارد في تفسيره و أي ربط بين ما ذكره نقلاً عن الفلاسفة و بين الآية الشريفة و ليس في الآية ذكر من السواد أصلاً و أنما قال تعالى كأنما أغشيت وجوههم الظلمة هذا أولاً و أما ثانياً فقولهُ فأن العلم طبعه طبع النور و الجهل طبعه طبع الظلمة فكأنه أراد به أن الآية

في القرآن  
تفسير القرآن



الجلد الثاني

نزلت في الجهال و المراد بالظلمة ظلمة الجهل أي أن الذين أغشيت وجوههم معناه أغشيت وجوههم بظلمة الجهل وهذا كلامٌ فاسدٌ فإن الآية الشريفة بصدد بيان حال العصاة لقوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ** ولا فرق في هذا الحكم بين العالم و الجاهل بل هو في حق العالم أشد منه في حق الجاهل كما تظاهرت به الروايات من العامة و الخاصة و محصل الكلام هو أن حمل الظلمة على ظلمة الجهل لا دليل عليه و لا يساعده سياق الآية و قد ظهر بذلك أن الآية تشمل جميع العصاة ممن يكسب السيئة و لا يختصص لها بالكفار كما قال بعضهم و إحتج على مدعاه بأن سواد الوجه من علامات الكفر و ذلك لأن سواد الوجه من علائم المعصية من أي شخص صدرت كافراً كان أو مسلماً و إختصاصه بالكفر لا دليل عليه بل نقول أن المنافق المسلم أسود وجهاً من الكافر.

**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِثْنَا تَعْبُدُونَ**  
أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلاق أجمعين و الحشر هو الجمع من كل أوب الى الموقف و أما يقومون من قبورهم الى أرض الموقف هكذا قيل و هو كذلك فإن قوله جميعاً يدل على أن الحشر للجميع من المسلم و المؤمن و الكافر و المنافق و غيرهم حتى الوحوش:  
قال الله تعالى: **وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ** (١).

و الطيور:

قال الله تعالى: **وَ الطَّيْرُ مَخْشُوذَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ** (٢).

قال الزاغب في المفردات الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها و يقال ذلك في الإنسان و في غيره و لا يقال الحشر إلا في الجماعة انتهى كلامه.

قال الرّازي المسألة الأولى، أعلم أنّ هذا نوعٌ آخر من شرح فضائح أولئك الكفّار فالضمير في قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ عائد الى المذكور السّابق وذلك هو قوله: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ فَلَمَّا وَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْشَرُهُم بِالشَّرْكِ و الكفر دلّ على أنّ المراد من قوله و الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ الكفّار. و حاصل الكلام أنّه تعالى يحشر العابد و المعبود ثمّ أنّ المعبود يتبرأ من العابد الخ.

و أنا أقول الحقّ أنّ الضّмир في قوله: نَحْشُرُهُمْ يرجع الى الجميع من الَّذِينَ أحسنوا الحسنى و الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ و ذلك لأنّ الله تعالى قد أشار فيما مضى الى الفريقين فقال للَّذِينَ أحسنوا الحسنى الخ.

ثمّ قال والبن كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ عليهم كذا و كذا ثمّ قال بعد ذلك نحشرهم جميعاً فقوله: جَمِيعاً معناه جميع المحسنين و جميع العصاة و هذا هو الَّذي يقتضيه سياق الآية و نظم الكلام و هو ظاهر على المتأمل فيها و عليه فتخصيص الضمير بأحدى الفريقين دون الآخر لا دليل عليه هذا مضافاً الى أنّ الحشر ثابت لجميع النّاس و قد وافقنا على ذلك الطّبري و الألوسي.

فقال الطّبري يقول تعالى ذكره و يوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً ثمّ نقول حينئذٍ للَّذِينَ أشركوا بالله الخ.

و قال الألوسي في روح المعاني في قوله: نَحْشُرُهُمْ و ضمير نحشرهم لكلا الفريقين من الَّذِينَ أحسنوا الحسنى و الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ لأنّه المتبادر من قوله تعالى: جَمِيعاً ثمّ قال بعد سطرٍ ما لفظه:

و الإخبار بحشر الكلّ في تهويل اليوم أدخل و الى هذا ذهب القاضي البيضاوي و غيره فكون مراده بالفريقين فريقى الكفّار و المشركين خلاف الظّاهر جداً انتهى.

أقول قول البيضاوي، وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يعنى الفريقين جميعاً انتهى. و لم يبيّن مراده من الفريقين هل هو الكفّار و المشركين أو الَّذِينَ أحسنوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١  
المجلد الثاني

الحسنى، و الذين كسبوا السيئات و لأجل ذلك إختلفوا في معنى كلامه فمنهم من فهم منه المعنى الأول و منهم من حمّله على المعنى الثاني و حيث أنّ الألوّسي فهم منه المعنى الثاني فقال و كون مراده أي مراد البيضاوي بالفريقين الكفار و المشركين خلاف الظاهر.

و قال الشيخ رحمته في التبيان أخبر تعالى في هذه الآية أنّه يوم يحشر الخلائق أجمعين و به قال الطبرسي رحمته و غيره و محصل الكلام هو أنّ مرجع الصّмир عامّ و ما ذكره الرّازي لا يعتدّ به لأنّه متّفرد به فيما نعلم.

**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ**

أي بعد الحشر نقول للذين أشركوا بالله الألهة و الأنداد مكانكم أي أمكنوا مكانكم وقفوا في موضعكم أنتم أيها المشركون و شركاءكم الذين كنت تعبدونهم من دون الله من الألهة و الأوثان فَرَزِيلُنَا بَيْنَهُمْ أي ففرّقنا بين المشركين بالله و ما أشركوه به قاله الطبري.

و قال الزّمخشري في معناه ألزموا مكانكم أي لا تبرحوا حتّى تنظروا ما يفعل بكم، و قال في قوله فَرَزِيلُنَا بينهم، ففرّقنا بينهم و قطعنا أقرانهم و الوصل التي كانت بينهم في الدّنيا أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف.

و قال في التبيان مكانكم، نصب على الأمر كأنّه قال إنتظروا مكانكم حتّى نفصل بينكم و يقول المتّوحد لغيره مكانك فإنّظر و يستعمل ذلك في الوعيد و قوله: فَرَزِيلُنَا بَيْنَهُمْ مأخوذ من قولهم زلت الشّيء عن مكانه أزيله و ساق الكلام الى أن قال و المعنى فرّقنا بين المشركين بالله و ما أشركوا به.

**وَ قَالَ شُرَكَاءُ هُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** قيل في معناه ما كنّا نشعر بأنكم إيّانا تعبدون و ما أمرناكم بعبادتنا، و قيل أنّ ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين و قال الطبري **وَ قَالَ شُرَكَاءُ هُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** و ذلك حين تَبَرَّأ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ لَمَّا

قِيلَ لِلْمُشْرِكِينَ إِنَّبَعُوا مَا كَتَبَتْهُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَنُصِبَتْ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ هَؤُلَاءِ فَقَالَتْ الْآلِهَةُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ إِنْتَهَى.

ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْمِرَادِ بِهَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُمُ الْمَلَائِكَةُ بَعْضُهُمْ بَلْ هِيَ الْأَصْنَامُ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْخُطَابَ مُشْتَمِلٌ عَلَى التَّهْدِيدِ وَ الْوَعِيدِ لَا يَلِيقُ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَمَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ كَيْفَ نَطَقَتْ وَ ذَكَرَتْ هَذَا الْكَلَامَ فَلَا إِسْتِعَادَ فِيهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْطَقَهَا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَ قِيلَ الْمِرَادُ بِهَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ كُلِّ مَنْ عَبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ وَ شَمْسٍ وَ قَمَرٍ وَ إِنْسِيٍّ وَ جَنِّيٍّ وَ مَلَكٍ.

أَنْ قُلْتَ كَيْفَ قَالُوا: مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ وَ هُمْ كَانُوا قَدْ عَبَدُوهُمْ فَكَانَ هَذَا كَذِبًا وَ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْقِيَامَةِ لَا يَكْذِبُونَ.

قُلْتُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ عَلَى فَرْضِ ثَبُوتِهِ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّكُمْ مَا عَبَدْتُمُونَا بِأَمْرِنَا وَ إِرَادَتِنَا وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ:

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ فَأَنَّ هَذَا أَخْبَارَنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْآلِهَةِ وَ الْأَوْثَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ قَالُوا إِنَّا إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَ أَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ ذَلِكَ وَ يَقُولُونَ حَسْبُنَا اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَنَّهُمَا الْمُشْرِكُونَ بِأَنَّهُ تَعَالَى عَالِمُ إِنَّا مَا عَلِمْنَا مَا تَقُولُونَ وَ إِنَّا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ إِلَّا غَافِلِينَ لَا نَشْعُرُ بِهِ وَ لَا نَعْلَمُهُ وَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا كَذِبَ هُنَاكَ وَ لَا عِقَابَ عَلَى الْمَعْبُودِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا بِمَا فَعَلُوهُ وَ لَا مُشْعِرًا بِهِ وَ إِنَّمَا الْعِقَابُ ثَابِتٌ عَلَى الْعَابِدِ فَقَطْ وَ فِي تَفْسِيرِ الْقُمِّيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: فَرَزِيلُنَا بَيْنَهُمْ قَالَ عليه السلام يَبْعَثُ اللَّهُ نَارًا تَزِيلُ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْتَهَى.

أَقُولُ وَ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَشَرَ لِلْجَمِيعِ وَ لَا يَخْتَصُّ بِالْكَفَّارِ فَقَطْ كَمَا زَعَمَ الرَّازِي وَ أَمْثَالُهُ فِي الْآيَةِ وَ أَمَّا الْكَلَامُ فِي كَيْفِيَةِ الْحَشْرِ وَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَمَوْكُولٌ إِلَى مُحَلِّهِ إِنْشَاءَ اللَّهِ تَعَالَى.

هٰنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً، تتلوا، بالتاء من التلاوة و الباقون بالباء من الإختبار و عليه المصاحف و أن كان المال واحداً هنالك في موضع النصب على الظرف و معناه في ذلك المكان و هو الحشر يوم القيامة و هو يستعمل للبعيد كما أن، هنا، للقريب و هناك للمتوسط تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ أي تختبر كل نفس ما أسلفت في الدنيا من الأعمال أن خيراً فخيئراً و إن شراً ففسراً فأن قدم خيراً و شراً جرى عليه كما قال تعالى:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(١)</sup>.

و أما على قراءة التاء فهو من التلاوة:

قال الله تعالى: فَأُولَٰئِكَ يَفْرَعُونَ حِثَابَهُمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أَقْرَأُ حِثَابَكَ<sup>(٣)</sup>.

و قيل قد يكون، تتلوا، بمعنى تتبع و يكون المعنى هنالك تتبع كل نفس ما أسلفت من حسنة و سيئة فمن احسن جوزى بالحسنات و من اساء جوزى به فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء و هذا هو المراد من قولنا و أن كان المال واحداً.

و أما قوله: وَ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقِّ معناه هؤلاء ذهبوا عن أمر الله فأعيدوا اليه، فأن الرد هو الرجوع و قيل أن الرد هنا بمعنى النشأة الثانية و عليه فالمعنى ردوا الى الآخرة للحساب و الجزاء و لا شك أن هذا أليق بالمقام و قوله مولاهم الحق بمنزلة التفسير لقوله الى الله كأنه قيل و من الله الذي ردوا اليه فقال هو مولاهم الحق أي مولاهم حقاً لأن الله تعالى خالق العبيد فهو

مالكهم لا محالة أي يملك أمرهم بل هو أملك بهم من أنفسهم و من كان كذلك فهو مولاهم حقاً وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أي ما كانوا يدعونهم بإفترائهم من الشركاء مع الله يضلّون عنهم يوم القيامة و يبطلون و على ما ذكرناه فقولهم مولاهم الحق في محلّ الخفض على العدل و الصّفة و أمّا نصب الحق فعلى المدح و التقدير أعني الحقّ أو ردّوا حقاً ثمّ جيء بالألف واللام و يجوز فيه الرفع على الإبتداء و الخبر و القطع ممّا قبل.

قال ابن عباس مولاهم الحقّ أي الذي يجازيهم بالحقّ.

أن قيل كيف قال و ردّوا الى مولاهم الحقّ و قد أخبر الله تعالى بأنّ الكافرين لا مولى لهم، يقال في الجواب أنّه تعالى ليس بمولاهم في النصرة و المعونة و هذا هو المنفي في الآية، بل هو مولاهم في الخلق و الرزق و إدرار و النعم و أن كان الكافر لا يتوجّه اليه.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ  
وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَ يُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدِيرُ  
الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ لَمَّا بَيَّنَّ الله تعالى فيما مضى فضائح عبدة الأوثان و غيرهم من العصاة الطّغاة أشار في هذه الآية أصول النعم التي لا سبيل لأحد من العقلاء إنكارها و أنما قال ذلك تقريراً للحجّة عليهم لو كانوا يعقلون فأمر نبيه أن يقول لهم ولغيرهم من خلقه مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ بِإِزَالِ الْمَطَرِ وَ الْغَيْثِ وَ الْأَرْضِ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ وَ التعبير بالرزق لأجل أنّه العطاء الجاري على المرزوق على سبيل الجود و لذلك نقول لا رازق في الوجود إلّا هو تعالى حقيقة فإطلاقه على غيره تعالى كما يقال رزق السّلطان الجند أنما هو على سبيل المجاز لأنّه لو لم يطلقه على يد الإنسان لم يجيئ منه شيء فالواحد ممّا يرزق غيره مجازاً لا حقيقة فإنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و

ذلك كما لا يطلق الرب بالإطلاق إلا في حقّه تعالى و أما في غيره فيقيّد فيقال ربّ الدار و ربّ الفرس.

قال الرّاغب في المفردات الرّزق يقال للعطاء الجاري تارةً دنيويّاً كان أم آخرويّاً و للنصيب تارة و لمّا يصل الى الجوف و يتغذى به تارةً يقال أعطى السّلطان رزق الجند و يقال رزقت علماً انتهى.

**أقول** يظهر من كلامه أنّ الرّزق كما يطلق على المأكولات و المشروبات كذلك يطلق على المعقولات و المعنويّات و هو كذلك لأنّ الرزق هو العطاء الجاري و العطاء يطلق على الجميع يقال أعطاه المال و الغذاء و اللّباس كما يقال أعطاه العلم و الجاه و لا شك أنّ المعطي لجميع النّعم ظاهراً أو باطناً مادياً أو معنوياً في الحقيقة ليس إلّا الله تعالى فهو الرازق المعطي بلا كلام إذا عرفت هذا فنقول الرّزق قسمان:

مادّيّ و معنويّ فالأوّل مختصّ بالجسم و الثّاني بالروح.  
فقوله تعالى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ** إشارة الى الأوّل و قوله: **أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ** الخ ناظر الى المعنى أعني بها النّعم المعنويّة العقليّة.

**أما القسم الأوّل:** وهو المشار اليه بقوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ**.

قال بعض المفسّرين أمّا من السّماء فينزول الأمطار الموافقة و أمّا من الأرض فلاّنّ الغذاء أمّا أن يكون نباتاً أو حيواناً أمّا النبات فلا ينبت إلّا من الأرض معلوم.

و أمّا الحيوان فهو محتاج أيضاً الى الغذاء و لا يمكن أن يكون غذاء كلّ حيوانٍ حيواناً آخر و إلّا لزم الذّهاب الى ما لا نهاية له و ذلك محالٌ فثبت أنّ أغذية الحيوانات يجب إنتهاؤها الى النبات و ثبت أنّ تولد النبات من الأرض فلزم القطع بأنّ الأرزاق لا تحصل إلّا من السّماء و الأرض و معلوم أنّ مدبّر



السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فُتِبَتْ أَنَّ الرِّزْقَ لَيْسَ إِلَّا مِنْهُ  
انتهى كلامه.

و قال صاحب الكشف في قوله: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أَيِ  
يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته  
و يوسّع رحمته انتهى.

**أقول** ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به و تبعهما عليه أكثر مفسريهم أمثال  
الألوسي والبيضاوي والسيوطي وغيرهم وهو الظاهر من الآية الشريفة إذ  
لا شك أنّ إحياء الأرض بسبب الأمطار فإنّ السماء بمنزلة الفاعل و الأرض  
بمنزلة القابل و الإنسان يعيش في الأرض و يتغذى من النباتات المتولدة منها  
و لولا تغذيته منها لم يقدر على إدامة حياته و هذا ظاهر لا خفاء فيه و أنّما  
الكلام في أنّ الرِّزْقَ من هو، و لا شك أنّ السماء والأرض سببان لإيصال الرِّزْقِ  
إلى الخلق لا أنّهما فاعلان و الدليل على ذلك هو إنّنا نرى في بعض السنين قلة  
نزول البركات من السماء أو عدمها و في بعض السنين بالعكس و هو يدلّ على  
أنّ المدبر غيرهما.

**ثانياً:** نرى النظم الخاص من جهة الكمية و الكيفية في نزول الأمطار دليل  
على أنّ الأمر بيد الرّازق:

قال الله تعالى: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا  
لَكُمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ  
مَوْتِهَا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ أَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ<sup>(٣)</sup>.

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

و أمثال ذلك من الآيات الدالة على أَنَّ الرزاق هو الله تعالى و عليه  
فالجواب.

عن قوله تعالى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ الرزاق هو الله المطلوب**  
فهذا هو الحجة الأولى منه تعالى على الخلق حيث أنهم قد أقرّوا بعقولهم  
أَنَّ الرزاق هو الله تعالى.

الحجة الثانية: قوله **أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ** قيل، أم، منقطعة  
بمعنى بل و الأضراب إنتقالي لا إبطالي و فيه تنبيه على كفاية هذا الإستفهام  
فيما هو المقصود أي من يستطيع خلقهما و تسويتهما على هذه الفطرة  
العجيبة و من وقف على تشريحهما وقف على ما يبهر العقول، أو من يحفظهما  
من الآفات مع كثرتها و سرعة إنفعالهما عن أدنى شيء يصيبهما، أو من يتصرف  
بهما إذهاباً و إبقاءً و الملك على كل مجاز انتهى.

**أقول** أتما خصّ السمع و الأبصار بالذكر من الحواس لأنهما أشرف و أفضل  
من سائر الحواس و الظاهر أَنَّ المراد بالملك في الآية هو المالكية بسبب الخلق  
و التدبير أي أَنه تعالى و هو المدبر لهما و هو المالك لهما و لغيرهما فَأَنَّ العبد و  
ما في يده كان لمولاه و كيف كان فالجواب عنه فثبت أيضاً أي هو الله تعالى و  
هذا هو الحجة الثالثة.

الحجة الرابعة: قوله: **وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ**  
**مِنَ الْحَيِّ** كلمة، مَنْ أيضاً للإستفهام.

قال بعض المفسرين في معناه، أَنه يخرج الإنسان و الطائر من النطفة و  
البيضة و يخرج الميت من الحي أي يخرج النطفة و البيضة من الإنسان و  
الطائر.

الوجه الثاني: أَنَّ المراد منه أَنه تعالى يخرج المؤمن من الكافر و الكافر من  
المؤمن و الأكثرون على الأول و هو الى الحقيقة أقرب انتهى كلامه.

وقال الآخرون في قوله: **وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ** معناه من الذي يخلق الحيوان و يخرجهم من أمه حياً سواً إذا ماتت أمه **وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ** يعني من يخرجهم به غير تام ولا بالغ حد الكمال انتهى.  
والحق أن الموت بحسب أنواع الحياة.

**فالأول:** ما هو بإزاء القوة التامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنبات:

قال الله تعالى: **وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** <sup>(٣)</sup>.

**الثاني:** زوال القوة الحاسة ومنه:

قال الله تعالى: **وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا** <sup>(٤)</sup>.

**الثالث:** زوال القوة العاقلة وهي الجهالة ومنه:

قال الله تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** <sup>(٥)</sup> وإياه قصد.

قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** <sup>(٦)</sup>.

**الرابع:** الحزن المكدر للحياة ومنه:

قال الله تعالى: **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ** <sup>(٧)</sup>.

**الخامس:** المنام ولذلك قيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل وعلى هذا النحو ساهما الله توفياً:

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ** <sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** <sup>(٩)</sup>.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

١- الزوم= ١٩

٢- سورة الزوم آية ٥٠

٣- ق = ١١

٤- مريم= ٦٦

٥- الأنعام= ١٢٢

٦- النمل = ٨٠

٧- إبراهيم = ١٧

٨- الأنعام = ٦٠

٩- الزمر = ٤٢

إذا عرفت هذا فقله تعالى: **وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** إشارة الى جميع الأقسام المذكورة وذلك لعدم المخصص فحمل الآية على العموم أولى والجواب عنه أيضاً مثبت وهو أن المخرج هو الله تعالى.

**الحُجَّة الخامسة:** قوله: **وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** وفيه إشارة الى أن هذه المذكورات في الآية يحتاج الى مدبر حكيم الذي ينزل الأمر على طبق مصلحة رآها وليس هو إلا الله تعالى كما قال: **فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** إذا سئلت هؤلاء عن الفاعل الخالق الرازق المحيي المدبر، فيقولون الله: **فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ** أي فقل لهؤلاء المقرين أفلا تتقون أي فهلاً تتقون خلافه و تحذرون معاصيه والآية تدل على التوحيد لأنها دلت على وحدة المدبر لهذا العالم يجوز أن يكون ذلك بحسب الاتفاق لإحالة العقل ذلك ولا بالطبيعة لأنها في حكم الموات فلم يبق بعد ذلك إلا أن الفاعل لذلك قادر عالم يدبر الأمر على ما يشاء ويفعل ويحكم ما يريد وهو المطلوب.

#### تنبيه

أنما دخلت، أم، على، من، في قوله **أَمَّمَنَ** لأن، من، ليست أصل الإستفهام بل أصله الألف فلذلك جاز الجمع بينهما هذا.

**فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**  
الفاء

للتفريع وذلك إشارة الى إسم الله والكاف والميم للمخاطبين و أنما جمع لأنه أراد جميع الخلق.

قال الزمخشري في الكشاف، ذلكم، إشارة الى من هذه قدرته وأفعاله **رَبُّكُمُ الْحَقُّ** الثابت ربوبيته ثباتاً لا رب فيه لمن **حَقَّقَ النَّظَرَ** فَمَاذَا **بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** يعني أن الحق والضلال لا واسطة بينهما فمن تخطى الحق وقع

فِي الضَّلَالِ فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ عَنْ الْحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ وَ عَنِ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ وَ  
عَنِ السَّعَادَةِ إِلَى الشَّقَاءِ أَنْتَهَى كَلَامِهِ.

أقول معنى الآية أنكم اذا إعترفتم بأن الرزق والإحياء والإماتة والتدبير  
كلها بيد الله تعالى فذلكم الله ربكم الحق، لأن الخيرات في الدنيا والآخرة أتما  
تحصل من رحمة الله وإحسانه وأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر البتة و اذا  
كان الأمر على هذا المنوال أي عرفتم الحق والباطل فماذا بعد الحق إلا الباطل  
أنهما نقيضان وهما لا يجتمعان ولا يرتفعان فلا يكونان حقين ولا باطلين فاذا  
كان أحدهما حقاً والآخر باطلاً فالإعراض عن الحق هو الدخول في الباطل  
بعينه فأنى تصرفون أي كيف تعدلون عن الحق الى الباطل.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

قالوا الكاف في كذلك، للتشبيه وهو في موضع نصب والإشارة بذلك الى  
المصدر المفهوم من تصرفون مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله:  
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ حَقَّ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ أي جازاهم مثل أفعالهم إشارة الى الحق.  
قال صاحب الكشف كذلك مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك وقال في  
التبيان والكاف في قوله: كَذَلِكَ في موضع نصب والتقدير مثل أفعالهم  
جازاهم ربك وقيل في الشبه به وجهان:  
أحدهما: المعنى أنه ليس بعد الحق إلا الضلالة فشبه به كلمة الحق بأنهم لا  
يؤمنون في الصحة.

الثاني: ما تقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على  
المقدار و أما أطلق في الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون لأنه أريد به الذين تمردوا  
في كفرهم و أنهم في موضع نصب على قول القراء والتقدير بأنهم أو لأنهم لا  
يؤمنون فقوله: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بدل من كلمة، ربك انتهى.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

قال الرّازي إحتج أصحابنا بهذه الآية على أنّ الكفر بقضاء الله وإرادته و تقريره أنّه تعالى أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون فلو آمنوا لكان أمّا أن يبقى ذلك الخبر صدقاً أو لا يبقى والأول باطل لأنّ الخبر بأنّه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقاً حال ما يوجد الإيمان منه.

الثاني: أيضاً باطل لأنّ إنقلاب خبر الله تعالى كذباً محال فثبت أن صدور الإيمان منهم محال و المحال لا يكون مراداً فثبت أنّه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر و أنّه أراد الكفر منه ثمّ نقول أن كان قوله: فَأَنِّي تُصْرَفُونَ يدلّ على صحّة مذهب القدريّة فهذه الآية الموضوعه بجنيه تدلّ على فساده انتهي موضع الحاجة من كلامه.

أقول لا تدلّ الآية على أنّ الكفر بقضاء الله وإرادته أصلاً و الرّازي قد أتعب نفسه في إثبات ذلك و إستدلّ على مدعاه بما هو أوهن من بيت العنكبوت و ذلك لأنّه تعالى قد أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون بإختيارهم و سوء سريرتهم لا بقضاء الله و قدره بمعنى أنّه تعالى لم يقض عليهم بالكفر بل علمهم بكفرهم لأنّه علام الغيوب و العلم لا يكون علّة لفعل المكلف قطعاً و ذلك مثل علم الطّبيب بموت من شرب السمّ بإختياره.

و ما نحن فيه من هذا القبيل مع أنّ الخطأ في علم الطّبيب محتملّ و هو في حقّه تعالى محال ثمّ قال الرّازي.

**المسألة الخامسة:** المراد من كلمة الله إمّا إخباره عن ذلك و خبره صدق لا يقبل التّغير و الزّوال أو علمه بذلك و علمه حقّ لا يقبل التّغير و الجهل. ثمّ قال و قال بعض المحققين علم الله تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و خبره تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و قدرته لم تتعلّق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و إرادته لم تتعلّق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و أثبت ذلك في اللّوح المحفوظ و أشهد عليه ملائكته و أنزله على أنبياءه و أشهدهم عليه فلو حصل

الإيمان لبطلت هذه الأشياء فينقلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً وقدرته عجزاً وإرادته كرهاً وإشهادته باطلاً وإخبار الملائكة والأنبياء كذباً وكل ذلك محال انتهى كلامه.

وَأَنَا أَقُولُ أَمَّا قَوْلُهُ عِلْمُ اللَّهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَخَبْرُهُ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ فَهُوَ صَدَقَ لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَقُدْرَتُهُ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِخَلْقِ الْإِيمَانِ فِيهِ بَلْ بِخَلْقِ الْكُفْرِ وَهَكَذَا إِرَادَتُهُ فَيَقَالُ لَهُ هَذَا أَوَّلُ الْكَلَامِ وَمِنْ أَيْنَ عِلْمُ الرَّازِي أَنَّ قُدْرَتَهُ وَإِرَادَتَهُ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِخَلْقِ الْإِيمَانِ بَلْ تَتَعَلَّقْ بِخَلْقِ الْكُفْرِ فِيهِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ أَنَّ قُدْرَتَهُ وَإِرَادَتَهُ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِخَلْقِهِمَا جَمِيعاً.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ الْإِيمَانَ وَالْكَفْرَ لَا يَصْلُحَانِ لَتَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِهِمَا لِأَنَّهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الْكُسْبِيَّةِ وَلَا مَعْنَى لِأَنَّهُ يَكُونُ الْإِيمَانُ مَخْلُوقًا وَهَكَذَا الْكُفْرُ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الْإِيمَانِ هَذَا أَوَّلًا.

ثَانِيًا: نَقُولُ عَلَى فَرْضِ التَّسْلِيمِ وَإِمْكَانِ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِهِمَا، مِنْ أَيْنَ ثَبَتَ لِلْمُسْتَدَلِّ أَنَّ الْقُدْرَةَ تَعَلَّقَتْ بِالْكَفْرِ دُونَ الْإِيمَانِ.

وَعَلَى فَرْضِ التَّسْلِيمِ نَقُولُ لَمْ تَعَلَّقْ الْقُدْرَةَ بِالْكَفْرِ وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِالْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ الْمَفْرُوضَ إِمْكَانَ تَعَلُّقِهَا بِهِمَا أَلَيْسَ هَذَا مِنَ الظُّلْمِ الْقَبِيحِ أَوْ التَّرْجِيحِ بِلَا مَرَجِحٍ وَمَحْضَلِ الْكَلَامِ أَنَّ نِسْبَةَ الْقَبَائِحِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِحَادٌ وَزَنْدَقَةٌ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ**  
**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** <sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** <sup>(٢)</sup>.

وَالْحَاصِلُ أَنَّا لَا نُنْكِرُ قُدْرَةَ اللَّهِ وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَلَوْ شَاءَ أَنْ يُجْبِرَ الْعَبْدَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِهِ لَفَعَلَ إِلَّا أَنَّا نَقُولُ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ وَإِجْبَارَ الْعَبْدَ عَلَى الْفَعْلِ ثُمَّ عِقَابُهُ عَلَيْهِ ظُلْمٌ قَبِيحٌ وَصُدُورُهُ مِنْهُ مُحَالٌ لِمَنَافَاتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدل الَّذِي وصف الله به نفسه حيث قال: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَلَمَلَايَكُهُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِإِقْسَاطٍ<sup>(١)</sup>.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَتَى تُؤَفِّكُونَ

البدء و الإبداء تقديم الشئ على غيره ضرباً من التقديم و مبدأ الشئ هو الَّذِي منه يتركب أو منه يكون فالحروف مبدأ الكلام و الخشب مبدأ الباب و السرير و النواة مبدأ النخل اذا عرفت هذا فاعلم أَنَّ الله تعالى هو المبدء المعيد أي هو السَّبَب في المبدأ و النهاية و منه يقال رجع عوده على بدأه. أما أَنَّهُ تعالى هو المبدء فلا كلام فيه:

قال الله تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ<sup>(٣)</sup>. و أما أَنَّهُ تعالى هو المعيد:

قال الله تعالى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ<sup>(٨)</sup>. و الأيات كثيرة هذا بالنظر الى التقل و هو ممَّا لا كلام فيه لكل مسلم.

٢- السجدة = ٧

٤- الأعراف = ٢٩

٦- يونس = ٤

٨- الزوم = ٢٧

١- آل عمران = ١٨

٣- العنكبوت = ٢٠

٥- الأنبياء = ١٠٤

٧- الزوم = ١١



و أما بالنظر الى العقل فقد يتوهم أنّ الموجود بعد موته لا يعاد و ذلك لأنّ إعادة المعدم ممتنعة و قد برهنوا على إستحالتها بما لا مزيد عليه.

و قد مرّ مراراً أنّ الموجود لا ينعدم بموته و أنّ المادّة الأصلية باقية فالإعادة أهون و أسهل من الإبداء و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء الله.

ثمّ أنّه تعالى أمر نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفار المنكرين هل من شركاءكم من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، و الإستفهام للإنكار أي لا يكون، قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ أي تصرفون و في هذه الآية إشارة الى أنّ المعبود الذي يستحقّ أن يعبد هو الذي خلقكم أولاً و يعيدكم ثانياً و حيث أنّ شركاءكم من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يقدرّون على الخلق و الإعادة لكونها داخلين في سلسلة المحدثات و المخلوقات فكيف تقولون أنّها كذا وكذا.

ثمّ قال تعالى لنبيّه:

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

و هذا الإستفهام أيضاً إنكاراً أي ليس كذلك لأنّ الجماد الذي لا شعوره كيف يهدي الى الحقّ قل، لهم، أنّ الله تعالى يهدي للحقّ

و من المعلوم أنّ من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتّبع و يعبد ممّن لا يهدي اليه و الى هذا المعنى أشير بقوله أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وقوله: أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي بفتح الباء و كسر الهاء و الدال المشددة، أصله، يهتدي فقلّب حركة التاء الى الهاء و أدغمت التاء في الدال هذا على قراءة من فتح الهاء في لا يَهْدِي و أما من كسرهما كما هو المشهور بين القراء و عليه المصاحف، فإنّهم كسروا الهاء لمّا أضرط الى الحركة حرّك بالكسر قالوا أنّ، أحقّ، ليست أفعل تفضيل بل المعنى، حقيق بأن يتّبع.

و محصل الكلام في الآية الشريفة هو أَنَّ الحقَّ حَقِيقٌ بالإتباع دون الباطل الذي لا حقيقة له و لما كان الوصول اليه يحتاج الى الهادي و المرشد فلا محالة يكون الهادي اليه أيضاً أَحَقَّ بالإتباع لما فيه من الإيصال الى المطلوب حكم الله تعالى بما حكم و قال ما قال و أنما قال في آخر الآية فما لكم كيف تحكمون، للإشارة إلى أَنَّ هذا الذي قلناه و هو متابعة الحقَّ ممَّا تحكم به العقول السليمة و لذلك أتى بكلمة، كيف، التي تغيد الإستفهام و المعنى كيف تحكمون أيها العقلاء.

و من المعلوم أَنَّ العقل السليم يحكم بأنَّ الحقَّ أَحَقَّ أن يتَّبَعَ من الباطل فالهادي اليه أيضاً كذلك.

قال بعض المفسرين أَنَّ الله إستدلَّ بالخلق و الهداية على وجود الصانع و هما حالان للجسد و الروح و لما كان العقول يلحقها الإضطراب و الغلط بيّن تعالى أَنَّهُ لا يهديهما إلّا هو بخلاف أصنامهم و معبوداتهم فأنه ما كان منها لا روح فيه جماداً لا تأثير له و ما فيه روح فليس قادراً على الهداية بل الله تعالى هو الذي يهديه، و هدى تتعدى بنفسها الى اثنين.

و الى الثاني بالى وباللّام، و يهدي الى الحقَّ حذف مفعوله الأول و لا يصح أن يكون لازماً بمعنى يهتدي لأنَّ مقابله أنما هو متّعدٍ و هو قوله: **قُلْ أَللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** أي يهدي من يشاء الى الحقَّ و لما كانوا معتقدين بأنَّ شركاءهم تهدي الى الحقَّ و لا يسلمون حصر الهداية بالله تعالى أمر الله نبيّه ﷺ بأن يبادر الى الجواب فقال.

**قُلْ أَللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** ثم عاد في السّؤال بالهمزة و أم بين من هو حقيق بالإتباع و من هو غير حقيق و جاء على الأفصح الأكثر من فصل، أم، ممّا عطف عليه بالخبر كقوله: **أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ** <sup>(١)</sup> بخلاف قوله: **أَقْرَبُ أَمْ**

بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ<sup>(١)</sup> و سيأتي القول في ترجيح الوصل هنا في موضعه إن شاء الله تعالى انتهى كلامه.

و قال الرّازي في المقام، أعلم أنّ هذا هو الحجّة الثالثة و أعلم أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أولاً ثمّ بالهداية ثانياً عادةً مطرّدة في القرآن فحكى الله تعالى عن الخليل عليه السلام أنّ ذكر ذلك فقال:

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ<sup>(٢)</sup>.

و عن موسى عليه السلام أنّه ذكر ذلك فقال:

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى<sup>(٣)</sup>.

و أمر محمداً ﷺ بذلك فقال:

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى<sup>(٤)</sup>.

و هو في الحقيقة دليل شريف لأنّ الإنسان له جسد و روح فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و الإستدلال بأحوال الرّوح هو الهداية.

فها هنا أيضاً لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى و هو قوله: مَنْ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إتّبعه دليل الهداية في هذه الآية الى آخر ما قال انتهى أقول أمّا قوله أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أولاً، فهو حقّ لا مربة فيه إلّا أنّ البحث فيه قد مضى في الآية السّابقة حيث قال: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ و لا كلام لنا فيه فعلاً.

و أمّا قوله ثمّ بالهداية ثانياً، فلا نعلم مقصوده بل لا نفهم معناه و أيّ إستدلال بالهداية على وجود الصّانع و المفروض أنّ الهداية لا تكون إلّا بعد الوجود فلو كان الوجود أيضاً بالهداية لزم الدّور و توضيحه أنّ الهادي معناه

نبينا القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

ذاتٌ ثبت له الهداية و حيث أنها صفة للذات فلا محالة توجد بعد وجوده، مثلاً نقول أن الله يهدي للحق، فثبت الهداية له تعالى و لا شك أنه موجود قبل الهداية لا بها للزوم الدور.

فقول الرّازي ثم بالهداية ثانياً لا معنى فأَنَّ الهداية لا تثبت بها وجود الصّانع. و أن شئت قلت الهداية لا تكون بعد الوجود فلو كان الوجود ثبت بها يلزم الدور و عليه فالآية المبحوثة عنها ليست بصدد إثبات الصّانع أصلاً و أنما هي بصدد إثبات أن الموصول الى الحق لا يمكن إلا بالهداية اليه من قبله تعالى و اليه الإشارة بقوله: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** و الفرق بين إثبات وجود الصّانع و بين الوصول الى الحق واضح. و أما قول الرّازي لأنّ الإنسان له جسد و روح فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و بأحوال الرّوح هو الهداية كلام بلام محصل.

نعم لو قال تعالى في الرّوح ما قاله في خلق الجسد لثم ما ذكره و لم يقل ذلك إذ ليس في الآية بحث في الرّوح بل البحث في الهداية و أعجب من ذلك قوله بعد ما نقلناه عنه و أعلم أنّ المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للرّوح الى آخر ما قال و لم يعلم أنّ حصول الهداية للرّوح لا ربط له بإثبات الصّانع بالهداية إذا عرفت هذا.

فنقول أنّ الله تعالى إستدلّ على بطلان مذهب المشركين بأمرين:

**أحدهما:** أنّ المعبود الحقيقي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده و هو منحصّر بالله تعالى و ما سواه مخلوق له كائناً ما كان و حيث أنّ الأصنام والأوثان و الشّمس و القمر و النّجوم كلّها في سلسلة المخلوق و المخلوق لا يكون خالقاً فلا يكون معبوداً.

**ثانيهما:** مسألة الهداية و توضيحها أنّ الهداية الى الحق لا يتحقق إلا ممّن كان مع الحق و أمّا من كان باطلاً فكيف يهدي الى الحق و عليه فكلّ ما إتخذوه

شركاء للحقّ فهو في حدّ نفسه باطل، إلّا كلّ شيء ما خلا الله باطل، و الباطل لا يهدي الى الحقّ و ما لا يهدي اليه لا يتّبع فالباطل لا يتّبع و هو المطلوب.

فهذه الآية ليست بصدّد إثبات الصّانع بل هي بصدّد إثبات أنّ الوصول الى الحقّ لا يمكن إلّا بسبب الهداية اليه و الله تعالى هو الهادي اليه لا الأصنام و الأوثان، فكأنّ الله تعالى قال لنبيّه قل لهؤلاء المشركين إنّخذوا من يهديكم الى الحقّ و هو الله تعالى و أتركوا ما لا يهديكم اليه و هو جميع الأوثان و الأصنام و غيرها بعنوان المعبوديّة و هذا هو المستفاد من الآية الشريفة.

أن قلت ما معنى هداية الله و كيف يهدي الى الحقّ.

قلت معنى الهداية في حقّه تعالى هو إرشاده العباد الى الحقّ بسبب أنبياءه و أوليائه فإنّ هدى الرّسول هو هدى الله بعينه.

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْنَاكَ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** (١) و

هذا في حقّ الرّسول ممّا لا كلام فيه.

و أمّا بعد الرّسول فهل الله يهدي للحقّ أم لا.

و الجواب مثبت حقّاً و عليه نقول هداية الله و إرشاده الخلق بعد الرّسول بسبب خليفة الرّسول فالخليفة قائم مقام الرّسول في هداية الخلق بأمر من الله تعالى و من كان هادياً الى الحقّ يكون مع الحقّ قطعاً لأنّ معطي الشّي لا يكون فاقداً له فخليفة الرّسول لابدّ من أن يكون مع الحقّ و هادياً اليه فالخلافة بعد الرّسول تحت عنوان الهداية تنحصر بأمر المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام لأنّه كان مع الحقّ بشهادة الرّسول لقوله **عَلَيْهِ السَّلَام** فيه عليّ مع الحقّ و الحقّ معه يدور معه حيثما دار، و قد نقله جميع أرباب الحديث من العامّة و الخاصّة فهو من المتواتر بل فوق التواتر و إذا كان مع الحقّ و الحقّ معه فهو لا يهدي إلّا الى الحقّ و من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتّبع ممّن لا يهدي إلّا أن يهدي بصريح الآية.

فبناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

فما لكم كيف تحكمون فالآية دالة على أن الإمام والهادي بعد الرسول هو علي بن أبي طالب عليه السلام ويثبت هذا الحكم لغيره من الأئمة المعصومين أيضاً لوجود الملاك فيهم ولعدم القول بالفصل هذا ما إستفدناه من الآية الشريفة و هو يكفى:

قال الله تعالى: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ<sup>(٢)</sup>.

ثم أنهم ذكروا في الآية مسائل لابد من التنبيه عليها:

**الأولى:** قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً يهدي بفتح الباء و سكون الهاء و تخفيف الدال و قرأ أهل المدينة، إلّا و رشاً بفتح الباء و سكون الهاء و تشديد الدال و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمر و وورش بفتح الباء و الهاء و تشديد الدال و قرأ يعقوب و حفص و الأعشى و البرجمي بكسر الباء و كسر الهاء و تشديد الدال و لكل وجه وجهه.

**الثانية:** هذه التي إتخذوها ألهة لا تهتدي و إن هديت لأنها موات من حجارة و أوثان و نحو ذلك فكيف قال تعالى: أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى. قيل في الجواب تقدير الكلام على أنها إن هديت إهتدت و أن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنهم لما إتخذوها ألهة عبّر عنها كما يعبر عن الذي يجب له العبادة:

قال الله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ<sup>(٤)</sup>.

فأجري عليه اللفظ كما يجري على من يعلم كأنه قال أم من لا يهدي إلا أن يهدي أي أم من لا يعلم حتى يعلم قالوا و أراد الله بذلك تعجيبيهم من أنفسهم و تبين جهلهم قلّة تمييزهم في تسويتهم من لا يعلم و لا يقدر بالله القادر العالم كما أنّ الأمة بعد رسول الله فعلت ذلك فلا فرق بين من فعل أو يفعل ذلك و بين المشركين الذين أشركوا و سوّوا بين الخالق الهادي الى الحقّ و غيره ممّن لا يوصف به.

الثالثة: قوله: **أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى** بفتح الباء و كسر الهاء و تشديد الدال أصله يهتدي فأدغم التاء في الدال و هو واضح.  
ثم أشار الله تعالى الى منشأ هذا الانحراف و الخطأ الذي صدر منهم فقال:

**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**

يتّبع بفتح الباء و التاء المشدّدة من الإتياع و الظنّ إسم لما يحصل عن إمارة و متى قويت أدّت الى العلم و متى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التّوهم و الفرق بين الظنّ و الشكّ هو أنّ الشكّ اعتدال التّقيّضين عند الإنسان و تساويهما و ذلك قد يكون لوجود إمارتين متساويتين عند التّقيّضين أو لعدم الإمارة فيهما.  
و أمّا الظنّ فهو رجحان أحد التّقيّضين عند الإنسان و عدم تساويهما و كلمة، ما، في قوله: **وَمَا يَتَّبِعُ** للتّفي بمعنى ليس أي ليس يتّبع أكثر هؤلاء الكفار إلا الظنّ و أمّا قال: **أَكْثَرُهُمْ** ولم يقل جميعهم أو كلّهم مثلاً قيل لأنّ منهم من تبصّر و رفضها كما قال:

أَرَبُّ يَبُولُ الثَّعْلَبَانِ بِرَأْسِهِ      لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

و قيل المراد بأكثرهم جميعهم و المعنى ما يتّبع أكثرهم في إعتقادهم في الله و في صفاته إلا ظناً ليسوا متبصّرين و لا مستندين الى برهان أمّا ذلك شيء تلقّفوه من أباءهم.

وقيل المعنى وما يتَّبِع أكثرهم في جعلهم الأصنام آلهة وإعتقادهم أنَّها تشفع عند الله وتَقَرَّب إليه وبالجمله تَضَمَّنَت الآية التهديد والوعيد على إتباع الظَّن وتقليد الأباء ففي الآية دلالة على عدم كفاية الظَّن في العقائد هكذا قيل وقال الرَّاظي.

**المسألة الأولى:** تَمَسَّكَ نفاة القياس بهذه الآية فقالوا العمل بالقياس عملٌ بالظَّن فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى: **إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** أجاب فثبتوا القياس فقالوا الدليل الذي دلَّ على وجوب العمل بالقياس دليلٌ قاطعٌ فكان لوجوب معلوماً فلم يكن العمل به مظنوناً بل كان معلوماً أجاب المستدلُّ عنه فقال لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً لله تعالى لكان ترك العمل به كفراً لقوله تعالى: **وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**<sup>(١)</sup> ولما لم يكن كذلك بطل العمل به وقد يعبرون عن هذه الحجة بأن قالوا الحكم المستفاد من القياس إما أن يعلم كونه حكماً لله تعالى أو يظنُّ أو لا يعلم ولا يظنُّ.

**الأول:** باطل وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى: **وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**<sup>(٢)</sup> وبالاتفاق ليس كذلك.

**الثاني:** باطل لأن العمل بالظَّن لا يجوز لقوله تعالى: **إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**.

**الثالث:** باطل لأنه اذا لم يكن معلوماً أو مظنوناً كان مجرد التشهي وهو باطل لقوله تعالى: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ**<sup>(٣)</sup> وأجاب فثبتوا القياس بأنَّ حاصل هذا الدليل يرجع الى التمسك بالعمومات و التمسك بها لا يفيد إلا الظَّن فلما كانت هذه العمومات دالة على



المنع من التمسك بالظن لزم كونها دالة على المنع من التمسك بها و ما أفضى بثوبته الى نفيه كان متروكاً انتهى.

**أقول** بطلان العمل بالقياس لا يحتاج الى هذه التكاليفات و ذلك لأن العقل السليم يدل على بطلانه فإن الدين لا يصاب بالعقول ولقوله تعالى: **وَمَا أَتَيْنَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا** والقياس مما لم يأت به الرسول. **ثالثاً:** أن الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعية فلا يقاس حكم منها بحكم آخر.

**وأبعاً:** أن أول من قاس هو إبليس حيث قال: **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**<sup>(١)</sup> فقاس النار بالطين و حكم بأنها أفضل و أشرف منه فكيف أمره الله بالسجود لادم و قد ورد في الحديث أنه ليس من أمر الله أن يأخذ دينه بهوى و لا رأي و لا مقاييس.

قيل ذكر المقاييس بعد الرأي من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشدة الإهتمام و محصل الكلام هو أن الله قد ذمهم على متابعة الظن في الإعتقادات إيماءً الى أن الإعتقاد بالتوحيد و النبوة و القيامة و الإمامة لابد من أن يكون على سبيل القطع و اليقين لا على سبيل الظن و التخمين و هذا مما أطبق عليه الكل من العامة و الخاصة و أمّا القياس فإنه يؤخذ به في الفروع لا في الأصول فما ذكره الرازي لا وجه له إلا على القول بأن الظن في الآية لا يختص بالأصول بل هو عام يشمل الأصول و الفروع و للبحث فيه مقام آخر و لنرجع الى تفسير الآية و نقول.

قوله: **وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا** أي أكثر الكفار و الملحدين و أنما قال أكثرهم و لم يقل جميعهم أو كلهم لأن بعضهم رجع عن الكفر و الإنكار و أنما قال ظناً على سبيل التأكيد و لم يقل إلا الظن لإفادة النوع أي و ما يتبع أكثرهم

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

إلا نوعاً من الظن بمعنى أنه نوع خاص وليس من الظنون المعتبرة التي تقوم مقام القطع في بعض الموارد وقوله: **إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ليس على إطلاقه لأنه يقوم مقام العلم مع عدم إمكان وجوده.

نعم أنه لا يقوم مقام العلم مع وجوده أو إمكان وجوده فالمعنى أن الظن لا يغني من الحق شيئاً في أكثر الموارد وأما في بعضها فهو يقوم مقام العلم فيجب العمل به.

وأما قوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ففيه ضرب من التهديد والتخويف لأنه تعالى أخبر في هذا الكلام أنه يعلم ما يفعلونه ولا يخفى عليه منه شيء فيجازيهم على جميعه على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب هذا تمام الكلام في تفسير الآية وللبحث في الظن وأقسامه وما هو حجة منه وما هو ليس بحجة محل آخر يأتي في موضعه.



وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ  
لَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ  
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ  
افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ  
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)  
بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ  
تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ  
يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ  
بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ  
لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ  
مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ  
أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)  
وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ  
كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ  
شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

◀ اللَّغَةُ

جزء ١١

يُفْتَرَى، الإِفْتِرَاءُ الإخبار على القطع بالكذب و هو مأخوذ من فري لأديم  
وهو قطعه بعد تقديره.

بَرِيءٌ البراءة قطع العلقه التي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدين  
و البراءة من العيب في البيع.

المجلد الثامن

تُسْمِعُ الْأَصَمَّ الْمَفْسَدَ السَّمْعَ بِمَا يَمْنَعُ مِنْ إِدْرَاكِ الصَّوْتِ وَ قَدْ صَمَّ  
بِصَمِّ صَمَمًا، وَالسَّمْعَ إِدْرَاكِ الشَّيْءِ بِمَا بِهِ يَكُونُ مَسْمُوعًا وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ.

### ◀ الأعراب

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هَذَا إِسْمَ كَانَ وَ الْقُرْآنُ نَعَتْ لَهُ أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ وَأَنْ  
يُفْتَرَى فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجِهٌ:

أحدها: أَنَّهُ خَبَرٌ كَانَ أَيَّ وَ مَا كَانَ الْقُرْآنُ إِفْتِرَاءً وَ الْمَصْدَرُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ  
أَيَّ مَفْتَرَى.

الثاني: التَّقْدِيرُ مَا كَانَ الْقُرْآنُ ذَا إِفْتِرَاءٍ.

الثالث: أَنْ، أَنْ، خَبَرٌ كَانَ مَحْذُوفٌ وَ التَّقْدِيرُ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مُمْكِنًا أَنْ  
يَفْتَرَى وَ قِيلَ التَّقْدِيرُ، لِأَنَّهُ يَفْتَرَى، وَ (تَصْدِيقٌ) مَفْعُولٌ لَهُ أَيَّ وَ لَكِنْ أُنْزِلَ  
لِلتَّصْدِيقِ.

تَفْصِيلُ الْكِتَابِ مِثْلُ التَّصْدِيقِ لَا رَيْبَ فِيهِ حَالٌ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْكِتَابُ  
مَفْعُولٌ فِي الْمَعْنَى وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ  
حَالًا أُخْرَى، وَ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِالْمَحْذُوفِ أَيَّ وَ لَكِنْ أُنْزِلَ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
كَيْفَ كَانَ كَيْفَ خَبَرٌ كَانَ وَ عَاقِبَةُ إِسْمِهَا مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ الْجَمْعُ مَحْمُولٌ  
عَلَى الْمَعْنَى أَيَّ عَلَى مَعْنَى، مَنْ، وَ الْأَفْرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مَنْ يَنْظُرْ مَحْمُولٌ  
عَلَى لَفْظِهَا.

### ◀ التفسير

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ نَفَى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ  
الآيَةِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ وَ هُوَ مُجْمَعٌ مَا بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ الَّذِي أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ  
مَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ فِي جَوَابِ قَوْلِهِمْ، إِنْ  
بَقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ وَ كَانَ مِنْ قَوْلِهِ أَنَّهُ إِفْتِرَاءٌ

الرَّسُولَ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ تَعَالَى فِي الْجَوَابِ وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرَى أَيُّ مَا صَحَّ وَلَا إِسْتِقَامَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمَعْجَزُ مَفْتَرَى وَ فِي الْإِشَارَةِ بِهَذَا تَفْخِيمُ الْمِشَارِ إِلَيْهِ وَ تَعْظِيمُهُ وَ كَوْنُهُ جَامِعاً لِلْأَوْصَافِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ وَجُودُهَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ مَفْتَرَى.

وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقعت، لكن، هنا أحسن موقع اذا كانت بين نقيضين و هما الكذب و التصديق المتضمن الصدق و الذي بين يديه، الكتب الإلهية المتقدمة من التوراة و الإنجيل و الصحف و غيرها فَأَنَّ الْقُرْآنَ مُصَدِّقٌ لَهَا.

و قيل و الذي بين يديه هو أشرط الساعة و هو ضعيف لأن البرهان على قریش لا يقوم إلا بتصديق القرآن ما في التوراة و الإنجيل مع أنهم كانوا يقطعون بأن الآتي به لم يطالع تلك الكتب و لا غيرها و لا هي في بلده و لا قومه لا بتصديق الأشرط لأنهم لم يشاهدوا شيئاً منها.

و قوله: وَ تَفْصِيلُ الْكِتَابِ قيل هو تبیین ما فرض و كتب فيه من الأحكام و الشرائع و ذلك لأن التفصيل التبيين أي يبين القرآن ما في كتب المتقدمة و الكتاب إسم للجنس و قوله: لَا رَيْبَ فِيهِ الْهَاءُ عَائِدَةٌ لِلْقُرْآنِ أَي لَا شَكَّ فِي نَزُولِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَهَذَا تَفْسِيرُ أَلْفَاظِ الْآيَةِ.

و أعلم أنه تعالى نفى في هذه الآية أن يكون هذا القرآن مفترى من دون الله و توضيح ذلك هو أن المفترى هو الذي يأتي به البشر و القرآن معجز لا يقدر على الإتيان به بشر.

فلا محالة هو كلام الله و هو المطلوب.

فحاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر على الإتيان به أحد من قبل نفسه إلا الله تعالى كما قال: قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا<sup>(١)</sup>.

وما كان كذلك لا يكون مفترى وإن شئت قلت لا شك في وجود القرآن و أنه مركب من الحروف والكلمات وكل كلام لابد له من متكلم لأن التكلم صفة وهي محتاجة الى الموصوف والمتكلم بهذا الكلام أعنى به القرآن لا يخلو إما أن يكون الخالق وأما أن يكون المخلوق لا سبيل الى الثاني فالأول ثابت المطلوب فلا معنى للإفتراء أصلاً.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

قيل أم، هنا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى و تقديره بل أتقولون إفتراه فالزموا على هذا الأصل الفاسد إمكان أ يأتوا بمثله فالفهمزة تقرير للإلتزام بالحجة عليهم أو إنكار لقولهم و استبعاد و قالت فرقة أم هذه بمنزلة همزة الإستفهام.

و قال أبو عبيدة أم، بمعنى الواو أي و يقولون إفتراه و قيل الميم، صلة و التقدير أيقولون، و قيل أم، هي المعادلة للهمزة و حذفت الجملة قبلها و التقدير أيقرون به أم يقولون إفتراه.

و أما قوله: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فقال الزمخشري، فأتوا جملة شرط محذوفة فقال أن كان الأمر كما تزعمون فأتوا أنتم على وجه الإفتراء بسورة مثله فأنتم مثله في العربية والفصاحة.

أقول معنى الكلام واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنهم إدّعوا الإفتراء و معنى الإفتراء الإخبار على القطع بالكذب أي أن إنتسابه الى الله كذب و ليس من كلام الله و اذا كان كذلك فهو كلام المخلوق و أنتم أيضاً منهم و حكم الأمثال واحد فأتوا بسورة مثله و حيث لا تقدرين عليه فيعلم أنه ليس كلام المخلوق

فاذن هو كلام الله و هو المطلوب و بعبارة أخرى مجرد الإنكار لا يكفي في مقام البرهان بل هو ناشٍ عن الضعف و العناد.

ثم أكمل الحجة عليهم بقوله: **وَ أَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** أي أن كنتم أيها المكذبون لا تقدرون على الإتيان بمثله فأدعوا من استطعتم من العلماء و الفصحاء و البلغاء من دون الله إن كنتم صادقين في دعواكم و اذ ليس فليس و حيث إنجز الكلام الى هنا لا بأس بالإشارة الى ما لا بد من ذكره في إعجاز القرآن فنقول:

روي المجلسي رحمته الله في البحار في باب إعجاز القرآن ما أورده القطب الراوندي رحمته الله في الباب و نحن نذكره في المقام فإنه كافٍ شافٍ قال رحمته الله.

**إِعلم** أن كتاب الله المجيد ليس مصداقاً لنبي الرحمة خاتم النبيين فقط بل هو مصدق لسائر الأنبياء و الاوصياء قبله و سائر الأوصياء بعده جملة و تفصيلاً و ليس جملة الكتاب معجزة واحدة بل هو معجزات لا تحصى و فيه إعلام عدد الرمل و الحصى لأن أقصر سورة أنما هو الكوثر و فيه الإعجاز من وجهين:

**أحدهما:** أنه قد تضمن خبراً عن الغيب قطعاً قبل وقوعه فوقع كما أخبر عنه من غير خلف فيه و هو قوله: **إِنَّ شَأْنِكَ هُوَ الْأُبْتَرُ** لما قال قائلهم أن محمداً إذا مات انقطع ذكره و لا خلف له يبقى به ذكره فعكس ذلك على قائله و كان كذلك.

**الثاني:** من طريق نظمه لأنه على قلة حدد حروفه وقصر آياته يجمع نظاماً بديعاً و أمراً عجيبيّاً و بشارة للرّسول و تعبدّاً للعبادات بأقرب لفظٍ و أوجز بيان. ثم أن السور الطوال متضمنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظاماً و جزالةً و خبراً عن الغيوب و لذلك لا يجوز أن يقال أن القرآن معجزاً واحد و لا ألف معجز أضعافه الى أن قال ثم الاستدلال بأن القرآن معجز لا يتم إلا بعد بيان خمسة أشياء:

فضاء القرآن في تفسير القرآن



**أحدها:** ظهور محمد ﷺ بمكة وإدعاءه أنه مبعوث الى الخلق و رسول اليهم.

**ثانيها:** تحديّ العرب بهذا القرآن الذي ظهر على يديه وإدعاءه أن الله أنزله عليه و خصّه به.

**ثالثها:** أن العرب مع طول المدة لم يعارضوه.

**رابعها:** أنهم لم يعارضوه للتّعذر والعجز.

**خامسها:** أن هذا التّعذر خارق للعادة فاذا ثبت ذلك فإمّا أن يكون القرآن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته و لذلك لم يعارضوه أو لأنّ الله صرفهم عن معارضتهم و لولا الصّرف لعارضوه و ساق الكلام الى أن قال.

و أمّا وجه إعجاز القرآن فإعلم أنّ المسلمين إتفقوا على ثبوت دلالة القرآن على النبوة و صدق الدّعوة و إختلف المتكلّمون في وجه إعجاز القرآن على سبعة أوجه فقد ذهب قوم الى أنّه معجزٌ من حيث كان قديماً أو لأنّه حكاية للكلام القديم و عبارة عنه فقولهم أظهر فساداً من أن يختلط بالمذاهب المذكورة في إعجاز القرآن فأول ما ذكر من تلك الوجوه ما إختار المرتضى أن وجه الإعجاز في القرآن أن الله صرف العرب عن معارضته و سلبهم العلم بكيفيّة نظمه و فصاحته وفد كانوا لولا هذا الصّرف قادرين على المعارضة متّمكنين منها.

**الثاني:** ما ذهب اليه المفيد رحمه الله و هو أنّه أنما كان معجزاً من حيث إختص برتبه في الفصاحة خارقة للعادة قال لأنّ مراتب الفصاحة أنما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد فلا يمتنع أن يجري الله العادة بقدر من المعلوم فيقع التّمكن بها من مراتب الفصاحة محصورة متناهية و يكون مازاد على ذلك زيادة غير معتادة معجزاً و خارقاً للعادة.

**الثالث:** ما قال قوم و هو أن إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرة على النّظر و موافقة للعقل.



**الرابع:** أن جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الإختلال و التناقض على وجه لم يجز العادة بمثله.

**الخامس:** ما ذهب اليه أقوام و هو أن جهة إعجازه أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب.

**السادس:** ما قاله الآخرون و هو أن القرآن أنما كان معجزاً لإختصاصه بنظم مخصوص مخالفاً للمعهود.

**السابع:** ما ذكره أكثر المعتزلة و هو أن تأليف القرآن و نظمه معجزات لأن الله أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد و قد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه لكن محال و قوعه منهم كاستحالة إحداث الأجسام و الألوان و إبراء الأكمه و الأبرص من غير دواء انتهى ما أردنا ذكره من كلامه و أن شئت الإطلاع على تفصيل كلامه ﷺ فعليك بالبحار باب وجوه إعجاز القرآن أو بكتابه الموسوم بالخرائج فإنه ﷺ قد حقق البحث فيه بما لا مزيد عليه و اذا عرفت الوجوه السبعة التي ذكرها المتكلمون فنقول:

ما ذكروه لا بأس به و الحق أن إعجاز القرآن لا يختص بوجه دون وجه بل هو معجز من جميع الوجوه المذكورة و غيرها.

**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**

أي أن الكفار كذبوا النبي في قولهم أن محمداً افترى هذا القرآن و لم ينزله الله عليه، بما لم يعلموه من كل وجوه و فيه إشارة الى أن تكذيب القول أو تصديقه أنما هو بعد إسماعه و معرفة مراد المتكلم و أما قبل المعرفة فلا معنى للتكذيب أو التصديق و هذا مما يحكم به العقل السليم و أما هؤلاء الكفار فقد كذبوا النبي بما لم يحيطوا بعلمه أي لم يعلموا ما المراد منه و الجاهل بالمراد كيف يكذب المتكلم.

و بعبارة أخرى فهم المراد من القرآن يحتاج الى الفكر و الذوق و خلوا

الذَّهْن عن العناد و التَّفَاق و الرَّجوع الى الرُّسول في معرفة مراد المتكلم و ذلك مثل المتشابه و الكفَّار لَمَّا لم يعرفوا المراد بظاهرة كذبوا به و قالوا أَنَّهُ إفتَرى على الله كذباً و منشأ هذا التَّكْذِيب ليس إلَّا الجهل المقرون بالعناد و هو خارج عن سيرة العقلاء في محاوراتهم و مباحثاتهم و مناظراتهم و الى هذه الدقِيقَة أشار الله تعالى بقوله: **وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ** أي أَنَّهُم أخذوا بظواهر الألفاظ قبل الوقوف على تفسيرها و تأويلها ولم يعلموا أَنَّ كَثِيراً من الآيات من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلَّا الله و الرَّاسخون في العلم و ليس هذا التَّكْذِيب مختصاً بهم بل هو دأب أَكْثَر الجَهَال المعاندين في كُلِّ عصر و زمانٍ و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** من الأمم السَّالفة كاليهود و النَّصَارَى و المجوس و غيرهم مِمَّنْ كَذَّبُوا الأنبياء و لم يؤمنوا بهم **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** عَبرَ الله تعالى عن التَّكْذِيب بالظُّلْم و هو كذلك و أي ظلم أكبر من تَكْذِيب الرُّسُل الَّذِي يوجب خسران الدُّنْيَا و الآخرة. قال بعض المفسِّرين معناه أَنَّهُم طلبوا الدُّنْيَا و تركوا الآخرة فلمَّا ماتوا فاتتهم الدُّنْيَا.

و الآخرة و قال الآخر المراد منه عذاب الإستئصال و هو الَّذِي نزل بالأمم الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُل من ضروب العذاب في الدُّنْيَا، و المعنى واضح.

**تَنْبِيْهٌ**

نقل الرَّايزي عن بعض أهل التحقيق أَنَّهُ قال، قوله: **وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ** يدلُّ على أَنَّ من كان غير عارفٍ بالتأويلات وقع في الكفر و البدعة لأنَّ ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أَنَّ هذا الكتاب ليس بحَقٍّ أمَّا إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نوراً على نورٍ يهدي الله لنوره من يشاء انتهى كلامه.

وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ غَيْرَ الْعَارِفِ بِالتَّأْوِيلِ يَقَعُ فِي الْكُفْرِ وَالبِدْعَةِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ بَلْ هُوَ مَتَيْنٌ جَدًّا وَآتَمَّا الْكَلَامَ فِي الْعَارِفِ بِالتَّأْوِيلِ وَ أَنَّهُ مِنْ هُوَ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَ هَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ تَأْوِيلَ الْآيَاتِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ أَوْ لَا يَجُوزُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ أَلْرَاسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ<sup>(١)</sup> وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَصَّ عِلْمَ التَّأْوِيلِ بِالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ الْمُنْصَفِ الَّذِي لَهُ فِطْرَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَقِّهِمْ عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَوَافِقُ وَ الْمَخَالَفُ، أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ، جَعَلَ الرَّسُولُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ التَّمَسُّكَ بِالْكِتَابِ وَ الْعِتْرَةِ مُوجِبًا لِعَدَمِ الضَّلَالَةِ فَهُوَ يَدُلُّ مَفْهُومًا عَلَى أَنَّ تَرْكَ التَّمَسُّكِ بِهِمَا يُوجِبُ الضَّلَالَةَ وَ الْغَوَايَةَ وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْعِتْرَةَ وَ هُمُ أَهْلُ بَيْتِهِ ﷺ أَعْرَفَ بِالْقُرْآنِ تَفْسِيرًا وَ تَأْوِيلًا وَ تَنْزِيلًا مِنْ غَيْرِهِمْ كَانَتْ مِنْ كَانَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ أَي لَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ أَوْ مِنْ عِتْرَتِهِ وَ أَهْلِ بَيْتِهِ الْمَعْصُومِينَ فَإِنْ كَانَ مُرَادُ الرَّازِي مِنْ نَقْلِهِ هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ حَقٌّ وَ أَنَّ كَانَ مُرَادُهُ غَيْرَهُمْ فَهُوَ بَاطِلٌ مُرَدُّودٌ إِلَيْهِ فَقَوْلُهُ مَنْ كَانَ غَيْرَ عَارِفٍ بِالتَّأْوِيلَاتِ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ وَ الْبِدْعَةِ حَقٌّ وَ لَا زَمَّ ذَلِكَ أَنَّ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا غَيْرُ أَهْلِ الْبَيْتِ كَانَتْ مِنْ كَانَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكُونُ بَاطِلَةً وَ صَاحِبُهَا وَقَعَ فِي الْكُفْرِ وَ الْبِدْعَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ جَمِيعُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَةِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَ تَأْوِيلِهِ.

وَالرَّازِي مِنْهُمْ وَ سَيَأْتِي لِهَذَا الْبَحْثِ زِيَادَةٌ تَوْضِيحٌ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

فِي الْقُرْآنِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١١  
المجلد الثاني

كلمة، مِن، في الموضعين للتَّبْعِيضِ أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ و نسبوه الى الإفتراء بعضهم سيؤمن به في المستقبل وبعضهم لا يؤمن به بل يموت على كفره و الضَّمير في قوله: بِهِ راجع الى القرآن لِأَنَّهُ المَكْذَبُ على ألسنتهم واقعاً و قيل يرجع الى الرِّسُولِ و الأول أظهر مع أَنَّ المَالَ واحد فَأَنَّ تكذيب أحدهما تكذيب الآخر و تصديق أحدهما تصديق الآخر.

و أما قوله: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ فالمراد بهم من يدوم على الكفر الذي هو من أعظم الفساد في الأرض.

قال بعض المفسرين و أنما جاز أن يقول، أعلم، و أن لم يكن هناك كثرة علوم لأحد أمرين:

أحدهما: أَنَّ الذَّاتَ تَغْنِي عن كُلِّ علم.

الثاني: أَنَّهُ يراد كثرة العلوم انتهى.

أقول لا نحتاج الى هذا الكلام أصلاً لِأَنَّ معنى قوله: أَعْلَمُ أَي أَنَّهُ تعالى أعلم بحال الطائفتين في المستقبل منك و من غيرك لِأَنَّهُ تعالى قد أحاط بكل شيء علماً و لا يعلم الغيب إلّا هو و لا يطلع على الصّمائِر إلّا هو و هذا واضح لا خفاء فيه فهو من قبيل قوله: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

قال القرطبي في قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ قيل المراد أهل مكة قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ و المعنى ومنهم من يصّر على كفره حتّى يموت كأبي طالب و أبي لهب و نحوهما، و قيل المراد أهل الكتاب و قيل هو عام في جميع الكفّار انتهى.

أقول أنظر الى هذا المعاند الخبيث حيث مثل فيمن يصّر على كفره حتّى يموت بأبي طالب و أبي لهب، فجعل أبا طالب كأبي لهب الذي كان من أعداء الله و أعداء رسوله و قال تعالى في حقّه تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ الخ... و ليت شعري أيّ ذنب كان لأبي طالب عند هؤلاء القوم المطرودين المبعدين عن

جوار رحمة رب العالمين حيث يمثلون بأبي طالب مع أن الكفار الذين بقوا على كفرهم وماتوا عليه كانوا كثيرين جداً ومن أين ثبت لهم كفره والبقاء عليه حتى مات.

نعم له ذنبان لا محيص له عنهما بزعمهم.

**أحدهما:** أنه تكفل النبي ﷺ في بيته و ساعده على دعوته و ذب عنه أعداءه.

**ثانيهما:** أنه والد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أول من آمن بالله و رسوله و جاهد في سبيل الله حق جهاده و قتل الكفار و المشركين حتى إنتشر الإسلام في جزيرة العرب و غيرها و لعمرى هذا من أعظم الذنوب عند مخالف الإسلام و معانده و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وإن كذبوك فقل لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل و أنا بريء مما تعملون

خاطب الله تعالى نبيه فقال له و أن كذبوك هؤلاء الكفار بعد تمامية الحجة عليهم كما هو شأن المعاند فأتركهم و قل لهم، لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل أي لا تقبلون عملي و لا تحكمون بصحته و أنا بريء مما تعملون و فائدة ذلك الأخبار هي أنه لا يجازي أحد إلا على عمله و لا يؤخذ أحد بجرم غيره:

كما قال تعالى: **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** (١).

و أما البراءة فهي قطع العلاقة التي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدين و البراءة من العيب في البيع و هذا آخر الكلام في حق من لا يقبل النصح و الموعدة.

فصل القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قال الله تعالى: قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوكَ أَبَى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ كلمة، من، في منهم أيضاً للتبعية أي ومن جملة هؤلاء الكفار من يستمع اليك قيل التاء في يستمعون للطلب أي منهم من يطلب الاستماع منك لكن لا للفهم بل للرد فلذلك لزمهم الذم فهم إذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يسمعه حيث لم ينتفعوا به فأَنَّ الاستماع الذي لا انتفاع فيه فهو كالعدم لأن ثمرة الاستماع الانتفاع ونع عدم الانتفاع فهو كالشجر بلا ثمر.

ثم خاطب نبيه فقال له أفأنت تسمع الصم، أي أنك لا تقدر عليه و الهمة للإنكار و إنما عبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار بالصم و الصم في الأصل فقدان حاسة السمع و به يوصف من لا يصغي الى الحق و لا يقبله على سبيل المجاز و قد ورد في هذا اللفظ في كثير من الموارد في القرآن.

قال الله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ<sup>(٧)</sup>.

٣٥=هود-٢

٥٤=الشعراء-٢١٦

٣٩=الأنعام-٦

١٩=الأنعام-١

٥٤=هود-٣

١٧١=البقرة-١

٢٢=الأنفال-٧

قال الله تعالى: **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْغُمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** <sup>(٣)</sup>.

أقول ما ذكره الله تعالى في هذه الآية وغيرها حق لا مرية فيه: **وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** <sup>(٤)</sup> فَإِنَّ الْمَكْذِبِينَ المعاندين لا يستمعون للفهم والتدبر والخروج من الجهل والعناد الى العلم والرشاد في كل عصر وزمان ومن لا يؤثر فيه كلام الله وكلام رسوله كيف يؤثر فيه كلام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ونحن نرى في زماننا هذا كثيراً من الناس بهذه الصفة مع إدعائهم الإسلام وأنت تعلم أن الكفر لا خصوصية فيه من هذه الجهة وإنما الذم تعلق بالصفة مسلماً كان الموصوف أو كافراً فإذا كان المسلم متصفاً بها فهو من مصاديق الآية قطعاً ألا ترى أن أبا سفيان و معاوية وغيرهما ممن كان مدعياً للإسلام كانوا بهذه الصفة أشد من الكفار فلم يؤثر فيهم كلام الله ولا كلام رسوله مع أنهم كانوا مستمعين للرسول كغيرهم من المؤمنين فما الفرق بينهم وبين الكفار في عدم قبولهم قول الله وقول رسوله فقلوه تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** يشمل الجميع بل المسلم إذا كان متصفاً بهذه الصفة فهو أخبث وأضل من الكافر لكونه من المنافقين وقد ثبت أنهم أضروا على الإسلام من الكافر والإنصاف أن أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا ممن يستمعون الى الرسول لا للفهم بل للرد والإستهزاء والإنكار و قليل من عبادي الشكور ولتوضيح ذلك نقول أي فرق بين من أنكر دعوة الرسول رأساً ولم يؤمن به ظاهراً وباطناً ومن قبل دعوته

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١  
المجلد الثاني

ظاهراً و أنكرها قلباً و باطناً أليس الكل مَمَّن يستمع و لم ينتفع به و بعبارة أخرى ما الفرق بين أبي جهل و أبي لهب و أمثالهما و أبو سفيان و معاوية و أمثالهما من جهة الإستماع و عدم الإنتفاع به حتّى يقال أن الآية مختصة بالكفار نعم موردها خاص بهم و أمّا معناها فعامّ بلا كلام و نحن نشاهد مصاديقها في زماننا هذا أكثر من أن تحصى.

و مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ  
أخبر الله تعالى في هذه الآية أن بعضهم ينظر اليك قيل أي ينظر الى أدلتك و قيل ينظر الى وجهك و النّظر يكون بمعنى الإعتبار و الفكر الموازنة بين الأمور حتّى يظهر الرّجحان أو المساواة.

قال، إبن عباس نزلت الآية و سابقتها في النّضر بن الحرث و غيره من المستهزئين و قال، إبن الأنباري في قوم من اليهود و هذه الآية فيها تقسيم لا يؤمن من الكفار الى هذين القسمين بعد تقسيم المكذّبين الى من يؤمن لا يؤمن و الضّمير في يستمعون عائد على معنى، من، و فى قوله: يَنْظُرُ إِلَيْكَ الى لفظ، من، و لذلك لم يخبر بلفظ الجمع لأنّه حمّله على اللفظ و اللفظ لفظ الواحد و هو الأكثر في لسان العرب و المعنى أنّهم عمي فلا تقدر على هدايتهم لأنّ السّبب الذي يهتدي به الى رؤية الدلائل قد فقدوه و هذا قد جمع بين فقدان البصر و البصيرة و هذه مبالغة عظيمة في إنتفاء قبول ما يلقي الى هؤلاء إذ جمعوا بين الضّم و إنتفاء العقل و بين العمى و فقد البصيرة.

أقول و العمري هذا أيضاً كثير في الناس و لا يختصّ بالكفار كما قلنا في الآية السّابقة حذو النّعل بالنّعل فإنّ النّظر إذا لم يكن على وجه الإستفادة فهو بمنزلة نظر الأعمى الذي لا يبصر فكما لا يقدر الإنسان على أن يهدي الأعمى فكذلك هؤلاء لا يتفهمون بنظرهم فكأنّهم لا يبصرون فإنّ العمي آفة تمتنع من الرؤية و هو على وجهين:



عمي القلب و عمي العين وكلاهما يصلح له هذا الحَد.

قال القرطبي: في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه أخير تعالى أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ وَهُدَايَتِهِ وَهَذَا وَمَا كَانَ مِثْلَهُ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ قَوْلَهُمْ كَمَا تَقَدَّمُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَقَالَ يَسْتَمْعُونَ عَلَى مَعْنَى، مَنْ، وَ يَنْظُرُ عَلَى اللَّفْظِ وَ الْمَرَادُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَي كَمَا لَا تَقْدَرُ أَنْ تَسْمَعَ مِنْ سَلْبِ السَّمْعِ وَ لَا تَقْدَرُ أَنْ تَخْلُقَ لِلْأَعْمَى بَصَرًا يَهْتَدِي بِهِ فَكَذَلِكَ لَا تَقْدَرُ أَنْ تَوْفِّقَ هَؤُلَاءِ لِلْإِيمَانِ وَ قَدْ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا إِنْ تَهَيَّأَ كَلَامُهُ.

**أقول** قوله و قد حكم الله عليهم أن لا يؤمنوا، كفرٌ محضٌ و مع ذلك غير معقول لأنَّ الحكم عليهم بأن لا يؤمنوا، ظلمٌ عليهم قطعاً إذ لقائل أن يقول لم حكم الله عليهم بأن لا يؤمنوا و حكم على غيرهم بأن يؤمنوا أليس هذا من الظُّلم الفاحش القبيح على الله تعالى و قد وصف نفسه في كثير من الآيات بالعدل:

قال الله تعالى: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَلَمَلَانِكَةُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يَظْلُمُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** <sup>(٥)</sup>.

و الآيات كثيرة و لا شك أنَّ الحكم على أحدٍ بالإيمان و على الآخر بالكفر ثمَّ بعد ذلك ثبوت العقاب للكافر المحكوم بالكفر من أقبح أنواع الظُّلم فكيف ينسب اليه تعالى حكم عليهم بأن لا يؤمنوا، و أمَّا أنه غير معقول فلو جهين:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

٢- الأعراف = ٢٩

١- آل عمران = ١٨

٤- آل عمران = ١٨٢ و الأنفال ٥١ و الحج ١٠

٣- يونس = ٥٤

٥- فصلت = ٤٦

أحدهما: أَنَّ العقل يحكم بخلافه في حَقِّه تعالى و أَنَّهُ مَنَزَه عنه و عن كُلِّ قبيح كما ثبت في محله.

ثانيهما: أَنَّ الله تعالى أرسل اليهم الرُّسل فلو حكم عليهم بعدم الإيمان فلم أرسل الرُّسول اليهم و المفروض أَنَّهُم محكومون بالكفر الى أن يموتوا ثُمَّ يسئل عنهم يوم القيامة عن كفرهم الَّذي حكم عليهم و لا أَظُنُّ أَنَّ العاقل يرضى به و العجب من هؤلاء الجَّهال كيف حملوا كلام الله على هذه المحامل الرَّدِيئة الباطلة أليس هذا منافياً للإسلام الَّذي أُسِّسه الله على العدل، أليس هذا من التفسير بالرأْي الَّذي قال رسول الله ﷺ في حَقِّ مفسِّره، من فسَّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النَّار و لأجل ما ذكرناه من نفي الجبر و ثبوت الإختيار عقلاً و شرعاً قال تعالى بعد ذلك الكلام:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ

فهذه الآية و أمثالها بمنزلة الرَّد على المَجْبَرَة الَّذِينَ قالوا حكم الله بكفرهم، و ذلك لأنَّ الله تعالى قد نفى الظُّلم عن نفسه و قال أَنَّ الله لا يظلم النَّاسَ شيئاً فالحكم على الكفر بأنَّهم لا يؤمنون، منفي بقوله، هذا و ذلك لما ثبت أَنَّ هذا الحكم ظلَّم على العبد فيرجع المعنى الى أَنَّ الله لا يحكم على أَحَدٍ بعدم الإيمان و أمَّا قوله: وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ يدُلُّ على أَنَّ عدم قبول الإيمان و بقاءهم على الكفر أمَّا هو بسوء سريرتهم و إختيار هم الكفر على الإيمان إذ لولا ذلك يلزم أن يكون قوله هذا كذباً إذ للبعد أن يقول لخالقه ما ظلمت نفسي لأنَّ الكفر لم يكن بإرادتي و إختياري و أمَّا أنت ظلمتني حيث حكمت عليَّ بالكفر فسلبت عني القدرة على الإيمان و إذا كان كذلك فما معنى قوله: وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ.

قال الشَّيْخ في التَّبَيَّن أخبر الله في هذه الآية على وجه التَّمْدِاح به بأنَّه لا يظلم أحداً شيئاً و أمَّا النَّاسُ هُوَ الَّذِينَ يظلمون أنفسهم بإرتكاب ما نهى الله

عنه من القبائح فيستحقون بها عقاباً فكأنهم الذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم و المعنى هاهنا أن الله لا يمنع أحداً الإنتفاع بما كلفهم الإنتفاع به من القرآن و أدلته و لكنهم يظلمون أنفسهم بترك النظر فيه و الإستدلال به و تفويتهم أنفسهم الثواب و إدخالهم عليها العقاب ففي الآية دلالة على أنه لا يفعل الظلم لأن فاعل الظلم ظالم كما أن فاعل الكسب كاسب و ليس لهم أن يقولوا يفعل الظلم و لا يكون ظالماً به كما يفعل العلم و لا يكون به عالماً و ذلك أن معنى قولنا، ظالم أنه فعل الظلم كقولنا ضارب أنه يفيد أنه فعل الضرب و كذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظلم في غيره.

و أما ما قاله القرطبي من أن تقدير الشقاء عليهم و سلب سمع القلب و بصره ليس ظلماً منه لأنه تصرف في ملكه بما شاء و هو في جميع أفعاله عادلٌ، فهو يدل على قلة علمه و سوء فهمه و أنه لم تعلم معنى الظلم واقعاً و ذلك لأن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير محله كما أن العدل وضعه في موضعه و محله و العقل السليم يحكمه بقبحه حكماً قطعياً و لذلك يقال أن قبحه من المستقلات العقلية كما أن حسن العدل أيضاً من المستقلات العقلية الحكم من العقل ثابت قبل حكم الشرع و لذلك نقول أن حكم الشرع بقبح الظلم تأييد للعقل لا تأسيس للقيح و إذا كان كذلك فلا فرق بين صدور من العبد أو من الخالق لأن القبيح قبيح من أي فاعل صدر كما أن الحسن حسن كذلك.

و أما قوله لأنه تصرف في ملكه بما شاء، فإنه كلام باطل لا ربط له بالمقام إذ ليس البحث في القدرة و الاختيار بل البحث في جواز صدور القبيح منه و عدم جوازه و حيث قد ثبت قبح الظلم عقلاً و شرعاً فيرجع البحث الى أنه تعالى هل شاء صدور القبيح أو لا وعلى ما ذكره هذا القائل فيجوز عليه تعالى الكذب و الخيانة و عدم الوفاء بالعهد و أمثال ذلك من القبائح لأن الله تصرف في ملكه بما شاء، و لا يقول العاقل به فضلاً عما يدعي الإسلام.

في القرآن في تفسير القرآن



و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى قالوا الآية دالة على أن قلوب أولئك الكفار بالنسبة الى الإيمان كالأصمّ بالنسبة الى إستماع الكلام و كالأعمى بالنسبة الى إبصار الأشياء و كما أنه هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه قالوا و الذي يقوّي ذلك أن حصول العداوة الشديدة و كذلك حصول المحبة الشديدة في القلب ليس بإختيار الإنسان لأن عند حصول العداوة الشديدة يجد وجداناً ضرورياً أن القلب يصير كالأصمّ و الأعمى في إستماع كلام العدو و فى مطالعة أفعاله الحسنة و إذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب و أيضاً لما حكم الله تعالى عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان فحتثّ يلزم من حصول الإيمان إنقلاب علمه جهلاً و خبره الصّدق كذباً و ذلك محال انتهى كلامه.

و أنا أقول ما ذكره أيضاً لا يرجع الى محصل و ذلك لأن حصول العداوة و المحبة في القلب معلولٌ لحصول الأسباب الموجبة لهما فإذا رأى الإنسان من غيره إحساناً أو حسن خلقٍ أو تواضع فيحبّه قهراً لوجود أسباب المحبة و إذا رأى منه التّكبر و سوء الخلق و أمثالهما من القبائح فييغضه لوجود أسباب البغض و العداوة.

و من المعلوم أن وجود العلة يقتضي وجود المعلول و وجود السبب يقتضي وجود المسبب فالمحبة و العداوة معلولان للأسباب الخارجية و لا ربط لهما بالقضاء و القدر فإن أراد بقوله أنهما ليسا بإختيار الإنسان هذا المعنى فهو صحيح و إن أراد بعدم الإختيار أنهما بقضاء و قدره فعليه بالإثبات.

و أمّا قوله و أيضاً لما حكم الله حكماً جازماً بعدم الإيمان يلزم من حصول الإيمان إنقلاب علمه جهلاً فهو طريف منه مع إدعاء التّوغل في العلوم العقلية و ذلك لأن من علم الله تعالى أنه لا يؤمن فهو لا يؤمن قطعاً فلا يلزم الإنقلاب.

و أما أنّ عدم إيمانه معلول لعلمه تعالى بأنّه لا يؤمن فهو ليس كذلك لأنّ العلم الأزلي ليس علّة للفعل الخارجي الذي صدر من المكلف لأنّ العلم كاشف عن أنواع الواقع لا علّة للفعل فمعنى كونه تعالى عالماً هو أنّه يعلم أنّ العبد بسوء سريره و خبث طبيئته و إختياره و إرادته لا يؤمن و أما أنّه تعالى حكم عليه بعدم الإيمان بمعنى سلب القدرة عنه فهو غير معقول و لا مشروع بل تفوح منه رائحة الكفر فقوله لمّا حكم الله عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان، من الإفتراء على الله و كذب عليه.

إذ يقال لقائله، أين حكم الله به جازماً بعدم الإيمان.

نعم أنّه تعالى أخبر بعدم إيمانه و الإخبار بشئ غير الحكم به و العجب من هؤلاء المجبّرة حيث أنّهم يقولون في تفسير كلام الله ما يوافق مذهبهم و أن كان مخالفاً للعقل و الشرع هذا ما فهمناه من الآية الشريفة و الله تعالى يحكم بين العباد يوم القيامة.



وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ  
النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

والباقون بالنُّون وفي قوله: كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا ثلاثة أوجه:  
أحدها: أن يكون صفة اليوم.

الثاني: أن يكون للمقدّر المحذوف.

الثالث: أن يكون حالاً من الضمير في يحشرهم فإذا جعلته صفة لليوم  
إحتمل أن يكون التقدير كأن لم يلبثوا قبله إلا ساعة كما قال: فَبَلَّغُنْ أَجَلَهُنَّ  
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ<sup>(١)</sup> أي أمسكوهنَّ قبله و أن جعلته صفة للمصدر كان على  
هذا التقدير الذي وصفناه و أن جعلته حالاً من الضمير المنصوب في  
يحشرهم، لم يحتج الى حذف شيء في اللفظ لأنَّ الذَّكر من الحال قد عاد الى  
ذي الحال و المعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث إلا ساعة و  
معنى يتعارفون، يحتمل أمرين:

أحدهما: أنَّ المعنى يتعارفون مدَّة إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها و  
حذف للدلالة عليه.

الثاني: أن يكون يوم يحشرهم معمول ما دلَّ عليه قوله: كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا لأنَّ  
المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث فعمل في الظرف هذا المعنى اذا  
عرفت هذا فنقول أنَّ الله تعالى أخبر في هذه الآية عن المحشر و الموقف يوم  
يشحروهم الله الى المحشر كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً بزعمهم و ذلك لقلة  
بقاءهم فيها و سرعة تصرمها مع أنَّ الأمر ليس كذلك واقعاً لأنَّ وقوفهم يطول  
يوم القيامة و علمهم بدوام بقاءهم في الآخرة.

قيل شبه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النهار لأن كل ما هو أتم قريب واقعاً قال تعالى: **إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ أَنْشَقَّ الْقَمَرُ<sup>(١)</sup>** وفيه إيماء الى أن الإنسان ينبغي أن لا يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا و ذلك لأن عاقبة ذلك الى الزوال و كل ما يزول فهو قريب واقعاً لا ينبغي الزكون اليه و الذي يختلج بالبال في معنى الآية هو أن قوله: **كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً**، إشارة الى عالم البرزخ لا الى الموقف كما زعموه و ذلك لأن الحشر بعد عالم البرزخ و عليه فالمعنى يوم يحشرهم بعد البعث و الخروج من البرزخ الى الموقف: **كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً** من النهار بسرعة تصرمها أي كأن لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور و هو كناية عن قلة لبثهم و ذلك لهول ما يعاينون من شدائد القيامة أو لطول يوم القيامة و وقوفهم للحساب.

قال ابن عباس رأوا أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود لساعة و أما قوله يتعارفون فليل معناه يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيا اذا خرجوا من قبورهم و هو تعارف توبيخ و إفتضاح يقول بعضهم لبعض أنت أضلللني و أغويتني و ليس تعارف شفقة ثم تنقطع المعرفة اذا عاينوا أهوال يوم القيامة. و قيل يعرف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ و الكفر.

و قال الضحاك تعارف تعاطف المؤمنين و أما الكافرون فلا أنساب بينهم و قيل للقيامة مواطن ففي مواطن يتعارفون و في مواطن لا يتعارفون. و أما قوله: **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا<sup>(٢)</sup>** الى آخره فليل أنه جملة مستأنفة أخبر الله تعالى فيها يخسران المكذبين بلقاءه.

و قال الزمخشري هو إستئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ فِيهِ إِخْبَارٌ بِخَسْرَانِ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ وَالتَّشْوِيرِ وَلِقَاءِ ثَوَابِ  
 اللَّهِ وَعِقَابِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ  
 الرَّسُولَ وَالْخَسْرَانِ ذَهَابَ رَأْسِ الْمَالِ وَ أَيْ مَالٍ أَكْبَرَ وَأَشْرَفَ مِنَ النَّفْسِ وَ  
 قَوْلُهُ: وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ أَيِ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ لَكُونَهُمْ مُسْتَحَقِّينَ لِلْعِقَابِ.





وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ  
فَالْإِنِّنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا  
يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ  
رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ  
(٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا  
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا  
يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ  
أَرَأَيْتُمْ إِن آتَيْكُمْ عَذَابُهُ بَيَآتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا  
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ  
أَمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)  
ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ  
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ  
أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ  
بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي  
الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا  
الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ  
الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُخَيِّبُ وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ  
تَرْجَعُونَ (٥٦)

## ◀ اللغة

بَيِّنَاتٍ، الْبَيِّنَاتُ هُوَ إِتْيَانُ الشَّيْءِ لَيْلًا يُقَالُ بَيَّنَّهَ بَيِّنَةً وَبَيِّنَاتًا وَيَتَوَتَّعُ  
يَسْتَبِينُكَ، الْإِسْتِبْنَاءُ الْإِسْتِخْبَارُ أَيُّ يَطْلُبُونَ النَّبَأَ.  
لَا فَتَدَّتْ بِهِ، الْإِفْتِدَاءُ إِيقَاعُ الشَّيْءِ بَدَلٍ غَيْرِهِ لِدَفْعِ الْمَكْرُوهِ.  
أَسْرُوا أَيُّ أَحْفُوا.

## ◀ الإعراب

ماذا مبتدأ وسَتَعَجَّلُ مِنْهُ الخبرُ الْآنَ منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ تقديره أمتم  
الآن أَحَقُّ هُوَ مبتدأ وهو مرفوعٌ به و يجوز أن يكون هو، مبتدأ و أَحَقَّ الخبر و  
موضع الجملة نصب يستنبئونكَ و اي بمعنى نعم و أَسْرُوا التَّنَادُّمةُ مستأنف.

## ◀ التفسير

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ قَالُوا نَرِيَنَّكَ مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ  
لَا مِنْ رُؤْيَا الْإِعْلَامِ اذْ لَوْ كَانَ مِنْ رُؤْيَا الْإِعْلَامِ لَتَّعَدَى إِلَى مَفْعُولِينَ وَ نُونُ التَّأَكِيدِ  
فِي الْجَزَاءِ لَا تَجُوزُ إِلَّا مَعَ مَا، كَمَا لَا يَجُوزُ الْجَزَاءُ (اِذْ وَحَيْثُ) إِلَّا مَعَ مَا، وَ  
الْبَعْضُ شَيْءٌ يَفْصَلُ مِنَ الْكُلِّ وَ مَعْنَى الْآيَةِ إِنْ أَرَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بَعْضَ مَا نَعِدُ  
هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ عَاجِلًا بَأَنَّ نَنْزِلَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِكَ وَإِنْ أَخَّرْنَا  
ذَلِكَ عَنْهُمْ إِلَى بَعْدِ وَفَاتِكَ وَ وَفَاتِهِمْ فَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَفُوتُهُمْ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ  
أَلَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ أَيُّ لِأَنَّهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ بِأَعْمَالِهِمْ وَ  
قَوْلُهُ: ثُمَّ بِمَعْنَى الْوَاوِ أَيُّ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ فَأَنَّ التَّرْتِيبَ وَ التَّأْخِيرَ لَا  
مَعْنَى لَهُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

وَ قَالَ فِي تَفْسِيرِ بَحْرِ الْمَحِيطِ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ إِمَّا هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زَيْدٌ عَلَيْهَا،  
مَا، وَ لِأَجْلِهَا جَازَ دُخُولُ النَّوْنِ الثَّقِيلَةِ وَلَوْ كَانَتْ إِنْ، وَحْدَهَا لَمْ يَجْزِ يَعْنِي أَنَّ

دخول النّون للتأكيد أنّما يكون مع زيادة ما، بعد، إن، وهذا الذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه.

ثمّ نقل عن ابن خروف أنّه قال أجاز سيبويه الإتيان بما، وإن لا يؤتى بها، والإتيان بالنّون مع، ما، وإن لا يؤتى بها ثمّ قال والإراءة هنا بصريةً ولذلك تعدى الفعل الى اثنين والكاف خطاب للرّسول ﷺ وبعض الّذي نعدّهم، يعين من العذاب في الدنّيا وقد أراه الله تعالى أنواعاً من عذاب الكفّار في الدنّيا قتلاً وأسراً ونهباً للأموال وسيّاً للذراري وضرب جزية وتشتيت شمل بالجلاء الى غير بلادهم وما يحصل لهم في الآخرة أعظم لأنّ العذاب الدائم الّذي لا ينقطع والظاهر أنّ جواب الشرط هو قوله: **قَالَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** كذا قاله الخوفي وابن عطية انتهى كلامه.

وقيل معنى الآية الوعيد بالرجوع الى الله تعالى أي إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كلّ حالٍ راجعون اليّناللّحساب والعذاب ثمّ مع ذلك، الله شهيدٌ على جميع أعمالهم فثمّ هاهنا لترتيب الأخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

وقال صاحب الكشاف، فإلينا مرجعهم، جواب نّوفينك وجواب نرينك محذوف كأنّه قيل، وأما نرينك بعض الّذي نعدّهم فذاك أو نّوفينك فيل أن نريكه فنحن نريك في الآخرة انتهى.

أقول حاصل ما يستفاد من الآية الشريفة هو أنّه تعالى يري رسوله أنواعاً من ذلّ الكافرين وخزيهم في الدنّيا وسيزيد عليه بعد وفاته وهذا ممّا لا يخفاء فيه.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي ذِكْرِ الْعَذَابِ

جزء ١١

الجزء الثاني

**وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ**

الأمة الجماعة التي على دين واحد وطريقة واحدة كأمة محمّد وأمة موسى وعيسى أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّ لكلّ أمة من الأمم رسولا بعثه الله اليهم ليهتدوا به:

قال الله تعالى: وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ<sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا جعل الله لكل أمة رسولاَ لأن قاعدة اللطف تقتضي ذلك ولئلا يقول الناس يوم القيامة:

قال الله تعالى: لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعِ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ<sup>(٣)</sup>.

وقوله: فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ فويل هو يوم القيامة وقال الحسن في الدنيا بما أذن الله من الدعاء عليهم وقوله: قُضِيَ بَيْنَهُمْ معناه فصل بينهم الأمر على الحتم فإن الله تعالى يقضي بين الخصوم يوم القيامة أي يفصل بينهم فصلاً لا يرد بالقسط يعني بالعدل، والمقسط العادل، والقاسط الجائر ومنه قوله: وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا<sup>(٤)</sup> والأصل واحد فالمقسط العادل إلى الحق والقاسط العادل عن الحق وقوله: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أن قلت قوله: قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ يغني عن قوله: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ إذ مع وجود الظلم كيف يقال: قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ. قلت أجابوا عنه بأنه يمكن أن يكون العدل في أوله والظلم في آخره فنفي بذلك نفياً عاماً ليخلص العدل في كل أحوالهم انتهى.

والحق أن التكرير لأجل التأكيد والمبالغة في نفي الظلم وذلك لأن قوله: قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ يدل على القضاء كذلك من الابتداء إلى الإنهاء فلا يقال لمن حكم في أول الأمر بالعدل وفي آخره بالظلم أنه قضى بالقسط بقولٍ مطلق وعليه فالحق ما ذكرناه.

## وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ

المراد بالوعد في الآية ما وعدهم الله على لسان أنبياءه بالبعث و النشور و الثّوای على الطّاعة و العقاب على المعصية و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار يقولون متى هذا الوعد الَّذي تعدوننا به من البعث و ما يترتب عليه من الحساب أن كنتم صادقین في وعدكم إيانا و قوله: مَتَى سؤال عن الزّمان كما أنّ أين، سؤال عن المكان.

أَن قُلْتُ أَنَّ الوعد خبر ما يعطي من الخير، و الوعيد خبر ما يعطي من الشّر فقوله حكايةً عنهم، متى هذا الوعد، ينافي ذلك لأنّ ما و عدوه كان شرّاً لهم لا خيراً فالمناسب للمقام هو إستعمال الوعيد لا الوعد.

قلت ما ذكروه في الفرق بين الوعد و الوعيد صحيح اذا فصل الكلام و أمّا في صورة الأعمال فالوعد يقع على الجميع و ما نحن فيه كذلك ثمّ أمر الله تعالى نبيّه بأن يجيب لهم فقال:

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الَّذين إستبطثوا ما وعدهم الله بقولهم متى هذا الوعد أنّي لا أملك لنفسي ضرراً و لا نفعاً من الثّواب و العقاب و البعث و النشور إلّا ما ملّكني الله فكيف أملك لكم أو كيف أطعكم على ما لم يطلّعي عليه الله.

و الحاصل أنّ الأمر ليس بيدي و أنّما هو بيد الله و تحت قدرته و هو الَّذي وعدكم بما وعدكم و لكن لكلّ أمةٍ أجل إنفرد بعلمه تعالى لا يعلم وقته إلّا هو إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ أي لا يكون فيه التّقديم و التّأخير أبداً و حاصل الكلام هو أنّ الأمور بيده تعالى و ما وعدتم به أنّما وعدتم عن الله لا عن قبل نفسي فالبعث و النشور و الثّواب و العقاب قد

أخبر الله بها وهو أعلم بوقتها وأما أنا فلا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فالإستثناء متصل وقالت الأشاعرة هو منفصل والتقدير ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فعلى القول بالاتصال معنى الكلام أن العبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا الطاعة والمعصية فهذا الإستثناء يدل على إستقلال العبد بهما.

وأما على القول بالانفصال فمعنى الكلام أن العبد لا يقدر على شيء ولكن ما شاء الله فهو كائن والتقدير خلاف الأصل والجبر خلاف العقل فالإتصال هو الحق وأما الأجل بفتح الجيم فهو الوقت المضروب لوقوع أمر كأجل الدين وأجل البيع وغيرهما من الأجل ولا شك أن أجل الموت لا يعلمه إلا الله تعالى.

**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَغْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**

قال بعض المفسرين أريتم، أي أعلمتم، لأنها من رؤية القلب لأنها دخلت على الجملة من الإستفهام.

وقال بعضهم أن العرب تضمن، أريتم معنى أخبرني وأنها تتعدى إذ ذاك إلى مفعولين وأن المفعول الثاني أكثر ما يكون جملة إستفهام ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ وخبر كقولهم أريتم زيدا ما صنع، المعنى أخبرني عن زيد ما صنع وقبل دخول، أريتم كان الكلام، زيد ما صنع وعليه، أفرأيتم هنا المفعول الأول لها محذوف والمسألة من باب الأعمال تنازع، أريتم وأن أتاكم، على قوله، عذابه فأعمل الثاني إذ هو المختار على مذهب البصريين وهو الذي ورد به السماع أكثر من إعمال الأول فلما أعمل الثاني حذف من الأول ولم يضمم لأن إضماره مختص بالشعر أو قليل في الكلام على إختلاف النحويين في ذلك وكيف فالمعنى قل لهؤلاء الكفار يا محمد أخبروني من عذاب الله أن أتاكم أي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله عاقل إذ العذاب كله مر المذاق فوجب لنفار الطبع منه فتكون جملة الإستفهام جاءت

على سبيل التلطف بهم و التنبيه لهم أَنَّ العذاب لا ينبغي أن يستعجل و يجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب و التهويل للعذاب أي أيُّ شيءٍ شديدٍ تستعجلون منه أي ما أشدَّ و أهول ما تستعجلون من العذاب قال صاحب الكشف، فأن قلت، هلاً قيل ليلاً أو نهاراً، بدل قوله: بَيِّنَاتاً أَوْ نَهَاراً.

قلت لأنه أريد أن أتاكم عذابه وقت بيات فيبيّنكم و أنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما بيّت العدوّ المباغت، و البيات بمعنى التّبييت كالسّلام بمعنى التسليم و كذلك قوله: نَهَاراً معناه في وقتٍ أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش و الكسب و نحوه بياتاً و هم نائمون ضحى و هم يلعبون انتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم القمي عن أبي الجارود و عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتاً أَوْ نَهَاراً قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذَا عَذَابٌ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَى فِسْقَةِ أَهْلِ الْقَبْلَةِ وَ هُمْ يَجْحَدُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ أَنْتَهَى.

أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْتُمْ بِهِ الْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.

دخلت ألف الإستفهام على، ثم، ليدلّ على أَنَّ الجملة الثانية بعد الأولى مع أَنَّ لِألف صدر الكلام و كلمة ثُمَّ للعطف خلافاً للطّبري حيث زعم أَنَّ معنى، ثُمَّ، هاهنا، هنالك، و لم يعلم أَنَّ ما يكون بمعنى، هنالك، هو، ثُمَّ بفتح الثاء لا بضمها و هذه مضمومة فلا تكون إلا للعطف.

قال صاحب الكشف قوله: أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْتُمْ بِهِ جواب الشرط أعني به قوله: إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُ و قوله: مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ إعتراضاً و المعنى، إن أتاكم عذابه أمتتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان و دخول حرف الإستفهام على، ثُمَّ، كدخوله على الواو و الفاء في قوله: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى<sup>(١)</sup> أو أمن أهل القرى انتهى كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



و قد ردَّ عليه بعض المفسرين و قال أنَّ جملة الإستفهام لا تقع جواباً للشرط إلّا و معها فاء الجواب و ما نحن فيه ليس كذلك.

ثانياً: أن، ثم، هنا حرف عطفٍ تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها فالجملة الإستفهامية معطوفة و إذا كانت معطوفة لم يصحَّ أن تقع جواب شرطٍ.

ثالثاً: قوله: أَرَأَيْتُمْ بمعنى أخبرني تحتاج الى مفعول و لا تقع جملة الشرط موقعه انتهى.

و كيف كان فالمعنى أأمنون حلول العذاب بكم، ثم يقال لكم إذا وقع بكم العذاب و شاهدتموه الآن أمتتم به و كنتم به تستعجلون فمعنى الآية مرتبطة بما قبلها أي أنَّ العذاب الذي كنتم به تستعجلون إذا وقع عليكم أمتتم به الآن أي بعد وقوع العذاب و لا نفع فيه فلا ينتفع صاحبه بعد وقوع الحادثة كما لم ينتفع به فرعون بعد أن أدركه الغرق:

قال الله تعالى: اَمْنَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي اَمْنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ<sup>(١)</sup>.

فقال تعالى في جوابه:

قال الله تعالى: الْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ<sup>(٢)</sup>.

والفرق بين المقامين أنَّ فرعون كان قبل وقوع العذاب من المفسدين و أنَّ هؤلاء الكفار كانوا قبله من المستعجلين.

و أمّا في عدم الإنقاذ بإيمانهم بعد وقوع العذاب فلا فرق بينهم و يستفاد من الآية الشريفة أنَّ العلاج لداء المعصية و الطغيان قبل الموت لا حينه فضلاً



عن بعده و عليه فالتوبة عن الذنب أيضاً حكمه كذا كما صرّحت به الآيات و الأخبار.

قال الله تعالى: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا <sup>(٢)</sup>.

و الحاصل أنه لا فرق في الحكم بين الإيمان و التوبة لأنها من الإيمان قطعاً.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

ثم، عطف على الإيمان الذي وقع في حال الإلجاء اليه و أنما قيل لهم هذا القول على وجه التوبيخ و التفریع لأنها ليست حال إستدراك لما فات.

و المعنى أنه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم و قيل لهم الآن و قد إستعجلتم، ذوقوا عذاب الخلد، يعني الدائم الذي لا آخر له و يقال لهم، هل تجزون، بعذاب العقاب إلا بما كنتم تكسبون من المعاصي و الذوق طلب الطعم بالغم في الإبتداء شَبَّهُوا بِالذَّائِقِ لَأَنَّهُ أَشَدَّ إِحْسَاسًا.

و قيل لأنهم يتجرعون العذاب بدخوله في أجوافهم قاله الشيخ في التبيان. و قال صاحب الكشف، ثم قيل للذين ظلموا، عطف على قيل المضمّر قبل الآن انتهى.

أقول و عليه فتقدير الكلام قيل: الْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا و قال بعض المفسرين أي تقول لهم خزنة جهنم هذا الكلام. و الظلم ظلم الكفر لا ظلم المعصية لأن من دخل النار من عصاة المؤمنين لا يخلد فيها.

في تفسير القرآن



الجلد الثامن

**أقول** ما ذكره من أن المراد بالظلم هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية لا دليل عليه بل الدليل من العقل والتقل على خلافه.

**أما العقل** فلأن الظلم له مراتب كثيرة شدة و ضعفاً فهو مقول على ما تحته من المصاديق على سبيل التشكيك فهو يصدق على قاتل النبي والوصي والصلحاء والمؤمنين كما يصدق على إيذاء المسلم باللسان فمن سب مؤمناً فهو ظالم ومن قتله بغير جرم فهو أيضاً ظالم ومن خالف النبي في حكم من أحكامه فهو ظالم ومن أنكره أو قتله فهو أيضاً ظالم والعقل يحكم بالفرق قطعاً ولا فرق في حكم العقل بين الكافر والمسلم إذ لا تخصيص في العقليات ولم يدل دليل من العقل على أن الظلم الذي يوجب الخلود في النار هو ظلم الكفر لا غيره وعلى المدعي الإنبات بل العقل السليم يحكم بأن مناط الخلود في النار هو بعض أقسام الظلم ونعبر عنه بالظلم الفاحش ولا فرق فيه بين الكافر والمسلم في الخلود ومجرد الإسلام والإيمان في ظاهر الأمر لا يكفي في المقام فهذا حكم العقل.

**وأما النقل:**

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا** <sup>(١)</sup>.

فهذه الآية صريحة في أن قاتل المؤمن عمداً، جزاءه جهنم خالداً فيها مع أنه ليس بكافر.

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رُسُلِهِ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا<sup>(٢)</sup>.

و الآيات كثيرة بل نقول أنّ بعض الظالمين من المسلمين حتّى المؤمنين بزعم العامة كان ذنبهم أشدّ من ذنب الكفر فلا محالة يكون عذابهم أشدّ من عذاب الكفار أمثال معاوية و يزيد و عبد الملك و ابن زياد و الحجاج و الدوانيقي و غيرهم من الظلمة و المنافقين الذين في الدرك الأسفل من النار فقوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يشمل المستحقين للخلود فيها من الكفار و غيرهم.

و أمّا قوله: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ففيه إشارة الى أنّ العذاب كيف كان مترتب على العمل و ما ربك بظلام للعبيد فالاستفهام إنكارى أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون و الى هذا المعنى أشير في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ<sup>(٧)</sup>.

و الآيات كثيرة.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

٢- الجَن = ٢٣

٤- الرّعد = ٤٢

٦- النّساء = ١١١

١- المؤمنون = ١٠٣

٣- الأنعام = ١٦٤

٥- الزّمر = ٢٤

٧- سورة البقرة آية ٧٩

وَيَسْتَنْبِئُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.  
 الإنباء الإخبار ومنه النبي لأنه يخبر عن الله والمعنى يستخبره و رنك أي  
 يطلبون منك النبأ الذي هو الخبر، أحقُّ هو، يعني أحقُّ هذا الوعيد الذي أخبر  
 الله به في هذه الآية و غيرها، قل لهم يا محمد، إي و ربِّي أي نعم و حقَّ الله أنه  
 لحقُّ و لا خلاف فيه فأَنَّ الله صادق في وعده و وعيده و من أصدق من الله  
 قبيلاً و ما أنتم بمُعْجِزِينَ، أي لستم تقدرُونَ على إعجاز الله عما يريد من إنزال  
 العذاب بكم و الإستفهام في قوله، أحقُّ هو، للإستهزاء و الإنكار من هؤلاء  
 الكفار.

و قال صاحب الكشاف في قوله: وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أي ما أنتم بفائتين  
 العذاب و هو لاحق بكم لا محالة.

و قال القراء أي ما أنتم ممن يعجز من يعذبكم أي إذا أراد الله أن يعذبكم  
 لن تقدروا على دفعه و منعه.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ  
 لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

الله تعالى في هذه الآية عن شدة العذاب الذي أعدَّ لهم بسبب أعمالهم  
 فقال ولو كان للظالم جميع ما في الأرض من الأموال، لافتدت به من هول ما  
 يلحقه و يشاهده من العذاب و قوله و أسرُوا الندامة أي أخفوها و قيل أي  
 أخلصوها و الندامة الحسرة على ما كان يتمنى أنه لم يكن و المقصود أنهم  
 يندمون على ما فعلوا بعد رؤية العذاب إلا أنهم يسرون بها في قلوبهم قوله: وَ  
 قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ إشارة إلى أَنَّ الله تعالى هو القاضي و  
 الحاكم بين العباد و يوم القيامة و لما ثبت عقلاً و نقلاً أنه قائم بالقسط و العدل  
 فلا محالة لا يظلمون أبداً لأنَّ الظلم قبيح و هو تعالى منزّه عن القبائح و أما  
 الإفتداء فهو إيقاع الشيء بدل يغره لدفع المكروه.

## تنبيه

قال أبو عبيدة، أسروا، معناه أظهروا و قال الأزهري هذا غلط أنما يكون  
بمعنى الإظهار ما كان بالشين المنقطعة من فوق انتهى.

أقول ما ذكره أبو عبيدة حق و ذلك لأنه أي، أسرَّ من الأضداد و هو يأتي  
بمعنى أظهر كما يأتي بمعنى أخفى و الى هذا المعنى أشار الفرزدق بقوله.

و لما رأى الحجاج جرَّد سيفه      أسرَّ الحروري الذي كان أظهر  
و قال الآخر:

فأسررت الندامة يوم نادى      بردّ جمال غاضرة المنادى  
نعم هو بمعنى أخفى أشهر و عليه يحمل ما في الكتاب:

قال الله تعالى: **يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ**<sup>(٣)</sup>.

و أمّا في المقام فيحتمل الوجهين و الإخفاء أشهر و عليه إجماع المفسرين.

**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**

ألا، كلمة، تستعمل في التنبيه قيل أصلها لا، دخلت عليها حرف  
الإستفهام تقريراً و تأكيداً فصارت تنبيهاً قالوا و كسرت، إن، بعد ألا، لأن لا،  
يستأنف ما بعدها لينبّه بها على معنى الإبتداء و لذلك وقع بعدها الأمر و  
الدعاء نبّه الله عباده في هذه الآية على أمرين:

**أحدهما:** أنه مالك السموات و الأرض فأنّ اللام في، لله لام الملك و قيل  
لام الإختصاص و المأل فيها واحد.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي  
الْجَمْعِ

جزء ١١  
الجملة الثانية

**الثاني:** أن وعد الله حق لا خلاف فيه و الدليل على أنه مالك لها هو أنه خلق السموات و الأرض و كل خالق فهو مالك لمخلوقه قهراً لأن المخلوق رشة من رشحات العلة فلا يكون متفكاً عنها فالعلة تتصرف في معلولها كيف تشاء و لا نعني بالمالكية إلا هذا و اذا أثبت كونه مالكاً لهما ثبت كونه مالكاً لما فيهما من المخلوق كائناً من كان فثبت أنه تعالى مالك لكل ما سواه و المالك يتصرف في مملوكه بما يشاء و كيف يشاء و حيث ثبت عموم قدرته عقلاً و نقلاً فهو قادر على إيقاع ما توعده به و هو المطلوب و أما أن وعد الله حق فهو أيضاً مسلم لا شك فيه أما عقلاً فلائ عدم الوفاء به لا يخلو إما أن يكون منشأه عدم القدرة على الوفاء به و أما أن يكون الباعث عليه هو خبث الطينة و سوء السريرة كما هو كذلك في حق أكثر الناكثين الناقضين للعهد و كلاهما في حقه تعالى محال.

**أما الأول:** فواضح اذ المفروض أنه على كل شيء قدير فكيف لا يقدر عليه.  
**أما الثاني:** فلاشك قبيح و هو تعالى منزّه عنه فثبت أن وعده حق أي ثابت لا يتغير أو لا سبيل للبطلان عليه و هو المطلوب فالحاصل من الآية هو مالكيته لما سواه لا خلاف في وعده و هو المطلوب.

و اذا كان كذلك فليحذر الذين يخالفون أمره و نهيه فإنه تعالى بالمرصاد.  
و أما قوله: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** معناه أن أكثر الناس لا علم لهم بما ذكرناه فزعموا أن مالكيته تعالى كمالكية غيره و وعده أيضاً كذلك.

**هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** أي كيف لا يوصف بما ذكرناه و الحياة و الموت بيده و من أحياء و أمات أولاً فهو قادر على الإحياء ثانياً فأن حكم الأمثال واحد و هذا هو المراد بالرجوع اليه تعالى:  
قال الله تعالى: **إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (١).

قال الله تعالى: **وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**<sup>(٣)</sup> والآيات كثيرة.

و من المعلوم فأن قوله: **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فيه إشارة الى الثواب والعقاب على الأعمال ضمناً إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً كما هو فلسفة الرجوع اليه تعالى و تقديم المسند اليه أعين به كلمة هو، على الفعل لإفادة الحصر أي غيره تعالى لا يقدر على الإحياء والإماتة واقعاً و مع ذلك فيها دلالة على كونه تعالى قادراً على الإعادة لأن من قد على النشأة الأولى يقدر على النشأة الثانية أيضاً و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب عند البحث في المعاد إن شاء الله تعالى.



٢- الطَّارِق = ٨

١- البقرة = ٤٦

٣- فصلت = ٢١

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ  
لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ  
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)  
قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ  
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ  
لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ  
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ  
اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا  
مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا  
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ  
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا  
فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ  
اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)  
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ  
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا  
يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ  
الْعَلِيمُ (٦٥)



## ◀ اللّغة

شِفَاءٌ هُوَ مَعْنَى كالدَّوَاءِ لِإِزَالَةِ الدَّاءِ.

تَفْتَرُونَ الْإِفْتِرَاءَ الْكَذِبَ.

شَأْنُ، الشَّأْنُ وَالْبَالُ وَالْحَالُ نَظَائِرُ وَجَمْعُهُ شَيْئُونَ.

تُفَيِّضُونَ مَاخُذٌ مِنْ فَيَضِ الْإِنَاءِ إِذَا انْصَبَّ مِنْ جَوَانِبِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: أَقْضَيْتُمْ مِنْ

عَرَفَاتٍ أَيْ تَفَرَّقْتُمْ كَتَفَرَّقَ الْمَاءُ الَّذِي يَنْصَبُ مِنَ الْإِنَاءِ.

يَعْزُبُ، الْعَزُوبُ الذَّهَابُ عَنِ الْمَعْلُومِ وَضَدَهُ حُضُورُ الْمَعْنَى لِلنَّفْسِ يُقَالُ

تَعَزَّبَ فُلَانٌ إِذَا انفردَ عَنْ أَهْلِهِ وَقِيلَ لَا يَعْزُبُ أَيْ لَا يَغِيبُ.

## ◀ الإعراب

وَشِفَاءٌ هُوَ مُصَدَّرٌ فِي مَعْنَى الْفَاعِلِ أَيْ وَشَافٍ وَقِيلَ هُوَ فِي مَعْنَى

الْمَفْعُولِ أَيْ الْمَشْفَى بِهِ فَبِذَلِكَ: قِيلَ الْفَاءُ الْأَوَّلُ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلُهَا.

الثَّانِيَّةُ: بِفَعْلٍ مُحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ فليعجبوا بذلك فليفرحوا وَقِيلَ الْأَوَّلَى

زَائِدَةٌ وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْيَاءِ بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ لَغَائِبٌ وَهُوَ رَجُوعٌ مِنَ الْخُطَابِ إِلَى

الْغَيْبَةِ وَيَقْرَأُ بِالتَّاءِ أَيْضاً فِي شَأْنٍ خَبِرَ كَانِ مَا تَتْلُوا مَا نَافِيَةٌ وَمِنْ قُرْآنٍ مَفْعُولٌ

تَتْلُوا إِذْ تُفَيِّضُونَ ظَرْفٌ لَشَهَادَةٍ مِنْ مِثْقَالٍ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بِيَعْزُبُ بِضَمِّ الزَّيِّ وَ

كُسْرُهَا وَلَا أَصْغَرَ وَلَا أَكْبَرَ بَفَتْحِ الرَّاءِ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ صِفَةً لِدَرْجَةٍ أَوْ لِمِثْقَالٍ

عَلَى الْفَلْظِ الْأَلْفِ فِي كِتَابِ الْإِسْتِثْنَاءِ مَنْقُطِعِ الَّذِينَ آمَنُوا مُبْتَدَأٌ وَلَهُمُ الْبُشْرَى

خَبَرُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِالْبُشْرَى وَأَنْ يَكُونَ حَالاً مِنْهَا وَالْعَامِلُ

الْإِسْتِقْرَارُ وَلَا تَبْدِيلٌ مُسْتَأْنَفٌ.

وَالْفَاءُ الْأَوَّلَى مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلُهَا.

جزء ١١

الجزء الثاني

## ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي

الْصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

الخطاب لجميع المكلفين من النَّاس أخبر الله تعالى فيه بأنه أتاهاهم موعظة من الله تعالى اليهم و الموعظة ما يدعوا الى الصَّلاح و يزجر من القبيح بما يتَّضمنه من الرَّغبة و الرَّهبة و يدعو الى الخشوع و النُّسك و يصرف عن الفسوق و الإثم و المراد بها القرآن و ما جاء به النَّبي من الأحكام في الشريعة و قوله: **وَ شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** إشارة الى ما يترتب على الموعظة من الآثار فالشِّفاء بمنزلة الدَّواء لإزالة داء الجهل الَّذي هو أضرُّ من داء البدن و علاجه أعسر و أطباء أقل و الصُّدور جمع صدر موضع القلب قالوا و هو أجل موضع في الحيِّ لشرف القلب.

و قوله: **وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** قيل أنّه وصف للقرآن أي أنّ القرآن كذلك و التخصيص بالمؤمنين لأنَّ غير المؤمن لا يتَّعظ بالقرآن لكفره و عناده و من المعلوم أنّ تأثير العلة في المعلول مشروط بقابليته للتأثر أعني بها عدم وجود المانع فيه و أمّا مع وجوده فيه فلا تؤثر العلة فيه لا لنقص في العلة بل لوجود المانع في المعلول و حيث أنّ الكفر و الفسق يمانعان عن التأثر فلا تأثير في المقام و لأجل ما ذكرناه قد خصَّ الله تعالى الهداية و الرِّحمة بالمؤمنين في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** (١).

قال الله تعالى: **وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** (٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** (٣).

قال الله تعالى: **وَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٤).

قال الله تعالى: هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ<sup>(٣)</sup> و  
الآيات كثيرة.

محصل الكلام في المقام هو أنَّ المؤمنين ينتفعون بالقرآن لإيمانهم.  
و أمّا الكفار فلا ينتفعون به لكفرهم وهذا لا ينافي أن يكون القرآن هادياً  
للكل واقعاً فإن مقام القابليّة و الشأنيّة غير مقام الفعلية فالقرآن هادٍ لكل لولا  
المانع و ليس كذلك مع وجوده.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ  
أي قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المؤمنين بفضل الله و رحمته فبذلك.  
قال الفراء هو بدل من قوله بفضل الله و برحمته و الفضل هو زيادة النعمة و  
إضافته الى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى أنّه مالك له  
فليفرحوا، قيل الفاء زائدة لأنّ المعنى فإفرحوا بذلك و الفرح لذّة في القلب  
بادراك ما يحبّ و أن شئت قلت هو لذّة في القلب بنيل المشتهي و قوله: هُوَ  
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ أي هو خير ممّا يجمعه غيركم من أعراض الدنيا.  
قال بعض المفسرين فضل الله هو القرآن و رحمته هو الإسلام و خير ممّا  
يجمعون، هو الذهب و الفضّة.

و عن أبي جعفر عليه السلام فضل الله هو الإقرار بالرسالة و برحمته  
الإلتزام لعلي عليه السلام و حمل الآية على عمومها أولى.

نبأ القرآن  
وفي تفسير القرآن



أقول رُوي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ  
أي من أمراض الخواطر ومُشتبهات الأمور.  
وقال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا  
بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ <sup>(١)</sup>

وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ  
الفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته أمير المؤمنين عليه السلام وبذلك فليفرحوا، قال  
فليفرح شيعتنا هو خير مما أعطوا أعداءنا من الذهب والفضة انتهى.  
وعن الرضا عليه السلام في هذه الآية قال عليه السلام: بولاية محمد وأل محمد هو  
خير مما يجمع هؤلاء من دنياهم.

وعن أمالي الصدوق بأسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم والحديث طويل فيه  
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام والذي بعث محمداً بالحق نبياً ما  
أمن بي من أنكرك ولا أقر بي من جحدك ولا أمن بالله من كفر لك  
وأنّ فضلك لمن فضلي وأنّ فضلي لفضل الله وهو قول الله عزّ و  
جلّ، قل بفضل الله فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون، ففضل  
الله نبوة نبيكم ورحمته ولاية علي بن أبي طالب (فبذلك) قال صلى الله عليه وسلم:  
بالنبوة والولاية فليفرحوا يعني الشيعة هو خير مما يجمعون  
يعني مخالفهم من الأهل والمال والولد في دار الدنيا انتهى.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ  
اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

قيل نزلت الآية في المشركين والمراد بالرزق هو إرزاق العباد من المطر  
الذي ينزله الله فجعلوا منه حراماً وحلالاً، يعني ما حرّموا من السائبة و

الوصيلة والهام وما حرّموا من زروعهم فقال تعالى: **اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** معناه أنه لم يأذن لكم في شيء من ذلك بل أنتم تكذبون في ذلك على الله وكلمة، ما إستفهامية.

وقيل بمعنى الذي، فعلى الأول فهي منصوبة بأنزل  
**على الثاني: أَرَأَيْتُمْ** قالوا أرايتم، هنا بمعنى أخبروني، والله أذن لكم في التحليل والتّحريم فأنتم تفعلون ذلك بأذنه أم تكذبون عليه في نسبته اليه تعالى، وقالوا أيضاً أن أنزل معناه خلق كقوله وأنزلنا الحديد، وقوله: **وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** <sup>(١)</sup>.

وقيل هو على بابهِ وهو على حذف مضاف أي من سبب رزق وهو المطر.  
وقال مجاهد هو مت حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والهام.

وقال الضحاك هو إشارة الى قوله: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا** <sup>(٢)</sup>.

**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**

ما إستفهامية مبتدأ وخبرها، ظنّ، والمعنى، أي شيء ظنّ المفترين يوم القيامة أبهم الأمر على سبيل التهديد والإبعاد يوم يكون الجزاء بالإحسان والإساءة ويوم، منصوب، بظنّ قيل تقديره ما ظنّهم أن الله فاعلّ بهم أينجهم أم يعذبهم وبعبارة أخرى لا ينبغي أن يظنوا أن يصيبهم على ذلك إلا العذاب والعقاب والمراد بالكذب المشار اليه في الآية هو ما مرّ في الآية السابقة من جعلهم الحلال والحرام في الرزق ونسبتهم آياه الى الله تعالى وفي قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** إشارة الى ما أعطاهم من النعم وقد ثبت أنه

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

تعالى دائم الفضل على البرية ولكن أكثر الناس لا يشكرون، بل يكفرون بها ويقولون أنها من الطبيعة و لم يعلموا أن الطبيعة لفظة لا معنى لها ولا شعور لها فكيف تعطي الأرزاق بالإعطاء منه تعالى على خلقه ثبت الشكر عليه فأن شكر المنعم واجب عقلاً فمن شكر عمل بمقتضى عقله و من كفر أنكر عقله أخرج نفسه من نوع الإنسان و أدخلها في زمرة الحيوانات هذا مضافاً الى أن الشكر يوجب إزدياد النعمة و الكفران يوجب سلبها و إنتفاؤها و العاقل لا يقدم على ضرر نفسه.

قال الله تعالى: **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** <sup>(٢)</sup>.

و الأيات الواردة في البحث على الشكر كثيرة جداً و من المعلوم عقلاً و شرعاً أنه تعالى غني عن الخلق و شكرهم لأنه تعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه و لا تضره معصية من عصاه ذلك يحب أن يشكر ليكون العبد بذلك مقرباً اليه محبوباً عنده لأنه تعالى خلقهم و الخالق يحب مخلوقه قهراً فأن من أحب شيئاً أحب آثاره و هو تعالى محب لذاته فهو محب لآثاره المترتبة على ذاته و لا شك أن الخلق من آثار ذاته تعالى و لأجل ذلك أرسل اليهم الأنبياء و كلّفهم بالأحكام و هذا معنى قوله: **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** أي أن الله تعالى جعل أسباب القرب و البعد، بيد العبد فمن أطاعه صار مقرباً و من عصاه فلا.

**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**

ما للنفى في الموضوعين بمعنى ليس أي ليس تكون و ليس تتلو و الهاء في، منه، كناية عن القرآن قبل الذكر تفخيماً له فهو كقوله تعالى: **إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** <sup>(١)</sup>.

و يحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشأن و تقديره و ما يكون من الشأن و الخطاب للنبي ﷺ و المعنى ليس تكون في حالٍ من الأحوال لأن الشأن و البال و الحال نظائر و ليس تتلو من القرآن و لا تعملون من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهوداً أي ليس يخفى على الله شيئاً من أعمالكم بل الله تعالى يعلمها و يشهدا إذ تفيضون فيه، الإفاضة الدّخول في العمل على جهة الإنصباب اليه و هو مأخوذ من فيض الإناء إذا إنصب من جوانبه و منه قوله: **أَفَضْنُكُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ** <sup>(٢)</sup> و عليه فالمعنى أنّه تعالى يكون شهيداً أي حاضراً و ناظراً على أعمالكم إذ تشرعون أي تدخلون فيها و فيه إشارة الى إحاطة علمه تعالى بالأشياء قبل وجودها و بعده و لا يخفى عليه شيء و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** قرأ الكسائي، يعزب بكسر الزاء و الباقون بضمها و هما لغتان إلّا أنّ الضم أفصح و أشهر و أكثر، و العزوب الذّهاب عن المعلوم و ضده حضور المعنى للنفس. يقال، تعزّب، إذا أنفر عن أهله.

و قال ابن عباس معنى لا يعزب لا يغيب و قوله: **مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ** فالذّر صغار النمل واحدة ذرة و هو خفيف الوزن جداً و معنى مثقال ذرة، وزن ذرة و قوله: **وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** أي إلّا و قد بيّنه الله تعالى في الكتاب المحفوظ و كتبه ملائكته و حفظوه.

قال الرازي في تفسيره لهذه الآية أنّ الأشياء المخلوقة على قسمين: قسم أوجده الله تعالى ابتداءً من غير واسطة كالملائكة و السموات و الأرض.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

و قسم آخر وجده الله بواسطة القسم الأول مثل الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العلوية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقلوه: **وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً بأحوالها والغرض منه الرد على من يقول أنه تعالى غير عالم بالجزئيات وهو المراد من قوله: **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** <sup>(١)</sup> انتهى كلامه.

**أقول** لا نحتاج في إحاطة علمه تعالى بجميع ما سواه كائناً ما كان إلى هذه التكاليف الباردة والتحزيرات الضعيفة الوهمية التي لا يساعده عقل ولا نقل بل نقول لا شك أنه تعالى خالق لما سواه فما سواه كائناً ما كان معلول مخلوق له وكل علة حاوية لجميع مراتب المعلول وإلا لا تكون علة له وإذا كان كذلك فهو عالم بجميع المعلولات ومرتبتها وإن شئت قلت هو تعالى عالم بذاته وجميع ما سواه من آثار ذاته والعالم بالذات عالم بالآثار المترتبة عليه فهراً.

**ثالثاً:** لو لم يكن عالماً بشئ مما سواه فهو جاهل به والجهل نقص وكل نقص مساوق للإمكان وهو واجب الوجود ومحصل الكلام في هذه الآية هو إحاطة علمه تعالى بالأشياء وهو ثابت عقلاً ونقلاً.

بسم القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**  
**الأولياء جمع ولي وهو الذي يستحق من الله أن يوليّه ثوابه وكرامته وهو المطيع لله الذي يتولى إجلاله وإعظامه الولي النصير.**  
 وقال بعضهم أولياء الله هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة.



وقد فسّر ذلك في قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

وعن سعيد بن جبیر أنّ رسول الله ﷺ سأل عن أولياء الله فقال ﷺ هم الذين يذكرون الله بروئيتهم يعني السمت والهيئة.

وعن ابن عباس الإخبات والسكينة وقيل هم المتحابون في الله.

وقد روي الطبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أنّ من عباد الله عباداً يغطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله فلعننا نحبهم قال ﷺ هم قوم تحابوا في الله من غير أموال أنصاب وجوهم من نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس لا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وروي هذا الحديث بأسناده عن عمر بن الخطاب أيضاً أنّه قال قال رسول الله الحديث وقد نقل غير واحد من مفسري العامة بعده هذا الحديث في تفاسيرهم ولم يعلموا أنّ ألفاظ الحديث تشهد بكذبه وذلك لأنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ أولياء الله أفضل وأشرف من الأنبياء والشهداء لأنهم مغبوطون لهم ومعنى الغبطة هو تمني مقام المغبوط فيلزم منه أنّ مقام هؤلاء أعلى وأرفع من مقام الأنبياء ولا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم وكيف يعقل ذلك والمفروض أنّ الأنبياء في صدر الأولياء وأن شئت قلت أنّ الأولياء أنما بلغوا هذا المقام ببركة الأنبياء ومتابعتهم والمتبوع أفضل من التابع في الشريعة فكيف يعقل أن يكون مغبوطاً للنبي ونقل الرازي.

هذا الحديث في تفسيره عن عمر عن رسول الله ﷺ إلا أنّه قال:

قال رسول الله ﷺ هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطوا الخ ولم يذكر قوله (أنّ من عباد الله عباداً يغطهم الأنبياء والشهداء) ولعلّه تقطّع ما ذكرناه من الإشكال فأسقط ما أسقط أو نقل الحديث عن موضع آخر غير كتاب الطبري وكيف كان لا شك أنّ أولياء الله من أقرب

العباد اليه تعالى إلا أن الأنبياء في صدرهم و رأسهم فلا يغبطون على أحدٍ من المخلوقين كائنًا من كان.

أن قلت ما معنى الأولياء وما المراد بهم.

قلت الولاء والتوالي أن يحصل شيثان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبة و من حيث الدين و من حيث الصداقة و النصرة و الاعتقاد و الولاية النصرة و الولاية تولي الأمر و الولي و المولى يستعملان في ذلك كل واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي و في معنى المفعول أي المولى يقال للمؤمن هو ولي الله عز وجل و لم يرد مولاه و قد يقال أن الله تعالى ولي المؤمنين و مولاهم فمن الأول.

قال الله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.**

قال الله تعالى: **أَنْ وَلَّى اللَّهُ.**

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ.**

قال الله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا.**

قال الله تعالى: **نِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ.**

قاله الراغب في المفردات اذا عرفت هذا فنقول: معنى الآية أن أولياء الله لا خوف عليهم يوم القيامة و لا يحزنون، و هذه الآية بشارة من الله لأوليائه المقربين.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

فعن تفسير العياشي بأسناده، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أن أولياء الله، الآية ثم قال عليه السلام أتدرون من أولياء الله قالوا و من هم يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام هم نحن و أتباعنا فمن تبعنا من بعدنا طوبى لهم و طوبى لنا و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا، قالوا يا أمير المؤمنين ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا ألسنا نحن و

هم على أمرٍ قال ﷺ لا أنتم حملوا ما لم تحملوا عليه و أطاقوا ما لم تطيقوا انتهى.

و عن الباقر ﷺ قال: وجدنا في كتاب علي بن الحسين ﷺ: ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، اذا أدوا فرائض الله، و أخذوا سنن رسول الله ﷺ و تَوَرَّعوا عن محارم الله و زهدوا في عاجل زهرة الدنيا، و رغبوا فيما عند الله و إكتسبوا الطيب من رزق الله لا يريدون التفاخر و التكاثر ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك الذين بارك الله لهم فيما إكتسبوا و يثابون على ما قدّموا لأخرتهم انتهى.

و عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده الى أبي بصير قال قال الصادق ﷺ يا أبا بصير طوبى لشيعه قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته و المطيعين له في ظهوره أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون انتهى<sup>(١)</sup>.

ثم فسر الله تعالى هذه الآية بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ و القرآن يفسر بعضه بعضاً أي أن أولياء الله هم الذين آمنوا بالله و برسوله و بجميع ما جاء به الرسول و مع ذلك يتقون معاصيه ذكر الله تعالى للأولياء وصفين: أحدهما: الإيمان.

الثاني: التقوى و الفرق بينهما أن التقوى مضمن بإتقاء المعاصي مع منازعة النفس إليها و أما الإيمان فهو من الأمن بسبب العمل من عائد الضرر.

و قيل الإيمان موضوعه القلب و التقوى في الجوارح و الحق أن الإيمان هو الاعتقاد القلبي و التقوى عبارة عن ظهوره في الخارج بسبب العمل فالتقوى من ثمرات الإيمان و متفرع عليه فالمتقي مؤمن و لا عكس و الى هذا ينظر قول من

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قال التَّقْوَى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحرمات فأنهما من فروع الإيمان.

لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

البُشْرَى بَضَم الميم البشارة وهى الخبر المفرح.

و قال الرَّاغِب في المفردات يقال للخبر السَّار البشارة و البشرى و معنى الآية أَنَّ لهؤلاء الأولياء الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ البشارة في الحياة الدنيا و في الآخرة.

قال الجبائي و قتادة و الزُّهري البشرى في الحياة الدنيا هي الرُّؤْيَا الصادقة الصالحة يراها الرَّجُل أو يرى أهله.

و قال أبو جعفر عليه السلام البشر في الدنيا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يراها المؤمن أو يرى له و في الآخرة الجنة.

و قال الآخرون البشرى القرآن بشرف الإيمان و أمَّا قوله: لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ معناه لا خلف لما وعد الله به من الثَّوَاب بوضع كلمة أخرى مكانها بدلاً منها لأنها حقَّ و الحقَّ لا خلف له بوجه و من المعلوم أَنَّ البشرى في الحياة الدنيا و الآخرة هي الفور العظيم بحيث يصغر كل شيء في جنبه.

روي في الفقيه بأسناده أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَهُ جِسْمٌ وَ جَمَالٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا قَوْلُهُ: لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَهِيَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ فَيُبَشِّرُ بِهَا فِي دُنْيَاهُ.

و أمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: فِي الْآخِرَةِ فَأَنَّهَا بَشَارَةٌ الْمُؤْمِنِ يَبَشِّرُ بِهَا عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكَ وَلِمَنْ يَحْمِلُكَ إِلَى قَبْرِكَ أَنْتَهَى.

و يستفاد من بعض الأخبار أَنَّ البشارة في الدنيا البشارة بقيام القائم عليه السلام.

فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: في قوله تعالى: لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ الإمام يبشّرهم بقيام القائم و بظهوره و بقتل أعداءهم و بالنجاة في الآخرة و الورود على محمد صلّى الله عليه وآله صلي الله عليه وآله و أله الصادقين على الحوض الحديث.

و بأسناده عن علي بن عقبة عن أبيه قال: قال لي أبو عبد الله يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلا هذا الأمر الذي أنتم عليه (المراد به الولاية) بين أحدكم و بين أن يرى ما تقرّ به عينه إلا أن يبلغ نفسه الى هذه ثم أهوى بيده الى الوريد ثم إتكى و كان معي المعلّى فغمرني أن سله فقلت يا بن رسول الله صلّى الله عليه وآله فإذا بلغت نفسه هذي فأني شيء يرى فقلت له بضعة عشرة مرة أي شيء فقال في كلّها يرى لا يزيد عليها ثم جلس في آخرها فقال يا عقبة فقلت لبيك و سعديك فقال أبيت إلا أن تعلم فقلت نعم يا بن رسول الله صلّى الله عليه وآله

أما ديني مع دينك فإذا ذهب ديني كان ذلك كيف لي بك يا بن رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ ساعة فبكيت فرّق لي فقال عليه السلام يراهما و الله قلت بأبي و أمي من هما قال عليه السلام ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله و عليّ يا عقبة لن تموت نفس مؤمنة أبداً حتى تراهما.

قلت فإذا نظر اليهما المؤمن أيرجع الى الدنيا فقال لا يمضي أمامه إذا نظر اليهما مضى أمامه فقلت لا يقولان شيئاً قال نعم يذخلان جميعاً على المؤمن فيجلس رسول الله صلّى الله عليه وآله عند رأسه و عليّ عليه السلام عند رجله فيكتب عليه رسول الله فيقول يا وليّ الله أبشر أنا رسول الله صلّى الله عليه وآله أني خير لك ممّا تركت من الدنيا ثم نهض رسول الله صلّى الله عليه وآله فيقوم عليّ عليه السلام حتى يكتب عليه فيقول يا وليّ الله أبشر أنا عليّ بن أبي طالب الذي كنت تحبه أما لأنفعنك ثم قال أن هذا في كتاب الله

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

عَزَّ وَجَلَّ فَقُلْتُ أَيْنَ جَعَلَنِي اللَّهُ فداك هذا من كتاب الله قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في يونس قول الله عزَّ وجلَّ هاهنا: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى انتهي.

و عن تفسير العياشي عن عبد الرحيم قال قال أبو جعفر أتما أحدكم حين تبلغ نفسه هاهنا ينزل عليه ملك الموت فيقول، أما ما كنت ترجو فقد أعطيتك وأما كنت تخافه فقد أمنت منه و يفتح له باب الى منزله من الجنة و يقال له أنظر الى مسكنك من الجنة و أنظر هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و علي و الحسن و الحسين عليهم السلام رفقاءك و هو قول الله عزَّ وجلَّ: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ <sup>(١)</sup> والأحاديث الواردة بهذا المعنى كثيرة.

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ظاهر الكلام النهي و المراد به تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قولهم الذي يؤذونه به و هو تكذيبهم و تهديدهم النبي و تشاورهم في أمره و من المعلوم أن المكذبين بعضهم لا جميعهم فالكلام على هذا من قبيل ذكر العام و إرادة الخاص و لا يبعد أن تكون الصفة المخصصة محذوفة و تقدير الكلام قولهم الدال على تكذيبك و معاندتك و كيف كان فقوله: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا مستأنف أي لا يحزنك قولهم إذ لا عزة و لا قدرة لهم فأن العزة لله جميعاً فهم لا يقدرُونَ على شيء و في هذه الآية تأمينٌ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و سلم من أضرار الكفار و أن الله تعالى يديله عليهم و ينصر الرسول كما وعد الله به في قوله:

قال الله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: قال الأصم كانوا يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم فأخبر الله تعالى أنه قادر على أن يسلب منهم ملك الأشياء وإن ينصرك و ينقل اليك أموالهم و ديارهم انتهى.

أقول ما ذكره الأصم لا دليل عليه فالآية على عمومها، ثم أن العزة القهر و الغلبة مختصة بالله تعالى و لا ينافيه:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** <sup>(١)</sup>.

و ذلك لأن عزة الرسول و المؤمنين إنما هي من الله لا من عند أنفسهم فأَنَّ العبد و ما في يده كان لمولاه ألا ترى أنه تعالى يقول: **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** <sup>(٢)</sup> و أمثالها من الآيات التي تدل على أن العزة مختصة به تعالى و إنما تسري منه الى غيره من المخلوق إذا شاء و أراد.

و السر فيه هو أن المخلوق كائنًا من كان محتاج الى خالقه فقير في ذاته و صفاته:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** <sup>(٣)</sup>.

و إذا كان كذلك فالعبد كما أنه محتاج الى خالقه في وجوده محتاج اليه في صفاته فأنها من توابع الوجود و لوازمه فهو في حد نفسه لا يقدر على شيء:

قال الله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا** <sup>(٥)</sup> و الآيات كثيرة.

٢- فاطر = ١٠

٤- النحل = ٧٥

١- المنافقون = ٨

٣- سورة فاطر آية ١٥

٥- البقرة = ٢٦٤

محصل الكلام هو أنّ مخلوق قادر بقدرته تعالى عالم بعلمه و عزيز بعزّته و حيّ بحياته و هكذا فقله: إِنَّ أَلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا معناها أنّها له تعالى أولاً و بالذّات و لغيره ثانياً و بالفرض و قوله و هو السّميع العليم، معناها أنّه تعالى يسمع قولهم و يعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضيه حالهم و يدفع عنك شرّهم و بعبارة أخرى أنّه عالم بالمسموعات و الصّمائر.





أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
 وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ  
 إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)  
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ  
 مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)  
 قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا  
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ  
 سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ  
 (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا  
 يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ  
 ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ  
 (٧٠) وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ  
 إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ  
 اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ  
 شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ  
 أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا  
 سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ  
 أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ  
 فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْقُوتِكُمْ خَلِيفَةً  
 وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ  
 عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللّٰغَة

يَخْرُصُونَ، الخَرْصُ حرز الثمرة و الخرص المحروز كالتنقض للمنقوض و قيل الخرص الكذب ولعله هو المراد بالأية.  
مِنْ سُلْطَانٍ أَي حِجَّةٍ و الباقي واضح.

## ◀ الإعراب

وَمَا يَتَّبِعُ مَا، نافية، و مفعول، يَتَّبِعُ محذوف دَلَّ عليه قوله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، و شركاء، مفعول يدعون، و قيل هي إستفهامية في موضع نصب بيتبع إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ، هاهنا بمعنى، ما، و بهذا، يتعلّق بسُلْطَانٍ أو نعت له مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا خبر مبتدأ محذوف تقديره، إفتراءهم أو حياتهم أو تقلبهم ونحو ذلك إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِذْ، ظرف و العامل فيه، بناء و يجوز أن يكون حالاً فَعَلَى اللَّهِ الْفَاء جواب الشرط والفاء في فَأَجْمِعُوا عاطفة على الجواب شُرَكَاءَكُمْ الجمهور فيه على النَّصَب و فيه أوجه.  
أحدها: أَنَّهُ مَعُطُوفٌ عَلَى أَمْرِكُمْ تقديره أمر شركاءكم،، فأقام المضاف اليه مقام المضاف.

الثاني: هو مفعول معه، تقديره مع شركاءكم.

الثالث: هو منصوب بفعل محذوف أي و أجمعوا شركاءكم و قد يقرأ بالرفع بناءً على أَنَّهُ مَعُطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ فِي أَجْمِعُوا.

## ◀ التفسير

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

ألا للتنبيه و أصلها، لا دخلت عليها حرف الإستفهام لتفيد التنبيه و هي تستعمل في الإستقبال و لا تقع بعدها، إِنْ، إِلَّا مكسورة، بخلاف، أما، فأنها تكون بمعنى حقاً كقولهم أما أَنَّهُ منطلق لأنها للحال و يجوز بعدها كسر، إِنْ و

فتحتها وهذا هو الفرق بينهما وكلمة، مَنْ بفتح الميم لا تستعمل إلا في العقلاء بخلاف، ما، فأنها تستعمل فيهم وفي غيرهم، وإنما جيء بها في الآية دون، ما، مع أنها أشمل وأوسع من حيث المعنى لأن المراد بها في الآية العقلاء فقط دون جميع المخلوق وإذا كان له تعالى ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم ويجب أن يكون ملكاً بطريق أولى وإنما خص العقلاء تعظيماً للأمر والمعنى أن الله تعالى مالك لجميع العقلاء الذين في السموات كالملائكة وفي الأرض كالجن والإنس.

قال الزاغبي في المفردات الملك هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور وذلك يختص بسياسته الناطقين ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء.

قال بعض المفسرين أن، من، في الأصل للعقلاء وأما في المقام فهي شاملة لهم ولغيرهم على سبيل التغليب وحيث جيء، بما، كان تغليلاً للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل، أقول وعلى هذا فتغليب ذوي العقول إنما هو لشرفهم لا لكثرتهم ووجه الشرف ظاهر.

وقال صاحب الكشف، يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والنفلان وإنما خصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا في ملكه فهم عبيد كلهم لا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكاً له فما دونهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون ندأً وشريكاً ودل على من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر إنتهى.

وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

لما أثبت في صدر الآية أن من في السموات والأرض على ما مرّ البيان فيه له تعالى وأنه خالقهم ومالكهم أشار في المقام بما يترتب عليه وهو عدم

صلاحية غير الله تعالى من المخلوقات شريكاً له وذلك لأن المخلوق لا يكون شريكاً للخالق للزومه أن يكون المخلوق مخلوقاً لغيره وخالقاً لغيره وهو من قبيل إجتماع النقيضين توضيحه إجمالاً هو أن المخلوق بما مخلوق محتاج الى الخالق والخالق لا يكون مخلوقاً لغيره وإلا يلزم التسلسل وإذا كان كذلك فلو كان المخلوق شريكاً لخالقه يلزم أن يكون خالقاً ومخلوقاً معاً وأن شئت قلت أن يكون مخلوقاً وغير مخلوق وبعبارة أخرى مخلوقاً ولا مخلوق وهو من قبيل إجتماع النقيضين.

**أقول** و يلزم أيضاً تقدّم الشيء على نفسه وهو محال لأن المخلوق من حيث أنه مخلوق مؤخر وجوداً ورتبة عن خالقه فلو فرضنا كونه خالقاً أو شريكاً له يلزم تقدّمه وجوداً على وجوده كتقدّم العلة على المعلول وهو كما ترى هذا حكم العقل السليم الخالي عن شوائب الأوهام وعليه فمن جعل غير الله من المخلوقات شريكاً له لم يتبع حكم العقل بل خرج منه من حيث لم يحتسب وإذا خرج حكمه عن العقل فلا محالة يدخل في الظن وهو ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر وأنما لم نقل دخل في الشك لأن الشك عبارة عن تساوي الطرفين والمشارك يقول بالشرك ويعتقد به ولا يقول بتساوي الشرك وعدم الشرك فما حكم به في الباب يدخل في المظنون والى هذه الدقيقة أشار الله تعالى بقوله: **وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** فما قوله وما يتبع، نافية بمعنى ليس كما أن، إن في قوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ** أيضاً نافية وقوله: **شُرَكَاءَ** مفعول يتبع، ومفعول، يدعون، محذوف يفهم المعنى تقديره ألهة، فيصير معنى الآية أن الذين جعلوهم ألهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاء حقيقاً إذ الشراكة في الألوهية مستحيلة وإن كانوا قد أطلقوا عليهم إسم الشراكة بحسب ظنونهم الكاذبة الفاسدة فهم كاذبون في دعواهم كما قال: **إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ولا يبعد أن تكون، ما، في قوله: **وَمَا يَتَّبِعُ** إستفهامية لا نافية وشركاء مفعول يدعون، و

عليه فالمعنى أي شئ يتبع المتبع كأنه قيل من يدعو شريكاً لله فهو في الحقيقة لا يتبع شيئاً لأن متابعة الظن في باب الاعتقادات كالعدم.  
و أجاز الزمخشري أن تكون ما، موصولة بمعنى الذي عطفاً على، من، و العائد محذوف أي والذي يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي شركاءهم.

و قال بعضهم أن، ما، موصولة و هي في موضع رفع على الابتداء و الخبر محذوف تقديره والذي يتبع المشركون باطل.

**أقول** و لكل من هذه الوجوه وجه و جيه من حيث التركيب و أما من حيث المعنى فالمأل واحد و هو أن المشركين إتبعوا في قولهم بالشرك ظنونهم الفاسدة و لم يعلموا أن الاعتقاد الصحيح لا يحصل بالظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً ففي الآية دلالة على عدم جواز تحصيل الاعتقاد من طريق الظن بل لا بد أن يكون من طريق العقل و لأجل هذا إتفقوا على عدم جواز التقليد في الأصول لأنه لا يفيد إلا الظن بل يجب تحصيله عقلاً بحسب القدرة و الإستطاعة و السرفيه هو أن القطع لا يحصل إلا من طريق العقل فهؤلاء لتقليدهم أسلافهم في ذلك أو لشبهة دخلت عليهم بأنهم يتقربون بذلك الى الله دخلوا في الظن و خرجوا من العقل و هو كما ترى فأَنَّ الحكم اذا لم يكن من طريق العقل فهو كذب و لذلك قال تعالى: **وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** أي يكذبون في دعواهم و هو واضح.

ثم أشار الله تعالى الى ما هو خارج عن قدرة الشركاء فقال:

**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**

أي أن الذي يملك من في السموات و الأرض هو الذي جعل الليل أي خلقه لتسكنوا فيه فيزول التعب و الكلال عنكم بالنوم و الإستراحة فيه و جعل

النَّهَارَ وَأَنَّمَا يُبْصِرُ فِيهِ تَشْبِيهًا وَمَجَازًا وَإِسْتِعَارَةً فِي صِفَةِ الشَّيْءِ بِسَبَبِهِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالِغَةِ فِي الْآيَةِ تَنْبِيهٌ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَشُمُولِ نِعْمَتِهِ لِعِبَادِهِ فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ وَحَيْثُ أَنْ يُضَافَةَ الْإِبْصَارُ إِلَى النَّهَارِ مَجَازٌ لِأَنَّ النَّهَارَ لَا يَتَّصِفُ بِهِ حَقِيقَةً وَأَنَّمَا يُبْصِرُ مَنْ فِي النَّهَارِ فَالْمَعْنَى يُبْصِرُونَ فِيهِ مُطَالِبٌ مَعَاشِيَهُمْ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ جَرِيرٍ حَيْثُ قَالَ:

لَقَدْ لَمَتْنَا يَا أُمَّ عِيلَانَ فِي التَّسْرِى  
وَنَمْتَ وَمَا لَيْلِ الْمَطْيِ بِنَائِمٍ  
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي  
وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّيْلَ لَا يَنَامُ وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ: لَيْسَكُنُوا فِيهِ لَامُ التَّعْلِيلِ أَيْ أَنَّ السَّكُونَ فِي اللَّيْلِ هُوَ الْعَلَّةُ لَخَلْقِ اللَّيْلِ هَكَذَا قِيلَ وَالْحَقُّ أَنَّهَا لَامُ الْغَايَةِ وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الدَّقِيقَةِ حَيْثُ قَالَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَلَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا<sup>(٣)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ<sup>(٤)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا<sup>(٥)</sup>.

إِنْ قُلْتَ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَ الْجَعْلِ حَيْثُ قَالَ فِي الْمَقَامِ وَ نَظَائِرِهِ، جَعَلَ،  
و فِي الْأَزْوَاجِ خَلَقَ، مَعَ أَنَّ الْغَايَةَ فِي الْمَقَامَيْنِ وَاحِدَةٌ وَ هِيَ السَّكُونُ.  
قُلْتَ الْخَلْقُ أَصْلُهُ التَّقْدِيرُ الْمُسْتَقِيمُ وَ يَسْتَعْمَلُ فِي إِبْدَاعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ  
وَ لَا إِحْتِذَاءٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ.

أَيُّ أَبْدَعَهُمَا بِدَلَالَةٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>.

وَ يَسْتَعْمَلُ فِي إِيجَادِ الشَّيْءِ مِنْ شَيْءٍ نَحْوِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ<sup>(٣)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ<sup>(٤)</sup>.

وَ هَكَذَا وَ لَيْسَ الْخَلْقُ الَّذِي هُوَ الْإِبْدَاعُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَ إِلَى هَذَا الْفَصْلِ بَيْنَهُ  
تَعَالَى وَ بَيْنَ غَيْرِهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ<sup>(٥)</sup>.

وَ أَمَّا الْخَلْقُ بِمَعْنَى الْإِسْتِحَالَةِ وَ هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْإِبْدَاعِ فَقَدْ  
جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَغَيْرِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي<sup>(٦)</sup>.

وَ أَمَّا الْجَعْلُ فَهُوَ عَلَى مَا قِيلَ لَفْظٌ عَامٌّ فِي الْأَفْعَالِ كُلِّهَا وَ هُوَ أَعَمُّ مِنْ فَعَلَ وَ  
صَنَعَ وَ سَائِرِ أَخَوَاتِهَا وَ يَتَّصِرُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجِهٍ:

الأَوَّلُ: يَجْرِي مَجْرَى صَارَ وَ طَفِقَ فَلَا يَتَعَدَّى نَحْوُ، جَعَلَ زَيْدٌ يَقُولُ كَذَا.

الثَّانِي: يَجْرِي مَجْرَى أَوْجَدَ فَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ.

فِي التَّوْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد الثاني

١- النساء = ٢

١- البقرة = ١١٧

٢- الرحمن = ١٥

٣- المؤمنون = ١٢

٣- المائة = ١١٠

٥- النحل = ١٧

قال الله تعالى: وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ.

قال الله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَعَ وَ الْإِبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ<sup>(١)</sup>.

الثالث: هي إيجاد الشيء و تكوُّنه من شيءٍ آخر.

قال الله تعالى: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا<sup>(٤)</sup>.

الرابع: في تصيير الشيء على حالةٍ دون حالة.

قال الله تعالى: أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا<sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا<sup>(٨)</sup>.

الخامس: الحكم بالشيء على الشيء حقاً كان أو باطلاً

فأما الحق:

قال الله تعالى: إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ<sup>(٩)</sup>.

و أما الباطل:

قال الله تعالى: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ دَرَأٍ مِنَ الْحَزَنِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا<sup>(١٠)</sup>.

قال الله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ أَلْبَابًا<sup>(١١)</sup>.

قال الله تعالى: أَلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ<sup>(١٢)</sup>.

٧٢- النحل	٧٨- النحل
٤- الزخرف	٣- النحل
٦- النحل	٥- البقرة
٨- الزخرف	٧- نوح
١٠- الانعام	٩- القصص
١٢- الحجر	١١- النحل



فهذه هي وجوه الجعل بحسب الإستعمال و بذلك قد ظهر الفرق اذا عرفت هذا.

**فَاعْلَمُ** أَنَّ اللَّيْلَ يَطْلُقُ عَلَى الظُّلْمَةِ وَ النَّهَارَ عَلَى النُّورِ وَ النَّورُ وَ الظُّلْمَةُ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ إِلَّا أَنَّ النُّورَ أَمْرٌ وَ جَوْدِيٍّ وَ الظُّلْمَةُ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ وَ لَا وَجُودَ لَهَا فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ النُّورِ وَ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا الْإِبْدَاعُ وَ أَنَّ شَيْئًا قُلْتَ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا الْخَلْقُ الَّذِي هُوَ إِيجَادُ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ وَ لِذَلِكَ قَالَ جَعَلَ اللَّيْلَ وَ لَمْ يَقُلْ خَلَقَ اللَّيْلَ.

وَأَمَّا فِي الْأَرْوَاحِ قَالَ خَلَقَ وَ لَمْ يَقُلْ، جَعَلَ، فَالْجَعْلُ الَّذِي تَعَلَّقَ بِاللَّيْلِ هُوَ جَعْلُ الْبَسِيطِ لَا الْجَعْلَ الْمَرْكَبَ أَيْ جَعْلَ الشَّيْءِ شَيْئًا لِأَنَّهُ فِي الْمَقَامِ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** فَمَعْنَاهُ أَنَّ فِي ذَلِكَ عِلَامَاتٍ لِلْمَسَامِعِينَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَيْ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَجَائِبِ الْخَلْقَةِ وَ يَتَدَبَّرُونَهَا وَ فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَعْلَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ تَعَالَى.

**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ، الَّذِينَ أَضَافُوا إِتِّخَاذَ الْوَلَدِ إِلَيْهِ طَائِفَتَانِ:

**أَحَدُهُمَا:** كَفَّارِ قَرِيشَ وَ الْعَرَبِ فَأَنْتَهُم قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ

وَالْأُخْرَى النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ فَكَذَّبَ اللَّهُ الْفَرِيقَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَقُولُ الضَّمِيرُ فِي قَالُوا، عَائِدٌ عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ، **هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** فَاسْتَدَلَّ عَلَى نَفْيِ الْوَلَدِ بِقَوْلِهِ هُوَ الْغَنِيُّ، فَتَصِيرُ صُورَةُ الْقِيَاسِ هَكَذَا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ، وَ كُلُّ غَنِيٍّ كَذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ أَوْ لَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ فَهُوَ تَعَالَى لَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ.

أَمَّا الصُّغْرَىٰ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ غَنِيٌّ لَا مُحَالَةَ إِذِ الْمَفْرُوضُ أَنَّهُ مَالِكٌ مَا سِوَاهُ كَانَتْ مَا كَانَ نَعْنِي بِالْغَنِيِّ إِلَّا هَذَا.

وَأَمَّا الْكِبْرَىٰ فَلَأَنَّ الْغَنِيَّ عَنِ الْكُلِّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ أَوْ لَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ لِعَدَمِ إِحْتِيَاجِهِ بِهِ فَيَتَنَجَّى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَحَاصِلُ الْكَلَامِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ مَنَزَهُ عَنِ إِتْخَاذِ الْوَلَدِ لِكُونِهِ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَوْلُهُ: **إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا** مَعْنَاهُ لَيْسَ عِنْدَكُمْ مِنْ بَرَهَانٍ بِهَذَا الَّذِي تَقُولُونَ بِهِ فَأَنَّ السُّلْطَانَ هُوَ الْبَرَهَانُ الظَّاهِرُ وَكُلُّ قَوْلٍ لَا بَرَهَانَ عَلَى صَحَّتِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ بَلْ نَقُولُ أَنَّ الْبَرَهَانَ قَائِمٌ عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِمْ وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَقْلًا وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَلَدَ الْمَفْرُوضَ لَا يَخْلُو أَمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبُ الْوُجُودِ أَوْ مُمْكِنُ الْوُجُودِ أَوْ مَمْتَنِعُ الْوُجُودِ.

**الأول:** مُحَالٌ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَوْجَدُ بَعْدَ وُجُودِ الْوَالِدِ لَا قَبْلَهُ وَلَا مَعَهُ إِذْ لَوْ كَانَ قَبْلَهُ يَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ وَلَدًا لَهُ وَأَنْ كَانَ مَعَهُ يَلْزَمُ تَسَاوِيُ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ فِي مَرْتَبَةِ الْوُجُودِ وَهُوَ مُحَالٌ هَذَا كُلُّهُ مُضَافًا إِلَى أَنَّ الْوَاجِبَ يَكُونُ مَوْجُودًا بِذَاتِهِ وَالْوَلَدَ مَوْجُودًا بِوُجُودِ الْوَالِدِ فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ أَيْضًا وَاجِبُ الْوُجُودِ.

**الثاني:** أَعْنِي كَوْنَهُ مُمْكِنًا مُحَالًا أَيْضًا لِأَنَّ كُلَّ مُمْكِنٍ فَهُوَ حَادِثٌ وَالْحَادِثُ لَا يُولَدُ مِنَ الْقَدِيمِ.

**الثالث:** أَعْنِي كُونَهُ مَمْتَنَعًا فَهُوَ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَإِنْ شُكِّتْ قُلْتَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَسِيطُ الْحَقِيقَةِ فَلَا جُزْءَ لَهُ حَتَّىٰ يَنْفَصَلَ عَنْهُ الْوَلَدُ فَلَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَجْزَاءٌ وَكُلُّ مَرْكَبٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا وَكُلُّ مُحْتَاجٍ مُمْكِنُ الْوُجُودِ فَيَكُونُ الْوَاجِبَ مُمْكِنًا وَهَذَا خِلَافٌ وَتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ يَأْتِي فِي سُورَةِ التَّوْحِيدِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أضافوا إليه الولد، إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ أي لا يفوزون بشئ من الثواب وفي هذا الكلام إشارة بأنهم إفتروا على الله تعالى بما قالوه في حقّه وهو كذلك وقد أوضحناه بما لا مزيد عليه.

مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

قوله: مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا رفع بأنّه خبر الابتداء و تقديره ذاك متاع أو هو متاع أولهم متاع في الدنيا.

قال بعض المفسرين أنّه جواب عن سؤالٍ مقدّر كأنّه قيل كيف لا يعلمون و هم في الدنيا مفلحون بأنواع النعم ممّا يتلذذون به ف قيل في الجواب ذلك متاع في الدنيا و هو ممّا لا بقاء له لأنّه زائل لا محالة ثمّ يلقون الشقاء المؤبد في الآخرة بسبب كفرهم.

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ تَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شَرِّكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ

أمر الله تعالى نبيّه أن يخبر هؤلاء الكفار أخبار نوح اذ فيها تنبيه و موعظة لمن يتنبّه و يتعظ بها فقال و أتْلُ عليهم يا محمد نبأ نوح اذ قال نوح لقومه الذين بعث إليهم يا قوم أن كان كبر عليكم مقامي، بين أظهركم و تذكيري إياكم بآيات الله و أردتم قتلي و أذاي فعلى الله توكّلت أي فوّضت أمري إليه فأجمعوا ذوي الأمر منكم أي رؤساءكم و جوهكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة أي مغطى مستورا بل ينبغي أن يكون ظاهراً مكشوفاً ثمّ اقضوا إليّ و لا تنظرون أي إفعلوا ما تريدون على وجه التهديد لهم.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١  
المجلد الثامن

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

أي فأن هربتم عن الحق وإتباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه وأعرضتم عن إتباعي وقبول قولي فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي فيثقل عليكم، إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ والمعنى ليس أجري إلا عليه تعالى لأنه أرسلني اليكم، وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ والمعنى أنني مأمور من قبل الله تعالى أن أكون من المسلمين المطيعين لأوامره ونواهيه فأن طاعته خير ما يكسبه العباد.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ أَيْ أَنْ قَوْمَهُ لَمْ يَقْبَلُوا قَوْلَهُ: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ أَيْ نَجَّيْنَا نُوحًا وَ أَتْبَاعَهُ مِمَّنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ عَنِ الْغَرَقِ، وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ.

وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا نُوحًا فِي الْمَاءِ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ، الَّذِينَ أَنْذَرَهُمْ نُوحٌ فَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَ كَذَّبُوهُ وَ مُحْصَلُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْذِّبُ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ تَمَامِيَةِ الْحُجَّةِ وَ ظُهُورِ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ.

وَ أَمَّا قِصَّةُ نُوحٍ وَ الطُّوفَانِ وَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهَا فَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ نُوحٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ  
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ  
 مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)  
 ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَائِكَه بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا  
 مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا  
 قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى  
 أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا  
 يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا  
 وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي  
 الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ  
 فِرْعَوْنُ أَأَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ  
 السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ  
 (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا السَّحَرُ  
 إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ  
 الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ  
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا أَمِنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ  
 مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ  
 يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّه لَمِنَ  
 الْمُسْرِفِينَ (٨٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللغة

نَطْبَعُ، الطَّبْع جعل الشَّيْء على صفة غيره بمعنى فيه و قال الراغب في المفردات الطَّبْع أَنَّ تَصَوُّرَ الشَّيْء بصورة ما كطبع السُّكَّة و طبع الدِّراهم و هو أعمّ من الختم و أخصّ من النَّقش.

فِرْعَوْن بكسر الفاء وسكون الرّاء وفتح العين إسم أعجميّ و قد أعتبر عرامته فقيلاً تفرّع عن فلان اذا تعاطى فعل فرعون و منه قيل للطَّغاة الفراعنة. لِنَلْفِتْنَا أَي لتصرفنا و اللَّفَت الصَّرَف عن أمر.

## ◀ الإعراب

أَسْحَرْتُ هَذَا سحر خبر مقدّم و هذا مبتدأ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ هو إسم كان و لكم، خبرها و في الأرض، ظرف للكبرياء منصوب بها و بكان أو بالإستقرار في لكم، ما جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ يقرأ بالإستفهام فعلى هذا تكون، ما، إستفهاماً و موضعها نصب بفعل محذوف موضعه بعد، ما، تقديره يَأْشِيْءُ أَتَيْتُمْ به، و جِئْتُمْ به، يفسّر المحذوف و قيل الخبر محذوف أي السَّحَر هو موضعها الرفع بالإبتداء و جِئْتُمْ به، الخبر.

## ◀ التفسير

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

أي ثُمَّ بَعَثْنَا من بعد نوح رسلاً الى قومهم، و المعنى أرسلنا كلّ رسولٍ الى قومه فجاءهم بالبيّنات الدّالات على صدق دعواهم من المعجزات و الكرامات الجارية على أيديهم بإذن الله و الضّمير في قوله، بعده، يرجع الى نوح أي ثُمَّ بَعَثْنَا من بعد نوح رسلاً، و هم هود، في قوم عاد و صالح النّبيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوم ثمود و إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوم نمرود و فرعون زمانه و

إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ و لُوطَ فِي قَوْمِهِ وَيَعْقُوبَ النَّبِيَّ وَيُوسُفَ الصَّدِيقَ وَأَيُّوبَ النَّبِيَّ وَ شُعَيْبَ وَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بَعَثُوا إِلَى قَوْمِهِمْ كَمَا سَيَجِي قَصَصُهُمْ فِي مُحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

### فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

الضَّمِيرُ فِي كَذَّبُوا أَيْضاً إِلَى قَوْمِ نُوحٍ أَيَّ مَا كَانُوا هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ قَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ مَنْ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَ تَصَدِيقِ أَنْبِيَائِهِ وَ قِيلَ الْمَعْنَى مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِالْحَجَجِ وَ الْبَيِّنَاتِ بَعْدَ إِتْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ وَ هَذَا يَخْبِرُ عَنْ عِنَادِهِمْ وَ عَتُوهُمْ وَ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا أَنْبِيََاءَهُمْ كَمَا كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا كَمَا لَمْ يُؤْمِنْ قَوْمُ نُوحٍ بِهِ.

### كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

مَعْنَاهُ أَنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ سَمَةً وَ عَلَامَةً عَلَى كُفْرِهِمْ بَلَزِمَهُمُ الدَّمُ بِهَا وَ تَعَرَّفَهُمْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ إِنَّمَا مِثْلُ ذَلِكَ نَفْعَلُ بِقُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ وَ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الطَّبْعِ فِي الْآيَةِ الْمَنْعُ مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّ مَنْ مَنَعَ مِنَ الْإِيمَانِ لَا يَحْسُنُ تَكْلِيفُهُ بِهِ وَ الْمُعْتَدُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِنَفْسِهِمْ الَّذِينَ تَعَدَّوْا حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى هَكَذَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَ قَالَ بَعْضُهُمْ وَ جَاءَ النَّفْيُ مُصْحَباً بِلَامِ الْجُحُودِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِيْمَانَهُمْ فِي حَيْزِ الْإِسْتِحَالَةِ وَ الْإِمْتِنَاعِ وَ الضَّمِيرُ فِي، كَذَّبُوا، عَائِدٌ عَلَى مَنْ عَادَ عَلَيْهِ ضَمِيرٌ، كَانُوا، وَ هُمُ قَوْمُ الرُّسُلِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَةِ الرُّسُلِ أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَ تَكْذِيبٍ لِلْحَقِّ فَتَسَاوَتْ حَالَتُهُمْ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَ بَعْدَهَا كَأَنَّ لَمْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ، وَ مِنْ قَبْلِ، مُتَعَلِّقٌ بِكَذَّبُوا، أَيَّ مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ الرُّسُلِ وَ كَيْفَ كَانَ لَا خِفَاءَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ، مَا، فِي قَوْلِهِ: بِمَا مُوصُولَةٌ وَ لِذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: بِمَا كَذَّبُوا بِهِ وَ لَوْ كَانَتْ مُصَدْرِيَّةً.

كما قال بعضهم بقي الضمير غير عائد على مذكور فيحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير والكاف في قوله: كَذَلِكَ لِلتَّشْبِيهِ أي مثل ذلك الطبع المحكم الذي يمتنع زواله نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم والمبالغين في الكفر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان بهذه الآية انتهى.

**والجواب عنه أما أولاً:** أن الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالى: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(١)</sup> ولو كان هذا الطبع مانعاً لما صحَّ الاستثناء.

ثانياً: لو كان الأمر كما ذكره وإعتقده لما تحسن التكليف لأن الممنوع من الإيمان كيف يكلف به ثم يعاقب على عدم الإيمان فالحق أن علمه تعالى بعدم إيمانهم باختيارهم كالطبع على قلوبهم بعدم الإيمان.

**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**

و المعنى بعثنا بعد الرّسل موسى و هارون الى فرعون و ملائه، أي رؤوساء قومه و أكابرهم بآياتنا و هي المعجزات التي ظهرت على يديه فاستكبروا، عن الانقياد لها و الإيمان بها و كانوا قوماً مجرمين، في ذلك المستحقين للعقاب الدائم و الإجرام إكتساب السيئة و هي صفة ذمّ و سيأتي تفصيل ذلك في سورة القصص إن شاء الله تعالى.

**وإِعلم أن موسى إسم مركب من إسمين بالقبطية فمو، هو الماء، وسى، الشجر و سمّي بذلك لأنّ التابوت التي كان فيها موسى وجد عند الماء و الشجر وجدته حواري أسية و قد خرجن ليغتسلن و هو موسى بن عمران بن**



يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب قيل ولد يعقوب لاوي و قد مضى من عمره تسع و ثمانون سنة ثم أن لاوي بن يعقوب نكح نابتة بنت ماوي بن يشخر فولدت له عرشون و مرزي و مردي وقاهث بن لاوي و ولد للاوي قاهث بعد أن مضى من عمره ست و أربعون سنة فنكح قاهث بن لاوي قاهي بنت مبنيرين بن تبويل بن إلياس فولدت له يصهر و تزوج يصهر شमित بنت تباويت بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران و قد مضى من عمره سنة و كان عمر يصهر مائة و سبعا و أربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نخب بنت إشموئيل بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له هارون و موسى و إختلفوا في إسم أمها فقيل نخب و قيل أفاحية و قيل بوخائيد و هو المشهور و كان عمر عمران مائة و سبعا و ثلاثين سنة و ولد له موسى و قد مضى من عمره سبعون سنة، ثم أن هارون كان أكبر سنًا من موسى و مات هارون قبل موسى و هو أخو موسى لأبيه و أمه و لم يكن لموسى ولد و كان الولد و الذرية لهارون و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً و قيل الوحي كان ينزل على موسى و هو يوحيه الى هارون و هو الحق.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون الذين أخبر عنهم بالاستكبار أنهم لما جاءهم الحق من عند الله قالوا أن هذا الذي أتى به موسى من المعجزات و البراهين بسحر ظاهر و هو إخراج الباطل بصورة الحق.

و قيل هو إسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور و الطبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند المحصلين.

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ  
إِعلم أن الألف في قوله: أَتَقُولُونَ، و قوله: أَسِحْرٌ هَذَا، للإستفهام الإنكاري و قيل في تكريرها ثلاثة أقوال:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

**أحدها:** أَنْ يَكُونَ لِتَأْكِيدِ التَّقْرِيعِ عَلَى الحذف كَأَنَّهُ قَالَ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ، أَسِحْرٌ هَذَا وَالحال أَنَّ السَّاحِرَ لَا يَفْلَحُ.

**الثَّانِي:** عَلَى وَجْهِ التَّكَرُّارِ كَقَوْلِكَ أَتَقُولُ أَعِنْدَكَ مَالٌ.

**الثَّالِث:** أَنْ يَكُونَ حِكَايَةَ قَوْلِهِمْ وَأَنْ إِعْتَقَدُوا أَنَّ السَّحْرَ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِلجارية إِذَا أَتَتْهُ أَحَقُّ هَذَا فَيَقُولُونَهُ عَلَى التَّعَجُّبِ ذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهُ فِي التَّبَيَّانِ.

وَقَالَ الرَّازِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا، أَسِحْرٌ هَذَا بَلْ قَالَ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ مَا تَقُولُونَ ثُمَّ حَذَفَ عَنْهُ مَفْعُولٌ، أَتَقُولُونَ، لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى أَسِحْرٌ هَذَا وَهَذَا إِسْتِفْهَامٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ ثُمَّ إِحْتِجَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْكَلَامِ حَذَفَ وَالمعنى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ هَذَا سِحْرٌ ثُمَّ إِسْتَأْنَفَ إِنْكَاراً أُخَرَ مِنْ قَبْلِهِ فَقَالَ أَسِحْرٌ هَذَا فَحَذَفَ قَوْلَهُمُ الْأَوَّلَ إِكْتِفَاءً بِالثَّانِي مِنْ قَوْلِهِمْ مُنْكَرًا عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ.

وَنَقَلَ عَنِ الْأَخْفَشِ أَنَّهُ قَالَ هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَدَخَلَتْ الْأَلْفُ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَالُوا أَسِحْرٌ هَذَا فَقِيلَ لَهُمْ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا أَنْتَهَى.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ.

قَرَأَ بَعْضُهُمْ، وَيَكُونُ، بِالْيَاءِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّاءِ عَلَى جِهَةِ الْخُطَابِ وَهُوَ الْأَشْهَرُ بَلْ لَا وَجْهَ لِقِرَاءَةِ الْيَاءِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِمْ لِنَلْفِتْنَا، عَلَى وَجْهِ الْخُطَابِ فَالتَّاءُ أَوْفَقُ بَسْيَاقِ الْآيَةِ مِنَ الْيَاءِ مِضَافًا إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ، أَيْضًا مُؤَيَّدٌ لِلْخُطَابِ وَلَوْ كَانَتْ قِرَاءَةُ الْيَاءِ صَحِيحَةً يَنْبَغِي أَنْ يَقَالَ لَهُمَا الْكِبْرِيَاءُ عَلَى وَجْهِ الْغَيْبَةِ وَكَيْفَ كَانَ فَالمعنى أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا أَيْ لِنَتَصَرَّفْنَا وَنَمْنَعُنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَتَكُونُ لَكُمَا، الْخُطَابُ لِمُوسَى وَهَارُونَ لِأَنَّهُمَا بَعَثَا إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَهِيَ

الملك و قال قوم هي العظمة و قال قوم هي السلطان و الكبرياء إستحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب.

وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ أَي لَسْنَا أَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ فِي، دَعَوْتِكُمَا إِنَّا بِلَا نُبُوءَةِ الْأَلْفِ فِي قَوْلِهِ: أَجِئْتُنَا، لِلإِسْتِفْهَامِ وَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِنْكَارُ عَلَى طَرِيقِ اللَّجَاجِ وَ الْعِنَادِ لِأَنَّهُمْ تَعَلَّقُوا فِي حُجَّتِهِمْ بِالشُّبْهَةِ فِي أَنَّهُمْ عَلَى رَأْيِ آبَاءِهِمْ وَ إِدَّعَوْا أَنَّ مِنْ دَعَاهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ وَ الْكُفْرِ فَهُوَ يَرِيدُ التَّأْمُرَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ فِي الْآيَةِ دَلَالَةً عَلَى ذَمِّ التَّقْلِيدِ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ بَلْ يَجِبُ التَّفَحُّصُ فِيهَا وَ هَذَا مِمَّا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ وَ لَمْ يَخَالَفْ فِيهِ أَحَدٌ وَ أَنَّمَا خَاطَبُوا مُوسَى وَحْدَهُ فِي قَوْلِهِمْ أَجِئْتُنَا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ مُعْجَزَةُ الْعَصَا وَ الْيَدِ وَ الْمُرَادُ بِالْأَرْضِ فِي قَوْلِهِمْ هُوَ أَرْضُ مِصْرَ وَ أَنَّمَا قَالُوا وَ تَكُونُ، بِالتَّاءِ لِمَجَازِ تَأْنِيثِ الْكِبَرِيَاءِ وَ مِنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَقَدْ رَاعَى اللَّفْظَ لِأَنَّهُ مَذْكَرٌ.

قال بعض المفسرين أنهم قالوا لموسى مقصودك في مجيئك إلينا بما جئت هو أن تنتقل عن دين آبائنا إلى ما تأمرنا به ونظيعة و يكون لكما العلو و الملك علينا بطاعتك فنصير أتباعاً لك تاركين دين آبائنا وهذا مقصود لا نراه فلا نصدقك فيما جئت به إذ غرضك أنما هو موافقتك على ما أنت عليه و إستعلاءك علينا فالسبب الأول هو التقليد و الثاني الجد في الرئاسة حتى لا تكونوا تبعاً و إقتضى هذان السببان اللذان توهموهما مقصوداً التصريح بإنتفاء الإيمان الذي هو سبب لحصول السببين و يجوز أن يقصدوا الذم بأنهما أن ملكا أرض مصر تكبراً و تجبراً كما قال القبطي، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض انتهى.

أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه فلا نحتاج إلى هذه التخريجات و التكالفات.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ قَرَأَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْكُوفَةِ بِكُلِّ سَاحِرٍ بِتَشْدِيدِ الْحَاءِ وَ أَلْفٍ بَعْدَهَا وَ الْبَاقُونَ، سَاحِرٌ، عَلَى وَزْنِ فَاعِلٍ وَ لِكُلِّ وَجْهٍ وَجْهٌ

في القرآن  
في قوله  
فِرْعَوْنُ أَتُونِي  
بِكُلِّ سَاحِرٍ  
عَلِيمٍ

جزء ١١  
الجد الثاني

و المعنى واحد و أنما قال فرعون ذلك بعد أن أعجزه المعجزات التي ظهرت على يد موسى و لم يكن له في دفعها حيلة فقال لقومه أدتوني بكل ساحرٍ عليم، أي عليم بالسحر بليغ في علمه و فرعون، لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة و هو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيهه إنصرف كياقوت و وزنه فعلون و الواو زائدة لأنها لحقت عند سلامة الثلاثة و مثله فردوس قالوا أنما طلب فرعون كل ساحرٍ ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى و حتى لا يفوته شيء من السحر بتأخر بعضهم.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ

و أنما أمرهم موسى بالإلقاء أولاً لأن موسى أراد إبطال سحرهم و المعنى أطحوا على الأرض ما معكم من حبالكم و عصيكم.

فَلَمَّا أَلْقَوْا حَبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

قرأ أبو عمرو و مجاهد و أصحابه و ابن القعقاع بهمة الإستفهام في قوله: السِّحْرُ ممدودة و باقي السبعة و الجمهور به همزة الوصل فعلى الإستفهام قالوا يجوز أن تكون، ما، إستفهامية مبتدأ و السحر بدل منها و أن تكون منصوبة بمضمر تفسيره جِئْتُمْ بِهِ و السحر خبر مبتدأ محذوف تقديره، أهو السحر.

و قال بعضهم، ما، في موضع رفع بالابتداء و الخبر جِئْتُمْ بِهِ و التقدير، أي شيء جِئْتُمْ به، على سبيل التوبيخ و التصغير لما جاءوا به من السحر.

و قيل أن الألف و اللام في قوله: السِّحْرُ للعهد و ذلك لأنهم قالوا لما أتى به موسى أنه سحر فقال موسى في جوابهم أن ما جدتم به فهو من السحر.

و في قراءة أبي ما جِئْتُمْ بِهِ سَحْرٌ بلا ألف و لام و أنما عبر عن عملهم بالفساد وعدّهم من المفسدين لأن المعارض للحق مفسد قطعاً كما أن المعارض للباطل مصلح و قوله: إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

معناه أَنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُ سِحْرَكُمْ هَذَا لِأَنَّهُ مِنَ الْبَاطِلِ وَ فاعله مفسد و من أفسد في الأرض لا يصلح اللَّه عمله لِأَنَّهُ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي كَانَ زَهُوقًا:

قال اللَّه تعالى: وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا<sup>(١)</sup>.

و الى هذا أشار بقوله لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلُ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ<sup>(٢)</sup>.

فَأَنَّ هَذَا عَظْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ إِلَّا سِحْرُ أَيُّ أَنْ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ وَ يَحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ أَي يَظْهَرُ الْحَقُّ بِسَبَبِ كَلِمَاتِهِ الَّتِي وَعَدَهَا لِمُوسَى أَوْ بِكَلَامِهِ الَّذِي يَبَيِّنُ بِهِ مَعَانِيَ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَاهَا نَبِيُّهُ ﷺ أَوْ بِمَا سَبَقَ مِنْ حُكْمِهِ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عَلَى إِخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ فِيهِ هَذَا.

و أَنَا أَقُولُ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ هُوَ كَلِمَاتُهُ التَّكْوِينِيَّةُ الْوُجُودِيَّةُ وَ فِي رَأْسِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَ الْأَوْصِيَاءُ وَ الْأَوْلِيَاءُ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْطِلُ عَمَلِ الْمَفْسُودِينَ عَلَى أَيْدِي الْمَصْلُحِينَ الْكَامِلِينَ أَعْنِي بِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْمِعْجَزَاتِ وَ الْكِرَامَاتِ وَ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَلَوْ كَرِهَ الْمَجْرِمُونَ وَ كَيْفَ كَانَ فِيهِ الْآيَةُ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَنْصُرُ الْمُحَقِّقِينَ وَ يَخْذُلُ الْمَفْسُودِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(٣)</sup>.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

أخبر اللَّه تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمْ يَصَدِّقْ لِمُوسَى بِالنَّبَاةِ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ

أَي مِنْ قَوْمِ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ خَوْفِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ أَشْرَافِ قَوْمِهِ، أَوْ أَتْبَاعِهِ أَنْ يَفْتِنَهُمْ أَي يَعَذِّبُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، هُوَ مِنَ الْعُلُوِّ أَيِ اسْتَكْبَرُوا وَ إِذْعَى الْأُلُوهِيَّةِ وَ هِيَ مِنْ أَكْبَرِ مُصَادِيقِ الْعُلُوِّ وَ أَنَّهُ،

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١١

المجلد الثامن

أي فرعون، لمن المسرفين المكثرين في القتل وإرتكاب المعاصي و ذلك لأنَّ الإسراف الَّذي هو بمعنى التَّجاوز عن الحدِّ قد يتحقَّق بالقتل و قد يتحقَّق بسبب المعاصي.

قال ابن عَبَّاس أَنَّهُ أَرَادَ إِلَّا قَلِيلَ مِنْ قَوْمِهِ، وَ قِيلَ كَانَتْ أَمَّهَاتِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ آبَاءُهُمْ مِنَ الْقَبْطِ وَ قِيلَ سَمَوْا ذَرِيَّةً لِأَنَّهُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ مُوسَى فَلَمْ يَسْتَجِيبِ الْآبَاءُ وَ قِيلَ الْآبَاءُ.

وَ قِيلَ هُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَهُمْ فِرْعَوْنُ بِتَعْلَمِ السَّحَرِ وَ جَعَلَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ وَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ وَ مَلَأَهُمْ، قِيلَ يَرْجِعُ إِلَى الذَّرِيَّةِ فَقَطْ وَ قِيلَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ أَتْبَاعِهِ، وَ قِيلَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَطْ وَ فِي الْآيَةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الذَّرِيَّةَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ كَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ هُوَ كَذَلِكَ.



وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ  
تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ  
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥)  
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا  
إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ  
بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ  
بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ  
فِرْعَوْنَ وَ مَلَآءَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
وَ أَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا  
فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
(٨٩) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ  
فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ  
الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ  
بَنُو إِسْرَآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلَانَ وَ قَدْ  
عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ  
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِن كَثِيرًا  
مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا  
بَنِي إِسْرَآئِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي  
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

## ◀ اللّغة

تَبَوَّأُ أَيِ اتَّخَذَ يُقَالُ بَوَّأَهُ مَنْزِلًا أَيِ اتَّخَذَتْهُ لَهُ وَأَصْلُهُ الرُّجُوعُ مِنْ بَأْوٍ  
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، أَيِ رَجِعُوا وَالْمَبْوَأُ الْمَنْزِلُ لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ لِلْمَقَامِ فِيهِ.  
أَطْمَسَ بَفَتْحِ الْأَلْفِ وَكَسْرِ الْمِيمِ وَالطُّمَسُ مَحُو الْأَثَرِ يُقَالُ طَمَسَتِ الرِّيحُ آثَارَ  
الْدِيَارِ.

وَ أَشَدُّ أَيِ ثَبَّتَهُمْ عَلَى الْمَقَامِ فِي بِلَدِهِمْ بَعْدَ إِهْلَاكِ أَمْوَالِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ  
أَشَدَّ عَلَيْهِمْ.  
بَغِيًّا وَ عَدُوًّا الْبَغْيُ طَلَبُ الْإِسْتِعْلَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالْعَدُوُّ وَالظُّلْمُ.

## ◀ الإعراب

أَنْ تَبَوَّأَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) الْمَفْسَرَةُ وَ لَا يَكُونُ لَهَا مَوْضِعٌ مِنَ الْإِعْرَابِ وَ  
يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً فَتَكُونُ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ، بِأَوْحِينَا وَ الْجُمْهُورُ عَلَى  
تَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ وَ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا يَاءً وَ هِيَ مَبْدَلَةٌ مِنَ الْهَمْزَةِ تَخْفِيفًا لِقَوْلِهِمْ  
أَحَدٌ مَفْعُولِي تَبَوَّأَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْبَيُوتِ بِمِصْرٍ مُتَعَلِّقٍ بِتَبَوَّأَ أَنْ  
يَكُونَ حَالًا مِنَ الْبَيُوتِ وَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ قَوْمِكُمْ وَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ  
الْفَاعِلِ فِي تَبَوَّأَ فَلَا يُؤْمِنُوا فِي مَوْضِعِهِ وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: النَّصَبُ وَ فِيهِ وَجِهَانُ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى لِيُضِلُّوا.

الثَّانِي: هُوَ جَوَابُ الدَّعَاءِ فِي قَوْلِهِ وَ أَطْمَسَ وَ أَشَدَّدَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: مَوْضِعُهُ جَزَمَ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الدَّعَاءُ كَمَا تَقُولُ لَا تَعَذِّبْنِي وَ لَا  
تَتَّبِعَانَّ يَقْرَأُ بِتَشْدِيدِ النَّوْنِ وَ النَّوْنُ لِلتَّوَكِيدِ وَ يَقْرَأُ بِتَخْفِيفِ النَّوْنِ وَ كَسَرِهَا وَ  
جَاوَزْنَا بَيْتَ إِسْرَآئِيلَ الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ مِثْلُ الْهَمْزَةِ بَغِيًّا وَ عَدُوًّا مَفْعُولٌ مِنْ أَجَلِهِ أَوْ  
مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَلَّا نَ الْعَامِلُ فِيهِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ، أَتُؤْمِنُ الْآنَ بِبَيْدَتِكَ  
فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيِ عَارِيًّا مُبَوَّأً صِدْقٍ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا وَ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا.



## ◀ التفسير

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

التَّوَكَّلِ التَّوَكَّلُ بِأَسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ وَالْوَكَالَةِ عَقْدُ الْأَمْرِ لِمَنْ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ مَالِكِهِ وَحَيْثُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمْلَكَ بِالْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ فَهُمْ أَحَقُّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَأَنَّ التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ يُوجِبُ النِّجَاةَ مِنْ كُلِّ مُحْذُورٍ وَالْفَوْزَ بِكُلِّ سُرُورٍ وَلِذَلِكَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ أَيَّ صَدَقْتُمْ بِتَوْحِيدِهِ وَاقْعَا فَعَلِيهِ أَيَّ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا فِي جَمِيعِ شُؤْنِكُمْ أَنَّ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أَيَّ مُطِيعِينَ مُنْقَادِينَ لَهُ تَعَالَى وَ قَدْ مَرَّ مَرَاراً أَنَّ الْإِيمَانَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِعْتِقَادِ بِالْجَنَانِ وَالْإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ وَالْعَمَلُ بِالْأَرْكَانِ وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَهُوَ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَقَطْ وَلِذَلِكَ يَكُونُ الْإِيمَانُ أَعَمُّ مِنَ الْإِسْلَامِ فَكُلُّ مُسْلِمٍ وَلَيْسَ كُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ مُؤْمِناً إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ قَوْلُهُ: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ يَكْفِي فِي الْمَقَامِ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ بَعْدَهُ.

وَالْجَوَابُ أَنَّ قَوْلَهُ: مُسْلِمِينَ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِسْلَامُ الْمَصْطَلَحُ أَعْنِي الْإِقْرَارَ بِالشَّهَادَتَيْنِ لِأَنَّهُ مُوجُودٌ فِي الْإِيمَانِ بَلِ الْمُرَادُ بِهِ التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ الْخ.

وَمَقَامُ التَّسْلِيمِ مِنْ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ فِي طَرِيقِ السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ أَنَّ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ حَقّاً وَكُنْتُمْ مِنَ الْمُطِيعِينَ الْمُنْقَادِينَ لَهُ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُنْقَادَ لَهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ يَكُونُ فِي مَقَامِ التَّسْلِيمِ لَا مُحَالَةَ وَلَا نَعْنِي بِالتَّوَكُّلِ إِلَّا إِكْبَالَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ أَتَى بِفَاءِ التَّفْرِيعِ وَقَالَ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَلَمْ يَقُلْ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا أَيَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ فُرُوعِ الْإِيمَانِ وَالتَّسْلِيمِ فَمَنْ لَا يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ لَا يَكُونُ مُؤْمِناً مُطِيعاً حَقّاً وَإِنَّمَا خَاطَبَهُمْ بِذَلِكَ حِينَ اشْتَدَّ خَوْفُهُمْ مِمَّا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ فِرْعَوْنُ مِنْ قَتْلِ الْآبَاءِ وَذَبْحِ الذَّرِيَّةِ.

قال بعض المفسرين علّق توكلهم على شرطين متقدّم ومتأخر ومتى كان الشرطان لا يترتبان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدّماً عليه فالإسلام هو الإنقياد للتكاليف الصادرة من الله وإظهار الخضوع وترك التمرد والإيمان عرفان القلب بالله تعالى وحدانيّته وسائر صفاته وأنّ ما سواه محدث تحت قهره وتدبيره وإذا حصل هذا الشرطان فوض العبد جميع أموره إليه تعالى وأعتد عليه في كلّ الأحوال إنتهى كلامه.

**فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**

يظهر من الآية أنهم أطاعوا موسى فتوكلوا على الله تعالى و سئلوا الله تعالى وقالوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي لا تجعلنا مِحْنَةً وإعتباراً لهم أي للقوم الظالمين الذين هم قوم فرعون وأختلفوا في معنى المراد بالفتنة التي أصلها البلية فقال قوم معناه لا تجعلنا فتنة بتفتير الرزق علينا و بسطه لهم و قال الرّمخشري أي موضع فتنة لهم أي عذاب يعذبوننا و يفتنون عن ديننا أو فتنة لهم يفتنون بنا و يقولون لو كان هؤلاء على الحقّ لما أصيبوا.

و قال القرطبي، أي لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين أو لا تمنحنا بأنّ تعذبنا على أيديهم و قال مجاهد المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا فيقول أعدائنا لو كانوا على حقّ لم نسلط عليهم فيفتنوا.

و قال الآخرون يعني لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خيراً منّا فيزدادوا طغياناً و كفراً الى غير ذلك من الأقوال المسطورة في التفاسير.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه وفيه وجوه:

**الأول:** أنّ المراد لا تقتن بنا فرعون و قومه لأنك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم إنا كنا على الحقّ لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قويّة في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

**الثاني:** أنك لو سلطتهم علينا لأستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة يكون فتنة لهم.

**الثالث:** لا تجعلنا فتنة لهم أي موضع فتنة لهم أي موضع عذاب لهم.

**الرابع:** أن يكون المراد من الفتنة المفتون لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والمعنى لا تجعلنا مفتونين أي لا تمكثهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن نصرف من هذا الدين الحق الذي قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله: **فَمَا أَمْنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَا لَهُمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ** (١) المطلوب الثاني في هذا الدعاء. فهو قوله تعالى: **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**.

ثم قال وأعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان إهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق إهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لأننا إن حملنا قولهم: **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** على أنهم سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعداءهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وأن حملناه على أن لا يمكن الله أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أن إهتمامهم بمصالح أديانهم فوق إهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة انتهى كلامه.

أقول هذا الكلام لا يحتاج الى هذه التأويلات الباردة السخيفة وذلك لأن معنى الكلام أعني به قوله: **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** يظهر من قوله: **عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَا لَهُمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ** (٢) فحيث كان إيمان الذرية بموسى على خوف من فرعون و ملائهم أن يفتنهم، أي يعذبهم و يبتليهم بأنواع

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

المصائب فقالوا بعد إيمانهم بموسى ربنا لا تجعلنا فتنه لفرعون و ملائه بعد إيماننا بموسى كما كنّا كذلك قبل الإيمان ففي هذا الكلام دعاء على فرعون بالمغلوبة و الإستئصال فكأنهم قالوا ربنا سلطنا على أعدائنا و لا تجعلنا مقهورين لهم ليعذبونا بأنواع العذاب.

و أنما قالوا ذلك لأن قوم موسى إستعبدهم فرعون و ملائه و قالوا لو كان لهؤلاء على الله كرامة كما يقولون و يدعون ما سلطنا عليهم و حيث قالوا ذلك قال موسى لقومه: يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنْ آلْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَي لَا تَسْلُطْهُمْ عَلَيْنَا ثَانِيًا وَ هَذَا ظَاهِر لَا خَفَاء فِيهِ

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

الوحي بفتح و سكون الحاء الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمر وحي و ذلك قد يكون بالكلام على سبيل الرمز و التعرض و قد يكون بصوت مجرد عن التركيب، و بإشارة ببعض الجوارح، و بالكتابة.

و يقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبياء و أولياء وحي و ذلك أضرب جسمًا دل عليه قوله: وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ<sup>(١)</sup>.

و ذلك أما برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل عليه السلام النبي في صورة معينة.

و أما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله.

و أما بإلقاء في الروح كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْثَ فِي

روعي.

وَأَمَّا بِالْهَامِ:

كما قال تعالى: **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا بِتَسْخِيرِ:

كقوله تعالى: **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**<sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا بِمَنَامٍ كما قال رسول الله ﷺ إنقطع الوحي و بقيت المبشرات رؤيا المؤمن.

فالإلهام و التسخير و المنام دلّ عليه قوله، إلّا وحيّاً و سماع الكلام معاينة دلّ عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**.

و تبليغ جبرائيل في صورة معينة دلّ عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ**<sup>(٣)</sup> إذا عرفت هذا فنقول.

قوله: **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ** هو هارون، كان الوحي الى موسى بواسطة جبرائيل و أمّا وحيه تعالى الى هارون فهو بواسطة جبرائيل و موسى و لذلك قدّم موسى في الكلام لأنه كان نبياً مرسلأ و هارونه كان وزيره ما دام موسى حياً و لم يكن هارون نبياً في حياة موسى.

و قيل كان شريكاً له في النبوة إلّا أنّ موسى هو الأصل فيها.

نعم لو بقى هارون بعد موسى لكان نبياً و لكنّه مات قبل موسى.

و محصّل الكلام أنّ الله تعالى أوحى الى موسى و أخيه هارون أنّ **تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ** أي إتخذالهم بمصر، بيوتاً، أي إجعلالهم بيوتاً في مصر ليسكنوا فيها و **اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** الظاهر أنّ الخطاب عامّ يشمل موسى و هارون و قومهما، أي إجعلوا جميعاً بيوتكم قبله.

و يمكن أن يقال في الكلام حذف و تقديره قولالهم إجعلوا بيوتكم قبله.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١  
المجلد الثاني

و الجواب أن الحذف خلاف الأصل إلا أن يدل عليه دليل و لا دليل عليه في المقام مضافاً الى عدم الإحتياج اليه ضرورة أن الكلام بدونه مستقيم.

قال بعض المفسرين أن فرعون كان مستولياً على بني إسرائيل خرب مساجدهم و مواضع عباداتهم و منعهم من الصلوات و كلّفهم الأعمال الشاقة وكانوا في أول أمرهم مأمورين بالصلاة في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيردوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام.

و أما قوله: قِبْلَةً معناه مصلّى، و قيل أي مسجداً، أي و أجعلوا بيوتكم مصلّى، أو مسجداً و ذلك لأنهم كانوا خائفين فأمرُوا بأن يصلّوا في بيوتهم.

والى هذا أشار بقوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ أَما قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ معناه بَشِّرْهُمْ بِالْجَنَّةِ وَ ما وعد الله من الثواب و أنواع النعم.

نقل بعض المفسرين عن ابن عباس أنه قال في الكلام حذف و التقدير أجعلوا بيوتكم قبل القبلة.

و عنه أيضاً قبل مكة و عن مجاهد أجعلوا بيوتكم مستقبل الكعبة و أنت ترى أن ما ذكره لا دليل عليه إذا لا نعلم أنهم كانوا يصلّون الى بيت المقدس أو الى الكعبة و الله أعلم.

وَ قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ زِينَةً وَ أَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ.

حكى الله تعالى في هذه الآية عن موسى أنه قال ربنا أنك آتيت فرعون و ملائته أي أتباعه و رؤوساء قومه زينةً و أموالاً في الحياة الدنيا.

و المراد بالزينة ما يتزيّن به من الحلّي و الثياب و المتاع.

و قيل المراد بها هو حسن الصورة و ليس بشئ، ربنا ليضلوا عن سبيلك، أي ليضلوا الناس عن سبيل الحق بسبب ما آتيتهم من الأموال و المتاع.

أَنْ قُلْتَ ظَاهِرَ الْكَلَامِ يَدَّلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ الْغَايَةَ فِي مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ الْإِضْلَالُ وَهَذَا يُوْهِمُ أَنَّ السَّبَّ الْأَصْلِيَّ فِي إِقْدَارِهِمْ عَلَى الْإِضْلَالِ هُوَ مَا أَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَحَيْثُ أَنَّ الزَّيْنَةَ وَالْأَمْوَالَ مِمَّا أَتَاهُمُ اللَّهُ فَهُوَ تَعَالَى فِي الْحَقِيقَةِ صَارَ سَبَبًا لِلْإِضْلَالِ وَهُوَ كَمَا تَرَى يُوجِبُ الْجَبْرَ وَالظُّلْمَ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّ عَنْهُمَا فَكَيْفَ قَالَ مُوسَى هَذَا.

قلت ليس الأمر كما ظننت و توهمت و ذلك لأن موسى أشار بكلامه هذا الى طغيانهم و إضلالهم بسوء إختيارهم بسبب الأموال و بعبارة أخرى أنه الله تعالى أتاهم ما أتاهم من الأموال ليشكروا عليها فأذن شكر المنعم واجب عقلاً إلا أنهم طغوا و تمرّدوا و عصوا بدل الشكر و ضلّوا و أضلّوا و حيث كان سبب ذلك الأموال و الأمتعة فقال ما قال أي كأن الله تعالى جعلهم في الرفاهية لأجل الإضلال لا لأجل الطاعة و الشكر ففي الكلام ذمّ قوم فرعون حيث إستفادوا من نعم الله خلاف ما كان واجباً عليهم عقلاً فهو من قبيل: قوله تعالى: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** <sup>(١)</sup>.

و من المعلوم المسلم عن الكلّ أنّ آل فرعون إتقطه ليكون لهم إبناً و ناصراً ألا ترى الى قوله تعالى بذلك:

**وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** <sup>(٢)</sup>

و الحاصل أنهم إتقطوه ليكون لهم قرّة عين الخ لا ليكون لهم عدوّاً و حزناً، إلا أنّ موسى صار في آخر الأمر عدوّاً و حزناً على خلاف ما زعموه. فمعنى الآية أنّ آل فرعون إتقطه ليكون قرّة عين لهم، و قد حصل خلاف ما زعموه و قصدوه فصار عدوّاً لهم فكأثمهم إتقطوه للعداوة و هذا من محسنات فنّ البلاغة و ما نحن فيه من هذا القبيل و سمّي اللّام بلام العاقبة.

و العجب أنَّ الرّازي إستدلّ بهذه الآية على الجبر قال هذا لفظه.  
احتج أصحابنا بهذه الآية على أنّه تعالى يضلّ الناس و يريد إضلالهم و  
تقريره من وجهين:

**الأول:** أنَّ اللّام في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام التعليل و المعنى أنَّ موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** قال يا  
رَبِّ العِزَّةِ أَنْتَ أَعْطَيْتَهُمْ هَذِهِ الزَّيْنَةَ وَ الْأَمْوَالَ لِأَجْلِ أَنْ يَضِلُّوا فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ  
تعالى قد يريد إضلال المكلفين.

**الثاني:** أنّه قال و أشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد أجبت دعوتكما و  
ذلك أيضاً يدلّ على المقصود انتهى كلامه.

و لم يعلم أنَّ اللّام ليست للتعليل بل هي لام العاقبة و الفرق بينهما واضح.  
**ثالثاً:** أنّه تعالى منزّه عن فعل القبيح و إرادة الكفر قبيحة.  
**رابعاً:** لو أراد الكفر لكان الكفار مطيعين له في كفرهم إذ لا معنى للطاعة إلّا  
الإتيان بما يوافق الإرادة و لو كانوا كذلك لَمَا إِسْتَحَقُّوا الدَّعَاءَ عَلَيْهِمْ بِطَمَسِ  
الْأَمْوَالَ وَ شَدَّ الْقُلُوبِ إِذَ الْمَفْرُوضُ أَنَّهُمْ كَانُوا مَطِيعِينَ فِي كُفْرِهِمْ.  
نقل الرّازي هذه الأجوبة عن القاضي ثمّ قال في آخر كلامه و إذ ثبت هذا  
فنقول.

وجب تأويل هذه الكلمة و ذلك من وجوه:

**الأول:** أنَّ اللّام في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام العاقبة كقوله تعالى: **فَالنَّقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ**  
**لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَ حَزَنًا** لَمَّا كَانَتْ عَاقِبَةُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ هُوَ الضَّلَالُ وَ قَدْ أَعْلَمَهُ  
الله تعالى لا جرم عبّر عن هذا المعنى بهذا اللفظ.

**الثاني:** أنَّ قوله: **رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** أي لِئَلَّا يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ  
فحذفت، لا، للدلالة المعقول عليه كقوله:

**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا<sup>(١)</sup>**.



و المراد أن لا تضلّوا، وكقوله تعالى:

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنَّا نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ <sup>(١)</sup>.

المراد لئلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير في الكلام.

**الثالث:** أن يكون موسى عليه السلام قد ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالإنكار و بالتقدير كأنك آتيهم ذلك لهذا الغرض فأنهم لا ينفقون هذه الأموال إلا فيه و كأنه قال آتيهم زينة و أموالاً لأجل أن يضلّوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الإستفهام كقول الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ غلس الظلام من الرباب خيالاً  
أراد أكذبتك فكذا هاهنا

**الرابع:** قال بعضهم هذه اللآم، لام الدّعاء و هي لام مكسورة تجزم المستقبل و يفتح بها الكلام فيقال ليغفر الله للمؤمنين و ليعذب الله الكافرين و المعنى ربّنا إبتلهم بالضلال عن سبيلك.

**الخامس:** أن هذا اللآم لام التعليل بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة.  
**السادس:** أن الضلال جاء في القرآن بمعنى الهلاك فقوله: رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عن سبيلك معناه ليهلكوا و يموتوا انتهى كلامه في المقام.

**أقول** أنه لم يقنع بما ذكره في إثبات مدّعه من الوجهين الذين مرّ ذكرهما بل شرع في الإستدلال بوجه أبسط فقال.  
**و أعلم** إنّنا قد أجبنا عن هذه الوجوه مراراً كثيرة في هذا الكتاب و لا بأس بأن نعيدها (بعضها)، في هذا المقام.

فنقول الذي يدلّ على أنّ حصول الإضلال من الله تعالى وجوه.

**الأول:** أنّ العبد لا يقصد إلّا حصول الهداية فلمّا لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذي لا يريده علمنا أنّ حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى فلو قالوا أنّه ظنّ بهذا الضلال أنّه هدى فلا جرم قد أوقعه وأدخله في الوجود فنقول.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال فثبت أن هذه الجهالات والضلالات لابد من إنتهاؤها الى جهل أول وضلال أول وذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد وتكوينه لأنه كرهه و إنما أراد ضده فوجب أن يكون من الله تعالى انتهى.

والجواب أن مجرد القصد لا يكفي في تحقق الهداية بل يجب العمل بعد القصد وهو بإختياره فقوله أن الجهل والضلال الأول لا يمكن أن يكون بإحداث العبد لا نفهم معناه إذ المفروض أن الكتاب والسنة قد بيّنا تكليف العبد فلو كان العبد مقصراً في رفعه فالذنب له.

**قال، الثاني:** أنه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حباً شديداً لا يمكنه إزالة هذا الحب عن نفسه ألبتة وكان حصول هذا الحب يوجب الإعراض عمّن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الإلتفات الى قوله وذلك يوجب الكفر فهذه الأشياء بعضها يتأدى الى البعض تأدياً على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الذي خلق الإنسان مجبولاً على حب المال والجاه انتهى.

والجواب أن حب المال والجاه لا يوجب ترك الإلتفات على سبيل اللزوم بعد أن أعطى الله العبد العقل فلو كان حب المال والجاه موجباً للكفر والضلالة على سبيل الإطلاق لكان في الأنبياء والأوصياء والأولياء أيضاً كذلك نرى خلاف ما ذكره في كثير من الناس هذا مضافاً الى أن الكفر لا فاعل له لأنه أمرٌ عديمي فالقول بأن الله خالق الكفر لا معنى له.

**قال الثالث:** وهو الحجّة الكبرى أن القدرة بالنسبة الى الضدين بالسوية فلا يترجح أحد الطرفين على الثاني إلا لمرجح وذلك المرجح ليس من العبد وإلا لعاد الكلام فيه فلا بد أن يكون من الله تعالى وإذا كان كذلك كانت الهداية والإضلال من الله تعالى انتهى.

و الجواب أَنَّ المرجَّح هو إرادة العبد قوله لعاد الكلام فيه، سفطة لأنَّ العبد و أن كانت قدرته بالنسبة الى الضدين بالسوية إلاَّ أَنَّهُ لَمَّا رَجَّح الفعل على الترك أو بالعكس لا يقال لم رَجَّح الفعل أو التَّرك لأنَّه بعقله يميِّز بين الخير و الشر و هذا هو منشأ إختياره في الأفعال الصَّادرة عنه فالقول بأنَّ الهداية و الإضلال من الله لا من العبد تحكُّم لا دليل عليه بل الدليل ثابت على عدمه فهذه الوجوه الثلاثة هي أقوى فحجَّه في المقام و أنت ترى أَنَّها أو هن من بيت العنكبوت و قد أطلال الكلام في النقض و الإبرام بما لا طائل تحته و أن أردت الوقوف على ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه: رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَ أَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أخبر الله تعالى عن موسى أَنَّهُ دعى على فرعون و ملائه فسأل الله أن يطمس على أموالهم و الطمس محو الأثر فدعى موسى عليهم بأن يقلب أحوالهم عن الإنتفاع بها لأنَّها صارت باعثة على طغيانهم و معصيتهم و أمَّا قوله و أشدد على قلوبهم، قيل معناه تبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشدَّ عليهم.

و قال القرطبي قال ابن عباس أي إمنعهم عن الإيمان، و قيل قسَّها و أطبع عليها حتَّى لا تنشرح للإيمان إنتهى قوله.

أقول ما ذكره أو نقله عن غيره غلطٌ فاحش على مذهب العدلية نعم هو على مسلك الجبر الَّذي يساوق الكفر لا كلام فيه و ذلك لأنَّ الله تعالى لو منع العبد عن الإيمان كما يقولون به فلم أرسل الرُّسل و أنزل الكتب السَّمَاوية ثمَّ أنَّ موسى كيف يدعوا عليهم بذلك و هو يدعوهم الى الإيمان، هذا كلُّه مضافاً الى أنَّ الكلام لا دلالة على ما ذكره لأنَّ قوله: وَ أَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ ليس فيه ذكرٌ من الإيمان و من المحتمل أن يكون المعنى و أشدد على قلوبهم في الإنتفاع بأموالهم كما هو مقتضى العطف و العجب من الرازي حيث قال معنى أَلشدَّ على القلوب الإستيثاق منها حتَّى لا يدخلها الإيمان ثمَّ نقل عن الرازي

أنه قال و هذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال إنتهى كلامه.

**أقول** لا نعلم من أين وجد لفظ الإيمان في الكلام حيث فسر الشّد على القلوب بعدم دخول الإيمان فيها أليس هذا من التفسير بالرأي نعوذ بالله منه ثم أن موسى عليه السلام الذي أرسل اليهم ليدعوهم الى الإيمان كيف يدعوا عليهم بشّد قلوبهم حتّى لا يدخلها الإيمان أليس هذا من التناقض الذي يحكم العقل باستحالته وأما قوله: **فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** قيل أنه معطوف على قوله: **لِيُضِلُّوا** و التقدير ربّنا ليضلّوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم و عليه فقوله: **رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ أَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ** إعتراضاً و قيل أنه جواب لقوله: **وَ أَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ** و التقدير و أطبع على قلوبهم وقسها حتّى لا يؤمنوا فأنّها تستحقّ ذلك فعلى القول الأوّل لا يكون فيه من معنى الدّعاء.

و على الثّاني فهو دعاء عليهم.

و قال القراء: هو دعاء عليهم بأن لا يؤمنوا ثمّ حكى عن قوم أن المراد بذلك الإستفهام و الإنكار كأنه قال أنك لا تفعل ذلك ليضلّوا عن سبيلك. و قيل أن قوله: **فَلَا يُؤْمِنُوا** خرج مخرج الجواب للأمر و معناه الإخبار كما يقولون أنظر الى الشمس تغرب.

و قيل أن المعنى لا يؤمنون إيمان إلحاء حتّى يروا العذاب الأليم و هم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختياراً أصلاً.

و قيل اللّام، لام كي، و أنه تعالى أعطاهم الأموال و الزينة لكي يضلّوا عقوبة و أمثال هذه الأقوال كثيرة.

و أنا أقول ما ذكروه في معنى الكلام ممّا لا يعتمد عليه و الذي نقول أن القاء للتفريع و الكلام مستأنف و ليس داخلاً في الدّعاء أصلاً إذ لا معنى لدعاء

موسى عليهم بعدم الإيمان و هو مبعوث اليهم لأجل الإيمان فالكلام خرج  
مخرج الأخبار فقط و المعنى أنهم لا يؤمنون بإختيارهم و إرادتهم حتى يروا  
العذاب الأليم في الآخرة و لا تنفعهم الدّعوة و الموعظة و التخويف و غير  
ذلك لأنغمازهم في الشّهوات و متابعتهم الأهواء و الأميال النفسانية و من كان  
كذلك فهو لا يتّبع الحقّ و لا يقبله و هو ظاهر.

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
قال أي قال الله تعالى في جواب موسى و هارون، قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا  
على فرعون و ملائه و إنّما قال تعالى: دَعْوَتُكُمَا و لم يقل دعوتك مع أنّ  
موسى كان داعياً عليهم لقوله: وَ قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ  
مَلَآءَهُ قِيلَ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ دَاعِياً مع تأمين هارون و المؤمن أيضاً داع لأنّ  
المعنى في التّأمين اللّهم اجب هذا الدّعاء و قيل لا يبعد أن يكون كلّ واحدٍ  
منهما ذكر هذا الدّعاء و إنّما خصّ موسى بالذكر تشريفاً و تعظيماً له ثمّ أمرهما  
الله تعالى بأمرين:

أحدهما: الإستقامة فقال: فَاسْتَقِيمَا.

ثانيهما: عدم متابعة الجّاهل فقال: وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
أمّا الإستقامة فالمراد بها على ما قيل الإستقامة و الثّبات على طريق الدّعوة و  
الرّسالة و قيل الإستقامة في دعائهما لفرعون و قومه على ما أمر الله به، قوله: وَ  
لَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup> أي و لا تتبعان سبيل الجاهلين أي لا  
تتبعان سبيلهم في وعدي و وعيدي فأنّه لا خلف له.

و قال ابن جريح: مكث فرعون بعد هذه الأمور أربعين سنة.  
أقول إستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم.

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ  
الْمَلَائِكَةُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ<sup>(٤)</sup>.

و الإستقامة على المنهج المستقيم صعبٌ مستصعب قال رسول الله ﷺ  
شيببني سورة هود لِمَكَانِ هذه الآية و حاصل الكلام هو أن الله تعالى  
أمرهما بالثبات و الإستقامة في طريق الدعوة الى الحق و نهاهما عن متابعة  
الذين لا يعلمون وعد الله و وعيده.

و جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا  
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو  
إِسْرَآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

المجازاة الخروج عن الحد من إحدى الجهات الأربعة، و البحر مستقر  
الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفه من كان في وسطه يقول الله تعالى: وَ  
جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ أَي أَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهُ بِأَنْ جَفَّفَ لَهُمُ الْبَحْرُ وَ  
جَعَلَهُ طَرَفًا حَتَّى جَاوَزُوا، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدُوًّا أَي كَانَتْ  
مُتَابِعَةً لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى سَبِيلِ الْبَغْيِ وَ الظُّلْمِ وَ الْبَغْيِ طَلَبُ الْإِسْتِعْلَاءِ  
بِغَيْرِ حَقٍّ وَ فِرْعَوْنُ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ مُصَادِقِ الْبَغْيِ، حَتَّى، إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، وَ  
الضَّمِيرُ فِي أَدْرَكَهُ يَرْجِعُ إِلَى فِرْعَوْنَ (قَالَ، فِرْعَوْنُ) آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي، أَي  
الْإِلَهَ الَّذِي، آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَآئِيلَ، وَ هُوَ إِلَهُ مُوسَى وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَي  
الْمُطِيعِينَ الْمُتَقَاتِلِينَ لَهُ تَعَالَى.

بَيِّنَاتُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١١

المجلد الثامن

روي أَنَّ موسى سرى بقومه متوجّهين إلى البحر و هم ستة مائة ألف و عشرون ألفاً و هم المقاتلة سوى الذرية و كان موسى على السّاقة و هارون على المقدّمة ثمّ تبعهم فرعون بجنوده و على مقدّمته هامان في ألف ألف و سبع مائة ألف كلّ رجل على حصان و على رأسه بيضة و بيده خربة أرسل فرعون في أثر موسى و قومه ألف ألف و خمس مائة ثمّ خرج فرعون خلفهم في الدّهم و كانوا مائة ألف رجل كلّ واحدٍ منهم راكباً حصاناً أدهم فكان في عسكر فرعون مئة ألف حصان أدهم و ذلك حين طلعت الشّمس و أشرقت فلما ترى الجمعان و رأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا يا موسى أين ما وعدتنا من النّصر و الظّفّر هذا البحر أماناً أن دخلناه غرقنا و فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا و لقد أودينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا فقال موسى أستعينوا بالله و أصبروا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتّقين قالوا فلما إنتهى موسى إلى البحر هاجت الرّيح ترمي بموج كالجبال فقال له يوشع بن نون يا كلّيم الله أين أمرت و قد غشيناه فرعون و أماننا البحر فقال موسى ها هنا فحاض يوشع الماء و جاز البحر يوارى حافر دابّته الماء فأوحى الله سبحانه إلى موسى أن أضرب بعصاك الحجر فأنفلق فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم فإذا خربيل واقف على فرسه لم يبتل سرجه و لا لبده و ظهر في البحر إثني عشر ظريقاً لأثني عشر سبطاً لكلّ سبطٍ طريق و أرسل الله الرّيح و الشّمس على قعر البحر حتّى صار يبساً و عن عبد الله بن سلام أنّ موسى لما إنتهى إلى البحر قال يا مَنْ كان قبل كلّ شيءٍ و المكوّن لكلّ شيءٍ و الكائن بعد كلّ شيءٍ إجعل لنا مخرجاً و عن عبد الله قال

قال رسول الله أنه قال عند ذلك اللهم لك الحمد وإليك المُشتكى وأنت المُستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فخاضت بنو إسرائيل البحر كلّ سبطٍ في طريقٍ و عن جانبيهم الماء كالجبل الضخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا و قال كلّ سبطٍ قد قتل أخواننا فأوحى الله سبحانه الى جبال الماء أن تشكي فصار الماء شبكات ينظر بعضهم الى بضعٍ و يسمع بعضهم كلام بعضهم حتى عبروا البحر سالمين و لمّا خرجت ساقّة عسكر موسى من البحر وصلت مقدّمة عسكر فرعون اليه و أراد موسى أن يعود البحر الى حاله الأولى فأوحى الله سبحانه أن أترك البحر رهواً أنهم جنود مغرقون، فلما وصل فرعون قال لقومه أنظروا الى البحر قد إنفلق لهيبتني حتى أدرك أعدائي و عبيدي و لم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرسٍ أنثى و عليه عمامة سوداء و تقدّمهم و خاض البحر و ظلّ أصحاب فرعون أنّه منهم فلما سمعت الخيول ريحها إقتحمت البحر في أثرها و جاء ميكائيل على فرسٍ خلف القوم ليشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلما أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال أني قد أتيت هذا الموضع مراراً و مالي عهدٌ بهذا الطريق (بهذه الطرق) و أني لا أؤمن أن يكون هذا مكرّاً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإمتنع و نفر حتى جاء جبرئيل على رمكة بيضاء فخاض البحر فتبعها حصان فرعون فلما توافوا في البحر و همّ أولهم بالخروج أمر الله البحر فإلتطم عليهم ففرقهم جميعاً برأى من بني إسرائيل فلما سمعت بنو إسرائيل صوت إلتطام البحر قالوا لموسى ماهذه



الوجبة فقال لهم أَنْ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ  
قَالُوا أَنْ فِرْعَوْنَ لَا يَمُوتُ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ كَانَ يَلْبِثُ كَذَا وَكَذَا يَوْمًا لَا  
يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَأَمَرَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ الْبَحْرَ  
فَأَلْقَاهُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ دَرَعَهُ حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى  
آخِرِ الْحَدِيثِ.

الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ أَي الْآنَ تَقُولُ مَا تَقُولُ وَ  
الْحَالُ أَنَّكَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ ذَلِكَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوْبَةَ  
قَبْلَ رُؤْيَا الْبَأْسِ مَقْبُولَةٌ وَأَمَّا بَعْدُهَا فَلَا.

فَعَن عِيُونَ الْأَخْبَارِ بِأَسْنَادِهِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ قُلْتُ  
لَأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَيِّ عِلَّةٍ أَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِرْعَوْنَ وَ قَدْ أَمِنَ  
بِهِ وَ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ أَمِنَ عِنْدَ رُؤْيَا الْبَأْسِ وَ الْإِيمَانَ عِنْدَ  
رُؤْيَا الْبَأْسِ غَيْرَ مَقْبُولٍ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّلَفِ وَ الْخَلْفِ قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانًا قَالُوا أَمِنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ  
مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانًا<sup>(١)</sup>.

وَلَعَلَّةٍ أُخْرَى أَغْرَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ هِيَ أَنَّهُ اسْتَغَاثَ بِمُوسَى لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ وَ  
لَمْ يَسْتَغِثْ بِاللَّهِ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَا مُوسَى لَمْ تَغْثِ فِرْعَوْنَ لِأَنَّكَ لَمْ  
تَخْلُقْهُ وَلَوْ اسْتَغَاثَ بِي لِأَعْتَهْ أَنْتَهُي.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ  
آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

قَرَأَ يَعْقُوبُ وَ قَتِيْبَةٌ نُنَجِّيكَ بِالْتَّخْفِيفِ مِنْ أَنْجِيْ يُنَجِّي وَ الْبَاقُونَ بِالْتَّشْدِيدِ  
مِنْ نَجَّى يُنَجِّي فَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ مِنْ بَابِ الْأَفْعَالِ وَ عَلَى الثَّانِي مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ  
وَ الْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَ الْبَدَنُ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَ الذَّالِّ الْمَهْمَلَةِ مُسْتَكْنٌ رُوحُ الْحَيَوَانِ عَلَى

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

صورته فَأَنَّ كُلَّ حيوانٍ له رُوحٌ و بدن و الحَيُّ في الحقيقة الرُّوح دون البدن عند قومٍ وفيه خلاف.

قال ابن عباس نَنْجِيكَ أي نلقيك بنجوة من الأرض و هي المكان المرتفع و قوله: بِبَدَنِكَ أي بجسدك و جسمك دون روحك.

و قيل أي بدرعك و كان من لؤلؤٍ منظوم لا مثال له و قيل مِنْ ذهبٍ و قيل مِنْ حديد و فيها سلاسل من ذهب و أُنْما قال ذلك لأنَّ البدن جاء بمعنى الدَّرْع القصيرة قال الشاعر:

ثرى الأبدان فيها مسبغات      على الأبطال والكلب الحصينا

يعني الدَّرُوع و قال عمرو بن معد يكرب:

أعاذل شَكَّتِي بدني وسيفي      وكلّ مقلِّصٍ سلس القياد

و كانت له درع من ذهب يعرف بها، و قيل معناه نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب و لا سلاح و ذلك أبلغ في إهانته و قيل تُخرجك صحيحاً لم يأكلك شيء من الدُّواب لِتَكُونْ لِمَنْ خَلَقَكَ الآية السَّمة و العلامة أي و لمن وراءك و هم بنو إسرائيل و كان في أنفسهم أنَّ فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق مطرحة على مَرَبْنِي إسرائيل.

و قيل معنى الكلام لِمَنْ خَلَقَكَ أي لمن يأتي بعدك من القرون، و قيل لمن بقي من قبط مصر و غيرهم و قرأ بعضهم لمن خَلَقَكَ بفتح اللام أي من الجبابة و الفراعنة ليتعظوا بذلك و يحذروا أن يصيبهم ما أصابك اذا فعلوا فعلك و معنى كونه آية، كونه عبرة يعتبر بها الأمم.

و قال بعض المفسرين معناه لمن يأتي بعدك ممَّن يراك على تلك الصَّفة و قد كنت تدَّعي الرُّبوبيَّة وقوله: وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ إشارة الى غفلة أكثر النَّاس عن آيات الله و عدم تدبُّرهم فيها فَأَنَّ آيات كثيرة و المعبرين بها قليلة قال أمير المؤمنين عليه السلام ما أَكْثَرَ الْعِبَرِ وَأَقَلَّ الْإِعْتِبَارِ و قد ذمَّ الله تعالى الغافلين من النَّاس في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: يَغْلُومُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ<sup>(٣)</sup>.

و غيرها من الآيات والسُّر في ذلك أَنَّ الْعَفْلَةَ مِنْ أَعْظَم الدَّوَاهِي فِي بَاب السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ كَمَا أَنَّ الْيَقِظَةَ مِنْ أَعْظَم السَّعَادَاتِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْيَقِظَةَ عَنْ نَوْم الْعَفْلَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْإِعْتِبَارِ عَنْ مَوَارِدِ الْعِبَرِ.

قال الله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ<sup>(٦)</sup>.

قال أمير المؤمنين عليه السلام أَيُّهَا النَّاسُ أَنْظَرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الرَّاهِدِينَ فِيهَا الصَّادِقِينَ عَنْهَا إِلَى أَنْ قَالَ فَلَا يَغْرِبُكُمْ كَثْرَةُ مَا يَعْجَبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا رَحِمَ اللَّهُ إِمْرُؤًا تَفَكَّرَ فَاِئْتَبَرَ وَ إِعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ<sup>(٧)</sup> وَ قَالَ فِي قِصَارِ الْحُكْمِ: وَ مِنْ إِعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَ مِنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ وَ مِنْ فَهَمَ عِلْمَ<sup>(٨)</sup>.

وَ قَالَ عليه السلام: وَ لَوْ إِعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ<sup>(٩)</sup>.

وَ قَالَ عليه السلام: وَ لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَ لَا يَعْتَبِرُ<sup>(١٠)</sup>.

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

٢- الأعراف = ١٤٦

٤- يوسف = ١١١

٦- آل عمران = ١٣

٨- قصار الحكم، ٢٠٨.

١٠- قصار الحكم ١٥٠

١- الزّوم = ٧

٣- النحل = ١٠٨

٥- النّازعات = ٢٦

٧- خ = ١٠٣

٩- الكتاب ٤٩

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا  
 اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا  
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لما ذكر تعالى ما جرى لفرعون وأتباعه من الهلاك ذكر ما أحسن  
 به لهم وما إمتن به عليهم اذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين  
 من فرعون فذكر الله تعالى أنه إختار لهم بعد هلاك فرعون من الأماكن أحسنها  
 والظاهر أن المراد من بني إسرائيل في الآية هم الذين كانوا آمنوا بموسى من  
 الذرية ونجوا من الغرق لا جميعهم بمقتضى سياق الآيات لقد بَوَّأْنَا، إخبار منه  
 تعالى أنه وطأ منزل بني إسرائيل وقوله: مَبُوءًا صِدْقٍ أي منزل صدق والمعنى  
 جعلناهم مكان صدق وفضل أو أنزلناهم منزلاً صالحاً مرضياً قيل هو مصر و  
 الشام وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، أي ملكانهم الأشياء اللذيذة من الأطعمة و  
 الأشربة والألبسة وغيرها.

قال القرطبي قال ابن عباس يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي ﷺ  
 من بني إسرائيل فأنهم كانوا يؤمنون بمحمدٍ و ينتظرون خروجه ثم لما خرج  
 حسدوه

أقول وأنت ترى أن هذا خلاف ظاهر الآية فأن ظاهرها يدل على أن المراد  
 من بني إسرائيل هم الذين أنجاهم الله من فرعون وبدل خوفهم أمناً.  
 فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ أي فما إختلفوا في دينهم حتى جاءهم  
 العلم أي الدليل المؤدي الى العلم من جهة الرسول والكتاب فأمن فريق وكفر  
 آخرون.

وقال صاحب الكشف فما إختلفوا في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من  
 بعد ما قرأوا التوراة وكسبو العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه وإتحاد  
 الكلمة وعلمو أن الإختلاف فيه تفرق عنه وقيل هو العلم بمحمد ﷺ و  
 إختلاف بني إسرائيل وهم أهل الكتاب إختلافهم في صفته ونعته وأنه هو أم  
 ليس بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه انتهى.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ هُوَ إخبار  
 منه تعالى بأنه الذي يتولى الفصل بين بني إسرائيل في الأمور التي يختلفون  
 فيها يوم القيامة لأنه يوم الفصل و أما الدنيا فلا يمكن زوال الاختلاف فيها لأنها  
 لم تعد له و كيف كان فالآية مشعرة بدمهم لأجل اختلافهم في دينهم بعد العلم  
 وليس ذلك إلا لحبهم الدنيا و زخارفها أعاذنا الله منه بمنه و كرمه فَأَنْ حَبَّ  
 الدُّنْيَا رَأْسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ، و أصل كل بليّة و لا سيّما في العلماء الذين قال رسول  
 الله فيهم، اذا فسد العالم فسد العالم صدق رسول الله ﷺ.



فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ  
يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ  
رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ  
مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ  
الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ  
رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى  
يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ  
أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا  
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ  
مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ  
فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ  
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ  
تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى  
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ  
الْتَذَرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ  
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ  
فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ  
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا  
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ  
فِي شكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّيْكُمْ وَ

أَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ  
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
(١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا  
يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)  
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ  
إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ  
يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ  
أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا  
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ  
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ  
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

### ◀ اللُّغَةُ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، الإِمْتِرَاءُ طلب الشك مع ظهور الدليل وهو من مري الضرع  
أي مسجد ليذر.

كَشَفْنَا أَي رَفَعْنَا.

الْخِزْي، الْخِزْي بكسر الخاء هو الهوان الذي يفضح صاحبه و يضع من  
قدره.

وَمَتَّعْنَاهُمْ أَي أَبْقَيْنَاهُمْ أَحْيَاءَ سَالِمِينَ مَمْتَعِينَ.

الرَّجَسَ بكسر الراء و سكون الجيم الرّجس الكفر و قيل الغضب و السخط.

## ◀ الإعراب

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَنْقُطِ لِأَنَّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ الْقَرْيَةُ وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْقَوْمِ.

و قِيلَ هُوَ مَصْلٌ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فَلَوْلَا كَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ، وَ قَدْ قُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنْ، إِلَّا، بِمَنْزِلَةِ غَيْرٍ وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ صِفَةً مَادًّا فِي السَّمَوَاتِ هُوَ إِسْتِفْهَامٌ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ وَالسَّمَوَاتِ الْخَبَرُ وَمَا تُعْنِي يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِسْتِفْهَامًا فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ وَأَنْ تَكُونَ نَفِيًّا كَذَلِكَ حَقًّا فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: أَنْ، كَذَلِكَ، فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ صِفَةً لِمَصْدَرٍ أَيْ مَحْذُوفٍ أَيْ إِنْجَاء كَذَلِكَ وَحَقًّا بَدَلَ مِنْهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَا مَنْصُوبَيْنِ بَيْنَجِي الَّتِي بَعْدَهُمَا.

الثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ، كَذَلِكَ، لِلأُولَى وَحَقًّا لِلثَّانِيَةِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، كَذَلِكَ، خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ أَيْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَ حَقْلٌ مَنْصُوبٌ بِمَا بَعْدَهَا.

## ◀ التفسير

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ظَاهِرَ الْآيَةِ أَنَّ الْمَخَاطَبَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا، أَيْ مِنَ الَّذِي أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، الشَّكُّ هُوَ تَوَقُّفُ النَّفْسِ فِيمَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ عَنْ إِعْتِقَادِهِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ وَ عَلَى مَا لَيْسَ بِهِ.

و قَالَ الرَّائِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ الشَّكُّ إِعْتِدَالُ النَّقِیْضَيْنِ عَنِ الْإِنْسَانِ وَ تَسَاوِيهِمَا ثُمَّ أَتَتْهُمُ اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ أَنَّهُ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

فَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ بِمَعْنَى الْفَرَضِ وَالتَّمْثِيلِ كَأَنَّهُ قِيلَ فَإِنْ وَقَعَ لَكَ شَكٌّ مِثْلًا وَ خَيَّلَ لَكَ الشَّيْطَانُ خِيَالًا مِنْهُ تَقْدِيرًا فَسَأَلَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَ قِيلَ خَوَّلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ وَ الْمَرَادُ أَمَّتُهُ.



وقيل الخطاب للسامع ممّن يجوز عليه الشك، وقيل، إن، للنفي أي فما كنت في شك فاسأل يعني لا تأمرك بالسؤال لأنك شاك و لكن لتزداد يقيناً كما إزداد إبراهيم عليه السلام بمعينة أحياء الموتى ذكر هذه الوجوه في كتابه و قد أطلال الكلام في هذا الباب الرازي في تفسيره لهذه الآية و لا نحتاج الى نقل ما ذكره و من أراد الوقوف عليه فعليه بمراجعة كتابه.

نعم إختار من تلك الوجوه وجهاً لا بأس بذكره قال بعد الوجه الثالث ما هذا لفظه.

و أقول تمام التقرير في هذا الباب أن قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فَأَفْعَلْ كَذَا و كذا قضية شرطية و القضية الشرطية لا إشعار فيها أثبتة بأن الشرط وقع أو لم يقع و لا بأن الزجاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها إلا بيان ماهية ذلك الشرط و أنها مستلزمة لماهية الجزاء فقط و الدليل عليه أنك إذا قلت أن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج و لا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا هاهنا هذه الآية تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا و كذا فأما أن هذا الشك وقع أو لم يقع فليس في الآية دلالة و الفائدة في إنزال هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله أن تكثر الدلائل و تقويتها مما يزيد في قوة اليقين و طمأنينة النفس و سكون الصدر و لهذا السبب أكثر الله تعالى في كتابه من تقرير دلائل التوحيد و النبوة انتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا غبار عليه فأما القضية الشرطية ساكتة عن وجود الشرط ليترتب عليه الجزاء و عدمه و هكذا بالنسبة الى الجزاء إذ لا وجود له إلا بعد وجود الشرط و الأحسن في تقرير الدليل هو أن يقال أن القضية الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء أي تعليق الجزاء على وجود الشرط و هذا مما لا كلام لأحد فيه إلا أن البحث في الإستلزام بمعنى أنها تستلزم إمكان وقوع الشرط بمعنى تعليق الجزاء على الشرط الممتنع لا يجوز أو لا تستلزم ذلك بل

في  
القرآن  
في  
تفسير  
الآيات



هي ساكنة عنه فالجزاء معلق على الشرط سواء أمكن وقوع الشرط أم لا وعلى هذا القول يجوز تعليق الجزاء على الشرط الذي لا يمكن وجوده أصلاً، وحيث أن القول الأول لا دليل عليه لأن لزوم تقييد الشرط بإمكان الوجود لا يساعده العقل والنقل.

أما العقل فلأن التقييد خلاف الأصل ولا يثبت إلا الدليل واذ ليس فليس.

أما النقل فلقله تعالى: **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** (١)

فإن العبادة معلقة على وجود الولد للرحمن وهو ممتنع مستحيل المعلوم أن القضية شرطية فهذا في المستحيل عقلاً.

وأما المستحيل عادة فلقله: **فَإِنْ أَسْقَطْنَاهُ لَأَخْلَفُنَّ بَوَاقِيَ مَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ فِي السَّمَاءِ فَأَتَانَهُمْ بِآيَةٍ** (٢).

نعم وقوع أن للتعلق على المستحيل قليل جداً ولكن أصل الوقوع مملاً لا كلام فيه اذا عرفت هذا فنقول:

**فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ** لا شك أنه شرطية فإن قلنا أن وجود الشك في رسول الله ممكن علق الجزاء وهو السؤال على الممكن وأن قلنا أنه محال في حقه عقلاً أو عادة، علق الجزاء على المحال وعلى التقديرين لا إشكال في الآية أصلاً والشرط صحيح أمكن وجوده أو امتنع.

**لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** قيل اللام في قوله، لقد، لام القسم، ويحتملان تكون للتأكيد.

قال صاحب الكشاف معناه فأثبت ودم على ما أنت عليه من إنتفاء المربة، أي ثبت عندك بالآيات والبراهيم القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية فلا تكونن من الممترين الشاكين.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ  
 علّق الخسران على التكذيب بآيات الله وهو كذلك لأنّ تكذيب الآيات  
 يرجع في الحقيقة الى تكذيب الله بل هو هو وأي خسرانٍ أشدّ وأفضح منه  
 قيل هو عطف على قوله فلا تكوننّ من الممترين.

قال بعضهم أنّ المراد بالخطاب غير النبي من جملة أمته من كان شاكاً في  
 نبوته قال السيد المرتضى رحمته الله في أماليه عند هذه الآية فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ إِلَى  
 آخر الآية، ظاهر الخطاب له عليه السلام والمعنى لغيره كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
 إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ <sup>(١)</sup> فَكَأَنَّهُ قَالَ يَا أَيُّهَا السَّامِعُ للقرآن في شكٍّ ممّا أنزلناه على  
 نبينا فإسأل الذين يقرأون الكتاب ثمّ قال عليه السلام وليس يمتنع عند من أمعن النظر  
 أن يكون الخطاب متوجّهاً إلى النبي عليه السلام وليس اذا كان الشكّ لا يجوز عليه لم  
 يحسن أن يقال له إن سلكت فأفعل كذا كما قال تعالى في كتابه: لَنْ أَشْرَكَكَ  
 لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ <sup>(٢)</sup> ومعلوم أنّ الشك لا يجوز عليه ولا خلاف بين العلماء في  
 أنّه داخل في ظاهر آيات الوعد والوعيد وأن كان لا يجوز أن يقع منه ما  
 يستحقّ به من العقاب وأن قيل له إن أذنبت عوقبت، فهكذا لا يمتنع أن يقال  
 له إن سلكت فافعل كذا وكذا وأن كان ممّن لا يشكّ انتهى.

أقول ما ذكره عليه السلام حقّ فإنّ الخطابات القرآنية تعمّ جميع المسلمين في ظاهر  
 الأمر وعليه فقوله: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أيضاً من هذا  
 القبيل اذ لا تدلّ الآية على وقوع التكذيب منه عليه السلام كما لا تدلّ على وجود  
 الشكّ في قوله: لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ بل تدلّ على تعليق الخسران على  
 التكذيب الذي لم يقع ولا يقع البتّة كما تدلّ على تعليق حبط العمل على  
 وجود الشكّ الذي لم يقع منه عليه السلام قطعاً فالآية المبحوثة عنها في المقام لا  
 تحتاج إلى التأويل بأنّ الخطاب له عليه السلام والمراد غيره بل هي بحالها من غير

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

تأويل و حيث أن تلك الآيات في الحقيقة من المتشابهات و قد أمرنا فيها بالتمسك بأهل البيت الذين عبّر عنهم القرآن بالرّاسخين حيث قال: **وَمَا يَعْزِمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**<sup>(١)</sup> فنذكر في ختام الكلام ما روي عنهم عليهم السّلام في هذا الباب فتقول:

عن كتاب علل الشرائع بأسناده عن محمد بن سعيد الأذخري و كان مِمَّن يصحب موسى بن محمد بن عليّ الرضا أن موسى أخبره أن يحيى بن أكثم كتب اليه يسأله عن مسائل:

أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ إِلَى آخِرِهِ مِنَ الْمُخَاطَبِ بِهَا** فإن كان المخاطب به النّبي ليس شكّ فيما أنزل الله عزّ وجلّ اليه و أن كان المخاطب غيره فعلى غيره إذا أنزل الكتاب قال موسى فسألت أخي عليّ بن محمد النقي عليه السلام عن ذلك قال عليه السلام أما قوله فإن كنت في شكّ الآية فإنّ المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله و لم يكن في شكّ ممّا أنزل الله عزّ وجلّ و لكن قالت الجهلة كيف لا يبعث إلينا نبياً من الملائكة أنّه لم يفرق بينه و بين غيره في الإستغناء عن المأكل و المشرب و المشي في الأسواق فأوحى الله عزّ وجلّ إلى مبيّه فإسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك بمحضّر من الجهلة هل بعث الله رسولا قبلك إلّا و هو يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق و لك بهم أسوة و أنّما قال و أن كنت في شكّ، و لم يكن، و لكن ليتبعهم:

قال الله تعالى: **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**<sup>(٢)</sup>.

ولو قال تعالى نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيبون للمباهلة و قد عرف أن نبيّه مؤدّ عنه رسالته و ما هو من الكاذبين و كذلك عرف النّبي أنّه صادق فيما يقول و لكن أحبّ أن ينصف من نفسه انتهى.

وبأسناده الى إبراهيم بن عمير رفعه الى أحدهما عليه السلام في قول الله عزَّ و جلَّ لنبيّه: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَا شَكَّ وَلَا أَشَكَّ انتهى.

و عن تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى السَّمَاءِ وَأُوحِيَ إِلَيْهِ فِي عَلِيٍّ مَا أُوحِيَ مِنْ شَرَفِهِ وَمِنْ عَظَمَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَرَدَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَجَمَعَ لَهُ النَّبِيِّينَ وَصَلُّوا خَلْفَهُ عَرْضَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ عَظَمِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي عَلِيٍّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ فَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا أَنْزَلْنَا فِي كِتَابِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ فَقَالَ الصَّادِق عليه السلام فَوَاللَّهِ مَا شَكَّ مَا سَأَلَ انتهى<sup>(١)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ أَيُّ أُولَ الَّذِينَ ثَبَتَ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَالْمَرَادُ بِهَا. فَقَالَ قَتَادَةُ هِيَ اللَّعْنَةُ وَالْغَضَبُ وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهَا وَعِيدُهُ بِأَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى الْعَذَابِ.

و قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ هِيَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي كُتِبَ فِي اللَّوْحِ وَأَخْبَرَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ كَفَّارًا فَلَا يَكُونُ غَيْرُهُ وَتِلْكَ كِتَابَةٌ مَعْلُومٌ لَا كِتَابَةٌ مَقْدَرٌ. وَ قَالَ الرَّازِيُّ الْمَرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ كَلِمَ اللَّهِ بِذَلِكَ وَإِخْبَارُهُ عَنْهُ وَخَلْقُهُ فِي الْعَبْدِ مَجْمُوعُ الْقُدْرَةِ وَالِدَّاعِيَةِ وَهُوَ مُوجِبٌ لِحَصُولِ ذَلِكَ الْأَمْرِ. وَ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ لَهُمْ سَخَطَهُ مِنَ الْأَزَلِ وَخَلَقَهُمْ لِعَذَابِهِ فَلَا

يؤمنون ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه الإيمان كما صنع فرعون وأشباهه وغير ذلك من الأقوال المسطورة في تفاسيرهم.

و قال البيضاوي أن الذين حَقَّتْ، أي أثبتت، عليهم كلمة ربك، بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب، لا يؤمنون.

**وأقول** وعليه فمعنى الكلمة في الآية عنده هو إخباره تعالى بموتهم على الكفر وخلودهم في العذاب ويرجع هذا إلى حكمه تعالى على العبد بالإيمان أو الكفر فإن كان كذلك فهو الجبر بعينه وأن كان المراد بإخباره أو حكمه بأنه كذا وكذا هو علمه تعالى بأنه سيصير إلى الكفر أو إلى الإيمان بإختياره وإرادته فهو حق لكنهم لم يريدوا ذلك بل مرادهم قضاء تعالى على العبد بالكفر والإيمان قضاءً لازماً كما صرح به الرازي وغيره من الأشاعرة والحق أن الكلمة في الآية بمعنى ما وعد الله به وأخبر عنه بالثواب والعقاب والكفر والإيمان وذلك لأن وعده حق ثابت لا خلف له ومن أصدق من الله قيلاً.

قال الله تعالى: **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **أَقْمَنْ حَقٌّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَقَانَتْ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** <sup>(٣)</sup> والآيات

كثيرة.

و من المعلوم أنَّ الوعد اذا كان عن علم بعاقبة الأمر لا يكون إلا حقاً فمعنى وعده تعالى هو علمه بما يرجع الأمر بالأخرة اليه لا حكمه و قضاءه بأنه لا بد من وقوعه و اذا كان كذلك فقولهُ: **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ** معناه أنَّ الذين ثبت و تحقق في علم الله عدم إيمانهم فهم لا يؤمنون قطعاً لإستحالة تخلف العلم عن المعلوم في حق من هو عالم بالسرائر و العواقب و هذا ممَّا لا كلام لنا فيه لأنَّه لا ينافي الإختيار في حق العبد و أنَّه بإختياره و إرادته يكون كافراً.

و قد ثبت عند المحصلين أنَّ العلم كاشف عن المعلوم لا أنَّه علَّة لوجود المعلوم و الى هذه الدققة أشار الله تعالى بقوله: **وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** كلمة **لَوْ** و صليَّة أي أنَّهم لا يؤمنون و إن جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم في الأخرة أي لا تنفعهم الموعظة و لا التهديد التَّريغيب و لا غير ذلك كما لا تنفعهم الآيات و العلامات الدالة على التَّوحيد و النبوة و هم الذين قال الله فيهم **ذُرُّهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** <sup>(٤)</sup>.

**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنْتَ فَتَقَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا أَمْنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**

معنى لولا (هَلَا) و هي تستعمل على وجهين:

**أحدهما:** على وجه التخصيص.

فيه الترقان في تفسير القرآن



٢- الزمر = ١٩

٤- الانعام = ٩١

١- الزمر = ٧١

٣- غافر = ٦

**الثاني:** على وجه التأنيب كقولك، هلاً يأتي زيد بحاجتك، و قولك، هلاً، إمتنعت من الفساد الذي رغبت اليه و هى في المقام تحضيضية لا تأنيبية و لذلك صاحبها التوبيخ فهي بمعنى هلاً و التحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحض عليه و اذا كانت للتوبيخ فلا يريد المتكلم الحض على ذلك الشيء كقول الشاعر:

تعدون عقر الثيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمي المقنعا  
لم يقصد حصهم على عقر الكمي المقنع و فى الآية ونجهم على ترك  
الإيمان النافع فالمعنى، فهلاً أمن أهل القرية و هم على مهل لم يلتبس العذاب  
بهم فيكون الإيمان نافعا لهم في هذه الحال و قوم، منصوب على الإستثناء  
المنقطع اذ ليسوا مندرجين تحت لفظ القرية.

و قال الزمخشري يجوز أن يكون متصلاً و الجملة في معنى النفي كأنه قيل  
ما أمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس (لما آمنوا) بالله و كشفنا عنهم  
عذاب الخزي، أي رفعناه عنهم في الحياة الدنيا و متغناهم إلى حين بعد  
توبتهم و رجوعهم عما كانوا عليه من الكفر و العناد و نحن نذكر قصتهم لتكون  
عبرة لأولي الأبواب.

فنقول روي العياشي في تفسيره عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي  
جعفر عليه السلام قال سمعته يقول وجدنا في بعض كتب أمير المؤمنين عليه السلام  
قال عليه السلام حدثني رسول الله أن جبرئيل حدثه أن يونس بن متى بعثه  
الله الى قومه و هو ابن ثلاثين سنة و كان رجلاً يعتريه الحدة و كان  
قليل الصبر على قومه و المداراة لهم عاجزاً عما حمل أوتار النبوة  
و أعلامها و أنه يفسخ عنها كما يفسخ الجذع تحت حملة و أنه أقام  
فيهم يدعوهم الى الإيمان بالله و التصديق به و إتباعه ثلاثاً و ثلاثين  
سنة فلم يؤمن به و لم يتبعه من قومه إلا رجلان إسم أحدهما  
روبيل وإسم الآخر تنوخا و كان روبيل من أهل بيت العلم و النبوة



و الحكمة و كان قديم الصُّحبة ليونس بن متى قبل أن يبعثه الله بالنبوة و كات تنوخا رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة و ليس له علم و لا حكم و كان روبييل صاحب غنم يرعاها و يتقوت منها و كان تنوخا رجلاً حطاباً يتحطب على رأسه و يأكل من كسبه و كان لرُوبييل منزلة من يُونس غير منزلة تنوخا لعلم رُوبييل و حكمته و قديم صحبته فلما رأى يونس أن قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر و عرف من نفسه قلة الصبر فشكى ذلك الى ربّه و كان فيما شكى أن قال ياربّ أنك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم الى الإيمان بك و التصديق برسالاتي و أخوّفهم عذابك و نعمتك ثلاثاً و ثلاثين سنة فكذبوني و لم يؤمنوا بي و جحدوا نبوتي و إستخفّوا برسالاتي و قد تواعدوني و خفت أن يقتلونني فأنزل عليهم عذابك فأتهم قوم لا يؤمنون قال فأوحى الله الى يونس أن فيهم الحمل و الجنين و الطفل و الشّيوخ الكبير و المرأة الضّعيفة و المستضعف المهين وأنا الحاكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك يا يونس عبادي و خلقي و برّيتي في بلادي و في عيلتي أحبّ أن أتأناهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم و أمّا بعثتك الى قومك لتكون حيطاً عليهم تعطف عليهم سخاء الرّحمة الماسّة منهم و تأناهم برأفة النُّبوة فأصبر معهم بأحلام الرّسالة و تكون لهم كهيئة الطّبيب المداوي العالم بمداواة الدّاء فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرفق ولم تسنهم بسياسة المرسلين ثمّ سألتني مع سواء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه و أحسن صحبةً و أشدّ تأنيباً في الصبر عندي و أبلغ في العذر فغضيت له حين غضب لي و أجبتّه حين دعاني.

فقال يونس يا ربّ أنما غضبت عليهم فيك و أنما دعوتُ عليهم حين غضبك فوعزّتك لا أنعطف عليهم برأفةٍ أبداً و لا أنظر اليهم بنصيحةٍ شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم أيّاي و جحد نبوّتي فأُنزل عليهم عذابك فأنّهم لا يؤمنون أبداً فقال الله يا يونس أنّهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي يعمرّون بلادي و يلدون عبادي و محبّتي أن أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم و فيك و تقديرِي و تدبيري غير علمك و تقديرِك و أنت المرسل و أنا الرّبّ الحكيم و علمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا يعلم ما منتهاه و علمك فيهم ظاهر لا باطن له يا يونس قد أجبتك ما سألت من إنزال العذاب عليهم و ما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي و لا أحمد لشأنك و سيأتيهم العذاب في سؤال يوم الأربعاء وسط الشّهر بعد طلوع الشّمس فأعلمهم بذلك قال فمَرَّ يونس و لم يسوّه و لم يدر ما عاقبته فأنطلق يونس الى تنوخا العابد فأخبر بما أوحى الله اليه من نزول العذاب على قومه في ذلك اليوم و قال له إنطلق حتّى أعلمهم بما أوحى الله إلّٰي من نزول العذاب فقال تنوخا فدعهم في غمرتهم و معصيتهم حتّى يعذبهم الله فقال له يونس بل نلقِ روبيل فنشاوره فأنّه رجل عالم حكيم من أهل بيت النبوة فأنطلقا الى روبيل فأخبره يونس بما أوحى الله اليه من نزول العذاب على قومه في سؤال يوم الأربعاء في وسط الشّهر بعد طلوع الشّمس فقال له ما ترى إنطلق بنا حتّى أعلمهم ذلك فقال له روبيل إرجع الى ربّك رجعة نبيّ حكيم و رسول كريم و أسأله أن يصرف عنهم العذاب فأنّه غثّي عن عذابهم و هو يحبّ الرّفق بعباده و ما ذلك بأضرّ لك عنده و لا أسوأ لمنزلتك لديه و لعلّ قومك بعد ما سمعت و رأيت من كفرهم و جحودهم يؤمنون يوماً فصابرهم وتأناهم فقال له تنوخا و يحك يا

رُوبِيلَ مَا أَشْرَتْ عَلَى يُونُسَ وَأَمْرَتَهُ وَأَمْرَتَهُ بَعْدَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَ  
 جُحُودِهِمْ لِنَبِيِّهِ وَ تَكْذِيبِهِمْ آيَاتِهِ وَ إِخْرَاجَهُمْ آيَاتِهِ مِنْ مَسَاكِنِهِ وَ مَا  
 هَمُّوا بِهِ مِنْ رَجْمِهِ فَقَالَ رُوبِيلُ لَتَنُوخًا أَسْكَتَ فَأَنْتَكَ رَجُلٌ عَابِدٌ لَا عِلْمَ  
 لَكَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى يُونُسَ فَقَالَ أَرَأَيْتَ يَا يُونُسَ إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَلَى  
 قَوْمِكَ أَنْزَلَهُ فِيهِلْكُمْ جَمِيعاً أَوْ يَهْلِكُ بَعْضُاً وَ يَبْقَى بَعْضٌ فَقَالَ لَهُ  
 يُونُسَ بَلْ يَهْلِكُكُمْ جَمِيعاً وَ كَذَلِكَ سَأَلْتَهُ مَا دَخَلْتَنِي لَهُمْ رَحْمَةً  
 تَعُطِفُ فَأَرَجَعَ اللَّهُ فِيهِمْ وَ أَسْأَلُهُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ فَقَالَ لَهُ رُوبِيلُ  
 أَتَدْرِي يَا يُونُسَ لَعَلَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فَأَحْسُؤا بِهِ أَنْ  
 يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَ يَسْتَغْفِرُوهُ فَيَرْحَمَهُمْ فَأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَ يَكْشِفُ  
 عَنْهُمْ الْعَذَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرْتَهُمْ عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْهَذَابَ  
 يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَتَكُونُ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ كَذَاباً فَقَالَ تَنُوخًا وَ يَحْكُ يَا رُوبِيلُ  
 لَقَدْ قُلْتَ عَظِيماً يُخْبِرُكَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ  
 يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَتَرَدَّدَ قَوْلُ اللَّهِ وَ تَشَكَّ فِيهِ وَ فِي قَوْلِ رَسُولِهِ إِذْ هَبَ فَقَدْ  
 حَبَطَ عَمَلِكَ فَقَالَ رُوبِيلُ لَتَنُوخًا لَقَدْ فَسَدَ رَأْيُكَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى يُونُسَ  
 فَقَالَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ وَالْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ فِيهِمْ عَلَى مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فِيهِمْ مِنْ  
 أَنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَ قَوْلِهِ الْحَقُّ أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهَلْكَ قَوْمُكَ  
 كُلُّهُمْ وَ خَرِبَتْ قَرْيَتُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ يَمْحُوا إِسْمَكَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَ تَبْطُلُ  
 رِسَالَتُكَ وَ تَكُونُ كِبَعْضُ الضَّعْفَاءِ وَ يَهْلِكُ عَلَى يَدَيْكَ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ  
 النَّاسِ فَأَبَى يُونُسَ أَنْ يَقْبَلَ وَصِيَّتَهُ فَأَنْطَلَقَ وَ مَعَهُ تَنُوخًا إِلَى قَوْمِهِ  
 فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ مَنَزَّلَ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فِي  
 شَوَّالٍ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَرَدُّوا إِلَيْهِ (عَلَيْهِ) قَوْلُهُ وَ  
 كَذَّبُوهُ وَ أَخْرَجُوهُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ إِخْرَاجاً عَنِيفاً فَخَرَجَ يُونُسَ وَ مَعَهُ  
 تَنُوخًا مِنَ الْقَرْيَةِ وَ تَنَحَّى عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ وَ أَقَامَا يَنْظُرَانِ الْعَذَابَ وَ  
 أَقَامَ رُوبِيلُ مَعَ قَوْمِهِ فِي قَرْيَتِهِمْ حَتَّى إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَوَّالٌ صَرَخَ

رُوبِيلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى الْقَوْمِ أَنَا رُوبِيلُ الشَّفِيقِ عَلَيْكُمْ الرَّحِيمِ بِكُمْ إِلَيَّ رَبِّهِ قَدْ أَنْكَرْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ هَذَا سُؤَالَ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ أَخْبَرَكُمْ يُونُسَ نَبِيِّكُمْ وَرَسُولَ رَبِّكُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ فِي سُؤَالَ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ رَسَلَهُ فَأَنْظَرُوا مَاذَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ فَأَفْزَعَهُمْ كَلَامُهُ فَوْقَ فِي قُلُوبِهِمْ تَحْقِيقَ نَزُولِ الْعَذَابِ فَأَجْفَلُوا (أَسْرَعُوا) نَحْوَ رُوبِيلِ وَقَالُوا لَهُ مَاذَا أَنْتَ مُشِيرٌ بِهِ عَلَيْنَا يَا رُوبِيلُ فَأَنْتَ رَجُلٌ عَالِمٌ حَكِيمٌ لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُكَ بِالرَّحْمَةِ عَلَيْنَا وَالرَّحْمَةُ لَنَا وَقَدْ بَلَّغْنَا مَا أَشْرَتْ بِهِ عَلَيَّ يُونُسَ فَمَرْنَا بِأَمْرِكَ وَأَشْرْنَا بِرَأْيِكَ فَقَالَ لَهُمْ رُوبِيلُ فَأَنْتَ أَرَى لَكُمْ وَأَشْرَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْظُرُوا وَتَعْمَدُوا وَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ أَنْ تَعْزِلُوا الْأَطْفَالَ عَنْ الْأُمَمَاتِ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ فِي طَرِيقِ الْأَوْدِيَةِ وَتَقْفُوا النِّسَاءَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَيَكُونُ هَذَا كُلُّهُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَعَجَّوْا عَجِيجَ الْكَبِيرِ مِنْكُمْ وَالصَّغِيرِ بِالصَّارِخِ وَالْبَكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ وَالِإِسْتِغْفَارِ لَهُ وَأَرْفَعُوا رُؤُسَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَقُولُوا رَبَّنَا ظَلَمْنَا وَكَذَبْنَا نَبِيَّكَ وَتَبْنَا إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَأَنْ لَا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْمَعَذِّبِينَ فَأَقْبَلَ تَوْبَتَنَا وَأَرْحَمَنَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ثُمَّ لَا تَتْلُوا مِنَ الْبَكَاءِ وَالصَّارِخِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ حَتَّى تَوَارِيَ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ أَوْ يَكْشِفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَجْمَعَ رَأْيَ الْقَوْمِ جَمِيعاً عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ رُوبِيلُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الَّذِي تَوَقَّعُوا الْعَذَابَ تَنَحَّى رُوبِيلُ عَنِ الْقَرْيَةِ حَيْثُ يَسْمَعُ صَرَخَهُمْ وَيَرَى الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَعَلَ قَوْمُ يُونُسَ مَا أَمَرَهُمْ رُوبِيلُ فَلَمَّا بَزَغَتِ الشَّمْسُ أَقْبَلَتْ رِيحٌ صَفْرَاءُ مَظْلَمَةٌ مُسْرِعَةٌ لَهَا صَرِيرٌ وَحَفِيفٌ فَلَمَّا رَأَاهَا وَعَجَّوْا

جميعاً بالصَّراخ والبكاء والتَّضرع إلى الله و تابوا إليه و أستغفروه  
و صرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمَّهاتهم و عَجَّت سخال البهائم  
تطلب الثَّدي و عَجَّت الأنعام تطلب الرِّعاف فلم يزالوا بذلك و يُونس و  
تنوحا يسمعان صيحتهم و صراخهم و يدعُونَ الله عليهم بتغليظ  
العذاب عليهم و رُويِّل في موضعه يسمع صراخهم و عجيجهم و  
يرى ما نزل و هو يدعوا الله بكشف العذاب عنهم فلمَّا أن زالت  
الشَّمس و فتحت أبواب السَّماء و غضب الرِّب تعالى رحمهم  
الرَّحمن فاستجاب دعاءهم و قبل توبتهم و أقالهم عثرتهم و أوحى  
إلى إسرَافيل أن أهبط إلى قوم يُونس فأنَّهم قد عَجَّوا إلَيَّ بالبكاء و  
التَّضرع و تابوا إلَيَّ و أستغفروني فرحمتهم و تبت عليهم و أنا  
التَّواب الرَّحيم أسرعُ إلى قبول توبة عبدي التَّائب من الذَّنوب و قد  
كان عبدي يُونس و رسولي سألني نزول العذاب على قومه و قد  
أنزلته عليهم و أنا الله أَحَقُّ من و في بعده و قد أنزلته عليهم ولم  
يكن إشرط يُونس حين سئلني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلكهم  
فأهبط إليهم فأصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي فقال إسرَافيل  
يا رَبَّ أنَّ عذابك قد بلغ أكنافهم و كادوا أن يهلكهم و ما أراه إلَّا قد  
نزل بساحتهم فإلى أين أصرفه فقال الله كلاً إنِّي قد أمرت ملائكتي  
أن يصرفوه ينزلوه عليهم حتَّى يأتِيهم أمرِي فيهم و عزيزمتي  
فأهبط يا إسرَافيل عليهم و أصرفه عنهم و أصرف به إلى الجبال  
فأذلَّها به وليَّتها حتَّى تصير ملتئمة حديداً جامداً فهبط إسرَافيل  
فنشر أجنحته فاستاق بها ذلك العذاب حتَّى ضرب بها تلك الجبال  
التي أوحى الله إليه أن يصرفه إليها.

قال أبو جعفر عليه السلام و هي الجبال التي بناحية الموصل اليوم  
فصارت حديداً إلى يوم القيامة فلمَّا رأى قوم يُونس أنَّ العذاب قد

صرف عنهم هبوطا الى منازلهم من رؤوس الجبال وضمّوا اليهم نساؤهم وأولادهم وأموالهم وحمدوا الله على ما صرف عنهم وأصبح يونس و تنوحا يوم الخميس في موضعها الذي كانا فيه لا يشكان أن العذاب قد أنزل بهم وأهلكهم جميعاً لما خفيت أصواتهم عنهما فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشمس ينظران الى ما صار اليه القوم فلما دنوا من القوم وأستقبلتهم الحطّابون والحماة والرعاة بأعناقهم ونظروا الى أهل القرية مطمئنين قال يونس لتنوحا يا تنوحا كذبني الوحي (أي بإعتقاد القوم) وكذّبت وعدي لقومي لا وعزة ربّي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذبني الوحي فأطلق يونس هارباً على وجهه مغاضباً لربه ناحية بحر، أيلة، مستنكراً فراراً من أن يراه أحد من قومه فيقول له يا كذاب فلذلك قال الله: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup> ورجع تنوحا الى القرية فلقى روبييل فقال يا تنوحا أيّ الرّأيين كان أصوب وأحقّ رأييما أو رأيك فقال له تنوحا بل رأيك كان أصوب ولقد كنت أشرت برأي العلماء والحكماء وقال تنوحا أما إنّي لم أزل أرى إنّي أفضل منك لزهدّي وفصل عبادتي حتّى إستبان فضلك لفصل علمك وما أعطاك الله من الحكمة مع التّقوى أفضل من الزّهد والعبادة بلا علم فأصطحبا فلم يزا لا مقيمين مع قومهما ومضى يونس على وجهه مغاضباً فكان من قصّته ما أخبر الله في كتابه الى قوله: فآمنوا فمتّعناهم الى حين.

قال أبو عبيدة قلت لأبي جعفر عليه السلام كم كان غاب يونس عن قومه حتّى رجع اليهم بالنبوة والرّسالة فآمنوا به وصدّقوه قال عليه السلام أربعة أسابيع منها في ذهابه الى البحر وسبعاً في بطن الحوت و

سبعاً تحت الشجرة بالعراء و سبعاً منها في رجوعه الى قومه فقلت له و ما هذه الأسابيع شهوراً وأياماً أو ساعات فقال يا أبا عبيدة أن العذاب آتاهم يوم الأربعاء في النصف من شوال و صرف عنهم من يومهم ذلك فأنطلق يونس مغاضباً فمضى يوم الخميس سبعة أيام في مسيره الى البحر و سبعة أيام في بطن الحوت و سبعة أيام تحت الشجرة بالعراء و سبعة أيام في رجوعه الى قومه فكان ذهابه و رجوعه ثمانية و عشرين يوماً ثم آتاهم فأمّنوا به و صدّقوه و أتبعوه فلذلك قال تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ.

و قد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما أظّل قوم يونس العذاب دعوا الله فصرفه عنهم قلت كيف ذلك قال عليه السلام كان في العلم أنه يصرفه عنهم إنتهى.

و عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أن يونس لما آذاه قومه دعى الله فأصبحوا أول يوم من صفر، و أصبحوا اليوم الثاني و وجوههم سود الحديث.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال و قد ذكر يوم عاشوراء، و هذا اليوم الذي تاب الله منه على قوم يونس إنتهى. و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ثقال عليه السلام لبث يونس في بطن حوت ثلاثة أيام و نادى في الظلمات ظلمة بطن الحوت و ظلمة الليل و ظلمة البحر لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ<sup>(١)</sup> فاستجاب الله له فأخرجه الحوت الى السّاحل ثم قذفه فألقاه الى السّاحل و أنبت الله عليه شجرة من يقطين و هو القرع فكان يمضّه و يستظل به و بورقه و كان تساقط شعره ورّق جلده

و كان يُونس يسيح و يذكر الله بالليل و النهار فلما أن قوى و إشتدَّ بعث الله دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثم يبست فشقَّ ذلك على يونس فظَّلَ حزيناً فأوحى الله اليه مالك حزيناً يا يُونس قال يا ربَّ هذه الشَّجرة التي كانت تنفعني سلَّطت عليها دودة فبيست قال تعالى يا يونس أحرزْتَ بشجرةٍ لم تزرعها و لم تسقها ولم تعن بها أن يبست حين إستغنيت عنها و لم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب أنَّ أهل نينوى آمنوا و اتَّقوا فأرجع اليهم الحديث.

أقول الأحاديث نقلناها عن<sup>(١)</sup> و لم نذكر جميع ما ذكره في الباب حذراً عن الإطناب إن شئت الإطلاع على أكثر ممَّا ذكرناه فعليك بمراجعة المآخذ المذكورة و غيرها من كتب الأحاديث.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

أخبر الله في هذه الآية أنه لو شاء و أراد إيمان جميع النَّاس، لأمن من في الأرض جميعاً، و ذلك لأنَّه تعالى قادر على كلِّ شيء فهو يقدر على أن يكون الخلق على الإيمان و لكنَّه لم يرد و لم يشاء ذلك قال تعالى: **إِنْ فُتِنَا نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**<sup>(٢)</sup> ففي الآية دلالة على أنَّ الله تعالى لم يشاء إيمان الجميع على سبيل القهر و أعمال القدرة لا أنَّه تعالى لم يرد و لم يشاء الإيمان أصلاً بل شاء الإيمان على سبيل الإختيار.

و من المعلوم أنَّه لا يكون في الجميع ففي الآية إخبار عن عموم قدرته و أنَّه قادر على كلِّ شيء و هو ممَّا لا كلام فيه و في قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى**

١- تفسير نور الثقلين ج ٢ و تفسير العياشي و تفسير البرهان

٢- سورة الشعراء آية ٤



يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْغِي إِكْرَاهُهُمْ عَلَيْهِ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَيْهِ  
يُرِيدُهُ لِأَنَّهُ يَنْفِي التَّكْلِيفَ وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِمَّا كَانَ يَلْحَقُهُ مِنَ التَّحْسِرِ وَ  
الْحَرَصِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ.

قال صاحب الكشف (ولو شاء ربك) مشيئة القسر والإلجاء لِأَمَنَ مَنْ فِي  
الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا عَلَى وَجْهِ الإِحَاطَةِ وَ الشُّمُولِ مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيْمَانِ  
مُطَبِّقِينَ عَلَيْهِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: أَقَانَتْ تُكْرَهُ النَّاسُ يَعْنِي  
يَقْدِرُ عَلَى إِكْرَاهِهِمْ وَ إِضْطَرَّارِهِمْ إِلَى الْإِيْمَانِ هُوَ لَا أَنْتَ وَإِبْلَاءُ الْإِسْمِ حَرْفُ  
الِاسْتِفْهَامِ لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّ الْإِكْرَاهَ مُمْكِنٌ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ وَ أَمَّا الشُّأْنُ فِي الْمَكْرَهِ مِنْ  
هُوَ، وَ مَا هُوَ إِلَّا وَحْدَهُ لَا يَشَارِكُ فِيهِ لِأَنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مَا  
يُضْطَرُّونَ عِنْدَهُ إِلَى الْإِيْمَانِ وَ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ لِلْبَشَرِ أَنْتَهَى.

و قال الرَّازِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بَيَّنَّ أَنَّ جَدَّ الرَّسُولِ فِي دُخُولِهِمْ فِي  
الْإِيْمَانِ لَا يَنْفَعُ وَ مَبَالِغَتُهُ فِي تَقْرِيرِ الدَّلَائِلِ.

و الجواب عن الشُّبُهَاتِ لَا تَفِيدُ لِأَنَّ الْإِيْمَانِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَخْلِيْقِ اللَّهِ تَعَالَى  
وَ مُشِيَّتِهِ وَ إِرْشَادِهِ وَ هِدَايَتِهِ فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَحْصُلِ الْإِيْمَانُ.

و الجواب عنه أَنَّ الْإِيْمَانِ لَوْ كَانَ بِتَخْلِيْقِ اللَّهِ وَ جَدَّ الرَّسُولِ لَا يَنْفَعُ فِيهِ فَلَا  
نَحْتَاجَ إِلَى الرَّسُولِ أَصْلًا إِذَ الْمَفْرُوضُ أَنَّ جَدَّهُ لَا يَنْفَعُ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَوْجُودُهُ  
كَالْعَدَمِ فَعَلَى اللَّهِ تَخْلِيْقِ الْإِيْمَانِ فِي قَلْبٍ مِنْ يَشَاءُ وَ هَذَا مِمَّا لَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ  
فَضْلًا عَنْ فَاضِلٍ وَ لَيْتَ شِعْرِي مَا الْمَرَادُ بِتَخْلِيْقِ الْإِيْمَانِ فِي الْعَبْدِ فَإِنْ كَانَ  
الْمَرَادُ إِلْقَاءَ الْإِيْمَانِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فَهُوَ مِمَّا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهُ مِنْ غَيْرِ رَسُولٍ لِأَنَّ  
إِلْقَاءَ الْإِيْمَانِ فِي الْقَلْبِ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَةِ الرَّسُولِ وَ أَنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهِ إِيجَادُ  
الْإِيْمَانِ فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الْمَكُونَاتِ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِهِ الْخَلْقُ.

ثُمَّ قَالَ الرَّازِي إِحْتِجَّ أَصْحَابُنَا عَلَى صَحَّةِ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ بِمُشِيَّةِ  
اللَّهِ تَعَالَى فَقَالُوا كَلِمَةً، لَوْ، تَفِيدُ إِنْتِفَاءَ الشَّيْءِ لِإِنْتِفَاءِ غَيْرِهِ فَقَوْلُهُ: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ

لَأَمِّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا يَقْتَضِي أَنَّهُ مَا حَصَلَتْ تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَمَا حَصَلَ إِيمَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَا أَرَادَ إِيمَانُ الْكُلِّ انْتَهَى.

وَأَجَابَ الْجَبَائِي عَنْهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَشِيئَةِ هُوَ مَشِيئَةُ الْإِلْجَاءِ أَيِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لَقَدَّرَ عَلَيْهِ وَلَصَّحَ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّ الصَّادِرَ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَفِيدُهُ فَائِدَةٌ.

ثُمَّ قَالَ الْجَبَائِي وَمَعْنَى إِلْجَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَيَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَعْرِضَهُمْ إِضْطِرَارًا أَنَّهُمْ لَوْ حَاولُوا تَرْكَهُ حَالَ اللَّهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَعِنْدَ هَذَا لَا يَبْدُونَ وَيَفْعَلُوا مَا أُلْجِئُوا عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ مِنْ عِلْمِ مَنْ أَنَّ حَاولَ قَتَلَ مَالِكٍ فَأَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْهُ قَهْرًا لَمْ يَكُنْ تَرْكُهُ لِذَلِكَ الْفِعْلِ سَبَبًا لِإِسْتِحْقَاقِ الْمَدْحِ وَالثَّوَابِ فَكَذَا هَاهُنَا انْتَهَى.

أَقُولُ هَذَا الْجَوَابَ قَدْ ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ إِحْتِجَاجَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ نَصَدَّيْ لِلْجَوَابِ عَنِ الْجَبَائِي.

وَقَالَ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ ضَعِيفٌ وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهِ:

**الأول:** أَنَّ الْكَافِرَانَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْكُفْرِ فَهَلْ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِيمَانِ أَوْ مَا كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ فَإِنَّ قَدْرَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِيمَانِ فَيَنْبِذُ يَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْكُفْرِ مُسْتَلْزِمَةً لِلْكَفْرِ فَإِذَا كَانَ خَالِقُ تِلْكَ الْقُدْرَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَزِمَ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِيهِ قُدْرَةً مُسْتَلْزِمَةً لِلْكَفْرِ فَوْجِبَ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ أَرَادَ مِنْهُ الْكُفْرَ إِنْ كَانَتْ الْقُدْرَةُ صَالِحَةً لِلضَّدِّينَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْقَوْمِ فَرَجْحَانِ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ عَلَى الْآخَرِ أَنْ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَلَى الْمُرْجَحِ فَقَدْ حَصَلَ الرَّجْحَانُ لَا لِمُرْجَحٍ وَهَذَا بَاطِلٌ وَإِنْ تَوَقَّفَ عَلَى الْمُرْجَحِ أَمَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَبْدِ أَوْ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ كَانَ مِنَ الْعَبْدِ عَادَ التَّقْسِيمُ فِيهِ وَلَزِمَ التَّسْلُسُ وَهُوَ مُحَالٌ وَأَنْ كَانَ مِنَ اللَّهِ فَيَكُونُ مَجْمُوعٌ تِلْكَ الْقُدْرَةُ مَعَ تِلْكَ الدَّاعِيَةِ مُوجِبًا لِذَلِكَ الْكُفْرِ فَإِذَا كَانَ خَالِقُ الْقُدْرَةِ وَالدَّاعِيَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَحِينَئِذٍ عَادَ الْإِلْزَامُ.

**الثاني:** أن قوله: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء لأن النبي ﷺ ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيد في الآخرة فبين الله تعالى أنه لا قدرة للرَسُول عليّ تحصيل هذا الإيمان ثم قال: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا** فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النافع حتّى يكون الكلام مستظماً فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والإلجاء فأنه لا يليق بهذا الموضع انتهى كلامه بألفاظه وعباراته.

و نحن نقول أمّا ما ذكره أولاً من أنّ الكافر أن كان قادراً على الكفر فهل كان قادراً على الإيمان أو ما كان قادراً عليه نقول في جوابه أنّه قادر على الإيمان أيضاً كما أنّه قادر على الكفر قوله فرجحان أحد الطرفين يحتاج الى المرجح و المرجح أمّا أن يكون من العبد أو من الله نقول أنّه من العبد قوله عاد التقسيم فيه و لزم التسلسل.

نقول المرجح موجود و هو حكم العقل برجحان أحد الطرفين على الآخر فأين التسلسل ثم أين الترجيح بلا مرجح و بعبارة أخرى التسلسل موقوف على الترجيح بلا مرجح فإذا ثبت المرجح و هو حكم العقل باختيار الأصلح فلا يلزم التسلسل هذا أن قلنا بإستحالة الترجيح بلا مرجح و نحن نقول به بل نقول لا إشكال فيه و ذلك لأنّ نفس الترجيح لأحد الطرفين على الآخر بسبب العقل مرجح و أيّ مرجح أقوى من إختيار العقل أحد الطرفين و الذي نقول بإستحالته هو الترجيح بلا مرجح و أين هذا من ذلك و حيث أنّ الرازي لم يفرق بين الترجيح و الترجّح فقال ما قال و هذا هو الذي صار منشأ لخطأه و إشتباهه و كم زلّ أقدام العلم في هذا الميلان.

و أمّا ما ذكره ثانياً في جواب الجبائي من أنّ قوله و لو شاء ربك، لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء الى آخر ما قال فطريق من الكلام و ذلك لأنّ مشيئة

اللّه لا تخلو عن الإلجاء والاختيار وبعبارة أخرى قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا** اختياراً أو إضطراراً ولا ثالث لهما فإن كان اختياراً فهو تعالى شاء وأمر به ولم يحصل الإيمان من الكل وأن كان إضطراراً بأن يضطر العبد على الإيمان فهو وأن كان قادراً عليه إلا أنه لم يشاء ولم يرد الإيمان كذلك لأن الإيمان الأضطراري لا فائدة فيه فقوله لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء شططاً من الكلام.

و محصل الكلام هو أن الله تعالى شاء الإيمان من العباد اختياراً منهم لا إضطراراً و حيث أن النبي كان حريصاً على إيمان الكل فقال تعالى تسلياً له ذلك لا يكون و لا يحصل منهم بالإختيار و لو شاء ربك لأمن من في الأرض جميعاً على سبيل الإضطرار و الإلجاء و لكنه لم يشاء و الدليل على ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** فالمعنى إنالم نكرهم عليه أفأنت تكرهمهم عليه و لو كان الإيمان من المكره مفيداً لأكرهناهم عليه ففي الآية دلالة على عدم جواز الإكراه و الإجبار في الدين و هذا هو الأصل في المقام:

قال الله تعالى: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** (١).

دلّت الآية على عدم جواز الإكراه في الدين والدين هو الإيمان:

قال الله تعالى: **أَدْخُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ** (٢).

و هو يدل على أن وظيفة النبي مجرد الدعوة الى الحق لا الإكراه و الإجبار عليه ظاهر لا خفاء فيه و ما كان لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ الإذن الأمر و كلمة، ما، نافية و المعنى ليس لنفس أن تؤمن إلا بأمر الله لها بالإيمان كما قال: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ**

الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ<sup>(١)</sup> ولا يبعد أن يكون المراد بالإذن، العلم أي لا تؤمن إلا بعلم الله و على المعنيين فالآية لا تدل على أن العبد في إيمانه لا إختيار له بل تدل على أن الإيمان مأمور به فمن أطاع الخالق آمن به و من آمن به فقد أطاعه و أن الله تعالى عالم بمن آمن به قبل إيمانه بل قبل إيجاده و أمّا قوله: وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أي يجعل العذاب على الذين لا يعقلون أو امره و نواهيه و قيل يجعل الكفر عليهم أي يحكم عليهم بالكفر و أنهم أهله ذمًا لهم.

و قال ابن عباس الرّجس الغضب و السّخط أي يجعل الله الغضب و السّخط عليهم و كيف كان فالمعنى واضح.

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ.

الخطاب للرسول و المراد جميع الأمة بل جميع الناس أمرهم الله تعالى بالنظر الى السموات و الأرض و ما فيها من عجائب الخلقة من مجي الليل و النهار و مجرى البحور و الأفلاك و الشمس و القمر و جميع الكواكب من السيارات و غيرها و نتاج الحيوان و خروج الزرع و الثمار و وقوف السموات و الأرض بغير عمادٍ و غيرها من الآيات العجيبة لأن كل ذلك تدبير يقتضي مدبراً لا يشبه الأشياء و لا تشبهه و من المعلوم أن المراد بالنظر في الآية و أشباهها ليس مجرد الرؤية بالعين بل المراد الفكر و الاعتبار.

و قال الرّماني هو طلب الشئ من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين و كلمة، ما، في قوله: مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إستفهامية و المعنى أنظروا أي شئ فيهما و أمّا قوله: وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا

فيه القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

يُؤْمِنُونَ فَقِيلَ، مَا، لِلنَّفْيِ وَالْمَعْنَى مَا يَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً يَدْفَعُ الضَّرَرَ إِذَا لَمْ يَفَكَّرُوا فِيهَا وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَا كَقَوْلِكَ وَمَا يَغْنِي عَنْكَ الْمَالُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَنْفَقْهُ فِي وَجْهِهِ.

وَقِيلَ، إِسْتَفْهَامِيَّةٌ وَالْمَعْنَى أَيُّ شَيْءٍ يَغْنِي عَنْهُمْ مِنْ إِجْتِلَابِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ إِذَا لَمْ يَسْتَدْلُوا بِهَا وَالنَّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ وَهُوَ صَاحِبُ النَّذَارَةِ وَهِيَ إِعْلَامٌ بِمَوْضِعِ الْمَخَافَةِ لِيَقَعَ بِهِ السَّلَامَةُ وَقَالَ بَعْضُهُمُ النَّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ أَمَّا مَصْدَرُ فَمَعْنَاهُ الْأَنْذَارَاتُ وَأَمَّا بِمَعْنَى مُنْذِرٍ فَمَعْنَاهُ الْمُنْذَرُونَ وَالرَّسَلُ وَفِي الْآيَةِ تَوْبِيخٌ لِحَاضِرِي رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكَيْفَ كَانَ فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ تَنْبِيهُ الْغَافِلِينَ وَكَثِيراً مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْحَضُّ عَلَى الْكُفَّارِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ<sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ<sup>(٣)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ<sup>(٤)</sup>.

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ

خَاطَبَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِلَفْظِ الْإِسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ النَّفْيُ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ لَيْسَ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِهِمْ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ أَيُّ وَقَائِعِ اللَّهِ تَعَالَى فَهَمَّ كَمَا يَقَالُ أَيَّامُ الْعَرَبِ لَوْقَاتِهَا.

قال بعض المُفسّرين أنما قابلَ بين الأيّام المنتظرة و الأيّام الماضية في وقوع العذاب و الحسرة حين لا تنفع الندامة، قل يا محمّد، لهؤلاء الكفّار فانتظروا أني معكم من المنتظرين أي إنتظروا ما وعد الله به من العقاب فأني منتظراً لنزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به و المقصود من الآية إنّا نعذبهم في المستقبل كما عذبنا من كان قبلهم في الماضي فإنّ حكم الأمثال واحد.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ.

بعدم إستحقاقهم العذاب بل يستحقّون الرّحمة لإيمانهم فكما أنّه تعالى أنجى الرّسل و المؤمنين في الأمم الماضية بعد نزول العذاب فكذلك في المستقبل فإنّ الملاك و هو الإيمان موجود فيهم أنّه تعالى خاطب نبيّه و قال:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

قيل أنّه خطاب لأهل مكّة و ظاهر الكلام أنّه خطاب لجميع المشركين و المعنى أنّ الرّسول يقول لهم إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم إنّي لا أعبد الذين تعبدون و أنتم من دون الله كائناً ما كان و لكنّ أعبدُ الله الَّذي يَتَوَقَّيْكُمْ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قيل في قوله يتوّفاكم دلالة على البدء و هو الخلق و على الإعادة فكأنّه أشار الى أنّه يعبد الله الَّذي خلقكم و يتوّفاكم و يعيدكم و كثيراً ما صرّح في القرآن بهذه الأطوار الثلاثة و كان التصريح بهذا.

الوصف لما فيه من التذكير بالموت و إرهاب النفوس به و صيرورتهم الى الله بعده فهو الجديد بأن يخاف منه و يتّقى و يعبد لا الحجارة التي تعبدونها و أمرت أن أكون من المؤمنين المصدّقين بالله الموحّدين له المفرد له بالعبادة و

قبل معناه أن كنتم في شك من ديني و ممّا عليه، أثبت أم أتركه و أوافقكم، فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال و لا تشكوا في أمري و أقطعوا عني أطماعكم و أعلموا إنّي لا أعبد الذين تعبدون من دون الله و لا أختار الضلالة على الهدى كقوله: **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** <sup>(١)</sup> إنتهى.

و قوله أمرت أن أكون أصله بأن أكون فحذف الجار.

**وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.**

هذه الآية عطف على ما قبلها والتقدير أمرت أن أكون من المؤمنين و قيل لي **أَقِمَّ وَجْهَكَ** اختلفوا في، أن، هل هي مصدرية أو تفسيرية فمن قال بأن قوله: **وَأَنْ أَقِمَّ** معمولة تقوله و، أمرت، مراعي فيها المعنى لأن معنى قوله أن يكون، كن، من المؤمنين، فتكون، أن مصدرية صلتها الأمر و قد أجاز ذلك النحويون و من قال أن الجملة المقدرة فيها معنى القول فعلى قوله تكون أن تفسيرية و المعنى إستقم للدين و لا تحدّ عنه و كنّي بذلك عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين هكذا قيل.

و قوله: **حَنِيفًا** فهو حال من الضمير في أقم أو من المفعول و أجاز الزمخشري أن تكون حالاً من الدين و الحنف هو في الأصل ميل عن الضلال الى الإستقامة كما أن الجنف بالجيم ميل عن الإستقامة الى الضلال يقال تحنّف فلان أي تحرّى طريق الإستقامة و سمّت العرب كلّ من حجّ أو اختن حنيفاً تنبيهاً على أنه في دين إبراهيم.

قال بعض المفسرين معنى الكلام، أستقم بإقبالك على ما أمرت به من القيام بأعباء النبوة و تحمّل أمر الشريعة ودعاء الخلق الى الله بوجهك إذ من أقبل على الشئ بوجهه يجمع همّته له فلم يضيع فيه، و قيل معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجه نحو الكعبة و الإقامة نصب الشئ المنافي لإضجاعه.



وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَمَعْنَاهُ وَاضِحٌ وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الشَّرْكِ الْمَنْهِي عَنْهُ فِي الْآيَةِ هُوَ الْخَفِيُّ مِنْهُ الْمَعْبُورُ عَنْهُ بِالزَّيَاءِ لِأَنَّهُ يَنَافِي الْإِحْلَاصَ فَكَأَنَّهُ قَالَ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً مُخْلِصاً، وَأَتَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرْكَ الْجَلِّيَّ كَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لَا يَكُونُ فِي النَّبِيِّ قِطْعاً.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ.

قِيلَ الْمَعْنَى، لَا تَدْعُ إِلَهًا كَمَا يَدْعُوا الْمُشْرِكُونَ الْوُثْنَ إِلَهًا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَدْعُ دَعَاءَ الْأَلْهَةِ فِي الْعِبَادَةِ بِدَعَاءِهِ وَمَعْنَى لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَا تَدْعُ غَيْرَ إِلَهًا وَأَتَمَّا قَالَ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ مَعَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ تَعَالَى لَا تَحْسُنُ وَلَا يَجُوزُ مُطْلَقاً لِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ مَمَّنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ قَبِيحَةٌ عَقْلاً فَعِبَادَةُ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ أَقْبَحُ وَأَبْعَدُ مِنَ الشَّبْهِ هَكَذَا قِيلَ وَعِنْدِي وَجْهٌ آخَرُ.

وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ إِشَارَةٌ بَلْ كُنَايَةٌ عَنْ أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ غَيْرِهِ تَعَالَى سِوَاهُ كَانَ مِنَ الْجَمَادَاتِ أَمْ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِصْصَالِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ إِلَى غَيْرِهِ.

أَمَّا الْجَمَادُ فَمَعْلُومٌ وَأَمَّا ذَوِي الْعُقُولِ مِثْلُ فِرْعَوْنَ وَنَمْرُودَ وَأَمْثَلِهِمَا فَأَتَمَّهُمْ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَاقِعاً وَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ فَأَتَمَّهُمْ عَاجِزُونَ فِي حُدُودَاتِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَأَيُّ نَفْعٍ فِي عِبَادَتِهِمْ وَأَيُّ ضَرٍّ فِي تَرْكِ عِبَادَتِهِمْ فَصَحَّ قَوْلُهُ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ كَأَنَّ مَا كَانَ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ وَبِمَا حَقَّقْنَاهُ يَنْدَفِعُ الْإِشْكَالُ الْمَشْهُورُ وَهُوَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَضُرُّ قِطْعاً فَكَيْفَ قَالَ وَلَا يَضُرُّكَ.

وَحَاصِلُ الدَّفْعِ هُوَ أَنَّ تَرْكَهَا لَا يَضُرُّكَ لَا أَنَّ فِعْلَهَا لَا يَضُرُّكَ وَلَا يَنْفَعُكَ كَيْفَ وَيَلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ إِرْتِفَاعُ التَّقْيِضِينَ وَهُوَ مُحَالٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرِّ قِطْعاً فِي صُورَةِ إِتْحَادِ الْجَهَةِ نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نَافِعاً مِنْ جِهَةٍ وَضَاراً مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ وَذَلِكَ لَأَنَّ الشَّرَّكَ مِنْ أَعْظَمِ مَصَادِقِ  
الظُّلْمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ  
عَظِيمٌ<sup>(١)</sup>.

و لا شك أنَّ من اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ فهو مشرك و كلُّ مشركٍ فهو ظالم فمن  
فعل ذلك فهو ظالمٌ و هو المطلوب.

قال المفسِّرون هذا الخطاب و أن كان متوجَّهاً الى النَّبيِّ ﷺ إلا أنَّ المراد  
به أُمَّته.

أقول ما ذكره المفسِّرون في هذه الآية و نظائرها من أنَّ الخطاب للنَّبيِّ و  
المراد أُمَّته لا نفهم معناه فأنَّ أرادوا من حملهم الآية على هذا المعنى هو  
تعليق الشرط على المحال لو كان المراد شخص الرُّسول بمعنى أنَّه يستحيل  
الشَّرْكُ من الرُّسول فنقول في جوابهم أنَّ وجود الشَّرْكِ أو إثباته له منافٍ لمقام  
رسالته مادام كونه رسولاً فهو صحيحٌ إلا أنَّ الآية ساكتة عنه بل الآية تقول أن  
فعلت كذا كنت من الظَّالِمِينَ و حيث أنَّه لم يفعل فلا يكون منهم.

و أن أراد أنَّ الشَّرْكُ محالٌ منه مع قطع النَّظر عن رسالته وعبارة أخرى هو  
في نفسه محالٌ في حَقِّه عقلاً فهو يحتاج الى الإثبات فأنَّ الشَّرْكُ من البشر من  
حيث هو هو ليس من المحالات العقلية.

نعم أنَّ الرُّسول منزَّهٌ عنه لأنَّ اللَّهَ تعالى عصمه و حفظه من كلِّ المعاصي  
مادام كونه نبياً و هو لا يدُلُّ على أنَّه في حدِّ نفسه مع قطع النَّظر عن العصمة لا  
يقدر عليه أو أنَّه محالٌ في حَقِّه فالحقُّ أنَّ هذه الآية و أمثالها خطابٌ لجميع  
النَّاسِ و لا شك أنَّ النَّبيِّ ﷺ منهم فحمل هذه الآيات على عمومها لا إشكال  
فيه.

و محصّل الكلام هو أنّ الآية حكمت و أثبتت الظلم للمشرك من أيّ شخص كان و التخصيص يحتاج الى الدليل و حيث أنّ الموضوع من أهمّ المسائل الإعتقادية و به يتّضح مقام العصمة فلا بأس بالتكلّم فيه إجمالاً اذ كثير من الناس يظنّون أنّ معنى العصمة هو عدم القدرة على العصيان و ليس كذلك فإنّ المعصوم يقدر على الذنب كغيره من البشر إلّا أنّ الله تعالى عصمه من الخطأ والزّلل.

فنقول لا شك أنّ النبي ﷺ كان معصوماً من أوّل عمره الى آخره كما هو المختار أو بعد البعثة كما ذهب اليه قوم.

أو في إبلاغه أحكام الدين فقط كما إختاره شريحة قليلة و على أيّ التقدير فالعصمة ثابتة له و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً ثمّ أنّ العصمة في العبد معناها حفظ الله إياه عن الخطأ.

قال الرّاعب في المفردات عصمة الأنبياء حفظه إياهم أوّلاً بما خصّهم من صفاء الجوهر ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة و النّفسية ثمّ بالنّصرة و تبنّت أقدامهم ثمّ بإنزال السّكينة عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتّوفيق انتهى كلامه.

و قال الآخرون العصمة في الأنبياء هو أنّ الله تعالى أعطاهم قوّة قدسيّة تمنعهم عن الخطأ و كيف كان ليس معنى العصمة عدم قدرتهم على المعصية و الخطأ اذ لو كان كذلك فلا فضل للمعصوم على غيره لأنّ المفروض أنّه لا يقدر على الخطأ و من كان كذلك فهو مجبول على الطّاعة و أن شئت قلت خلقه الله غير قادرٍ على المعصية فترك العصيان ليس بإختياره لعدم قدرته عليه كان خارجاً عن القدرة و الإختيار لا مدح فيه و لذلك نقول أنّ الأنبياء و المعصومين أفضل من الملائكة لأنّ دواعي المعصية ليست موجودة في الملائكة بخلافها في الأنبياء حيث أنّها موجودة فيهم فالملك لا يزنى مثلاً لعدم وجود الشّهوة فيه و النّبي لا يزنى مع وجودها فيه بإختياره و الفرق

واضح فمن قال أنّ المعصوم لا يعصي بمقتضى طبعه البشري لم يعرف معنى العصمة قطعاً إذا علمت هذا فالمعصوم بمقتضى طبعه البشريّ يقدر على العصيان أية معصية كانت كغيره من أفراد البشر إلاّ أنّه لا يعصي بإختياره وإرادته بسبب ما أودع الله تعالى فيه من القوة القدسية المانعة عن الخطأ أو أنّه تعالى يحفظه بأيّ نحو شاء وأراد وأما أنّه يكون مسلوب الإختيار فليس كذلك وهذا هو المستفاد من الآيات:

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ** <sup>(١)</sup>.

أي يحفظك الله عن أذاهم إياك:

قال الله تعالى: **وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ** <sup>(٣)</sup>.

دلّت الآيات على أنّ العاصم هو الله ولا عاصم في الحقيقة غيره كذلك و عليه فحمل الآيات على ظواهرها لا إشكال فيه ولا ينافي عصمة النبي حتّى نحتاج الى التكلف ونقول الآية خطاب للنبي والمراد أمته ثم أنّ الآيات بهذه المضامين في القرآن كثيرة:

قال الله تعالى: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **لِحَنِئًا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** <sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ** <sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** <sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** <sup>(٩)</sup>.

١- المائدة = ٦٧

٢- يونس = ٢٧

٣- غافر = ٣٣

٤- الزمر = ٦٥

٥- الزعد = ٣٦

٦- الكهف = ٣٨

٧- غافر = ٤٢

٨- الجن = ٢٠

٩- آل عمران = ٦٤

و أمثال هذه الآيات كثيرة و لا يمكن حمل جميعها على ما ذكره من الخطاب للنبي و المراد أمته، فقله: أَنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أَشْرِكَ بِهِ يَأْبَى عن ذلك الحمل والحاصل هو أَنه تعالى نهى جميع الخلق عن الشرك و الظلم و الكذب و الخيانة و غيرها فرق في ذلك بين المعصوم و غيره و من قال أو يقول غيره فعليه بالإثبات.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطاب للنبي ظاهراً و لجميع الناس واقعاً و المعنى أن أحل بك الضر لأنّ المس الحقيقي لا يجوز عليه تعالى لأنّ حقيقتها تكون بين الجسمين لكن لما أدخل الباء للتعدية جرى مجرى أن تقول يمسك من أمسه و أما اذا لم يتعد فيكون كقوله: مَسْنَى الضَّرِّ<sup>(١)</sup> و المماساة و المطابقة و المجامعة نظائر و ضدها المباينة، و الكشف رفع الساتر المانع من الإدراك فكأنّ الضر هاهنا ساتر يمنع من إدراك الإنسان.

قال بعض المفسرين و أتى بالضر بلفظ المس و في الخير بلفظ الإرادة فقال و أن يردك بخير، و طابق بين الضر و الخير مطابقة معنوية لا لفظية لأنّ مقابل الضر النفع و مقابل الخير الشر فجاءت لفظة الضر اللطف و أخص من لفظة الشر و جاءت لفظة الخير أتم من لفظة النفع و لفظة المس أوجز من لفظة الإرادة و أنص على الإصابة و أنسب لقوله فلا كاشف له إلا هو و لفظ الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب و في غيره و أنسب للفظ الخير و أن كان المس و الإرادة معناه الإصابة و جاء جواب، أن يمسك، بمفهي عام و إيجاب و جاء جواب، إن يردك بنفي عام لأنّ ما أراد لا يردّه رادّ لا هو و لا غيره لأنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

المجلد الثاني

إرادته قديمة لا تتغير فلذلك لم يجئ التركيب فلا رادّ له إلا هو والمُس من حث هو فعل يوقعه ويرفعه بخلاف الإرادة فأنّها صفة ذات.

و جاء، فلا رادّ لفضله، سمّي الخير فضلاً إشعاراً بأنّ الخيرات منه تعالى صادرة على سبيل الفضل والإحسان والتّفضل ثمّ اتّسع في الإخبار عن الفضل والخير فقال يصيب به من يشاء من عباده ثمّ أخبر بالصفّتين الدّالّتين على عدم المؤاخذه وهما الغفور الذي يستر ويصفح عن الذّنوب والرحيم الذي رحمته سبقت غضبه انتهى.

**أقول** المُس في الأصل يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس وكُنّي به عن النّكاح تارةً فقليل مسّها وماسّها:

قال الله تعالى: **وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** (١).

قال الله تعالى: **إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** (٢).

و في قصّة مريم:

قال الله تعالى: **أَنْتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** (٣).

و عن الجنّون أخرى:

قال الله تعالى: **الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** (٤).

و قد يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى:

قال الله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَلْتَارُ إِلَّا آيَاتًا مَعْدُودَةً** (٥).

قال الله تعالى: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** (٦).

و الآيات كثيرة اذا عرفت معنى المُس حقيقةً ومجازاً فقد علمت أنّ المُس في الآية لا يراد به معناه الحقيقي فهو كناية عن حلول الضر والأذى.

٢- الأحزاب = ٤٩

٤- البقرة = ٢٧٥

٦- القمر = ٤٨

١- البقرة = ٢٣٧

٣- آل عمران = ٤٧

٥- البقرة = ٨٠

و من المعلوم أنه لا كاشف له إلا هو تعالى و لا يقدر على رفعه غيره كما أنه اذا أراد إصابة الخير فلا راداً أي لا مانع له مما أراد فلا يقدر أحد على منعه ففي الآية إشارة بل دلالة على أن الضر والنفع بيده اذ لا مؤثر في الوجود إلا هو. أَرَزَمَةُ الْأُمُور طَرّاً بِيَدِهِ و الْكَلَّ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ مَدَدِهِ و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: يُصِيبُ بِهِ أَي بِالْخَيْرِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، قالوا المراد بالمشيئة هاهنا المصلحة و عليه فالمعنى أنه تعالى اذا رأى المصلحة في إصابة الخير الى عبده فلا يقدر أحد على صرفه عنه و هو أيضاً لا خلاف فيه لأن الخالق الموجد المالك لجميع ما سواه و هو على كلّ شيء قدير و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون قال الله تعالى وَ إِنْ يَفْسِدْ سَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(١)</sup> ثم قال تعالى: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ معناه أنه غفار لكلّ ذنب فلا يئأس من ذلك أحد في حال تكليفه و الرحيم معناه إنعامه على جميع خلقه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. أمر الله نبيه في هذه الآية أن يقول لجميع الناس قد جاءكم الحق من ربكم، و المراد به هو الذي من عمل به من العباد نجا و ضده الباطل و هو الذي من عمل به هلك فمن عمل بالحق كان حكيماً و من عمل بالباطل كان سفياً قيل المراد بالحق هاهنا هو ما أتى به النبي من القرآن و الشرائع و الأحكام و غير ذلك من الآيات والدلالات و الحق تارة يقال و يراد به ما لا سبيل للبطلان اليه و تارة يقال و يراد به الثابت الذي لا يتغير و لا يتبدل.

ثالثة: يقال و يراد به المطابق للواقع و يقابله الباطل و هو الذي لا يطابق الواقع فقوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ يطلق على جميع هذه المعاني لأن ما

أتى به النبي أعني به الدين لا سبيل للبطلان اليه فأنَّ حلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه كذلك فالدين هو الثابت الذي لا يتغير و لا يتبدل الى يوم القيامة و هو المطابق للواقع ونفس الأمر اذ لا يحتمل فيه الكذب قطعاً و لما كان كذلك فمن عمل به بإتيان الواجبات و ترك المحرمات فلا محالة يهتدي الى صراط المستقيم.

و من المعلوم أنَّ النَّفع عائدٌ الى العامل لأنَّ الإهتمام الى الكمال من أعظم المنافع و أحسن العوائد و الى ذلك المعنى أشار الله بقوله: **فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَنَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** و الدليل عليه هو أنَّ الله تعالى غني على الإطلاق لا يحتاج الى عبادة العبد اذ الإحتياج مساوٍ للإمكان و هو تعالى واجب الوجود و الرسول أيضاً لا يحتاج الى عبادة الأمة:

قال الله تعالى: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَايَا قَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**<sup>(٣)</sup>.

و الأيات في الباب كثيرة فاذا كان نفع العمل لا يعود الى الله و الى الرسول فلا محالة يعود الى العامل به و هو المطلوب.

ثم أنَّ هذا الكلام بعينه يجري فيمن لا يعمل و يعصي ربه لأنَّ الله تعالى لا تُضره معصية من عصاه و النبي كذلك اذ هو المبلغ للأحكام و الى هذا المعنى أشير بقوله: **وَمَنْ ضَلَّ فَاتَّمَا يَضِلَّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** و المقصود أنَّ العاصي بعصيانه يضر بنفسه و هو معلوم.

قال أهل السنة أنَّ الهداية و الضلال واقعان بإرادة الله تعالى من العبد و أنَّ



من حكم له في الأزل بالإهتداء فيقع ذلك و أن من حكم له بالضلال فكذلك و لا حيلة في ذلك.

وَأَنَا أَقُولُ قد مرّ نظير هذا الكلام منهم فيما مضى غير مرّة وأجبنا عنهم بما لا مزيد عليه و العجب منهم حيث لم يتدبروا في كلام الله تعالى حق التدبر فأَنَّ قوله: **فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** في الحقيقة ردُّ على مقاتلهم لأنَّ التَّاء في الإهتداء إمَّا للطلب و أمَّا للقبول.

**فعلى الأول:** معنى الكلام فمن يطلب الهداية و الرِّشاد فأنَّما طلبها لنفسه.

**على الثاني:** فمن قبل الهداية فقد قبلها لنفسه و المشهور أنَّها للطلب و على التقديرين لا يوافق الكلام مسلك الجبر و ذلك لأنَّ من حكم له في الأزل بالإهتداء فلا معنى لقوله فمن إهتدى الخ في الدنيا و ذلك لأنَّه من تحصيل الحاصل و هكذا في جانب الضلالة و من المعلوم أنَّ الإهتداء بإختيار العبد كما أنَّ الضلال بيده.

و أمَّا على ما ذهبوا اليه فهما خارجان عن قدرة العبد فلا معنى لقوله في آخر الآية و ما أنا عليكم بوكيل أليس معنى هذا الكلام أنَّ الرِّسول ليس وكيلاً عليهم ليمنعهم من إعتقاد الباطل أو يجبرهم على الحق بل يجب عليهم النَّظر لأنفسهم فمن لا إختيار له كيف ينظر لنفسه و هذا ظاهر.

**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.**  
أمر الله تعالى نبيّه بالصَّبْر و متابعة الوحي و لعلَّ المراد بالصَّبْر هو الصَّبْر على أذى المشركين في إنكارهم دعوته و إيذاءهم للنبي ﷺ باليد و اللسان و أمَّا أمره بالصَّبْر لأنَّه مفتاح الفرج و لذلك أمر الله جميع أنبياءه به فأنَّ إنكار المعاندين دعوة الأنبياء أو أذاهم لم يكن مختصاً برسول الله بل كان بجميع الأنبياء:

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا** <sup>(١)</sup>.

و فى حكاية عنهم:

قال الله تعالى: **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَذِيقُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**

**الْمُتَوَكِّلُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** <sup>(٣)</sup>.

و الآيات كثيرة و أمّا متابعة الوحي و هو إلقاء المعنى فى النفس على وجه خفى فالمراد بها واضح لا خفاء فيه اذ فى عدم متابعة الوحي يتحقق العصيان و المخالفة و النبى منزلة عنهما:

قال الله تعالى: **إِن تَبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ**

**مُسْتَقِيمٍ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** <sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** <sup>(٧)</sup>.

و محصل الكلام هو أنّ النبى فى الأحكام تابع للوحي و قوله: **حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** معناه حتى يحكم الله تعالى بينك و بين من خالفك و أذاك يوم القيامة فإنه تعالى خير الحاكمين لأنه لا يظلم أحداً يخفى عليه شيء مما فعلوه من الشرك و النفاق و العناد و إيذاء الرسول و من أمن به هذا آخر الكلام فى تفسير سورة يونس و الحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

١- إبراهيم = ١٢  
٢- سورة الأتعام آية ١٠٦  
٣- يونس = ١٥

٤- الأنعام = ٣٤  
٥- هود = ١١٥  
٦- الزخرف = ٤٣  
٧- طه = ١٣



## سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْزَكَاةُ أَكْبَرُ أَيْمَاتِهِ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ  
حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ  
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ أَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تُوبُوا  
إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ  
يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَيَّ اللَّهُ  
مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ  
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ  
يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ  
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

### اللغة

أَيَاتُهُ، الأيات جمع أية وهي العلامة.

فُصِّلَتْ، التفصيل ضد الإجمال.

أَحْكَمْتُ، الإحكام بكسر الألف مصدر قولك، أَحْكَمَ إِحْكَامًا وهو منع

الفعل عن الفساد.

جزء ١١

المجلد الثامن

خَيْرِ، الْخَيْرِ الْعَلِيمِ.

يَشْتُونَ تَقُولُ تَنْتِيهِ عَنْ كَذَا أَيْ غَطِيَتْهُ.

لِيَسْتَخْفُوا، إِلَّا سَتْخَفَاءَ طَلَبُ خَفَاءِ النَّفْسِ.

يَسْتَعْشُونَ مِنَ الْعَشِ أَيْ يَتَّعْطُونَ ثِيَابَهُمْ وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

## الإعراب

كِتَابُ أَيِ هَذَا كِتَابٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُ الرَّ.

مِنْ لَدُنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً أَيْ كَائِنٌ مِنْ لَدُنْ، وَ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا وَ الْعَامِلُ فِيهِ فُضِّلَتْ بَنِيْتُ، لَدُنْ، وَ إِنْ أَضِيفَتْ لِأَنَّ عِلَّةَ بِنَاءِهَا خُرُوجُهَا مِنْ نَظِيرِهَا فَأَنْ، لَدُنْ، بِمَعْنَى عِنْدَ، وَ لَكِنْ هِيَ مَخْصُوصَةٌ بِمَلَاصِقَةِ الشَّيْءِ وَ شِدَّةِ مَقَارِبَتِهِ وَ عِنْدَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ بَلْ هِيَ لِلْقَرِيبِ وَ مَا بَعْدَ عَنْهُ وَ بِمَعْنَى الْمَلِكِ أَلَّا تَعْبُدُوا أَيْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ فِي، أَنْ، ثَلَاثَةٌ أَوْجَهَ:

أَحَدُهَا: هِيَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ.

الثَّانِي: أَنَّهَا نَاصِبَةٌ لِلْفِعْلِ وَ عَلَى الْوَجْهِينِ مَوْضِعُهَا الرِّفْعُ تَقْدِيرُهُ، هِيَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا فَيَكُونُ مَوْضِعُهَا جَزَاءً أَوْ نَصْبًا.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنْ تَكُونَ، أَنْ، بِمَعْنَى، أَيْ، فَلَا يَكُونُ لَهَا مَوْضِعٌ وَ لَا تَعْبُدُوا نَهْيٌ وَ مِنْهُ أَيْ مِنَ اللَّهِ وَ التَّقْدِيرُ نَذِيرٌ كَائِنٌ مِنْهُ فَلَمَّا قَدَّمَهُ صَارَ حَالًا وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنَذِيرٍ وَ يَكُونُ التَّقْدِيرُ إِنَّنِي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنْ أَجْلِ عَذَابِهِ وَ أَنْ أَسْتَغْفِرُوا أَنْ، مَعْطُوفَةٌ عَلَى، أَنْ، الْأُولَى وَ هِيَ مِثْلُهَا فِيمَا ذَكَرَ إِنْ تَوَلَّوْا أَيْ يَتَوَلَّوْا يَشْتُونَ الْجُمْهُورُ عَلَى فَتْحِ الْبَاءِ وَ ضَمِّ النَّوْنِ وَ مَاضِيهِ، ثَنَى، وَ يَقْرَأُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بَضْمٌ الْبَاءِ وَ مَاضِيهِ أَثْنَى وَ هُوَ ضَعِيفٌ أَلَّا حِينَ الْعَامِلِ فِي الظَّرْفِ مَحْذُوفٌ أَيْ أَلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَسْتَخْفُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِيَعْلَمَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ◀ التفسير

## الرّ

اختلف المفسرون في هذه الحروف التي في أوائل السور والحق أنها أسماء للسور وقد مرّ الكلام فيها في البقرة كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير والمعنى هذا كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، قيل أحكمت الآيات بالأمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب.

وقيل أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحرام والحلال وقيل أحكمت آياته على وجه الجملة ثم فصلت أي بينت بذكرها آية.

أقول الإحكام الإتيان ومنع الفعل عن الفساد وقيل الإحكام النظم ومعنى قوله: **أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ** نظمت نظماً رضيعاً لا نقص فيه ولا خلل كالبناء المحكم وهو الموثق في الترتيف وعلى هذا فالهمزة في، أحكمت، ليست للتقل ولا يجوز أن تكون للتقل من حكم، بضم الكاف إذا صار حكيماً فالمعنى جعلت حكيمة كقولك تلك آيات الكتاب الحكيم على أحد التأويلين في قوله: الكتاب الحكيم.

وقيل من أحكمت الدابة إذا منعها من الجماع بوضع الحكمة عليها ومنه قول جرير:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم  
أني أخاف عليكم أن أغضبا

وقال قتادة أي أحكمت من الباطل وعن أبي قتيبة، أحكمت أي إتقنت شبه ما يحكم من الأمور المتقنة الكاملة وبهذه الصفة كان القرآن في الأول ثم فصل بتقطيعه وتبيينه في أحكامه وأمر الرسول ﷺ فثم، على بابها وهذه طريقة الإحكام والتفصيل إذ الإحكام صفة ذاتية والتفصيل أنما هو بحسب من يفصل له والكتاب أجمعه محكم مفصل والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال أنما يقالان مع ما ذكرناه بإشتراك.

و قال صاحب الكشف، ثم فصلت كما تفصل القلائد بالدلائل من دلائل التوحيد و الأحكام و المواعظ و القصص أو جعلت فصولاً سورة سورة و آية آية و فرقت في التنزيل و لم تنزل جملة واحدة أو فصل بها ما يحتاج اليه العباد أي بين و لخص و قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها في معنى ثم ليس معناها التراخي في الوقت و لكن في الحال كما تقول هي محكمه أحسن الإحكام ثم فضله أحسن التفصيل و فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل انتهى كلامه.

و أما قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ قيل معناه من لدن حكيم عليم و لعل الوجه فيه هو أن الخبر العلم بالأشياء المعلومه من جهة الخبر و قيل الخبرة بضم الخاء المعرفة ببواطن الأمر.

و قال الراغب في المفردات بعد ما نقلناه عنه، أي عالمٌ بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و قيل خبير بمعنى مخبر انتهى.

أقول و عليه فمعنى الكلام من لدن حكيم عالم بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و كيف كان فالمعنى واضح لأنه تعالى حكيمٌ خبير على جميع التقادير.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ.

قال الزمخشري قوله ألا تعبدوا، مفعول له على معنى، لئلا تعبدوا أو تكون، أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل، قال لا تعبدوا إلا الله أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذيرٌ و بشيرٌ، أي إنني لكم منه أي من الله تعالى نذيرٌ و بشيرٌ، نذيرٌ من العذاب و العقاب و بشيرٌ الى الثواب:

قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ

تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ<sup>(٢)</sup>.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

قال الله تعالى: **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ، إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** <sup>(٣)</sup>.

و الآيات الدالة على أَنَّ الرَسُولَ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ كَثِيرَةٌ وَ الْمَقْصُودُ أَنَّ تَعْبُدُوا اللَّهَ فَأَتِي أَبْشِرْكُمْ بِالثَّوَابِ وَ أَنْ تَكْفُرُوا بِهِ فَأَتِي أَنْذَرْكُمْ وَ أَخُوفْكُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَ مَا عَلَى الرَسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.

**وَ أَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**

الواو للعطف و المعنى أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ أَنْ إِسْتَغْفِرُوا وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَ أَنْ إِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ أَيْ إِرْجِعُوا إِلَيْهِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ هِيَ الرُّجُوعُ يُقَالُ تَابَ عَنْ ذَنْبِهِ إِذَا رَجَعَ عَنْهُ فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِيخْتَلَفُوا فِي مَتَاعِ الْحَسَنِ قِيلَ هُوَ الرِّضَا فِي الْمِسُورِ وَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَقْدُورِ.

و قيل هو حسن العمل و قطع الأمل.

و قيل هو النعمة الكافية مع الصحة و العافية.

و قيل هو الجلال الذي لا طلب فيه و لا تعب.

و قيل هو لزوم القناعة و توفيق الطاعة و قوله: **إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** أَيْ مَدَّةً مُّعَيَّنَةً الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

و قال الزمخشري أَنَّهُ تَعَالَى يَطُولُ نَفْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنَافِعٍ حَسَنَةٍ مُّرْضِيَةٍ مِنْ عَيْشَةٍ وَاسِعَةٍ وَ نِعْمَةٍ مُّتَابَعَةٍ وَ أَنَّمَا وَصَفَ الْمَتَاعَ بِالْحَسَنِ لِطَيْبِ عَيْشِ الْمُؤْمِنِ بِرَجَاءِهِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ فِي ثَوَابِهِ وَ فَرَحِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَفْرُوضَاتِهِ وَ



السُّرُورَ بِمَوَاعِيدِهِ وَ الْكَافِرَ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَ الْاجَلَ الْمَسْمُى قَبْلَ هُوَ أَجَلَ الْمَوْتِ وَ قَبْلَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَ قَالَ الرَّمُخْشَرِي إِلَى أَنْ يَتَوَفَّاكُمْ وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أَيَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْطِي فِي الْآخِرَةِ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فِي الْعَمَلِ.

وَ الْحَقُّ أَنَّهُ تَرْغِيبٌ فِي الْعَمَلِ لِأَنَّهُ عَلَى مَقْدَارِهِ يَجَازِي صَاحِبَهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

وَ إِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ وَ التَّقْدِيرَ، وَأَنْ تَتَوَلَّوْا، إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ لِلتَّضْعِيفِ وَ لَذَلِكَ شَدَّدَهُ إِبْنُ كَثِيرٍ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ، فَقُلْ أَنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَصَفَ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِالْكَبِيرِ لِعَظَمِ مَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَ الْمَجَازَاتِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ.

أَقُولُ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ عَلَى بَابِهِ وَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْغَائِبِينَ الْمَاضِينَ وَ التَّقْدِيرَ قَبْلَ لَهُمْ أَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

المرجع المصير الى مثل الحال الأولى و قد ثبت أن كل شيء يرجع الى أصله:

قال الله تعالى: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنِّي إِلَى رَبِّكَ أَلْمُجِعُ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا نَرْجِعُكُمْ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَلْمُؤْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** <sup>(٥)</sup>.

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

٢- العلق = ٨

٤- الأنعام = ٣٦

١- البقرة = ١٥٦

٣- مريم = ٢٠

٥- هود = ١٢٣

قال الله تعالى: **وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** <sup>(١)</sup>.

و في هذه الآية إشارة الى أمرين:

**أحدهما:** أن الرجوع اليه.

**الثاني:** أنه تعالى قادر على كل شيء.

**أما الأمر الأول:** فهو من المسلّمات بل من البديهيات فإن المخلوق تحت قدرة الخالق و حيث أن الخالق خلق الخلق و أوجدهم فلا يمكن للخلق الفرار من حكومته.

**أما الأمر الثاني:** و هو عموم قدرته فهو أيضاً ثابت عقلاً و نقلاً.

**أما نقلاً** فالآيات و الأخبار الواردة في الباب.

**أما عقلاً** فلأنه لو لم يكن قادراً على كل شيء فلا محالة يكون قادراً على بعض دون بعض و معنى عدم قدرته في البعض يرجع الى ضعفه و عجزه و العجز نقص و عيب فإن كل ناقص فهو داخل في سلسلة الممكنات و المفروض أنه تعالى واجب الوجود فكيف يكون عاجزاً ناقصاً.

**ثانياً:** أنه محتاج في رفع نقصه الى غيره و كل محتاج فهو مخلوق فرضناه خالقاً فهو تعالى قادر على كل شيء عالم بكل شيء محيط بكل شيء فقدرته تتعلق بكل مقدور كما أن علمه يتعلق بكل معلوم و هو ممّا لا كلام فيه عند المحققين.

**أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ**

أي يشنونها و يمدحونها على عداوة النبي و قيل على الكفر و قيل أنهم يشنون صدورهم على ما كانوا عليه من النفاق و المال واحد.

قيل نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله و يحلف أنه ليحبه و يضمّر خلاف ما يظهر و قوله ليستخفوا منه، فالإستخفاء طلب خفاء

النفس و نظيره إستغشى والهاء في منه ترجع الى إسم الله أي ليستخفوا ما في صدورهم و ضمائرهم من الله.

وقيل عائدة الى الرسول أي ليستخفوا عن الرسول و لم يعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية و الرسول أيضاً كذلك بإذن الله تعالى.

أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ معناه أنهم كانوا يتغطون ثيابهم ثم يتفاوضون ما كانوا يدبرونه على النبي و على المؤمنين و يكتُمونه عن الناس فبين الله تعالى أنهم وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاً فوقهم علم بما يسرون و ما يعلنون أنه عليم بذات الصدور.

و حاصل المعنى أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهو عالم بسرائر المنافقين و ضمائرهم كما هو عالم بظواهرهم إلا أن المنافق لنفاقه يظن أنه كما يقدر على أعمال التفاف بالنسبة الى أمثاله بسبب عدم وقوفهم على ضميره كذلك يقدر على الاستخفاء لله تعالى و لرسوله و ليس كذلك.

و محصل الكلام هو أنه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم و إعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الإستخفاء:

قال الله تعالى: يَغْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تَخْفَى الصُّدُورُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُغْلِي<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ يَغْلَمُ مَا تَخْفُونَ وَ مَا تُغْلِبُونَ<sup>(٤)</sup>.

و غيرها من الآيات و الدليل عليه من العقل هو أنه تعالى لو لم يعلم شيئاً ظاهراً كان أو باطناً يلزم منه الجهل بالنسبة الى ما لا يعلم و الجهل نقص و

٢- إبراهيم = ٣٨

٤- النمل = ٢٥

١- غافر = ١٩

٣- الأحزاب = ٥٤

النقص من شئون الممكن والواجب منزّه عنه فهو تعالى عالم بجميع الأشياء  
 ظاهرها وباطنها كما أنّه قادر على جميع المقدورات وهذا أصل ثابت عقلاً و  
 شرعاً هذا آخر الكلام في الجزء الحادي عشر وبه نختم الكلام في هذا الجزء و  
 يتلوه الجزء الثاني عشر.





## الفهرست

### سورة الأنفال ..... ٩

الآيات ٤١ الى ٤٦ ..... ٩

اللغة ..... ٩

الإعراب ..... ١٠

التفسير ..... ١١

الآيات ٤٧ الى ٥٦ ..... ٣٤

اللغة ..... ٣٥

الإعراب ..... ٣٥

التفسير ..... ٣٦

الآيات ٥٧ الى ٦٥ ..... ٥٢

اللغة ..... ٥٢

الإعراب ..... ٥٣

التفسير ..... ٥٤

الآيات ٦٦ الى ٧٦ ..... ٦٧

اللغة ..... ٦٨

الإعراب ..... ٦٨

التفسير ..... ٦٩

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

## سُورَةُ التَّوْبَةِ ..... ٨٧

الآيات ١ الى ٦ ..... ٨٧

اللُّغَةُ ..... ٨٨

الإعراب ..... ٨٨

التفسير ..... ٨٩

الآيات ٧ الى ١٨ ..... ١٠٨

اللُّغَةُ ..... ١٠٩

الإعراب ..... ١٠٩

التفسير ..... ١١٠

الآيات ١٩ الى ٢٤ ..... ١٣١

اللُّغَةُ ..... ١٣١

الإعراب ..... ١٣٢

التفسير ..... ١٣٢

الآيات ٢٥ الى ٢٩ ..... ١٥٢

اللُّغَةُ ..... ١٥٢

الإعراب ..... ١٥٣

التفسير ..... ١٥٣

الآيات ٣٠ الى ٣٥ ..... ١٧٦

اللُّغَةُ ..... ١٧٦

الإعراب ..... ١٧٧

التفسير ..... ١٧٨

الآيات ٣٦ الى ٤٠ ..... ٢٠٤

اللُّغَةُ ..... ٢٠٥

٢٠٥	الإعراب.....
٢٠٦	التفسير.....
٢٤٩	الآيات ٤١ الى ٤٨.....
٢٥٠	اللغة.....
٢٥٠	الإعراب.....
٢٥٠	التفسير.....
٢٦٥	الآيات ٤٩ الى ٥٦.....
٢٦٥	اللغة.....
٢٦٦	الإعراب.....
٢٦٦	التفسير.....
٢٨١	الآيات ٥٧ الى ٦٣.....
٢٨١	اللغة.....
٢٨٢	الإعراب.....
٢٨٣	التفسير.....
٢٩٩	الآيات ٦٤ الى ٧٠.....
٣٠٠	اللغة.....
٣٠٠	الإعراب.....
٣٠١	التفسير.....
٣١٤	الآيات ٧١ الى ٧٨.....
٣١٥	اللغة.....
٣١٥	الإعراب.....
٣١٥	التفسير.....
٣٤١	الآيات ٧٩ الى ٨٥.....
٣٤٢	اللغة.....



٣٤٢ .....	الإعراب.
٣٤٣ .....	التفسير
٣٥٦ .....	الآيات ٨٦ الى ٩٣
٣٥٧ .....	اللغة
٣٥٧ .....	الإعراب.
٣٥٧ .....	التفسير
٣٧٣ .....	الآيات ٩٤ الى ٩٩
٣٧٤ .....	اللغة
٣٧٤ .....	الإعراب.
٣٧٤ .....	التفسير
٣٨٤ .....	الآيات ١٠٠ الى ١٠٦
٣٨٥ .....	اللغة
٣٨٥ .....	الإعراب.
٣٨٥ .....	التفسير
٤٠٩ .....	الآيات ١٠٧ الى ١١٢
٤١٠ .....	اللغة
٤١٠ .....	الإعراب.
٤١١ .....	التفسير
٤٢٦ .....	الآيات ١١٣ الى ١٢٠
٤٢٧ .....	اللغة
٤٢٧ .....	الإعراب.
٤٢٨ .....	التفسير
٤٥٨ .....	الآيات ١٢١ الى ١٢٩
٤٥٩ .....	اللغة

الإعراب.....	٤٥٩
التفسير.....	٤٥٩



## سُورَةُ يُونُس..... ٤٧٣

الآيات ١ الى ١٠.....	٤٧٣
اللغة.....	٤٧٤
الإعراب.....	٤٧٤
التفسير.....	٤٧٥
الآيات ١١ الى ٢٠.....	٤٩٩
اللغة.....	٥٠٠
الإعراب.....	٥٠٠
التفسير.....	٥٠١
الآيات ٢١ الى ٢٦.....	٥٢٢
اللغة.....	٥٢٣
الإعراب.....	٥٢٣
التفسير.....	٥٢٤
الآيات ٢٧ الى ٣٦.....	٥٤٠
اللغة.....	٥٤١
الإعراب.....	٥٤١
التفسير.....	٥٤٢
الآيات ٣٧ الى ٤٤.....	٥٧٠
اللغة.....	٥٧٠

الأعراب.....	٥٧١
التفسير.....	٥٧١
الآية ٤٥.....	٥٨٩
الآيات ٤٦ الى ٥٦.....	٥٩٢
اللغة.....	٥٩٣
الإعراب.....	٥٩٣
التفسير.....	٥٩٣
الآيات ٥٧ الى ٦٥.....	٦٠٧
اللغة.....	٦٠٨
الإعراب.....	٦٠٨
التفسير.....	٦٠٨
الآيات ٦٦ الى ٧٣.....	٦٢٤
اللغة.....	٦٢٥
الإعراب.....	٦٢٥
التفسير.....	٦٢٥
الآيات ٧٤ الى ٨٣.....	٦٣٦
اللغة.....	٦٣٧
الإعراب.....	٦٣٧
التفسير.....	٦٣٧
الآيات ٨٤ الى ٩٣.....	٦٤٦
اللغة.....	٦٤٧
الإعراب.....	٦٤٧
التفسير.....	٦٤٨
الآيات ٩٤ الى ١٠٩.....	٦٦٩

٦٧٠	اللغة .....
٦٧١	الإعراب .....
٦٧١	التفسير .....



## سورة هود.....٧٠٧

٧٠٧	الآيات ١ الى ٥ .....
٧٠٧	اللغة .....
٧٠٨	الإعراب .....
٧٠٩	التفسير .....

